مدارس علم النفس المتعاصرة

الفه
روبـرت ودورث

ترجمه وقدم له وعلق عليه
الدكتور كمال دسوقي

١٩٨١

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧٤٩

تقديم

لعلّ من حسنات الحركة الوضعية ، والنزعة التجريبية فى العلم الحديث — إن كان للتطور التقدمى أن يوصف بالحسن أو القبح — أن ينظر إلى تاريخ بعض العلوم التجريبية وكأنه يأخذ منذ ذلك الحين فحسب نقطة تاريخه ، وأن ينظر إلى ما سبق ذلك من الدراسات فى هذا العلم على أنه محاولات ميتافيزيقية نظرية عقيمة ؛ أولى بأن تضمها جدران المتاحف وذكريات المؤرخين .

وأنت إذا نظرت إلى تاريخ علم النفس وجدته عريقا ومحدثاً فى الآن نفسه : عريقاً لأنه يرجع إلى معلم البشرية أرسطو — الذى دون له فى كتابه عن النفس De Anima — بل إلى ما قبل ذلك فى النفس الحية hylozoïsmus التى قال بها طاليس ، وكثيراً قبل ذلك فى الأسفار والأشعار والمعتقدات الدينية ...ومحدَثاً لأنك حين تريد أن تنظر إلى علم النفس بمعناه الأصح — أعنى إلى علم النفس لا إلى مجرد النفس ، وإلى هذا العلم فى مرحلته الوضعية — يجب أن تؤرخ له بأوائل الربع الأخير — أو أواخر السنوات السبعينية — من القرن الماضى ؛ أى منذ أخذ بدوره بحركة التجريب .

ولن ينهض بنا هذا عذراً حين نظهرك على ما كان من انقسام علم النفس لأول عهده إلى شيع وأفراد ؛ فإن كثيراً من العلوم الأخرى قد مرت بهذا الدور — دور التجريب — آيسر مما مر علمنا هذا . ولكنك لا تلبث أن تُقرّنا على أن اتساع ميدان الظواهر النفسية فى الإنسان والحيوان ، والطفل والراشد ، والمريض والمجنون ؛ وتعدد الدوافع والغايات التى عساها أن تكون مبدأ أو غرضاً للسلوك الإنسانى والحيوانى فى أولئك جميعاً ؛ ثم كثرة القوى النفسية التى يجب أن ننشد فيها مصدر هذه الدوافع والغايات ؛ وكثرة المناهج التى لا يستطيع هذا العلم إلا أن يأخذ بها جميعاً ؛ وفوق هذا كله هذا التراث التقليدى العتيق الذى ورثه علم النفس عن ماضيه الفلسفى الطويل ؛ كل ذلك من شأنه أن يجعل لهذا العلم فى عهده الجديد بداية لا تخلو من تعثر ومحاولة ، وتفرق واختلاف .

وانقسمت المذاهب في علم النفس إذن إلى مدارس ، لكل منها منهجه وغايته وموضوعه من بين هذه المناهج والغايات والموضوعات ؛ تختلف فى هذه وتتفق فى تلك ، وقد تكون مختلفة فى هذه جميعاً ، ولكنها لا تتفق فيها جميعاً . وتلك هى الميزة الأولى لهذا الكتاب — من بين غيره من الكتب فى علم النفس — التى شفعت له بترجمتنا ؛ فهو وحده الذى استطاع أن يؤرخ لنا علم النفس الحديث من خلال مدارسه ، وأن يُعرّفه فى كل مدرسة منها بالخطوط العامة الرئيسية لمذهبها ، وبأهم أعلامها وباحثيها .

وقلّ إذن أن تجد لهذا الكتاب نظيراً فيما يقع لك من كتب علم النفس . فكلها أو معظمها يحاول المؤلف فيه أن يتخذ لنفسه وجهة موضوعية ؛ يتناول فيها عرضاً لمبادىء علم النفس العام ، أو لواحدة من مسائله وموضوعاته ، أو لهذه جميعاً من وجهة نظر مدرسة بعينها . وحتى إذا كان الكتاب فى تاريخ علم النفس ؛ لم يخل أن يكون إما عرضاً لتطور علم النفس تطوراً تاريخياً ؛ كتاريخ ميرفى وبورنج وبراون وفلوجل .. أو أن يكون مقالات يكتبها علماء كل مدرسة فى موضوعات خاصة بمذهبهم كسيكولوچيات ١٩٢٥ ، وسيكولوچيات ١٩٣٠ ، وكتاب العواطف والانفعالات Feelings and Emotions الذى اشترك فى تحريره أربعة وثلاثون من أئمة علماء النفس ...إلى غير ذلك من الموضوعات السيكولوچية مما تصدره مطبعة جامعة كلارك بإشراف الأساتذة مرتشيزون وبارتلت وريمرت وغيرهم ، وكذلك كتاب إليس Ellis الكبير فى علم النفس الجشطلتى .. وأخيراً بتأريخ حياة علماء النفس فى مختلف الأقطار جميعاً — بأقلامهم هم — فى تاريخ يتضمن حياتهم ، وتعلمهم ، والجامعات التى درسوا فيها ، والدرجات التى حصلوا عليها ، والمناصب التى شغلوها ، والجماعات العلمية والسيكولوچية التى اشتركوا فيها ، والصحف التى ساهموا فى تحريرها ، والبحوث والمقالات التى نشروها ، والكتب التى ألفوها أو نقلوها أو راجعوها أو أعادوا نشرها ... كما نجد فى السجل السيكولوچى Psychological Register فى مجلداته الثلاثة التى أصدرتها تباعاً مطبعة جامعة كلارك بإشراف الدكتور مرتشيزون ، وفى كتاب علم النفس بالتأريخ الشخصى Psyehol. in Autobiography لنفس الناشر (١٩٢٨ وما بعدها) .

فكتابنا هذا ينفرد من بين هذه الكتب جميعاً بنظرته إلى علم النفس الحديث من خلال مدارسه ومذاهبه . ويتميز فوق هذا بأنه يدع جانباً — فيما عدا الفصول الأولى منه — فترة الطفولة فى كل من هذه المدارس والمذاهب ،

ولا ينظر إليها إلا إبان نموها ونضوجها . ثم يتميز فوق هذا كله بأنه ينظر إلى هذه المدارس جميعاً على أنها نشأت من أصل واحد هو علم النفس الارتباطى العقلى الاستبطانى القديم الذى استحدثه ڤونت لأول عهده بالتجربة ؛ نقول ينظر إلى هذه المدارس جميعاً على أنها نشأت من هذا العهد التجريبى الأول ، الذى يسميه « النظام القائم » established order ، والذى يحدد لنهايته بسنة ١٩١٢ .

وهو حين يجعل من هذه السنة حدًّا بين العهد القديم وظهور هذه المدارس فى تمام نضجها محق إلى حد كبير : فى هذه السنة نشأت السلوكية على يد وطسون ، ومذهب الجشطلت على يد ڤرتيمر وأصحابه ؛ وقبلها بقليل نشأ المذهب النزوعى أو القصدى على يد مكدوجل ، وبكثير التحليل النفسى على يد فرويد . فكأنه فى هذه السنة كانت أهم المدارس السيكولوچية قد ظهرت ونمت . والمهمّ هنا أن ودورث يصوِّر لنا هذه المدارس لأول ظهورها — حوالى ذلك التاريخ — ثائرة على « النظام القائم » إن فى منهجه ، أو موضوع علم النفس عنده ، أو تصوره لغاية هذا العلم ؛ بعضها يثور ثورة واحدة ، والبعض ثورة مزدوجة ، ولكنها لا بدّ — على أى حال — أن تظهر على المسرح بثورة على هذا النظام .

ويصرح ودورث أحياناً بسيكولوچية هذه الثورات ؛ فيرى أن لكل ناشئ رغبة فى الظهور المفاجئ ، وأنه لا يريد أن يأخذ عمله ونشاطه مجراهما الطبيعى ؛ بل هو يتعجل المجد ولو على حساب غيره ، ولا بدّ له حينئذ من أشخاص قليلى الشأن — فى مذهبهم ثغرة أو نقص ، مع ما لدراستهم فى مجموعها من قيمة — كما كان موقف الجشطلتيين (وخصوصاً كفكه) من السلوكيين (وخصوصاً ثورانديك) . إلا أن ودورث يهون من فعل هذه الثورات الموقوتة قائلا : إنها تأتى حقاً بجديد ، ولكن ما تأتى به لا يلبث بعد حين أن يصبح هو الآخر « نظاماً قائماً » ، ويستهدف لكثير من الثورات قد يسلم منها بدوره وقد لا يسلم .

وودورث ؛ حين تناول هذه المدارس واحدة فواحدة ؛ لم يتحزّ — كما وعد فى مقدمته — إلى واحدة منها ، ولا هو حبب فى هذه أو نفَّر من تلك ؛ ولكنه اتخذ موقف المؤرخ الأميّن فى عرض فكرة فى كل مدرسة ، والحديث عن أصحابها ومجهودهم ، ونقد آرائهم ، والدفاع عنهم — إثر هذا النقد — بحداثة السن ، وكون المجال ما زال مفتوحاً أمامهم ليثبتوا وجودهم . فهو من هذه الناحية مؤرخ حق ؛ وإن كنا لا نبرئه من التعاطف مع مدرسة بعينها ، والانسجام فى الحديث عنها ، كالسلوكية

والتحليل النفسي . وواجبنا هنا أن نتلمس له بعض العذر ؛ فهو كأمريكى — مهما كان استقلاله عن التبعية والانتساب لواحدة من هذه المدارس — لا بدّ أن يكون على علم أوسع بالسلوكية التى هى أمريكية ، والحال كذلك فى التحليل النفسى ، الذى — وإن لم يكن أمريكيا — إلا أنه منذ أصبح عالميا بعد قليل من شيوعه فى أوربا ؛ قد تلقفته أمريكا ، وكثرت كتاباتها عنه ومزاولتها له ، واحتضانها لعلمائه وغيرهم من المشتغلين بعلم النفس . ومن هنا لا ندرى لم كان علمه هكذا قليلا بالجشطلتيين ، كما يظهر من كتابته عنهم ؛ مع أنهم قد رحلوا إلى أمريكا ، ودعوا لمذهبهم فيها ، ونشروا وحاضروا — كما سنرى — ربما لأن نشاطهم حينئذ لم يكن يعدو موضوعات محدودة ، ولأن الكتب العامة لمذهب الجشطلت قد تأخر ظهورها إلى حوالى ١٩٣٠ ، أو ربما لأنه لم يجد فى كتابه مجالا لسرد تجاربهم والتوسع معهم أكثر مما فعل . أما مكدوجل ، فهو — وإن أوجز الكتابة عنه — قد وفاه بعض حقه كفرد تقوم حوله مدرسة علم النفس الاجتماعى النزوعى الهورمى ؛ التى طغت عليها المذاهب الأخرى ، والتى عاد يُجدّدها ويوجه الانتباه إلى الناحية الاجتماعية منها خصوصاً جماعة من علماء النفس الاجتماعى الإنجليز بإشراف الدكتور كارل مانهيم .

ويعرض المؤلف فى آخر كتابه لعلماء النفس الذين لا تربطهم بهذه المدارس أية صلة ، والذين يسيرون فى عرض الطريق — لا ينتحون منه جانباً كما يفعل علماء المدارس . وهو يتحدث عنهم بحرارة وتحمس ، وإن كانت ظروف محاضراته — التى هى هذا الكتاب — لم تسع وفاءهم أى نحو من الوفاء . فلا هى شملتهم جميعاً ؛ بل اقتصرت على أبرز معاصريهم ، وحتى هذا القليل قد قنع فى الحديث عنه بالكلمة العامة أو الفكرة البارزة ، مع أنهم عنده الأغلبية فى العدد والإنتاج العلمى ، والمستقبل لهم فيما يرى ، بل هم « المنظور » لصورة علم النفس و« الهيكل العام » لعلمائه . فلا علينا أن نجده يحبذ المستقلين من علماء النفس فى كتابه عن « مدارس » علم النفس ؛ لأنه منهم . ولا بأس كذلك فى أن يصنف هؤلاء حسبما يمثل كل منهم من أقطار ؛ فهو ربما تناولهم جميعاً حسب دراساتهم — وعلى نحو أوسع — فى كتابه « علم النفس التجريبى » الذى ظهر بعد .

قد يكون الحياد محبوباً ، وقد يفضله غير ودورث ممن يؤثرون الاستقلال . ولكن ينبغى أن نعترف للمدارس — مهما يكن من اختلافها وتنازعها — بكبير أثرها فى تحديد الموضوعات العامة التى لا غنى لعلم النفس عنها ؛ قبل أن تأتى

مرحلة التخصص وتناول الموضوعات الجزئية منه على نحو فردى . وإذا كان هو يرى أن مما يدل على حداثة علم النفس وجود هذه المدارس ، ويريد — كما نريد نحن — أن تزول هذه المدارس لتحل محلها دراسات فردية قاطعة كالتى ينتهى إليها علماء الطبيعة والعلوم الفيزيقية ؛ فإنا نرى أن هذا التكتل ضرورى لتحديد المسائل الرئيسية فى هذا العلم ، ونود ألا تزول حتى ينتهى صراعها إلى نتيجة شاملة يتحدد معها موضوع هذا العلم وغايته ومنهجه — قبل الانصراف إلى معالجة موضوعاته — بعد ألا يبقى منها إلا الأصلح .

وقد لا نحب أن يظل علم النفس تتدارسه جماعات ومدارس ، ولو أن ذلك نزوع إلى تقليد علم الطبيعة والفيزيقيين — مع إغفال الفرق الجوهرى بين موضوعية هذه الدراسات وذاتية مباحث علم النفس . ولكن يجب أن ننبه إلى أن مدارس علم النفس لا تزال فتية ناشطة ، وأنها — وإن لم يكن بقاؤها مرغوباً فيه إلى الأبد — قد ساعدت على تقدم علم النفس فى مراحل تجريبه الأولى . فوجودها متحقق فى الماضى القريب ، والحاضر المستمر ، وربما فى المستقبل البعيد أو غير البعيد ؛ يأخذ عنها علماء وسط الطريق أنفسهم . ولا نعلق على أثرهم فى علم النفس بأكثر من الإشارة لجماعة ڤونت فى ألمانيا ، و « كتل » فى أمريكا ، وفرويد وأتباعه أو معارضيه فى فرنسا والنمسا . فكل جماعة من هذه ليست فى ذاتها مدرسة ، ولكن عملها الجماعى بتأثر الأستاذ ، أو تحضير الدرجات العلمية عليه ، أو حتى بمعارضته — على ترتيب ما ذكرنا — كان يؤدى فى كل جماعة من هذه إلى إنتاج خصب ، ونشاط وتنافس مستمر ، لا يعدله عمل فردى . نقول هذا ونكرر معه أننا لا نرمى إلى تسويغ بقاء المدارس فى علم النفس ؛ بل نريد مجرد إظهار قيمتها فى شىء من الإنصاف ضن به عليها المؤلف ، وخصوصاً فى خاتمة كتابه .

فإذا كانت هذه المدارس تحاول كل منها أن تبرز ناحية خاصة فى موضوع العلم أو منهجه أو غايته ؛ فتلك حسنة من حسناتها ، لأن مدرسة واحدة أو فرداً واحداً لن يستطيع أن يجتذب انتباهنا ، ويقدم لنا دراسة كاملة وافية لهذه النواحى المتشعبة جميعاً . بل لا بد أن يعكف على جانب جانب منها ، ولا بد حينئذ أن يعارضه باحث ويؤيده باحث فى هذه المسألة ذاتها ، وهكذا فى بقية المسائل . ومن هنا تنشأ المدارس ، وستظل تنشأ ، وتزيد ولا تنقص . ولا ضير علينا فى هذا ؛ فلدينا حقائق العلم الثابتة التى نسميها « علم النفس العام » ؛ ندرسها كما تدرس العلوم

الطبيعية إلى حد كبير ، ولا بد أن يجيء ذلك اليوم الذى يتحدد فيه موضوع العلم وغايته ومناهجه على نحو يصبح تناولها معه لغواً وتكراراً . وحينئذ يهجر هذا اللون من الدراسة ، ويفسح المجال لدراسة يقينية ثابتة مقررة تأخذ بخلاصة هذه الدراسة الطويلة . ونحن صائرون إلى هذا الطريق منذ الآن .

فلا نوغل أكثر من هذا فى مناقشة الحكم التقديرى لهذه المدارس ، فلسنا ندرى على وجه التحديد أهى خير لهذا العلم أم شر عليه . وحسبنا أن كلا منها تشغل ميداناً من ميادينه الواسعة الكثيرة . ولننظر إليها الآن كحقيقة واقعة ؛ حتى نرى الأصل التاريخى المباشر الذى انحدرت عنه هذه المدارس ، واتخذت منه إمكانياتها وحقائقها .

* * *

« فالنظام القائم » الذى قلنا إن هذه المدارس قد ثارت عليه وقامت على أنقاضه — ولا بدّ أن نذكر أنه ، قبل ثورتها عليه ، كان يسمى حينئذ علم النفس الحديث تمييزاً له عن سيكولوچيا العصور الوسطى وديكارت وليبنتس وغيرهما — يتميز هذا النظام القائم بأنه : ارتباطى يرى فى الأحساس الأولى عناصر يتكون منها بالتركيب والارتباط مدركات وصور ومشاعر ... الخ ، وأنه يتخذ موضوعاً لدراسته الملكات العقلية من تصور وتذكر وتخيل وإحساسات مختلفة ، وأن منهجه خصوصاً هو الاستبطان — أو التأمل الباطنى — أو النفوذ إلى باطن الشخص نفسه والإدلاء بما يشعر به — أى بخبرة الفرد — مع شىء من التجريب على فزيولوچيا العقل ؛ أو ما يسمى علم النفس التركيبى أو البنائى .

وبيان ذلك أنه نشأ سنة ١٨٧٩ أول معمل سيكولوچى عرفه العالم بالمعنى الإدارى أو التنفيذى الذى تحمله كلمة psychologiches Institut الألمانية ، التى دمغ بها ڤلهلم ڤونت معمله الذى أنشأه — بعد أربع سنوات من توليه كرسى الفلسفة فى ليپتسك — بسيطاً أول الأمر ، ثم متسعاً بعد قليل إلى إحدى عشرة حجرة فى مبنى متهالك من المدينة ، حلت محله مبان أحدث منذ سنة ١٨٩٧ . وعلى أى حال ، فإنه فى هذا المكان المتواضع من مدينة العلم والتجربة ؛ ولد علم النفس التجريبى ميلاده الحقيقى ، وشب على قدميه ليثبت وجوده الفعلى ؛ بعد أن لم يكن يعدو من قبل مجرد محاولات غير مقصودة ، فى أمكنة غير مخصصة ، على يد چيمس واشتمف قبل ذلك بقليل . وفى هذا المكان المتواضع أيضاً تخرج الرعيل الأول من أئمة علم النفس التجريبى — لا فى ألمانيا وحدها ؛ أمثال كيلپه Külpe ،

وليمَن Lehmann ، وميومَن Meumann ، وكريپلين Kraepelin وغيرهم كثير — بل فى أمريكا ذاتها ؛ أمثال استانلى هول ، وكتل ، واسكرپتشر Scripture ، وأنجل Angell ، وتتشنر Titchener ، ووارن Warren ، ووتمر Witmer وغيرهم . وكِتلّ نفسه ؛ قد تخرج عليه فى كولومبيا أعلام علم النفس التجريبى الأمريكى — على النحو الذى سنرى فى الحديث عن مؤلف هذا الكتاب ، وفى تعليقنا على كِتل فى موضعه . والطريف فى أمركتل أنه قد استفاد من ڤونت شخصية علمية تجريبية منذ أن فرض نفسه مساعداً له فى معمل ليپتسك ؛ فإن ڤونت يروى أن كِتل جاءه يوماً وقال : « سيدى الأستاذ : إنك فى حاجة إلى مساعد ، وإننى مساعدك » . وبهذه الجرأة الأمريكية غير المألوفة ؛ عيّن كَتِلّ نفسَه مساعداً لڤونت ، فأتاح له ذلك دراسة مشكلة الفروق الفردية خصوصاً ، التى — لنجاحه وأتباعه فيها فى أمريكا فيما بعد — قد وصفها ڤونت بأنها دراسة أمريكية بحت ganz amerikanish.

ويحدثنا ودورث نفسه عن نوع العمل الذى بدأ به معمل ڤونت ؛ وهو البحث فى قياس أزمنة الرجع فى العمليات العقلية بوجه عام ، فيقول (علم النفس التجريبى ١٩٣٨ — ص ٣٠٣وما بعدها) : « إن الفلكيين كانوا ببحثهم فى المعادلة الشخصية personal equation أسبق من علماء النفس وهادين لهم فى البحث عن زمن الرجع والاستجابة. وڤونت — الذى كان عالماً فيزيولوچيًّا فى البدء — قد أدرك فى سنة ١٨٦٠ إمكان قيام علم نفس فيزيولوچى كما سماه ؛ يبدأ — حيث انتهت الفيزيولوچيا حينئذ — فى دراسات الأحساس والحركة العضلية والجهاز العصبى ، كما ينتهى إلى منهج أصح فى دراسة العمليات العقلية . واتخذ الاستبطان منهجاً لعلم النفس أساسيًّا ، على أن يكمله التجريب لحل الظواهر المعقدة التى يأتى بها الاستبطان . فكان ذلك أظهر ما يكون لقياس الزمن ؛ وخصوصاً فى استجابة التعرف cognitive reaction التى انتهى إليها ڤونت بعد معادلة الفلكيين وبحث دندرز Donders ... فلما افتتح معمله فى ليپتسك (١٨٧٩) كان من برنامجه الأساسى البحثُ فى تزمين العمليات العقلية (١٨٧٠ — ١٨٨٣) عن طريق البدء بالاستجابة البسيطة أولا ، ثم تعقيد العملية خطوة كل حين حتى ننتهى إلى الوقت الذى تستغرقه كل عملية على حدة » .

ولن يعنينا هنا تتبع عملِ ڤونت وتدرجه على نحو ما فعل ودورث وغيره من المؤرخين ؛ وحسبنا أن نشير إلى نوع العمل فى بدايته ، وإلى الروح الموجه لهذا

المعمل الفتيِّ النشيط إبان ميلاده . كما أن مجالنا هنا لن يتسع لذكر عمل ڤونت وسرد كتاباته الكثيرة مجرد الذكر أو السرد ؛ فإنها أكبر من أن تستوعبها كتب خاصة . ويكفي أن نقول إن دراسات ڤونت في ليپتسك وفي ألمانيا – منذ أنشأ أول معمل لعلم النفس – صارت تمثل النزعة التقليدية لهذا العلم ، أي علم النفس الباطني للعناصر الحسية في ارتباطاتها ومركباتها . فهو علم نفس منهجه الاستبطان – مع نوع من التجربة كما قلنا ، وموضوعه خبرات الشعور أو مضموناته Inhalte حتى سميت سيكولوچيا ڤونت بعلم نفس الخبرة أو المضمون Inhaltpsychologie . وهذا النوع من علم النفس الاستبطاني introspective ، التحليلي elementaristic ، الحسي sensationistic ، الارتباطي associationistic الذي قال به ڤونت ؛ قد أصبح من السيطرة والاتساع في ألمانيا حتى إن علم النفس الوظيفي الجديد – المقابل له – لم يظهر في ألمانيـــا ، ولا في تلاميذ ڤونت ؛ بل قال به برنتانو في النمسا .

نقول بلغ من نفوذ علم النفس التجريبي الذي قال به ڤونت ؛ أن علم النفس الوظيفي – علم نفس الفعل – كما قال به لأول مرة برنتانو Brentano لم ينشأ إلا في جنوب ألمانيا وفي النمسا ؛ بينما ظل علم نفس الخبرة أو مضمون الفكر مسيطرا على القسم الشمالي ، مع أنه لا تعارض جوهريًّا بين دراسة الخبرة ودراسة الفعل . ويقول بورنج E. Boring (تاريخ علم النفس التجريبي – ١٩٢٩ –ص ٤٤٨ تعليقات عامود ١) : إن تأثير الكنيسة الكاثوليكية في هذا القسم الجنوبي – الذي نشأت فيه سيكولوچيا الفعل – كبير ، وسلطان أرسطو – الذي عاد فقدمه إلى العالم الحديث برنتانو – كبير أيضاً ، والفعل يناسب الكنيسة أكثر من الخبرة (المضمون) لأنه أكثر نزوعاً للقول بالآلية ؛ وبالتالي للجبرية في علم النفس . فكأن اتجاه برنتانو إلى مشايعة الكنيسة – بتوجيه العلم التجريبي هذه الوجهة الجديدة – لاشتغاله أول أمره قسيساً ، ثم بُعد هذا القسم عن نفوذ ڤونت ؛ هما أهم العوامل التي هيأت لظهور سيكولوچيا الفعل .

وإذن ، في مقابل علم نفس الخبرة أو المضمون أو الارتباط Verbindungspsychologie الذي أكده ڤونت في الشمال ؛ ظهر ما يمكن أن يسمى علم نفس الفعل أو الوظيفة أو العمليات العقلية Vorgangspsychol. على يد برنتانو وأتباعه في النمسا وجنوب ألمانيا . ولا يذهبْ بنا الأمر إلى أن نتصور تمام التقابل بينهما ؛ خصوصاً وأن الألفاظ المعبرة عن كل من هذه المدارس لم تجد مرادفاتها الصحيحة ، أو تتحدد التحديد

الكامل فى اللغات الأخرى : فكلمة Inhalte بمعنى مضمون الخبرة ليس لها فى الألمانية مقابل محدد كالذى لها فى الإنجليزية بين content و act أو function . ويسمى چورج إلياس ميلر نظرية ڤونت باسم نظرية مركبات العقل Komplextheorie فى مقابل النظرية الجديدة Gestalttheorie ، وعيب هذه التسمية أن كلمة Komplex قد اتخذت عند مدرسة التحليل النفسى فيما بعد معنى العقدة النفسية المكبوتة . وكان تتشنر قد اقترح تسمية النظرية الأولى : علم النفس البنائى أو التركيبى structural psychol. فى مقابل علم نفس الفعل أو الوظيفى functional psychol. ؛ ولسوء الحظ كذلك حدث اشتراك لفظى ، حين سمّى مذهب الجشطلت Strukturpsychologie. تعريفاً له ، واضطرت الإنجليزية لعسر ترجمة هذا الاسم عندها أن تسمى هذا المذهب باسم Structural psychology ؛ فدل الاسم على الشىء ونقيضه ، وعانى علم النفس الجديد حاجته إلى تحديد اسمه ومصطلحاته ما لم يكن مذهب ڤونت فى حاجة إلى معاناته — لرسوخ نظرياته وتعاليمه ، وتقاليده المحافظة — مما يؤكد ما قلنا من نفوذه وسلطانه .

وزاد فى حيرة علم النفس الجديد وتعثره لأول أمره هذه الحقيقة التاريخية العجيبة ؛ وهى أن سيكولوچيا الخبرة — لتقدمها فى مضمار التجريب — قد بدت وكأنها علم النفس التجريبى الحقيقى ؛ حتى كاد يظن أن سيكولوچيا الفعل غير قابلة للتجريب قبول سيكولوچيا الخبرة ، وأن مواد الفعل وحقائقه لا يمكن ضبطها ، وأنها بالتالى لا تخضع للعلية والبحث العلمى . ولكن هذا العلم الجديد سرعان ما تخلى عن جدله ونظرياته ليتناول موضوعاً من أخص موضوعات علم النفس التجريبى ، ونعنى به : مشكلة إدراك المكان ؛ فهى المشكلة التى تضع نفسها بسهولة تحت ملاحظات البحث التجريبى . وبينما كان عمل مدرسة الخبرة التجريبى ينصب فى معظمه على فيزيولوچيا الحواس ، والبحث فى الإحساس ، إلى غير ذلك مما أدى بها إليه هذا البحث ؛ سارت مدرسة الفعل فى التجريب على الإدراك ؛ لم تقصد — بخطة موضوعة أو تدبير سابق — أن تكون تجريبية أو فيزيولوچية ، أو معارضة للارتباطية . ولكنها ما إن وقفت على نظرية خاصة الصور Gestaltqualitäten فى إدراك المكان وفى الحركة الأسكروبسكوپية خصوصاً ؛ حتى سارت فى الطريق إلى نهايته ، وعن هذه المدرسة خرجت مدرسة من أحدث مدارس اليوم قوة وأكثرها نشاطاً ؛ ونعنى بها سيكولوچيا الجشطلت Gestaltpsychologie .

فلا الحدود الجغرافية إذن، ولا نقص المصطلحات العلمية، ولا بُعد العمليات العقلية والوظائف عن التجريب؛ هو الذى أخر ظهور علم نفس الفعل كشق متمم لسيكولوچيا الخبرة فى ألمانيا فى أواخر القرن التاسع عشر؛ بقدر ما كان نفوذ تعاليم ڤونت العامل الأكبر. والمهم إذن أنه فى ذلك الحين كانت سيكولوچيا الخبرة التى يمثلها ڤونت وأتباعه فى الشمال، وسيكولوچيا الفعل التى يمثلها برنتانو وتلاميذه فى الجنوب؛ بمثابة قرنى الإحراج فى أوربا — كما يقول المؤرخون — وأن برنتانو، الذى ظل فى ڤينا (من ١٨٧٤ إلى ١٨٩٤) قد خرّج أتباعاً مجدّين أشهرهم إيرنفلس Ehrenfels، وميننونج Meinong، ولپس Lipps، وكورنيليوس Cornelius وبنوسى Benussi. ويمكن أن نعُد من بينهم اشتمف Stumpf لميله إلى جانب الفعل، وكيلپه Külpe، ومسّر Messer لأثرهما فى المذهب فيما بعد — وإن كان كلاهما من الموفقين البارزين بين سيكولوچيتى الخبرة والفعل.

ومن أشهر أتباع هذه المدرسة ماخ E. Mach الذى جاء إلى ڤينا عقب مغادرة برنتانو لها، وكان قد نشر فى براغ كتباً ذات أثر كبير فى علم النفس. أما ميننونج فقد عاصر برنتانو فى ڤينا معيداً Dozent وعاد إلى جامعة جراتس Graz (١٨٨٢) وأسس فيها أول معمل نمسوى لعلم النفس التجريبى سنة ١٨٩٤، وظل فيها حتى وفاته سنة ١٩٢٠. وسيأتى ذكر كثير من هؤلاء الأتباع فى تعليقنا على النص — بشىء من التفصيل — أما مرجع هذه المدرسة الأهم فى الإنجليزية فهو تتشنر Titchener فى كتابه علم النفس التجريبى، وفى مقالاته بمجلة علم النفس الأمريكية سنوات ١٩٢١، ١٩٢٢، ١٩٢٥.

وأخذُ هذه المدرسة بالمنهج التجريبى، وميلُ أصحابها إلى الخروج عن المذهبية إلى المعامل والتجريب؛ قد قرب الشقة بينها وبين نقيضها — علم نفس الخبرة — بعد أن كانا — كما قلنا من قبل — بمثابة قرنى الإحراج. كما أنه فتح أمامها مجال التقدم والتعبير عن تجاربها بمصطلحات الفعل أو الوظيفة؛ مما بدد ظن الكثيرين حينئذ بأن الوظائف والفعل ليست بالتى يسهل العمل عليها، أو يُتأدى فيها إلى حقائق ومادة صالحة. ونشيد هنا خصوصاً بميننونج الذى كان فى دراسته بمعمله تجريبيا أكثر منه مجرباً، أعنى experimentalist أولى منه empiricist كبقية رفاقه، وڤيتاسيك Witasek وبنوسى Benussi اللذين عبرا تعبيراً جديداً عن حقائق الإدراك فى حدود الفعل، وبيّنا أنه بينما يعنى عالم نفس الخبرة بمضمون أحكام دراسته

وملاحظته ؛ فإن علم النفس الوظيفي يُعنى بالحكم ذاته كوظيفة أو فعل — أي بما يسمى Judging لا Judgements .

وعلى أساس هذا التقريب بين وجهتي النظر إلى حقائق بعينها من حيث هي خبرة ، أو من حيث وظيفة العقل فيها ، نظراً تجريبيًّا من كل جانب ؛ قامت نزعة التوفيق التي قلنا ، والتي حمل لواءها كيلپه — وخصوصاً مسر Messer — وضما معهما هسرل Husserl . وكان غرض هذه الحركة — مادام لا فرق جوهريا بين الخبرة والفعل — أن يزج بهما في ميدان البحث السيكولوچي جنباً إلى جنب . وسواء أكان في محاولتها هذه شيء من التعسف بوضع حقائق الخبرة الثابتة إلى جانب حقائق الفعل الساذجة حينئذ ، أو لم يكن ؛ فإنه يعنينا هنا أن نرى أنه — إلى جانب أصحاب علم نفس الفعل الخلّص أمثال برنتانو ومينونج — كان ثمت جماعة موفِّقة تأخذ بوجهتي النظر ، وتتمثل في كيلپه ومسر وهسرل وڤيتاسيك .

وهذا الزواج بين الخبرة والفعل — الذي عقده أوجوست مسر — فيما سمى علم النفس الازدواجي .bipartite psychol ، لسنا ندري هل تأثر فيه بكيلپه الذي كان يكبره بخمس سنوات ، واللذين اتحد ميلهما إلى نظرية المعرفة epistemology وعلم النفس منذ أن كانا زميلين في ڤرتسبورج ؛ أم أنه هو الذي جذب كيلپه لهذا الرأي ؛ فتلك مشكلة لم يصل المؤرخون فيها إلى حل . ولكنا ندري أن مسر هذا قد أعجب بطريقة كيلپه في النظر إلى علم النفس نظراً فلسفيًّا ، وأنه نتيجة لعمله معه في ڤيرتسبورج ظهر بحثه : بحوث سيكولوچية تجريبية في التفكير Experimentell-psychologische Untersuchungen Uber das Denken (١٩٠٦) الذي يعد من أهم دراسات ڤرتسبورج ، وأنه نشر عن عمله هذا كذلك كتابه الإدراك والتفكير Empfindung und Denken (١٩٠٨) الذي عرض فيه لموضوعات علم النفس التي تقع على الحدود بينه وبين نظرية المعرفة كالإدراك ، والمعنى والانتباه ، والتجريد ، والحكم ، والفكر ؛ كما حاول أن يبرز العناصر الحسية في الإدراك بمعزل عن العناصر العقلية فيه . وعبر مسر عن هذه النظرية أحسن ما عبر في كتابه Psychologie (١٩٢٠) . كما أن هذا الازدواج قد ظهر في «محاضرات» كيلپه Vorlessungen منذ ١٩١٢ ، ومن قبل كان كتابه « Die Realisirung » مصدر وحي مسر ؛ ولكن مسر يعد أحسن معبر عن هذا الاتجاه .

وخلاصة هذا الاتجاه ؛ ما يقول به مسر من أن علم النفس — لا الإپستمولوجيا —

يعالج الخبرات المقصودة أو المنشودة intentional experiences : الاسم يرمز للمضمون والخبرة ، والصفة تدل على الفعل والوظيفة . حقاً إن مثل هذه الخبرة تتضمن حقائق الخبرة اليقينية الثابتة وحقائق الفعل الغامضة المبهمة ؛ ولكن على علم النفس أن يتوسع بمجاله من الخبرات لينتقل إلى ميدان الفعل .

ويستطرد « مسر » فى مذهب يميز فيه أنواعاً من الخبرة المنشودة ثلاثة ، هى : التعرف knowing الذى هو « الشعور بالأشياء » ، والتبصر feeling أى « الشعور بالموقف » ، والإرادة willing أو « الشعور بالعلة » . ولكل من هذه الثلاثة عناصر خبرة وعناصر فعل تدخل فيها — يناقشها « مسر » ، ولا يتسع مجالنا لتتبعها . ويهمنا فى هذه السيكولوچيا الازدواجية أنها لم تستطع أن تجعل من الخبرة والفعل شيئاً واحداً — كما كان يُظن — فلم يقتصر الفرق بينهما على مجرد جلاء الحقائق أو غموضها ؛ بل إنهما — كما يقول مسر نفسه — ينفصلان فى أحوال خاصة ؛ يمثل فيها حالة الخبرة بدون فعل : بهامش الشعور ، حيث الخبرات المجردة والمضمونات التى لا معنى لها ؛ ويمثل حالة الفعل إذا تعرى عن الخبرة : بالفكر بلاصورة imageless thought ، حين نتأمله .

وكيلپه نفسه — وإن كان من دعاة التوفيق — قد فرق بين الخبرة والفعل تفرقة دقيقة بوصفهما جانبين من الحياة العقلية منفصلين . وسبب ذلك عنده انفصالهما أولا فى خبرتنا الشخصية ؛ فثمت خبرات بقليل من الفعل — كما فى الأحلام ، أو فى مجرد إعطاء شيء ما . وثمت فعل بقليل من المضمون — فى مجرد الملاحظة العابرة أو التوقع ، حيث لا شيء . وثانياً : لأن كليهما يتغير فى استقلال عن الآخر ، المضمون يتغير بدون الفعل — حين ندرك شيئاً حسيًّا ، وآخر ، وثالثاً ، مدركات مستمرة . والفعل بدون الخبرة — عندما ندرك ، ونعرف ، ونحكم على نفس الخبرة أو ذات المضمون . وهذه حجة برنتانو . وثالثاً : تختلف الخبرة والفعل فى خصائصهما : الخبرات تتحلل فى الشعور ، ولا كذلك الوظائف ؛ فالتحليل يغيرها . الخبرات يمكن ملاحظتها بالاستبطان ، بينما الوظائف بالاسترداد أو الاسترجاع retrospection الخبرات نسبيًّا ثابتة ، والوظائف نسبيًّا غير ثابتة أو جامدة ؛ بل فيها فعل وحركة ؛ ونتيجة لهذا فهذه جلية واضحة ، وتلك مبهمة غامضة unanschaulich . ورابعاً : ليس ثمة علاقة بين التغير الكيفى qualitative differences أو الكم والشدة intensity مع أنهما مشتركان فى كليهما . وأخيراً ، فإن الخبرات والوظائف تختلف من حيث خضوعها لقوانين مختلفة : فبينما قوانين الخبرة هى الترابط ، والامتزاج ، والتقابل ،

والاستجابة للمؤثرات وأعضاء الحس ، والتلازم السيكولوجي بوجه عام ؛ إذا بقوانين الفعل تشمل أثر وجهة النظر Aufgabe ، وقوانين الميل المحدد ، وقوانين أخرى — يرى كياپه أن العمـــل التجريبي على الوظائف سوف يكشف عنها كما كشف عمل مدرسة ڤيرتسبورج عن هذه .

لم يتم إذن زواج سيكولوچيا الخبرة وسيكولوچيا الفعل كما أراد الموفقون — رغم كل تقارب بينهما — وذلك بسبب ما فى طبيعة كل منهما من تعارض مع الآخر ؛ مع أنه الشق المتمم لصاحبه . على أن هذا الصراع لم يكن بلاجدوى ؛ فحسبنا إزالة الحواجز بين المذهبين ، وتقريب مسافة الخلف بينهما ؛ على أساس أن دراسة كليهما ضرورية لعلم النفس — الذى يشبه فى هذه المسألة بالذات علوماً أخرى كالاجتماع ، حيث لا يظهر البحث عن وظيفة الشيء فيه إلا متأخراً . أولا يوجد الشيء ، ثم وجوده يبعث على البحث فى وظائفه أو الوظائف المؤدية إليه . ونحن هنا قد كسبنا بهذا الاتجاه الجديد مزايا كثيرة فى موضوع العلم ومنهجه ؛ سنتبين أثرها فى المدارس التى تفرعت على علم النفس الوظيفى فى أمريكا وانجلترا وروسيا ؛ من دراسة لسلوك الحيوان ، واختبارات الذكاء ، وتجريب على ظاهرات العقل ، وخصوصاً ظهور مدرسة الجشطلت وغيرها من التيارات والمذاهب التى بدأت تهجر الاستبطان منهجاً ، وارتباط العناصر الحسية والعقلية موضوعاً ، وتحليل الخبرات العقلية غاية ؛ لتأخذ بدراسة الوظيفة والفعل السلوكى للعمليات العقلية على أساس تجريبى جديد .

وسيتضح لنا ميدان عِلمَى النفس البنائى والوظيفى ، والموضوعات التى توزعها كلاهما من البحث فى هذا العلم ؛ مما أدلى به چيمس رولند أنجل الأمريكى — فى خطابه الذى وجهه إلى هيئة علماء النفس الأمريكية إبان رياسته لها (١٩٠٦) باسم : ميدان علم النفس الوظيفى The province of functional psychol. — من تفرقة دقيقة شاملة لحدود كل منهما بقوله : إن علم النفس الوظيـــفى هو علم نفس العمليات العقلية فى مقابل علم نفس العناصر العقلية ، أى الوظيفة فى مقابل التركيب ، والإجابة عن السؤال كيف ولماذا ؟ بدلا من الإجابة عن السؤال ماذا (أى ؟ How and why بدلا من؟ What) . ثم هو علم نفس فوائد الشعور الرئيسية ، الذى فيه يعنى العقل أولا بالتوفيق بين البيئة ومطالب الكائن العضوى ؛ أى تكيف العقل بالبيئة المحيطة . وأخيراً فإن علم النفس الوظيفى هو السيكوفيزيقا ، أى علم نفس الكائن العضوى كله روحه وبدنه .

وإلى جانب هذا الأساس التاريخى الضخم لعلم النفس ، كان ثمة تيارات أخرى أثرت فى علم النفس تأثيرها فى غيره من العلوم ؛ إذ كان كل منها حدثاً من أحداث القرن التاسع عشر الهامة التى قلبت وجهة النظر — كل فى ناحيتها — قلباً تاماً ونعنى بها نظرية التطور والوراثة العقلية التى قال بها لامارك (١٨٠٩) ونهض بها إلى حد الثورة شارلزدارون (منذ ١٨٣٧) . والتنويم والتخدير فى الطب العقلى ، الذى بدأه مسمر منذ ١٧٦٦ واستمر به أتباعه حتى انتهى إلى فرويد (١٨٨٠ وما بعدها) وتلاميذه من بعده . وأخيراً الحركة الوضعية فى العلم التى نادى بها أوجست كونت (منذ ١٨٣٠) واستمر بها ديركايم وغيره . ولكل من هذه الحركات تاريخ وتفاصيل لن نعرض لها إلا بالقدر الذى يلقى لنا أضواء كاشفة على الأساس التاريخى الذى نشأت عنه مدارس علم النفس .

لقد كانت فكرة التطور وأصل الأنواع عقيدة شائعة فى القرن الثامن عشر ؛ تحدث بها العامة أنفسهم ، كما روى لهم الإنجيل والكتب المقدسة عن الطوفان الذى أغرق به نوح الأرض وما عليها ، ولم يبق فى فلكه إلا على ما يحفظ كل نوع من أزواج . وساعدت الاكتشافات الجغرافية فى ذلك الحين على زيادة ما كان يعرف من الأنواع ، مما يؤيد هذه الفكرة ، وتناول حل هذه المسألة — على طريقتهم الخاصة — كثير من الشعراء وعشاق الطبيعة ، أمثال : جيته (١٧٤٤ — ١٨٣٢) وإرازموس دارون (١٧٢١ — ١٨٠٢) بقولهم فى النبات أنه يغير بعض أجزائه ، وأنه بهذا يخلق صوراً جديدة ، وفى الحيوان أن جمجمته وعظامه الفقرية من طبيعتها أن تتغير تغيراً جوهرياً ... وذلك بكثير من تأمل الحياة فى النبات والحيوان ؛ مما جعل العقيدة فى التطور النوعى حقيقة حاول العلماء بحثها على أساس التسليم بها . وجاء لامارك (١٧٤٤ —١٨٢٩) فتناول المسألة بالبحث العلمى ، وأصر على تحور صورة الحيوان من جراء محاولته التكيف بالبيئة المحيطة به ، وعلى توارث هذه الخصائص المعدلة التى يكتسبها الحيوان بجهوده هذه ؛ كمحاولة الطيور آكلة الأسماك إطالة سيقانها لتتعمق صيدها — فيما لو بعد عن مدى ما تصل إليه أقدامها من الشاطىء . وفى هذا عارضه بشدة خصوصاً العلامة كيفييه Cuvier (١٧٦٩ — ١٨٣٢) قائلا بثبات الأنواع fixity of species — لما كان يؤمن به من ترابط فى أجزاء الحيوان correlation of parts — تلك النظرية التى ترى أن تكيف الأنوع للبيئة ، ونوع الحياة الذى تعيش ؛ ينعكس فى علاقات بعينها بين استخدامها لأعضائها ،

كحدة الأسنان وسرعة العدو فى الحيوانات آكلة اللحوم ، أو حدة الأسنان وقوة عضلات الرقبة فى حيوانات الصيد التى تحمل بفمها فريستها . ومعرفتنا بهذه الخصائص المرتبطة تدلنا على أن صورة الحيوان كلها يمكن أن تنشأ عن عظمة واحدة بدائية لم تتحور أو تتعدل .

ولكن شارلز دارون (١٨٠٩ — ١٨٨٢) هو الذى تدين له نظرية التطور بما انتهت إليه من تعديل وتصحيح وذيوع ، وما واجهت من ثورة واحتجاج . فقد أقام النظرية على تلك الحقيقة الواضحة ؛ وهى تنوع الأفراد فى داخل النوع الحيوانى الواحد ، وقال بأن هذا التنوع التلقائى من شأنه وطبيعته أن يورث أحياناً . وبالاختيار من هذه المتنوعات التى تحدث فى الأجيال — بمحض الصدفة chance — أى باختيار الأصلح ؛ يحدث — خلال أجيال عديدة — تغير فى النوع كبير . وعلى هذا ؛ فثمة انتخاب طبيعى عن طريق بقاء أصلح الحيوانات تكيفاً بالبيئة وملاءمة لحاجات الحياة . وهذا الانتخاب الطبيعى — مأخوذاً إلى جانب تغيير ظروف البيئة التدريجى — ربما هيأ لظهور أنواع جديدة . واختلفت هذه النظرية عن نظرية لامارك فى نقاط ثلاث رئيسية : (١) فى قولها بأن هذا التنوع الوراثى يحدث بالصدفة ، أو من تلقاء نفسه ؛ لا بجهود الكائن ذاته للتكيف . (٢) وفى فهمها لهذا الانتخاب على أنه طبيعى ينشأ عن صراع البقاء بين الحيوانات ، مما تأثر فيه دارون بنظرية ملتوس Malthus الاقتصادية فى تحديد ظروف الطبيعة للسكان . (٣) وفى أن إحلالها لصدفة التنوع والبقاء موضع مجاهدة التكيف ؛ قد مكنها من أن تجعل لظهور الأنواع الجديدة وقتاً أطول

وليس بين نظريتى دارون ولامارك بهذا خلاف جوهرى ؛ فكون التنوع يحدث تلقائياً أو بالصدفة لا يمنع أنه نوع من محاولة التكيف التى قال بها لامارك . ونحن نسمى صدفة ما يعجزنا رده إلى علة . فما الذى يمنع من تعليل نظرية دارون بتفسير لامارك ؟ وهذا ما قال به هربرت اسپنسر (١٨٢٠ — ١٩٠٣) فى توفيقه بين الرأيين ، وتكميله الواحدة بالأخرى من النظريتين — هذا فيما يتعلق بكيفية التنوع — أما الاعتقاد بوراثة الخصائص المكتسبة من هذا التنوع فقد عارضه ڤايزمَن Weismann (١٨٣٤—١٩١٤) أشد معارضة ، وحاجّ لامارك فى صحته حِجاجاً عنيفاً — لم يقو هذا الأخير على رده — طالما أن مذهبه لا يجعل للتغير مدى واسعاً كما عند دارون ؛ وما دام أن جيلا واحداً لا يُظهر من التطور فى النوع بالتكيف إلا تغييراً ضئيلا جداً .

والمهم أن نظرية دارون هذه كانت حينئذ أكبر حدث علمي في القرن التاسع عشر — لا في بريطانيا وحدها — بل في العالم كله . فقد تأثرت بها أفكار العلماء في كافة فروع العلم ، وكانت « خميرة » عقلية لوجهات نظر جديدة في شتى مناحي البحث ؛ وخصوصاً في البيولوجيا وعلم النفس . بها بدأ علم النفس الإنجليزي الحديث — لما أثارت من مشكلات الوراثة العقلية ، والفروق الفردية ، ومنهج الإحصاء واختبارات الذكاء ؛ ولما فتحت من الميادين الجديدة وخصوصاً علم النفس الحيواني — الذي أدت إليه هذه الصلة التطورية بين الإنسان والحيوان ، والاختلافات النوعية بين الحيوان ذاته — مما عكف عليه في انجلترا رومانس وهلويد مورجن ثم اسپيرمن ، وفي أمريكا هول (في علم النفس التربوي) وثورانديك (في علم النفس الحيواني واختبار تلاميذ المدارس) وأخيراً كتل — وخصوصاً تلاميذه ، ومنهم ودورث مؤلف هذا الكتاب . وقد مهد هذا كله لظهور السلوكية الأمريكية على يد چون وطسون ؛ الذي لو لم يجدها مهيأة للظهور ما استطاع أن ينهض بها ، فإن أمريكا في ذلك الحين كانت مسرحاً لاتجاهات في دراسة علم النفس أربعة — كما يقول بورنج Boring (١) علم النفس الوظيفي الذي استقرت مدرسته في شيكاغو وأصبحت تعبر عن الناحية الإپستمولوجية في علم النفس الأمريكي (٢) ثم اختبارات الذكاء ؛ في العلم النفسي العملي التي ذكرنا . (٣) وكذلك علم النفس الحيواني الذي أدت إليه نظرية التطور أيضاً (٤) وأخيراً علم النفس الفيزيولوجي التجريبي من النوع الألماني الذي درسه كثير من الأمريكان على ڤونت وكيلپه . فالاتجاه الأول يمثله ديوي وأنجل ، والثاني پترسن Joseph Peterson ، وكتل ، وإبنجهاوس ، وثورانديك ، وودورث ، والثالث — علم النفس الحيواني —چاك لويب J. Loeb الألماني الأصل (١٨٥٩ — ١٩٢٤) الذي عمل منذ ١٨٩١ حتى وفاته في جامعات شيكاغو وكاليفورنيا ونيويورك الأمريكية ، وجننجز Jennings، وثورانديك ، ويركس ، ووطسون ، وفرانتس ، ولاشلي ، وواشبرن . أما علم النفس التجريبي فيمثله خصوصاً تتشنر وتلاميذه ممن كانوا على صلة بأصحاب الاتجاهات الثلاثة الأولى .

إلا أن هذه الدراسات للإنسان والحيوان والطفل من حيث « خبرته » أو « فعله ووظيفته » أو « سلوكه » هي شق واحد من حياته العقلية ؛ لا بد أن يتممه شق آخر ، ولا بد أن يكمل جانبه الشعوري بآخر لا شعوري ، وحياته السوية بأخرى مرضية ، وسلوكه الواعي الظاهر بآخر لا واع باطن . وكان الفضل في اكتشاف هذا الميدان الخصب

الجديد لظاهرة التنويم والتخدير . وكان أصحاب التحليل النفسى هم الذين بينوا مدى أهمية هذا الجانب الخصب من حياتنا العقلية فى الصحة والمرض والحياة اليومية بوجه عام . وساعد هذا الطب العقلى كذلك على تحليل الأحلام والزلات اللسانية والحركات اللا إرادية وجعلها فرعاً هاماً من علم النفس ، وعلى ربط طرائق التفكير عند البدائيين وتفكير اللاشعور .

ومع أن التنويم ظاهرة قديمة معروفة عند الصوفية وعلماء الطبيعة منذ العصور القديمة والوسطى ؛ فإن اختراع التنويم فى النصف الأول من القرن التاسع عشر — على يد فريدرش أنطن مسمر F. A. Mesmer (١٧٣٤ — ١٨١٥)— كان حدثاً لا يعدله فى خطره إلا اكتشاف المعادلة الشخصية personal equation . وكان مسمر طبيباً فى ڤينا ، اختبر — بتأثير كتابات السابقين — أثر المغناطيس السحرى على الأشخاص ، ونشر فى ذلك كتابه : تأثير الكواكب De planetarum influxu (١٧٦٦) ، ثم تخلى عن المغناطيس وما يزال يؤمن بالمغناطيسية الحيوانية كقوة خفية من قوى الطبيعة ؛ وكتب بذلك إلى الأكاديميات العلمية (١٧٧٥) . وبعد ثلاث سنوات انتقل إلى باريس ، وزاول شفاء المرضى فى حلقات مغناطيسية بجهازه baquet بمايشبه الجلسات الروحية اليوم ، وكانت النتائج إيجابية — وإن لم تزل الفكرة بعيدة عن قبول العلماء والمفكرين ؛ مما حملهم على اتهام مسمر بالدجل والشعوذة . ولكن أتباعاً مخلصين له أمثال إليوتسن J. Eliotson (١٧٩١ — ١٨٦٨) أستاذ الطب العملى فى يونيڤرستى كوليج بلندن ، وكبير أطباء مستشفياتها — هذا الرجل الجرىء الحر الممتاز ، الذى استقال من الكلية والمستشفى احتجاجاً على محاولة مجلس الكلية تحريم مزاولة التنويم دون مناقشة وجهة نظره وأدلته (١٨٣٨) — قد جعل يزاول التنويم كمخدر علاجى يحمل فى طيه إمكانيات علمية تبشر بكثير من الكشف ؛ كما أنشأ مستشفى للعلاج بذلك فى لندن (١٨٤٩) — كانت بداية لإنشاء عيادات أخرى — « مَسْمَر » فيها ألف مريض ومائتين ، وقام بمائتى عملية دون أن يشعر المرضى فى هذه أو تلك بألم ، وكانت مجلته Zoist ملتقى الأفكار الحرة الجريئة فى هذه الناحية التى دمغها بها : « صحيفة لفيزيولوجيا المخ والمسمرية والعمل عليهما لصالح الإنسان »— عاونه فيها چيمس إيزديل J. Esdaile الهندى (١٨٠٨ — ١٨٥٩) الذى تأثر بكتاباته ، ونهض بمثل نهضته فى بلاده ، ثم انتقل إليه سنة ١٨٥١ وزاول معه المسمرية فى اسكتلندا حتى مات . وقد لاقى هؤلاء كذلك معارضة العلماء وكره

العلم كما لاقى أستاذهم ، حتى حين اتخذوا من التنويم عامل تخدير علاجى . فقد رأى أصحاب المهن الطبية أن نجاح التنويم وإقبال الناس عليه وعلى أصحابه يقلل من القيمة الأدبية للعمليات الطبية ، وأنه بالتالى غير أخلاقى ؛ بحجة أن الألم هبة حكيمة من الطبيعة ، وأن على المرضى أن يعانوا الألم حين يقوم الأطباء بعملياتهم ؛ كما كانت تقول دائماً جمعية الجراحين الملكية بلندن فى كل تقرير يقدم إليها عن المسمرية .

وفى مرحلة أخرى استطاع چيمس بريد J. Braid (١٧٩٥ — ١٨٦٠) أن يختصر الهوة التى بين العلوم الطبية والتنويم المغناطيسى المسمرى — ولا نقول المسمرى ، لأنه كان من بين عوامل نجاحه تجاهله — فى غير حق — حتى مجرد اسم المسمرية التى صارت عنواناً لهذا النوع من التنويم ، فأسمى طريقته علم التنويم العصبى neurohypnology ، واختصرها بعد ذلك إلى neurypnology ، ثم عاد فأسقط صدر الكلمة وأبقى على مادتها التى منها اشتقت فيما بعد مادة « تنويم » ، وأعلن صاحبها أنه « يُنوّم » لا « يمسمر » — وقد مهد هذا التغيير الظاهرى لقبول التنويم وإساغته وإزالة الهوة بينه وبين العلوم والمهن الطبية . وانتهى بريد إلى أن هذا التنويم هو نوم عصبى nervous sleep يحدث بموازاة عضلات الجفون الرافعة عن طريق عملها المستمر خلال التحديق الثابت المتراخى . وبذا امتازت هذه النظرية بما تحمله من تواضع ، وذلك بالاتجاه نحو المريض بدلا من تفخيم الطبيب بجعله قوة تأثير مغناطيسية ساحرة — كما عند سابقيه — مما هيأ كذلك لقبولها والانتقال بها من دورها الأول الغامض الملىء بالخصومة والجدل الشخصى إلى دور علمى يجعل منها حقيقة . فقيل إن التنويم بمعناه الحقيقى يبدأ ببريد ، وأنه هو الذى وضح للعالم من حقيقةٍ مالم يستطع غيرُه ، وفسره بالإيحاء النفسى suggestion بعد أن كان مجرد تنويم عصبى ؛ حتى ذهب ديران دى جرو Durand de Gros (وهو فلپس J.P. Philips كما يرمز إليه اسم قلمه) إلى تسمية هذه النظرية باسم البريدية Braidism أسوة بالمسمرية Mesmerism (١٨٦٠) .

وبعد بريد قلت القيمة العلاجية للتنويم كمخدر ، وبقى الأثير والكلوروفورم وحدهما فى هذه الناحية ؛ حتى جاء ليبيو Liébeault ليقيم فى نانسى منذ ١٨٦٤ ، وليلنشئ مدرستها الشهيرة التى استعمل فيها التنويم من جديد لأغراض علاجية ، كما نبه شاركو Charcot فى فرنسا إلى أهمية ظاهرة التنويم ، وأقام على آرائه هذه مدرسة

سالپتريير Salpêtrière بباريس . كذلك قام بمثل هذه الدعوة فى ألمانيا هايدنهين Heidenhain وپراير Preyer ، فعادت الحياة إلى التنويم كحقيقة علمية مسلّمة ، واختلفت الآراء حول تفسيرها : أما مدرسة نانسى فقد ذهبت مذهب بريد فى القول بأن سر التنويم هو الإيحاء النفسى . وأما مدرسة سالپتريير فقد ذهبت إلى أن هذه الظاهرة ذات طبيعة هستيرية ، وأنها أعراض شذوذ وانحراف . وسواء كان تفسير التنويم بأنه ظاهرة سوية أو مرضية ؛ فقد أصبح حقيقة علمية جديرة بالبحث . ثم وقف عليه فرويد ؛ متأثراً بشاركو خصوصاً (١٨٨٥ — ١٨٨٦) وبطريقة بروير J. Breuer فى التصريف abreaction الذى اكتشفه هذا سنة ١٨٨٠ ، والذى نشر نتائج بحثه فيه معه بين سنتى ١٨٩٣ ، ١٨٩٥ — نفس الوقت الذى ظهرت فيه نتائج بحوث پيير چانيه فى علاج الهستريا بالتنويم ، والتنفيس العقلى mental catharsis الذى يستبعد مصادر الاضطراب العقلى .

وعلى أساس هذا التراث الضخم الذى توارثه فرويد عن الطب العقلى — كما أجملنا مراحل دراسته — استطاع أن يستخدم منهج التداعى الحر فى الهجوم على اللاشعور لانتزاعه من الرقيب . ومهما قيل من أن هذا التداعى لم يكن حرًّا تماماً فى تصريف الرغبات المكبوتة ؛ فإن فرويد قد نجح فى الاستعانة به على الوقوف على أصل الداء وعِلّته من تحليل أقوال المريض ، وأحلامه ، وزلات لسانه فى حالات هدوء واسترخاء عصبى ، ومتى أوقف المريضَ على ما يصطرع فى داخل نفسه من عوامل ؛ فقد سَهّل إعادةَ تنظيمه وتركيبه النفسيين .

والحديث فى فرويد يطول ولا ينتهى . وحسبنا أن نشير هنا إلى تطور منهج التحليل على يديه : من مجرد التنويم مع شاركو ، إلى التنويم مقروناً بالتعبير فى صحبة بروير ، ثم بإسقاط التنويم — حين انفرد لنفسه بعد — واستخدام التصريف التعبيرى ، أو التداعى الحر كما سماه ؛ ثم أخيراً تقوية المنهج بتحليل الأحلام ، والبديهة أو النكتة ، وزلات اللسان ؛ مما أصر فرويد على أهميته البالغة فى الوقوف على شخصية المريض والكشف عن خبيئة نفسه . ولكن فرويد قد أقام حول هذا المنهج فروضاً ومسلمات يفسره بها ؛ اختلف معه فى الأخذ بها لأول وهلة كثير من أتباعه — كما ستقف على شىء منها فى الفصل الخامس من هذا الكتاب وتعليقنا عليه . والمهم إذن أنه قد انحدر عن ميدان الطب العقلى ودراسة ظاهرة التنويم هذا اللون من الدراسة السيكولوچية ؛ الذى يتخذ من اللاشعور موضوعاً ، والتحليل

— لكل ما ذكرنا — منهجاً ، وإعادة تنظيم النفس الإنسانية السوية أوالمنحرفة غاية ؛ وأنه قد تفرع على هذا اللون من الدراسة — الذى بلغ أوجه على يد فرويد — مدارس أخرى جانبية ، أصبحت على جانب كبير من الأهمية ، أخصها بالذكر مدرسة علم النفس الفردى لأدلر ، وعلم النفس التحليلى ليونج .

وإلى جانب هذه المؤثرات الهامة — أوقل : الميادين الجديدة — فى علم النفس ؛ التى شعبت من موضوعه ، وعقدت مسائله ، وزادت أصحابه توزعاً وانقساماً ؛ كان ثمة جماعة من علماء الاجتماع لا ينفكون — منذ علّمهم أوجست كونت فى أواخر الثلث الأول من هذا القرن — ينكرون على علم النفس وجوده ، ويقسمون موضوعاته ومسائله هذه الكثيرة نهباً بين البيولوجيا والاجتماع — على حد تصنيف كونت للعلوم فى لوحته المعروفة التى صدّر بها مقدمة « فلسفته الوضعية » — ظنّاً منهم أن الإنسان كفرد لا وجود له ، وأنه ليس إلا مجموعة وظائف بيولوجية يتحكم فيها المجتمع . ومع أن تيار الوضعية positivisme قد كان موجة جارفة فى شتّى فروع العلم والفلسفة فى أوربا فى ذلك الحين بزعامة ديركايم الفرنسى ؛ وخصوصاً أن كل اكتشاف فى فى العلم — كنظرية التطور فى البيولوچيا ، والتجريب فى علم النفس ...الخ — كان يؤيد هذا الاتجاه ؛ نقول — مع هذا كله — فإن علماء النفس لم يكونوا من القوة بحيث يحسنون إثبات وجودهم أو الدفاع عن علمهم ، وهم حينئذ — وما يزالون حتى اليوم — لم يفرغوا من تنظيماتهم الداخلية ، وحل مشاكلهم فيما بينهم ، ليواجهوا — كتلة واحدة — ما يتهدد علمهم من خطر خارجى .

ولكن واحداً منهم قد تصدى لإثبات وجود هذا العلم وتقريره والدفاع عنه ، ومحاجّة علماء الاجتماع الذين ينكرونه ، ورميهم بالغفلة وسوء النية من ناحية ؛ والتنديد بإخوانه علماء النفس الذين يقفون بمدلول علمهم عند حدود جامدة ضيقة ، ولا يتوسعون به ليجعلوا منه أساساً للعلوم الاجتماعية كلها من أخلاق ، وسياسة ، واقتصاد ، وأنثروپولوچيا ، وقانون ، وفلسفة تاريخ وأديان ... يستطيع أصحاب هذه العلوم أن يرجعوا إليه ويجدوا فى حقائقه ما يحملهم على الإيمان بهذا العلم ، وعلى إقامة علومهم على أساس صحيح من تعرّف قوى النفس الإنسانية — كما ينبغى أن تقوم — فلا يقعوا فيما يقعون فيه من أخطاء ، مردّها — فيما يرى — إلى إغفال هؤلاء عمداً لقيمة النفس ، ونقص المساعدات الواضحة المفيدة من جانب أولئك أصحاب هذا العلم النفسى — من ناحية أخرى . وتتبينُ بسهولةٍ بعد هذا مَن الفارس

الذى نعنى ، وما ميدانه : إنه وليم مكدوجل ، صاحب علم النفس الاجتماعى .

ويقول مؤلفنا فى وصف مهمة مكدوجل : « إنه قبل هذا العهد — عهد ظهور « مقدمته إلى علم النفس الاجتماعى » — لم يقم علم النفس بمحاولة جدية ليكون فى خدمة العلوم الاجتماعية ، وإنما تُرك لكل اجتماعى أو اقتصادى أو مؤرخ أن يتخذ له علم نفس يختص هو باستعماله . فإذا كانت هذه السيكولوجيات مرتجلة وغير ناضجة ؛ فذلك حقًّا خطأ علماء النفس المختصين ، الذين لم يكلفوا أنفسهم مشقة اعتبار كيف أنهم يمكن أن يزودوا هؤلاء بعلم نفس يلقى ضوءاً على المشاكل الاجتماعية ؛ إذ كانت السيكولوجية العلمية من الانغماس فى دراسة العمليات العقلية وفى تفاصيل الإحساس والذاكرة وتكوّن العادة ، حتى إنها نادراً ما مَسّت مشاكل الدوافع . على أن هذه العلوم ... ربما شاءت أن تعرف دافع السلوك الإنسانى . . .

ومن هنا كانت ثورة مكدوجل على النظام القائم ثورة مزدوجة : فهو قد اعترض على علم النفس المهوش كما وجده فى العلوم الاجتماعية ، واعترض أيضاً على النزعة العقلية التى كانت تسيطر وقتئذ على هذا العلم ، وعلى الإيمان بأن منهج الاستبطان هو وحده المنهج الصحيح فى علم النفس » . وتشبث مكدوجل بدراسة القوى العقلية والدوافع الإنسانية — من غرائز ، وعادات ، وانفعالات ، وأفعال منعكسة ؛ هى أساس للسلوك الفطرى والمكتسب — مما يُكوّن مذهبه المعروف بعلم النفس الهورمى أو القصدى ، الذى ظل طويلا يسيطر على ميدان علم النفس كله ، والذى كان له أتباع ومعجبون — جماعات وأفراداً .

ومن هنا نقول دائماً إن مكدوجل كان ظاهرة فى علم النفس ليس من وجودها بد ، وأنه قام بحركة رد الفعل التى لا بد منها لتثبيت دعائم هذا العلم الجديد ومطاءنة غلواء خصمه القوى الظافر . وقليل هم الذين يستطيعون أن يتصدوا لما تصدى له مكدوجل ؛ فهو قد تخلف عن الجماعة ، وتخلى عن مسايرة الركب ليواجه العدو الآتى عليه من خلف يريد أن يقضى عليه . وبينما استمر الآخرون فى طريقهم لا يحفلون هذا الخطر المحدق بهم ؛ كان هو يتكفل بحمايتهم ، ويُكون خط الدفاع عنهم ، ويتشبث بجعل علم النفس أساساً تقوم عليه العلوم الاجتماعية كلها ؛ كما تشبثت هذه بأن تسابه كل وجود على الإطلاق .

تلك هى المؤثرات والاتجاهات التى كانت تتجاذب علم النفس فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، مُلقيةً بين يديه موضوعات جديدة من

الخبرة والفعل ، والشعور واللاشعور ، والدوافع والقصد، والإحساس ، والإدراك ، والتخيل ، والتذكر ، والصور أو اللاصور .... ومناهج جديدة من الارتباط أو التداعي ، والتحليل ، والاستبطان ، والملاحظة الخارجية ، والإحصاء ، وتحليل الأحلام والرغبات وتصريف مكبوتها ... ومُدخلة دائماً أغراضاً جديدة ، وتجارب متنوعة ، شغلت علماء النفس أفراداً ومدارس ؛ فاتخذ كل منها من بين هذه كلها ما يصلح له من منهج ، وما يلائم منهجه من موضوعات عكف على دراستها والتجريب عليها . ولا نتوسع بك أكثر من هذا — فحسبنا هذا العرض الإجمالي لأساس مدارس علم النفس التاريخي — أما غرض كل مدرسة ومنهجها وأعلام باحثيها فسيأتيك بعد في حينه من هذا الكتاب .

* * *

وروبرت سشنز ودورث Robert Sessions Woodworth المولود في بلخرتون من من أعمال ماساتشوستس Massachusetts بأمريكا في ١٧ أكتوبر ١٨٦٩ قد كان أول ثلاثة أشقاء من زوجة أبيه الثالثة ، وخامس أربعة أخوة وأخوات له من أبيه ؛ شب على فتى منهما وفتاة كبيرين ينازعهما ، كما كان ينفس على شقيقه الذي يصغره ثلاث سنوات ، وأقام عند كبرى إخوته في بوستن الخمس السنوات التي لحق فيها بالمدرسة العليا من الثانية عشرة ، فكانت هي وزوجها له بمثابة والدين آخرين — كما يقول . يهمنا ذلك لنخلص منه — على طريقة أدلر — إلى تحليل شخصيته من أسلوب حياته ومكانه من أسرته ؛ وإن كان هو قد قطع على كل دارس له بهذه السبيل حكمه ونتيجة درسه ، فوصف نفسه — على أساس ذلك — بأنه لم يكن يخلو من الخضوع والشعور بالنقص ، مع اندفاع لتقرير ذاته كان يظهر في فترات طويلة . وذلك فيما سرد لنا من تاريخ حياته في المجلد الثاني من تاريخ علم النفس بالتأريخ الشخصي A History of Psychology in Autobiography الذي نشره الدكتور كارل مرتشيزون ، وأصدرته مطبعة جامعة كلارك (١٩٣٢) ص ٣٥٩ — ٣٨٠ .

وينحدر أبوه — الذي ولد هو له في الخامسة والخمسين ، وتوفي ذلك عنه وهو في العشرين — من مزارعين أقاموا أجيالا كثيرة في نيوانجلند ، فيما عدا جده الأول لأبيه الذي كان مدرساً . أما أبوه نفسه فكان واعظاً كنسياً يضطره حكم عمله إلى التنقل في كنائس كثيرة ، لا هم له إلا دراساته في العبرية واليونانية والإلهيات ، وقراءاته في موضوعات أخرى مما حوته مكتبته التي كانت مصدر إلهام روبرت الصغير ؛ وإن

هولم يستطع أن يقرأ منها إلا القليل . واستغراقه هذا فى قراءاته وتدينه وكتاباته لمواعظه قد جعله لا يختلط كثيراً بأبنائه ؛ إلا فى نزهاته الخلوية عصراً التى كان يصحبه فيها أحدهم . ومن ثم كانت له فى نفس عالمنا هيبة ورهبة لم تزالا حتى توفى ، وإن خفت عنه وطأتهما مع الزمن .

وأما أمه — التى أنجبته فى الثانية والثلاثين — فقد كانت من أسرة مزارعين ناجحين أيضاً ، أخذوا بنصيب من الحياة السياسية فى المقاطعة التى ولد فيها روبرت . وكانت هى الأخرى على جانب من الثقافة كبير ، تخرجت فيما تسمى الآن كلية مونت هوليوك Mount Holyoke College ، ووضعت نواة ما سمى فيما بعد كلية ليك إيرى للبنات Lake Erie College فى أوهيو ، واشتغلت مُدرسة للرياضيات والفلسفة العقلية — مما تأثر به غلامنا ولا شك ، وهو أكبر أبنائها . ومع أن الأم كانت مخلصة ومضحية فى خدمة بنيها الثلاثة ورعايتهم ؛ فإنها لم تكن عاطفية معهم إلى الحد الذى يشعر معه بعقدة أوديبوس تنصرف نحوها — على حد فرويد — بل هى بأن تتجه إلى مقاومة سلطان البلوغ وإلى الاستقلال والجرأة بإزاء والديه وإخوته أولى .

ومن هنا فإن بيئته يجب أن ننشدها فى جيرته أكثر مما ننشدها فى بيته — كما يصرح هو ؛ مع الأولاد والبنات الذين لاعبوه ، والرجال الذين حادثوه فى إيوا Iowa — حيث قضى معظم الست السنوات التالية لميلاده فى ماساتشوستس ، وفى قرية كونكتيكت Connecticut وبوستن الست السنوات التالية لهذه — لا مع إخوته وأخته وبنات أخته ؛ هذه الثلة من الأصدقاء التى طالما سببت صحبتة لها أذية والديه له ، والتى حملته ذات مرة على أن يأكل القذر ، وأن يكون له مثلهم — حتى فى سن السابعة — عشيقة أو خليلة ؛ يذكر هو أن رفاقه كانوا يأتون فى ذلك أفعالا دونها ما يؤتى بين جدران المنازل ! ولعل هذا النوع من الحياة هو ما حدا به إلى أن يفكر — فى الرابعة عشرة — فى العودة إلى الريف ، ومعاودة فلاحة الأرض — مما تعود عليه من قبل — إلا أنه ما كاد يتخرج فى المدرسة العليا ؛ حتى ألح على والديه أن يدرس فن الموسيقى الذى طالما أولع به . ولكنه اقتنع بسهولة باللحاق بالكلية حتى أتمها ، ونسى الموسيقى ، وخرج إلى مهنة التدريس . لقد كانت أسرته تريده لمثل عمل أبيه ، ولكنها لم تحمله على غير ما يريد حين رضى لنفسه أى نوع من التدريس يرتسم له فيه أفق المستقبل .

ويعنينا بعد هذا أن نتتبع تطوره الروحى ، وكيف تم له الاتجاه إلى علم

النفس . لقد كان يسمع ويقرأ كلمة « پزيكولوچيا pizzicology » فلا يفهم منها أكثر مما يفهم المبتدئون من الطلاب فى ذلك العلم . قرأ الإنجيل فكانت ميوله نظرية شبه لاهوتية ، ثم درس الفلسفة وتمنى لو لمع فيها ، وقرأ خصوصاً « مقالات » بيكون Bacon's Essays فأعجب بها وكتب على غرارها فى موضوعات العقل والسلوك الإنسانى . أما فى المدرسة والكلية التى ذكرنا فقد اتجه بمعظمه إلى الآداب القديمة والرياضيات ، وشىء من التاريخ والأدب الحديث ، وقليل من العلوم الفيزيقية . فلما لحق بكلية أمهرست Amherst — ومحاضرات الفلسفة فيها يلقيها شارلز إدوارد چرمن Charles E. German الرجل الذى يُعجب به كل من سمعه يحاضر من تلاميذه ، والذى كان يعنى بحاجات هؤلاء وتوجيههم ، والذى ما إن سعى ودورث للتعرف إليه ، وراعته قلة معلوماته فيما كان يريد أن يكون بسبيله ؛ حتى ذهب معه بنفسه إلى المكتبة يَدلُّه فيها على الكتب التى يطالعها فى عطلة الصيف تحقيقاً لرغبته فى التفلسف — حتى كان هذا الاهتمام من جانب الأستاذ باعثاً لإثارة طلب العلم والفلسفة فى نفس الشاب ، وحتى وجد فيهما منذ ذلك الحين تخصصه وميدانه الحقيقى .

وكان من أول ما يقدم به چرمن لدروسه فى كل سنة الحديث فى علم النفس ؛ يعرضه وسيلة للفلسفة وتشويقاً للطلاب ، لا غاية فى ذاته . وكذلك فعل حين انتهى صيف ودورث فى سبتمبر ١٨٩٠ . ولم يكن قد ظهر فى الإنجليزية حتى ذلك الحين كتاب يعد مَتناً لعلم النفس — حتى مبادئ چيمس — وكان النص المعتمد فى هذه الدراسة فيزيولوچيا العقل Mental physiology لكارپنتر Carpenter — الذى يرجع إلى ١٨٧٠ ، والذى يتناول موضوعات الإحساس والإدراك والذاكرة — وتبعاً لهذا المرجع ولطريقة چرمن فى دراسته ؛ لم يكن علم النفس لينفصل فى ذهن طالبنا عن الفلسفة . فتخرج من الكلية عام ١٨٩١ (بدرجة الليسانس A. B.) بهذه الفكرة الفلسفية عن علم النفس ، وسيظل هكذا اثنتى عشرة سنة أخرى .

ونُصح له بعد تخرجه بالتدريس . فعلّم الرياضيات والعلوم سنتين فى مدرسة ثانوية ، والرياضيات سنتين أخريين فى كلية واشبرن . وفى هاتين وقف نفسه بكاملها على تعمق الرياضيات ؛ حتى لقد ترجح — حين عاود الجامعة — جامعة هارڤرد — بعد هذه السنوات بين الرياضيات وعلم النفس ، فمال به إلى هذا الأخير هذا التأثير المزدوج الذى تلقاه من وليم چيمس واستانلى هول . أما چيمس فقد أثر فيه

بكتابه الذى عُدّ الأول من نوعه فى علم النفس ، وهو حينئذ حديث الظهور . وأما هول ؛ فإن روحه الجامعى ونظرته إلى الجامعة على أنها موطن العلم والبحث الدائبين ؛ قد أخذ الشاب بهذا الجو العلمى الأكاديمى : سمعه يحاضر ، ويكرر – بين الحين والحين – قوله : عرفنا إذن ... وهنا نجد ... فأعجب بروحه كمحاضر ، وبقوله كباحث علمى أو مستكشف ؛ حتى ليذكر أنه عاد إلى حجرته وعلق على مكتبه – من فرط حماسته – لوحة كتب عليها كلمة بحث INVESTIGATION – وإن كان بحثه فى ذلك الحين – كما يقول – فى الرياضة لا فى علم النفس. وإنما ظهر أثر هول فيه حين دخل جامعة هارڤرد بعد سنة ؛ مصمماً على أن يترك الرياضة إلى علم النفس ، الذى لم يكن أكثر تميزاً عن الفلسفة فى ذهنه منه فى نظام الجامعة .

وتقاسمت ودورث إذن فى سنتيه الأولَيين فى هارڤرد الفلسفةُ وعلمُ النفس ؛ تتلمذ فيهما على چيمس ورويس Royce : هذا فى علم النفس العام ، والمرضى ؛ وذاك فى الفلسفة ، وخصوصاً المنطق . فكتب لهما أوراقاً فى إدراك الزمان perception of time – وإن لم ينشر فى ذلك شيئاً – كما بحث فى الفكر واللغة ، ولم يشأ أن يقبل فكرة مكس ميلر Max Müller فى أنه لا فكر بلا لغة ، وأن علم الفكر يجب أن يقوم فى أساسه على علم اللغة ؛ فقد كان يرى هو أن أفكاره كثيراً ما يعوزها اللفظ للتعبير عنها ، وكان يشعر أن تجربته الكافية فى الرياضيات تدله على أنه كثيراً ما يفكر فى أشكال ورموز وحدود – لا فى ألفاظ – أما العدد فليس حقّاً ما قال به ميلر فيه من أنه لا يتم إلا فى كلام ؛ فإن تجربته قد هدته – فى هذا أيضاً – إلى أن يستطيع العد counting بتجميع إيقاعى لمجموعات أعداد تتجمع هى الأخرى ، حتى وصل إلى مائة . وقد عاود هذا الموضوع فيما بعد ، وكتب فى الفكر بلا صورة imageless thought (فى مجلة الفلسفة J. phil. (١٩٠٦) مجلد ٣ ص ص ٧٠١ – ٧٠٧) وقال بوجود أنواع أخرى من التفكير غير النوع اللفظى أو التعبيرى اللغوى .

هذا مع رويس . أما چيمس فقد طاب إليه أن يكتب فى الأحلام dreams فرجع إلى كتبه ، وأهاب بتجربته ، وبحث سرعة الأحلام مقارناً إياها بسرعة غفوة الصحو أو حلم اليقظة (نشر فى ذلك : ملاحظة فى سرعة الأحلام Note on the rapidity of dreams ، فى الصحيفة النفسية Phsychol. Rev. : ١٨٩٧ ص ص ٥٢٤ – ٥٢٦) .وانتهى فى تفسير الأحلام إلى افتراض وَدّ فيما بعدُ لو نشره .إذ كان

يشبه من ناحية – ويخالف من أخرى – تفسير فرويد للأحلام الذى نشر بعد . فقد كان يرى أننا نحلم بأمور تعرض لنا فى يومنا ، ولكنها تُعارض وتُعوَّق ، فأيما رغبة أو ميل عرض لنا أثناء النهار ، ولم يصل إلى غايته : فمن المحتمل أن يظهر فى الأحلام ، وأن يصل فيها إلى غاية مُرضية لم يصل إليها نشاط القوى الأولى التى تختفى هنا تماماً . أما نوع الرغبات فلم يقصره باحثنا على الجنس ، بل هو أية رغبة كانت ؛ حتى مجرد الاستطلاع . وأما عقبات تحقّق هذه الرغبات فى النهار فلتكن أىّ عائق أو رقابة خلقية أو أدبية .

وبحث كذلك – فيما اشتغل به حينئذ – علاقة الجسم والنفس mind-body relation فى دراسة علم الدوافع motivology – الذى استشار فيه زميله ثورندايك – وتتبع فى ذلك عمل فرويد ومكدوجل فيما كان يظهر من كتاباتهما . والمهم أنه كاد يختتم سنته الثانية فى هارفرد (١٨٩٧) وما يزال يترجح بين سيكولوچيا چيمس – المرضية خصوصاً – التى كانت فى أوج دراستها ؛ وبين فلسفة رويس وسنتيانا المنطقية والخلقية . وإنما ظهرت حاجته إلى تحديد موقفه ؛ حين عرض عليه چيمس أن يعمل سنة فى معمل الفيزيولوچيا إن كان يريد الميل إلى علم النفس . واستشار أستاذ الفلسفة فى ذلك ، فنصحه رويس أن يقبل . وتم تحوله نهائيًّا إلى علم النفس سنة ١٨٩٧ ، وإن لم تزل به بقية حنين إلى متابعة مودته للفلسفة . .

إلا أنه سرعان ما تبين له أن ميدان علم النفس تخصص كاف ، وواد خصيب حَسْبُه أن يشتغل به . فأصبحت الفلسفة عنده غير مرغوب فيها ، ودرس الفيزيولوچيا خمس سنوات : مع بودتش Bowditch وپورتر Porter فى هارفرد (١٨٩٧ – ١٨٩٨) وجراهام لَسك Graham Lusk فى نيويورك (١٨٩٩ – ١٩٠٢) وشافر Schafer فى ايدنبرج (١٩٠٠) وشرنجتون فى ليڤرپول (١٩٠٢ – ١٩٠٣) حيث كان معيداً أو مساعداً لهؤلاء فى الفيزيولوچيا ؛ درس معهم القلب ، وحركات المعدة ، والتمثيل الكربوإيدراتى ، والتوصيل الكهربى فى الأعصاب ، والتحديد الموضعى للمخ ، والفعل المنعكس .... الخ .

وحتى ذلك الحين ؛ لم يكن ودورث قد استقر فى علم النفس إلى الحد الذى ينسى معه أى صلة بالفلسفة ، فما إن أتيح له أن يعمل سنة مع كتل فى كولومبيا ، للتحضير للدكتوراه فى الفلسفة (١٨٩٨ – ١٨٩٩) عملا شاقًّا متواصلا فى علم النفس الخالص ، حتى راعه فى كتل تشبثه بالتجارب الكمية على نحو موضوعى –

وخصوصاً فى اختبارات الذكاء والفروق الفردية — حتى لقد عد كتل أستاذه الحقيقى؛ الذى حدد له — بعد هذه الحيرة الطويلة فى الاختيار — عمله السيكولوجى النهائى، ومنحه الدفعة الأولى التى سيّرته فى طريقه بالقصور الذاتى لا يتلكأ أو ينظر إلى وراء. فخرج من عنده بثانى درجة للدكتوراه خرّجها معمله (١٨٩٩). وسيعود ودورث إلى معاونة كتل فى هذا المعمل، كما سيصبح خليفته فى كرسيه بكولومبيا، وخليفته فى صلته بالتفكير السيكولوجى الأمريكى لعهده.

وكتل — كما سنرى فى تعليقنا عليه فى الفصل الثالث — شخصية جديرة بالاعتبار. وشهرة هذا الرجل تأتى — فى معظمها — من شخصيته هذه التى جمعت حوله كثيراً من الأتباع، وخرّجت من معمله رسائل كثيرة للدكتوراه، لتلاميذ أصبحوا فيما بعد قادة علم النفس الأمريكى. وهم — على ترتيب تخرجهم — ثورندايك (١٨٩٨)، وودورث وفرانس (١٨٩٩)، وكلارك وسلر C. Wissler (١٩٠٢)، ودير بورن Dearborn (١٩٠٥)، وولز F.L. Wells (١٩٠٦)، وبراون Warner Brown (١٩٠٨). وهولنجورث (١٩٠٩)، واسترنج E. K. Strong (١٩١١)، ثم پفنبرجر A. T. Poffenberger (١٩١٢) الذى هو مساعد ودورث وخليفته الآن، كما كان هذا مساعد كتل وخليفته. وبهذا يقول المؤرخون إن جامعة كولومبيا قد أنتجت من رسائل الدكتوراه أكثر مما أنتجته أى جامعة أخرى، وأنه كان من هؤلاء جميعاً قادة علم النفس البارزين. وخلفاء كتل نفسه: ودورث وپفنبرجر على الترتيب.

والذى كان يشتغل به هؤلاء جميعاً تحت قيادة كتل فى كولومبيا — أكبر جامعة فى ذلك الحين فى أمريكا — هو اختبارات الذكاء. وأزمنة الرجع، والمنهج الإحصائى وما ينشأ عنه من أحكام موضوعية ليست ترجع إلى الاستبطان؛ أى — فى كلمة واحدة — سيكولوجيا القدرات العقلية الإنسانية. التى تدفعها الرغبة إلى تعرُّف إلى أى حد يُحسن الناس سلوكهم فى هذا الموقف أو ذاك؛ بتحليل هذه القدرات إلى علل الشعور، أولى من تحليلها إلى العلل الفيزيولوجية، ومحاولة وصف الطبيعة الإنسانية من حيث درجات اختلاف العقلية وفروقها — أى ما كان يسعى له جالتون تماماً. وهى — كما ترى — من صميم علم النفس الوظيفى، وإن هى لم تأخذ رسميًّا هذا الاسم. وإنما كان لهذه الدراسة أهميتها فى ذلك الحين؛ لأنها كانت تمثل النزعة الأمريكية فى دراسة علم النفس، مما كان ممهداً لظهور السلوكية فى أمريكا فيما بعد.

وبلغ من أثر كتل فى تلاميذه أن تعهدوا بنشر أشتات بحوثه فى المجلد الذى أصدره ستة منهم (١٩١٤) فى محفوظات علم النفس Arch. psychol عدد ٣٠ باسم بحوث چيمس ماك كين كتل السيكولوچية The psychological Researches of James McKeen Cattell . وفيه تناول هنمون V.A.C. Hĕnmon زمن الرجع، وتناول دير بورن: القراءة والإدراك، وولز: الارتباط، وودورث: السيكوفيزيقا، وهولنجورث: منهج ترتيب الجدارة Method of order of merit ، وثورندايك: الفروق الفردية.

ومن هنا اتخذ كل منهم نقطة بدئه: فقام ثورندايك بالعمل التجريبى على الحيوانات، وأصبح رائد أمريكا الممتاز فى اختبارات الذكاء، وأستاذاً فى كلية المعلمين بكولومبيا. وأصبح ودورث خليفة أستاذه — كما ذكرنا — فى كل شيء. واشتهر فرانتس S.I. Franz بعمله فى تحديد مواضع الوظائف المخية. وأصبح ڤسلر أنثروپولوچياً ممتازاً، ورائد معمل علم النفس فى ييل Yale . وصار ديربورن عالم النفس التربوى المعروف فى هارڤرد، وولز بطل المقاييس النفسية psychometrics فى مستشفى بوستن السيكوپاتية، وبراون أكبر عالم تجريبى فى جامعة كاليفورنيا. وهولنجورث — فى كلية برنارد — مؤلف كتب هامة فى موضوعات كثيرة من علم النفس. واسترنج عالم النفس الصناعى المعروف .. إلى آخر ما ذكر كتل فى قائمة علماء النفس الأمريكيين البارزين (من خمسين عالماً) بحسب منهجه فى ترتيب الجدارة.

ومنذ ١٩٠٢ ومطلع ١٩٠٣؛ صار ودورث مساعد شرنجتون فى ليڤرپول، واتجه حينئذ إلى أن يجعل سيكولوچياه دراسة لفيزيولوچيا المخ دون غيرها. وكان شرنجتون أشد ما يكون رعاية له وتشجيعاً على متابعة هذه الدراسة. ولكن كتل ما لبث أن استدعاه إلى جامعة كولومبيا للعمل فى علم النفس التجريبى والفيزيولوچى، ولم يكن له — فى غير حاجة إلى كبير تدبر — إلا أن يستجيب لهذه الدعوة التى هى أولى باستعداده ومستقبله. وهكذا عاد — بعد اثنتى عشرة سنة كاملة من تخرجه فى كلية أمهرست، وبعد تدريس الرياضيات والفلسفة والفيزيولوچيا — ليستقر معيداً، فأستاذاً مساعداً، فأستاذاً لعلم النفس فى كولومبيا؛ لا يبرحها إلا فى أسفار وغيبات قصيرة — منها سنة ١٩١٢ التى قضاها فى معمل كيلپه فى بون Bonn — وقد جاوز الأربعين؛ لأنه — كما يقول — يعد كيلپه أباً له فى علم النفس.

واستطاع ودورث — وهو عائد من انجلترا (١٩٠٣) ليعمل فى قسم علم النفس بكولومبيا — أن يقترن بفتاة. وصارا فى كولومبيا زوجاً من جملة أزواج اصطحبوا

فى الجامعة وفى الإقامة سنوات بمستعمرة مونتروز Montrose Colony فى الغابات بعيداً عن النهر بنحو أربعين ميلا : هم أسرة ثورندايك ، وود بردج Woodbridge وكپل Keppel ، وباجستر كولنس Bagster-Collinse . وهناك عاش أولاده الأربعة بين عشرين طفلا لهذه الأسرات الصديقة حياة صحة ونعمة ونضارة ، ويقول هو : « إن عينه كانت لا تغفل عن رقابتهم ، وأنه قد استفاد منهم وإن لم يحاول دراستهم أو تطبيق علم النفس عليهم ، كما لم يحاول توجيههم أو السير بهم إلى النواحى العلمية التى هو أولى الناس بالاقتناع بها ؛ بل تركهم وشأنهم يتجهون إلى تفضيل النواحى العملية » . ولم يلبث عالمنا حتى تملّك أرضاً واسعة أشرف — بسابق تهيؤه واستعداده — على زراعتها وشق طرقها وقطع أخشابها ورعاية بساتينها ؛ يقضى فى ذلك معظم وقته متمتعاً بهذه الحياة الحاوية التى أحبها ، فأصبح — لولعه بالغابات والجبال والبحر والسهول — سائقاً ممتازاً ؛ يحظى من هذه الهواية بمتعة القيادة وجمال الرحلة والطبيعة حظاً مزدوجاً ؛ حتى لكم تمنى أن يكون چيولوچيًّا أو أنثروپولوچيًّا حتى يكون لهواياته هذه مُسوِّغ من عمله ، أو أن يجد من وقته ما يسمح له بالجمع بين هوايات الرحلة والأسرة والموسيقى والقراءة والجامعة التى كانت تتوزعه ؛ وبين ميله الرئيسى الأول إلى البحث السيكولوچى

وتنوعت محاضرات ودورث فى علم النفس فى موضوعها بين حين وحين ؛ سواء فى محاضراته التمهيدية العامة التى كان يتولاها أحياناً ، ومحاضراته فى علم النفس الفيزيولوچى ذاته ، كما حاضر فى علم النفس المرضى سنوات ، وفى علم النفس الاجتماعى سنوات أخرى طويلة ، وكان يعرض بين حين وآخر لموضوعات اختبارات الذكاء ، والإحصاء ، ومناهج علم النفس ومشكلاته وتاريخه ونظريته وتطبيقه . أما ما كان يتدارسه مع حلقة تلاميذه seminar دراسة خاصة فهو موضوعات الحركة ، والبصر ، والذاكرة ، والتفكير ، والدوافع . وانتهى أخيراً إلى أن يقصر محاضراته على علم النفس التجريبى ، وإلى نظرة لمدارس علم النفس المعاصرة وما تعرض له هذه من مسائل ؛ تلك التى تمخض عنها أحدث كتابين هامين له : مدارس علم النفس المعاصرة Contemporary Schools of Psychology (١٩٣١) وعلم النفس التجريبى Experimental Psychology (١٩٣٨) .

وقد تبع الأستاذ ودورث فى دراسته مع خاصة تلاميذه للدراسات العليا ما كان يتبعه أستاذه كتل مع حلقة أتباعه لهذا الغرض . فإن أثر كتل فيه كان من القوة

بحيث وصفه بقوله : « إنه لا يوجد رئيس أدق من كتل ، أو مثله فى شخصه أو فى شئون الإدارة والعمل والدقة العلمية » .فقد كان من عادة كتل أن يتقدم له كل طالب دكتوراه بأفكار بحثه ، وتقدُّم دراساته من فترة إلى أخرى ، وبما انتهى إليه عمله وبحثه ؛ ليناقشه زملاؤه الطلاب كما يناقشه الأساتذة ، وكان نقد كتل لأخطائهم حاسما ورفيقاً فى الآن نفسه ، إذ كان لا يثق بنتيجة أى بحث يخلو من هفوة محتملة ، أو يغفل ما وصل إليه الباحثون من قبل . ويقول ودورث فى هذا السبيل : إنه يذكر طالباً ظهر من مناقشته موضوعه أنه أجوف ،وأن دراسته له تافهة ؛ فاختفى من بينهم منذ ذلك اليوم . ويقول إن كتل كان يتبع فى تخيُّر موضوعات رسائل تلاميذه نفس طريقة ڤونت أستاذه ؛ فهو يتوقع من الطالب أن يعرض هو مشكلة يريد التجريب عليها ، وبعد أن ترتسم الخطة العملية التى ينفذ منها إلى معالجة الموضوع ، كان عليه أن يعتمد فى السير فيه على مجهوده وحده . ويقول كذلك إنه سار على هذه الخطة ، فاعترضتها حاجة كثير من التلاميذ إلى توجيه وإرشاد لم يكن بد من أن يبذله ؛ خصوصاً بعد أن توسعت هيئة التدريس ، ولزم تقسيم الميدان ، وتخصص كل أستاذ وتلاميذه فى البحث فى موضوعات خاصة يهيئون أنفسهم لها — على طريقة العميد ودبردج Woodbridge ، ورئيس قسم علم النفس بعدئذ پفنبرجر Poffenberger خصوصاً — مما أمكن معه لمّ المجهودات الشتيتة .

على أن ودورث يرى أن توزُّع الطالب بين موضوعات كثيرة من علم النفس ليس من ذنبه ؛ فإنه هو نفسه قد توزعته موضوعات كثيرة — كانت تبدو طريفة كمسائل للبحث — ولم يزل ينضاف إليها غيرُها مما يجدُّ فى نوعه ، ويستهوى طلاب البحث والدراسة . فمن ذلك ماسبق أن ذكره : عملية التفكير thinking process وإدراك المكان time perception وانتقال التدريب transfer of training وضبط الحركة motor control والدوافع motivation مما لم يزل يعاود تناوله — وتلاميذه معه . وقد أدت به دراسة ضبط الحركة إلى بحث مسألة ما إذا كانت صور الإحساس الحركى kinaesthesic images أساسية كسوابق مباشرة للحركة الإرادية ؛ التى اضطر فى دراستها إلى اطراح تقاليد الجماعة ليهيب بالاستبطان — خجلا من نفسه — وظل يستعين بهذه الطريقة على تأمل صور الإدراك والتفكير ؛ مما أدى به إلى مشكلة الفكر بلا صورة imageless thought ، وذلك فى ١٩٠٦ — ١٩٠٨ .

وتبدو لنا مشكلة الفكر بلا صورة وكأنها غير ذات قيمة ؛ وذلك لما

ثار حولها من الجدل والخصومة التى أدت بها إلى أن تأخذ مكانها الآن فى درجة دنيا من النظرية السيكولوجية . وكان ودورث من الذين أسهموا فيها بنصيب وافر ، إذ كان لا يشك فى وجود هذه الصور اعتقاداً منه بأن لديه هو نفسه صوراً سمعية كثيرة لكلام وموسيقى وأصوات ؛ اعتقاداً جعله لا يبدو وجيهاً فى موقفه لو أنه سأل زملاءه الذين يقولون بمثل ذلك فى الصور البصرية حجتهم ودليلهم . لقد كان يتعجب لجرأة القائلين بأن الصور لا وجود لها ، ويعجب بمن يفترضونها حركات عضلية أو إحساسات بمنبهات محيطة حاضرة ؛ وإن كانت هذه الفروض لا تسلم عنده من الترجح بين الاحتمال وعدمه ، وبالتالى هى غير مقررة . فالعمليات التى نسميها الصور الذهنية موجودة ومتوافرة ؛ لا شك فى ذلك . ولكن نقطة الخلاف حول مشكلة الفكر بلا صورة ؛ كانت — وما تزال — أن هذه العمليات التصورية غالباً ماتختفى تماماً فى اللحظة التى يتقدم فيها الفكر بنشاطه ، وأنه — بالتالى — لا بد أنه توجد عمليات تفكير ليست عمليات تصور . والوصول إلى نتيجة كهذه فى مثل هذه المشكلة يعده ودورث جوهرياً وذا أهمية فى علم النفس الديناميكى والفيزيولوچى . إن مشكلة الصورة الذهنية ليست إلا جزءاً يسيراً فى مشكلة التفكير كلها ، ولكنه يود ألا يخطىء الظن فى أن سلسلة دراسات التفكير — التى كانت تصدر من معمله بين الحين والحين — قد ساعدت على فهم أوضح لهذه العملية الممتعة ، هذا ولو أن هذه العملية الخفية الملتوية يكشف لنا الاستبطان عنها الشىء الكثير ؛ فإنه يلزم أن نجد لها مناهج موضوعية تدرس بها فى المعمل .

والمؤلف يعرض فى مطلع الفصل الثلاثين فى كتابه الأخير : علم النفس التجريبى (١٩٣٨) مراحل مشكلة الفكر بلا صورة ، وموقفه منها — بعد أن يعرض لدراسة بيلر وتتشنر خصوصاً (ص ص ٧٨٦ — ٧٨٩) . ومؤدى رأيه — كما قلنا — أن الفكر بلا صورة لم يعد أكثر خفاء وغموضاً من إدراك الحقائق اليومية (ص ٧٨٩) وأن ما هو بلا صورة ليس فكراً أولى من أن يكون تذكراً recall ، فإن الحقائق العادية جداً : كمكان مبنى ما وأسلوبه ، أو محتويات جيب المرء ؛ تُتذكر بغير صور ، وأن أى نوع من حقيقة شاهدناها نتذكره فى كثير من الأحوال مجرداً من الخلفية الحسية للتجربة الأصلية ؛ ومن بينها — لأول وهلة — الصور اللفظية (ص ٧٨٧) .

وكان فى الذاكرة memory وفى التحور transfer تجارب أكثر موضوعية وخصباً فى دراسة ودورث . فالذاكرة تعين عليها رؤية العلاقات فى مادة الشىء الذى نتذكره

ـ كما قرر «ميلر» من قبل . وتجربة فيها عنصر المعونة هذا ـ أو قل الذاكرة المعانة aided memory ـ يمكن أن تكون موضوع دراسة موضوعية لتفكير العلاقات relational thinking ؛ كما يسميه . يعنى أنه إذا كان الفكر بلا صورة لم يقم عليه الدليل موضوعياً ؛ لأنه شخصى لا سبيل إلى إدراكه إلا بالاستبطان ـ كما فعل هو نفسه ـ فإن الذاكرة كانت تكون استبطانية فى دراستها كذلك لو لم تكن لها هذه الخاصة التى تنتقل بها من الذاتية إلى الموضوعية كموضوع للدرس ؛ وهى : إمداد الفكر بعلاقات واضحة فى مادة الشىء الذى يراه، ثم التجربة على مدى تذكر هذه العلاقات ، كما ترى فى كتابه (١٩٣٨) الذى عرض فيه للذاكرة فى الفصل الثانى (ص ص ٥ ـ ٤٩) والفصلين التاليين (٥٠ ـ ٩١) . والمهم أنه يتصل بدراسة الذاكرة عنده مسألة حل الإشكالات problem solution الذى يقوم فى أساسه على الإفادة بسابق التجربة والخبرة ؛ مما يتطلب تحوير transfer ما اكتسبناه من قبل ، ليصلح حلا للموقف الجديد . ومن هنا فإن تجارب الذاكرة والتحور كثيراً ما اجتذبته وقامت حولها كثير من الدراسات فى معمله ، كما جرب عليها وتناولها فى مواضع كثيرة من كتابه المذكور لا حصر لها ، وخصوصاً فى الفصل الثامن (ص ص ١٧٦ ـ ٢٠٧) .

والدوافع motivation كانت تبدو له هى الأخرى دائماً موضع دراسة جدير بأن يوضع إلى جانب الفعل performance . يعنى أنه لا يلزمنا أن نعرف ما يستطيع الفرد أن يفعله ، وكيف يفعله فحسب ؛ بقدر ما يلزمنا أن نبحث ما ينتهى به إلى أن يفعل شيئاً أولى من شىء آخر ، وأن يوجه لهذا الفعل نشاطاً كبيراً . فدراسة الدوافع تلزمنا إذن لفهم حرية الاختيار فى السلوك ونشاطه المتنوع . وكانت محاولة مؤلفنا فى هذا السبيل ـ فى كتبه ـ هى البحث عن صيغة تتنزل بالدوافع لتجعلها وسط الفعل ، بدلا من تركها سابحة فى محيط متعال ـ كما يقول . والشىء الوحيد لمثل هذه الصيغة هو تخليص عقلية المجرب المدقق من كل ما عسى أن يشعر به من ضعف فى الدخول على هذا الموضوع . وهنا يرى ودورث أن نظرة منصفة إلى الدراسات التى خرجت من معمله ؛ تدل على أنه ؛ وإن لم يقم بنفسه بكثير من هذه البحوث ؛ قد لعب دوراً غير قليل فى القدرة على التوجيه لموضوعات الدوافع كالرجع والانعكاس والتذكر والاكتساب والمران وغيرها ـ مما عالجه فى رسائل تلاميذه ، وعرض له فى كثير من كتبه .

وأما السيكوفيزيقا ، فقد جذب انتباهه إليها لأول وهلة أستاذه كتل ، وكانت مناهجها تقدم بطبعها ميداناً للكشف أوسع ، وعملا أخصب . ولكنه لما تجمعت لديه النتائج التى سيعممها ؛ راعه تفرق مناهجها ، وحاجتها بالتالى إلى المقارنة ، ومع هذا فإن علم النفس هنا على صلة بعلوم أكثر تقدماً كالفيزيقا والكيمياء والفلك – يود المرء لو يتابعها ، ويأخذ بنصيبه فى تنظيم المسألة شيئاً . وقد آتت هذه الرغبة من مؤلفنا ثمرتها فى نتائج معمله ، وفى كثير من كتاباته – كما عرض لهذا الفن بتوسع شامل فى الفصلين السادس عشر والسابع عشر من كتابه : علم النفس التجريبى ص ص ٣٩٢ – ٤٤٩ ؛ إن فى مناهجه أو نتائجه .

واتجه كذلك – فى فترات من حياته كانت تستهويه فيها الرياضيات – إلى أن يقضى أياماً سعيدة يحاول أن يستخرج نماذج إحصائية نافعة ، وتكوين مجموعات ورسوم رياضية . ويقول هو إنه ما إن لحق الرياضيون المختصون بالموكب ؛ حتى كان طبيعياً أن يتخلف من غير أن يفقد لذته فى ذلك ، وكان لهذا أثره فيما وصل إليه من صيغ رياضية فى اختبارات الذكاء وغيرها – مما تناوله غيره مرة منذ ١٩٠٤ وهو يحاول تصميمات وتعديلات لهذه الاختبارات ، وخصوصاً ما وصل إليه مع ولز F. L. Wells فى اختبارات الارتباط The Association Tests الذى نشرته الصحيفة السيكولوجية Psychol. Rev. فى بحث مستقل رقم ٥٧ (١٩١١) فى ٨٥ صفحة – كما كان لهذا الاتجاه أثره كذلك فيما انتهى إليه باسم : القائمة العصبية النفسية Psychoneurotic Inventory أو ثبت المعلومات الشخصية Personal Data Sheet – التى سنعود إليها فيما بعد – وفى بحوث تلاميذه الكثيرين فى اختبارات الذكاء بإشرافه الفعلى أو غير الفعلى من جملة جهوده فى هذه الناحية من البحث . ولكن توزيع العمل أخيراً فى قسم علم النفس بكولومبيا – حيث كان يعمل – قد جعله لا يختص بالاختبارات اختصاصاً عملياً . وإن كان لديه – كما يقول (١٩٣٢ ، ولم أرها تظهر بعد) – تخطيط أو تخطيطان لاختبارات يود لو أبرزهما .

ذلك هو النوع من علم النفس الديناميكى Dynamic Psychology بمعناه الأوسع الذى نهض به – وكان له أكبر الأثر فى علم النفس الأمريكى فى حينه وفيما بعد – الأستاذ روبرت ودورث – كما كتب عنه فى سيكولوچيات ١٩٢٥ (١٩٢٦ ص ص ١١١ – ١٢٥) وسيكولوچيات ١٩٣٠ (ص ص ٣٢٧ – ٣٣٦) وفى كتابه المسمى

بهذا الاسم .Dynamic Psychol الذى نشرته مطبعة جامعة كولومبيا فى نيويورك (١٩١٨) فى ٢١٠ صفحة .

وتلك هى أبرز موضوعات علم النفس الذى اجتذب ودورث ، والتى كان له فيها نتائج ظاهرة الجدة والطرافة ، عدا بحوثه القيمة فى علم النفس الحيوانى — الفرع من علم النفس الذى تحمس له مؤلفنا وعمل فيه — وكذلك فى علم نفس الطفل ، مما كان له فيه جولات موفقة تقدمت بكل فرع منها إلى الأمام ، وعدا بحوث وأوراق أخرى ذات بال — كتبها ولم ينشرها — وإنما حفظت فى محاضر جلسات الجمعيات التى كان يتقدم بها إليها ، وعدا نشاطه فى الهيئات المختلفة التى كانت تهيئها له الجامعة أو تهيئه لها شخصيته . وأولها مؤتمر World Fair فى سانت لويس (١٩٠٤) الذى جمع فيه ممثلو أجناس كثيرة لاختبارها بالمقاييس النفسية والأنثروبولوچية ، واختبر فيه ودورث وكبير مساعديه برونر F.G. Brunner وغيرهما الجرى وسرعته ، والقوى العضلية ، والكفاية العقلية ، والسمع ، والبصر ، والذكاء ، والعقل ، والفعل بوجه عام ؛ فى أحد عشر مائة فرد كنماذج نوعية مختلفة ؛ فقدم المساعد فى ذلك رسالة ، والأستاذ تقريراً باسم : الفروق النوعية فى الخطوط العقلية Racial Differences in Mental Traits فى مجلة Science (١٩١٥) ص ص ١٧١ — ١٨٦ . وكذلك اشتغاله أثناء الحرب العظمى بالدراسة فى اختبارات الجيش ؛ بعد أن لم يتمكن من استجابة دعوة زملائه وبقى فى الجامعة ، وبحثه خصوصاً بتكليف هيئة علماء النفس .Amer.psychol.Assoc عن مقياس للثبات الانفعالى emotional stability حيث كون — بالرجوع إلى كل ما سبق من دراسات عصاب الحرب فى الجيوش ، والوقوف على مئات من أعراضه ؛ قائمة أسئلة questionnaire تطبق على مجموعة أشخاص فى وقت واحد ، ويجاب عنها بنعم أو لا فحسب ، وما زال يطبقه ويعدله ويجربه بعد اختصاره على ألف حالة بأحد المعسكرات ، ويحاضر الأطباء العسكريين فى كيفية استعماله ؛ حتى انتهت الحرب ولم يطبق على نطاق واسع يتبين معه مدى نجاحه فى الكشف عن أعراض العصاب النفسى . وقد ساعده فى هذا المنهج — قائمة المعلومات الشخصية Personal Data Sheet — الأستاذ پنتبرجر قبل ذهابه إلى الجيش ، وبورنج فى مطابقة نتائجه بالنماذج هناك ، واستخدم هولنجورث المنهج فى حالات إصابة بالصدمة المخية shell-shock بنجاح مرض ، كما استخدمه آخرون فى صيغته أو فى صيغ أخرى .

هذا عدا اشتراكه ورياسته أو مساعدته لهيئة تقدم العلم الأمريكية .Amer. Asssoc. for the Advan. of Science (١٩٠٨ ، ١٩٢٤) وقسم الأنثروپولوچيا وعلم النفس فى لجنة البحث القومى NationalResearch Council (١٩٢٤–١٩٢٧) ولجنة بحث العلم الاجتماعى Social Science Research Council منذ ١٩٢٥ حتى ١٩٣١ بحيث كان رئيساً ، ثم أكاديمية العلوم الأهلية National Acad. of Science ، ورياسة هيئة علماء النفس الأمريكيين (١٩١٤) التى لم يتخلف عن اجتماعاتها السنوية منذ ١٨٩٨ إلا نادراً ؛ مما أتاح له — كما يقول — أن يكون على صلة بأئمة علماء هذه العلوم ، والتعاون على حل مشكلاتها المشتركة ، عدا تضامن العلماء ومودتهم .

وبحوث ود ورث ومقالاته كثيرة ، ولكن أهم كتبه بحسب صدورها ؛ بعد كتابين صغيرين له فى إدراك الحركة The Percèption of Movement وفى الصحة الشخصية Personal Hygiene الذى عبر عن سنواته الفيزيولوچية ؛ أهمها الكتاب الذى اشترك مع لاد فى مراجعته : مبادئ علم النفس الفيزيولوچى .Principles of Physiological Psychol نشر هذه الطبعة المعدلة لكتاب لاد (چورچ ترمبول) G.T. Ladd هذا ؛ بالاشتراك مع ودورث ؛ سكربنر فى نيويورك (١٩١١) فى حجم كبير يبلغ ٧٠٤ صفحة عدا المقدمة . وفيه اضطلع لاد بالأجزاء الفلسفية ، واختص مؤلفنا بتشريح الأعصاب وفيزيووچيتها والتجريب عليها . ثم ظهر (سنة ١٩٠٣) كتابه عن الحركة (بالفرنسية) Le Mouvement نشره دوان Doin فى پاريس فى ٤٢١ صفحة . وكتابه المدرسى Psychology الذى أصدرته فى نيويورك مطبعة جامعة كولومبيا (١٩٠٨) فى ٢٩ صفحة ؛ هو أحد جملة كتب مدرسية وجامعية كتبها فى علم النفس — سنذكرها بتاريخها . أما كتابه : علم النفس الديناميكى .Dynamic Psychol الذى أشرنا إليه ، فقد كتبه رد فعل لتتشنر ووطسن ومكدوجل ، وحاول أن يستقل به فى موقفه عن جميعهم ، وأن يجعل منه مجالا لجهود سيكولوچية ذات جدة ، كما حاول أن يبين فيه أن دراسة الدوافع لها موضعها الخاص من علم النفس ، مهما يكن من رغبة جعل هذا العلم وضعياً .

وكتابه : العناية بالجسم Care of the body نشره فى نيويورك مكملان وشركاه (١٩١٣) فى ٣٥٤ صفحة . ثم كتابه علم النفس ، دراسة الحياة العقلية ;Psychology a Study of Mental Life نشره هولت فى نيويورك (١٩٢١) فى ٥٨٠ صفحة ، وظهرت طبعته المنقحة (١٩٢٩) فى ٥٩٠ عدا المقدمة ، كما ظهرت طبعته الرابعة عند هنرى هولت وشركاه فى نيويورك أيضاً (١٩٤٠) فى ٦٣٩ صفحة . وفى هذا الكتاب

تناول المؤلف غرض علم النفس ومنهجه ، ودراسة الفرد فى بيئته ، وفروق القدرات الفردية تبعاً لهذا ، والذكاء والشخصية والعوامل الفيزيولوجية والاجتماعية كمؤثرة فيها . ثم الوراثة والبيئة ونمو الجهاز العصبي والتعلم والتذكر والدافع والعاطفة والانفعال والملاحظة ثم حاسة البصر والحواس الأخرى ، والتفكير والتخيل والتطبيقات الشخصية personal applications وذيله بأسئلة وتمرينات وفهارس . ولهذا الكتاب فى أمريكا قيمة كبيرة ، فهو نص معتمد تقريباً كمرجع للدراسات الجامعية الأولى فى علم النفس العام ، مشهور بترتيبه وأسلوبه السهل القراءة ، وهذه الطبعة قد روجعت ونقحت كثيراً . ويقدم الناشر مع هذا الكتاب دليل معمل Laboratory Manual بقصد استعماله مع هذا النص ، ألفه سميث C. M. Smith باسم Workbook in psychol. (الطبعة الثالثة ١٩٣٤ فى ٧٥ صفحة) .

ويقول ودورث إنه كان يكتب — ويعاود كتابة — هذه المتون الأولية فى علم النفس ؛ شأن متون سائر العلماء فى هذا العلم ؛ ويحاول أن يجعل منها مساهمة علمية — بتوضيح أفكاره هو — مع مراعاة نواحى التقدم عند غيره ، وعلاقات الموضوعات والدراسات بعضها ببعض . وكان لا بد بعد ذلك من كتاب يتناول تقسيم علم النفس إلى مدارسه المختلفة — وفى هذا أخرج كتابه الذى بين يدينا : مدارس علم النفس المعاصرة . Contemporary Schools of Psychol نشرته شركة الطباعة رونالد فى نيويورك (١٩٣١) فى ٢٣٢ صفحة ، وظهرت طبعته السابعة فى أمريكا (١٩٤٤) والثامنة فى انجلترا ١٩٤٦ ، وفيه نشر محاضراته التى قلنا إنه كان يحاضر فيها زمناً فى كولومبيا . وقد كان لهذا الكتاب — على إيجازه وسهولته — قيمة كبيرة من حيث فكرته وحسن عرضه وتفرده فى نوعه ؛ كما أشرنا إلى ذلك فى بدء حديثنا هذا .

وبعد هذا يأتى كتابه الكبير الذى وعد به سنة ١٩٣٠ قائلا إنه يعمل منذ خمسة عشر عاماً — بكبير من الأمل — فى كتاب عام فى علم النفس التجريبى ، سوف يفرغ قريباً .

ومع هذا فإن كتابه هذا Experimental Psychology لم يصدر إلا ١٩٣٨ ، نشره فى نيويورك هنرى هولت وشركاه (فى ٨٩٩ صفحة ، ٢٤ لوحة) إذ فيه دراسة ميدان علم النفس التجريبى كله فى كثير من موضوعاته التى استقر حولها الرأى إلى نتيجة بحث مرضية ، وهى التذكر ، والاسترجاع ، والمنعكس الشرطى ، والتعلم بالمتاهة ، والمران وتحول الاكتساب ، والاقتصاد فى التعلم والتذكر ، والشعور ، والتعبير عن الانفعالات ،

والتغيرات الجسمية فيها ، والمنعكس الجلدى أو الاستجابة الجلدية الجلدانية ، وزمن الرجع ، والارتباط ، والجمال التجريبي ، والسيكوفيزيقا : مناهجها ونتائجها ، والحساسية الجلدية ، والشم والذوق ، والسمع ، وحاسة البصر ، وحركات العين ، وإدراك اللون ، والصورة ، والمكان ، والانتباه ، والقراءة ، وسلوك حل المشكلات ثم التفكير ... فى ثلاثين فصلا ، وقائمة مراجع كبيرة لأهم الكتب فى علم النفس التجريبي . وقد كانت مهمته فى هذا الكتاب — كما يقول — أن يهضم كل تراث علم النفس التجريبي فى هذه الموضوعات ، مقدراً كل ما سبق من دراساتها ، وموفقاً بين ما وصل إليه كل من بحثوا فيها . ولهذا الكتاب — على تفرق موضوعاته وترتيبها على نحو موسوعى — طريقته العلمية ، وتلخيصه الدقيق لمسائل علم النفس الخاصة من حيث هى مشاكل ، وبيانه لكيفية التعرض لهذه المسائل عند العلماء ، والنتائج التى انتهوا إليها ، فضلا عن سهولة أسلوبه وتحرره من الاصطلاحات التى لا ضرورة لها ؛ كل هذه المزايا تجعله فى متناول غير المختصين فضلا عن المختصين . كما أن هذا الكتاب يؤخذ نصًّا معتمداً للدراسات التجريبية المتقدمة ، أى لطلاب الدراسات الخاصة فى علم النفس.

وفى ١٩٣٩ أصدرت مطبعة جامعة كولومبيا فى نيويورك ، ضمن نشراتها السيكولوجية Psychological Issues أوراق مختارة من ودورث Collected Papers from Woodworth مع قائمة كتاباته (فى ٤٢١ صفحة ، ٢٣ رسما) وفيه بدأ بتاريخ حياته — على نحو ما أرخها فى تاريخ مرتشيزون ج ٢ ، ١٩٣٢ ؛ الذى اعتمدنا عليه هنا أول ما أعتمدنا — ثم عرض لمشاكل أسباب الحركة الإرادية ومشكلة الفكر بلا صورة وإدراك المكان والشعور بالربط ، كما عرض فيه للسلوكية وعلم النفس الجشطلتى وعلم النفس المرضى والطب العقلى ، ثم إلى آليات العقل ، وفرويد والفرويدية ، وعلم نفس الفروق differential psychol. وإلى موضوعات أخرى كثيرة ، أهمها طرق تدريس الفلسفة اليوم ، وتدريس علم النفس .. الخ . وأهم ما فى هذا الكتاب أنه يجمع أهم ما للمؤلف من آراء ونظريات فى ميدان علم النفس ، فيه خلاصة خمسة وعشرين بحثاً ومقالة كان قد نشرها فيما بين ١٨٩٧ ، ١٩٣٧ فى مختلف الصحف والمجلات العلمية الأمريكية وغيرها — بنفس عنواناتها غالباً — (تجد قائمة لها حتى ١٩٣٢ فى سجل مرتشيزون ج ٣ ص ص ٥٦٤ — ٥٦٥) — وفى هذا الكتاب كذلك الثبت الكامل لكل كتابات ودورث حتى ١٩٣٨ بترتيبها التاريخى ؛ فهو خلاصة مذهبه كله

وفى سنة ١٩٤٤ أصدر ودورث مع الأستاذة مارى شيهان Mary R. Sheehan : دروس أولية فى علم النفس First Course in psychology . نشره فى نيويورك هنرى هولت وشركاه أيضاً (فى ٤٤٥ صفحة ، ٢٠رسما) ومن بين موضوعاته : كيف نفهم الناس ونحسن التكيف بالبيئة ، والتعلم والتذكر والنسيان ، والقراءة والاستذكار طريقتهما ومزاولتهما ، والتفكير والرغبات والدوافع والغايات purposes ، وضبط الانفعال فى الحياة اليومية ، وشخصية الفرد : وصفها وقياسها ، والذكاء والقدرات العقلية وأثر الوراثة والبيئة فيهما . وهو بالجملة كتاب مبسط فى علم النفس العملى والتطبيقى يصلح منهجاً أوليًّا للمبتدئين والمتقدمين من الدارسين على السواء ؛ لم يتعرض فيه مؤلفاه لأى دراسة فيزيولوچية أو طبية ، بل سارا فيه على المشاهدات والملاحظات العامة للسلوك والإدراك والذكاء وعواملها فى الحياة اليومية . وهو ذو متعة للقارئ العام والخاص ، يلحق بكل فصل منه تلخيص وتمرينات .

ولا بد أن نذكر من بين كتابات ودروث القصيرة الهامة : مذكرته التى تقدم بها إلى هيئة مناهج البحث فى الروابط الصناعية Committee on Methods of Research in Industrial Relations باسم : تصميمات الكشف عن الحقيقة فى علم النفس Fact finding devices in psychol. نشرها پرسن Person فى نيويورك (١٩٢٦) فى ست صفحات ، وجدول الكشف عن الـ (س د) فى توزيع السن العقلى Table for finding the S.D. of the mental age distribution نشر فى نيويورك (١٩٢٧) ؛ وكذلك : كيف توحد وتصنف الانفعالات How emotions are identified and classified فى الفصل الثامن عشر من موسوعة العواطف والانفعالات Feelings and Emotions التى نشرتها مطبعتا جامعة كلارك وجامعة أكسفورد بإشراف الدكتور ريمرت (١٩٢٨) ص ص ٢٢٢ — ٢٢٧ ؛ وأخيراً مقاله فى علم النفس Psychology فى « ربع قرن من الدراسة A quarter century of learning » الذى أصدرته مطبعة جامعة شيكاغو (١٩٣١) ص ص ١٢٩ — ١٤٦ . هذا فضلا عما سبق أن أشرنا إليه فى سيكولوچيات ١٩٢٥ ، ١٩٣٠ وتاريخ علم النفس بالتأريخ جـ ٢(١٩٣٢) .

وبعد — فلعلك قد تعرفت إلى الكتاب الذى بين يديك — موضوعه ومؤلفه — بما يجعلك أقدر على السير فيه على هدى وبصيرة .

لقد كبدنا هذا الكتاب عناء فى ترجمته أى عناء فليس تعريبه بالسهولة التى

تبدو فى قراءته ؛ خصوصاً لمن يريد أن يلتزم النص — كما حاولنا أن نفعل — فالأسلوب الأمريكى — على خلاف الإنجليزى بتقاليده المرعية وبساطته المفضّلة — ملتو مركب كثير الاعتراض ، لا يخلو من لفظة عامية أو تشبيه شعبى كان يعسر فهمه على الإنجليز أنفسهم ؛ حين رجعت إليهم فى كثير منها .

وقد أبحنا لأنفسنا أبسط حقوق المترجم : التقديم والتأخير ، وتبسيط الجملة العربية بإدخال علامات تنقيط لا توجد فى الأصل ؛ تسهيلا للفهم ؛ مع منتهى الدقة فى المحافظة على النص — قدر الطاقة — حتى لقد وضعنا أى كلمة نزيدها عليه بين أقواس خاصة ، وكثيراً ما أوردنا الكلمة أو الاصطلاح الأمريكى بلغته إلى جانب الترجمة — مع يقيننا بأن ذلك يثير ذهن القارئ فى كثير من الأحوال — وقد هيأنا له ذلك عن قصد ، ودون تهرب ، ليكون له رأيه فى قبولها أو تعديلها ؛ سواء منها المصطلح المقرر أو اللفظة المستحدثة .

ولما كان الكتاب تاريخيًّا ، ومعبراً عن رأى صاحبه فى كثير من المواضع ؛ فقد كان علينا أن نزوده بتعليقات متتابعة ، نتدارك فيها ما فات أسلوب المحاضرة لدى المؤلف من ذكر مراجع علماء النفس وكتبهم وقيمة دراساتهم . فلما اتسع التعليق رأينا أن نورده بعد كل فصل بأرقام خاصة هنا وهناك .

وما أشق أمانة الترجمة على من عانى تجربتها ! فليكن للمترجمين من سعة أفقك وحسن ظنك ما لا تكبُر معه هفوة محتملة أو سقطة غير مقصودة أو وجهة نظر أو قول مخالفة .

وعلى المترجم أن يثبت هنا أوفر الشكر وأجزله لحضرة الأستاذ الجليل الدكتور يوسف مراد ، لقاء عونه الصادق ، ورعايته المخلصة لمراحل إظهار هذا الكتاب وغيره من آثار جماعة علم النفس التكاملى .

القاهرة فى يونيو ١٩٤٨ — **كمال دسوقى**

مدارس علم النفس المعاصرة

عنوان الكتاب فى الأصل
Contemporary Schools of Psychology
نشره لأول مرة فى نيويورك ١٩٣١
The Ronald Press Company
وظهرت طبعته السابعة الأمريكية عند
نفس الناشر الأمريكى بنيويورك ١٩٤٤ ، والثامنة الإنجليزية
عند شركة مثيون The Methuen Co. بلندن : ١٩٤٦

تصـــدير

فى هذا العصر من التفكير التقدمى – الذى لا شك فى أنه من بين فترات التنوير المتكررة التى اجتازها العالم، أو قل هو أعظم هذه الفترات – يؤدى تقدم العلم وتزايد الصلة العامة به دوراً كبيراً . وهذا الضوء الجديد ينبعث من العلوم الطبيعية والبيولوچية والطبية من ناحية ، ولكن جزءاً غير قليل منه انما يأتى من العلوم التى تدرس السلوك الإنسانى - فحيث يكون الظلام مخيماً أكثر ، يستطيع التنوير أن يظهر كثيراً . وأبحاث الذكاء والدوافع والوراثة والبيئة توضح شيئاً فشيئاً ماكان قبل موضع خلاف فى الرأى . وفوق هذا الفجر المتباطىء للمعرفة السيكولوچية ؛ نحن نواجه لمعاً باهرة من التحليل النفسى والسلوكية وغيرها من مدارس علم النفس ، ومنها ما هو معروف بعض الشىء لدى المعنيين بها من القراء . والضوء الذى يشع عن هذه المدارس الرئيسية – وإن لم يزل بعد بعيداً عن الثبات والاستقرار – فهو يلقى لمحات كاشفة على ما هو غير معروف .

ولم يحن الوقت بعد لما يشبه القطع بصدق تعاليم هذه المدارس العديدة أو كذبها . والذى ينشد النتائج الأخيرة فحسب ؛ يجب أن ينتظر عشرات السنين "حتى يظفر بالإجابة" . فأما حين يريد المرء أن يأخذ بنصيب فى حركة الزمن إلى الأمام ، وأن يتمشى مع التفكير قدماً ؛ فسوف يجد أن مدارس اليوم جديرة بحق أن يأخذ عنها .

ويحاول هذا الكتاب أن يلقى نظرة موضوعية على علم النفس المعاصر بالقدر الذى يتعلق بمدارسه وما تضىء به للإنسانية من أنظار . وهو لا يريد أن يقدم آراء المؤلف الخاصة فى أية صورة مذهبية ، وإن لم يمتنع عن شروح شخصية هنا وهناك.. ثم هو لا يهدف إلى نقد شامل للمدارس المختلفة ولا إلى تقديرها حتى يتأدى بالقارئ إلى واحدة منها ، ويبعد به عن الأخرى . وإنما غرضه أن يقدم صورة لهذه المدارس لا محاباة فيها ، حتى يتهيأ للقارئ أن يقف على المعالم الرئيسية لكل منها فى غير توسع مُربك ؛ ولكن بالقدر من التجسيم الذى يعطى لوناً لهذه الصورة .

وقد نشأ الكتاب عن طائفة من المحاضرات عنوانها : « نظرة فى علم النفس المعاصر » ألقيت سنوات عدة فى جمهور المستمعين من طلاب الجامعة وغيرهم من المعنيين بعلم النفس . ويتوجه المؤلف بالشكر إلى كثير من الطلاب والزملاء الذين أدلوا بانتقادات مفيدة فى كثير من مراحل هذه العملية الطويلة لإخراج هذا الكتاب .

جامعة كولومبيا ر . س . ودورث

٢٥ مارس ١٩٣١

الفصل الأول

ما وراء خلافاتنا الجارية

أريد فى هذه الفصول أن أنظر إلى القرن العشرين كله بالقدر الذى هو به معاصر لما نهدف له من أغراض .

فقد كانت هذه السنوات نشيطة إلى حد كبير فى الدوائر السيكولوچية . وتزايد عدد العلماء النفسيين عشرة أضعاف ، كما بلغ عدد البحوث هذه النسبة ، ونشأت صلات أوثق بالعلوم الأخرى – البيولوچية والاجتماعية – ثم بالنواحى العملية التى يمكن أن يطبق فيها علم النفس : كالتربية ، والطب ، والقانون ، والمعاملات التجارية والصناعية . وليس غرضى أن أعرض النمو التدريجى للمعرفة السيكولوچية ، ولا أن أظهر لك علماء النفس يعملون فى معاملهم وحجرات درسهم بالفعل ؛ كما أننى لن أضع بين يديك النتائج القوية التى وصلوا إليها ، ولا المسائل التى حلت بما يرضى عنها الكافة . وإنما غرضى أن أقدم لك مسائل ذات قيمة جوهرية لم تحل ، أى مسائل لا يزال يقوم حولها نقاش عنيف ، "وأعرض لك" شكوكاً فيما إذا كان علم النفس يسير على هدى من الأمر ، ومحاولات من جانب هذا القائد أو ذاك لتوجيه الكل بعض وجهة جديدة .

إن الثلاثين سنة الماضية قد أوجدت حركات جديدة فى علم النفس إلى درجة ملحوظة ، كان من نتيجتها أنا نرى الآن تلك الظاهرة العجيبة : " ظاهرة " اختلاف المدارس الواحدة عن الأخرى اختلافاً جوهرياً فى فكرتها عن علم النفس ماذا يجب أن يعمل ، وكيف ينبغى أن يقوم بهذا العمل . هذه المدارس تذكرنا بمدارس الفلسفة ، ويندر أن تقارن فى هذا العصر الحاضر بالعلوم الطبيعية الأخرى . ربما كان وجودها فى علم النفس المعاصر مؤذناً بشباب هذا العلم ، وبكثرة عدد الإمكانيات التى لم نقف عليها والتى ينبغى أن نفحصها ، كما هو مؤذن بانفصالنا به حديثاً عن منزل الأبوة المشترك ؛ " وأعنى به " الفلسفة . أما أهمية كل منها فيضعب القول بها حتى يتاح لها وقت للنمو أطول . وحتى يتم لها ذلك ؛ لا شك أنها ممتعة لمن شاء أن

يقف على أفكار خصبة . إنها مدارس متعاصرة فى حداثة ظهورها جميعاً وإن لم تبد على إحداها حتى الآن علائم موت مبكر .

وقبل أن نوجه انتباهنا إلى واحدة بعد أخرى من هذه المدارس الجديدة؛ لا بأس فى أن نعرض بإيجاز لعلم النفس السابق على عهدنا هذا المعاصر . فقد بدأت كل مدرسة وكأنما هى ثورة على هذا النظام القائم established order فلن يمكن فهمها دون إلمام بأساسها التاريخى . يجب أن نعرف شيئاً عن النظام القائم فى سنة ١٩٠٠ الذى ثارت عليه المدارس الحاضرة، ولكى نفهم هذا الوضع القائم؛ علينا أن نذكر أنه هو نفسه كان جديداً وثورياً فى وقت من الأوقات . فكل مدرسة — مهما تبدُ جديدة أول الأمر — قابلة لأن تصبح « نظاماً قائماً » إن هى لاقت نجاحاً، ولأن تقوم ضدها يوماً ما ثورات جديدة . والحق أننا نشهد من قبل ثورات على بعض المدارس المحدثة كالسلوكية ومدرسة التحليل النفسى بحجة أنها تقليدية ، فكذلك بالمثل ؛ النظام القائم فى سنة ١٩٠٠ قد سلم من ثورة عاجلة . ومن قبل فى مستهل الحركة العلمية الحديثة فى القرن السابع عشر نجد رجالا كديكارت وهوبز يندِّدون بعلم النفس التقليدى لعهدهم . وهكذا يقدمون لنا مبادئ ما نسميه علم النفس الحديث تمييزاً له عن القديم والمتوسط .

ولا أستطيع بالدقة أن أذكر خصائص ما قبل علم النفس الحديث فى كلمات عدة . فالذين يعنون بدراسته يؤكدون لنا أن الكثير منه له بحق طابع محدث . وقد وقفنا حديثاً — المرة بعد المرة — على أنظار موفقة فى علم النفس منذ عهد أفلاطون وأرسطو حتى الآن . ولكن علم النفس ما قبل الحديث — كما بدا لعلماء النفس المتقدمين الذين يمكن تسميتهم محدثين — قد عانى من كثرة التعقيد وكثرة الملكات التى لا ترد إلى أصل واحد ، ومن قلة الصلة كذلك بعالم الطبيعة . فالإحساس ، والتخيل ، والذاكرة ، والفكر ، والرغبة ، والحركة الجسمية ؛ كانت تبدو ألواناً من النشاط كثيرة مختلفة ، كل منها يختلف فى أساسه عن عمليات الطبيعة الفيزيقية ؛ التى بدت هى الأخرى فى أشكال متمايزة كثيرة .

طلائع جريئة لعلم النفس الحديث :

ومع أننا لا نزال نعد علم النفس حدثاً من العلوم ، فليس لنا أن نفترض أن جيلنا هو أول من حاول الأخذ بعلم العقل فى مصاف علم الطبيعة . فما إن تزعّم الفلكُ

والطبيعيات أول الحركة العلمية الحديثة ، حتى لحق بالموكب علماء النفس فى ذلك الحين . ففى مستهل القرن السابع عشر أحدث جليليو وغيره من الفيزيقيين ثورة فى الطبيعيات بإظهار أن كثيراً من عملياتها — وربما كلها — يمكن أن تفسر بمعنيي الحركة والقصور الذاتى . وهارڤى عند ما كشف دورة الدم ، قد بدأ يشرح العمليات الفيزيولوجية بمصطلحات فيزيقية . وبدون تباطؤ حاول ديكارت(١) أن يطبق الطبيعيات على إدراك الحيوان وسلوك الإنسان . أما السلوك فقد أقامه على ما نسميه الآن بالفعل المنعكس ؛ وأما الفعل المنعكس فقد فهمه على أنه تحرك سائل معين فى الأعصاب من أعضاء الحس إلى المخ ، ومنه مرة أخرى إلى العضلات . وعلى هذا فالقوة الطبيعية أو الحركة التى نبهت عضو الحس قد حركت فى داخل الجسم عملية فيزيقية تنتهى بحركة عضلية . أما الروح فقد جعل لها ديكارت مكاناً المخ ، وجعل لها أن تتدخل فى حالات خاصة بين الحركات الداخلة فى الأعصاب والخارجة منها . غير أنه ليس للحيوان روح — فيما حسب — وكل سلوكه إنما يقوم بحركة فيزيقية بحتة . " ومن هنا " كانت روح الإنسان عنده ، بما لها من ملكة تفكير ، غير فيزيقية . وتقدم هوبز(٢) أكثر ، حيث كانت العمليات العقلية عنده — كالعمليات الجسمية سواء بسواء — مردهما إلى الحركة . فالحركة الخارجية تقع على أعضاء الحس فتتصل بالأعصاب والمخ والقلب . والحركة الداخلية — عند ما تبدأ — تستمر بحكم القصور الذاتى inertia على هيئة ذكريات وأفكار . فرد العمليات العقلية إلى أساس عام من الحركة ، وبهذا جعلها فى صف واحد مع العمليات الفيزيقية . لا شك أن ثورة هوبز على سيكولوچيا الملكات كانت حاسمة ، ولكنها كانت تخطيطية فى تفاصيلها ؛ حتى بقى على السيكولوچيا الإنجليزية فى القرن التالى أن تنهض بهذه المهمة فى تنمية هذا التخطيط كما فعلت فى « علم النفس الارتباطى Association psychology »(٣) .

وقد حاول الارتباطيون — وهم علماء النفس التقدميون فى القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر — أن يردوا كل العمليات العقلية إلى عملية الارتباط وحدها ، فتخلوا عن فكرة هوبز غير الكافية عن ثبوت الذكريات بالقصور الذاتى وحاولوا أن يفسروها بربط العملية أو « الفكرة » مع الأخرى . فإذا ارتبطت عمليتان فى خبرة شخص ؛ وكانت إحداهما قد أثارها بعدُ سببٌ خارجى ؛ فإنها بدورها لا بد أن تثير الأخرى بحكم هذا الربط أو التداعى . وقد وجد الارتباطيون من السهل أن

يبينوا كيف أن تتابع الأفكار فى حلم اليقظة يمكن أن يستدعى بارتباطات مكونة من قبل بين الأفكار التى تظهر تباعاً . وأبعد من هذا ، فهم يبينون أن رؤية الشيء إذا ارتبطت فى الخبرة الشخصية بإحساسه ، يمكن أن تؤخذ دليلا على وجود الشيء . كما بينوا كيف أنه بدلالات كهذه يمكن معرفة حجم الأشياء وبُعدها . وذهبوا إلى أن كثيراً من المخاوف والكراهات إنما تتأصل فى الطفولة من ترابط أشياء أو أشخاص غير ضارة بأشياء أخرى تثير بطبعها الخوف أو الكره . وبمثل هذه الطرق ردوا : الاستدلال ، والإبداع ، والعقيدة ، والفعل ، إلى عملية الارتباط عينها ، ودرسوا قوانين الترابط آملين أن يردوها إلى قانون واحد ، وقالوا إن الارتباطات تختلف فى قوتها تبعاً لتواتر وجدة ووضوح التجارب الشخصية التى فيها تكونت وتجددت . وقد زاد تأثير الارتباطيين حتى سيطر على النظام القائم فى سيكولوچيا القرن التاسع عشر المبكر ، وإن اختلفوا كثيراً فى وجهة نظرهم فيما يتعلق بطبيعة الارتباط الفيزيقية ، وإن اختلفوا كثيراً أيضاً فى تطبيقات نظريتهم على الأخلاقيات والاقتصاديات والعلوم الاجتماعية عامة ، وبالرغم من الاعتراضات الكثيرة التى أثارها على نظريتهم فى كلها أو فى أجزاء منها المعاصرون لهم .

سيكولوچيا القرن التاسع عشر الجديدة :

ولكن ما إن ظهر أثر الطبيعيات فى عهد جليليو مباشرة فى علم النفس ، حتى أشعر بوجودهما علمان نشئا حديثاً فى مستهل القرن التاسع عشر . فالنتائج العجيبة التى تأدت إليها الكيمياء قد أدت إلى فكرة كيمياء العقل mental chemistry التى تحلل مركبات العقل إلى عناصرها . وقد استعان بعض الارتباطيين بهذه الفكرة فبينوا لماذا تبدو كثير من الإحساسات كاللون البنى والإحساس بالخشن والأملس ، وبالرطب والجاف ، وبنغمة الكمان ، وبما نسميه طعم البرتقالة — الذى هو إلى حد كبير شم . . . " لماذا تبدو هذه الإحساسات " بسيطة وموحدة بينما هى ترجع بالتحقيق إلى مؤثرات مركبة . كما أن مركب الماء يبدو بسيطاً وواحداً فى عناصره الكيميائية : الأوكسچين والايدروچين . وامتدت لفظة الارتباط حتى شملت كل أنواع المركبات ، مع أنه يجب الاعتراف بأنها فى توسعها ذاك قد فقدت من قيمتها التفسيرية كثيراً . ومهما يكن من أمر ، فإنه فى ذلك الحين قويت فكرة علم نفس تحليلى يسترشد بالكيمياء ، ويستخرج العناصر والمركبات فى ميدان الذهن .

وكان تأثير الفيزيولوچيا أبعد بكثير من أثر الكيمياء ، لأن علم النفس يمت إلى الفيزيولوچيا بصلة أكبر — إن فى مشكلاته أو ما يمكن أن يكون له من مناهج . ففى مطلع القرن التاسع عشر ، عند ما بدأت الفيزيولوچيا تصطنع التجربة بجد ؛ جرّت وراءها نحو التقدم هذا العلم الشقيق . وعن معمل الفيزيولوچيا نشأ معمل علم النفس ، وإن كان ڤونت(٤) لم يؤسس فى ليپتسك أول معمل حقيقى لعلم النفس حتى سنة ١٨٧٩ . وسرعان ما كثرت المعامل ، وقامت السيكولوچيا الجديدة — كما كانت سنة ١٩٠٠ — سيكولوچيا تجريبية . وإنما كانت ثورتها على علم النفس السابق عليها من حيث منهجه ومستواه العلمى أكثر منها على نظريته . فبينما قنع عالم النفس السابق بأن يستعين على البرهنة بالذاكرة وخبرته الشخصية العامة مع ما فيها من عدم الثقة ، إذا بعلم النفس الجديد يصر على أن تقوم حقائقه على ملاحظات مسجلة ومحددة . وقد أضيف إلى تجاريب الحواس والحركة العضلية تجاريب أخرى عن الذاكرة والتعلم أكثر دقة ، وقوى الأمل فى أن يغزو هذا المنهج الجديد يوماً ما كل مسائل علم النفس .

ونحن لم نعرض بعد المدى الكامل لسيكولوچيا سنة ١٩٠٠ . وربما كان تخطيطنا للقرن التاسع عشر ناقصاً جداً إذا نحن أغفلنا ذكر تأثير علمين آخرين نهضا سريعاً فى ذلك الحين : فالبيولوچيا العامة وخصوصاً نظرية التطور Theory of Evolution قد أثارا منذ سنة ١٨٦٠ مجموعة كاملة من المشاكل كانت غريبة على علم النفس القديم وعلى الفيزيولوچيا والكيمياء والطبيعيات أيضاً . أما التطور فقد أثار مشكلتى الارتقاء والتنوع . فبدأ يظهر فى الكتابات النفسية حتى نهاية القرن التاسع عشر — وبتأثير دارون وجالتون(٥) إلى حد كبير — : الارتقاء العقلى فى الفرد وفى الجنس وتأثره بالوراثة والبيئة ، وعلم نفس الطفل ، وعلم النفس الحيوانى ، والفروق بين الأفراد وبين الأجناس ، وأمثال هذه الموضوعات مما قرب علم النفس من علم الحيوان (الزولوچيا) وعلم الإنسان البدائى (الأنثروپولوچيا) . وقد وضع أول الأمر فى هذه الدراسة تصميم اختبارات لقياس الأفراد ، ثم ضمت إلى نوع التجارب التى تجرى فى المعمل على أنها جزء من جملة مناهج الباحث النفسى .

والأثر الذى يستدعى الملاحظة أخيراً إنما جاء عن علم الطب العقلى psychiatry . وتاريخ الطب العقلى فى القرن التاسع عشر يتطلب دراسة أوسع . ويكفى أن نقول إن علاج المجنون insane والمرضى بحالات عصابية neurotic وضعاف العقول

feeble-minded قد تقدم أثناء هذا القرن من حالة لاعلمية بحت إلى أخرى تبشر إلى حد كبير . فقد بدأ الطب العقلى بتصنيف نماذج السلوك الشاذ ، وتقدم منها إلى دراسة تاريخ حياة الشواذ من الناس . وفى طول هذا القرن انقسم أطباء العقل إلى معسكرين : النفسيين psychists والجسميين somatists . هؤلاء يبحثون عن الأسباب فى دائرة العقل ، وأولئك يضعون نحواً من إصابة أو اضطراب فى المخ وراء كل شذوذ فى السلوك . وقد ظهر اضطراب المخ فعلا فى بعض الحالات الشاذة ولم يمكن إثباته فى بعضها الآخر . وفيما لم يمكن إثباته منها بالمناهج التى بين أيديهم ؛ افترض الجسميون وجوده فى صورة خفية . وبالجملة كان الجسميون هم الفريق الغالب بين جماعة الطب العقلى ، وكان لهم أعظم الأثر فى علم النفس آنئذ .

تلك هى المؤثرات الخارجية التى أشعرت بنفسها سيكولوجيا القرن التاسع عشر ؛ مثيرةً مشاكلَ جديدة ومؤديةً إلى تقدم مناهج فى البحث جديدة تميل إلى أن تفصل علم النفس عن قديم صلته بالفلسفة ، وتجعله فى مصاف العلوم الطبيعية . على أن هذا الانفصال لم يحدث مرة واحدة . فيجب أن نذكر أن علم النفس قد كتب فيه الفلاسفة منذ أكثر من ألفى سنة ، وأن الفلاسفة هم الذين كانوا يعلمونه طوال القرن التاسع عشر . فإنى أول ما اتصلت بعلم النفس حوالى سنة ١٨٩٠ كان ما يزال مرتبطاً بالفلسفة ، وكان يُعلّمه فيلسوف على أنه قسم كامل من دراسات الفلسفة . بل إن أكبر علماء النفس اليوم أمثال ڤونت ووليم چيمس كانوا أيضاً فلاسفة . إن چيمس(٦) بعد أن كتب كتابه الكبير « مبادئ علم النفس » قد حول معظم همّه إلى الفلسفة فصار أحسن ما يعرف به اليوم أنه شارح البراجماتزم القوى الظافر ، وأنت واجدٌ حتى فى « سيكولوچياه » كثيراً من المناقشات التى تعتبر اليوم خاصة بالفلسفة أكثر منها بعلم النفس . ويمكن أن نقول إن الفلاسفة كان لهم اليد العليا فى ذلك الحين . وإنهم عالجوا علم النفس على أنه قسم تابع لموضوعهم . ولكن علماء النفس التجريبيين ـــ أو الجُدُد ـــ لم يكونوا ليقبلوا هذا الوضع بسهولة ، فكانوا يقوون صيحات علم النفس بالاستقلال . وابتداء من سنة ١٨٩٠ نجحوا فى الحصول على امتيازات وأقسام لعلم النفس أنشأتها الجامعات . وكانوا ينشئون الصحف والجمعيات النفسية ، ولعلهم لم يكونوا فى حاجة إلى الحط من شأن الفلسفة فى شىء ، بل أن يعلنوا ببساطة أن علم النفس ـــ وإن كان لا يزال علماً حادثاً ـــ قد نما إلى درجة تسمح له بمبارحة حظيرة الأسرة على غرار العلوم الأكبر منه سنّاً . وإنما

لزمه الانفصال لكي ينهض بمصطلحاته الخاصة، وليوثق علاقاته الخاصة ، وليصوغ مدركاته ، ويتهجم على مشكلاته التي تظهر من دراسة الإنسان. وتؤذن بالتأدى إلى فهم أحسن لوسائل الإنسان العجيبة، وربما بدا ذلك للفيلسوف تافهاً ولا معنى له .

وقد كنا نتكلم حتى الآن عن مهمة علماء النفس فى أواخر القرن التاسع عشر أكثر من كلامنا على نظرياتهم وصيغهم . فهم عندما حاولوا أن يقدموا تعريفاً صورياًّ لموضوعهم ، وأن يحددوا ميدانه ؛ كان خليقاً بهم أن يصلوا إلى القول بأن السيكولوچيا هي علم الشعور science of consciousness . ويبدأ چيمس فيقرر أن علم النفس هو علم الحياة العقلية سواء فى ظواهرها وفى شروطها . فالظواهر هى كالأشياء التى نسميها إحساسات ، ورغبات ، ومعارف ، وتفكيرات ، وإرادات وما شابهها* . وفى سنة ١٨٩٢ قال ڤونت إن علم النفس إنما يكشف عما نسميه تجربة داخلية — أعنى إحساسنا وشعورنا ، تفكيرنا وإرادتنا — فى مقابل أشياء التجربة الخارجية+. وقد كان ينظر إلى الشعور أحياناً على أنه عالم داخلى متميز عن عالم الطبيعة فى خارج . وأحياناً أخرى قالوا — استناداً إلى الحقيقة البينة فى أن حقائق أى علم إنما يقف عليها الملاحظون "أنفسهم" ؛ وهى فى المقام الأول خبراتهم الواعية — قالوا إن علم النفس يعرض لنفس هذا النوع من الحقائق شأن كل علم آخر ؛ ولكن لينتفع بهذه الحقائق على طريقته الخاصة فى دراسة الشعور ذاته ، لا فى دراسة الموضوعات التى يشعر بها الملاحظ . ولكن من أية ناحية نظرنا إلى المسألة ؛ فإن علم النفس قد حُدَّ بتعريفه على أنه دراسة الشعور . " وأنه دراسة " الفرد كمجرب ، ووفقاً لهذا التعريف كان المنهج الأول للملاحظة النفسية إنما هو الاستبطان — أى ما يدلى به الفرد متعلقاً بخبرته الواعية أو الشعورية ، والعمل التجريبى كما قال ڤونت لم يكن يُقصَد به فى شيء أن يذهب بالاستبطان ؛ بل لعله كان إلى تقديم أكبر التسهيلات إلى الاستبطان الكامل الدقيق أقرب . وفى المعمل تنزّل علمُ النفس شيئاً ما ليتحدد بهذا التعريف الصورى . فالشخص موضوع التجربة لم يكن يُعامَل دائماً على أنه المجرب ، بل غالباً على أنه القائم بها. والمسألة بعدُ هى فى إظهار : بأية سرعة يستجيب ، وبأية دقة أمكنه أن يدرك ، وإلى أى حد من الكمال أمكنه أن

(*) وليم جيمس : مبادئ علم النفس — هنرى هولت وشركاه ١٨٩٠ مجلد ١ ، ص ١ .
(+) فلهلم ڤونت : محاضرات فى علم النفس الإنسانى والحيوانى — ترجمة كريتون وتتشنر شركة مكملان ١٨٩٤ ص ١ وبقية الجملة : (التى هى موضوع العلم الطبيعى) .

يسترجع المادة التى أودعها ذاكرته ؛ لأنه لم يطلب إليه الإدلاء بتجربته وقت التنفيذ ، بل أن يقوم بدوره فحسب ؛ أما كيف أحسن القيام به فذلك ما لاحظه صاحب التجربة . وأيضاً فى دراسة الأحاسيس والانفعالات ، جرت العادة بأن يُحصَر الشخصُ فى آلات التسجيل التى سوف تضع تخطيطاً لتنفسه أو نبضه . فمن الناحية النظرية ، هذه الطرائق الموضوعية كانتُ تبرَّر فى معمل علم النفس بأنها تلقى ضوءاً — عن طريق غير مباشر — على الإحساسات والخبرات الأخرى الواعية ، ولكن — كما دلت البحوث — ظهر أن لذة "هذه التجارب" إنما توجد فى مجرد القيام بها . فإن الشخص موضوع التجربة إذا أدلى ببعض استبطاناته العرضية فعلا ، فإن هذه كانت تلقى ضوءاً على ما قام به أكثر منها على أى شيء آخر حوله . فكانت السيكولوچيا تجد عملها ، وكيف تقوم به ؛ فى عملية اكتشاف ميدانها أكثر مما تجده فى الكتابات النظرية والتعريف الصورى .

ولدينا إذن صورة لعلماء النفس فيما بين ١٨٩٠ ، ١٩٠٠ — طائفة حية جريئة — قليلٌ عَديدُها — ولكنها سرعان ما تُعنى نفسها من الجيل الناشيء مستبشرة بأسلوبها الناهض الجديد فى التجاريب والاختبارات ، واجدةً ميادين جديدة تكتشفها سنة بعد سنة ، مبتدئةً بدراسة الطفل ، والحيوان ، والشخص الشاذ ، كالبالغ الراشد سواء بسواء ؛ متصلة من نواحى مختلفة بالذين يعملون فى العلوم الأخرى ، وأكثر استعداداً لأن تتحلل من الفلسفة وتشرع فى بناء خاص بها . فمن الناحية النظرية ساهم علماء النفس سنة ١٩٠٠ فى تعريف علم النفس بأنه علم الشعور ؛ أما من الناحية العملية فقد كانوا يدرسون الفعل performance كما يدرسون الخبرة الشخصية experience . ونظريـًّا هم كانوا أصحاب سيكولوچيا تحليلية على غرار الكيمياء ، ذات إحساسات أولية وصور ومشاعر ، وذات أفكار مركبة وانفعالات تتكون من هذه العناصر بصِلاتٍ مختلفة ؛ أما عمليـًّا فهم لم يراعوا غالباً هذه الخطة . وأيضاً من الناحية النظرية كانوا فى الأكثر ارتباطيين ؛ لكن فى غير إيمان كبير ، فقد ولى من قبل مُظهر الارتباطية . ونظريـًّا كذلك تحمسوا لعلم نفس فيزيولوچى ؛ فأما عمليـًّا فقد انحنوا بشدة أمام المخ ثم استأنفوا سيرَهم ، إذ كانت العمليات المخية بعدُ أغمضَ من أن تعطى فكرة أوسع عن العمليات العقلية .

السيكولوچيات الجديدة فى القرن العشرين :

على نحو من ذلك كان الوضع القائم لسنة ١٩٠٠ الذى ثارت له المدارس المعاصرة . وقد نعجب ماذا كان فيه داعياً لهذه الثورات الكثيرة العنيفة . إنه لم يكن حسن الإنشاء ولا حسن النظام بحيث يُتعب أو يعترض الناشئين الجدد من علماء النفس فى ذلك العهد . لقد كان ناقصاً فى كثير من النواحى — بحق — ولم يكن ينهض تماماً بما يتطلبه المنهج العلمى ، وفوق هذا كانت نظريته وتطبيقه أبعدَ من أن يُدركا . ولكنا كعلماء نفسيين يجب أن نعرف أن المسألة لم تكن مناعة هذا النظام القديم ؛ وإنما كانت : هل شىء فيه عرضة للنقد ؟ فإن كل شاب مقبل على الميدان ويريد أن يجعل له اسماً كان يبحث فيما حوله عن مغمز يحمل عليه ؛ فإنه لو أخذ سمته فى هدوء وقبِل الأشياءَ على ما هى عليه فلن يلتفت إليه أحد ؛ فهو يتلمّس المثالب ، وهو أكثر حبا لها كلما كانت أكبر . وبرع ناشئةُ علماءِ النفس المحدّثين فى هذا الدور من القرن " الماضى " فى تصيّد الهِنات . فتمزقت بينهم إرباً سيكولوچيا القرن التاسع عشر القديمة المسكينة " تمزقاً " لطيفاً . ونشأت مدارس تعارضت مع بعضها البعض تماماً كما تعارضت مع علم النفس القديم . ونجم عن ذلك فترة نشيطة جدًّا ذات نظام لم يقرر بعد .

وأنتم جميعاً على صلة ببعض المدارس التى ظهرت : فالسلوكية Behaviorism مثلا يعرفها كل شخص على أنها حركة رئيسية فى علم النفس . ولو أننى سألت كل واحد منكم أن يذكر بالضبط ما معنى السلوكية ، وعلى أى نحو كانت ثورتها على النظام القائم لسنة ١٩٠٠ ؛ فربما حصلتُ على إجابات مختلفة . والواقع أنها مهمة مغرية أكثر منها سهلة أن نكشف عن الطبيعة الحقة للسلوكية . ولعلكم جميعاً تقولون فى حق إن السلوكيين يحملون بقوة على علم النفس كعلم لدراسة الشعور ، وعلى الاستبطان كمنهج يستخدم فى دراسة الإنسان .

ولكن كان هناك علماء نفس آخرون ، وخصوصاً أصحاب الطب العقلى psychiatrists مختلفين تماماً عن السلوكيين فى أساس تفكيرهم وطريقتهم ؛ قد أقروهم إلى هذا الحد فى أنهم لم ينظروا قط إلى دراسة الشعور على أنها تكوّن غرضَ علم النفس الأولَ والأخير ، فإن الذين كانوا يعرضون للعقلية الشاذة وللأفراد المنحرفين كانوا يميلون حتى قبل سنة ١٩٠٠ — وكان ميلهم منذ ذلك الحين أكبر بكثير — إلى

الإصرار على أن أكبر ميدان لعلم النفس إنما هو اللاشعور . وهنا نلمح أصل هذه المدرسة الأخرى الجديدة التى يعرفها كل إنسان ؛ وأعنى بها مدرسة التحليل النفسى psychoanalysis . وربما كان كل امرئ متأثراً شيئاً بالتحليل النفسى ، فيقول إنه يخصّ نفسه بمركبات اللاشعور وسيكولوچيا الجنس . وفيما وراء ذلك ربما لا تلتقى أفكارنا المختلفة جميعاً .

وبينما أصبحت أسماء « السلوكية » و « التحليل النفسى » حظّاً عامّاً "مشتركاً" ، وبينما تعلن كلتا المدرستين أنها هى « السيكولوچيا الجديدة » للعصر الحديث ؛ إذا بمدارس أخرى أقل حظّاً من الشهرة ننظر إليها من ناحية الأُخوّة فى علم النفس على أنها شبيهة الأهمية ، وإحداها هى مدرسة القصد purposivist school التى ليست منافية تماماً للتحليل النفسى ، وإن هى نشأت عن محاولة خلق سيكولوچيا اجتماعية ذات بال أولى منها عن محاولة علاج الأفراد المنحرفين . وأنت ترى من اسم هذه المدرسة أنها تؤكد الأهمية الرئيسية للقصد والمحاولة والبحث عن الهدف . وقد ثارت على الانتحاء بالعقل ناحية واحدة فى القرن التاسع عشر . وأثارت — وما تزال تحتفظ بحيويتها — مسألة ما إذا كان الاستبطان أو غيره من مناهج السلوكيين وأفكارهم البسيطة يؤدى يوماً إلى تفهم السلوك الإنسانى .

وقد رفضت المدارس الثلاث التى ذكرنا فكرةَ علم النفس على أنه جوهريّاً علم دراسة الشعور ، على خلاف بينها فى طريقة رفض هذه الفكرة : أما التحليل فقد مجّد اللاشعور ، وأما مدرسة القصد فقالوا بأن الشعور جزء فحسب من ميدان علم النفس ، وحاول السلوكيون أن يُبعدوا الشعور برُمته عن علم النفس . وليس ينبغى أن نفترض أن علماء النفس القائلين بالشعور قد نالوا كل ما هنالك من عقوبة ، لقد لاقوا كثيراً من النزاع معهم ، وكرد فعل لذلك راحوا يعيدون تنظيم منهجهم الاستبطانى ويوضحون إدراكهم لما كانوا بسبيله من الأمر ، وكان من نتيجة ذلك أن تظهر فيما بين الاستبطانيين مدرسة جديدة — جديدة فى جزء منها على الأقل — تأخذ اسم الوجودية existentialism . وإلى جانب تشبثها بالاستبطان الخالص الدقيق تصرّ هذه المدرسة على أنه لا علم النفس القديم ولا المدارس الجديدة فيه بكافٍ من الناحية الوجودية أو الحقيقية لأن يتأدى بعلم النفس إلى هدف علم أسمى كالطبيعيات والكيمياء . إنما يعنى التحليل النفسى وأصحاب القصد والسلوكية بجعل علم النفس عمليّاً بهذه الطريقة أو الأخرى . إنهم يريدون أن يجعلوه أكثر إنسانية . وليس شك فى أنه

يجب أن نفترض أن علم النفس ينبغى أن يكون إنسانياً . ولكن ، هل ذاك هو خط التقدم العلمى ؟ كيف وصلت الطبيعيات والكيمياء إلى مستواها ذاك الرفيع من النهوض ، وكيف اكتسبت فنونُ الهندسة العملية القائمة على هذه العلوم سيطرتها هذه العجيبة على قوى الطبيعة ؟ ليس بالتصاقها إلى الحاجات الإنسانية ؛ ولكن بتتبع الظواهر التى بدت أول الأمر ولا فائدة للإنسان فيها . فإذا فتحت كتاباً ما فى الفيزيقا فلستَ تتوقع أن تجد فصلا عن عجلة اليد ، وآخر عن مضخات الماء ، ولا حتى عن الراديو ؛ مع أن هذه الأشياء الإنسانية النافعة يمكن الاستشهاد بها على مبادئ أساسية . فلو أمكن أن يُغفل علم النفس مضخاته وعجلاته ويصرف همه كله إلى مواد حقيقته الأَولى به ؛ إذن لاستطاع على التو أن يفر مما هو واضح ، ويكتشف مبادئ جوهرية تشبه فى إدهاشها وثوريتها الكهرباء أو أشعة إكس ، ذلك هو الأمل الذى تصبو إليه الوجودية .

لقد ذكرتُ أربعاً من المدارس المعاصرة ستعرض لنا فى دراسة أوسع . والواحدة الباقية قد أصبحت حديثاً موضع النظر العام بعض الشيء ، وإن كان اسمها ربما اختلط أكثر من أن يتضح ، وهذه هى مدرسة الجشطلت فى علم النفس school of Gestalt Psychology ذات أصل ألمانى ، وتسمى أحياناً بمذهب الصيغة Configurationism إذا احتجنا إلى تسمية انجليزية أحسن . وأخشى ألا أستطيع أن أعطيك فكرةً أُولى واضحةً عن هذه المدرسة ، وإن كانت مدرسة ذات أهمية لا تنكر وربما كان بيدها مفتاح المستقبل . وأستطيع أن أقول عنها الآن إن ثورتها كانت مُوجهة إلى مثالية الكيمياء العقلية فى القرن التاسع عشر . ويُظهرنا علماء النفس الجشطلتيون على أن مثل هذه المثالية لا تعدو أن تكون سرابا will-o-the-wisp فهم يعتقدون أن تحليل خبراتنا أو أفعالنا لن يذهب بنا قط بعيداً . إنما يجب أن نأخذ الفعل أو الخبرة ككل ؛ وندرسه فى موضعه بدلا من أن نحاول تحليله . أما الاستبطانيون فكالسلوكيين ما يزالون — فى نظر الجشطلتيين — يهيمون على وجوههم فى ارتباطية القرون الماضية العتيقة .

ومع كل هذه الحركات المتشعبة المستمرة ، كان من المنتظر ألا يُظهر علم النفس المعاصر أىّ توافق كان ، ولكن ما هو عجيب حقاً أن علماء النفس اليوم ما يزالون يحظون بالاجتماع ومناقشة مسائل علم النفس ، وما يزالون يعامل أحدهم الآخر باحترام . فالعلم لم يتجزأ ، وإنما أصبح — إن صح وجوده — أكثر توحداً . وسوف نود أن نوجه

الانتباه إلى هذه الوحدة من خلال هذه الكثرة المختلفة من المدارس . فالاحترام المتبادل فيما بين علماء النفس يعكس هذا النشاط الواضح الذى يُظهره أعضاءُ المدارس كلها فى التقدم المطّرد لهذا العلم . فبعض هذه المدارس يُعنى بجعل علم النفس علميًّا وبعضها الآخر يجعله إنسانيًّا ووافياً أكثر مما هو . ولعلنا نحب أن نراه علميًّا ووافياً معاً . فعلماء النفس مجمعون على الأمل فى إمكان بلوغ هذه النتائج .

وسبب آخر لوحدة علم النفس المستمرة يوجد فى هذه الحقيقة ، وهى أن الأقلية فحسب من علماء النفس هم الذين أصبحوا يتعصبون بقوة لإحدى هذه المدارس . ربما جنح البعض إلى مدرسة ، وجنح الآخرون إلى أخرى . ولكن على العموم يتقدم علماء النفس فى العالم فى سبيلهم وسط الطريق .

وبعد — فقد كان فى سيكولوچيا سنة ١٩٠٠ كثير لم تقم له ثورة ، وكثير من نتائج الأبحاث السابقة لا تزال موضع تقدير ، أضافت إليها الأبحاث الجديدة خلال الثلاثين سنة الماضية نتائج أخرى جديدة لا علاقة لها بأية مدرسة من المدارس . لقد كان علماء النفس سنة ١٩٠٠ بسبيلهم — وسبيلهم هى سبيلنا — غير أننا نبدو أكثر بعداً فى التقدم فحسب ، ومع ذلك أنا لا أقول إن هذه المدارس هى مجرد تزيين لعلم النفس المعاصر ، ولا إنها قد قامت لمجرد تسليتنا خلال هذه السنوات الشاقة ؛ فإنها تعين على توسيع وجهة نظرنا وتوضيحها ، وكل منها تظهر عناصر حيوية من المحتمل أن تظل فيها . ووجود كثرة مختلفة منها شىء حسن . ولعل واحدة منها ليس لها نظرة كاملة لما قُدّر لعلم النفس أن ينتهى إليه . فواحدة تعرض لنا أملا مُغرياً ، وأخرى تعرض لنا آخر ، وفى غير تطلع إلى هذه السنة اللطيفة التى تؤلف بينها جميعاً فى مفهوم كامل لعلم النفس : ماذا ينبغى أن يكون ، وماذا يجب أن يفعل ؛ فلعلنا نأمل فى أن نُمسك بما تهيأ كل منها إلى وضعه فى عقولنا من عرض موضوعى . وفى هذا الأمل ، سنجعل لكل منها فرصة تقص فيها قصتها ، قبل أن نلقى آخر الأمر لمحة وجيزة على هذا الهيكل الضخم لعلماء النفس الذين يسيرون قدماً فى وسط الطريق .

تعليقـات

على الفصل الأول

(١) ديكارت : يعد ديكارت (١٥٩٦ – ١٦٥٠) البداية الحقيقية لعلم النفس الحديث ، حين نقسم تاريخ علم النفس بالمعنى الأوسع إلى قديم ومتوسط وحديث . وإذا كان ديكارت قد تعلق لأول عهده بالفلسفة والرياضيات ثم بالعلوم حين كتب فى البصريات والآثار العلوية ؛ فإنه قد كتب وجرب فى الفيزيولوچيا – حيث كانت معلوماته فى الفزيولوچيا أوسع ما فى زمانه . وإلى جانب قوله بأنه ليس للحيوانات أرواح ؛ قد شارك هو فى نظرية الإحساس ، وفى نظرية الإدراك المكانى البصرى . فهو بمعنى ، عالم نفس فزيولوچى ، كان دافعه الأقوى تطبيق الفيزيقا على الفيزيولوچيا ؛ فالجسم الإنسانى عنده آلة ، ولكنه آلة تسيطر عليها النفس وتديرها الروح . وفيزيولوچيا ديكارت إذن ميكانيكية فى جملتها ، لا تختلف عن فزيولوچيا اليوم ؛ إلا فى أن علماءنا اليوم يأخذون منه الجسم ويرفضون النفس ؛ حيث تقوم سيكولوچيا ديكارت على ثنائية الروح والجسد ، تلك الثنائية التى ما تزال تؤثر فى التفكير السيكولوجى حتى اليوم والتى حلّها بما نسميه نظرية التفاعل interaction ؛ بمعنى أن يؤثر الفكر فى الجسم ، والجسم فى الفكر ، مع بقاء الروح أداة تدبير ، بغيرها يكون الجســـم آليًّا .

وقد شارك ديكارت فى سيكولوچيا الانفعالات فى كتابه : انفعالات النفس Passions de l'âme (١٦٥٠). وله أقوال رئيسية فى إدراك المكان البصرى لا تزال معتمدة إلى اليوم ، كما لا تزال آراؤه فى ثنائية الجسم والنفس ، وفى تفاعلهما ، وفى أن المخ موضع الفكر ، وفى تحديد موضع كل جزء من أجزائه ، وموضعه هو من الجسم كله ... الخ ؛ لا تزال تؤثر فى علم النفس حتى اليوم .

راجع فى ديكارت كعالم نفسى : تاريخ علم النفس التجريبى لبورنج E. Boring ص ص ١٥٨–١٦٤ وتاريخ علم النفس لبرت Brett ج ٢ ص ص ١٩٦ – ٢١٧ وتواريخ دسوار Dessoir وكليم Klemm . وفى مناقشة سيكولوچيا ديكارت ، راجع خصوصاً راند Rand علماء النفس الكلاسيك Classical Psychologists ص ص ١٦٨ – ١٩٠.

(٢) هوبز : أما توماس هوبز

Th. Hobbes (١٥٨٨ – ١٦٧٩) فهو فيلسوف سياسى معاصر لديكارت ، وأول ممثل للمدرسة الإنجليزية فى علم النفس التى حاولت أن ترجع مضمون الفكر إلى الخبرة الحسية sense experience فى مقابل الأفكار الباطنة innate ideas التى قال بها ديكارت والمدرسة العقلية ، كما شارك هوبز فى تحديد النظرية الارتباطية بحسبانها قائمة على اتســاق coherence الأفكار الماضية – تحديداً ناقصاً لا يخلو من غموض . وهو معروف خصوصاً بفلسفته السياسية ، وإنما يأتى ذكره فى علم النفس لمجرد كونه تاريخيًّا أول ممثل للمدرسة الإنجليزية التى سيرأسها بعده لوك J. Locke بعيداً عن التأثر به .

وأهم أعمال هوبز السيكولوجية هى كتابه : الطبيعة الإنســانية Human Nature أو De Homine (١٦٥٠) ، وكتابه : « التنين Leviathan أو مادة الثروة العامة وصورتها وقوتها ، كنسية ومدنية (١٦٥١) . راجع فى تاريخ حياته قاموس بولدوين J.M. Baldwin ص ٤٧٢ ، وفى سيكولوجياه راند : علماء النفس الكلاسيك ، ص ص ١٤٧ – ١٦٧ ، وتاريخ علم النفس لبرت ، ج ٢ ص ص ٢١٩ – ٢٢٢ ، ووارن : تاريخ علم النفس الارتباطى ص ص ٣٣ – ٣٦ .

(٣) الارتباطية : Associationism راجع فى النظـرية الارتباطيــة داڤيد هيوم D. Hume : مقال فى الطبيعة الإنسانية A Treatise on Human Nature (١٧٣٩ – ١٧٤٠) وداڤيد هارتلى D. Hartley فى كتابه ملاحظات عن الإنسان : شكله ، واجبه ، وأمانيه : Observations on Man: his frame, duty and expectations. – وخصوصاً المقدمة – فإنه يعد مؤسس علم النفس الارتباطى . ومن الارتباطيين الانجليز أيضاً راجع أبراهام تكر A. Tucker (١٧٠٥ – ١٧٧٤) فى كتابه Light of Nature pursued (١٧٦٨) ، وپريستلى J. Priestley فى مقــالاته التى أضافها لنشرته لـ « ملاحظات » هارتلى المذكورة خاصة بملاحظاته هو (١٧٧٥) وپريستلى – تلميذ هارتلى – هو الكيميائى الذى اكتشف الأوكسيجين . وأرشـيبالد أليســون A. Alison (١٧٥٧ – ١٨٣٩) مقالات عن طبيعة الذوق ومبادئه Essays on the Nature and Principles of Taste (١٧٩٠) وإرازموس داروِن E. Darwin (١٧٣١ – ١٨٠٢) فى كتابه : Zoonomia (١٧٩٤) ، وراجع عموماً وارن Warren فى مرجعــه المذكور .

ومن الارتباطيين الاسكتلنديين راجع توماس ريد Thomas Reid (١٧١٠ – ١٧٩٦) فى كتابه : بحث فى العقل الإنسانى على مبادئ

الذوق العام Inquiry into Human Mind on Principles of Common Sense (١٧٦٤) ودوجالد استيوارت Dugald Stuart (١٧٥٣–١٨٢٨) : عناصر فلسفة العقل الإنسانى Elements of the Philosophy of Human Mind (١٧٩٢ وما بعدها) وتوماس براون Th. Brown (١٧٧٨ – ١٨٢٠) : محاضرات فى فلسفة العقل الإنسانى Lectures on the Philos. of Human Mind (١٨٢٠). راجع أيضاً كتابات السير وليم هاملتون وبرت وراند ووارن وغيرهم .

ومن الفرنسيين راجع مالبرانش : بحث عن الحقيقة Recherche de la vérité (١٦٧٤) ، ودى كوندياك E. B. de Condillac (١٧١٥ – ١٧٨٠) : مقال فى الإحساسات Traité des Sensations (١٧٥٤) وراجعه فى راند : علماء النفس الكلاسيك : (ص ص ٣٤١ – ٣٦٠) ، ودو لا مترى J. O. de La Mettrie (١٧٠٩ – ١٧٥١) فى كتابه الشهير : الإنسان الآلة L'homme machine (١٧٤٨) وبونيه C. Bonnet مقال تحليلى فى ملكات النفس Essai analytique sur les Facultés de l'âme (١٧٦٠) . وهلقسيوس Helvétius (١٧١٥ – ١٧٧١) : فى النفس De L'esprit (١٧٥٨) ، ودى تراسى Destutt de Tracy (١٧٥٤ – ١٨٣٦) : عناصر علم التفكير Elements d'idéologie (١٨٠١–١٨١٥) وكبانيس Cabanis (١٧٥٧ – ١٨٠٨) : العلاقة بين الجسم والنفس لدى الإنسان Rapports du Physique et du Moral de l'Homme (١٠٨٢) . ومين دو بيران Maine de Biran (١٧٦٦ – ١٨٢٤) : مقال فى آساس علم النفس Essai sur les Fondements de Psychologie (١٨١٢) .

راجع أيضاً وارن ، وبرت ودسوار.

(٤) ڤلهلم ڤونت Wilhelm Wundt

يمكن أن يعد ڤونت أكبر عالم فى تاريخ علم النفس ؛ إذ فيما قبله كان يوجد علم نفس ، ولكن لم يوجد علماء نفس بالمعنى الصحيح . ولد ڤونت فى بادن ١٨٣٢ ، وعاش منذ حداثته حياة أقرب ما تكون إلى العلم وأبعد ما تكون عن اللهو ، وتتلمذ على فريدرش ميلر F. Müller فكان له أكبر الأثر فى توجيهه وفى سنة ١٨٥١ لحق بجامعة تيبنجن Tübingen ، ثم لحق بعدُ بجامعة هيدلبرج حيث ظل ثلاثة أعوام ونصف العام . وفى هذه الأثناء وقف نفسه على دراسة الفيزيولوجيا ، ومات أبوه حينئذ ، فاضطر إلى أن يتحول لدراسة الطب ليكسب حياته بنفسه .

واهتم ڤونت – أول ما اهتم وهو فى هيدلبرج – بالتشريح والفزيولوجيا

وعلوم الطبيعة والكيمياء والطب التجريبي ، وكان من نتيجة ذلك اكتشافه أن البول يحتوى على كلوريد الصوديوم (١٨٥٣) . ثم وجه اهتمامه بعد ذلك إلى دراسات يوهانس ميلر فى الفيزيولوچيا ، وأصبح بعد ذلك مساعداً بإحدى العيادات الطبية فى جامعة هيدلبرج ، وبذلك اكتسب كثيراً من الخبرة والمران فى فن الطب ولكنه اكتشف مع ذلك كله أنه بعيد كل البعد عن أن يجعل من الطب مهنته . وفى عام ١٨٥٦ لحق بمعهد يوهانس ميلر الفزيولوچى — وذلك قبل أن يموت ميلر بعامين — حيث درس عليه علم الفزيولوچيا ، وفى هذا العام حصل على الدكتوراه فى الطب من هيدلبرج ، وعين محاضراً فى الفيزيولوچيا ، فشغل ذلك المنصب من ١٨٥٧ إلى ١٨٦٤ .

وفى سنة ١٨٥٨ ظهر كتابه الأول : نظرية فى الحركات العضلية : Lehre von der Muskelbewegungen . ومنذ ذلك الحين أخذ ينمو اتجاهه لعلم النفس ، ففى سنة ١٨٥٨ نشر القسم الأول من كتابه : أقوال فى نظرية الإدراك الحسى Beiträge zur Theorie der Sinneswahrnehmung وفى السنوات السبع عشرة التى أمضاها فى هيدلبرج (١٨٥٧ - ١٨٧٤) تحول ڤونت من الفزيولوچيا إلى السيكولوچيا تماماً ، وفى ١٨٧١ — حينما نزح هلمهولتس إلى برلين — كان خلفه الطبيعى هو ڤونت ، ولكنه لم يعين ؛ وإنما شغل المنصب كينى Kühne ، وظل ڤونت حتى ١٨٧٤ حينما شغل كرسى الفلسفة الاستقرائية فى جامعة زيورخ . وقد جمع محاضراته التى ألقاها فى هيدلبرج فى كتابين ، وهما : متن فى فيزيولوچيا الإنسان Lehrbuch der Physiologie des Menschen والثانى مختصر فى الفيزيقا الطبية Handbuch der medicinischen Physik ١٨٧٣ ، ١٨٧٦ .

وقد شعر ڤونت منذ البدء بالحاجة الملحة لتبيُّن أن علم النفس علم بمعنى الكلمة ، ويمكن اعتبار كتابه الأقوال Beiträge بداية لعلم النفس التجريبي ، فهو يشمل كثيراً منه ، كما أنه يضع الأساس الصورى لهذا العلم ، فهو بحق أول كتاب لڤونت فى أخذه بعلم النفس التجريبي — كما أعلن هو نفسه ذلك — به مواد جديدة فى هذا الباب ، ويكشف أكثر من هذا عن بدء تحول فونت من الفزيولوچيا إلى علم النفس التجريبي ، وفى مجال الإدراك . وفيه ناقش المؤلف أن كل سيكولوچيا يجب أن تبدأ بالاستبطان Selbstbeobachtung وأن هناك وسيلتين مرديتين : التجربة Experiment والتاريخ الطبيعى للنوع الإنسانى Geschichte . ولم تكن مادة هذا الكتاب واضحة أو محددة فى القسم الأول منه الذى أصدره ڤونت سنة ١٨٥٨ ؛ فلما أعاده سنة ١٨٦٢ ، استفاد فى مقدمته

بمحاضراته عن كتاب العناصر Elemente لفخنر ، وبكتاب : السيكولوجيا كعلم Psychol. als Wissenschaft الذى نشره هربارت سنة ١٨٥٨ .

ومنذ ذلك الحين اشتغل ڤونت فى هيدلبرج مع الفلكيين بالمعادلة الشخصية ، فتحدث إلى هيئة علماء الطبيعة Naturforscherversammlung فى اشپاير Speyer عن التفسير النفسى الفيزيولوچى للمعادلة الشخصية سنة ١٨٦١ ، ثم حاضر فيها فى السنة التالية ١٨٦٢ ، ونشرها بعد سنة أخرى فى كتابه Vorlessungen über die Menschen-und Thierseele وظل ذلك عنوان محاضراته حتى استبدل به منذ ١٨٦٧ اسم علم النفس الفيزيولوچى ، وانتهى بإخراج كتابه Grundzüge der physiologische Psychologie الذى ظهر جزؤه الأول فى هيدلبرج (١٨٧٣) وجزؤه الثانى (١٨٧٤) . ويعدّ هذا الكتاب خلاصة نشاط ڤونت فى هيدلبرج وتمام تحوله من الفيزيولوچيا إلى علم النفس ، أعنى علم النفس فى استقلاله وعهده الجديد .

وبَعد هيدلبرج لم يلبث ڤونت فى زيورخ إلا سنة واحدة (١٨٧٤–١٨٧٥) حتى استجاب لدعوة كرسى الفلسفة فى ليپتسك ، حيث كان على صاحب هذا المنصب أن يُعنى بالنظريات والمنطق ، وحيث رعت هذه المناصب فى ألمانيا معامل علم النفس الناشئة ، فلم تمض سنوات أربع حتى أسس ڤونت أول معمل تجريبي بالمعنى الصحيح ، وجعل يتوسع به ويدرس وتلاميذه من الألمان ثم الأمريكان والأوربيين فيه ، وأنشأ له مجلة لنشر أبحاثه ، واستمر هو ينشر الكتب العلمية الضخمة — خصوصاً بعد أن قام له كتل بدور الكاتب على الآلة منذ ١٨٨٣ ، كما يقولون — فظهر حينئذ كتابه فى المنطق Logik (١٨٨٠ — ١٨٨٣) الذى أعيد طبعه أربع مرات حتى (١٩١٩ — ١٩٢١) وكتابه الأخلاق Ethik (١٨٨٦) وطبعته الرابعة المنقحة (١٩١٢) وكتابه مذهب فى الفلسفة System der Philos. (١٨٨٩) الطبعة الرابعة له (١٩١٩) وأصول علم النفس Grundriss der Psychologie (١٨٩٦) أعيد طبعه تسع مرات حتى (١٩١١) ، وترجمه إلى الإنجليزية چَضّ C.H. Judd (١٨٩٦) وكتابه : علم النفس الجمعى Vôlkerpsychologie ظهر مُجلده الأول سنة (١٩٠٠) والثانى (١٩٠٥) ثم أعيد نشرهما فى أربع مجلدات (١٩٠٨) ، زيدت إلى عشر مجلدات منذ (١٩١٤) وكتابه المدخل إلى الفلسفة Einleitung in die Philos. (١٩٠١) ، ثم كتابه المرشد فى علم النفس Einführung in die Psychol.

(١٩١١) ترجمه إلى الإنجليزية پنتنر Pintner (١٩١٢) .

وآثار ڤونت الكاملة قد جمعتها ابنته إليونور Eleonore Wundt بعنوان Wilhelm Wundts Werk (١٩٢٧) تحت رقم ٢٨ فى نشرات : معهد أبحاث علم النفس Forschungsinstitut für Psychol. وفيها أُلْحِقت بكل ما كتب أو حاضر أبوها ، منذ ١٨٥٧ حتى آخر محاضرة له فى ١٩١٧ ، وفيها نجد ٤٩١ عنواناً ، من أقل كتاباته (صفحة واحدة) حتى أكبرها (٢٣٥٣ صفحة : علم النفس الفيزيولوچى) ويقدر المؤرخون ما كتبه ڤونت فى ٦٨ سنة (من ١٨٥٣ حتى ١٩٢٠) بحوالى ٥٣٫٧٣٥ صفحة. فمتوسط حجم النشرة الواحدة إذن ١١٠ صفحة ، وبمعدل حوالى سبع نشرات فى العام أو أكثر ؛ أى أنه كان يكتب أو يراجع طول حياته العلمية (٢٤٫٨٣٦ يوماً فى ٦٨ سنة) أكثر من صفحتين يومياً .

ولعله لم يُكتَب فى أحد من الفلاسفة أو علماء النفس مقدار ما كُتِب فى ڤونت الفلسفى والسيكولوچى ؛ ومن أهم ما كتب فيه : ڤونت : فلسفته وسيكولوچياه Wundt: seine Philos. und Psychol. لكينج E. König (١٩٠١) وكتاب فلسفة ڤلهلم ڤونت وسيكولوچياه لأيزلر R. Eisler (١٩٠٢) أما هرالد هيفدنج H. Höffding مؤرخ الفلسفة الألمانى الكبير فقد تحدث عنه فى كتابه : الفلاسفة المحدثون Moderne Philosophen (١٩٠٥) ص ص ٣ – ٣٧ من الترجمة الإنجليزية (١٩١٥). وفى مجلة علم النفس الأمريكية مجلد ٣٢ (١٩٢١) تحدث تتشنر مرة عن معارضة ڤونت لمذهب برنتانو (ص ص ١٠٨ – ١٢٠) ومرة أخرى عن حياة ڤونت بوصفها تحقيقاً للخطة التى رسمها فى كتابه Beitrage (ص ص ١٦١ – ١٧٨) .

ولن يسعنا هنا أن نتوسع فى ڤونت أكثر من هذا ؛ وحسبنا أن يرجع القارئ إلى أهم كتب ڤونت التى ذكرنا – وإلى هذه الشروح تكملة لها – وإذا تبينا أن المؤرخين قد أحصوا أهم ما كُتِب عن ڤونت من كُتُب – باستثناء جميع المقالات ؛ وهى كثيرة جداً ؛ وبالاقتصار على أحدث طبعات هذه الكتب – فوقفوا على ثلاثة عشر ألف صفحة ؛ إذا تبينا هذا سهل علينا أن نكتفى فى ڤونت بهذه اللمحة العابرة ، وحسبنا أن نذكر – كما بدأنا – أنه الأب التاريخى لعلم النفس التجريبى

(٥) داروِن وجالتون : كان طبيعياً وقد هزت العالم نظرية أصل الأنواع Origine of Species لتشارلز داروِن (١٨٠٩ – ١٨٨٢) حتى عدّت أكبر فتح علمى فى القرن الماضى بأسره ؛ أن تؤثر فى فكرة علم النفس

وموضوعه ، بما استحدثت من فروق بين أفراد النوع الواحد ، أرجعها دارون إلى الجانب الوراثى ، وباختيار ما هو أصلح منها يمكن أن يحدث تغيرٌ ارتقائى خلال أجيال عديدة ، أى الانتخاب الطبيعى ببقاء ما هو أصلح ملاءمةً للبيئة ومطالب الحياة ، وهذا الانتخاب — مع تغير ظروف البيئة المحيطة — يتيح دائماً فرصة ظهور أنواع جديدة . وقد خالفه فى بعض أجزاء هذه النظرية العلامة لامارك ، وهربرت اسپنسر . تناول أثر مذهب التطور فى علم النفس ، وأشار إلى مراجع أخرى إدوين بورنج E. Boring فى كتابه : تاريخ علم النفس التجريبى ؛ فى حديثه عن دارون وجالتون ورومانس Romanes وخصوصاً عن اسپنسر ص ص ٢٣١ — ٢٣٤ .

أما السير فرنسس جالتون (١٨٢٢ — ١٩١١) فهو صاحب علم نفس جديد فى بريطانيا ، علم نفس تجريبى عُنِىَ خصوصاً بمشكلة فروق النوع الإنسانى فى الفرد ؛ حتى لَيجعلُ منه كارل پيرسن K. Pearson ڤونتَ بريطانيا British Wundt ؛ وأنه — لولا أن اختار علماءُ النفس الناشئون لسوء الحظ زعامةً ألمانية — لوجب أن يكون جالتون أباً لعلم النفس البريطانى . والحق أنه لا وجه لمقارنته بڤونت ، الذى ظل ستين عاماً لا يشتغل إلا بعلم النفس . بينما هو قد توزَّعتهُ اتجاهات أخرى خصّ علمَ النفس منها خمسةَ عشر عاماً فقط ؛ فضلا عن الفرق الشاسع بين إنتاج كل . ومن هنا لم يترك جالتون أثراً كبيراً فى أتباع له ، وأغفل علمُ النفس التجريبى عمله — كما يقول پيرسن — فيما عدا نظريته فى التلازم Theory of Correlation

وأهم كتبه : العبقرية الوراثية Hereditary Genius الذى ظهر سنة ١٨٦٩ وهو فى السابعة والأربعين وبعد ذلك بأربعة عشر عاماً (أى سنة ١٨٨٣) ظهر كتابه الشهير : بحوث فى ملكة الإنسان وتقدمها Inquiries into Human Faculty and its Developement الذى عُدَّ فتحاً لعلم النفس الفردى العلمى ولاختبارات الذكاء .

ويشتهر جالتون — فوق بحثه فى الوراثة العقلية التى ألهمه إياها دارون — بالمنهج الإحصائى statistical method الذى استفاده من العالم البلجيكى أدولف كِتلِت A. Quetelet (١٧٩٦—١٨٧٤) — فقد أخذ عنه جالتون استخدام قانون للخطأ الطبيعى Normal law of error وطبقه على قياس الكفاية العقلية إيماناً منه بأن القياس الكمى هو من شأن العلم الكامل فأنشأ مقياساً للنبوغ ، من درجات تبدأ من « ا » إلى « ز » ثم إلى « س » التى تمثل كل الدرجات بعد « ز » فأصبح هذا

المنهج من بين الطرق الرئيسية فى قياس الذكاء — قبل منهج اسپيرمن — وطبقه جالتون فى دراسته لعلماء انجلترا English Men of Science (١٨٧٤) وفى الوراثة الطبيعية Natural Heredity (١٨٨٩) وعلى نظريته فى التلازم التى وضع پيرسن صيغتها الرياضية . ويعد پيرسن أهم مرجع لأستاذه جالتون فى كتابه : حياة فرانسس جالتون وكتاباته وأعماله Life, Letters and Labours of Francis Galton (مجلده الأول ١٩١٤ والثانى ١٩٢٤) .

راجع تاريخ بورنج (٤٦٧—٤٨٤) مراجع وحواشى (ص ص ٤٨٨—٤٩٢)

(٦) وليم چيمس William James (١٨٤٢ — ١٩١٠) شخصية بارزة فى تاريخ علم النفس التجريبى — وإن لم يكن هو تجريبيًّا ، ولكن لأنه كان رائد علم النفس الحديث فى أمريكا ، فكان يشرح وينقد علم النفس الجديد فى ألمانيا . لحق فى سن التاسعة عشرة بمدرسة لاورنس العلمية فى جامعة هارڤرد ، فدرس بها الكيمياء على يد شارلز إليوت Ch. W. Eliot ، وبعد سنتين دخل مدرسة الطب فى هارڤرد ورحل فى سن الثالثة والعشرين مع لويس أجاسيز فى رحلة لدراسة الطبيعة فى الأمازون ، وشارك بقليل فى هذه الرحلة ، ولكنه اكتشف فى البرازيل أنه فيلسوف ، لأنه لم يستطع — كصاحبه — أن يقوم بالمشاهدات فى معزل عن تأمل العلل والتفكير العقلى . وبعد هذه الرحلة عاد إلى كمبردج فألمانيا — سنة فى هذه وسنة ونصف فى تلك — لإتمام دراسته الطبية ، ولكن ضعف صحته كان يعترضه دائماً .

فلما عاد إلى أمريكا حصل على درجته سنة ١٨٦٩ ، وعين فى هارڤرد محاضراً سنة ١٨٧٢ ، فاستطاع بعض الشيء أن يفصل بين الفلسفة وتدريس الفيزيولوچيا ، واتجه إلى علم النفس الفزيولوچى لقربه من الفلسفة — فيما حسب — فساعد نجاحه فى العمل على تقدم صحته ، وعين سنة ١٨٧٦ أستاذاً مساعداً فى الفزيولوچيا . وفى سنة ١٨٧٨ اتفق مع الناشر على نشر كتابه : مبادئ علم النفس Principles of Psychology ، وعرف منذ ذلك الحين بنزعته الفلسفية ، فعين أستاذاً مساعداً للفلسفة ثم أستاذاً لها (١٨٨٥). ثم عدل لقبه بعد ذلك إلى أستاذ علم النفس سنة ١٨٨٩ حينما ظهر فيما بعد « مبادئ علم النفس » وتحوله إلى علم النفس تماماً ؛ حتى إنه ختم كتابه هذا بقوله أن ليس ثمة ما يمكن أن يسمى علم النفس ، وأن علم النفس ما يزال فى مرحلة قبل - علمية . كان يؤمن بالمعمل ، ولكنه لا يستطيع أن يخضع نفسه « لروتينه » — كما يقول هو — فأدى به ذلك إلى تحول لقبه مرة أخرى إلى أستاذ الفلسفة (١٨٩٧) وأسند معمل

هارڤرد إلى مينشتر برج M. Münsterberg.

ومنذ ذلك الحين قوى اتجاهه الفلسفى بعيداً عن علم النفس — وإن هو لم يقلع عنه — فقد أعاد نشر « مبادئه » مختصرة (١٨٩٢) كما نشر: أحاديث للمعلمين Talks to Teachers (١٨٩٢) ثم : أنواع من التجربة الدينيـــة Varieties of Religious Experience (١٩٠١ — ١٩٠٢). واستقال من عمله فى هارڤرد سنة ١٩٠٧ ، فبدأت تظهر أروع كتبه فى الفلسفة . فظهر « البراجماتزم » فى هذه السنة . وظهر كتاباه : عالم متكثر A pluralistic Universe ومعنى الحق Meaning of Truth سنة ١٩٠٩ . ثم اشتد التعارض بين قوة عقله واعتلال بدنه ، فمات فى السنة التالية عن ٦٨ عاماً وتقاليد وشخصية وآثار عظيمة ، وعن قوة فى التفكير وثروة من الإنتاج لا تتركها مدرسة كاملة .

وفضلا عن شخصية چيمس التى وصفنا ومعارضته لعنصرية علم النفس الألمانى elementarism خصـــوصاً فى مسألة تداعى التفكير وفى التشبث بالتحليل كمنهج علمى ضرورى ؛ فقد أسهم بكثير فى نظرية الشعور ؛ قائلا إن الشعور مستمر كالمجرى goes on as a stream وأنه شخصى personal ومتغير changing وأنه أخيراً مُخَيِّر selective . ولم يفصـــل چيمس — بتأثير الفلســـفة — بين قوانين العقل والمنطق ، فقال بالمعرفة cognition إلى جانب قوله بالوظيفـــة function (المبادئ جـ ١ ص ص ٢٢٤—٢٩٠ ، ١٤٠ وما بعدها) .

ولچيمس من الناحية الفيزيولوچية نظريته الهامة فى الانفعال . التى صاغها لأول مرة سنة ١٨٨٤ (Mind : ٩ ص ص ١٨٨ — ٢٠٥) . وفى السنة التالية قال لانجى C. Lange الدانمركى بمثلها فى بحثـــه Om Sindsbevoegelser (١٨٨٥ وترجمته الألمانية : Ueber Gemütsbewegungen ١٨٨٧) ؛ فأعاد چيمس نشر مقال ١٨٨٤ والفصل من « المبادئ » (١٨٩٠) الذى عرض فيه هذه النظرية (جـ ٢ ص ص ٤٤٢ — ٤٨٥) مع أول ترجمة إنجليزية لبحث لانجى باسم لانجى وچيمس: الانفعالات The Emotions (فى Psycho¹ . Classics : الكتاب الأول ١٩٢٢) .

راجع فى حياة چيمس وكتبه : كتاب هنرى چيمس The Letters of W. James وكتاب إميل بوترو E. Boutroux وليم چيمس ١٩١١ (ترجمته الإنجليزية ١٩١٢) وفى مناقشة نظرية چيمس — لانجى : تتشنر Titchener مجلة علم النفس الأمريكية مجلد ٢٥ ، ١٩١٤ ص ص ٤٢٧—٤٤٧ ، وكتب چيمس : المبادئ (١٨٩٠) والمختصر (١٨٩٢) والأحاديث (١٨٩٩).

الفصل الثانى

سيكولوچيا الاستبطان والمدرسة الوجودية

الاستبطان introspection كمنهج للملاحظة فى علم النفس ليس مِلكاً لمدرسة بعينها، كما أن المنهج الخارجى ليس مِلكاً لأية مدرسة كذلك . ويظهر ذلك من هذه الحقيقة ؛ وهى أن كثيراً من علماء النفس قد استخدموا كلا المنهجين ؛ وغالباً ما كان استخدامهم لكليهما فى بحث بِعَينه . لقد أنكر السلوكيون قيمة الاستبطان — ولكن ليس من بين أصحاب التأمل الباطنى مَن أنكر قيمة المناهج الخارجية فى دراسة السلوك ، أو قيمة دراسة السلوك كخَط جانبى لعلم النفس . ومن ثم — نحن لا نستطيع أن نتحدث عن مدرسة التأمل الباطنى كما لو كان علماء النفس جميعاً الذين استخدموا الاستبطان فى مهمتهم يُكوّنون جسما واحداً يؤلف بينهم فيه إخلاصُهم لهذا المنهاج من الدراسة ؛ لاولن نستطيع أن نتحدث عن سيكولوچيا القرن التاسع عشر على أنها فى جملتها استبطانية ، وعن الطرائق الخارجية على أنها ظهرت فى أيامنا هذه ؛ لأن الطرائق الخارجية قد استُعملت منذ بداية علم النفس التجريبى : فى دراسة زمن الرجع ، وحدوث الإدراك، وأخيراً فى تجاريب الذاكرة والتعلم . وما نجد بالفعل فى نهاية القرن الماضى وبداية القرن الحالى إنما هو توسعة للميدان الذى قامت فيه بجد محاولات الاستبطان ؛ مع نقد إنشائى لهذا المنهج ، وصَوغ لما يهدف إليه علم النفس الباطنى أكثَر دقة . وأنا أربط علم النفس الوجودى الذى ظهر على هذا النحو خصوصاً بتعاليم المرحوم الأستاذ إدوارد برادفورد تتشنر القوية .

وأحسَب أنّا مُجمِعون — مهما تكن ميولنا إلى أية مدرسة — على أن مهمة علم النفس أن يدرس الفرد ؛ وأن حقائقه تقوم على ملاحظات أفعال الفرد . فإذا كان الفرد كائناً حيّاً له القدرة على أن يقدم تقريراً ؛ فلنا أن نطلب إليه أن يلاحظ ويقرر بعض أفعاله هو ، أو ما يحدث له أو فيه . ولو أطلقنا على الفرد موضوع الدرس « الذات » subject ؛ فلنا أن نسمى الملاحظات التى يدلى بها على هذا النحو: ملاحظات ذاتية Subjective observations ؛ مستخدمين اللفظة المقابلة : موضوعى

أو خارجى objective للملاحظات التى يجريها عليه شخص آخر . فالاستبطان ملاحظة ذاتية ، وفى بعض الأحيان تُسمى الملاحظاتُ التى يدلى بها الشخص ذاته استبطانية introspective . وأحياناً أخرى نَقصر هذه التسمية على نماذج بعينها من الملاحظة الذاتية أكثر تركيباً أو أكثر تهذيباً ؛ كما سأوضح ذلك فيما بعد .

فإذا وضعنا نُصبَ أذهاننا أن التأمل الباطنى قد كان أخيراً حثيث الخُطى ؛ إذ يُصر السلوكيون على أن طرائق الملاحظة الخارجية وحدها هى التى تؤدى إلى أية صحة علمية ؛ فسنجد متعة مزدوجة فى استعراضنا سريعاً نماذج العمل السيكولوچى الذى يُتوصَّل إليه بفضل الملاحظة الذاتية ، وسنرى أى شىء من المحسوس يريد السلوكيون أن يُبعدوا عن علم النفس ؛ وسنكون بذلك صائرين إلى المدرسة الوجودية .

نماذج لعلم النفس الاستبطانى :

ومن الغريب — فيما يبدو — أن علم النفس قد تعلم استخدام المنهج الذاتى فى الملاحظة — لا عن الفلسفة — بل عن الفيزيقا والفيزيولوچيا . استخدمته الفيزيقا فى دراسة الضوء والصوت ، والفيزيولوچيا فى دراسة أعضاء الحس . ويجب ألا يغيب عن البال أن الضوء والصوت ليسا حقائق موضوعية مطلقة ؛ لأن الضوء ليس مجرد إشعاع — بل هو إشعاع مرئى ، والصوت ليس مجرد ذبذبة اهتزاز — بل هو اهتزاز مسموع . وكثير من الذبذبات ليس مسموعاً ، وكثير من الإشعاع ليس مرئيًّا . فامزج لوناً أحمر خالصاً وآخر أصفر خالصاً ، ولن يكون لديك موضوعيًّا أكثر من هذا المزيج ؛ ولكن الملاحِظ الذى تضعُ هذا المُركَّب تحت بصره يرى لوناً برتقاليًّا . ومزيجُ الأصوات يعطى نتائج مغايرة تماماً ؛ لأن الأذن نوع من آلة تسجيل مختلف تماماً عن العين . وقد أولع الفيزيقيون بهذه الظواهر الذاتية منذ عهد نيوتن فما بعد . ومع تقدم الفيزيولوچيا السريع فى القرن التاسع عشر المبكر ؛ بدأ بعض الفيزيولوچيين يجربون وظائف أعضاء الحس . فكيف يختبرون عمل هذه الأعضاء ؟ الطريق الواضح أن ينبهوا عضو الحس ثم يطلبوا إلى الفرد أن يسجل التأثير الذى حدث له . والإحساس الذى حصل عليه . وهذا الضرب من المنهج الذاتى للحصول على "هذه" الحقائق يمكن أن يسمى طريقة التأثر Method of impression ؛ هو ذاتى لأن الشخص الذى يقع عليه أو فيه التأثير يلاحظه ويسجله . وفى العادة

كان الفيزيولوجى يجرب على نفسه أولا ؛ فيجرى تنبيهاً معيناً على أحد أعضاء حسه، ويُدون التأثير الذى لقى . ولكى يتحقق من ملاحظاته كان له أشخاص آخرون يقومون بنفس التجربة كموضوعات ، فإذا سجل كل واحد عين التأثير عن نفس المنبه ؛ قُبِل الأمرُ على أنه حقيقة قائمة تدل على وظيفة هذا العضو من الحس . وكم من نتائج مقبولة حصّلها بطريقة التأثر تلك طوال القرن التاسع عشر الفيزيقيون والفيزيولوجيون ، وأخيراً علماءُ النفس .

ومشكلة عامة فى دراسة الحواس هى التحليل ، والبحث عن الإحساسات الأولية . فمثلا حاسة الجلد تعطينا عدداً من التنبيهات : الشكل ، والحجم ، والثقل ،وتركيب الأشياء من حرارة و برودة ، ورطوبة وجفاف، وخشونة وصلابة . . . عدد لا نهاية له من الحقائق ، ولكن المحتمل ألا يكون الحس قد قدم لنا بالضبط كل هذه الحقائق ؛ وإنما قدم مُعطَيات أولية معينة استُخدمت فى الدلالة على هذه الحقائق . فكانت المشكلة فى اكتشاف هذه المعطيات الأولى . وعلى مر الزمن ظهر أن ثمة خصوصاً أربعة إحساسات أولية بالجلد : الدفء والبرودة والألم والضغط ؛ وكل ما عداها من التنبيهات خليط من هذه الأربعة تقريباً . وهذا التحليل إنما توصلوا إليه بتفحّص الجلد بمختلف التنبيهات ؛ والعثور على بقعات صغيرة حساسة بالدفء ، وأخرى بالبرودة وهكذا (٥) .

وبنفس الطريقة تقريباً حُللت حاسةُ الذوق(٤). فبطريقتنا العادية فى التفكير يوجد عدد لا نهاية له من الطعوم المختلفة . ونحن نعلم فى الواقع أن برداً يصيب الأنف يقلل هذه الكثرة المختلفة إلى حد كبير . وتُظهرنا التجربةُ على أن الأنف إذا ظل بمعزل ، فإن عدد الطعوم الحقيقية يهبط إلى أربعة : الحلو ، والحامض ، والمر ، والملح . والطعوم الكثيرة التى نفكر فيها عادة هى مزاج من هذه "الأربعة" مع الرائحة والملمس وأحاسيس الحرارة . فى حالة شراب الليمون؛ تعيننا على تحليل هذا الخليط معرفتُنا بتركيب المنبه . فنحن نعلم أن المنبه يشمل الحلو والحامض والبارد، ونعلم أن الليمونة أكثر من مجرد حامض ، وأن الخل أو حامض الكبريتيك لا يمكن أن تغنى فى الحلول محلها . إن لها فوق هذا رائحة خاصة ، وعلى هذا فشراب الليمون يجمع تنبيه أربعة إحساسات أولية . ومذاق شراب الليمون مزاج من هذه الأربعة . وحين نسميه مزاجاً ؛ فإنما نعنى أنه — على الرغم من تركيبه — فإنه يبدو أن يكون تأثيراً موحداً unitary impression .

ولا شك أن حاسة البصر(١) تقدم عدداً لا نهاية له من التأثيرات ، ولها خاصة بسطها فى المكان وإعطائها الشكل والموضع . ويُبين التحليل إحساسات أولية ستة : الأبيض والأسود والأحمر والأصفر والأخضر والأزرق ؛ مع جملة مركبات كثيرة منها . وتختلف حاسة السمع(٢) فى أنه ليس لديها عدد قليل من العناصر ، لأن كل نغمة فى الظاهر — مرتفعة أو منخفضة أو متوسطة — هى فى أوليتها ككل نغمة أخرى " فى نفس درجتها وإن كانت من نوع آخر " . فهنا توجد آلاف من العناصر الأولية ولكن هناك أيضاً مركبات كثيرة العدد . وتحليل المركبات الصوتية قد كان من أعجب ما وصل إليه هذا النوع من الدراسة . فالخصائص المميزة المختلفة للآلات المختلفة قد رئى أنها تقوم على صلات مختلفة بين النغمات الفرعية والنغمة الأصلية التى تحدث فى أى وقت . وبنفس الطريقة أيضاً — الحروف الساكنة والمتحركة هى مركبات نغمات الفم المساعدة والنغمة الأصلية التى تخرج عن الحبال الصوتية . وفى السنوات الأخيرة اشتغل مهندسو « التليفون » و« الراديو » اشتغالا واسعاً فى ميدان الإحساس السمعى هذا . كما اشتغل مهندسو الضوء فى ميدان الإبصار . وكانت خطتهم أن يراقبوا المنبه أولا على ضوء معارفهم فى الفيزيقا ، وثانياً — أن يستعينوا بالثقات من الملاحظين وأن يهيئوا الظروف الملائمة للملاحظة السهلة الدقيقة ما أمكن ؛ ثم أن يطبقوا منهاتهم المضبوطة ، ويجعلوا ثقات ملاحظيهم يُدلُون بما يقع عليهم من تأثيرات . وعليهم أن يعتمدوا على طريقة التنبيه ، لأنهم ليسوا مختصين فقط بفيزيقا الضوء أو الصوت ؛ بل بالآثار الواقعة على الكائن الحى الذى يرى أو يسمع .

وحاسة الشم(٣) قد استعصت طويلا على التحليل ، ولكن بعض التقدم قد حدث أخيراً . فإن هننج* Henning(٦) قد جمع طائفة كبيرة من مواد الشم وقدمها لاشخاص تجربته بتعليمات لهذا الغرض : تناسَ كلَّ ما تعرف عن مصادر الشموم المختلفة ، وقارن فقط هذه الشموم ؛ مبيناً وجوه الشبه فيها حتى تستطيع أن تؤلف بينها فى نظام أو نسق . وكانت هذه التعليمات لازمة ؛ لأن الأشخاص ربما تحولوا — بدونها — إلى محاولة التوحيد بين الشموم التى عاد بهم السعى لها إلى ما كانوا يعرفون من قبل ، إلى تصنيفهم العادى الساذج الشائع للشموم ؛ فلم يعملوا لِأىّ تقدم . فلما لصق الملاحظون بالمشابهات والفروق بين الشموم المعطاة ذاتها دون إهابة باعتبارات أخرى غريبة ؛ تبينوا شموماً رئيسية معينة تشبه العناصر إلى حد كبير ، وشموماً أخرى

* هننج (هانس) : الشم . ١٩٢٤ . H. Henning : Der Geruch. 1924

بدت مركبات " لها " . وتعرض التجربة زبدة الملاحظة الذاتية للمرء فى وصف دقيق لتجربته ، يحاول " فيه " أن يقول ما هو ثمة موجود — لا ما يقترح أن يكون — جاهداً فى أن يظل مع الظواهر التى يراد تقريرها ؛ فيصفها مقرونة ببعضها البعض .

ومثال آخر لاستخدام طريقة التنبيه فى دراسة الحواس . إذا أنت صوّبتَ النظر إلى بقعة ملونة عشرين أو ثلاثين ثانية ، ثم حولتَ عنها نظرك إلى مُستوٍ رمادى بسيط ؛ فإنك ترى بقعة لون مُكملةً لونَ البقعة الأصلية : بنفسجية للأخضر ، وزرقاء للأصفر ... إلى آخر ذلك . هذه الصورة البَعدية السالبة negative after-image هى إحساس ذاتى . لأنه ليس ثمة نقطة خارجية على المســتوى « الساده »☆ . وتُظهر الصورة البَعدية الطريقةَ المعقدة التى تستجيب بها العين والمخ إلى الضوء . وهى ظاهرة جِدُّ هامة فى إبصار اللون من الناحية الفيزيولوچية والسيكولوچية . بل هى مهمة من الناحية العملية أيضاً ، ما دام المرء ينبغى أن يأخذ بنتائج الصورة البَعدية فى موازاة الألوان ومقارنتها . ومن اليسير أن تبين الصورة البعدية لأى شخص بإجراء التجربة عليه — ولكن بطبيعة الحال أنت لا ترى الصورة البعدية لأى أحد قط ؛ بل صورتَك أنت — والدليل على هذه الحقيقة التى أجمعوا على قبولها إذن يقوم بكله على منهج التأثر ؛ أى على الملاحظة الذاتية . ومن المحيّر كيف يستطيع أحد — بإزاء هذا الموقف — أن ينكر كل صحة للملاحظة الذاتية .

لا تختلف الملاحظة الذاتية جوهريّاً عن الموضوعية :

ما زلنا نُعد طريقةَ التأثر لوناً من ألوان الملاحظة الذاتية ما دام الشخص يقرر التأثير الذى يتلقاه بنفسه . وتبقّى بعد هذا مسألة ما إذا كانت الملاحظة الذاتية حقاً شيئاً آخر مختلفاً عن الملاحظة العادية للحقائق الخارجية . فطريقة التأثر يُمجّدها علماءُ النفس الاستبطانيون الذين ينظرون إليها وكأنها الحال النموذجية للملاحظة السيكولوجية البسيطة ، ويكرهها السلوكيون على أنها ملطخة بالصبغة الذاتية . أما للشخص نفسه الذى يجرى الملاحظة ؛ فهى تبدو موضوعية كملاحظة حقيقة موضوعية أو خارجية . تُلقى أمام عينيه ضَوءاً ، فيقرر : « إنه أخضر » ، وتضع فى فمه مادة ؛

☆ فارسى معرب بمعنى بسيط plain ولعله يؤدى معنى اللون أكثر مما تؤديه كلمة بسيط (المترجم)

فيقرر : « إنها حامضة » . وتُحدث نغمة خافتة فيقول : « الآن أسمعها ، والآن لا » . فهى تبدو له نفس النوع من الملاحظة الذى يُجريه دائماً على الأشياء ؛ إلا أنه ربما كان أكثر معاناة للتجربة . وحتى فى حالة الصورة البعدية هو قابل لأن يقول : « إنى أرى على الحائط بقعة بنفسجية . إنها تتحرك عند ما أحرك عينىّ . إنها الآن تتلاشى » . وربما استطاع أن يُقنع نفسه أن هذه الصورة البعدية شىء « فى عينيه » أكثر منه على الحائط حقيقة ؛ ولكن الملاحظة تبدو موضوعية كأية ملاحظة أخرى . وثمة فارق واحد : هو يُنحّى جانباً عند ملاحظة هذه الصورة البعدية مسألة ما إذا كان هناك فى الخارج بقعة بنفسجية حقًّا ، ويُدلى بما تُنبئ به عيناه فقط ؛ بينما هو فى حياته الجارية يُعنى بما هو ثمة واقعى فى الخارج ، ويتعود أن يصرف النظر والاعتبار عن الصور البَعدية التى تُقدمها له عيناه دون انقطاع . فمنهج التأثير يتطلب من الملاحظ أن يدع جانباً اشتغاله بالدلالة العملية لتأثراته حتى يستطيع أن يقرر التأثيرات ذاتها . ولكن مطلباً شبيهاً " بهذا " يلزم فى كل تجربة تُعانَى : فالعادة أنه فى الملاحظة الساذجة أو اليسيرة ، نحن نحصل على تأثير مركب يصلح لأن يكون إشارة عابرة لبعض حقيقة موضوعية ؛ ولا حاجة بنا إلى ملاحظة التأثير بعناية لأن الحقيقة الموضوعية مُشارٌ إليها فيه بوضوح . فأما إذا كان التأثير ضعيفاً أو غامضاً ، وكان من المهم أن نستيقن من الحقيقة الموضوعية ؛ فإنا مَسُوقون إلى ملاحظة التأثير نفسه حتى نستوثق مما نرى حقيقةً أو نسمع . فنحن نسأل : « هل توجد هناك هذه البقعة الضئيلة على الماء أم أن عينىّ تخدعانى ؟ » و « هل أسمع هذا الصوت الخافت المتراخى أم أننى أتخيله ؟ » ؛ ونظل عن الجواب فى توقف حتى نستطيع أن نتأكد من مُشيرينا .

فإذا كان منهج التأثر غير صحيح من أساسه ؛ فإنه يبدو أن كل ملاحظة علمية غير صحيحة ؛ لأنه يتطلب من الملاحظ من الناحية العملية ما تتطلبه تلك تماماً . فلنفرض أن لدى كيميائى ما أنواعاً كثيرة من الماء يريد أن يفحصها لكى يحدد أيها فيه حديد ، وأنه يضيف إلى كل نوع منها مخبراً ينتج بقعة لون زرقاء فى الماء تحتوى حديداً . ولنفرض أنه يقول فى نفسه : لو أن لى مساعداً له عينان جيدتان أستطيع أن أثق بدقة ملاحظته ؛ إذن اوفّرت على نفسى من نظام العمل كثيراً . فيعلن . وتتقدم لهذا العمل فتاة صغيرة . فيأتى بطائفة من أنابيب اختبار فيها محلول الحديد ، وأخرى ليس فيها ، ويُدوّن أيها هذه وأيها تلك ، ثم يضعها أمام الفتاة مبيناً أن مهمتها أن

تفحص كل أنبوبة اختبار جيداً حتى تتأكد هل تظهر فى إحداها بقعة زرقاء أم لا. ثم لنفرض أنه وجدها دقيقة جداً فاستخدمها ، وجعل يضع بين يديها أنواعه هذه المجهولة ، ويعتمد عليها فى إثبات أيها فيه هذه الزرقة وأيها ليس فيه . فهو قد اختبر الفتاة أولا ؛ ثم هو الآن يختبر أنواعه . ولكن مهمة الفتاة هى هى بعينها خلال ذلك : هى تدلى بتأثيراتها ؛ ولكن دورها أثناء ذلك موضوعى خارجى . فالكيميائى قد استخدم نفس العملية أولا لاختبار ملاحِظه من الناحية النفسية ، ثم لاختبار أنواعه من الماء من الناحية الكيميائية . وكانت الملاحظات هى بعينها : إلا أنها أُجرِيَت أول الأمر لغرض سيكولوجى ، ثم بعدُ لغرض كيميائى ؛ فى الحالة الأولى استخدم الكيميائى أنواعاً معلومة ليعرف شيئاً عن شخص مجهول ، وأخيراً استعان بهذا الشخص المعروف حينئذ بملاحظته ليكتشف شيئاً عن عناصر غير معلومة .

والملاحِظ الإنسانى ما أشبهه بآلة تسجيل حساسة ، كالترمومتر مثلا . فأنت حينما تختبر ترمومتراً جديداً ؛ تُجرِّبُه فى درجات حرارة معلومة لترى هل يسجل فى غير خطأ درجات الحرارة هذه . فإذا استوثقتَ من دقته جرَّبتَه فى درجات حرارة مجهولة ؛ وأخذت تقبل ما يسجله على أنه صحيح فى حقيقته الخارجية . وفى التجربة السيكولوجية يعمد الباحث إلى معرفة المؤثر الذى طبقه على موضوعه ؛ وبذلك يمكنه أن يستفيد من إجابة الشخص له من حيث أنها تبين شيئاً عن هذا المفحوص نفسه والعمليات التى تجرى فيه . أما فى التجربة الكيميائية أو الفيزيقية ؛ فإن الباحث يعرف ملاحِظه ويثق به ، ويأخذ إجابته دليلا على حقيقة موضوعية مجهولة . وعلى هذا فمنهج التأثير والملاحظة العلمية الصحيحة لا يختلفان من حيث هما ملاحظة ، ولكن فقط فيما يسبقهما وما يتلوهما . هما عند الملاحظ شىء واحد ، وإنما يختلفان عند الباحث لأنه يبدأ "فى كليهما" من موضع مختلف ، ويقصد وجهة مختلفة .

وضوابط طريقة التأثر هى بعينها ضوابط الملاحظة العلمية بصفة عامة . وهى إجماع ملاحظين مختلفين ، وإتفاق الحقائق التى يدلون بها . والواقع أن الأفراد يختلفون كثيراً حتى لا نستطيع أن نتوقع إجماع الملاحظين عموماً فى تجربة سيكولوجية . فإن نسبة كبيرة من الناس سيرون فى اللون الناصع تماماً أخضر فى زرقة ، وبنفسجياً ميالا إلى الحمرة ، ورمادياً أدكن ؛ ثم يقررون أنها واحدة جميعاً . ومثل هذا الفرد الذى ذكرنا له حاسة لون عجيبة ، فنحن نختبره بطرق مختلفة ؛ ونقرر أنه أعمى اللون

colour-blind — أعمى الأخضر والأحمر . وفى العمل الكيميائى يجب أن نقطع بعدم صلاحيته للقيام بملاحظات اللون . أما فى علم النفس فنحن نسر بالعثور عليه ؛ لأن حالات شذوذه هذه تلقى ضوءاً على عمليات رؤية الألوان . ويشبه ذلك تماماً ما إذا وجد كيميائى أن آلة من آلاته تسجل خطأ ؛ وبدلا من مجرد إلقائها بعيداً يعكف على دراستها ابتغاء الوقوف على شيء من الوظائف الداخلية لهذه الآلة . فالعالم النفسى بحكم وظيفته يدرس نوعاً بعينه من الآلات .

وقد قلنا فى الفصل السابق شيئاً عن الخبرة والفعل كموضوع لعلم النفس . ومنهج التأثر يمكن أن يُنظر إليه من كلتا الزاويتين "الخبرة experience والفعل performance" فالحساسات الأولى : الساخن ، والأزرق ، والحامض . . الخ هى حقائق الخبرة . وكيمياء العقل تنظر إليها على أنها العناصر التى تتركب منها الخبرة . والمركبات والصور البعدية أيضاً حقائق خبرة ، ولكن الشخص فى تلقى التأثيرات والإخبار بها فاعل performer كما هو ذو خبرة experiencer . وما دام المجرب يعرف المنبه الذى استخدمه ، وأيضاً يعرف — أو ربما يعرف — الاستجابة الحقة لهذا المؤثر أو المنبه ؛ فقد يستطيع أن يزيد على ملاحظة المفحوص ملاحظة من عنده ، وهى : إلى أى حد كانت علاقة استجابة المفحوص للمنبه صحيحة . وملاحظة المجرب لهذه الإصابة أو الخطأ تدخل تحت عنوان الملاحظة الخارجية . فكون أعمى اللون يخلط الرمادى والأخضر المزرق والبنفسجى المحمر ؛ حقيقة خارجية ، ولو سألته لِمَ يفعل هذا أجابك لأنها تبدو له مشتبهة . ولا يعنى السلوكى — أو ما عدا الملاحظ الخارجى — كيف تبدو هذه للشخص ؛ وإنما يعنيه فقط ما يقول الشخص أو يفعل خاصاً بها . فلو أن الكيميائى الذى قلنا إنه اختبر الفتاة كان سلوكياً ؛ لقال : « إنه لا يعنينى أن ترى الأزرق أولا تراه ؛ ما دامت تذكر اللون الأزرق فى مواضعه وليس غير » وقد يستطرد قائلا : « أنا لا أعترف بأن ثمة شيئاً كالبصر فى معزل عن الاستجابة اللفظية أو الاستجابات الآلية الأخرى ، كما لا أعترف أن ترمومترى يحس بالحرارة التى يسجلها . وكل ما أعترف به فى الحالين ؛ استجابة آلية تتعلق بالمؤثر . » هذا حسن ووجيه ، ولكن أحياناً ما يختبر الكيميائى بنفسه أنابيب اختباره ويقرر : « أزرق » أو « لا أزرق » ، وربما اعترف بأنه قال هذا لأنه هكذا رآه . وعنده أن من التعصب إنكار مشابهة نتائج الملاحظ الآخر لنتائجه هو من هذه الناحية — أو بوجه أعم — من التعصب عند السلوكيين إنكار أن طريقة التأثير تقدم نتائج الخبرة

الحقيقية . ربما كانوا لا يريدون أن يَغلُوا على هذا النحو ، وسوف تجدهم مع هذا يتحاشون بإيمان استخدام كلمات : « يرى » ، و« يسمع » ؛ مستبدلين بها قولهم « استجابة الضوء أو السمع » .

تقدم أوسع لطريقة الاستبطان :

ربما نستطيع الآن أن نبين كيف اصطُنع منهج التأثير فى دراسة الأحاسيس والمفاضلات الاستاتيكية (الخاصة بعلم الجمال) : يُسأَل الشخص عما إذا كان الشيء المُعطَى باعثاً على السرور ، أو أىّ شيئين معينين أكثر إدخالا للسرور . وقد نستطيع التحدث عن وجوه استعمال أخرى كثيرة لهذا المنهج العام . إلا أنه ربما كان أدنى إلى غرضنا أن ننتقل إلى تطور منهج التأثير إلى شيء آخر أكثر تعقيداً يمكن أن نخُصه باسم الاستبطان .

عند ما تتلقى تنبيهاً ؛ فإن خبرتك فى مجموعها أغنى من مجرد التأثير المباشر الذى تلقيتَه عن المنبه . وطريقة التأثير تدعوك فحسب إلى أن تدلى بالأثر المباشر ؛ بينما طريقة الاستبطان الواسعة تريدك أن تدلى بخبرتك كلها فى هذه اللحظة ، أو أقصى ما تستطيع منها . فى تجربة المعمل ، الشخص منصرف إلى مهمته ، فلن يكون ثمة من الأفكار الغريبة ما يخبر عنه . ولكن مهما يكن انصرافه إلى هذا المنبه المقدم له ؛ فإن خبرته أكثر من مجرد تأثير هذا المنبه ، ومن الممكن تماماً أن صورة كاملة لخبرته الراهنة قد تلقى ضوءاً على العملية التى يمر بها فى ملاحظة المنبه .

هب أن منبهين أُعطيا إلى الشخص ليقارن بينهما ، أليس تقرير كامل لخبرته ربما ألقى ضوءاً على الطريقة التى يُحقق بها الشخص غرضَه — أعنى على عملية المقارنة ؟ فى التجربة الكلاسيكية لرفع الأثقال ، كان الشخص أولا يرفع ثقلا ، ثم آخر مختلفاً عن الأول قليلا ، ثم يحكم أيهما أثقل . فكيف له ذلك ؟ إن الإحساس الذى يستقبله من الثقل الأول يزول بإلقاء هذا الثقل أرضاً ، ومع ذلك فهو يقارن الثقل الثانى به . وقد أعد السيكولوچيون القدماء جواباً لذلك فى القول بالصور images ؛ فقالوا إن الشخص يحتفظ بصورة الإحساس بالثقل الأول بعد إلقائه ، وفى وسعه أن يضع هذه الصورة إلى جانب الإحساس الذى يستقبله عن الثقل الثانى . فلماذا لا نجعله يصف خبرته ، ونرى ما إذا كانت هذه الخطة المنطقية الواضحة صحيحة ؟ لقد أجريت التجربة ، فلم تثبت صحة هذا التصميم . وغالباً ما كان يقرر الشخصُ

موضوعُ التجربة ، أنه لم يتذكر ، ولم يستطع أن يتذكر ، كيف أحسّ الثقلَ الأول بعد أن ألقى به . وبدا فعلا أنه ينسى الثقل الأول ، ويحس استعداداً تاما للثانى فقط ، ومتى رفع الثانى إذن أثر فيه بالثقَل أو بالخفة . فإذا بدا الثقل الثانى تحت هذه الظروف خفيفاً ؛ قال إنه أخف من الأول ، أما إذا بدا ثقيلا ؛ حكم بأنه أثقل من الأول . ولو أنك كمجرب لا حظتَ يدَى الشخص ؛ لرأيتَ – أحياناً على الأقل – أن الثقل الذى بدا خفيفاً قد ارتفع بيسر ، بينما ارتفع الثقل الآخر – الذى بدا ثقيلا – بشىء من البطء . فظهَر إذن أنه فى رفع الثقل الأول كانت يدُ الشخص متهيئة لهذا الثقل ، حتى إن الرفع الثانى كان من القوة بما يكفى لملاءمة هذا الثقل الأول . فاذا كان الثقل الثانى أخف ؛ ارتفع بسهولة وسرعة وبدا خفيفاً ، أما إذا كان الثقل الثانى أثقل ؛ أبطأ وبدا ثقيلا . فبان أن العملية تقوم على تهيئة العضلات أكثر منها على الصور العقلية . والاستبطان – مؤيداً بالملاحظة الخارجية – قد أدى إلى اكتشاف خطير .

وإدخال هذا النوع من التجربة يعزى إلى الأستاذ چ . إ. ميلر G.E. Müller بجامعة جتنجن أكثر منه إلى أى سيكولوچى آخر . وميلر – المولود فى سنة ١٨٥٠ – كان أحد علماء النفس الألمان القلائل الذين – دون أن يكونوا من تلاميذ ڤونت ، وربما كانوا من خصومه – قد أسسوا المعامل غير طويل بعد ڤونت . وفكرة هذه المجموعة من التنظيمات – أو ما يسمونه فى الألمانية Einstellung التى استخدمها ميلر حوالى ١٨٩٠ – قد برزت ، وما تزال تبدو ذات قيمة كبيرة .

وتقدم ميلر يطبق منهجه الاستبطانى الجديد على دراسة الذاكرة . ودراسة الذاكرة كان قد بدأها بقوة حينئذ إبنجهاوس Ebbinghaus (١٨٥٠ – ١٩٠٩) أحد التجريبيين المبكرين الذين اعتزلوا ڤونت . وتجارب إبنجهاوس(٧) القديمة الآن على مُنحَنى النسيان وكثير من مسائل الذاكرة الأخرى هى تجارب موضوعية خالصة ؛ بمعنى أنه أعطى تسجيلات تبين كم من الزمن يلزم لتعلم درس معين ؛ أو كم من الزمن يلزم لإعادته بعد حين ؛ من غير أن يكون بينها حقائق باطنية . وكان إبنجهاوس قد نشر نتائجه فى حدود علم النفس الارتباطى . أما ميلر(٨) ، فقد خامره الشك فيما يبدو حول هذا التفسير ، فأهاب بأشخاصه ألا يتذكروا أو يسترجعوا فحسب ؛ بل أن يدلوا بتجربة تذكرهم واسترجاعهم . وكان لدى الأشخاص قدر كبير من

الخبرة يقررونه ، فبدا أنهم نشطون جداً أثناء عملية التذكر ، ونشطون بطرق مختلفة . كما بدا أنهم بعيدون جداً عن تلقى المادة بطريقة سلبية. وتركها تترابط بعملية أوتوماتيكية . والمادة التى لا صلة بينها : كقوائم الأعداد ، أو مقاطع الكلمات التى لا معنى لها — التى تعتز بها معامل علم النفس — قد سمعوها فى صورة إيقاعية ، أو رأوها كما لو كانت مجمعة فى أزواج وما شابهها . فدونوا وجوه الشبه ووجوه الخلاف فى المادة ، وحشدوا المعانى التى تربط مختلف الكلمات المفردة معا . فكانت المجموعات والروابط والمعانى مفاتح عملية تذكير قوى ، تلك كانت بيّنة تقارير الاستبطان .

وأحد موضوعات ميلر فى تجاربه الأخيرة — لأنه ظل يدرس الذاكرة عشرين أو ثلاثين عاماً — كان الدكتور « س » فى قسم الرياضيات بالجامعة . وكان الدكتور « س » نادرة فى الحساب له ذاكرة عجيبة فى الأعداد ، وكان مدى ذاكرته واسعاً — وما نسميه مدى الذاكرة للأعداد هو أطول قائمة لأعداد مكان واحد يمكن إعادتها مباشرة بالضبط بعد قراءة أو سماع القائمة مرة واحدة — ولن تجد عناء فى قائمة من ستة أعداد كالآتية :

٨ ٣ ٦ ٩ ٢ ٧

ولهذا فإن مدى ذاكرتك للأعداد يجب أن يكون على الأقل ستة ، والعكس حين تقرأ هذه القائمة :

٤ ٩ ٨ ٣ ٦ ٠ ٢ ٧ ٥ ٩

(تقرأها) مرة ، ثم تحاول أن تعيدها من الذاكرة ، فستوافق على أنها فوق طاقتك . فالحد العادى للشباب المثقف هو سبعة أو ثمانية أو تسعة أعداد . ولكن الدكتور « س » فى اختبارات كهذه كان يردد قوائم من أربعين إلى خمسين عدداً بعد قراءة واحدة . وحاول ميلر — كسيكولوچى — أن يكشف كيف تم هذه الأعجوبة . فأظهرت الاختبارات الموضوعية فى مادة أخرى أن ذاكرة الدكتور « س » ليست رائعة إلا فى الأعداد ، كما دلت نتائج الاستبطان على أنه كان دائماً يصنف الأعداد بأخذها وكأنها أعداد ثلاثية المكان ، ثم ربطها بعد فى أعداد سداسية المكان . فكان كل عدد ثلاثى المكان كصديق قديم للدكتور « س » . درسها جميعاً ، وتعرّف خصائص كل منها ، وعرف الأعداد الأولى حتى الألف ، كما عرف كل المربعات والمكعبات والأعداد الأخرى كلها بخصائص حسابية طريفة على نحو ما تعرف أنت العدد ٣٦٥ من صلته بالسنة . فمثلا العدد ٧٣٨ سرعان ما يسترعى انتباهه فيه أنه يزيد ٩ على

مكعب العدد ٩ فيقول : « طبعاً إنه لن ينسى » . وتاريخ الدكتور « س » تاريخ طريف . كان يتخيل طفلا أرقام البيوت فى الشارع ، وقضى طفولته كلها يلعب بالأعداد ويشتغل بها ؛ حتى كشف لنفسه كثيراً من الصلات التى تربط بينها . وعلى هذا فتذكرٌ قائمة أعداد كما تَ عنده بعد نضجه عملية أخرى تختلف عنها عند الكثيرين منا . ومع هذا ، فأكثر الناس فى تذكرهم – كما وجد ميلر – يستعينون فعلا بهذه العلاقات والمجموعات والمعانى كما هى عندهم مهيأة للاستعمال . فالتذكر عملية إمساك قوى ، بل إن « الإسفنج البشرى » ليس قط قابلا سلبيًّا The "human sponge" is anything but a passive absorber . وعلى هذا النحو ، توصل ميلر – بمزج الدراسات الباطنية والخارجية عن الذاكرة – إلى نتائج جد خطيرة .

عمليات الفكر كما يراها التأمل الباطنى :

وبدلا من أن نفهم الاستبطان وكأنه المنهج الأصلى القديم فى علم النفس ؛ ينبغى – فيما يبدو لى – أن نعرف أن مقدمات الاستبطان المنهجى إنما توجد فيما قام به ميلر وتلاميذه من عمل ، بدأ حوالى ١٨٩٠ . وتتشنر E. B. Titchener – لتطلعه دائماً إلى أى تقدم من هذا النوع – قد أدخل المنهج فى معمله فى كورنل Cornell لدراسة عمليات المقارنة حوالى سنة ١٩٠٠ . وفى نفس الوقت تقريباً تشبث تلقائيًّا بالمنهج عينه عالم نفس كبير ، اسمه معروف لديكم جميعاً فى نواحى أخرى ؛ ألفرد بنيه Alfred Binet فى باريس (١٨٥٧ – ١٩١١) فى محاولته دراسة عملية التفكير . وكان بنيه قد كتب فى أول أيامه كتاباً عن سيكولوچية التفكير – على الطريقة القديمة ، ودون أن يتكلف إدخال أية أفكار جديدة – وإنما استند إلى المنطق ونظرية الارتباط فى وضع خطة هذه العملية . وفى ذلك الحين كان يعتقد أن التفكير لابد وأن يكون لعباً بالصور أو تلاعباً بالصور manipulation of images . وفى سنة ١٩٠٠ تناول المسألة مرة أخرى ، ولكنه أقام نتائجه – هذه المرة – على عمليات تفكير حقيقية أدلت بها ابنتاه ، البالغتان ثلاثة عشر وأربعة عشر من العمر . لقد أعطاهما مسـائل للحل ، وطلب إليهما أن تصفا عملياتهما أو خبراتهما أثناء الحل . وربما سألها : كيف فكرتما فى هذا الشيء ؟ هل رأيتماه ؟ أو قلتما اسمَه فى نفسيكما ؟ فأحياناً ما أدلى موضوعًا تجربته بصور ، ولكن فى عدد غريب من الحالات أنكرتا وجود الصور . واضطر بنيه – والحالة هذه – أن يقر

رأيه فى أن التفكير يقوم بالضرورة فى تكوين الصور . وبدا له أن التفكير يستمر فى حدود لم يجد لها اسماً خيراً من «أفكار» pensées . فالخبرة التى لك عند ما تفكر فى شيء تقوم فى مجرد تفكيرك فيه . والحق أنك أحياناً ما تراه « بعين فكرك » ، وأحياناً ما تذكرُ له اسماً . ولكن كل ما تستطيع أن تقوله غالباً ؛ أنك تفكر فيه . وهذا يمكن أن يُعدّ نتيجة سلبية خالصة ، ولكنه قد قضى على الأقل على الخيوط الواهيــــة للتخطيط القديم .

وفى استقلال عن بنيه — ولكن ربما بتأثير عمل ميلر — بدأ فريق من علماء النفس الألمان فى نفس الوقت تقريباً دراسة مشابهة لعمليات التفكير . وتجمّع هذا الفريق حول كيلپه Külpe (١٨٦٢—١٩١٥)[١٠] تلميذ ڤونت ، الأستاذ فى ڤير تسبورج ، وأخيراً فى بون . ففى أكثر من عشر سنوات — وحتى الحرب العالمية — وقف هو وتلاميذه جهودَهم على هذه المشكلة العامة .

فأولاً ماربِ Marbe[١١] ، زميل أصغر لكيلپه (ولد ١٨٦٩ ، وهو الآن خليفة كيلپه فى ڤير تسبورج) ، حاول أن يصف عملية الحكم . فعرّفه بأنه أية استجابة للموضوع يمكن أن تُنعَتَ بالصدق أو الكذب . أى الحكم هو إجابة صحيحة أو خاطئة عن سؤال . ذلك هو الحكم كفعل ، ولكن مارب أراد أن يعرف ما هو الحكم كخبرة . وكانت طريقته أن يسأل موضوع تجربته سؤالا ، فإذا أجاب الشخص طلب إليه أن يذكر الخبرة التى توصل بها لهذا الجواب . واستخدم أسئلة بسيطة ليحصل على عملياتٍ للحكم سريعة ميسورة ، ولكن ما انتهى إليه فى مسألته الرئيسية كان سلبيًّا بعض الشيء ، فكثيراً ما قرر الأشخاص أن الإجابة جاءت بطريقة آلية ، وأن ليس ثمة تجربة يُدلى بها . فإن كان لديهم ما يَحكُونه ؛ فهو يختلف كثيراً من حالة إلى أخرى ؛ حتى اضطر مارب إلى أن ينتهى إلى أن ليس ثمة خبرة مميزة واحدة للحكم

إنما خرجت من هذه التجربة نتيجة إيجابية ممتعة : فكثيراً ما قرر الأشخاص معاناة التردد ، والشك ، والثقة فى البحث عن إجابتهم والاقتراب منها . فلما حاولوا أن يصفوا هذه الخبرات فى مقولات الفــكر ، والإحساس ، والتصور ، والشعور ؛ تبين أن من المستحيل أن يفعلوا ذلك . وانتهى مارب إلى أنه قد وقف على نوع من التجربة جديد على علم النفس ، أطلق عليه الاسم الرائع : Bewusstseinslage

أى «هَيئة الشعور» lay of consciousness وأحسن تعبير لها بالإنجليزية يبدو أنه : وجهة شعورية conscious attitude .

فلما أن تكررت تجربة مارب على يد بيلر Bühler (ولد سنة ١٨٧٩ وهو الآن أستاذ فى ڤينا) بعد سنوات قليلة — مع فارق : وهو أن مسائل معقدة قد أدخلت على الموضوع بدلا من البسيطة جداً — كان هناك خبرة أكثر تستحق التقدير . وفى عدة تجارب ناجحة ، أكد بيلر تأكيداً تاماً وجهات مارب الشعورية ، وأفكار بنيه اللاصورية imageless thoughts كأحسن ما يمكن أن تسمى به فى الإنجليزية .

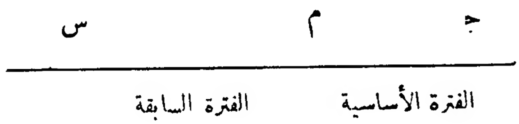
وسأذكر اثنين من بين أعضاء طائفة كيلپه : آخ Ach و واط Watt اللذين قاما بتجربة زمن الرّجع reaction time مُستخدِمَين طريقة الاستبطان الجديدة ؛ وأعنى بها مطالبة الشخص بعد كل استجابة أن يصف تجربته . أما آخ Ach (المولود فى سنة ١٨٧١ ، والآن خليفة ميلر فى جيتنجن) فقد درس الرجع البسيط ، وهو تجربة مألوفة ، تجرى فى ساحة البطولة فى كل مرة عند ما يبدأ سباق الجرى : فثمة علامة مُعدة ، ينحنى لها المتسابقون للقفز إلى الأمام ، ثم بإطلاق مسدس أو أى منبه آخر يقفزون فعلا إلى الأمام بأقل ما فى وسعهم من بطء . أما فى المعمل ؛ فإن حركة الأصبع تحل محل وثبة الجسم كله إلى الإمام ، وقد يكون التنبيه ضوءاً أو صوتاً ، وينتهى السباق عند ما يكون العقل قد بدأ حقيقة . لأن ما يقاس بأجزاء الألف من الثانية ، هو الزمن الذى ينقضى بين المنبه وأول حركة . تجربة موضوعية خالصة إلى حد كبير ؛ ولكن علماء النفس قد تأملوا بطبيعة الحال ما يجرى من العمليات بين المنبه والاستجابة ، وڤونت قد قال : إن «من الواضح» أن هناك إدراك المنبه تصحبه إرادة الحركة . وقد سأل آخ أشخاصه — بعد استجابتهم مباشرة — أن يتذكروا ويسجلوا خبرة استجابتهم . وتدل معلوماته على أن إرادة الحركة ، ومحاولتها ، والتصميم على التحرك بكل سرعة ممكنة ؛ كل ذلك يأتى قبل المنبه ، وأنه جزء من التمهيد للمنبه . فإذا حصل هذا التمهيد ، استدعى المنبهُ استجابتَه بطريقة آلية ؛ حتى لم يكن هناك عادةً خبرة تذكر عن فترة الرجع ذاتها . فالذى وُجد هو خبرة التأهب قبل المنبه ، وربما وجدت خبرة مختلفة فى نوعها بعد الاستجابة : أما فى أثناء زمن الاستجابة ذاته — الذى لا يستغرق فى العادة أكثر من خُمس ثانية — فلم يكن ثمة خبرة يمكن أن نقف عليها .

ويمكن أن نعتقد بصحة مثل ذلك فى حالة الذى يجرى بالعلامة . فبإشارة الاستعداد يصبح منحنياً ومتشوقاً ، وتنتبه إرادته حتى نهايتها قبل أن يطلق المسدس — فى غير حاجة إلى تنبيهها بعد الطلقة . ولو حدث لتخلّف المتسابقُ عند البدء .

أما واط Watt (١٨٧٩ — ١٩٢٥ ؛ تلميذ اسكتلندى فى معمل كيلپه ، والأستاذ بجلاسجو فيما بعد) فقد درس نوعاً من الاستجابة أكثر تعقيداً ؛ هو ما نسميه الرجع الارتباطى associative reaction . فالتنبيه كلمة تعــرض على المفحوص ، والاستجابة كلمة يقولها هو . وفى ارتباط مضبوط — كالذى استخدمه واط — كان على كلمة الاستجابة أن تقوم فى علاقة معلومة مع كلمة التنبيه . ربما لزم أن تكون مرادفاً ، أو نقيضاً ، أو جزءاً من الشىء الكلى المذكور ، أو كلاًّ الذى ذُكر جزءٌ منه ؛ فى درجة أعلى ، أو أدنى ، أو درجة ترابط ... إلخ. وبدلا من مجرد إشارة استعداد ، يعين المجرب لموضوع تجربته مهمته قائلا : اذكر عكس كذا ، أو : اذكر جزءاً من كذا ... إلخ ، ثم بعد فترة قصيرة يقدم المجرب كلمة التنبيه الحقيقية مثل : شمال ، أو : منزل . وإجابة المفحوص يجب أن يحكمها كلا كلمة التنبيه والعمل المعطى . فلو أننى نطقت كلمة « عال » كتنبيه ، دون أن أعين عملا خاصًّا ؛ فستكون حرًّا فى أن تقفز فى أى جهة شئت ، وفقاً للحدوث النسبى ، والخبرة ، وقوة ارتباطاتك . ربما ظن بعضكم : « كرة عالية » — وإن كنت لا آمل ذلك — وربما كان أحسن : « كنيسة عالية » أو « ضوء عال » أو « سماء » أو « جبل » أو « طيارة » . أما إذا مهدت لكم بتعيين « الأضداد » كعمل ؛ فسوف تجيبون جميعاً فى غير تردد « منخفض » ، فالتمهيد يعمل بكل كفاية فى هذه الأحوال .

وقد بحث واط عن الخبرة التى تحدث خلال هذه الاستجابات الارتباطية ، ووجد — مرة أخرى — أن الخبرة التى كان يدلى بها عن فترة التمهيد أوسع منها عن الرجع الحقيقى . فإذا كان الشخص جديداً على هذا النوع من التجريب ؛ فإن إعداده لإعطاء صنف مقابل أو صنف أعلى يمكن أن يكون هو الخبرة. هو قد يمر على حالات من النوع المطلوب ، أو هو قد يبرزها لنفسه . فإذا نجح فى إعداد نفسه بدرجة كافية قبل أن تصدر كلمة التنبيه ، وإذا لم تكن كلمة التنبيه صعبة جدًّا ؛ فاستجابته ستكون آلية تقريباً . فما إن يتعود على هذه الأعمال حتى يصبح استعداده نفسه أكثر آلية وأقل خبرة .

وقد أقر آخ وواط أهمية الاستعداد للاستجابة . ويمكن أن نسميه — متذكرين اكتشاف ميلر المماثل Einstellung — استعداداً ، أو تلاؤماً ، أو تهيؤاً . فإذا مثلنا لمرور الوقت بخط أفقى يمتد من اليسار إلى اليمين ، وإذا وضعنا على هذا الخط علامة س للدلالة على إشارة الاستعداد ، وعلامة م للدلالة على المنبه ، وعلامة ﺟ للدلالة على الاستجابة ؛ فإن الزمن س م يسمى فترة الرجع السابقة ، والزمن م ﺟ الفترة الأساسية . الفترة السابقة هى زمن التأهب ، والفترة الأساسية هى وقت التنفيذ . وما بيّنه آخ وواط هو أن معظم الجهود والتجربة الحية — ومعظم الفعل الحقيقى لا شك — إنما يحدث فى الفترة السابقة . ونستطيع أن نفكر فى الكائن العضوى وكأنه يأخذ أُهبته لشىء أولّى منه فى حالة حياد وسلب .



ومع أن المنبهات أحياناً ما تفجأ الكائن العضوى حين تدهَمه فى حالة لا تأهب ؛ فإن معظم الاستجابات مأخوذٌ لها أُهبتها . لأن الكائن العضوى متلائم من قبل مع الموقف ، ومشارك بمعنى ما فى المنبهات التى يستجيب لها . وحقيقة التأهب أو الوضع هذه حقيقة لها الأهمية الأولى فى فهم السلوك . ولا شك أن هذا اللون من الحقائق هو أقوى ما قدمت جماعة كيلپه من الباحثين .

ومما توصلوا إليه غير ذلك ، أن أُخذت حالات الشعور بوجه عام على أنها تُقدم حقيقة واقعة من الخبرة ، وإن لم تكن بالضرورة حقيقة أولية . ومن الممكن أن يكون الشعور بالتردد أو حالة التردد — مثلا — شعوراً بحالة جسمية ، يمكن أن تنحل إلى إحساسات بالتوازن ، والتمدد العضلى ، ثم الحركة . وقد أثبت العمل الاستبطانى بعد أن هذه ربما كانت الحالة .

والفكر بلا صورة imageless thought — ثالث اكتشافات جماعة كيلپه الكبرى — قد لقى أكبر شك وانتقاد . هو — كحقيقة غامضة للخبرة — كان يؤكَّد غالباً ؛ أما إذا نُظر إليه كمجرد نتيجة سلبية ، فله قيمة — على الأقل — فى إظهار أن التفكير لا يقوم فى اللعب أو التلاعب بالصور . فالأشياء التى نفكر فيها ليست

بالضرورة مصورة أو مسماة ، وقد يكون الفكر واضحاً تماماً ومحدداً بأغمض الصور فقط . ولكن أتباع « الفكر بلا صورة » لم يقنعوا بأخذ نتائجهم سلبية خالصة ، أو كمجرد تصحيح هادئ للمذهب المأخوذ به من قبل فى الكيمياء العقلية — بأحاسيسه الأولية وصوره ومشاعره — وإنما أصر بعضهم على أنه قد اكتشف عنصراً جديداً — أو أكثر من هذا — صنفاً كاملا جديداً من العناصر — عناصر الفكر أو عناصر الصلة relation elements . ومثل هذا الادعاء كان من الضرورى أن يوقظ أصحاب المذهب القديم ، وأن يثير بحدة مسألة ما إذا كان المنهج الاستبطانى الجديد صحيحاً ؛ وما إذا كان يسمح — بدرجة كافية — بنتائج أساسية لما وصل إليه . وكان هذا النقاش عنيفاً حوالى ١٩١٠ ،وكان له علاقة بالظهور المحدود لبعض مدارسنا المعاصرة . فأخذت المدرسة الوجودية شكلا محدداً ؛ بردّ الفعل الذى قامت به ضد « الفكر بلا صورة ». وتشكك كثير من أصحاب وسط الطريق ، ومالوا إلى اعتبار الاستبطان مجرد نوع ساذج من الملاحظة ؛ جيد — إلى حدود — ولكن لا يُتوسع به ولا يُركَن إليه فى تحليل دقيق . وكرد فعل لذلك ألغى السلوكيون الاستبطان من أساسه . وقال علماء النفس الجشطلتيون إن الصعوبة فى محاولة استخدام الاستبطان كأداة للتحليل ، واقترحوا التخلى عن الكيمياء العقلية أصلا، والعناصر الحسية وعناصر الفكر كذلك . لقد كانت الخصومة حول الفكر بلا صورة مفرق طرق فى نظرية علم النفس* .

المدرسة الوجودية فى علم النفس الاستبطانى :

لقد كنت أتكلم الآن ، وكأن النزعة الوجودية ظهرت حوالى ١٩١٠ ، بينما يرجع تاريخها فى الواقع إلى ما قبل ذلك ؛ أى إلى ڤونت وماخ وأڤيناريوس (١٤) Avenarius فى القرن التاسع عشر . فقد أصر هؤلاء النظريون — فى محاولة التمييز بين علم النفس

(*) أنا نفسى قد قمت بدراسات شبيهة فى استقلال عن أتباع كيلبه — وإن كانت فى نفس الوقت معهم غالباً — وتوصلتُ إلى نفس نتيجتهم . لقد وجدت الدليل على الفكر بلا صورة imageless thought وظللت دائماً مقتنعاً بأنه حقيقة — وان كنت أستطيع الآن أن أقول لعلماء النفس الجشطلتيين إن الحديث عن عنصر الفكر "thought element" لم يعمل لأى مقصد حسن وعندى أن فكرة « الفكر بلا صورة » ليست معدومة ولكنها فقط نائمة فى أيامنا هذه — وهى فيما يبدو لى مهمة لديناميكا التفكير كما هى مهمة لوصف خبرات التفكير . (المؤلف . هامش ص ٧١ — ٨١)

والفيزيقا – وكلاهما مشتبه من حيث هو يقوم على معطيات الحس التى يقف عليها الملاحظون من الناس – أصروا على القضية التى تقول بأن الفيزيقا تنظر بعين الاعتبار إلى الدلالة الخارجية للخبرة الحسية ؛ بينما علم النفس يعتبر الخبرة وكأنها متعلقة بالفرد المجرب . وصيغة خاصة أخرى كانت تقول إن الفيزيقا تأخذ الخبرات الشخصية دليلا على الحقائق التى تختفى وراءها ؛ بينما علم النفس يقدر الخبرات فقط لذاتها . وصيغة ثالثة ، هى أن الفيزيقا تربط حقائق الخبرة بعضها إلى بعض ؛ بينما علم النفس يربطها بالشخص المُختبَر . وعلى أى حال ، فقد كان علم النفس هو علم خبرة الفرد The science of the individual's experience . ولما كان الهدف الأساسى للعلم هو الوصف ؛ فقد اتخذ علم النفس هدفاً له وصف خبرة الفرد . وكان يرمى إلى تحليل الخبرات ومقارنتها وتصنيفها وترتيبها فى نظام دقيق . فكانت الخبرات تدرس وكأنها موجودات existences ، وكأنها حقائق تستحق الوصف والتحليل والتصنيف على حسابها الخاص . وبعبارة أخرى ، إن علم النفس الوجودى كان يجد متعته فى الفرد كصاحب خبرة experiencer وليس كقائم بفعل performer . وكانت خبراته ذات متعة لعالم النفس – لا لما يمكن أن تلقى من ضوء على ما يقوم به من فعل ؛ على نحو مااستعان ميلر بحقائق الاستبطان فى إيضاح عملية التذكر – بل على أنها الموضوع الأساسى للدرس .

لقد كان منهج البدء فى علم النفس هو منهج التأثير meth. of impression الذى بدا أنه يكشف عن الخبرات الأولية للفرد . أما منهج الاستبطان فكان ينظر إليه فى شىء من الأمل أن يصف خبرات أكثر تعقيداً . وكانت المسألة الوحيدة ما إذا كان منهج الاستبطان يمكن أن يُعوَّل عليه فى إعطاء صورة صحيحة للخبرات الشخصية .

وقد حُدِد لعلم النفس الوجودى ذاك بصورة رسمية بأواخر القرن التاسع عشر . إلا أنه كخطة عمل منظم فى المعمل يمكن أن يؤرخ له بعمل أتباع كيلپه ، ورد فعل هذا العمل من جانب تتشنر Titchener وغيره . فإن ڤونت – مع أنه عالم نفسى استبطانى مشهود له – لم يكن يحب استبطان الصورة الذى أخذ به معمل كيلپه ، فقال إنه غير علمى – أو على الأقل – ليس جديراً بأن يوضع إلى جانب النموذج الأسمى للملاحظة العلمية . فمن الناحية المثالية ، الملاحظ العلمى فى أهبة وتناول للحقيقة الجزئية التى عليه أن يلاحظها ؛ وعينه فى المقراب telescope مستعدة لتسجيل اللحظة

الدقيقة حين يعبُر النجم خطّه الرقيق hair line . ولا يثق العلم بالملاحظات العارضة – التى تبينَّ علمُ النفس فى الواقع أنه لا يمكن الركون إليها ، فمنهج التأثير فى مساواة مع الملاحظة العلمية الأخرى ما دام انتباه الشخص موجهاً منذ البدء إلى المادة عينها التى يجب ملاحظتها . فأنت فى تجار بك على التفكير لا تستطيع إلى حد ما أن تخبر مقـــدماً عما تبحث عنه ؛ فإن العملية متغيرة ولا يمكن الإخبار عنها ، ولا تستطيع أن تُعيّن أى طريق سوف ينطلق فيه الفكر ، كما لا تستطيع جيداً أن تضع لموضوع تجربتك مشكلة تذكّر أين توجد كلكلتا ؛ وتسأله مقدماً أن يلاحظ ما إذا كان يرى صورة خريطة الهند وهو يكتشف إجابته ، وللسبب عينه لا تستطيع أن تكرر ملاحظة ما – لأن عملية الفكر لا يمكن تكرارها – والمفكر لا يستطيع أن يبحث عن إجابة هى من قبلُ فى ذهنه . وانتهى ڤونت إلى أن الدراسة الاستبطانية لعملية التفكير فى المعمل تبشر قليلا بنتائج علمية . والصعوبة جوهريًّا هى أنه بينما كان للملاحظ فى منهج التأثير – كما فى معظم الملاحظة العلمية – مهمة خاصة هى الملاحظة ؛ فإن له فى الاستبطان مهمة مزدوجة ، إذ يجب عليه أن يفكر ويحكم ، ويتذكر ، ثم يدور ويلاحظ خبرته فيما يقوم به من عمل . يجب عليه أن يفعل شيئاً حتى يكون لديه شيء يتأمله فى باطنه . وجواب بيلر Bühler على هذا النقد هو أنه فى الحقيقة والواقع كان الشخص يبدو أن لديه صعوبة قليلة ، وأن ملاحظات أشخاص مختلفين قد أجمعت إلى درجة كافية على تقرير شيء من الثقة .

وتتشنر (١٨٧٦–١٩٢٧) Titchener[١٣] – تلميذ ڤونت وداعيته فى أمريكا – كان قبل كل شيء استبطانيًّا متحمساً ، وبالتالى قوى الأمل فى كل جديد من المحاولة لبســـط استخدام الاستبطان فى علم النفس . ولكنه لم يستطع أن يقبـــل « الفكر بلا صورة » ، ووضع يده على صعوبة خطيرة فى المنهج ؛ مأخوذا على أنه منهج وصف الخبرة . فالشخص عندما يدلى بما جرى فى ذهنه أثنـــاء عملية حل مشكلة ؛ فهو عرضة لأن يستخدم تعبيرات مثل : « ثم إنى فكرت فى » كذا وكذا من الأشياء ، أو « ثم تذكرت أن » كذا وكذا هى الحال ؛ فأصر تتشنر على أن إعطاء ما يفكر فيه الشخص ليس معناه وصف خبرة الشخص أثناء التفكير . فنحن فى الحياة العادية نستخدم اللغة للدلالة على الأشياء والمواقف الخارجية أكثر مما نستخدمها للتعبير عن أحاسيسنا وأفكارنا وخبراتنا . نحن ننظر ونقول : « أنا أرى أنها تنجلى» أكثر من قولنا : «إن ميدان بصرى فى معظمه بقع رمادية ، ولكن

بمساحات قليلة زرقاء متقطعة » . وطريقتنا فى الدلالة على الأشياء من التأصل بحيث لا نستطيع بسهولة أن نتخلى عنها حين نحاول أن نصف خبراتنا فى تجربة باطنية . فإن عادتنا اللغوية توقعنا فى خطأ التقرير ، الذى يمكن أن نطلق عليه خطأ الدلالة الخارجية error of objective reference . فنحن نقرر ما تدل عليه أفكارنا بدلا من أن نصف مضمونها . وخطأ الدلالة الخارجية هذا هو فى أساسه نفس ما سماه تتشنر خطأ المنبه stimulus error فى تجاريب أكثر بساطة عن طريق منهج التأثير . فلنفرض أنك ترفع أثقالا ؛ وأنك تقول عن واحدة منها : إنها تُحَس كوزن ثقيل ؛ أو هَب أنك تشم روائح وتقول عن واحدة منها : لا بد أن تكون هـــذه « نعناعاً » peppermint ؛ فإنك تتحدث عن أشياء تحكم بوجودها ، ولكنك لا تصف الخبرة الخاصة التى تكسبها منها . والوسيلة الوحيدة لتجنب خطأ الدلالة الخارجية هذا ؛ هو المران الطويل تحت نقد عالم نفس باطنى متشدد . وأوفق شخص لتجربة الاستبطان هو ملاحظ جدّ متمرن ، وقليل فى الواقع الملاحظون الذين تبلغ تقريراتهم درجة تتشنر فى دقة وصف الخبرة — على حد ما نشر من كتابات علماء النفس الباطنيين .

ولنلاحظ هنا أن التأملات الباطنة العادية التى يستطيع أن يقوم بها أى واحد منا ، مثل : « هذا قد أذكرنى ذاك ، وذاك قد تأدى بى إلى الإجابة المطاوبة » تظهر (هذه التأملات الباطنة العادية) شيئاً مما يجرى فى عملية التفكير ؛ حتى ولو لم تكن مؤدية إلى تحليل دقيق للخبرة الشخصية . فهى تعين على دراسة أداء التفكير إن لم تُعن على تحليل خبرة التفكير .

ومن عجب أن يوجد أن الاستبطان يخدم سيكولوچيا الفعل psychol.of performance أكثر مما يخدم سيكولوچيا الخبرة psychol. of experience . وعلم النفس الوجودى —كما تغنى به تتشنر — لا يعنى بالفعل ، وإنما يعنى فقط بالخبرة . ودون إنكار لأهمية دراسة الفعل ؛ هو يترك للآخرين هذه الدراسة ، اعتقاداً منه أن تقدم علم النفس الخالص إنما يقوم فى قصر انتباهه على وصف الخبرة الشخصية . ويحاول علم النفس الوجودى أن يتناسى المعانى والقيم وكل ما يشير إلى شىء فيما وراء الخبرة التى توصف ، ويعتقد تتشنر أن علم النفس الوجودى هو النموذج وحده الذى يستطيع أن يحتل مكانه كعلم خالص إلى جانب الفيزيقا وعلم الحياة ؛ التى هى الأخرى —فى ميادينها الخاصة — تعنى قبل كل شىء برؤية ما فيها .

وعلم النفس الوجودى فى الوقت الحاضر ، هو مثال أو برنامج للبحث أولى منه أى شيء يشبه أن يكون هيكلا كاملا للمعرفة . وبين يديه نتائج منهج التأثير ، منظورا إليها ، إلى حد ما — لا لما تلقى من ضوء على الحواس وعلى آلية الحس — بل فقط كأشكال أولى للخبرة الشخصية . هو يبدأ عمله من الحس ؛ محاولا توحيد العناصر الحسية التى تترابط فى مجموع خبرات معقدة . فإذا بدت مناقشاته بعض الشيء خافية esoteric ، فجواب الوجودى هو أن ذلك صحيح أيضاً فيما يتعلق بذات العمل فى الفيزيقا أو أى علم آخر يصرف النظر عن المعانى الشائعة والقيم العملية حتى يتوصل إلى نواح ملتصقة بالحقائق الواقعية للطبيعة . بيد أنه يبدو أن يكون ضرباً من التعسف حتى لأكثر الوجوديين ضميراً أن يظل فى عزلة عن الفرد كفاعل performer . ولعله يستريح غالباً إلى الاعتراف بسيكولوچيا الفعل إلى جواره مباشرة ، وكأنها على أقل تقدير — لون من الدراسة وثيق الصلة (بدراسته) . وهكذا — بينما يهزأ السلوكى بعلم النفس الوجودى ولا يعترف له لحظة بصحة دعواه فى أن يكون علما بحق — إذا بالوجودى لايجد ما يقوله عن السلوكية أسوأ من أنها ليست من علم النفس فى شيء ؛ وإنما هى بالأحرى قطعة من الفيزيولوچيا .

تعليقات

على الفصل الثانى

(١) البصر : من أهم ما كتب فى دراسة حاسة البصر كتاب البصريات Optiks لنيوتن (١٧٠٤) فهو أول دراسة علمية لهذه الحاسة ، ثم كتاب بل Ch. Bell : تشريح الجسم الإنسانى Anatomy of the Human Body (١٨٠٣) ج ٣ ص ص ٢٢٤ – ٣٧٢ (والكتاب كله فى أربع مجلدات لجون وتشارلز بل يشغل الكلام عن البصر منه الموضع الذى ذكرنا) واشتينبوخ J. G. Steinbuch : قول فى سيكولوجيا الحواس Beitrag zur Psychol. der Sinne (١٨١١) ص ص ١٤٠ – ٢٧٠ ، وكتاب پوركينى J. E. Purkinje ملاحظات وبحوث فى سيكولوجيا الحواس. Beobachtungen und Versuche zur Psychol. der Sinne (١٨١٩–١٨٢٥) فى مجلدين . وكتاب بورو C.A. Burow أقوال فى فزيولوچيا وفيزيقا العين الإنسانية Beiträge zur Physio. und Physik des menschlichen Auges (١٨٤١). وكتاب ميلر Müller : مختصر فى فيزيولوچيا الإنسان Handbuch der Physio. des Menschen (١٨٣٨) ج ٢ الكتاب الخامس ، القسم التاسع ص ص ١٠٨٨–١٢١٤ من الترجمة الإنجليزية وكتاب تورتوال C.T. Tourtual : حواس الإنسان Die Sinne des Menschen (١٨٢٧) . والكتاب الذى أظهره تريڤيرانوس G.R. Treviranus باسم أقوال فى تشريح وفيزيولوچيا أعضاء الحس فى الإنسان والحيوان Beiträge zur Anatomie und Phys. der Sinnes-werkzeuge des Menschen und der Thiere (١٨٢٨) الكراسة الأولى كلها فى العين ، ويبدو أن تريڤيرانوس لم ينشر غيرها . والقاموس الفزيولوچى لڤجنر R.Wagner : Handworterbuch der Phys (١٨٤٦) ج ٣ قسم ٩ ص ص ٢٦٤ – ٣٥١ . ثم خصوصاً كتاب يوهانس ميلر J. Müller : فى المقارنة بين فزيولوچيا حاسة البصر فى الإنسان والحيوان مع بحث حركات العين ، وفى النظر الإنسانى Zur Vergleichen den Physio. des Gesichtssinnes des Menschen und der Tiere nebst einem Versuch über die Bewegungen der Augen und über den menschlichen Blick (١٨٢٦) في ٤٦٢ صفحة .

ومن أهمها أيضاً كتاب هلمهولتس

Helmholtz : مختصر فى البصريات الفزيولوجية Handbuch der physiol-ogischen Optik الطبعة الثالثة من الترجمة الإنجليزية (١٩٢٤–١٩٢٥). راجع أيضاً مقالة ريڤرز W.H.R. Rivers فى شيفر Schäfer ص ص (١٠٢٦ – ١١٤٨) واشنك Schnek وناجل Nagel وڤون كريس Von kries واتست D. Zoth فى ناجل ؛ الأول فى مجموعته : متن فى الفزيولوجيا Text-book of physiology ج ٢ (١٩٠٠) والثانى فى ص ص ٣٠ – ٤٧٥ من كتاب مختصر فزيولوجيا الإنسان Handbuch der Phys. der Menschen (١٩٠٥).

ومن الكتب الحديثة كتاب پارسُنز J.H. Parsons : مدخل لدراسة إبصار الضـــوء Introduction to the Study of Colour Vision (١٩١٥) وكتاب ترولاند L. T. Troland : الحـــالة الحاضرة لعلم البصريات The present Status of Visual Science وفيه فكرة واضحة ممتازة عن الدراسات البصرية السابقة.

(٢) فى السمع : راجع : بل J & Ch. Bell ص ص ٢٧٣ – ٤٥٣ ، واشتينبوخ : ٢٧٠ – ٣٠٠، وميلر : المختصر ك ٥ قسم ٢ ص ص ١٢١٥ – ١٣١١ الترجمة الإنجليزية. وقاموس ڤجنر ج ٤ (١٨٥٣) ص ص ٣١١ – ٥٤٠ . أما ڤيبر E.H. Weber الذى اهتم بالسمع عندما كان فى ليپتسك فقد كتب تشريحاً مقارناً للأذن أسماه : فى أذن وسمع الإنسان والحيوان De aure et auditu hominis et animalum (١٨٢٠) ، كما كتب : فيزيقا الصوت Physics of Sound (١٨٢٥) . كما كتب هلمهولتس كتاباً فى إحساسات النغم الصوتى Sensations of the Tone (ترجمة انجليزية منذ ١٨٧٥ وما بعدها) . راجع أيضاً شيفر ص ص ١١٤٩ – ١٢٣٦ وناجل ص ص ٤٧٦ – ٤٨٨ وأوجدن R.M. Ogden السمع Hearing (١٩٢٤) .

(٣) فى الشم : راجع : بل ؛ المرجع المذكور ص ص ٤٥٤ – ٤٥٧ وميلر : كتاب ٥ قسم ٣ ص ص ١٣١٢–١٣١٨ (الترجمة الإنجليزية) وقاموس ڤجنر ج ٢ (١٨٤٤) ص ص ٩١٦ – ٩٢٦ . وهيكرافت Haycraft فى مجموعة شيفر (ص ص ١٢٤٦ – ١٢٥٨) وناجل (ص ص ص ٥٨٩ – ٦٢٠) .

(٤) فى الذوق : كتاب بل المذكور (ص ص ٤٥٨ – ٤٧١) واشتينبوخ (٣٠٠–٣٠٣) ، وميلر : الكتاب الخامس ، القسم الرابع ، الترجمة الإنجليزية ص ص ١٣١٨ – ١٣٢٥ ، وقاموس ڤجنر ج ٣ قسم ٩ (١٨٤٦) ١ ، ٢ وفى مجموعة شيفر (هيكرافت ص ص ١٢٣٧–١٢٤٥) وفى ناجل : (ناجل ٦٢١–٦٤٦) .

(٥) وفى اللمس : نفس

المراجع : بل : ص ص ٤٧٢ — ٤٨٠ واشتينبوخ ص ص ٥٣ — ١٤٠ وميلر : كتاب ٥ فصل ٥ (ص ص ١٣٢٤—١٣٣٢ من الترجمة الإنجليزية)، وخصوصاً كتاب ڤيبر E.H. Weber اللمس : دراسات تشريحية وفزيولوچية De tactu: annotationes anatomica et physiologica (١٨٣٤) ، ومقالته : اللمس والحساسية العامة Der Tastsinn und das Gemeingefühl في قاموس ڤجنر الثالث (١٨٤٦) ص ص ٤٨١ — ٥٨٨ ، وقد طبعت هذه المقالة على حدة سنة ١٨٥١ وما بعدها .

(٦) هيننج (هانس كارل فرديناند) H.K.F. Henning ولد في اشتراسبورج في فبراير ١٨٨٥ ، واختلف إلى جامعتي فرايبورج ، واشتراسبورج ، ثم زيورخ وبرلين ، حيث حصل على الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٩١٠ وعين معيداً لعلم نفس الحواس في برلين ، فمساعداً في جامعة فرانكفورت (١٩١٤ — ١٩١٦) فمعيداً (١٩١٦ — ١٩٢٢) حيث صار أستاذاً مساعداً سنة ١٩٢٢ . وفي هذه السنة عين أستاذاً لعلم النفس والفلسفة والتربية في مدرسة الفنون العليا ، حيث صار مديراً لمعهد مدرسة الفنون العليا السيكولوچي .

وقد كتب منذ ١٩١٢ في تحليل نظرية المعرفة ، وفي فلسفة كانت وجيته ، وارنست ماخ كفيلسوف وفيزيقي وعالم نفس (١٩١٥) . إلا أن أهميته السيكولوچية ترجع لدراساته في حاسة الشم Der Geruch فقد نشر عنها في مجلة علم النفس الألمانية .Zsch. f. Psychol أعداد ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ أربع مقالات (١٩١٥ — ١٩١٦) وفي هذا العام نفسه أخرج كتاباً عن الشم ، فكان أهم كتاب ظهر في هذا اللون من الدراسة منذ اتسفارديماكر Zwaardemaker حتى ظُن زمناً أن تصنيفه للشموم الذي أورده فيه يُعد فتحاً لدراسة واسعة في هذا الميدان ، وإن لم يتحقق هذا الظن كله ، لأن نظريته كانت في أساسها تقريبية ، كما أظهرت دراسات دودج Rey. Dodge وجريفيث G. R. Griffith فيما بعد. إلا أنه عاد منذ ١٩٢٤ إلى نشر بحوث أخرى عن حاسة الشم ، فنشر في برلين (١٩٢٥ كتابه الكبير : سيكولوچيا اليوم Psychol. der Gegenwart كما نشر بحوثاً واختبارات في دراسة الشخصية : Charakter-tests و Experimentelle Charakterstudien بمختلف المجلات العلمية في ألمانيا وباريس ١٩٢٦ — ١٩٢٧ .

(٧) إبنجهاوس (هِرْمَنْ) H. Ebbinghaus (١٨٥٠ — ١٩٠٩) ولد لتاجر في بارمن قرب بون التي لحق بجامعتها وهو في السابعة عشرة لدراسة التاريخ والفيلولوچيا ، ثم هجرها — كعادة الطلاب الألمان في

الهجرة والتنقل – إلى هَلّى ثم إلى برلين (١٨٦٧ – ١٨٧٠) . ولما عاد من الحرب البروسية الفرنسية – التى اشترك فيها كما اشترك ميلر – حصل سنة ١٨٧٣ على الدكتوراه فى الفلسفة فى رسالة له عن فلسفة فون هارتمن فى اللاشعور .

ورحل بعد ذلك فى دراسات حرة إلى برلين ثم إلى فرنسا وانجلترا – حيث وقف فى باريس على كتاب فِخنر فى العناصر Elemente الذى استرعى نظرَه فيه ما أحرزه علمُ النفس التجريبى من تقدم فى دراسة الحواس بفضل منهج فخنر . وعلى منهج هذا الكتاب – دون الاتصال بمؤلفه – شرع يدرس مشكلة قياس الذاكرة ؛ كما يدل على اتجاهه هذا فى ذلك الحين كتابه : فى الذاكرة Ueber das Gedächtniss الذى بيّن فى الفصل الأول منه الشروط التى يجب تحقيقها لقياس الذاكرة ، ومنها كثرة التكرار كشرط أساسى للارتباط ؛ مبيناً أن هذا التكرار ذاته يمكن أن يعين على قياس الذاكرة . وفيه يظهر تأثره بمنهج فخنر وبالارتباطيين الإنجليز ، وإن كانت لـه فيه جدتُه وأصالته . وهو – فيما يبدو – مخترع مقاطع الكلام التى لا معنى لها nonesense syllables جمع منها حوالى ٢٣٠٠ مقطعاً مثل : sid ، bok ، zat ... إلخ فى قوائم للتعلم ، وبهذه القوائم ، وبالشِعر ؛ بدأ بنفسه وبالاستعانة بمنهجى التعلم Erlernungs-methode والبواقى Ersparnismethode فى قياس الذاكرة التجريبى .

وفى سنة ١٨٨٠ عُين معيداً فى برلين وراح يُعيد تجاربه فى الذاكرة ليتحقق منها ؛ ونشر حينئذ كتابه المذكور (سنة ١٨٨٥) وفيه دراسات للتعلم والاكتساب والنسيان وعلاقتها بالزمن ، ومنحنى النسيان المعروف . وهى دراسة مثال فى الوضوح والدقة وحسن العرض العلمى حتى إنه لشهرته بهذا الكتاب عين سنة ١٨٨٦ أستاذاً مساعداً فى برلين ، فترك دراسة الذاكرة ليستمر بها «ميلر» وغيره .

واتجه نشاطه بعد ذلك إلى ميادين أخرى : فأنشأ مجلة لعلم نفس وفيزيولوجيا الحواس (١٨٩٠) مع أرتور كنيج Arthur König واستعان بهلمهولتس ، ولِپس Lipps وڤون كريس Von Kries وميـلر واشتمّف وغيرهم فى توجيه هذه المجلة وجهةً خارجة على ڤونت . ولإبنجهاوس نظرية فى إبصار اللون ، كما نشر سنة ١٨٩٧ فى برسلاو (التى ظل فيها حتى ١٩٠٥) منهجاً جديداً لاختبار قدرة الأطفال العقليـة وتوزيع ساعات العمل للتلاميذ ؛ وهى ما يسمى الآن Ebbinghaus Completion Test ولعله أثر به بعض الأثر (عن طريق نشرته الفرنسية الموجزة له) فى أفكار بنيه . كما أنه نشر سنة ١٨٩٧ الجزء الأول

من « خطوط علم النفس الرئيسية » Grundzüge der Psychologie ونشر قِسمه الثانى سنة ١٩٠٢ وأعاد طبعهما سنة ١٩٠٥ ؛ ولم يتم الكتاب لما لاقاه من النجاح المنقطع النظير . إلا أن أهم ما يُذكر به إبنجهاوس آراؤه فى الذاكرة ومنهجُه فى قياسها ؛ مع وضوح كتابته ، ودقة عرضه ، وأثر شخصيته فى معاصريه .

(٨) ميلر (چورچ إلياس) G. Elias Müller ولد فى جريما Grimma بسكسونيا فى ٢٠ يوليو ١٨٥٠ ، واختلف إلى جامعة ليپتسك (١٨٦٨ – ١٨٦٩) ثم جامعة برلين (١٨٦٩–١٨٧٠) ثم عاد إلى ليپتسك فجتنجن حيث حصل على الدكتوراه فى الفلسفة سنة ١٨٧٢ – ٧٣ واشتغل معيداً فى جتنجن (٧٦–٨٠) وظل بها – منذ ١٨٨١ ، بعد أن قضى هذه السنة أستاذاً فى تسرنوڤتس Czernowitz – أستاذاً لعلم النفس حتى ١٩٢٢ حيث اعتزل العمل .

لم يترك ميلر إذن جامعة جتنجن إلا سنة واحدة (١٨٨٠) فكان له فيها معمل ممتاز يشبه معمل ڤونت فى ليپتسك ، حتى قال عنه أحد زواره من الأمريكان : إنه أحسن معمل للبحث فى ألمانيا كلها ، وربما لم يسبقه إلا معمل ليپتسك. وقد أصبح «ميلر» بعد « فخنر» صاحب السيكوفيزيقا ، كما سار بدراسة البصر والذاكرة بعد هرنج Hering وإبنجهاوس – أخذها فنقدها وصححها ووسعها وتقدم بها .

ويعد ميلر إحدى الخطوات الرئيسية فى علم النفس التجريبى منذ بدأه فخنر (١٨٦٠) فقد نشر رسالته فى الدكتوراه عن الانتباه الحسى Zur Theorie der sinnlichen Aufmerksamkeit فى ١٣٦ صفحة (١٨٧٣) فى نفس السنة التى نشر فيها اشتمف نظريته فى إدراك المكان ، وكلاهما بحث تجريبى ولكن بحث ميلر كان أطرف وأدق وأشمل . وكان ميلر منذ تعرف بفخنر فى ليپتسك لا يزال على صلة به ، فاتجها إلى البحث فى منهج السيكوفيزيقا ؛ وكان من نتيجة ذلك رسالةِ ميلر لإجازة التدريس Habilitationsschrift – كما تسميها جامعات ألمانيا فى مقابل كلمة agrégation الفرنسية – واسمها : فى أساس السيكوفيزيقا Zur Grundlegung der Psychophysik (نشرت فى برلين ١٨٧٨) فجعلت هذه الرسالة– ومقالة أخرى طبق فيها منهج حالات الخطأ والصواب Methode der richtigen und falschen Fälle (سجلات جمعية الفزيولوچيا ١٩ – ١٨٧٩ ص ص ١٩١–٢٣٥) – نقول جعلتا من ميلر منهجياً فى علم النفس .

ومن أهم ما كتب ميلر غير هذا

نظرية فى التوتر العضـــلى Theorie der Muskelkontraktion نشرت بمجلة العلوم فى جتنجن (١٨٨٩) ، ومع شومَن Schumann : أقوال تجريبية فى أبحاث الذاكرة Experimentelle Beiträge zur Untersuchungen des Gedächtnisses فى مجلة علم النفس الألمانية ١٨٩٣ عدد ٦ ص ١٩٢. وله فى مجلة علم النفس الألمانية هذه مقالات عدة عن سيكوفيزيقا الإدراك البصرى Gesichts-empfindungen (١٧٩٧) ونظـــرية فى الذاكرة — مع پلتسكر A. Pilzecker — (١٩٠٠) وفى إدراك اللون Farben-empfindungen (١٩٣٠) والتمييز بين أنواع من العمى اللونى Verschie-den Typen der Farbenblindheit جتنجن (١٩٢٤) إلى غير ذلك من البحوث الهامة فى علم النفس التجريبى تجد عرضاً لها فى سجل مرتشيزون الثالث ص ص ٨٥١ — ٨٥٢ وفى تاريخ بورنج ص ص ٣٧٢ —٣٧٣

(٩) بنيـــه (ألفرد) A. Binet (١٨٥٧ — ١٩١١) أعظم عالم نفسى تجريبى فى فرنسا . بدأ مع بونى H. Beaunis أول معمـــل سيكولوجى فرنسى ، وأنشأ أول مجلة فرنسية فى علم النفس . كان كثير الإنتاج فى دقة وعناية ، وله أهمية ظاهرة فى اختبارات الذكاء ؛ فى سنة ١٩٠٨ انتهى بنيه إلى منهج ملائم لقياسه ، وهذا المنهج يشبه — فى أساسه — منهج التنبيهات الثـــابتة Meth. of Constant Stimuli السيكوفيزيقى الذى ندين فيه إلى فخنر (١٨٦٠) وميلر (١٨٧٩) واسپيرمن (١٩٠٨) وأوربَـن (١٩٠٩) . فبدلا من قياس الاستجابات مفردة ؛ نصنفها ونحدد تكرار حدوث كل صنف منها فى كل خطوة من المنبه ، وبتقسيم مرات التكرار كلها على عدد المرات التى حصلنا فيها على الاستجابة الجزئيـــة نحصل على الاطراد أو الحدوث النسبى relative frequency لأنواع مختلفة من الاستجابة للمنبه . فإذا قلنا إن الاطراد النسبى ٣٨ ٪ دل ذلك على حدوث الاستجابة فى ٣٨ مرة من مائة لمنبه بعينه (ودورث : علم النفس التجريبى ص ص ٤٠٠ — ٤٠٢) . وهذه إحدى طرق الحصر computation — حصر متوسط أو نسبة مئوية — كالحصر الحسابى عند اسپيرمَـن artihmetical comput. والجمـــع العــــددى summation عنـــد السيكوفيزيقيين .

ومقالات بنيه فى السنة السيكولوجية Ann. psy. (خصوصاً فى المجلد الأول ١٨٩٤ ص ص ١ — ٢٣ مع هنرى V. Henri والمجلد ١٤—١٩٠٨ ص ص ١ — ٩٤ مع سيمون Th. Simon) تبين دقته وتحرره من الفلسفة فى دراسته للذكاء التى اصطبغت دائماً بصبغة التجريب .

ذكر له پترسن Joseph Peterson ثلاثاً وثلاثين مقالة كتبها وحده ، وإحدى وعشرين كتبها بالاشتراك مع غيره من العلماء . (راجع كتابه الأفكار والاختبارات الأولى للذكاء Early Conceptions and Tests of Intelligence ١٩٢٥ ص ص ١١٧ — ٢١٤) وراجع ما كتبه عنه كلاپارد فى سجلات علم النفس Arch. de psy. مجلد ١١ (١٩١١)ص ص٣٧٦—٣٨٨ وأيضاً السنة السيكولوجية ١٨ (١٩١٢) ص ص ١ —١٤ لسيمون Th. Simon وخصوصاً كتابيه : سيكولوچيا كبار العدادين Psychol. des grands calculateurs (١٨٩٤) والدراسة التجريبية للذكاء L'etude expérimentale de l'intelligence (١٩٠٣) .

(١٠) كيلپه (أوزڤلد) O. Külpe (١٨٦٢ — ١٩١٥) هو—كإبنجهاس— من أئمة علم النفس الجديد ، وإن كان هو— كما كان ڤونت قبله — عالم نفس فيلسوف ، بمعنى أن سيكولوچياه متأثرة بالفلسفة ؛ كما يشبه ڤونت مرة أخرى فى محاولة إخضـــاع الفكر وسائر العمليات العقلية لقوانين المنهج التجريبى .

ولد كيلپه فى كانداو Candau بلاتڤيا — التى هى حينئذ من أعمال روسيا — بالقرب من بروسيا الشرقية ، فكانت أسرته كلها ألمانية فى تفكيرها واتجاهها ، وذهب سنة ١٨٨١ — لا إلى كنيجز برج Königsberg — أقرب جامعة له — بل إلى ليپتسك لدراسة التاريخ — وهناك التقى بڤونت الذى حوله إلى الفلسفة أولا . ثم إلى علم النفس التجريبى ثانياً ؛ ومعمله فى ذلك الحين طفل له من السن عامان بعد ميلاده فى ليپتسك . إلا أن كيلپه عاد بعد سنة ليدرس التاريخ فى برلين ، وتركها بعد سنة أخرى إلى ميلر فى جيتنجن . وظل معه ثلاث سنوات ، بدأ فيها يعد رسالة فى الشـــعور feeling على غرار دراسة ميلر واشتمف النظرية للانتباه وإدراك المكان . وتأرجح مرة أخرى بين علم النفس والتاريخ ، فذهب إلى دُرپات Dorpat يدرس عليه التاريخ ؛ وعاد بعدئذ إلى ڤونت مرة أخرى فى ليپتسك سنة ١٨٨٦ ؛ وظل معه ثمانى سنوات .

وفى ١٨٨٧ حصل على درجته فى الدكتوراه فى نظرية فى الإدراك الحسى Zur Theorie der sinnlichen Gefühle وبعد ذلك بسنة صار معيداً . ثم قدم لإجازة التدريس Habilitation دراسة نظرية أخرى : نظرية الإرادة فى الفلسفة الحديثة Die Lehre von Willen in der neueren Philosophie ؛ وأصبح منذ ذلك الحين مساعداً ثانياً لڤونت — بعد كتل Cattell الذى عاد بنفسه — كما عين نفسه من قبل — إلى أمريكا (نشرت رسالته هذه فى : « دراسات فلسفية » فى مجلدة واحدة).

وشارك كيلپه حينئذ فى دراسة مشاكل علم النفس القائمة لعهده ؛ ومنها زمن الرجع فى الحركات اليدوية فى رسالة هامة له بعنوان Ueber die Gleichzeitigkeit und Ungleichzeitigkeit von Bewegungen (دراسات فلسفية ٦ ، ٧ — ١٨٩١) كما كان يفكر وهو فى ليپتسك فى كتابة كتاب فى علم النفس التجريبي أكثر وضوحاً وبساطة من كتابات ڤونت التى كانت تزداد تعقيداً ؛ فنشر سنة ١٨٩٣ كتابه : تصميم علم النفس Grundriss der Psychologie الذى ترجمه تتشنر إلى الإنجليزية (١٨٩٥) ونشر على منواله كتاباً ؛ وفيه عرف كيلپه علم النفس — على الطريقة الڤونتية — بأنه علم حقائق الخبرة facts of experience وقال باعتماد حقائق الخبرة هذه على الأفراد المختبرين (المجربين) .

وبعد هذا الكتاب عين كيلپه أستاذاً مساعداً فى ليپتسك ؛ ولم ينقض العامُ حتى نال كرسى الأستاذية فى ڤيرتسبورج ؛ فترأس مدرسة «الفكر بلا صورة » Imageless Thought ؛ وصار التفكير — إلى جانب التاريخ وعلم الجمال — أهم شاغل له ، فنشر حينئذ كتابه الرائع المدخل إلى الفلسفة Einleitung in die Philosophie (١٨٩٥) الذى طبع سبع مرات حتى وفاة صاحبه (١٨٩٥ ، ١٨٩٨ ، ١٩٠٣ ، ١٩٠٧ ، ١٩١٠ ، ١٩١٣ ، ١٩١٥) وترجمه إلى الإنجليزية پلزبرى وتتشنر ١٨٩٧ ، ١٩٠١ ، كما ترجمه إلى العربية الأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفى ١٩٣٨ ، كما أن كيلپه نشر : فلسفة اليوم فى ألمانيا Die philosophie der Gegenwart in Deutschland (١٩٠٦) الذى وصل إلى ست طبعات وترجمة إنجليزية (١٩١٣) .

وقد نشر قائمة من ستين عنواناً من كتابات كيلپه بويمكر C. Baumker فى سنوية أكاديمية العلوم Jahrbuch d. bayer. Akad. d. Wiss (١٩١٦) ص ص ٧٣ — ١٠٢ (جمعها كارل بيلر K. Bühler . كما نشر زميل لكيلپه قائمة كتاباته كلها فى سنوية جامعة لودڤيج مكسمليان بميونخ (١٩٢٧) — ولكن هذه المراجع يصعب الحصول عليها — ونجد فى مجلة علم النفس الأمريكية (٢٧ — ١٩١٦ ص ٢٩٦) أسماء ست كتب وإحدى عشرة مقالة له . كما نجد فى تاريخ علم النفس التجريبي لبورنج (١٩٢٩ — ص ص ٤٢٥ — ٤٢٦) سبعة وعشرين كتاباً ومقالة ظهرت بين سنتى ١٨٨٧ (وهى رسالته فى الدكتوراه — التى تحوى نشرتها المستقلة فيما بعد تاريخ حياة المؤلف) حتى آخر كتاب له سنة ١٩١٥ — الأخلاق والحرب Die Ethik und der Krieg — بل حتى محاضراته فى علم النفس Vorlessungen

التى (١٩٢٠) über Psychologie نشرها لـه كارل بيلـر ، وأعاد نشرها سنة ١٩٢٢ متضمنة مقال كيلپه عن : فى سيكولوچيا الفكر الحديثـة Ueber die moderne Psy- cho. des Denkens (شهرية العلم والفن والعمل الدولية Inter. Monatschr. f. Wiss. Kun. u. Techn. ص ص ٦ ١٠٦٩–١١١٠س١٩١٢). وأهم مافى قائمة بورنج غير ماذكرنا: أى الأخلاق اليوم أحسن ؟ Welche Moral ist heutzutage die beste(١٩٠٠)ومقاله فى نشرة مؤتمر علم النفس التجريبى الأول (١٩٠٤) عن : بحث فى التجريد Versuche über Abstraktion ص ص ٥٦ – ٦٨ وكتابه عن عمانويل كانت (١٩٠٧) الذى أعيد نشره سنة ١٩٠٨، ١٩١٢ ومقالتاه فى سيكولوچيا نظرية الحس Gefühlslehre فى مؤتمر الفلسفة الدولى الثالث ١٩٠٨ وفى مؤتمر علم النفس الدولى الرابع ١٩٠٩ وكتابه نظرية المعرفة والعلم الطبيعى Erkenntnistheorie and Natur- wissenschaft (١٩١٠) . وكتابه الضخم : التحقيق : قول فى أساس العلوم الواقعية Die Realisirung: ein Beitrag zur Grundlegung der Real- wissenschaften فى ثلاث مجلدات نشرها بعد موته مسر Messer (١٩٢٠–١٩٢٣) وعلم النفس والطب Psychologie und Midizin (١٩١٢) – وكثير غير هذه من المقالات فى «دراسات فلسفية» ، ومجلات الفلسفة وعلم النفس الأمريكية والفرنسية والألمانية . راجع فى كيلپه وهسرل كتاب شريدر H. Schräder : نظرية التفكير بين كيلپه وهسرل Die Theorie des Denkens bei Külpe und Husserl (١٩٢٤) .

(١١) مارب (كارل) K. Marbe

ولد فى باريس فى ١١ اغسطس ١٨٦٩ ولحق بجامعات فرايبورج وبرلين وبون وليپتسك – حيث قضى خمس سنوات حصل بعدها على الدكتوراه فى الفلسفة من بون (١٨٩٣) – وفيما بين (١٨٩٦–١٩٠٥)عين معيداً للفلسفة فى جامعة ڤير تسبورج . ثم صار أستاذاً مساعداً فأستاذاً سنة ١٨٠٩ ثم مديراً بالداخلية Geheimer Regierungsrat وأخيراً صار أستاذاً فى أكاديمية فرنكفورت(١٩٠٥–١٩٠٩). وله حتى ١٩٢٩ تسعة وأربعون مؤلفاً ومقالة فى السنة السيكولوجية Ann. psy. ومجلة علم النفس الألمانية Zch. f. Psych. وغيرها ؛ تجد تصنيفها الكامل حتى ١٩٣٢ فى سجل مرتشـيزون الثالث ص ص ٨٤٥ – ٨٤٦ .

(١٢) بيلر (كارل) Karl Bühler

ولد فى مكسهايم Meckesheim فى بادن Baden فى ٢٧ مايو ١٨٧٩. لحق بجـامعة فرايبورج (١٨٩٩ – ١٩٠٣) حيث نال الدكتوراه فى الطب ، ولحق بجامعة اشتراسبورج ١٩٠٣ –

١٩٠٤) حيث نال الدكتوراه فى الفلسفة ؛ ثم بجامعتى برلين وبون (١٩٠٤ — ١٩٠٥) . عين معيداً بجامعة ميونخ (١٩١٣—١٩١٨) فأستاذاً بمدرسة الفنون العليا فى درسدن (١٩١٨ — ١٩٢٢) فأستاذا بجامعة ڤينا منذ سنة ١٩٢٢ . وتولى رياسة تحرير : أبحاث سيكولوجية Psycholo-gischen Monographien وبحوث المؤتمر Congressberichtes . ومساعدة تحرير مجلة علم النفس الألمانية ، ومجلة علم النفس العام الإنجليزية (١٩٢٨) وله كتب ومقالات كثيرة تجدها فى سجل مرتشيزون الثالث (١٩٣٢) ص ص ٥٨٧ — ٥٨٨

(١٣) تتشنر (إدوارد برادفورد) Ed. B. Titchener (١٨٧٦ — ١٩٢٧) إنجليزى مثل النزعة الألمانية فى أمريكا . اتصل بكيلپه فى ليپتسك وكانت بينهما موازاة ومشابهة فى أن كليهما من أتباع ڤونت ، وأنه ترك ليپتسك فى أوائل السنوات التسعينية ليستمر بدراسات ليپتسك فى معامل جديدة . ترجم هو كتاب كيلپه : التصميم Grundriss بعد ظهوره بسنتين (١٨٩٥) وكتب مثله كتاباً. وكلاهما فى مطلع القرن الجديد قد كوّن له مدرسةً من أتباعه بنَشر مؤلفات تلاميذه على طريقتهم الخاصة فى التفكير ولكن تتشنر يختلف عنه وعن ڤونت فى تركه كل أثر فلسفى ، فهو بهذا أشبه بميلر...

ولد من أسرة عريقة فى جنوب انجلترا كان يفخر بها . ولكن قلة مواردها فى أيامه جعلته يعتمد على مقدرته فى الحصول على المنح المدرسية لتعليمه — فكان دائما يستأثر بها — وبعد كلية مالفرن ذهب إلى أكسفورد (١٨٨٥) حيث ظل خمس سنوات درس الفلسفة فى الأربع الأولى منها ، وترجم الطبعة الثالثة لعلم النفس الفزيولوچى لڤونت Physiologis-che Psychol. — ولم ينشرها — بل حملها معه إلى ليپتسك فى السنة التالية ليدرس على ڤونت نفسه . وبتأثير ڤونت القوى حصل على الدكتوراه بعد سنتين من صحبته ، ولم يذهب بعدئذ إلى أكسفورد — إذ لم يكن ثمة لعلم النفس الفيزيولوچى نشاط كبير — وإنما عاد إلى كورنل Cornell فى أمريكا فتولى المعمل الذى كان قد فتحه منذ عام فرانك انجل F. Angell ، ثم تركه ليرحل إلى جامعة استانفورد الجديدة — وقضى بقية حياته (٣٥ سنة) فى كورنل هذه .

وأخذ تتشنر نفسَه فى السنوات الأولى ببحث قُوى علم النفس الجديد فنجح فى فصله تماماً عن الفلسفة ، وفى الإكثار من الكتابات الإنجليزية فيه ، فترجم وأصحابه كتب ڤونت وكيلپه ، وكتب هو كتابيه : مختصر فى علم النفس Outline of Psychol.

(١٨٩٦) ومبادئ علم النفس Primer of psychol. (١٨٩٨) ثم أنشأ معملا عمل فيه بنفسه وتلاميذه الذين اتسعت دائرتهم ، فشملت پلزبرى وواشبرن وبنتلي وغيرهم ؛ وأصدر أكثر من ثلاثين بحثاً .

وأعظم ما كتب تتشنر : علم النفس التجريبي Experimental psychol. الذى رمى فيه إلى إنشاء العلم الجديد وإثبات قيمته العلمية ، ودروس التمرينات drill courses — كما سماها — اللازمة كأساس للبحث فيه . ولما فرغ منه اتجه لمسائل الشعور والانتباه ، والتفكير ، فظهرت آراؤه فيها فى كتابيه : سيكولوچيا الشعور والانتباه Psychology of Feeling and Attention ١٩٠٨ وعلم النفس التجريبى لعمليات التفكير Ecxacri. psychol. of Thought processes (١٩٠٩) . وفى هذه السنة نشر كتابه متن فى علم النفس Text-bock of psychol. الذى ضمنه كل سيكولوچياه التجريبية .

وقد مثل تتشنر فى أمريكا علمَ النفس الاستبطانى الخالص الدقيق . فرفض الحيوانات والأطفال والمرضى كموضوعات لدراسة علم النفس — لأنها لا تستطيع أن تستبطن ، أى لا يعول عليها فى الإدلاء بخبراتها فى ملاحظات — وهذا ما يعنيه هو بالاستبطان كمنهج ، مما جعله يرفض السلوكية واختبارات الذكاء التى تعالج الفعل performance لا الخبرة الشعورية experience . ومن هنا كانت أهمية تتشنر كمنهجى فى تاريخ علم النفس.

وأهم مرجع للقارئ عن تتشنر هو مجلة علم النفس الأمريكية Amer. J. of psychol. التى طالما كتب فيها : فى حياته بورنج مجلد ٣٨—١٩٢٧ ص ص ٤٨٩ — ٥٠٦ . ومايرز C.S. Myers مجلة علم النفس البريطانية ١٨ (١٩٢٨) ص ص ٤٦٠—٤٦٣ ؛ وفى حياته فى ليپتسك — أنجل F. Angell مجلة علم النفس التكوينى الأمريكية ١ — ١٩٢٨ ص ص ١٩٥ — ١٩٨ .

وفى تصنيف كتبه الكامل راجع فوستر W. S. Foster : دراسات فى علم النفس Studies in psychol مجلد تتشنر التذكارى Titchener Commemorative Volume (١٩١٧) ص ص ٣٢٣ — ٣٣٧ ؛ حتى ١٩١٧ ، ودلنباخ K. M. Dallenbach فى مجلة علم النفس الأمريكية ٤٠ — ١٩٢٨ ص ص ١٢٠ — ١٢٥ حتى وفاة تتشنر .

وفى قائمة أسماء تلاميذه الذين حضّروا عليه لدرجة الدكتوراه : دلنباخ أيضاً K.M. Dallenbach فى مجلة علم النفس الأمريكية مجلد ٣٨ — ١٩٢٧ ص ٥٠٦ . راجع أيضاً : بورنج : تاريخ علم النفس التجريبى ص ص ٤٠٢ — ٤١٨ ، ٤٢٨ — ٤٢٩ .

(١٤) أقناريوس (رتشـرد)

R. Avenarius (١٨٤٣–١٨٩٦) أستاذ الفلسفة فى زيورخ (١٨٧٧–١٨٩٦) وكان على نقيض ماخ فى طريقته وتعقيده، وإن تشابهت نظريتهما أخيراً: كلاهما حاول أن يتخلى عن الميتافيزيقا ويصبغ دراسته بالصبغه العلمية. وأهم كتبه: نقد الخبرة المجردة Kritik der reinen Erfahrung (ظهر فى مجلدين ١٨٨٨ – ١٨٩٠) الذى كلفه كثيراً من العناء، فاعتلت صحته ومات بعده بقليل.

راجع كتابه. وفى تاريخ حياته راجع هَرالدهيفدِنج H. Höffding: الفلاسفة المحدثون Moderne Philosophen (١٩٠٥) ص ص ١١٧–١٢٧ (١٣٠–١٤٠ الترجمة الإنجليزية) ودى لا كروا Delacroix مجلة الميتافيزيقا والأخلاق Rev. de Mét.et de Mor. السنة الخامسة (١٨٩٧) ص ص ٧٦٤ – ٧٧٩ والسنة السادسة (١٨٩٨) ص ص ٦١–١٠٢

الفصل الثالث

السلوكية

لعل من الأجدى أن نركز دراستنا للسلوكية[1] حول چون ب . وطسون، تاركين الذين سبقوه حتى نرى ماذا يعنى بهذا اللفظ الجديد الذى استحدثه . فالسلوكية بالحَد ؛ يجب أن تكون فى تعاليمه ؛ أو قُل فى أصول تعاليمه ؛ ويكون مِن علماء النفس الآخرين جديراً باسم السلوكى من كان معه فى اتفاق . وبقدر ما يتمتع كل عالِم نفسى ببعض استقلال فى الفكر ؛ فإن عدد السلوكيين الخُلَّص وغير الخلص محدود . ولكن هناك كثيرين يقتفون إلى حد كبير أثر وطسون ، وكثيرين تأثرت وجهاتُ نظرهم به كثيراً . وفوق هذا فإن السلوكية قد تجاوزت حدود علم النفس إلى علم الاجتماع وإلى غيره ، وكانت تبدو أحياناً بما يشبه العقيدة أو الموجة الشعبية ، وكان ذلك نتيجة أن عالم النفس ذاته ليس لدِيه عن السلوكية — فى كل ما يتفرع عليها — علم خاص .

سلوكية وطسون :

ولد وطسون[2] سنة ١٨٧٨ ، وبدأ دراساته النفسية فى جامعة شيكاغو ؛ واستمر بها فى چونس هوپكنز Johns Hopkins ؛ عاملا بجِدّ فى الحيوان ؛ وأخيراً فى سيكولوچيا الطفل . وكانت الثورة على النظام القائم فى علم النفس تحتدم فى نفسه طويلا ، حتى يقول فى سنة ١٩١٢ :* « لقد انتهى السلوكيون إلى أنه لا يمكن بعدُ أن يقنعوا بالعمل فى اللامحسوسات والأشياء الغامضة . وقد صمموا على إحدى اثنتين : إما أن يتخلوا عن علم النفس أو يُحيلوه علماً طبيعياً » . وقد توصل إلى ذلك ڤونت وغيرُه من التجريبيين فى محاولتهم أن يجعلوا علمَ النفس علماً يرتفع فى نظر وطسون إلى إحلال كلمة « شعور consciousness » محل « الروح soul » فى فلسفة العصور الوسطى ، بمجرد وضع لامحسوس موضع الآخر . وفى كتابه

* ج ب . وطسون : السلوكية . (روتلدج ١٩٢٤) ص ٦ .

المسمى : السلوك : مقدمة إلى علم النفس المقارن — الذى نشر سنة ١٩١٤ — حدد وطسون غرضه كالآتى :

« علم النفس كما يراه السلوكى هو شعبة تجريبية موضوعية خالصة من العلم الطبيعى . وهدفه النظرى هو التنبؤ بالسلوك وضبطه . وليس الاستبطان جزءاً رئيسياً من مناهجه ، ولا القيمة العلمية لحقائقه تقوم على استعدادها لأن تعبر عن نفسها بألفاظ الشعور ... ولعله لا بد قد حان الوقت الذى يَطّرِح فيه علمُ النفس كلّ إشارة إلى الشعور ، إذ لم تعد به حاجة بعدُ إلى أن يخدع نفسه فى حُسبان أنه يجعل الحالات العقلية موضوعاً لملاحظته . . . من الممكن أن نكتب فى علم النفس ، وأن نُعرفه بما عرّفه به بِلزبرى Pillslbury[٣] من أنه «علم السلوك science of behavior فلا نرجع القهقرى فى التعريف ، ولا نعود قط إلى استخدام ألفاظ : الشعور ، والحالات العقلية ، والذهن ، والمضمون ، والإرادة ، والصور وما شابهها... فإن من الممكن أن تؤديها ألفاظ : المنبه والاستجابة ، وكلمات : تكوّن العادة ، وتكامل العادة ، وما أشبهها ... فى الأصل كانت الرغبة فى مثل هذا العمل كله لاكتساب معرفة دقيقة بالتكيفات ؛ والمنبهات التى تثيرها وغاية ذلك أن نتعلم الطرائق العامة والخاصة التى يمكن أن يُضبَط بها السلوك ... فإذا سار علم النفس على هذه الخطة المقترحة ؛ فإن عالِم التربية ، والفيزيقى ، والقانونى ، ورجل الأعمال يمكن أن ينتفعوا بحقائقه فى ناحية عملية ، بالقدر الذى يمكن أن تحصل به من الناحية التجريبية والذين يتاح لهم أن يطبقوا مبادىء علم النفس من الناحية العملية لن تكون بهم حاجة إلى الشكوى كما يفعلون فى هذه الآونة .

« فالذى يُقوّى أملنا فى أن يكون موقف السلوكى موقفاً حصيناً ، هو أن فروع علم النفس هذه ؛ التى قد نشأت فى جزء منها عن الأب — علم النفس التجريبى — والتى هى تبعاً لهذا أقل اعتماداً على الاستبطان ؛ هى اليوم فى أزهر حالة . فالبيداجوجيا التجريبية ، وسيكولوچيا المُخدرات psychol. of drugs ، وعلم النفس للإعلان psy. of advertising ، وعلم النفس القضائى legal psychol. ، وعلم نفس الاختبارات psychol. of tests ، وعلمُ نفس تشخيص الأمراض psychopathology ؛ كل أولئك نشء قوى ...وكل ما يوجد فى هذه العلوم المنظمة من خطأ ؛ هو أن مادتها ما تزال تعرض فى مصطلح الاستبطان ، بينما عرضُها فى ألفاظ ذات دلالات خارجيـــة لابد أن يكون ذا قيمـــة أكبر . . فإذا فعلنـــا ذلك ؛ فإن

العمل . . على الكائن الإنسـانى سوف يمكن أن يقرن مباشرة بالعمـل على الحيوانات » .

وكما تستطيع أن تحكم مما اقتبسنا فى الفقرة السابقة ، لم تقفز السلوكية — على نحو ما فعلت مينرفا — كاملة النمو من رأس چوپيتر . وإنما نشأت بالتدريج فى باطن علم النفس . أو بصورة أخرى ، يمكن أن نقول : إن ظهور السلوكية فى سنة ١٩١٢ — ١٤ كان له علله المهيئة والمباشرة ؛ على نحو ما يميز الطبيب العقلى فى تتبع أصل إصابة بالجنون . أما المُهيئة فكانت البحوث فى دراسة السلوك التى عرضت منذ طويل فى مناهج موضوعية ، وكانت تعرض بنسب متزايدة . وأما العلل المباشرة أو المثيرة فكانت الموقف الغامض لعلم النفس الموضوعى ذاك تحت التعريف المأخوذ به فى علم النفس . والوصمات التى ألحقها به الاستبطانيون ، ومضايقات أخرى شبيهة كانت تكتنف فى ذلك الحين عالِمَ النفسِ الحيوانى ، وعالِمَ النفس فى الاختبارات ، وعالم النفس التجريبى الذى كان همّه الفعل أكثر منه الخبرة . وسنستطيع أن نفهم الظاهرة المسماة بالسلوكية فهماً أحسن إذا نحن شئنا أن نرجع قليلا فيما قبل سنة ١٩١٢ ، ورأينا ما كان يُتخذ لظهورها من " أسباب التهيؤ " والاستعداد .

فتعريف علم النفس بأنه علم الشعور — دون الخروج عن حدود الشعور — لم يقبله بإخلاص علماء النفس الأمريكيون ، وإن رضوا بهذا التعريف على وجه صورى . لقد لصقوا فعلا بالتقليد القديم ، وما زالوا يجدون لذة فى فاعليات العقل وفى أفعال الفرد ووظائفه أكثر من خبراته بصفة خاصة . وأساطين علم النفس الأمريكى الثلاثة حوالى سنة ١٩١٠ كانوا : وليم چيمس فى هارڤرد ، وچورج ترمبول لاد G. Trumbull Ladd فى ييل Yale ، ج استانلى هول G. Stanley Hall فى جامعة كلارك . كتب لاد[٤] عن الآليات السيكولوچية فى الحياة العقلية ، وكتب هول[٥] عن نشوئها فى الطفل وفى الجنس ، أما چيمس فنظر إليه على أنه أبو علم النفس المعروف حينئذ « بعلم النفس الوظيفى Functional psychology » . وفى ذلك الحين قامت خصومة كبيرة بين علم النفس الوظيفى Functional والتركيبى structural الذى يرمى إلى وصف الشعور وتحليله ؛ فى حين أن الأول يرمى إلى إظهار الدور الذى يقوم به الشعور فى حياة الفرد . فكان علم النفس الوظيفى يبحث فى كشف أى مطالب الكائن العضوى يصادف الإدراك الحسى ، والصور العقلية ، والانفعال ، والتفكير . وحاول أن يتنبأ

— بما أخذ به من وجهة نظر تطورية — فى أى درجة من درجات تقدم الجنس أصبحت الحاجة إلى كل عملية عقلية من المساس بدرجة تكفى لأن تؤدى إلى ظهور هذه العملية الخاصة . وبطريقة عامة ، قالوا إن العمليات العقلية العليا تصادف حاجة إلى تحكم فى البيئة أوسع وأقهر . ومن هنا كان علم النفس الوظيفى يرمى إلى أن يجعل لعلم النفس مكاناً فى ميدان البيولوچيا العام .

وقد كان علم النفس الوظيفى قوياً ومعنياً به خصوصاً فى جامعة شيكاغو ، على يد چون ديوى John Dewey [٦] (المولود فى سنة ١٨٥٩) وأنجل J. R. Angell (المولود فى سنة ١٨٦٩) ، والأخير* تلميذ چيمس ؛ وهذا النوع من علم النفس هو الذى تدرب عليه وطسون فى شيكاغو . فكان يبدو له — إلى حد ما — أنه يسير فقط إلى منتصف الطريق ، ثم هو يظل توفيقاً غير منسجم بين علم النفس التركيبى وعلم البيولوچيا بالمعنى الصحيح . وهو يقول+ :

« لقد شهدت الخمس عشرة سنة الأخيرة نشوء مايسمى علم النفس الوظيفى... ويعبر عنه فى ألفاظ يبدو أنها تتشبث بالدلالة البيولوچية لعمليات الشعور أكثر مما تصر على تحليل الحالات الشعورية إلى عناصر يمكن عزلها بطريقة الاستبطان . والفارق بين علم النفس الوظيفى وعلم النفس التركيبى — كما أوضح الحالة من قبلُ الوظيفيون functionalists ” هو فارق “ لا يمكن تعقّله . فالألفاظ : إحساس ، وإدراك ، وعاطفة ، وانفعال ، وإرادة يستخدمها الوظيفيون بالقدر الذى يستخدمها به التركيبيون » .

وإلى جانب محاولة الوظيفيين هذه لمراجعة تعريف علم النفس بموازاته بالبيولوچيا ؛ كان هناك قدر كبير من العمل التجريبى لأولئك الذين وجدوا متعة فيما كنت أسميه سكولوچيا الفعل psychol. of performance . وإلى مثل ذلك يشير وطسون فى المقتبسة الأولى التى ذكرنا من قبل ، عند ما يتحدث عن علم النفس التجريبى وسيكولوچيا الاختبارات ... إلى غير ذلك . ومنه يُظن أن كلّ مِثل هذا العمل الموضوعى حديث جداً ، وأنه أيضاً قد أُفسد فى جزء منه بالاستبطان . وترجع

---

* وجهة النظر الوظيفية يمثلها خير تمثيل أنجل Angell فى كتابه : علم النفس : دراسة تمهيدية لتركيب الوعى الإنسانى ووظيفته Psychology: An Introductary Study of the Structure and Function of Human Consciousness. (Henry Holt & Co. 1904)

+ السلوك Behavior هنرى هولت وشركاه ، ١٩١٤ ، ص ٨ .

الاختبارات الموضوعية تماماً والمتحررة من الاستبطان إلى جالتون Galton فى حوالى ١٨٨٠ . فقد نشطت الدراسات الموضوعية لعملية التفكير فى السنوات التسعينية . وربما يُؤَرَّخ لها قبل ذلك بدراسة إبنجهاوس المشهورة للذاكرة فى ١٨٨٥ دراسة موضوعية خالصة . ولكن حتى جالتون وابنجهاوس ليسا أهلاً لأن يُعدّا مؤسسَين لعلم النفس الموضوعى ، لأننا ما زلنا نجد قبلاً بواكير الموضوعية الخالصة فى العمل فى زمن الرجع ؛ وكثيرٌ من العمل فى الإدراك الحسى — الذى أجرى بوساطة منهج التأثير — يمكن تماماً أن يعد دراسة موضوعية لدقة ملاحظة الفرد . وإذن فالمنهج الموضوعى قد استُخدم منذ البواكير الأولى لعلم النفس التجريبى ، ومبلغ البحث الذى أُجرى بهذه الطريقة حتى سنة ١٩٠٠ أو ١٩١٢ كان كبيراً جداً فى الواقع . وكما رأينا من قبل ، لم يكن علم النفس يُحَدُّ من الناحية العملية بدراسة الخبرة الشخصية ؛ فقد كان لدراسة الفعل الكفة الراجحة ، وحتى علماء النفس الذين أهابوا كثيراً بالاستبطان — أمثال ميلر وكيلپه — قد استخدموه عن سعة لما كان يلقى من ضوء على الفعل .

النزوع ما قبل السلوكى إلى تعريف موضوعى لعلم النفس :

وسيكولوچيا الفعل — على ما كان لها من نشاط فى المعامل — قلما أصبحت دقيقة من حيث التعريف فيما أعلم ؛ حتى خطاب كتل Cattell فى سانت لويز سنة ١٩٠٤ . وكتل[٨] (المولود فى سنة ١٨٦٠) : كان تلميذا لاستانلى هول Stanley Hall ، ولكن خصوصاً لڤونت الذى عمل فى معمله سنوات عدة ، ثم أخيراً عمل مع جالتون وقتاً ما وأصبح مغرماً بتنمية اختبارات قياس فعل الفرد فى أوسع وجهات ممكنة . وبدأ كتل معامل علم النفس فى پنسلڤانيا وكولومبيا . أما عن مؤتمر سانت لويز العالمى سنة ١٩٠٤ فكان معاهدة للفنون والعلوم ، قدّم كلّ فرع من فروع المعرفة فيه أحدَ أعلامه البارزين ، متعهداً أن يقدم لموضوعه تعريفاً ؛ وطُلب إلى كتل أن يعرِّف علم النفس . وسأقتبس شيئاً من خطابه ✲ :

« تحدثنا كتبنا التمهيدية فى الواقع أن علم النفس هو علم العقل science of mind وأن العقل والمادة هما أكثر أشياء العالم تغيراً واختلافاً ... والتفرقة بين العقل والمادة هى

✲ ج . ماك . كتل ، فى شهرية العلوم الشعبية Popular Science Monthly ، مجلد ٦٦ ، ١٩٠٤ ص ص ١٧٦ — ١٨٦ .

إحدى الكلمات الأخيرة لفلسفة لم توجد بعد ، أولى من أن تكون مسألة خَبَريةٍ شائعة يمكن أن يقوم عليها تعريف مبدئى ...

« وأكثر من هذا ؛ لا أومن أن علم النفس يمكن أن يُحَد بدراسة الشعور فى مجموعه ، بالقدر الذى يمكن به عزله عن العالم الطبيعى... أنا أعجب بنتائج مدرسة هربارت(٩) Herbartian school ، وبالدقة المتزايدة أبداً فى التحليل الاستبطانى منذ لوك Locke حتى وارد Ward (١٠). فكل ذلك يَعقِد فصلا مهماً فى علم النفس الحديث ؛ وإن كانت النتائج العلمية الإيجابية قليلة فى مجموعها إذا قورنت بالعمل التجريبى الموضوعى الذى تم فى الخمسين سنة الماضية . ليس ثمة تعارض بين التحليل الباطنى والتجربة الخارجية ، بل على العكس من ذلك ؛ ينبغى — وفعلا — هما متعاونان باستمرار . ولكن الفكرة الشائعة نوعاً ما ؛ عن أنه لا علمَ نفس خارج الاستبطان ؛ يرفضها الدليل القاطع لما توصلوا إليه من حقيقة .

« ويبدو لى أن معظم الأبحاث التى قمت بها أو « التى أجريت » فى معملى هى تقريباً بعيدة عن الاستبطان بُعدَ العمل فى الطبيعيات أو علم الحيوان (الزولوچيا) . فزمن العمليات العقلية ، ودقة الإدراك والحركة ، ومدى الشعور ، والتعب والمران ، والمصاحبات الحركية فى الفكر ، والذاكرة ، وتداعى المعانى ، وإدراك المكان ، ورؤية الألوان ، والميول ، والأحكام ، والفروق الفردية ، وسلوك الحيوان والأطفال ؛ هذه وغيرها من الموضوعات قد كشفتُ عنها دون التجاء إلى أدنى استبطان من جانب الشخص موضوع التجربة أو إجراء ذلك على نفسى أثناء مجرى التجارب ...

« ومن الصعب حقاً أن ننفُذ بمثل ذلك إلى شعور الحيوانات الدنيا والبدائيين والأطفال ، وإن كانت دراسة سلوكهم قد خضعت من قبل كثيراً وتبشر « بخضوع » أكبر كثيراً ...

« وإذا أنا لم أومن بأن علم النفس يؤثر فى السلوك ويمكن أن يطبق فى وجوه نافعة ؛ إذن لاعتبرت مهمتى أدنى إلى مهمة لاعب الشطرنج المحترف أو مبتلع السيف sword swallower منها إلى المهندس أو عالِم الطبيعة . . . ولا أستطيع أن أعلل لم لا يمكن أن ينتهى تطبيق المعرفة المنظمة على ضبط الطبيعة الإنسانية خلال القرن الحالى إلى نتائج مساوية لتطبيقات العلم الطبيعى على العالَم المادى فى القرن التاسع عشر » .

ولو أن وطسون قد وقف على هذا التصريح ؛ فربما اعتبره من كثير من التوافق

بحيث يرضيه ، ما دام هو قد اهتم — ليس فقط بترقية علم النفس الموضوعى — بل باستبعاد كل شيء آخر . وهولنفس هذا السبب ، لم يعلق أهمية على آراء مكدوجل McDougall وپلزبرى Pillsbury فى السنوات القليلة التالية ؛ فيما يتعلق بتعريف علم النفس بأنه علم السلوك . وسأقتبس من هؤلاء الكتاب فى شيء من التطويل ، رغبة فى إبراز حقيقة أساس علم النفس الذى ظهرت عنه السلوكية سنة ١٩١٢ .

وسيظهر لنا وليم مكدوجل فيما بعد على أنه رائد مدرسة القصد . فهو فى كتابه الصغير عن علم النفس الفيزيولوچى* Physiological Psychology ؛ الذى نشر فى سنة ١٩٠٥ ؛ يناقش تعريف علم النفس كالآتى :

« إن أحسن وأشمل ما يمكن أن يعرف به علم النفس ؛ أنه العلم الوضعى لسلوك الكائنات الحية ... وبوجه أعم يُحدُّ علمُ النفس بأنه علم العقل ؛ أو علم العمليات العقلية أو النفسية ، أو " علم " الشعور ، أو خبرة الفرد الشخصية . ومثل هذه التعريفات غامضة ، وبغير كبير تدقيق هى ليست شاملة بدرجة كافية . إنها تعبر عن أغراض عالِم النفس الذى يعتمد على الاستبطان وحده ، وعلى ملاحظة خبرته الخاصة وتحليلها ، والذى يهمل إلى حد كبير مظاهر الحياة النفسية التى يضعها بين يديه سلوك إخوانه من الكائنات fellow-creatures ... فتعريف علم النفس بأنه علم الخبرة أو الشعور معناه إذن أن نستبعد دراسة هذه العوامل اللاشعورية ؛ بينما التعريف الذى ذكرت آنفاً يُدخِل كلَّ هذه فى محيط علم النفس من غير أن يستبعد دراسة أى جزء من الخبرة أو عنصر من الشعور ، لأن كل خبرة فهى تؤثر فى السلوك » .

ويتابع مكدوجل حديثه فى مقدمته إلى علم النفس الاجتماعى »† Introduction to Social Psychol. « ؛ الكتاب الذى قفز فجأة إلى المجد فى سنة ١٩٠٨ ، وظلت له فائدته الجُلَّى سنوات كثيرة ، يقول :

«يجب أن يقلع علماء النفس عن الرضاء بهذا الإدراك الجامد الضيق لعلمهم على أنه علم الشعور ، يجب أن يعلنوا عن غرضه فى جرأة : أنه العلم الوضعى للعقل فى كل وجوهه وأحواله الوظيفية ، أو — كما أفضل أن يقولوا — إنه العلم الوضعى

* نشره ج . م . دنت وأولاده J. M. Dent & Sons.

† نشره ميثون وشركاه Methuen & Co. وجون لوس وشركاه John. W. Luce & Co.

للتدبُّر conduct أو السـلوك behavior . يجب ألا ينظر علم النفس إلى الوصف الاستبطانى لمجرى الشعور على أنه كل مهمته ، بل كجزء أولى من عمله فقط . فإن مثل هذا الوصف الاستبطانى ، أو هذه « السيكولوچيا المجردة » لا يمكن أن تنشىء علماً ، أو على الأقل لا يمكن أن ترتفع إلى مستوى علم تفسيرى ؛ ولا يمكن أن تكون هى نفسها ذات أثر كبير فى العلوم الاجتماعية . فالأساس الذى يتطلبه كل منها هو علم نفس فيزيولوچى مقارن يعتمد كثيراً على المناهج الخارجية ، وملاحظة سلوك الناس والحيوان بمختلف أنواعهم وفى كل ظروفهم الممكنة من صحة ومرض ...ولحسن الحظ هذا الإدراك الأكثر خصوبة لعلم النفس قد بدأ يتكشف » .

أما پلزبرى W.B. Pillsbury (المولود فى سنة ١٨٧٢) فهو تلميذ تتشنر ، نشر فى سنة ١٩١١ كتابه « أصول علم النفس » Essentials of Psychol.* الذى سرعان ما أصبح إلى حد كبير أمثل مُتُون علم النفس فى كليات أمريكا . وربما كان تعريفه مقبولا لدى الكثيرين من علماء النفس اليوم :

« حُدّ علم النفس بأنه « علم الشعور » ، أو بأنه « علم الخبرة منظوراً إليها من الناحية الذاتية » . ولكل من هذه التعريفات مزاياه ، وإن لم يسلم أحدها من اعتراض ... إن العقل يُعرَف من أفعال الإنسان . ويمكن أن يُحد علمُ النفس بطريقة مُرضية أكثر بأنه علم السلوك الإنسانى .

« من الممكن أن يعالَج الإنسان بالموضوعية التى تُعالَج بها أية ظاهرة طبيعية . ومن الممكن أن ينظر إليه من حيث ما يفعل فحسب . وغاية علمنا هذا أن يفهم الفعل الإنسانى منظوراً إليه من هذه الناحية . أما غايته من الناحية العملية فهو أن يحدد علامَ تتوقف المقدرة الإنسانية human capacity ، وأن يكشف فى ضوء هذه المعرفة عن وسائل تنمية كفاية الإنسان man's efficiency .

« وحتى لو نظرنا إلى فهم السلوك الإنسانى على أنه الغاية القصوى لعلم النفس ؛ فإن الشعور يجب أن يظل مضطلعاً بدور مهم فى هذا العلم . ونعنى بالشعور انتباه الإنسان لأفعاله الخاصة وما يسبقها ... فالشعور لأول وهلة عامل مهم فى فهم السلوك وموضوع ممتع للبحث فى ذاته ... وفى الدور الحاضر من تقدم علم النفس ، يبدو من الخير أن نجعل الشعور تابعاً للسلوك . فعلم النفس هو علم السلوك ...

* نشرته شركة مكملان the Macmillan Co.

والسلوك إنما يُدْرَس خلال شعور الفرد وبملاحظة خارجية » .

فالرأى « الذى يقول » باعتبار علم النفس علمَ السلوك الإنسانى يبدو أنه كان يأخذ طريقه رأساً عندما ظهرت السلوكية على المسرح . وكلمة : سلوك behavior كانت تبدو عريضة . بحيث تسمح بشمول مهمة عالِم النفس الباطنى كما تشمل مهمة الذين يعملون موضوعياً . أليس البصر أو السمع أو التخيل أو الشهوة طريقاً للسلوك ؟ فأن تسلك معناه أن تفعل بطريقة ما ، ولا شك أن البصر وبقية ما ذكرنا هى فاعليات الكائن العضوى . فلا تعارض بين السلوك والشعور كما لو كان على الحيوان ألا يشعر حتى يتهيأ له أن يسلك . ليس من شك فى أن السلوك أدنى إلى الفعل منه إلى الخبرة بما هى عليه ، ولكن الوجودى نفسه يقول إنه يدرس الخبرة « فى اعتمادها على الفرد » ، وذلك يشبه قولنا « كجزء من سلوك الفرد » .

أما عند وطسون فإن السلوك والشعور متنافيان ، وحين يُعرِّف علم النفس بأنه علم السلوك فإنه يريد أن يطرد ويستبعد من أساسه كلَ استبطان ، وكل رجوع إلى الشعور — وكما تصوَّر ؛ كلَّ علم النفس بما انتهى إليه حتى سنة ١٩١٢ . ولكى نرى لم نظر إلى المسألة على هذا الوضع ؛ يلزمنا أن نذكر أنه قد كان متخصصاً فى علم النفس الحيوانى ، ويلزمنا مرة أخرى أن نرجع إلى الوراء سنوات قليلة لنتتبع نشوء هذه الدراسة .

ثورندايك والنمو السريع لعلم النفس الحيوانى :

مع أن سلوك الحيوان قد كان موضع عناية كبيرة من البيولوچيين منذ عهد دارون Ch. Darwin ؛ فإنه يمكن بغير تردد أن نعزو إلى ثورندايك Thorndike (١١) إدخاله فى معمل علم النفس . وثورندايك (المولود فى سنة ١٨٧٤) مع أنه كان تلميذاً معترفاً به من كل من چيمس وكتل — فإنه يُعد هو نفسه صاحبَ فكرة التجريب على غريزة الحيوان والتعلم . فقد بيّن مثلا أن الفرخ الحديث الفقس إذا وضع فوق صندوق منخفض ، يقفز إلى الأرض بغير تردد ؛ فإذا وضع فوق صندوق يرتفع بضع بوصات فإنه يتردد ؛ أما إذا وضع فوق صندوق ارتفاعه قدم فإنه لا يقفز مطلقاً . وهكذا استجاب الفرخ للارتفاع — ثالث الأبعاد — دون أن تكون له فرصة تعلم هذه الاستجابة . وكجهاز لدراسة تعلم الحيوان ؛ استخدم ثورندايك التواهات mazes ، وأقفاص الخداع trick-cages ، والمحيِّرات puzzle-boxes .

فإذا انتزع واحداً من بين الأفراخ ووضعه فى منعزل صغير ، جاعلا له طريقاً ملتوية واحدة للهرب ؛ فإن الفرخ يدور حول نفسه فى الداخل — مردداً بصره ، ذاهباً هنا وهناك — وأخيراً يخرج وينضم إلى الأفراخ . فإذا أعيد وضعه فى المنعزل ، فإنه يتقدم درجات فى الهروب بسرعة أكبر ؛ حتى يندفع مرة واحدة إلى الطريق المفتوح بعد محاولات قليلة . والقطة الصغيرة الجائعة إذا وضعت فى قفص بجانبه من الخارج طعام ، سوف تدفع وتخمش وتعض كل ما تصل إليه ؛ حتى تنتهى قريباً أو بعد أمد إلى المزلاج الذى يفتح به الباب . فإذا تكرر وضعها مرة ومرة ، استطاعت أن تلغى بالتدريج هذه الحركات غير المجدية ، وأن تعالج المزلاج فى نشاط وثقة . وابتداء من سنة ١٨٩٦ — وما بعدها بسنوات قليلة حتى استغرق كلَّ مجهوداته علمُ النفس التربوى — طبق ثورندايك مناهجه على الأفراخ ، والأسماك ، والكلاب ، والقطط ، وأخيراً على القرَدة ؛ وأخذ بهذا النوع الجديد من العمل السيكولوجى مباشرة كثيرٌ من معامل أمريكا الرئيسية ، تخصص فيها يركس Yerkes[١٣] ووطسن وغيرهما . فظهر أن الحيوان موضوعٌ جدٌّ مفيد فى تجارب التعلم ، وأن النتائج قد قد ألقت ضوءاً على تعلم الإنسان كما ألقت على تعلم الحيوان .

وفى تفسير نتائجه توصل ثورندايك إلى الإمكانيات الآتية : قد تستعمل الحيوانات أفكاراً — سواء فى الاستدلال أو فى مجرد التداعى — أو هى قد تتعلم تعلماً أعمى بالمحاولة والخطأ . وأيقن أن التفكير يتحكم فيه تدرج تعلم الحيوانات . وقد أظهرت مُنحنيات التعلم learning curves تقدماً تدريجياً وإن كان غير منتظم ، وإن لم يكن ما يدل على انتقال مفاجىء من عدم معرفة الإجابة إلى معرفتها . على أن الحيوان لو أنه قد تفهم المشكلة ؛ إذن لوصل إلى الحل فى وقت قصير ، ولعرف بعد ذلك الإجابة ، ولأصاب القصد بسرعة دائماً . وانتهى ثورندايك إلى أن حيواناته لا تتعلم بالتفكير . ولم يكن يستطيع أن يحدد تماماً ما إذا كانت تستعين بالأفكار ، ولكنه كان يميل إلى عدم اعتقاد ذلك . أما التعلم بالتقليد فقد استبعده بدليل تجريبى محدد : فإنه لا القطط ولا القردة قد أفادت كثيراً من لعبة يقوم بها أمامها حيوان مارسها من قبل . ولم يبق لثورندايك من ممكنات إلا المحاولة والخطأ trial and error . فالحيوانات لا تتعلم بالملاحظة watching ، ولا بالإمعان considering ، بل بالفعل doing . فهى تصل إلى الموقف بعد مجموعة من الاستجابات الحركية ، وبعد عملية عمياء متدرجة كانت تستبعد الاستجابات الخاطئة وتقوى الاستجابة الموفقة

وتلصق تماماً بالموقف . فالمحاولة والخطأ هما منهج تعلم الحيوان .

والكائنات الإنسانية بطبيعة الحال تستخدم الأفكار ، ولكن ثورندايك قد أثبت أن المحاولة والخطأ ليسا وقفاً على الحيوان فى شىء . فمهارة الحركة — كما فى لعبة التنس — قد حسِب أنها تكتسب ؛ لا بالإمعان العقلى ولا بالفطنة ؛ وإنما بفعل جركى مختلف ، مع اطّراح الخاطئ وأخذ الموفَّق من الاستجابات المختلفة الكثيرة . وفوق هذا ، فإنه اعتقد أن التعلم الخام* brute learning أساس لارتقاء الأفكار والاستدلال . وإنما كان الإنسان عالياً على الحيوان أصلا لأن له قدرة أكبر على المعرفة الخام . فهو يتعلم بسرعة ويتعلم استجابات كثيرة فيكسب بذلك أساساً للتفكير.

وقد رأى ثورندايك فى التعلم عملية إنشاء روابط أو علاقات فى الجهاز العصبى بين الأعصاب الداخلة التى يثيرها المنبه ، والأعصاب الحركية التى تنبه العضلات فتعطى بذلك استجابة الحركة . واعتَقد أن قوانين آلية التعلم هذه يمكن أن ترد إلى اثنين : قانون المران law of exercise بمعنى أن الروابط تقوى بالاستعمال ، وتضعف بالإغفال المتواصل ؛ وقانون الأثر law of effect أى أن هذه الروابط تقوى أو تكسب ميزة على غيرها تؤدى إلى صدور مُرض عن الموقف(١٢) . فعندما ينتهى نشاطُ آليةِ عقلٍ ما إلى السرور والرضا عن الحيوان " صاحب هذا العقل " فإن هـــذه الآلية تقوى بذلك . أما إذا أحدث فعلُ آليةِ عقلٍ آخر عدمَ ارتياح للحيوان ؛ فإن هـــذه الآلية إذن تضعف . وإذا نحن فهمنا فزيولوچية الرضا وعدم الارتياح من الناحية الداخلية ؛ فسوف نرى كيف أنها تُقوّى أو تُضعِف آليات العقل التى كانت نشيطة منذ قليل ، وأنها تبعاً لذلك تتأثر خصوصاً بهذه الظروف الفيزيولوچية . نحن نعلم قليلا عن فيزيولوچيا الرضا والقلق satisfaction and discomfort ، ولكن قانون الأثر يلزمنا بصفة مطلقة كتقريب أولى للقانون النهائى الذى سيفسر لماذا تستبعَد الاستجابات الخاطئة ، وتلصق بالموقف تماماً الاستجابةُ الموفَّقة فى تعلم « المحاولة والخطأ » .

وأنا لم أحاول أن أبين كم من نظريات ثورندايك كانت له أصالة بحق . ففى خطوطه الرئيسية كان على وفاق مع النظرية الارتباطية . ولكن ثورندايك قد تحدث عن علاقات تقوم بين المنبه والاستجابة الحركية أولى منها بين فكرة وفكرة ؛ وأبلغ

* فارسى يؤدى المعنى بالمقصود بكلمة brute فى الانجليزية والفرنسية .

أهمية من هذا ؛ أن كان له دليله التجريبي الذي يؤيد وجهات نظره . وقد بدا للكثيرين في سنة ١٩٠٠ مجدداً خطيراً ، سواء في فكرته عن سلوك الحيوان وفي تصوره لعقلية الإنسان . وبمرور الزمن ، حاول علماء النفس الحيوانية الذين جاءوا بعده أن يَخْطوا في التجديد خطوة أحسن ، وحاولوا خصوصاً أن يُبسِّطوا نظريةَ التعلم بالتخلص من قانون الأثر .

وبحوث ثورندايك الخاصة في علم النفس التربوي كانت موضوعية في منهجها كبحوثه في علم النفس الحيواني ؛ وقد مال به تفكيره أكثر وأكثر إلى أن يُصِرّ على السلوك وكأنه – على أقل تقدير – من أكبر الموضوعات في دراسة علم النفس . ولكي نستوثق من ذلك؛ ها هو يُعرِّف علمَ النفس في سنة ١٩٠٥ بحدود أولية للشعور :

« يتركب العالم من حقائق طبيعية وعقلية... وعلم النفس .. يعرض لهذا الأخير.. وما دامت غالبية أفعال الإنسان مرتبطة بالأفكار والأحاسيس ارتباطاً مباشراً؛ فإن علم النفس يعالج – ليس فقط الحالات العقلية – بل أيضاً أفعال الإنسان وتدابيره* أو تصرفاته .

وفي سنة ١٩١١، يقف على مناقشة القيم النسبية «لدراسة الشعور ودراسة السلوك» فصلا خاصاً ،ويُقبل في شجاعة على علم نفس للسلوك :

إن ما قاله علماء النفس خاصاً بالطبيعة الإنسانية ينقسم إلى نوعين : أقوال عن الشعور ... وأقوال عن السلوك ...

وعلى العموم ، فإن العمل السيكولوجي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر قد أكد دراسة الشعور.. وكان هناك ميل إلى محاولة جارفة – إن لم تكن متعصبة – لجعل علم الطبيعة الإنسانية مرادفاً لعلم الحقائق التي يُظهرها التأمل الباطني ...

والدراسات التي يعاد طبعها في هذا الكتاب (يعني دراساته الأصلية في تعلم الحيوان والغريزة) قد أوجدت في مؤلفها احتراماً متزايداً لعلم النفس كعلم للسلوك ... وعلم النفس يمكن أن يكون – على الأقل في جزء منه – في استقلال عن الاستبطان يُشبه العلومَ الطبيعية . والسلوك يشمل الشعور والفعل ، أحوال العقل وما بينهما من علاقات* .

---

* ثورندايك : عناصر علم النفس (روندلبرج سنة ١٩٠٥.) ص ١–١٠ .

* ثورندايك : ذكاء الحيوان : دراسات تجريبية . (مكملان ١٩١١) ص ١–٥ ، ١٥

لم جاءت السلوكية ثورة ولم تجئ تقدماً سلمياً :

من كل ما قد قلنا يتضح بدرجة كافية أن السلوكية قد قُدم لها — سواء فى تجارب المعامل ، وفى محاولات التعريف الجديدة التى قام بها أقطاب علم النفس الكثيرون فى السنوات العشر الأولى من القرن — وكان من هذه الأسباب المهيئة لظهور السلوكية خصوصاً ؛ هذا التقدم السريع الممتع لعلم النفس الحيوانى

على أن « العلة المباشرة » إنما كانت النزوع الجامح إلى علم النفس الحيوانى من جانب كبار علماء النفس هؤلاء فى ذلك الحين ؛ الذين كانوا على يقين تام بأن علم النفس هو — وينبغى منطقياً أن يكون — دراسة الخبرة الشعورية conscious experience ولا شىء غيرها . ومن هذه المقدمة الكبرى استدلوا منطقياً على أن حقائق السلوك ليست من علم النفس بأية حال إلا إذا تُرجم لها بمصطلح الشعور الحيوانى . والآن فمن المعروف — منذ أيام ديكارت — أنك لا تستطيع أن تثبت للحيوان شعوراً . أفنفترض أن كل الحيوانات — حتى أدناها — لها شعور بما تسلك ، أم نقصر الشعور على الحيوانات التى تتعلم أو الحيوانات التى لها جهاز عصبى ، أم بأى معيار نرسم هذا الخط ؟ الواقع أن الانتقال من السلوك إلى الشعور فى الحيوانات كان استدلالا بالتمثيل وخطوة فى الظلام . وقد أكد تِتشنر وغيرُه أن مثل هذه الاستدلالات يمكن أن تُرسم رسما صحيحاً مع ما يؤخذ لها من حيطة ، وأنه بهذا يمكن أن يلقى التجريب على الحيوانات ضوءاً على علم النفس . ولكن لما كانت هذه الخطوة فى الظلام ضرورية لكى تجعل لحقائق السلوك أىّ استخدام سيكولوچى ؛ فإن علم النفس الحيوانى كان بحق جزءاً غير مباشر ولا أهمية له نسبياً فى علمنا .

وفى هذه الأثناء كان علماء النفس الحيوانية يقفون على نتائج موضوعية لمسائل كالغريزة والتعلم ، فكرهوا أن يُقال لهم إنه لزمهم أن يلجأوا إلى مماثلات مريبة dubious analogies لكى يستخرجوا مما توصلوا إليه علم النفس . وربما عانى بعضهم هذه القالة من جانب عالم النفس المتعصب ، وإن لم يعانها وطسون فى سكون — لأنه أكثرهم جرأة . والواقع أنه أجاب قائلا : « أرونى نتائج الاستبطان الذى تشيدون به والذى يستطيع أن يقوى على مقارنته بنتائج تجربة الحيوان الموضوعية » ، ومن غير أن ينتظر جواباً ؛ تقدم ليقول إن علماء النفس الحيوانى هم — فى واقع الأمر — الطائفة الوحيدة الذين يقومون حقاً بمجهود علمى فى

علم النفس ، وإن علم النفس البشرى يجب أن ينحو نحوهم : فيتخلى عن الاستبطان ويقف نفسه برمتها على دراسة السلوك دراسة موضوعية . وقد أشار إلى زلة "الاستبطان" فى مشكلة الفكر بلا صورة وفى أشياء أخرى جديدة مما توصل إليه — وما يزال يجادل فيه — علماء الاستبطان ، وانتهى إلى أن علم النفس كاد يظل جماعة جدل ومناظرة — وليس علماً — حتى زال منهج الاستبطان .

واعتراض وطسون على التأمل الباطنى لم يكن يتخذ له أساساً اختلافات هذا النوع من الملاحظة بصفة خاصة — كما أشار إلى ذلك ڤونت وتتشنر — وإنما بدا له أن المستبطن يدّعى أنه يلاحظ شيئاً غير مادى وفى خارج حدود الظواهر الطبيعية . والحق أن ڤونت وتتشنر قد أنكرا بشدة ما يشبه هذا الادعاء ، فيما قالا به من أن حقائق الملاحظة الغفل هى بعينها للفيزيقا كما هى لعلم النفس ، ولكن الاستبطان — كما رآه وطسون — كان مختلطا كله بالشعور كمجرد بديل لفظى للنفس . وقد اعترف — بعد قليل* — أن المرء يمكن أن يلاحظ سلوكه الخاص ، ثم يقرر مثلا : إنى أكتب ، أو : إن وجهى محمر .. إلخ ، ولم يستبعد استخدام منهج هذا التعبير اللفظى فى التجريب على الحواس . وكل ما هنا لك إذن ، أن التعبير اللفظى يجب ألا يُفهم على أنه إظهار للشعور . فالشعور نفسه هو لا يعترض عليه بشدة إلا « بالمعنى السيكولوجى psychological sense »+ إنما كان فحسب الشعور الذى يدّعى عالِم النفس أنه يلاحظه بالاستبطان هو ما قام عليه الاعتراض .

أنكر وطسون وجود الشعور « بمعنى سيكولوجى » فذهب معه الحس والحساسية ، والصور ، التى اعتُبرت طويلا وكأنها عناصر الخبرة الشعورية . وكلمة إحساس sensation هو يستبعدها بشىء من الحذر فى عرضه للحواس ، مستعيضاً عنها بهذه الخبرات أمثال : « استجابة الضوء » ، أو « استجابة السمع » ، أو « استجابة الشم » . بل هو يدخل الصورة البعدية فى عرضه لها . فيقول× :

إن من أمتع مجموعات الظواهر التى نصادفها فى فيزيولوجيا الحواس فى مجموعها ؛ تلك التى تبدو فى الآثار البعدية after-effects لتنبيه الضوء ذى اللون الواحد . فإنه بعد أن تتأثر العين وقتاً ما بضوء ذى لون واحد monochromatic light ثم يُبعد

---

* علم النفس من وجهة نظر السلوكى (ج. ب . لبنكوت وشركاه ، ١٩١٩) ص ٣٩ .

+ السلوك : ١٩١٤ ص ٢٧ .

× علم النفس كما يراه السلوكى : ١٩١٩ ص ٦١ .

عنها ، فإن الشخص سوف يدلى بأحد شيئين : قد يستجيب الشخص كما لو كان متأثرا من جديد بالضوء الأصلى ، وهو ما يسمى « الصورة البعدية الإيجابية positive after-image » ؛ أو كما لو كان متأثراً بضوء . . . "هو استمرار أو" تكملة للضوء الأصلى ، وهذه هى « الصورة البعدية السالبة negative after-image » ويمكن أن نصور ذلك بما نحصل عليه بطريقة التقرير اللفظى . فإذا نبهنا ... بالأزرق ونظر الشخص بعدُ إلى ستار رمادى : « فسيقول أنا أرى لوناً أصفر » .

وهكذا كان فى وسع السلوكى أن يُدخل فى علم النفس لديه كلّ نتائج منهج التأثير مطبقة على الحواس .

وقد كان وطسون يتطلع خصوصاً إلى إبطال دعاوى صور الذاكرة والأحاسيس منظوراً إليها على أنها حقائق* فحاول أن يبين* أن ما يسمى صور الذاكرة — التى يؤمن بها كثير من الناس — تتركب فى جزء منها من تأثيرات (أو إحساسات) حركية عامة ؛ وفى جزء آخر من استجابات لفظية من جانب الشخص ، وأن الاحساسات بالسرور والابتئاس هى فى جزء منها مؤثرات حسية من الأعضاء التناسلية أو المناطق الشبقية الأخرى erogenous zones ؛ وفى جزء آخر حركات تَقرُّب أو تجنُّب ناشئة . فلا الصورة ولا الحس « تنشأ مركزياً » ، أعنى أن يكون لها أصلُها فى المخ فتتميز بذلك عن سلوك استجابة المنبه . وكل سلوك فهو حسى حركى ، يتركب من وحدات استجابة مُنبّه ، بدأ كل منها مع تنبيه عضو حس ما وانتهى باستجابة عضلية أو غددية . ويعمل الجهاز العصبى فى دورات كاملة . على أن المخ يجب أن لا يُتشبّث به أو يُتخذ إلهاً . فقد وقع علماء النفس فى إعادة صرف كبير انتباه إلى المخ : ولكن السلوكى يرى أنهم حين يفعلون هذا فإنهم يعزلونه عن بقية الجسم ويجعلونه بديلا آخر للروح . لقد افترضوا المخ أن يكون عضو التذكر والتفكير ، ولذلك جعلوا هذه العمليات « المركزية » الخالصة متميزة عن السلوك الحسى الحركى ، يُتوصل إليها بالاستبطان وحده وليس بالمناهج الموضوعية لدراسة السلوك .

وإذن فالسلوك — كما يقول وطسون مستطرداً — لم يكن دائماً يلاحظ بسهولة من خارج . ولم يكن دائما « مفتوحاً أو ظاهراً explicit » ؛ بل ربما كان « داخلياً وباطناً implicit » . وإنما كان السلوك الحشوى باطناً لأنه مختبىء هكذا فى الداخل.

---

* السلوك — ١٩١٤ — ص ١٦

وكان الكلام الداخلى ، المُركّب – فيما حَسِب – من حركات نطق صغيرة ، ظاهراً ؛ لأن الحركات كانت من الدقة بحيث تلاحظها العين أو الأذن المجردة . فكان خط التقدم فى دراسة السلوك الظاهر – بما له من أهمية بالغة – هو ضبط أجهزة تسجيلنا . وتَركَّب السلوك حينئذ من استجابات غريزية أو غير مكتسبة : ومن عادات أو استجابات مكتسبة ؛ وكلا الاستجابات المكتسبة وغير المكتسبة وَجَبَ أن تكون ظاهرة أو باطنة . وكان قسط كبير من مهمة علم النفس السلوكى أن يتتبع تقدم الفرد فى عاداته الظاهرة والباطنة ؛ والمعرفه المُحصَّلة بهذه الطريقة قد أمكن أن تستخدم فى ضبط السلوك الإنسانى وتحسينه .

فالمذهب السلوكى فى سنة ١٩١٢ – ١٤ كان « حركة ناشئة » ؛ كما كان وطسون شابا ناشئاً ، وكان أتباعه غالباً من الجيل الناشئ . وقد شعروا بأن وطسون يحدث تغييراً فى محيط علم النفس ؛ بالقضاء على خفاياه القديمة ، وشكوكه ، ومركباته ، ومصاعبه التى ورثها عن الفلسفة ؛ والتى لم يستطع علماء النفس الأقدمون منها فكاكاً . إلا أنهم فى حماستهم قد بالغوا فى الثورة . وأنا أذكر طالباً جاء من قِبل أحد السلوكيين إلى كولومبيا – إلى معمل كتل إذا شئتم – وقال إنه يعرف أن معملنا موقوف كله على الاستبطان وأنه بالتالى لن يفيده فى شىء ، ولكنه يفكر فى أن يعمل فى معمل الزولوچيا ، وأنه يرغب فى أن يتاح له الانتفاع بما عندنا فى تركيب أجهزته . على أن الثورة الحقيقية فى أبحاث علم النفس كانت ضئيلة . فالعمل الموضوعى مستمر ، والعمل الباطنى مستمر "أيضاً". وقبل أن نتتبع التقدم الأوسع لمذهب السلوكية فى أمريكا ، وقبل أن نذكر أبرز المساعدين أيضاً على هذا التقدم ؛ يجب أن نعود ثانية إلى اعتبار أحداث هامة فى روسيا ، يندُر أنها عُرفت فى أمريكا قبل سنة ١٩١٢ ، ولكنها أثبتت فيما بعدُ كبيرَ أهميتها فى المذهب السلوكى

الموضوعية الروسية والمنعكس الشرطى :

لقد قامت السلوكية فى أمريكا احتجاجاً أكثر منها اكتشافاً . والعمل الروسى – الذى نُقبِل على اعتباره الآن – قد بدأ بِكشف الفعل المنعكس الشرطى ، فكان هذا الكشف عوناً وراحة أكثر لعلمائنا السلوكيين ، مما كانت أيةُ نتيجة من نتائجهم

ففى حوالى ١٩٠٥ ، اكتُشِف الفعل المنعكس الشرطى فى نفس الوقت تقريباً

فى معملين فيما كان يعرف حينئذ باسم سانت بطرسبرج* . ولا حاجة بنا إلى الدخول فى مسألة الأسبقية بين المكتشفَين : پاڤلوف Pavlov وبختريف Bechterv ؛ الأول فيزيولوچى ، والآخر متخصص فى الأعصاب neurologist . وقد تنافسا كلاهما فى هذا العمل ودفع كل منهما الآخر إلى نشاط قوى . ولما كان لدينا كثير نقوله عن پاڤلوف(١٤) فلنبدأ أولا ببختريف .

فقد كان بختريف (١٥) (١٨٥٧ – ١٩٢٧) يعمل بنشاط كبير منذ حوالى ١٨٨٠ فى تحليل الجهاز العصبي وأمراضه ، وفى الأفعال المنعكسة ، وفى الأمراض العصبية والعقلية . وأدت به دراساته إلى فكرة ما سماه الأفعال المنعكسة المترابطة ، نفس الشيء الذى سماه پاڤلوف الأفعال المنعكسة الشرطية . وقد عمل بختريف خصوصاً فى المنعكس الحركى ، أما پاڤلوف ففى المنعكس الغددى أو الباطنى . والذى لاحظه بختريف شيء يشبه هذا : إذا لامست البرودة الجلدَ حدث انقباض فى التنفس ، فهذا فعل منعكس طبيعي . فإذا استُخدم منبه آخر ليس له فى ذاته أثر ظاهر على التنفس ، وتكرر استخدامه مع "المنبه" البارد على الجلد ؛ فإن هذا المنبه الآخر سيكون له فى الحال نفسُ النتيجة ، وهذا إذن منعكس معلوم أو مرتبط . وعمِلَ بختريف وتلاميذه بكل مثابرة فى المشكلة على هذا الأساس : عملوا فى الأشخاص الإنسانية والموضوعات الحيوانية سواء بسواء ، وعملوا فى موضوعات عقليتها مضطربة على أمل أن يُلقوا ضوءاً على العُصاب neuroses والذهان psychoses وأن يبدءوا اتجاهاً موضوعيًّا إلى الطب العقلي . وكتب بختريف فى اكتشافاته ونظرياته كتباً : بأسماء علم النفس الموضوعى Objective Psychology ، وعلم الانعكاس Reflexol. . ومن غير أن يناقش مشروعية علم النفس الاستبطانى رأى أن ينظر إلى أى حد يمكنه أن يسير على أساس موضوعى خالص ؛ متخذاً من المنعكس فكرته الأساسية ، واعتقد أنه يستطيع أن يغطى موضوع علم النفس تغطية تامة دون أن يلجأ إلى أية ألفاظ كالإحساس ، أو الشعور ، أو الفكر . وكتابه فى « علم النفس الموضوعى » قد نشر بالروسية أولا فى سنة ١٩٠٧ ، ثم تُرجم إلى الألمانية سنة ١٩١٣ .

أما پاڤلوف (المولود فى سنة ١٨٤٩) فقد بدأ يدرس للرهبنة ، ولكنه انحرف عنها إلى الطب ، ومنه إلى الفيزيولوچيا . وظل سنوات طويلة يعمل فى فيزيولوچيا

* اكتشفه أيضاً فى نفس الوقت وفى استقلال ؛ تويتماير(١٦) E.B. Twitmyer فى جامعة بنسلفانيا .

الهضم physiol. of digestion وقام بعدة تجارب جِدّ ناجحة ومفيدة . وبعد سنة ١٩٠٠ مباشرة — بينما كان يعمل فى هذا الموضوع — لاحظ حقيقة غريبة فى سلوك الكلب الذى كان اتخذه موضوعاً . وقد كان أعد جهازاً لجمع لعاب الكلب مباشرة من إحدى الغدد اللعابية Salivary glands وكان يعطى الحيوان طعاماً لإثارة مجرى اللعاب ، فلاحظ أن اللعاب بدأ يسيل من كلب متمرن قبل أن يوضع الطعام فى فمه بالفعل ؛ سال لمجرد رؤية الطبق الذى فيه الطعام ، أو لمجرد اقتراب الخادم الذى تعود إحضار الطعام ، أو حتى لمجرد خطوات الخادم فى الحجرة المجاورة . فإذا كان الطعام فى الفم من غير شك منبهاً طبيعياً لمسيل اللعاب بفعل منعكس ؛ فمن الصعب أن تكون رؤية الشخص أو صوت خطواته منبهاً طبيعياً لهذه الاستجابة ، بل لا بد أن تكون ارتبطت بالاستجابة فى مجرى التجربة الطويل ؛ حتى استُخدمت كعلامة مبدئية . ورأى پاڤلوف أن القدرة على تعرف مثل هذه العلامات لا بد أن تكون مهمة جداً فى تقدم التكيف الحيوانى للفرد مع بيئته الخاصة . ورأى أيضاً أنه قد طرق سبيلا تؤذِن بالتأدى إلى دراسة تجريبية لعمليات العقل العليا . فتقدم ليوجه نشاط معمله هذه الوجهة . وفى غضون خمس وعشرين سنة خرجت من معمله مئات الرسائل للدكتوراه فى كثير مما يتفرع على هذه المسألة . فوضع تسمية المنعكس الشرطى لتدل على الفعل المنعكس الذى ارتبطت فيه الاستجابة ببديل للمنبه الطبيعى .

وكانت الخطوة الأولى أن يكتشف كيف يمكن المنعكس أن يكون مشروطاً . فأجرى تجاربه ليرى ما إذا كان من الممكن أن يربط استجابة اللعاب بصوت إِزّيز buzzer أو مِترونوم metronome . وجعل المترونوم يدق مدة دقيقة ، ثم وضع طعاماً فى فم الكلب ؛ وانتظر خمس عشرة دقيقة ، ثم بدأ "يدق" المترونوم مرة أخرى ، وبعد دقيقة أطعم الكلب مرة ثانية . فما إن تكررت هذه العملية عدة مرات ؛ حتى بدأ اللعاب يسيل قبل نهاية الدقيقة ، متقدماً تنبيهَ الطعام ؛ بحيث إذا ألغى فى ذلك الحين منبه الطعام ؛ فإن سيلا من اللعاب يمكن مع هذا أن يوجد . فإذا ما سارت التجربة على هذا النحو : يدق المترونوم مدة دقيقة ، ثم لا يقدَّم طعامٌ فى نهاية هذا الوقت ؛ فإن سَيل اللعاب يقل مرة بعد أخرى ، وبعد محاولات قليلة يختفى الفعل المنعكس الذى كان موجودا .

ولنفرض الآن أن الفعل المنعكس قد تكوّن ، وأن التجربة قد توقفت حينئذ

حتى اليوم التالى . ففى المحاولة الأولى لم يَلقَ المترونوم أية استجابة ؛ ولكن عدد المحاولات (مترونوم مصحوب دائماً بالطعام) اللازمة لتكوين المنعكس فى اليوم التالى كانت أقل منها فى اليوم الأول . وإذا ما تكررت تجربة الشرط دون انقطاع يوماً بعد يوم؛ فإنه يأتى سريعاً الوقتُ الذى يستقر فيه المنعكس الشرطى يوماً بعد يوم . فإذا بدأت عملية الإزالة (مترونوم بلا طعام) على هذا المنعكس الذى تم تركيبه ؛ فإن التلاشى لا يكون سريعاً ، إنما يكون موقوتاً فحسب ؛ إذ أن الاستجابة المشروطة قد تظهر فجأة فى اليوم التالى . أما إذا تكرر حدوث عملية الإزالة فى عدة أيام ، فإنها تستأصل أخيراً المنعكسَ الشرطى .

فعمليات تكوين المنعكس الشرطى وإزالته كانت وثيقة التوازى؛ حتى إن پاڤلوف انتهى إلى أن آليات العقل واحدة بعينها ؛ إلا أنها فى حالةٍ تشرُطُ استجابةً إيجابية ، وفى الأخرى استجابة سالبة أو مانعة .

ومن بين أنواع التجربة الأخرى الكثيرة التى عولجت فى معمل پاڤلوف ، سأذكر أكثرها تعقيداً ومشقة فى التمايز differentiation ؛ وهى ترمى إلى تكوين منعكس شرطى إيجابى لمنبهٍ ما مع عدم الاستجابة إلى منبه آخر مشابه . فقد كان همه أن يرى إلى أى حد يستطيع أن يدفع الحيوان فى وجهة تمييز واضح . فوجد أن التمييز يمكن أن يقوم بين النغمتين" اللتين يحدثهما " صوت شوكتين يختلف بأقل من نصيف نغمة فى السلم الموسيقى . فكانت العملية كما يلى : استخدم أولا نغمة واحدة ، لِنقُلْ جـ متوسطة ، مُتبِعاً إياها دائماً بمنبه الطعام . وحينما حدثت الاستجابة الإيجابية للنغمة جـ المتوسطة ؛ بدأ يُحدث صوتاً آخر فى نغمة أعلى . ولأول إحداث صوت هذه النغمة الجديدة ؛ يسيل اللعاب كما كان قبلا ، وينتقل المنعكس إلى هذا المنبه المُشابه . ولكن النغمة العالية ليست مصحوبة بطعام . فحينما تحدث النغمة الأخفض يأتى الطعام ؛ أما حينما تحدث النغمة الأعلى فليس ثمة طعام . وبتكرار هذه العملية إلى درجة كافية ، يستطيع أن ينزع الاستجابة اللعابية إلى النغمةِ الأعلى ، تاركاً إياها فى صلة مع النغمة الأخفض . وهنا يبدأ المشهد الثالث للتجربة ، ويقوم فى تقريب النغمة الأعلى يوماً فيوماً من من النغمة الأخفض ، مع العناية بعدم إثارة التمايز الذى قد تَكوَّن قبلاً . وربما استغرق شهوراً تقريبُ النغمتين درجة واحدة فى كل منهما مع عدم إثارة التمايز — وإن قام ادعاء بالوصول إلى ذلك فى بعض الحيوانات . فإذا كانت المحاولة بحيث

تُحمِّل الحيوانَ فوق طاقته ؛ فربما فقد كل استجابة شرطية كوّنها من قبل ، وأصبح بالفعل كلباً في حالة عُصابية — هكذا يقول المجربون .

ربما قيل إن مثل هذه النتائج يُعوِزها التأييد في معمل آخر غير الذي حُصِّلت فيه أولا . وفي مثل هذا العمل مخاطر ؛ أخصها ما يحدث اتفاقاً من أن الحيوان يستجيب للمجرب وحركاته وتعبيراته اللاشعورية ، لا للتنبيه الذي يستخدمه المجرب بقصد منه . وبإزاء هذا الخطر ، رسم پافلوف خططاً لمعمل خاص بالمنعكس الشرطي — مع استعدادات كافية لجعل المجرب في معزل عن الكلب بصره وسمعه ، ولإبعاد المناظر والأصوات المثيرة الآتية من خارج . وقد شيدت له الحكومة الروسية حديثاً هذا المعمل ، وهو يشتغل الآن بإعادة تجاربه السابقة فيما تهيأ له من آلات ثم من احتياطات . أما تكوين المنعكس الشرطي وإزالته . فقد توافر على تأكيدهما مجربون آخرون .

ومن كل هذا ينتج+ أن پاڤلوف — مدفوعاً بتخيل قوى — قد توصل إلى نظرية في وظائف المخ . فإن له — فيما يُعتقد — وظيفتين شاملتين : فمن الناحية الحسية ؛ هو يتركب من محللات تنتزع المنبهات الجزئية من مجموعة الحركات الفيزيقية التي تطرأ باستمرار على الكائن العضوى ، وهو يشبه في هذه الوظيفة جهاز الاستقبال في « الراديو » . ومن الناحية الحركية ؛ تتركب مهمة العقل من المنعكسات الشرطية . فالسلوك المكتسب كله — حتى سلوك الإنسان المعقد — مكون من أفعال منعكسة شرطية . وهذا الإشراط* Conditioning وظيفة للحاء الشوكى cerebrum ؛ تظهر بإصابات هذا الجزء من المخ ، حيث يصبح من المستحيل أن نشرِط الحيوان . والنوم أيضاً يمنع الإشراط ، إذ أن هذه العملية تعتمد على نشاط اللحاء الشوكى .

وپاڤلوف إذن يسمى عمله فيزيولوجيا المخ . وهو لا يدّعى أن يكون هو سيكولوجياً . والواقع أن هذا هو آخر ما يقول به . وهو — في محاضراته عن نتائجه هذه — يبوح من حين لآخر بتعبير كالآتى :

+ المنعكس الشرطى لپافلوف ، ترجمة أنرب Conditioned Reflexes, trans. by G.V.Anrep. مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٢٧ . ومحاضرات عن المنعكس الشرطى ترجمة جانت Lectures on Conditioned Reflexes trans by W.H. Gantt (شركة الناشرين الدولية : ١٩٢٨)

* أشرط فلان نفسه لأمر كذا . أى علمها له وأعدها — (راجع الصحاح ، مادة شرط)

« ونتيجة لهذا ، يجب أن يُعدَّ من بين الحقائق التى لا جدال فيها ؛ أن فيزيولوچيا أسمَى جزء من الجهاز العصبى للحيوانات العليا ؛ لا يمكنه أن يُدرس بنجاح إلا إذا نبذنا ادعاءات علم النفس الباطنة » .

وعند ما سأل زملاءه النفسيين أى نوع من التصورات يستخدمون فى تفسير أفعاله المنعكسة الشرطية ؛ اقترحوا الرغبة desire ، والتوقع expectation والخيبة disappointment وما شابهها ؛ ولكنه وجد أنه لا يستطيع أن يستخدم هذه للتنبؤ بما عسى أن يحدث ، ولإيجاد صور جديدة للتجربة . فلما أن استخدم تصوراته الفيزيولوچية : التعزيز أو التدعيم reinforcement ، والمنع أو الكف inhibition وما شابهها ؛ تقدم بكل خصوبة . وهكذا انتهى إلى أن مفتاح فهمنا للسلوك إنما يوجد برمته فى الفيزيولوچيا . والحق أنه لما تعرف على تجاريب ثورندايك فى تعلم الحيوان ، أكبَرَها على أنها ملائمة لمحور دراسته الخاص .

ومن الغريب أن نسجل – فيما يتعلق بمعارضته بوجه عام لعلم النفس – أن عمل پاڤلوف قد أحدث متعة لعلماء النفس أكثر مما أحدث للفيزيولوچيين . فقد كتب إليه واحد من خيرة أصدقائه من الفيزيولوچيين ؛ أنه يأمل لو استطاع أن يُسقط عملَ الفعل المنعكس ويعود أدراجه إلى الفيزيولوچيا الخالصة . وعلى العكس من ذلك استقبل علماء النفس المنعكسَ الشرطى بصدر رحب ؛ ووجد فيه السلوكيون خصوصاً مِنّة كبيرة .

تقدم وطسون الأخير :

وتدريجياً فحسب أشعر المنعكس الشرطى بنفسه السلوكيين فى أمريكا . ففى سنة ١٩١٤ ، يذكر وطسون مناهج پاڤلوف بِوَصفها مفيدةً للتجريب على الحيوان ، وإن كانت أدنى من المناهج الأخرى . وسرعان ما تأثر هو بالموضوعية التامة لهذا النوع من التجريب فى المنعكس الشرطى – على نحو ماقام به بختِرف وپاڤلوف على السواء – فاقترح أنها يجب أن تحُل محل طريقة التقرير اللفظى التى كانت فى الأحسن تقرُب بعض الشيء من الاستبطان . وفى سنة ١٩١٩ ، يجعل لها مركزاً محترماً فى قائمة مناهجه السيكولوچية التى تُستخدم سواء على الموضوعات البشرية والحيوانية ، كما يَستخدم أيضاً فكرة الفعل المنعكس فى مناقشاته للانفعالات ؛ مشيراً إلى أن استجابات الخوف التى نرى فى الظلام ، وفى ساحة القبور ليلا ، وفى البرق ،

وفى مواقف أخرى كثيرة محددة ؛ ربما تتبع صنف الإجابة الشرطية للانفعال*. وفى سنة ١٩٢٤ ، انتهى إلى أن يفترض أن المنعكس الشرطى بيده مفتاح كل تكون للعادة ؛ بما فى ذلك تكامل الحركات البسيطة فى أفعال مكتسبة مركبة : ولكنه ليس مقتنعاً تماماً بهذا الأمر* . وفى هذه الأثناء رأى سميث S. Smith (١٧) وجوترى E. Guthrie (١٨) — فى كتاب له ميول سلوكية مقررة + — أن يعتبرا كل تعلم وكأنه قائم على منعكس شرطى .

وسوف تذكر أن ثورندايك قد اعتقد من الضرورى — لكى يقول بتعلم المحاولة والخطأ — أن يصوغ قانون الأثر . فالاستجابات الموفقة لموقف ما — بمصادفتها رضا من الحيوان — كانت تَثبُت بالتدريج ، بينما غير الموفقة كان يطردها ألم الإخفاق . ومع أن الرضا والألم يمكن أن يُظنّ بهما أنهما حالات فيزيولوچية ، ومع أن وطسون نفسه قد اقترح كيف يمكن أن تُدرَك فى حدود سلوكية * ؛ فإن قانون الأثر قد بدا من تسميته أنه يفترض حالات واعية للشعور فى الحيوان ، وأكثر من هذا أنه يسمح لها أن تعمل كعوامل عِلّية فى السلوك . ولهذا فقد حاول السلوكيون أن يُبعِدوا قانون الأثر ، بِرَدِّه إلى قانون المِران exercise ، أو بوسيلة أخرى . وقد علق وطسون ثقته أولا على قوانين التواتر frequency والجِـــدَّة recency اللذين أخذ بهما طويلا : ويمكن اعتبارهما قوانين فرعية لقانون المِران . وقد بيَّن أن الحيوان — حين يتعلم أن يجرى متاهة maze — مضــــطر إلى أن يأخذ الطريق الصحيح مرة على الأقل فى كل محاولة ، قبل أن يستطيع الهروب . فى الوقت الذى يمكن أن يقفز فيه أىّ دَرب خاص مسدود blind alley فى عدة محاولات . وعلى هذا ؛ فإن الاستجابة الموفقة سوف تتطلب تدريجيًّا مبلغاً من التواتر أكثر مما تتطلب الاستجابات غير الموفقة . ولكى يجيب عن هذا — ذكَّر ثورندايك أن الاستجابة غير الموفقة كانت تُكرَّر غالباً عدة مرات خلال نفس المحاولة ، وربما كان لها بهذا الاعتبار مقدار من تواتر الوقوع لصالحها ؛ وإلى أن يأتى الوقت الذى تكون الموفقة قد ثبتت فيه تماماً . وهكذا كان هذا الدور فى النزال مؤدياً فيما يبدو إلى التعادل

---

* علم النفس من وجهة نظر السلوكى — ١٩١٩ ص ٢١٣

* السلوكية : ١٩٢٤ ص ٢٤ ، ٢٥ ، ١٦٣ ، ١٦٦ — ١٦٩

+ سميث وجوترى: علم النفس العام فى حدود السلوك S.Smith & E.R. Guthrie: General Psychology in Terms of Behavior أپلتون ١٩١١ .

* انظر قبلا ص (٥٨)

وأخيراً عندما وُضع المنعكس الشرطى موضع التقدير ، فإنه اتُّخِذ سلاحاً كافياً ضد قانون الأثر . إلا أنه يجب الاعتراف أن تعلم المحاولة والخطأ يقدم صعوبة مشكلة لما يتطلبه أكثر من مجرد الحل اللفظى ؛ ويُجرى عليه السيكولوچيون عامة كثيراً من العمل المتنوع ، فى معزل تماماً عن أن يُحمَل به على مزايا السلوكية .

وقد استهزئ بالسلوكية فى فجرها الأول بوصفها «سيكولوچيا تحرك العضلات» ؛ وكأنها شىء ليس أكثر أو أقل من قطعة من الفيزيولوچيا . وقد عارض وطسون بحماسة — وبنجاح فيما أعتقد — بأن قال إن السلوكى — وإن كان يعنيه السلوك الحركى — فإنه يأخذه على أنه نشاط الفرد بكليته ؛ بينما الفيزيولوچيا تعنى خصوصاً بمختلف الأعضاء المكونة للفرد . وليس شك فى أنه قد ظهر أن ميدان السلوكية يشبه أن يكون أكثر تحديداً من ميدان علم النفس ؛ ما دامت قد استبعدت الإحساس ، والإدراك ، والذاكرة ، والتفكير ، والانفعال ، والرغبة . وقد ساعد إدخال منهج التقرير اللفظى — مع العناية باستخدام الألفاظ — على الإحساس ، وربما فى الإدراك ، مع أنه يجب أن نقول إن السلوكيين قد أهملوا الموضوع الأخير البالغ الأهمية .

ويبدو أن الذاكرة قد سببت للسلوكيين متاعب أكثر مما ينبغى . فحتى فى سنة ١٩٢٤ نجد وطسون يبدأ الجدل حول الذاكرة قائلا إن « السلوكى لا يستعمل مطلقاً لفظة الذاكرة . إنه يعتقـــد أن ليس لها محل فى علم نفس موضوعى ». ثم فى مناقشـــته لحفظ المهارات والحقائق retention of skill and of facts ؛ يذهب إلى استخدام الكلمة فى حرية على سبيل الاقتباس ، وأخيراً يذهب إلى القول بأن « الذاكرة فى عُرف السلوكى هى أى عرض للتنظيم اليدوى ، واللفظى ، والحشوى ، موضوعةً فيما قبل وقت الاختبار . فالشعور بالألفة ، أو « بالحرارة والقرب warmth and intimacy » ؛ التى هى — فيما عرض چيمس — تعتمد اعتماداً وثيقاً على التذكر الحقيقى ، إنما تعنى مجرد إثارة الاستجابات الحشوية (الانفعالية) القديمة من جديد* .

والسلوك الباطن قد وفّر على التفكير والانفعال . فالتفكير قد أمكن أن يُدرَج فى السلوك ؛ بافتراض أنه يتركب من استجابات كلامية باطنة أو حديث صوتى .

* السلوكية — ١٩٢٤ ص ١٧٧ ، ١٩٠ ، ٢١٢ . والطبعة المنقحة ١٩٣٠ (الناشر W.W. Norton & Co) لا يبدو فيها تغيير كبير فى أنظار وطسون فى الذاكرة ، أو فى الأمور الأخرى التى اخترنا فيها الطبعة الأولى مرجعاً لحديثنا .

والانفعال ؛ بافتراض أنه يتركب من استجابات حشوية باطنة . وهكذا ، بينما أُدمِج الإحساس والتذكر فى السلوك وحده بالتحدث عنهما فى لغة السلوك ؛ فإن التفكير والانفعال قد تطلبا فروضاً محدودة هى قابلة للاعتراض التجريبى .

وافتراض وطسون فيما يتعلق بالتفكير هو — بوجه عام — أنه يجب أن يكون فعلا حركياً حِسّياً من نوع ما ، وأنه ظاهر ؛ ما دام من المُعتَرف به أن أفكار المرء لا تَكشِف عنها غالباً الحركاتُ المَرئية ولا الكلامُ المسموع . فالتفكير سلوك باطن يُستبَدل بفعل يدوى صريح (ظاهر) . لأنه يصبح من المتعين علينا أن نسمى الأشياء والأفعال . والطفل غالباً ما يعبرعما يفعل على نحو ما يفعله فعلا ، وخطوتان بعد هذه المرحلة تؤديان بالطفل إلى مرحلة يكون حديثُه فيها إلى نفسه ؛ أولا : غير مسموع ، وثانياً : يحدث عندما لا يكون متحركاً بالفعل ؛ بل فحسب — كما نقول — يفكر فى أن يفعل ذلك . فالحديث الصوتى يُستبَدل غالباً بالفعل الحقيقى فى عملية حل مسألة عملية ، مع الاقتصاد الناتج فى الوقت والمجهود . فبدلا من نقل البيانو بالفعل إلى موضع جديد من الغرفة ، لنرى كيف يبدو هناك ؛ نقول فى نفسنا : « هب أنى نقلت البيانو هناك » ؛ ثم نستمر : « ولكنه قد يطغى على النافذة . ذلك لا يمكن أن يكون » . لقد بدا من المحتمل لوطسون إذن ؛ أن السلوك الجزئى الباطن الذى استُبدل بفعل حركى حقيقى يتركب فى مُعظمِه من حركات كلامية .

وهذا الفَرْض يمكن أن يتضح أكثر إذا نحن عارضناه بفَرض أوسع قدَّمه هلنجورث* H. Hollingworth (١٩) فهو يُعرِّف الفكر بأنه : أن تستخدم فى حل المسألة بديلات أو رموز الأشياء الحقيقية والعمليات التى تدخل فى المسألة . والرمز غالباً ما يكون كلمة ، وأحياناً هو رمز رياضى ، وأحياناً أخرى هو تخطيط يصور الموقف ؛ وأحياناً ثالثة هو صورة عقلية ، ثم أحياناً أيضاً هو شىء حقيقى مأخوذ لتمثيل الشىء الذى نفكر فيه . فالقائد حين يفكر فى عملية ، أو حين يتتبع معركة فى تقدمها ؛ ربما قام بتفكيره على خريطة ذات أعلام من الدبابيس مثبتة فى الخريطة تشير إلى مختلف الكتائب فى مواضعها . وهو يستطيع أن يحرك كتل رجاله برموزه هذه على الخريطة ، فيحكم بذلك بالنتيجة المنتظرة . هو ربما تحدث إلى نفسه بالطبع أثناء دراسته هذه على

---

* H. L. Hollingworth : سيكولوجية التفكير ، أبلتون وشركاه ١٩٢٦ ص ص ٤ - ١١

الحريطة ، إلا أن من المقطوع به أن الحريطة والرموز الطبيعية الأخرى تلعب دوراً فى عملية تفكيره .

ومن هنا يمكن أن نضيف افتراض أن التفكير هو استبدال الأشياء والأفعال الرمزية بأخرى حقيقية ومهمة ؛ من غير أن نحصر أنفسنا فى الحركات الباطنة كرموزلنا . أومن الممكن أن نقول بافتراض أن التفكير يقوم فى الحركات الباطنة ، دون أن نحصرها فى حركات كلامية . يريد وطسون أن يشمل فى افتراضه اللغة الحركية إلى جانب اللغة الكلامية ، وأن يشمل فيه التحدث باليدين فى حالة الصم من الناس ، ولا مانع لديه جوهرياً من شمول حركات أخرى باطنة ؛ طالما هى تبدو محتملة ، ولكنه يعلق ثقته فى الأكثر على الحركات الباطنة لأعضاء الكلام .

ويَفجَؤُنا فى هذا الفرض أنه معقول ، مادام الكثير منا يمكن أن يشهد أننا نتحدث إلى أنفسنا قليلا أو كثيراً أثناء التفكير . نحن غالباً منتبهون لكلامنا الداخلى الخاص ؛ ومعقولية هذا الفرض تقوم فى هذه الملاحظة العامة ، التى هى بكل وضوح استبطانية. وقد بيّنت مارجريت فلوى واشبرن(٢٠) وهى من كبار المؤيدين للنظرية الحركية العامة للتفكير وإن لم تكن هى نفسها سلوكية بحال — بينت قبح إقامة فرض يُراد أن يكون دعامة للسلوكية على أساس من الاستبطان*فنحن غالباً ما نرى بالفعل حركات الشفتين ونسمع همس الكلمات فى شخص آخر يفكر ، ولكن خبرتنا الخاصة بالحديث الداخلى هى ما يجعل الفرض من اليسير أن نأخذ به . فافتراض أن التفكير حديث صامت لما كان متمشياً — على هذا النحو — مع خبرة الكثيرين منا ... ليس جديداً فى شىء ، ولكنه تقدّم مرة أخرى فى غير ما صلة بالسلوكية . وما تريده السلوكية هو أن هذا الحديث الداخلى يجب أن يتركب من حركات فعلية — ولو صغيرة — لأعضاء الكلام . وهنا يحق نتجاوز الاستبطان . ويبدو الكلام الداخلى أن يكون مشعوراً به — لدى بعض الأفراد — فى الفم والحلق وأعضاء التنفس كما لو كانت الحركات الفعلية تحدث هناك ؛ بينما هى تبدو لآخرين سمعية أكثر منها حركية. أما الاستبطان فيمكن بالتأكيد ألا يُعتمد عليه فى إخبارنا عما إذا كان الكلام الداخلى يشمل أو لا يشمل دائماً حركات كلامية . ووطسون — مع أنه قد جعل فرضه هذا من اقتراح الاستبطان — لم يشأ أن يختبره بهذه الوسيلة ، وإنما ذهب إلى تطبيق أجهزة تسجيل دقيقة على أعضاء الكلام ؛ على أمل أن

* م . ف . واشبرن : مجلة علم النفس ١٩٢٢ — ج ٢٩ ص ٨٩ — ١١٢

يُؤمِّن الدليلَ الموضوعى للحركات الكلامية أثناء التفكير . وكانت الحنجرة larynx عنده أكثر الأعضاء احتمالا لأن تسجل ، وربما جاء بعدها اللسان .

وقد حاول كثير من الباحثين أن يقيموا الدليل على هذا الفرض أو ضده ؛ بتسجيل حركات الحنجرة واللسان أثناء التفكير . هم يجدون الحركات قسما من الزمن ، وليست كل الزمن . وحتّى فى الكلام الداخلى المحدد — عندما يستعيد الشخص لنفسه جملة — فإن حركات أعضاء الكلام هذه خفيفة وغير منتظمة ، ولا تكشف عن طابع يشبه طابع الكلام الصوتى لنفس الجملة+ . فالنتائج حتّى اليوم هى هكذا سلبية ، ولكن الأجهزة المستعملة ما تزال غير متقنة تماماً ، وربما فشلت فى تسجيل الانقباضات العضلية الدقيقة ؛ حتّى لا يمكن أن يقال إن الفرض قد نُقِض . ومن الممكن فى الواقع أن الحنجرة ليست أحسن موضع يُبحَث فيه عن حركات الكلام الباطنة . فالحنجرة — التى تُحدِث « الصوت » — ساكتة فى الكلام اللاصوتى كالهمس مثلاً whispering . والآن فإذا كان الهمس درجة وسطى بين الكلام المرتفع والكلام الصامت ؛ فلماذا يجب أن نتوقع من الحنجرة — وهى لا تعمل أثناء الهمس — أن تقفز إلى الفعل مرة أخرى فى الكلام الصامت؟ فأشد احتمالا أن نبحث عن موضع الحركات فى الحديث الصامت فى التنفس respiration ؛ ويوجد بالفعل دليل قوى فى إطالة الزفير وعدم انتظامه أثناء الكلام الداخلى النشيط * وهذا الطريق لم يُنتَهج بدرجة كافية حتّى الآن.

على أن السلوكية لن تقوم أو تسقط بمصير هذا الفرض الواحد . فحتّى لو وُجدت دائماً الحركاتُ الكلامية ؛ فستبقى مسألة ماذا يكفل حدوثها ، وهل فعل المخ ؛ الذى كفل حدوثها ؛ لم يكن أدنى إلى صميم العملية منه إلى الحركات الناتجة . ومن ناحية أخرى ، إذا كان ينبغى أن يبرهن على أن الحركات الكلامية لا تحدث يقيناً فى كل تفكير ؛ فستبقى حركات وامتدادات عضلية أخرى يمكن أن تقوم عملية الحركة الحسية التى تريدها السلوكية لكل فعل باطنى .

وفى هذا الصدد أحب أيضاً أن أقول لك — فى كلمات قليلة — بعض الأسباب

+ تورسن A.m. Thorson : علاقة حركات اللسان بالكلام الداخلى بمجلة علم النفس التجريبى ١٩٢٥ مجلد ٨ ص ص ١ / ٣٢ The Relation of Tongue Movements to Internal Speech.

* مورجن J, J. B.Morgan فى مقاله The Overcoming of Distraction and other Resistances سجلات علم النفس رقم ٣٥/١٩١٦

التى من أجلها لا أَقبلُ شخصياً المعادلة : التفكير = الكلام . أولها أنى غالباً ما أجد صعوبة فى العثور على الكلمة اللازمة للتعبير عن معنى موجود فى « عقلى » حيث أجدنى متحيراً — غيرَ قليلِ مرة — حتى فى كلمة عادية . وسَببٌ آخر أنك لاتستطيع بالتأكيد أن تُدير المعادلة وتقول : الكلام = التفكير ؛ إذ تستطيع أن تُلقى من محفوظاتك قطعة معروفة فى غير شىء من المعنى ؛ وبالتفكير فى شىء آخر مختلف تماماً . وأخيراً فمن المؤكد أن التفكير يبدو فى درجة من القرابة إلى الإبصار تشبه قرابته من الحركة اليدوية manipulating . هو يبدو أنه يقوم فى رؤية النقطة ، وفى ملاحظة العلاقات . وعادات وطسون الكلامية speech habits المُستبدَلة بالفعل الحركى الحقيقى تُخفِق فى إظهار كيف أن التفكير يذهب بك إلى ما وراء عاداتك السابقة . فلماذا يجب أن يؤدّى ارتباطُ الكلمات : (هب أننى نقلت البيانو هناك) إلى الاستمرار : (ولكنه قد يطغى على النافذة) ؛ كما لو كانت المسألة عادة كلام ؟ فشىء آخر أكثر من الكلمات يجب أن يكون له بالتحقيق وجود فى الميدان ، وهذا الشىء يقوم بصورة ما فى رؤية النقطة .

واعتراضى الرئيسى على السلوكية — كما يمكن أن ترى — هو أنها تَتحرَّك بخفة مع كثير من التشبث بالرؤية أو « الإبصار» seeing . وحتى لو سلمنا — ابتغاء المهادنة — أن كل إبصار يؤدى إلى استجابات حركية باطنة ، أليس الإبصار أهم جزء فى استجابة الحركة الحسية كتمهيد لفعل ظاهر عملى ؟ لنذكرُ الشخص الذى يقرر فى تجربة حسية :(أنا أرى لوناً أصفر) ؛ أليس أهمّ جزء فى استجابته كلها ؛ « أهمَّها لنفسه حقيقةُ كونه يرى اللون الأصفر ؟ قد يكونَ زلّ لسانُه فقال أصفر حيث رأى الأخضر ، ثم يستمر مستخدماً ملاحظته وَفقاً لما رأى لا وفقاً لما قال به . وتوجد مئات من الأشكال تحدث فيها هذه الصعوبة .

آراء وطسون فى الانفعال والغريزة :

ولنَعُد إلى نظرية الانفعال . وما يفترض وطسون هو أن الانفعال بوجه عام يقوم « فى تغيرات عميقة لآلية الجسم فى مجموعها ، ولكن خصوصاً للجهازين الحَشوَى والغُدَدى visceral and glandular systems » ؛ بينما كلُّ انفعال على حدة هو نموذج جزئى لهذه التغيرات * . « وفى غير تعارض مع حقيقة أنه فى كل استجابة

* « علم النفس كما يراه السلوكى » ١٩١٩ ص ١٩٥

انفعالية توجد عوامل ظاهرة مثل حركة العينين والذراعين والقدمين والجذع ؛ فإن العاملَين الحشوى والغددى هما الغالبان »+ . وهذا الفرض يتبع على طول الخط نظرية چيمس لانجى James-Lange theory (٢١) ، والحق أن وطسون يأخذ عن لانجى باستحسان بينما يَصبُّ اللومَ على چيمس فى اعتباره مركب الإحساسات ناشئاً عن التغيرات الجسمية ، وكأنها مهمة من الناحية السيكولوچية ؛ ولاعتماده جزئياً على الحجة الاستبطانية فى نظريته . ولكى نجعل من چيمس وطسوناً "آخر" ؛ فلنَمحُ الإحساسات أو الشعور من الانفعال الكلى ، تاركين التغيرات الجسمية التى حاول چيمس كثيراً أن يجعل لها السيطرة .

ومع أنه من المتعذر أن نَدخُل فى الأحشاء لنفحص هذا الفرض مباشرة ، فإنه توجد بعض قرائن خارجية يمكن دراستها كالنبض وضغط الدم . وقد كان هناك نشاط كبير فى العشر السنوات الماضية لدراسة كل أنواع التعبير الانفعالى من دورية (دموية) ، وتنفسية ، ووجهية ، وصوتية ؛ ولكن من بين النتائج المؤيسة تعذُّر النماذج الواضحة للاستجابة أو التعبير الانفعالى المتصلة بالمواقف المفزعة أو الملائمة التى وُضعَ الشخصُ فيها ، أو بتقريره اللفظى عن الانفعال الذى* عاناه. فمن المحتمل إذن ألا يمكن تمييز انفعالين وكأنهما مجرد نموذجين حشويّين ؛ من غير أن نقيم وزناً للسلوك غير الحشوى ، بل للمواقف التى يظهران فيها . ولعلنا نذكر أن كنن Cannon + قد عثر على نموذج حشوى متميز قوامه إسراع دقات القلب ، وتقبُّض الشرايين ، وضغط الدم المرتفع ، وتوقف حركة المعدة ؛ مما يقوم على فعل القسم السمبتاوى من الجهاز العصبى المُستَقِلّ وعلى إفرازات الغـــدد الأدرينالية adrenal glands ؛ ولكن هذا النموذج للعمليات الداخلية قد ظهر في الخوف والغضب وفى الحالات المثيرة التى لم تكن خوفاً أو غضباً . والفرق بين الخوف والغضب يوجد فيما يبدو خارج المحيط الحشوى . ربما وُجد فى المواقف المختلفة التى تثير الانفعالَين ، وفى الاستجابات الظاهرة المختلفة ، أو فى تركيب الاستجابات الظاهرة المختلفة والتهيؤ لها .

وغير هذا الفَرَض الخاص لإدخال الانفعال فى المذهب السلوكى ؛ فإن وَطسون

+ « السلوكية » ١٩٢٤ ص ١٢٠ .

* لانديس C. Landis — مجلة علم النفس المقارن ١٩٢٤ . مجلد ٤ ص ص ٤٤٧ — ٥٠١

+ كنن W. B. Cannon التغيرات الجسمية فى الألم والجوع والخوف والغضب Badily changes inhunger الطبعة الثانية — أبلتون ١٩٢٩

قد قام بمجهودات هامة فى دراسة الانفعالات فى الأطفال. فهو يرى ثلاثة نماذج متميزة فى السلوك الانفعالى فى كل طفل صغير ؛ يسميها الخوف ، والغضب ، والحب ؛ ويصفها – بطبيعة الحال – فى عبارات الموقف والاستجابة الظاهرة أكثر منها فى حدود السلوك الحشوى الباطن . ولما كان لا يجد غيرها فى حديثى الولادة من الأطفال ؛ فإنه يعتبر هذه الثلاثة وكأنها النماذج الانفعالية الأصيلة ، وما عداها من العادات التى تتكون كعادات صُنعية manual ؛ فهى بعملية الاكتساب . فكانت المنبهات الطبيعية أو الأصلية للخوف هى الأصوات المرتفعة أو فقد المعونة (الانزلاق أو الوقوع) ؛ وللغضب تقييد حرية الطفل فى الحركة ؛ وللحب الربت والمداعبة . وقد وجد – بالتجربة – أن من الممكن أن نشرط طفلاً من أحد عشر شهراً باستخدام صوت قضيب من الصلب يدق على مقربة من الطفل خلفه فى اللحظة التى يطالعه فيها فأر أبيض ؛ كانت استجابته له إيجابية منتظمة حتى ذلك الوقت . فالصوت المرتفع يؤذن ببدء المنعكس ، وأحياناً البكاء الخفيف وعلامات الخوف أو القلق الأخرى ؛ وبتكرار الصوت المرتفع كلما طالع الطفل الفأر ، كان المجرب سرعان ما يحكم باستجابة خوف شرطية للحيوان . وفوق هذا ، فإن هذا الخوف المشروط ظل قائماً . وبوجه عام ، تبين أن من الصعب إزالة المخاوف المشروطة بعد أن تتكون . ومن المحتمل أن استجابات الغضب والحب المشروطة يمكن أن تنشأ بنفس الطريقة . والتجربة بهذا تظهر كيف أن كثيراً من المخاوف والكراهات والعواطف يمكن أن تنشأ فى الأطفال بطريقة لا عقلية* .

فلو أن معرفتك بالسلوكية كانت مأخوذة كلها عن كتابات وطسون الأخيرة ، فإنك سوف تتهمنى بالتوانى – حتى هذه اللحظة الأخيرة – عن ذكر ما يبدو لك سلوكياً على جانب كبير من التميز ؛ وأعنى به : رفضه للغريزة ولكل آثار العقل الوراثية ، وتأكيده أن كل طفل سوى – فى بيئة ومران صالحين – يمكن أن يكون منه أى نوع من الأخصائى شئنا : طبيب ، محامى ، فنان ، تاجر كبير ، نعم ؛ وأيضاً متسول أو لص ؛ بغض النظر عن مواهبه واتجاهاته، وميوله وكفايته ، وحرفة أسلافه وعنصرهم+ . وليس هذا الانتصار المتطرف للبيئة – extreme environ mentalism مرتبطاً من الناحية المنطقية بالمذهب السلوكى ، ولا صلة له مطلقاً

* السلوكية : ١٩٢٤ – ص ١٢٠
+ السلوكية : ١٩٢٤ ص ٨٢

بتفضيل علم النفس الموضوعى أو نبذ الاستبطان والشعور . فحينما كتب وطسون — فى سنة ١٩١٤ — عن سلوك الحيوان خصوصاً ؛ كان عليه أن يقول كثيراً عن الغريزة . وفى سنة ١٩١٩ — وهو ينقد قائمة الغرائز الإنسانية كما عرضها چيمس وثورندايك — ما يزال يعرّف عدداً من الغرائز الإنسانية ، ويؤكد الأهمية الجوهرية للنشاط الغريزى كأساس للاكتساب . فهل أدرك وطسون تدريجياً فقط ما معنى السلوكية ؟ أم هل لدينا هنا مجرد تقدم تفكيره فى موضوع بعينه ؟ إن السلوكى لا يستطيع أن يرتبط بقية حياته بمهمة التوسع المستمر بالمعانى العقلية للسلوكية . ومن أجل هذا أقول : من الممكن أن تكون سلوكياً وترفض هذه الفكرة الجزئية لوطسون ، أو من الممكن أن تقبلها ولو لم تكن سلوكياً ، فهى ليست مسألة بين مدرسة وأخرى ؛ إنما هى مسألة حقيقة أو برهان . وما زال البرهان يأتى من الباحثين الذين يعملون ؛ لا كسلوكيين أو لاسلوكيين ؛ بل كطلاب لهذه المسائل المهمة المعقدة . وستظهر مشكلة الغريزة مرة أخرى فى عرضنا لمدرسة القصد purposivist School . ومسألة الأهمية المقارنة للوراثة والبيئة فى إحداث فروق بين الناس هى مسألة لا تتلاءم خصوصاً مع فكرتنا فى عرض مدارس علم النفس .

فمن ناحية ، موقف وطسون المناصر بقوة للبيئة هو موقف منطقى لمن يقول بالسلوكية . ويعترف وطسون أن ما انتهى إليه يتجاوز حد البرهان ؛ ولكنه يعتقد « من ناحية أخرى » أن من الحق حينئذ أن يتجاوز حد البرهان فى هذا الجانب من المسألة ؛ لا لشىء إلا لأن الذين يقولون بالرأى المخالف أو الوراثى قد فعلوا نفس الشىء « آلافاً كثيرة من السنوات » . وهذه الرغبة فى انتزاع الناس من تسليمهم بارتياح إلى الأفكار التقليدية ؛ ربما كانت أهم ما يميز سلوكية وطسون أكثر من أية فكرة خاصة له عن الاكتساب أو التفكير أو الانفعال أو الغريزة .

بعض مشاهير السلوكية الآخرين :

فى اعتبارنا للسلوكية فى أمريكا لم نعرض حتى الآن إلا إلى وطسون ؛ بوصفه سلوكياً بالتحديد . وقليل آخرون يجب أن نذكرهم — ولو لمجرد تصحيح الفكرة الخاطئة : أن السلوكية هى طائفة من شخص واحد one-man party .

فى سنة ١٩١١ كتب ماكس ماير Max Meyer [٢٣] ؛ فى جامعة مسورى ، عن

(القوانين الأساسية للسلوك الإنسانى*) ؛ فكان قريباً من السلوكية ، وهو يُعدُّ الآن سلوكياً . ولد ماير فى ١٨٧٣ ، وكان تلميذاً لعالِم النفس الألمانى الكبير كارل اشتمف Karl Stumpf (٢٤) فى برلين ؛ الذى كان — كما قلنا من قبل. فى ميلر — أحد صغار المعاصرين لڤونت الذين أنشئوا فى استقلال عنه معاملَ لعلم النفس فى الأيام الأولى . وتخصص اشتمف فى سيكولوچيا السمع وفى الموسيقى ، فكان ماير مُتمِّماً خصباً لهذا اللون من الدراسة ؛ الذى لايمكن بحال ما أن يُعد سلوكياً . ولكن ماير أصبح يعنى كثيراً بآلية الأذن وبالمخ ، وانتهى إلى الظن بأن علم النفس الحقيقى الأوحد كعلم يجب أن يقوم على معرفة قوانين الفعل العصبى . وما يفعله هو — فى كتاب سنة ١٩١١ — هو أن يضع قوانين وأشكالا من الفعل العصبى يمكن أن تفسر حقائق الحياة الشعورية والسلوك :

« فى مجرى عشرات السنوات القليلة الماضية ؛ ساد الاقتناع بأن علماً ذاتياً ، علماً يقوم على الاستبطان — من أجل قدرته المحدودة على التعميم — يستحق بصعوبة اسمَ العلم . ولكى يعالج هذا النقصَ الذى كُشِف ؛ أُدخِلت فى العلوم العقلية مناهجُ موضوعية كتلك التى تُستخدم فى العلوم الطبيعية لتكون مكملة للمنهج الذاتى فى التأمل الباطنى ...

وليست دراسة شعور الفرد « أوتركيب المخ » — بل دراسة القوانين العصبية للسلوك — هى التى ستهيئ لنا أن نفهم دلالة الفعل الإنسانى للحياة الإنسانية فى الفرد وفى الجماعة . وإنما توجد القيمةالعلمية لعلم النفس الباطنى فى مجرد كونه يُعيننا على كشف قوانين الوظيفة العصبية » .

فكأن ماير إذن يعتقد أن الاستبطان يمكن أن تكون له فائدة لعلم النفس ؛ على أن تكون الاستعانة به لِيُلقى ضوءاً على الفعل ، لا ليصف الخبرة الشخصية كما هى .

وقد أحب أن أوجه انتباهك خصوصاً إلى عنوان كتاب آخر لماير : علم نفس الآخر The Psychology of the Other One+ — الذى نُشر فى سنة ١٩٢١ ، واتُّخِذ على أنه مَتن تمهيدى introductory text-book . ويبدو العنوان

---

* ماكس ماير Max Meyer : القوانين الأساسية للسلوك الأنسانى بادجر (R. G. Badger) ١٩١١ — ص ص ٤ — ٢٣٩

+ نشره لوكاس بروس Lucas Bros

لأول وهلة غريباً لكتاب عام فى علم النفس ، وربما اعتقدتَ أنه يعرض بالدرس لموضوع خاص ؛ ولكن العنوان يُجسِّم وجهةَ نظر المؤلف : فالموضوع الخاص بالدراسة فى علم النفس هو « الشخص الآخر » ؛ وهو الفرد الذى ينبغى ملاحظته . فالمؤلف بهذا يدفع بالطالب بعيداً عن هذا التصور التقليدى لعلم النفس أنه أولا وقبل كل شىء دراسة الشخصِ نفسه the study of oneself ؛ بل هو ينبغى أن يكون أولا دراسةَ الآخرين . وهناك عدة أسباب من أجلها كانت هذه وجهة نظر طيبة : فأنت فى شخصك مَعْنىٌّ بأفعالك الخاصة ، ومن المحتمل أن تنحرف فى ملاحظتك . وأيضاً ؛ فإن دراسة الآخرين من الناس تحمل على اصطناع المناهج الموضوعية (الخارجية) .

فدراسة « الشخص الآخر » فى الواقع لا تستبعد التأمل الباطنى ؛ لأنك ربما طلبتَ إلى هذا الشخص الآخر أن يكون موضوع تجربتك ، وجعلته يستبطن لك . وبيلر — الذى ذكرنا من قبل أنه أحد جماعة كيلپه الذين درسوا عمليات الفكر بالمناهج الباطنية — قد قرر أنها هنا ملائمة؛ فقال إن الباحث فى تجربته عن الفكر يجب أن يَعرِف أن عليه أن يدرُس عمليات تفكير الآخرين أكثر من دراسة عملياته هو . فالمجرب ينظم الموقف ، ويهيء المنبهات ، ويحدد لموضوع التجربة مهمته ؛ ثم بعد هذا — كما يقرر بيلر — يَكفُّ المجرب عن أن يرى بعينيه هو ، ويبدأ يرى بعينَى موضوعه . والشخص موضوع التجربة يقوم بالملاحظة ويسجلها ، ولا شأن له بأكثر من هذا . لا شأن له بافتراض أن المجرب يختبر ، ولا فى أى الوجوه تستخدم ملاحظاته ؛ إنما هو يقدِّم فقط الحقائقَ الغُفل raw data التى يعمل عليها المجرب . فإذا فحص المجرب افتراضه بملاحظات عن نفسه ؛ فإن ملاحظته ربما تأثرت بالفكرة السابقة. إنما هو يجعل موضوعه — ما استطاع — فى جهل بما ترمى إليه التجربة ؛ حتى يضمن معلومات نزيهة . وذلك فى الواقع هو أمثل طريق للعمل فى المعمل بوساطة منهج الاستبطان ، وبمنهج التأثير ، وبالمناهج الخارجية كذلك . فهنا — كما فى أى موضع آخر — كان عمل الباحثين على تقدم التعريف النظرى .

فبالنظرية والحد كان ثورياً بعضَ الشىء أن يُفهَم علمُ النفس على أنه دراسة الآخر . فلدينا العالِم النفسى « م » يقول إن مهمته هى أن يدرس الخبرة . هذا حسن ، وطبيعى أنه يفكر فى الخبرة كما هى لديه ، وكما هى متركزة فى نفسه . ولكن

لنفرض أن عالِماً بيولوجيًّا — قد تعود دراسة الكائنات العضوية — انقلب عالم نفس ، وارتد عن وجهة نظره البيولوچية ، وأنه يضع نفسه لدراسة الكائن « ن » ؛ كائناً آخر غير نفسه . فهو يدرس أفعال « ن » هذا ، وربما أراد أن يدرس خبراته . فإذا استطاع أن يتصل مع « ن » عن طريق اللغة ؛ فقد يجعله يقرر خبراته ، وقد يقبلها على أنها تقارير صادقة لخبرات « ن » . وبهذا يصبح الموقف السيكولوچى على حقيقته : لا أن « م » يواجهه الكون ، بل أن « م » يدرس شخصاً هو « ن » هو الذى يواجهه الكون . ووجهة النظر هذه قد أخذ بها السلوكى بالضرورة ، وما زال يأخذ بها أيضاً أصحاب التأمل الباطنى .

ومن بين تلاميذ ماير ؛ ڤايس A.P. Weiss [٢٥] ، بجامعة ولاية أوهايو ، (ولد سنة ١٨٧٩) . وهو مجرب نشيط ، ودارس لسيكولوچيا الطفل يَجِب أيضاً أن يُذكر بين أقطاب السلوكيين . وكتابه « أساس نظرى للسلوك الإنسانى » ✡ (١٩٢٥) ؛ يحاول أن يبين الطريق الذى يستطيع به علم النفس أن يأخذ مكانه بين العلوم الطبيعية . وهو يَحُثّ علماء النفس أن يتخلوا عن بعض ادعاءاتٍ تُبعِدهم عن حظيرة العلم . وأخصّ ادعاء يذكره : هو أن علم النفس يتوصل — عن طريق الاستبطان — إلى طائفة من الحقائق أو الكائنات ليست مادية ؛ ولا يمكن بالتالى أن يتعرض لها العالم الفيزيقى والكميائى والبيولوچى . ويقترح أن علم النفس يجب أن يُسلِّم بأنه لا توجد كائنات عليا فوق ما تُعرِّفنا به الفيزيقا . قد لا تكون الفيزيقا فى الوقت الحاضر بلغت تحليلَها النهائى ، ولكن — بالقدر الذى وصلت إليه — يبدو أن الإلكترون والبروتون هما الموجودات الأساسية . وعلم النفس يجب أن يعترف — كما يقول ڤايس — بالإلكترون والبروتون بوصفهما كائناته الأساسية ؛ من غير أن يدعي أن له طائفة أخرى من الكائنات خاصة به . حقًّا إنك فى المعمل السيكولوچى أو المرضَى clinic لا تستخدم مصطلحات الفيزيقيين ، ولا تقرب كثيراً من الإلكترونات والبروتونات ؛ ولكن ذلك لا يفعله أيضاً البيولوچى ، وحتى الكميائى — الذى يعنى " غالباً " بالذرات وكأنها غاياته النهائية ultimates . على أننا نستطيع جميعاً أن نخلع قبعاتنا للألكترونات والبروتونات ، ونعترف بصفة نهائية أن كل العمليات الكميائية والبيولوجية ؛ بما فيها الذى نعرفه عادة باسم العمليات العقلية — ولم يكن فايس ليستعمل قطعاً كلمة « عقلية » ؛ ولكنا سنفعل ذلك فى غفلة منه لكى

✡ Theoretical Basis of Behavior Hunman — نشره آدمز R.G. Adams

نُوحّد فقط بين العمليات التى نتحدث عنها — يمكن أن نعترف أن كل هذه العمليات تقوم بصفة نهائية فى تحرك الإلكترونات والبروتونات ، وفوق هذا أن هذه هى الفيزيقا فى صورتها النهائية ؛ وحينئذ فإن علم النفس — ونحن متفقون هنا مع ڤايس — لن يدّعى أن له عالمًا خاصاً به يدرسه ، وإنما يأخذ بوجهة النظر القائلة إن ظواهره ظواهر طبيعية قابلة لنفس هذا التحليل النهائى كغيرها من الظواهر .

ويتقدم ڤايس ليبيّن ما تستطيع أن تفعلَ بعلم النفس من غير أن تفترض أية حقائق منفصلة عن الحقائق الفيزيقية . وهنا يجد أن من بين الحقائق البَيِّنة جداً فى الكائن الإنسانى أنه يوجد فى محيط اجتماعى . فسلوك فرد ما يفعل فعلَ المنبه فى إثارة سلوك فرد آخر . وارتقاء الفرد يُهيمن عليه إلى حد كبير الموقف الاجتماعى الذى يرتقى فيه . وإذن فالسلوك الإنسانى سلوك اجتماعى . ومع هذا فقد يكون من التحيّز فى تأكيد هذه الحقيقة أن نستبعد حقيقة أخرى ؛ هى أن كل سلوك هو نشاط بيولوچى . فالإنسان حين يصبح اجتماعياً ؛ لن يصبح أقل من ذلك بيولوچية . وكل عملياته بيولوچية كما لو كان حيواناً منعزلا . ولكى يُنصِف كلا الجانبين يضع ڤايس كلمة بيواجتماعى biosocial ليصف بها السلوك الإنسانى . فميدان علم النفس هو العمليات البيواجتماعية ، ووجهة نظر علم النفس هى البيواجتماع . ويبدو أنها كلمة صالحة لأن يستخدمها علم النفس ، مشيرا — كماتفعل هى — إلى الصلات الوثيقة التى يجب أن يجعلها عالِمُ النفس بين العلوم البيولوچية من ناحية ؛ والعلوم الاجتماعية من ناحية أخرى . وأحياناً ما ينشأ الجدل حول وجوب إدراج علم النفس مع العلوم البيولوچية أوالعلوم الاجتماعية . إنه فى الواقع بيواجتماعى ؛ وموضعه الوسط بين العلوم التى تدرُس الإنسان والكائنات الحية الأخرى إنما يُمكّن له أن يحتلّ مركزاً مهماً فى العلم ككل — مركزاً أهم بكثير مما يمكن أن يصل إليه بادعائه أن يكون له عالم منفصل خاص به يَدرُسه .

على أنه بينما تختلف سلوكية ڤايس عن سلوكية وطسون بعض الشىء — فيما تتشبث به كل منهما — فليس ثمة تعارض حقيقى . ومن الناحية الأخرى ، ليس ثمة تعارض أيضاً بين تصور ڤايس لعلم النفس وبين استخدام المنهج الباطنى فى المعمل . لأن الموضوع فى تجربة لكى يصف الصورة البَعدية after-image ؛ والمجرب لكى يقبل هذا الوصف على أنه يبين أن الموضوع قد رأى بحق ما يصف رؤيته ؛ ليس يلزمهما فى شىء أن نكون نختبر عالماً مختلفاً — فى معمل علم النفس

– عن العالَم الذى يلاحظه الفيزيولوجى والبيولوجى . فالصورة البَعدية عملية بيولوجية تحدث فى جهاز إبصار الشخص الموضوع . والشخص وحده يستطيع أن يلاحظها ؛ لأنها عملية تحدث فقط نتيجة تأثر ملائم بالضوء . وأنت – كمجرب يراقب هذا الشخص – لا تستطيع أن ترى هذه الصورة البعدية لمجرد أن جهاز إبصارك الخاص لا يستقبل هذا المؤثر اللازم . ولو أنا استطعنا أن نجد للصورة البعدية مكاناً فى عالَم العمليات الطبيعية العام ؛ فلن يكون ثمة ما يمنع من أن نجد مكاناً لصورة الذاكرة أيضاً memory-image ، ولضَرَس الأسنان toothache ؛ أو أى شعور بالابتهاج أو الابتئاس . فما يبدو أنه قد حدث لأصحاب السلوكية ، هو أنهم بعد أن تدخلوا فى فلسفة أحدثت تشككاً متيافيزيقياً فى هذه الأمور ؛ قد أخفقوا فى أن يفكروا فى المسألة على أساس من علم طبيعى شامل ، وإنما قفزوا فى رد فعل قوى متطرف . وإذ علموا أن الاستبطان يقال إنه يكشف عن عالَم آخر ؛ أجابوا بقولهم « سحقاً للاستبطان ! away with introspection » . وذلك رد فعل لفلسفة معينة لا لعمل حقيقى فى المعمل استُخدم فيه منهج الاستبطان .

وسلوكى بارز آخر ؛ هو والتر هنتر Walter S. Hunter(٢٦) بجامعة كلارك . (ولد فى سنة ١٨٨٩) ، وكان تلميذاً لأنجل J. R. Angell ، وأيضاً لهارفى كار Harvey A. Carr(٢٧) بجامعة شيكاغو . (وكار – الذى ولد فى سنة ١٨٧٣ – وإن استحق أن يُشاد بذكره بين علماء نفس الحيوان ، لا يمكن أن يدرَج فى قائمة السلوكيين . هوَ قَد كان يدرِّس السلوك ، ولكنه لم يكن سلوكياً ؛ ويوجد من هذا النوع كثير) . وقد صَكَّ هنتر اسما جديداً لعلم السلوك الإنسانى* . فهو يسميه الأنثروپونوميا anthroponomy ؛ ومعناه علم الأنسان . فكلمة « سيكولوجيا » – – كما يَعتقد – لا يمكن أن تستخدم بالتحديد لدراسة السلوك ؛ لأنها بالاشتقاق تعنى دراسة ما هو نفسى the psychic . وقد يُرَدُّ بأنّ الكلمات يمكن أن تتغير معانيها بتغير الأزمان – وأن الفيزيقا والفيزيولوجيا يجب أن يكونا بالاشتقاق علماً واحداً – وأنه إذا رجعنا بعيداً إلى الأصل اللغوى لكلمة سيكولوجيا ؛ فسنجد معناها اللفظى « علم النفَس science of breathing » . فما يريده هنتر حقيقة

---

* راجع هذه المقالة فى مجموعات : سكيولوجيات ١٩٢٥ (مطبعة جامعة كلارك) وسيكولوجيات ١٩٣٠ (مطبعة جامعة كلارك) وكتاب : السلوك الإنسانى (مطبعة جامعة شيكاغو ١٩٢٨)

هو لا شك اسم واحد لـ « علم السلوك » ؛ على أن كثيراً منا لن يُقرّوا تخَلّيه عن اسم « سيكولوچيا » للوجوديين وكأنه خاص بهم . وسأقتبس شيئاً مما يقوله هنتر كتنبيه لفكرك ، وفى غير محاولة لمناقشة المسائل المقترحة :

« علم النفس — إن دلت الكلمة على شيء — معناه دراسة العوامل النفسية ، أو العمليات ، أو الحالات . وبالقدر الذى يُحَدّ به علمُ النفس على أنه علم الخبرة المباشرة ؛ فإن هذه الخبرة المباشرة يُنظَر إليها وكأنها شيء عقلى ...

«ولو أننا سألنا سيكولوچياً معاصراً ماذا يعنى بكلمة شعور أو خبرة ؛ فإنه سيجيب بذكر أشياء كالحلو ، والأحمر ... والورد .. والألحان ... وأحب أن أقول إن الشعور أو الخبرة عند العالِم السيكولوچى هى مجرد اسم يُطبقه على ما يسميه الناس بيئة الإنسان environment of man .

«ويحاول عالِم النفس أن يفهم الطبيعة الإنسانية بتسمية هذه البيئات الداخلية والخارجية عقلية mental ، ثم بالتقدم لدراسة وتحليل هذه البيئات ... ومنهج علم النفس لدراسة الإنسان هو بهذا منهج غير مباشر ؛ بمعنى أن النتائج المتعلقة بطبيعة الإنسان إنما تُستخلَص من دراسة ظاهرية للبيئات الإنسانية . ومثل هذا المنهج كان من الناحية النظرية جديراً بالمحاكمة منذ خمسين عاماً . وفشله كمنهج لتحليل الطبيعة الإنسانية قد أدى إلى ظهور الأنثروپونوميا (علم الإنسان السلوكى).

والمنهج العام للأنثروپونوميا هو منهج الملاحظة المباشرة والتجربة ؛ متخذاً من السلوك العضوى الإنسانى مادة لموضوعه ... ووجوه السلوك الإنسانى — التى هى بوجه أخصّ ما يعنى به علم الإنسان — هى السلوك اللغوى ، والتعلم (الاكتساب) ، وتبادل التنبيه والاستجابة ، والتنبؤ بالسلوك على أساس أفعال نموذجية .. ويُوجه علم الإنسان همه إلى وجوه أخرى كثيرة من السلوك الإنسانى . فهو يدرس النواحى التكوينية من السلوك الإنسانى عن طريق سلوك الحيوان والطفل . وهو يُعنَى فى جِدّ بالسلوك الشاذ وبوظيفة عضو الحس .

وإلى جانب آرائه فى الأسس النظرية للسلوك ؛ فإن هنتر مشهور بأنظاره الهامة فى العلم نفسه — مهما يكن من أمر تسميته — خصوصاً فى كشفه للرّجع التخلّفى delayed reaction فى الحيوان والطفل .

السلوك والمخ كما درسهما فرانتس ولاشلى :

ودون أن نتوسع فى تعداد كبار السلوكيين إلى هذا الحد الكبير ؛ فإنه يجب حتماً ألا نغفل لاشلى Lashley[٢٨] الذى هو من أكثرهم إنتاجاً . ولد فى سنة سنة ١٨٩٠ ، وكان لاشلى الابنَ السيكولوچى أو السلوكى لوطسن ؛ وإن كان دائماً رجلا ذا رأى مستقل . وهذه بعض مقتبَسات تبين نزعته السلوكية*. فهو يعلن نفسَه معارضاً للذاتية ، ولأىّ ادعاء بأن الاستبطان يُظهر حالةً واحدة للوجود ليست تُحَد بألفاظ موضوعية . « إن الذى يقول بالذاتية يدّعى عالَماً من الأشياء اللامادية كموضوع لدراسته » . والقائل بالذاتية — فى هذا الصدد — لا يمكن أن يكون عالِم النفس الوجودى ، الذى يبدأ بأن يقول إن حقائق الفيزيقا والسيكولوچيا الغُفل هى هى بعينها . « والسلوكى ينكر الإحساسات والصور وكل الظواهر الأخرى التى يدّعى الذاتى أنه يكشف عنها بالاستبطان » . ذلك هو موقف السلوكى المألوف ؛ ولكن لاشلى يستطرد ليبين أن كل مكتشفات التأمل الباطنى — ما كان منها صحيحاً — يمكن أن يُعبّر عنه بألفاظ موضوعية ، وأنّ لها بذلك مَوضعها فى علم النفس السلوكى. وفى غير أن يحاول تقدير أدائه لهذه المهمة ؛ وأن يَحكم ما إذا كان قد أنصف كل مكتشفات التأمل الباطنى الحقيقية ؛ أو أن يقرر هل نجح تماماً فى التعبير عنها جميعاً بألفاظ موضوعية.؛ فإننا نستطيع أن نعرف أن ما انتهى إليه مفيد من ناحيتين : فهو قد أظهر أن الذاتية لا لزوم لها إطلاقاً فى علم النفس ، ولكنه قد بين أيضاً أن السلوكية — بعد كل هذا — لا اعتراض لها جوهريًّا على الاستبطان . فالسلوكيون يمكن أن يكونوا ناقدين له وحذرين فى استخدامه ، لما فيه — كمنهج للملاحظة — من صعوبات ومهاوى لا شك فيها ؛ ولكن اعتراضهم عليه لن يمكن أن يكون جوهريًّا إذا استطاعوا أن يعبروا عن نتائج الاستبطان بألفاظ موضوعية ، ويصطنعوها فى علم النفس الخاص بهم .

وما يعنى لاشلى ووطسون وغيرهما من السلوكيين حين ينكرون الأحاسيس والصور ؛ هو أكثر — فيما أرى — مما أستطيع أن أفهم . ولنأخذ الصور . فماذا هم فاعلون بشخص يقول : « عند ما أقرأ ما كتبتَ ؛ أستطيع أن أسمع بالضبط نغمة

* لاشلى K. S. Lashley : التفسير السلوكى للشعور ؛ مجلة علم النفس (١٩٢٣) مجلد ٣٠ ص ص ٢٣٧ — ٢٧٢ ، ٣٢٩ — ٣٥٣ .

صوتك » ، أو مع آخر يقول : « عند ما أسمع صوتك فى التليفون ؛ أستطيع أن أرى وجهك » ، أو مع ثالث يحكى حلماً رأى وسمع فيه أشياء معينة ؟ هل يعنون أن هؤلاء الناس بكل بساطة يكذبون ، أم أنهم يتبعون تقليدا يرقى إلى وهم لا طائل تحته ؟ الظاهر أنهم ليسوا مستهترين إلى هذا الحد ، ولكنهم يعنون أكثر أن الصورة ليست " فى حقيقتها " ما يُظن بها أن تكون ، أى ليست بصرية أو سمعية (إلا بالقدر الذى يمكن أن تلعب المنبهات البصرية أو السمعية الحاضرة دوراً فيها فعلا) ، وإنما هى فى الواقع نوع من نشاط حركى باطن على نحو الكلام الباطن inner speech . ومثل هذه الفكرة ستكون فرضاً جديراً بالاعتبار لتفسير الصورة ، ولكنها ينبغى أن تُسلِّم بحقيقة الصورة — وإلا لما كان هناك شىء لكى تفسره . وبمثل هذه الطريقة ، افتراض وطسون أن التفكير كلام دون الصوت subvocal speech جدير بالاعتبار ، ولكنه لا يذهب بعيداً بحقيقة التفكير فى شىء . لا أستطيع بالضبط أن أتبين أين يختفى اليوم شبح الذاتية . ويبدو لى أنى لم أره يرفع رأسه فى الدوائر السيكولوچية هذه الثلاثين سنة أو أكثر . على أنه لا بد أن يكون فى مكان ما ، لأنه ؛ ألسنا نرى السلوكيين يُوالون هجماتهم على الميدان ويتبارزون فيه ؟ .

ولكنه لن يكون من العدل أن نَترك لاشلى الفكرة التى كثيراً ما اشتغل بالنضال من أجلها . لقد قام بعمل كثير ، وقدم آراء قيمة فى علم النفس الحيوانى الفيزيولوچى . وأكثر شهرةً عملُه فى تحديد موضع الوظائف العليا للحاء فى المخ . فإن نتائجه السالبة قد انتزعت انتباه الفيزيولوچيين والسيكولوچيين على السواء .

وقصة تحديد المراكز فى المخ brain localisation تبدأ بجول Gall[٢٩] عالم طبيعة العقل phrenologist حوالى ١٨٠٠ . كان جول عالم تشريح ذا روح علمى ، راعه الحجم الشاذ لرءوس بعض الأفراد الذين كانت صفاتهم العقلية غريبة أيضاً ؛ فأدرك فكرة أن هذا النمو غير المتعادل لأجزاء مختلفة من المخ هو المسئول عن هذه الصفات الغريبة ، وعن حجم الجمجمة . وظن من الممكن أن يوضح بالرسم سطح المخ فى عدد كبير من المستويات أحدها للمحبة friendliness ، وآخر للاشتياق acquisitiveness ، وثالث للتهيب reverence ، ورابع للبداهة wit ، ثم للغة والعدد . هذا المذهب الفيزيولوچى لتحديد المواضع لم يكن يقوم على أية دراسة فيزيولوچية مباشرة للمخ . وفى حوالى ١٨٢٥ ، بدأ الفيزيولوچيون يجرُون

التجارب على مُخ الحيوان ، فلم يستطيعوا أن يجدوا شيئاً يقرب من رسم جول للأعضاء المحددة الموضع . وأعلن فلورنس Flourens ـــ(٣٠) رائد فيزيولوچيا المخ فى ذلك الحين ـــ أن المخ يعمل ككل . وفى حوالى ١٨٧٠ ؛ هيأ العمل الدقيق المتواصل للفيزيولوچيين أن يبدءوا بإظهار مناطق معينة كانت تتعلق بالتحديد بوظائف معينة . ولكن هذه الوظائف لم تكن تشبه وظائف قائمة جول . وقد قام فيما قبل ١٩٠٠ الدليلُ المحدد على أن كل حاسة من الحواس العليا لها منطقة من اللحاء تحيط بوصفها ؛ تبين ذلك من ربط المناهج التشريحية والفيزيولوچية بدراسة إصابات المخ فى الإنسان . فشبكية العين مثلا مرتبطة بخيوط عصبية بمنطقة صغيرة نسبياً من الفص الخلفى occipital lobe فى مؤخرة المخ ، وتحطيم هذه المنطقــة تحطيما تاماً فى الإنسان يجعل الفرد أعمى . وفوق هذه المناطق الحسية ؛ حُددت المناطق الحركية أيضاً . فهى من الناحية التشريحية لها بالعضلات صلات مباشرة أكثر ، وتحطيمها فى الإنسان يؤدى إلى شَلّ الحركة motor paralysis . والحرب العالمية ـــ بقذائفها الكثيرة وجراحها الدامية ، وبتأثيرها فى نقط صغيرة محددة من اللحاء ـــ قد أتاحت فرصة واسعة لاختبار هذه النتائج ، فزاد ذلك فى تأكيدها .

على أن كل المناطق الحسية والحركية معاً لا تُكوِّن من لحاء الإنسان إلا جزءاً صغيراً . وفى التركيب الميكروسكوبى يظهر أن بقية اللحاء ليست على نسق واحد ، وعلى فرض احتمال أن اختلاف التركيب يعنى اختلاف الوظيفة ؛ فقد اُعتقد أن التحديد الموضعى الأكثر ـــ تحديد مواضع الوظائف العليا ـــ قد يكون ممكنا .

ومتى دُرِسَت الوظائف العليا بالإشارة إلى تحديدها الموضعى ؛ فقد آن أن يرتبط علماء النفس بالفيزيولوچيين فى دراستهم . وفرانتس(٣١) الذى جمع بين العِلمَين فى شخصه قد نهض بهذه المهمة . وكان فرانتس (المولود فى ١٨٧٤) تلميذ كِتِل ، ومساعده الرئيسى سنوات كثيرة فى معمل كولومبيا ؛ حيث اشتغل ثورندايك فى سنة منها بدراساته فى تعلّم الحيوان . ووقف فرانتس بعد عدة سنوات على الفيزيولوچيا ، وبعد ١٩٠٠ بقليل ؛ توصل إلى منهج فى دراسة التحديد الموضعى للوظائف العليا عن طريق ربط مناهج ثورندايك فى تمرين واختبار الحيوان بالمنهج الفيزيولوچى فى استئصال أجزاء المخ . فمثلا لرؤية ما إذا كانت الفصوص الأمامية frontal lobes لِقِطّ من شأنها اكتساب استجابة الهروب من قفص بتحريك زر ؛ كان يُعلّم الحركةَ للحيوان أولا ، ثم يستأصل الفصوص الجبهية (الأمامية) ، ويترك للحيوان وقتاً يستجم

فيه من صدمة العملية ، ثم يختبر الحيوان ليرى ما إذا كانت الحركة باقية . فإذا لم يكن ؛ تقدم فأعطى الحيوان فرصة تعلم الحركة من جديد . وقد أظهرت نتائج اختباراته على الفصوص الأمامية أن فقد هذا الجزء من المخ يؤدى إلى ضياع الحركات التى اكتُسبت ، ولكنه لا يمنع الحيوان من إعادة اكتساب نفس الحركات بنفس السهولة تقريباً التى تعلمها بها قبل الإصابة . وقد أتبع فرانتس هذا الاكتشاف الخصيب فى سنوات كثيرة بنتائج قيمة ؛ من بينها نتائج ذات قيمة علمية فى إعادة تعليم المصابين بالشلل الحركى والتعبيرى اللفظى من الناس* paralysed and aphasic patients

وعلى هذا النحو من الدراسة بدأ لاشلى بوصفه معاوناً لفرانتس . فأظهرا فى سنة ١٩١٧ نتائج تطبيق منهج التمرين والاستئصال على حيوان المعمل المحبوب — الفأر الأبيض — وهو حيوان صالح جدا لتعلم التجارب ، وإن كان فى الواقع أكثر بُعداً عن الإنسان فى نمو المخ من القط أو القرد . وتبع لاشلى هذا النحو من الدراسة بكل جد وبنتائج مدهشة ، وإن كانت مُخيّبةً بعض الشيء . فليس شك فى أن نتائجه — شأنها شأن نتائج فرانتس — مُخيبةٌ أملَ من يتوقع أن يجد فيها مركزاً صغيراً واضح التحديد لكل فعل مكتسب . فبينما فَقد أى جزء كبير من اللحاء يعطل تعلم الفأر ؛ فإنه يبدو فى القط أنْ لا كبيرَ فرقٍ بين أى جزء من اللحاء تَنتزع وأى جزء نترك له ليتعلم به . فظاهرٌ أنه يتعلم المتاهة maze بأحد الجزءين تعلّمَه بالآخر . وكلما كان مبلغ اللحاء المستأصَل أكبر ؛ كانت عرقلة تعلّمه أكثر . والواقع أن الحركات اليسيرة تكتسَب بسرعة أكبر حتى ولو لم يبقَ من اللحاء إلانصفه ، أما الحركات الصعبة فهى مستحيلة الاكتساب غالباً إذا تركنا هذا القليل من اللحاء. ولاشلى يُلخّص ما انتهى إليه فى مبدأين* :

مبدأ القوة المتعادلة principle of equipotentiality : أىُّ جزء من اللحاء له من القوة ما لغيره فى قدرته على المشاركة فى أى نوع من الفعل المكتسب . وليست المناطق الحسية والحركية داخلة فى هذا التقرير .

---

* فرانتس S.I. Franz : مجلة الفيزيولوجيا الأمريكية (١٩٠٢) مجلد ٨ ، ص ص ١ — ٢٢ ؛ سجلات علم النفس Archives of Psychol. : رقم ٢ ، ١٩٠٧ ؛ وأوراق أخرى كثيرة متأخرة .

* (١٩٢٩) لاشلى K.S. Lashley آليات المخ والذكاء Brain Mechanisms and Intelligene مطبعة جامعة شيكاغو ١٨٩٨ ص ٢٥

مبدأ الفعل الكلى mass action : فاللحاء يفعل ككل ؛ حتى أنه كلما كان اللحاء وجوده أكثر ؛ كان أكبر أثراً فى فعله وكان الحيوان أسرع تعلماً .

ودراسة الوظيفة اللحائية تؤخذ على أنها معقدة وشاقة ، ولا نستطيع أن نأمل أن يكون لاشلى قد قال فيها الكلمة الأخيرة . فأن يكون « اللحاء يعمل ككل » لا يمكن أن تؤخذ بحرفيتها ، بل بمعنى أنه يعمل فى نماذج واسعة الانتشار أو أنظمة ديناميكية ؛ لا فى مراكز يُحدَّد موضعُها بدقة . وكما يبين لاشلى ؛ تميل نتائجه كل الميل لأن تكون ضد قبول دورة المنعكس البسيط وكأنها الوحدة التى تتركب منها وظيفة المخ . ومن هنا فإننا لا نستطيع أن نعتقد أننا بتغليب فكرة الفعل المنعكس على فكرة المنعكس البسيط قد وضعنا مفتاح كل سلوك مكتسب . ونتيجة أخرى للاشلى ، تُعين — بتتبُّع عمل وطسون — على تقوية هذه النتيجة : فالجرى خلال المتاهة يمكن أن يُظن به أنه سلسلة خطوات أو دورات ، فيسهل إذن أن يؤخذ وكأنه سلسلة أفعال منعكسة . وقد بيَّن وطسون أن الفيران التى تمرنت على المتاهة يمكن أيضاً أن تظل تجرى فيها جرياً صحيحاً ؛ حتى ولو جُرِّدت بالفعل من البصر والشم والسمع أو معظم اللمس ، وحتى ولو نُزِعَت منها هذه الحواس جميعاً . وانتهى إلى أن الاحساس الذى يتبقى — وهو الإحساس العضلى — يجب أن يعطى الإشارات الحسية التى تُمكِّن الحيوانَ من تتبُّع الطريق الذى تعلَّمه ، وتبعاً لهذا أمكنه تفسير جرى المتاهة بسلسلة من المنعكسات ، كل حركة تعطِى فى الحاسة العضلية تنبيهاً للحركة التالية لها فى الترتيب . إلا أن لاشلى قد وصل إلى إزالة الحاسة العضلية أيضاً ؛ بقَطع الطريق المؤدية إليها فى الحبل الشوكى ، فظلت الفيران تجرى المتاهة جرياً صحيحاً . وقد أقام الدليلَ أيضاً على أن الفأر — فى التعوُّد على المتاهة — قد اكتسب نوعاً من توجيه عام أو اتجاه فى طريق الخروج ؛ حتى أن جَرى المتاهة هذا لم يكن مجرد سلسلة منعكسات . وليس شك فى أن مكتشفات لاشلى الحديثة هذه قد كانت مزعجة بعض الشيء لكثير من السلوكيين الذين أحبُّوا المنعكس ، والمنعكس الشرطى ، وسلسلة الانعكاس ؛ لأنها بدت مؤدية إلى تفسير بسيط للسلوك وإزالة « الغموض » . ومع هذا فأنا لا أفهم أن السلوكية معلقة على فرض أو تفسير ؛ إلى درجة تجعلها تهتز بخطورة عندما يتحتم على هذا التفسير الخاص أن يتخلى لآخر أكثر منه كفاية . فإن السلوكية هى روح أو اتجاه أكثر منها نظرية ثابتة .

ووجه ممتع فى هذه المكتشفات الحديثة : هو أنها تُقرِّب معاً السلوكيين وعلماء

النفس الجشطليتين – الذين سنعرض لهم فى الفصل التالى – أكثر مما كان يُظَنُّ يوماً من الأيام .

مدلول السلوكية :

وأنا مُهَيّأ للاعتقاد بأن الخمسين سنةً التاريخية منذ الآن – إذ تُطلّ على الثلاثين سنة الأولى لهذا القرن – ستُعلّق دلالة كبيرة على الحركة التى نسميها الآن بالسلوكية . ولكنى أعترف أنى فى حيرة من أن أتبين بالضبط أين يوجد موضع دلالتها . فقد كانت ذات جاذبية قوية للجيل الناشىء من علماء النفس، ولبعض من ليسوا ناشئين ، وإنما كانت ذات جذب أقوى فى خارج صفوف علماء النفس . فما هى إذن طبيعة هذه الجاذبية ، وما عناصر هذه الحيوية ؟

بدت السلوكية أولَ الأمر وكأنها إصلاح منهجى ، تَحُث على استخدام المناهج الموضوعية وتُبطل استخدام الاستبطان . ولا نستطيع أن نعزو إليها فضلَ إدخال المنهج الموضوعى فى علم النفس ؛ لأن هذا المنهج قد كان مستعملا قبلُ طويلا . وهى لم تُدخل التجريب على الحيوان فى علم النفس ؛ اللهم إلا إذا نحن اتبعنا فى الواقع علماء النفس الأوربيين الذين – بنظرهم غير بعيد إلى ما نعمل فى أمريكا – يَعُدُّون ثورندايك السلوكىَّ الأول . وحين نفعل هذا فإنما نؤرخ للسلوكية بسنة ١٨٩٨ بدلا من ١٩١٢ ، وننقل الجدل حول «قانون الأثر law of effect» ، ونوسع طائفة السلوكية إلى حد كبير ؛ وذلك هو ما يحتمل أن تفعل بنا الخمسون سنة التاريخية من الآن . وإن صح ذلك فربما شملت أيضاً پاڤلوف وبختِرف ، فأمكن إذن أن نقرن السلوكية باكتشاف منهج المنعكس الشرطى فى التجريب . وفيما عدا هذا ، ربما كان من الصعب أن نقرن السلوكية باكتشاف أى منهج موضوعى خاص آخر .

ولن نستطيع أن نعزو إلى السلوكية فضل الحمل على استبعاد الاستبطان من علم النفس ، لأن علماء النفس الباطنيين قد استمروا فى عملهم – وبعضه عمل مهم جداً – ولا دليل على أن التامل الباطنى فى سبيل الاستبعاد . وقد رأينا السلوكيين يقولون به تحت اسم «التقرير اللفظى verbal report» ، ويُبيِّنون أن ما توصل إليه يمكن أن يُردَّ إلى علم نفس موضوعى . وقد رأينا أن استخدام الاستبطان كمنهج للبحث لا يؤدى بالباحث إلى أية ذاتية ، وأنه يتفق مع تصور علم النفس «علماً طبيعياً» بالمعنى الصحيح .

وقد كان للسلوكية أثر فى الحدود والتصورات التى استخدمها علماء النفس أكبر منه فى مناهج تحصيلهم لحقائقهم . ومن قبلُ كان علماء النفس الذين يدرسون الفعل بحق أهلا لأن يُجمِعوا على القول بأنهم يدرسون نوعاً من « تحوير الشعور » modification of consciousness ، وهو تعبير قبيح من وجهة نظر الوجودى قُبحَةٌ من أية وجهة أخرى ؛ ما دام قد وضح له تماماً الفرق بين وصف الفعل ووصف الخبرة كما هى . فقِسم كبير من العمل السيكولوچى يقوم فى دراسة الفعل ، وقد أدى السلوكيون خدمة إلى علم النفس بحَملِنا على أن نتحدث بألفاظ الفعل عند ما يكون ذلك هو ما نعنى .

على أننا لا نستطيع أن نفترض أن الناس خارجَ صفوف علم النفس سيسمحون لأنفسهم بأن تُعنَى بمشاكل علماء النفس الاصطلاحية فى الحدود والتصورات والمناهج . فلِمَ يجب أن ينزعج الجمهور حين يعلم أن الاستبطان كان يُجرَى فى معامل نفسية معينة ، أو أن علماء نفس معينين يدَّعون أن لديهم شعوراً ، وأن لهم إحساسات وصوراً ، ومشاعر ، وإرادات ؟ وما الذى يحمل العامة على أن يمجدوا الفارس المغوار الذى تقدم لإزالة هذه الأوهام ؟ ولكن هذا الجزء من العامة الذى انتظم فى محاضرات الكلية فى علم النفس هو الذى سيرحب بحَق بهذه التبسيطات التى يبدو أن السّلوكية قد جاءت بها . فبعض من هذه التبسيطات كان لفظياً خالصاً ، وبعض آخر من « الخفايا » التى استُبعدت بضربةِ يد قد ظلت فى صورة مسائل لم تُحلّ ؛ ولكن تبسيطات أخرى كانت موفقة ، لأن السلوكية لاشك قد مهدت لها السبيل لتنحية بعض المسائل غير النفسية الموروثة عن الفلسفة .

ولكن مدلول السلوكية يذهب إلى أبعد من حدود علم النفس ، ويمتد إلى علم الاجتماع . ولدىَّ هنا إعلان عن «نوع جديد من نَص اجتماعى» يوصف بأنه — فى توافق وصراحة — سلوكى . وأن المؤلفين يضعون أعينهم على مسائل محسوسة فى الحياة الأمريكية ويناقشونها على أساس مادة يمكن التحقق منها » . فإذا كانت سلوكيتنا قد هيأت بحق لعلماء الاجتماع أن يتناولوا مسائل محسوسة على طريقة العلم الطبيعى ؛ فإنه يكون للسلوكية إذن فضل كبير .

على أن مدلول السلوكية يجب أن يتجاوز ذلك أيضاً . ولدىَّ هنا ملاحظات عن كتاب وطسون المُعَنوَن بالسلوكية Behaviorism — الذى ليس بالتأكيد أهم كتبه العلمية من وجهة نظر العالِم النفسى ؛ وإن أكثر من ادعاء ذلك فعلا .

وهذا ما تقوله عنه النيشن Nation فى لندن :

ويعلن كتابهُ الجديد أنه يقدم عِلمَ مناهج جديداً ؛ لا مجرد هيكل نظرية سيكولوچية فحسب ؛ بل مذهباً سيُحدث فى نظره ثورة فى الأخلاقيات ، والدين ، والتحليل النفسى ؛ وبالجملة فى كل العلوم العقلية والأدبية .

فإذا رجعنا إلى الكتاب بهذه الملحوظة فى أذهاننا ؛ فإننا نجد وطسون يقول إن السلوكية علم طبيعى يتخذ ميداناً له كلّ السلوك والتكيف الإنسانى — الذى يدرسه بمناهج تجريبية — موفّقاً بين موضوع ضبط سلوك الإنسان وبين مكتَشفات هذا العلم . وهو يقول إن اطراد نجاح دُنُوّ عامِه الطبيعى ذاك من المشاكل الإنسانية سوف يؤدى بالفلسفة إلى أن تختفى وتصبح تاريخاً للعلم، وأنه يواجه نمو الأخلاق التجريبية لتحل محل الأخلاق القديمة الجبرية والنظرية القائمة على أساس الدين ، وأنه سيُزيل تدريجياً التحليلَ النفسى ويستبدله بدراسات علمية لنمو الطفل وبهذا يضبط ذلك النمو ؛ كما أنه سيقضى على إصابات المرض النفسى التى تعالَج الآن فى الحياة الجنسية . وهو يعرض مذهبه فى هذا القدر من الكلمات الذى استخدمتُ فى ذكره تقريباً . فهو خطة أو (پروجرام) أكثر منه مذهباً ، وأمل أكثر منه خطة .

على أنه كان من المُهم لرجل كسَب أُذُنَ الرأى العام بوصفه ممثلَ العلم أن يصوغ فى أسلوب قوى أملَه هذا . وقد قالت صحيفة النيويورك تيمس عن الكتاب : « إنه يمثل عهداً من تاريخ الإنسان العقلى » .

وهذا وجيه من التيمس . فلنسمع الآن ما تقوله التريبيون Tribune : « ربما كان هذا الكتاب أهم ما كتب . إن المرء ليقف لحظة فى عَمىً من فرط الأمل » .

والإشارة هنا ربما كانت إلى ما يبدو أنه أكثر روعة مما قال به وطسون فى هذا الكتاب ، « أعنى » تقريره أنه يستطيع أن يأخذ أىّ طفل سليم صحيح التكوين ، ويجعل منه أى شيء تريد؛ على أن يكون له مطلق السيطرة على بيئة الطفل . وهذا أيضاً كان خطة فحسب كما اعترف هو فى كتابه بعد قليل ؛ قائلا إن هذا التقرير الحاسم قد قصد به أن يكون إثارة ، وأن دافعه الحقيقى هو أن يطالب إلى العامة أن يُعنوا بالبحث الواسع جداً اللازم لتنشئة الطفل . وقد كان ثمة على حق ؛ فما أحوجنا إلى مثل هذا البحث ، وقد يكون له هذه النتائج التى تنبأ بها .على أنك

الآن إذا وضعتَ تحت رعايته عدداً من الأطفال الأصحاء ؛ وطلبتَ أن يجعل من كلٍّ فناناً كبيراً ، أو رجلَ أعمال كبيراً ، أو زعيما شعبياً كبيراً ؛ فأنا على يقين أنه سيتحير تماماً كيف يتقدم . فلا هو ولا غيره يملكون الآن المعرفةَ العلمية المطلوبة . وعلى أى حال ربما كان ذلك هو الأمل الذى أعمى المحرر

إنما كانت المُميزات الأدبية للحركة السلوكية — أكثر من نتائجها العلمية — هى التى جعلت لها هذا الأثر العام القائم . " أعنى " شجاعتها ، وحريتها ، وصلابتها ، وثقتها اللامحدودة بقدرة العلم على أن يُعنَى بشئون الإنسان . وكما أخبرنى أحد تلاميذى — وهو يمثل الجيل الناشىء منذ الحرب — أن السلوكية تبدو لكثيرين أملا جديداً وتوجيهاً جديداً حين أصبحت علامات الإرشاد القديمة old guide posts لا ثقةَ بها ولا أملَ فيها . فمن المعتقد أن تحُل هذه محل العقيدة .

تعليقـات

على الفصل الثالث

(١) السلوكية : تمتاز السلوكية — كما يمتاز مذهب الجشطلت في علم النفس — بمعارضتها لعلم النفس التقليدى الذى ما يزال قائماً حتى العشر السنوات الأولى من هذا القرن ؛ والذى أهم خصائصه : ١ — أنه تجريبى ، ٢ — وأنه يأخذ منهجاً له الاستبطان ، ٣ — وأن دراسته تنحو نحواً مذهبياً كالفلسفة ، ٤ — وأنه يبحث عن العناصر والأجزاء ؛ ٥ — وأنه أخيراً ارتباطى .

ويختلف موقف كل من المدرستين الجديدتين إزاء كل خاصة من هذه الخصائص : كلتا هما لا يسعها إلا أن تبقى على النزعة التجريبية فى دراستها . أما الاستبطان فقد رفضته السلوكية رفضاً باتاً — ولعل ذلك أهم ما يميزها عن الجشطلتيين الذين أخذوا بالاستبطان فى صورة معدّلة ظاهرية . وبينما بقى فى هذه المدرسة شىء من المذهبية فى علم النفس يقرّبه عندها من الفلسفة ؛ إذا السلوكية تنأى بنفسها عن التقيّد بالمذهب ، وإن هى لم تتخلص من بعض المسائل التى فرضت عليها فرضاً . أما العنصرية elementarism — أى التحليل — فقد رفضها الجشطلتيون رفضاً قاطعاً ؛ سواء فى تحليل الظاهرة أو العمليات الجسمية — وتلك أبرز خصائصهم — بينما رفض السلوكيون عنصريّة عناصر الشعور ؛ كالأحاسيس والصور والمشاعر ؛ إلى جانب رفضهم للشعور ذاته . وأخيراً ؛ بينما نبذ الجشطلتيون الارتباط نبذاً تاماً ؛ إذا السلوكية تأخذ به فى الجهاز العصبى ؛ نظراً لقولها بالمنعكس الشرطى ، وضرورة تجزئة عناصر قوس الانعكاس reflex arc.

وأول ما ظهرت السلوكية اتخذت اسماً لها : « علمَ النفس الموضوعى » objective psychol. بمعنى أنها ترفض منذ البدء الشعورَ موضوعاً ، والاستبطانَ منهجاً . وقد بيّن لنا دِسِرنز C.M. Diserns تاريخ الموضوعية فى علم النفس منذ اليونان حتى اليوم ؛ واقفاً طويلا عند ثنائية ديكارت وآلية الحيوان عنده ، وعند المادية والوضعية فى فرنسا وألمانيا ؛ ومُبيناً كيف أن ظهور اللاشعور وما تحت الشعور — والقول بوجودهما — قد حطم من سيطرة الاستبطان (راجع مقالته فى العدد ٣٢ من مجلة علم النفس

Psychol. Rev. سنة ١٩٢٥ ص ص ١٢١ — ١٥٢) .

وأهم ظاهرة فى تاريخ السلوكية ؛ المجهود الذى بذله علماء النفس الروس وما زالوا يبذلونه حتى اليوم —وخصوصاً پاڤلوف وبختر ف (وسنفصل القول عنهما فى مواضعهما) —إلا أن وطسون يُعدّ بحق منشىء السلوكية العلمية فى أمريكا سنة ١٩١٣ .

(٢) وطسون (چون برودَس) J. Broadus Watson : ولد فى جرينڤل فى ٩ يناير ١٨٧٨ ، ولحق بجامعة شيكاغو منذ ١٩٠٠ حتى حصل على الدكتوراه فى الفلسفة سنة ١٩٠٣ وعين فيها مساعداً لعلم النفس التجريبى حتى ١٩٠٤ ، حيث صار أستاذاً مساعداً سنة ١٩٠٨ . ثم اشتغل فى جامعة چونز هوپكنز أستاذاً لعلم النفس التجريبى والمقارن ومديراً لمعمل علم النفس (١٩٠٨ — ١٩٢٠) — فيما عدا سنة ١٩١٧ حيث لحق بسلاح الإشارة من قسم الطيران بالجيش الأمريكى . وأخيراً اشتغل محاضراً فوكيلا لمدرسة البحوث الاجتماعية بنيويورك ؛ حيث كان يحاضر فى « بحوث فى السلوك Behavior Monographs » . وتولى (منذ ١٩١١ حتى ١٩١٧) تحرير مجلة سلوك الحيوان Journal of Animal Behav. ، ومجلة علم النفس التجريبى ؛ ومساعَدة تحرير مجلة بحوث فى علم النفس التكوينى ، وصحيفة علم النفس العام ، وأسبوعية التربية ؛ واشترك فى كثير من الجمعيات وأكاديميات العلوم والفنون .

وتجد تصنيفاً كاملا لمؤلفات وطسون ومقالاته — حتى سنة ١٩٢٩ — فى سجل علم النفس لمرتشيزون (ج ٢ ص ص ٢٦٨ — ٢٧٠) ، وتاريخ علم النفس التجريبى لبورنج (ص ص ٥٨٢ — ٥٨٧ ، ص ٥٩٤) .

(٣) پلزبرى (ولتر باورز) : Walter Bowers Pillsbury — ولد فى بيرلنجتون فى ٢١ يوليو ١٨٧٢ ، وحصل على الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة كورنل سنة ١٨٩٦ ، وعين بها أستاذا مساعداً (١٨٩٥—٩٧) . ثم عين بجامعة متشيجان Michiagan — التى درس بها قبل كورنل —معيداً ، فأستاذاً مساعداً ، فمديراً لمعمل علم النفس ، فأستاذاً (١٩٠٠ — ١٩١٠) وتولى مساعَدة تحرير مجلة علم النفس الاجتماعى سنة ١٩٣٠ . كان عضواً فى هيئة علماء النفس الأمريكية — التى صار رئيساً لها منذ ١٩١٠ — وكذلك فى كثير من الجمعيات والأكاديميات الأمريكية والفرنسية لعلم النفس .

راجع ثَبت كتبه ومقالاته فى المجلد الثانى من « سجل علم النفس » ص ص ١٧٨ — ١٧٩

(٤) لاد (جورج ترَمبول) : George Trumbull Ladd (١٨٤٢ — ١٩٢١) : تخرج فى مدرسة أندوڤر

الدِّينية (١٨٦٩) ثم قضى عشر سنوات فى الوزارة فى ميدل وست Middle West عين بعدها أستاذاً للفلســـفة العقلية والخلقية فى كلية بودوين Bowdoin College (١٨٧٩–١٨٨١) . ومنذ ذلك الحين بدأ بدراسة العلاقات بين الجهاز العصبى والظواهر العقلية — كما كان على أستاذ الفلسفة العقلية حتّى ذلك الحين أن يفعل . ومن بودوين انتقل لاد إلى ييل Yale ، وظل فيها يعمل — فى نفس منصبه — فى دراسة علم النفس الفيزيولوچى — كما يقول — فى معمل له كان يساعده فيه ثاتشر Thatcher الفيزيولوچى . وأخرج لاد محاضراته فى علم النفس الفيزيولوچى (١٨٨٧) Elements of Physiological Psychology الذى قـــوبل بحـــرارة . فنشر لاد مختصراً له فى سنة ١٨٩١ ونقحه؛ بما يجعل منه مَرجعاً هامّاً ؛ ودورث سنة ١٩١١ . وفى ١٨٩٤ نشر كتابه Primer of Psychology ، وكتابه الآخر الوصفى الكبير : علم النفس : Psychology الذى ظهر مختصـــراً بعـــد أربع سنوات . وبهـــذه الكتب والمحـــاضرات والعمل فى معمل ييل ، كان لاد يُسهم فى النهوض بعلم النفس الجديد الذى يدرس العقل من الناحية الوظيفية كعضو نافع

وقد درس العقل من حيث وظيفته الإيجابية فى مقابل محتوياته أو خِبراته السالبة contents التى درسهافونت . فالعقل عنده ذات أو نفس self لها وجودها . وهذه النفس الفاعلة أو الشعور الشخصى — كما يسميه چيمس — ينتهى به إلى أن يجعل مهمة الشعور حل المشكلات . فالعقل يُحدَّ إذن من حيث استخدامه ، ومن هذه الناحية الفيزيولوچية أو البيولوچية نَظَر إلى العقل من حيث مهمته على أنه فاعلية الذات activity of the self . ومهمة العقل عنده هى التكيف adaptation ، وما دامت هذه مهمة العقل ؛ فإن الجسم يصبح غائياً teleological ، ويصبح علمُ النفس عملياً .

على هذا النحو من اليُسر تقدم لاد وتلميذه وخليفته سكريتشر Scripture بعلم النفس الوظيفى .

(٥) هول (ج . استانلى) : Granville Stanley Hall (١٨٤٤ — ١٩٢٦) ولد فى أشفيلد ، ودرس فى مدرسة القرية ، وتغلب — بتأييد أمه — على إصرار أبيه أن يساعده فى الفلاحة ؛ فلحق بالتعليم فى إحدى المدارس . ثم انضم لكلية وليمز (١٨٦٣ — ١٨٦٧) ، وظهر عليه — بعد حين — الامتياز فى الفلسفة ، خصوصاً فلسفة چون استيوارت مِل ونظرية التطور . وفى نيويورك نصح له هنرى واردبيتشر H. W. Beecher — لكى يُخلّصه من فلسفته وتدينه — أن يدرس الفلسفة فى ألمانيا . فسافر إليها — ولا مالَ له —

(١٨٦٨ – ١٨٧١) ودرس فى بون وبرلين ، وعاد منهما كما خرج . فاشتغل فى بلاده واعظاً فى كنيسة ، ثم مدرساً فى كلية أنتيوخ Antioch فى أوهايو (١٨٧٢ – ١٨٧٦) للإنجليزية واللغات الحديثة والفلسفة ، وكان يجذبه أثناء اشتغاله بالفلسفة مَيلُه إلى علم نفس ڤونت الفيزيولوچى الموجِّه لعلم النفس الحديث . وما إن اقتنع بأن الفلسفة غير عملية ؛ حتى أراد أن يعود تواً إلى ألمانيا ليدرس مع ڤونت . وبعد سنة قضاها فى أنتيوخ كان فى طريقه إلى ألمانيا – فاعترضه فى هارڤرد الرئيس إليوت Eliot ، وعرض عليه منصب تدريس لم يستطع – لحاجته – أن يرفضه . فقضى فى هارڤرد سنتين يتعلم الفلسفة وعلم النفس مع وليم چيمس ، حتى حصل (سنة ١٨٧٨) على الدكتوراه فى رسالة عن « الإدراك العضلى للمكان » .

وبعدئذ ذهب هول إلى ألمانيا – كما كان يعتزم – والتقى فى برلين بفون كريس von Kries وكرونكر Kronecker ، ثم انتقل إلى ليپتسك ؛ حيث أقام مع فخنر ، واشتغل فى معمل لدڤج ، وأصبح أول تلميذ أمريكى لڤونت حين أسس معمله . فلما عاد إلى أمريكا طلب إليه الرئيس إليوت فى هارڤرد أن يلقى دروساً فى مشاكل التربية أيام السبت لاقت نجاحاً وإعجاباً . ثم حاضر فى كلية چونز هوپكنز الناشئة ، وصار أستاذاً فيها (١٨٨٤) ذائع الصيت . وتخرج عليه علماء اشتهروا فيما بعد أمثال : ديوى وكتل وسانفورد وبرنهام وچاسترو وغيرهم . كما أسس هول أول معمل سيكولوچى فى أمريكا ، وأول مجلة علم نفس فى الإنجليزية – بعد Mind – (١٨٨٧) . وفى السنة التالية قَبِل منصب أول مدير لجامعة كلارك الجديدة ، فوجَّهها إلى البحث لا إلى الدرس ، وقام بجولة فى جميع بلاد أوروبا لزيارة جامعاتها . ونهض بهيئة التربية وعلم النفس ومعاملهما .

راجع فى تاريخ حياة هول ما كتبه ولسون L.N. Wilson سنة ١٩١٤ باسم : ج . استانلى هول ، يُكمله العدد السادس من المجلد السابع (١٩٢٥) من منشورات مكتبة جامعة كلارك Publi. of Clark Univ. Libr. وفيه مقتطفات من كتابات كثير من علماء النفس عن هول ، وقائمة بواحد وثمانين شخصاً أخذوا درجة الدكتوراه على يد هول فى كلارك ، وأسماء كتب وبحوث هول . كما يَحسن مراجعة ما كتبه هول بعنوان : حياة واعترافات عالم نفس Life and Confessions of a Psychologist (١٩٢٣) الذى أثبت فيه لأول مرة تاريخ المصاعب الداخلية التى واجهته فى إنشاء جامعة كلارك حين كان أول مدير لها . وأيضاً مقال نُشر فى مجلة

علم النفس الأمريكية .Am. J. of Psy
(مجلد ٣٦ سنة ١٩٢٥ ص ص ١ – ٥٢) عن : أثر جرانڤيل استانلى هول السيكولوچى والتربوى .

وفى مؤلفات هول وكتاباته راجع : ولسن (المرجع المذكور ص ص : ١١٩ – ١٤٤) وفيه عنوان ٣٩٩ بحثاً حتى ١٩١٤ . وحياة واعترافات هول نفسها تذكر ٤٣٩ عنواناً حتى ١٩٢٢ (ص ص ٥٩٧ – ٦١٦) . وكذلك نشرات مكتبة جامعة كلارك المذكورة (ص ص ٩ ١–١٣٥)

على أن أهم أثر لهول هو فى أتباعه ونشاط تلاميذه ورسائل الدكتوراه التى خرّجها من معمله وجامعته .

(٦) ديوى (چون) J. Dewey (١٨٥٩) : رائد مدرسة علم النفس الوظيفى فى شيكاغو ، لنبه هول فى هوپكنز ١٨٨٢ ، فلما حصل على درجة، بعد سنتين ؛ تقلّب فى مناصب تدريس الفلسفة فى متشيجان Michiagan عشر سنين حتى ١٨٩٤ . وفى سنة ١٨٩٦ ظهر كتابه Psychology الذى وضع فيه نصاً جديداً لعلم النفس – وما يزال حدثاً – وكان من الوضوح بحيث طبع ثلاث مرات فى خمس سنوات ومع أن كتب لاد وچيمس وبولدوين قد فاقته – للاتجاه الفلسفى الذى يتشبث به ديوى – فإنه قد أخذ أهميته مِن سَبقِهِ على هؤلاء فى الكتابة فى علم النفس بالإنجليزية .

وفى ١٨٩٤ أخذ ديوى كرسى الفلسفة فى جامعة شيكاغو عشر سنين أيضاً ، يساعده ميد G.H. Mead ومور A.W. Moore . وفى هذه السنة عينها جاء شيكاغو چيمس أنجل (وسنتحدث عنه فيما بعد) مساعداً لعلم النفس ومديراً لمعمله الذى أنشىء منذ سنة واحدة . ولتقارب هؤلاء جميعاً فى السن ، ومنزلة ديوى بينهم ؛ قامت منهم مدرسة ذات وجهة نظر مذهبية – هى الوظيفية – خرجت أول رسالة لها تتضمن نقد ديوى لفكرة قوس الانعكاس فى علم النفس reflex arc (١٨٩٦) التى حمل فيها على العنصرية elementarism وتحليل قوس الانعكاس إلى منبه واستجابة ، كما اعترض على تحليل الأفعال الكلية إلى أقواس انعكاس ، وفى أزمانها على فصل الروابط الكلية للأفعال من ماضيها ومستقبلها ؛ فإنه فى علم النفس يجب أن نبحث الكليات totalities . وهو بهذا يقول بمذهب الجشطلت قبله بعشرين سنة ، ويناهض الثنائية الأفلاطونية التى تفصل النفس عن الجسم . وهو بهذا يشبه چيمس والحركة الأمريكية كلها فى علم النفس حتى كتل .

والذى أتى به ديوى فى علم النفس هو الروابط coördinations . فالإحساس والاستجابة لاقيمة لهما عنده كعناصر ، ولعله يقبل قوس الانعكاس على أنه

رابطة أولية فى مرحلة ما ، فهو ليس إحساساً يتبعه تفكير تتبعه حركة ؛ بل هو قوس متكامل : الاستجابة للإحساس — والإحساس بالاستجابة. وهذا عنده هو«الطريقة العملية الساذجة لتصوير هذه العملية » . إذ أن سر الوحدة فيما بين المنبه والاستجابة يقوم عنده فى وظيفة الفعل . والرابطة ليست إلا تنظيما للوسيلة فيما يتعلق بغاية . ومن هنا كان التصاق جزءيها وتلازمهما فى الزمان ، ومن هنا أيضاً كانت الوظيفة هى الوظيفة البيولوجية ، وكان مصدر الفعل هو الغاية ، والرابطة هى التكيف؛وكان علم النفس الوظيفى هو دراسة الكائن العضوى فى عمله دراسة سيكولوچية .

ويتضح هذا الاتجاه العملى —الذى يشبه مذهب دارون — فى أخريات حياة ديوى نفسها — من حيث اتجاهه إلى دراسة التربية كتطبيق لعلم النفس— منذ ألقى خطابه فى هيئة علماء النفس الأمريكية سنة ١٩٠٠ عن « علم النفس والتطبيق الاجتماعى «Psychol. and Social Practice فإنه — بعد ذلك بسنتين — قد عُين مديراً لمدرسة التربية فى جامعة شيكاغو وفى ١٩٠٤ نصَّبته كلية المعلمين فى كولومبيا أستاذاً للفلسفة ؛ كأعظم فيلسوف سيكولوچى يعالج مشاكل التربية فى أمريكا فى ذلك الحين وهو — وإن قلَّ أثرُه أخيراً فى علم النفس بمعناه الصحيح ؛ لنزوعه الفلسفى والعملى الذى ذكرنا — فقد كان له فى حياته أكبر الأثر فى الحياة العقلية والنفسية فى أمريكا .

(٧) أنجل (چيمس رولاند) J.R.Angell ولد فى بير لنجتون (فى ٨ مايو ١٨٦٩) ولحق بجامعة متشيجان (١٨٩٠—١٨٩١) ثم بجامعة هارڤرد فى السنة التالية ، وعين فى جامعة شيكاغو من سنة ١٨٩٤ حتى ١٩٠١ أستاذاً مساعداً ومديراً لمعمل علم النفس ، حيث صار فيها سنة (١٩٠٥) أستاذاً ورئيساً للقسم ، ثم عميدا ، ثم مديرا لجامعة ييل Yale سنة ١٩٢١ .

وقد شارك أنجل ديوى فى نشاطه وتفكيره : ففى الوقت الذى كان فيه ديوى يناقش فكرة قوس الانعكاس ، كان أنجل وصديقه الفيلسوف مور Moore ينشران رسالة عن دراسة تجريبية لها فى زمن الرجع ؛ كان لها أهمية كبيرة . وشارك أنجل بعد ذلك بعامين أيضاً (١٨٩٨) فى إبراز علم النفس الوظيفى func. psychol. فى مقابل علم النفس البنائى structur. psy. الذى تعهده تتشنر بعد چيمس ؛ فبين فيه الفرق بين المورفولوچيا التى تبحث عن التركيب أو البناء "the is" والفيزيولوچيا التى تبحث عن الوظيفة ، أى عن الـ "is-for" وساعده على هذا ازدياد أهمية علم التربية ، واختبارات

بنيه فى الذكاء، وعلم النفس الحيوانى ؛ كما يظهر فى رسالة أنجل التى نشرها سنة ١٩٠٣ عن « العلاقات بين علم النفس البنائى والوظيفى » بين الفلسفة The Relations of Structural and " Functional Psycho. to Philos. Psychology

وفى ١٩٠٤ ظهر كتابه مصوراً وجهة النظر الوظيفية فى علم النفس بوجه عام . فلقى نجاحاً كبيراً فى الأوساط الجامعية والمدرسية حتى طبع للمرة الرابعة سنة ١٩٠٨ . على أن أهم ما استطاع أنجل أن يعبر فيه عن علم النفس الوظيفى ... رسالته التى تقدم بها إلى هيئــة علماء النفس الأمريكية سنة ١٩٠٦ وعنوانهـــا The Province of Funct. Psychol. وتتلخص فى فِكَرٍ ثلاث :

١ ـ علم النفس الوظيفى هو علم العمليات العقلية فى مقابل علم العناصر العقلية ؛ أى الفعل بدلا من التركيب . والسؤال : كيف ، ولماذا (How ? Why ?) بدلا من مجرد السؤال بـ : ماذا (What?) :.

٢ ـ وبعبارة أخرى ؛ علم النفس الوظيفى هو علم نفس الفوائد الأساسية fundamental utilities للشعور التى يعنى فيها العقل خصوصاً بالتوسط بين البيئة وحاجات الكائن العضوى ؛ فالفعل النفسى إذن تكيف .

٣ ـ وعلم النفس الوظيفى ـ بالمعنى الأوسع ـ هو السيكوفيزيقا . أى سيكولوچيا الكائن الجسمى النفسى كله ، وهو ـ بهذا المجال الواسع الذى يشمل كل فعل نفسى مكتسب تقريباً ـ لا يدع مجالا للشعور .

ومع أن أنجل ناقش هذه المعانى الثلاثة لعلم النفس الوظيفى ولم يتخير واحـــداً منها ؛ فإن بحثه هـــذا قد ظل إنجيل علم النفس الوظيفى ـ الذى قدم للسلوكية ، ثم اختفى حين قوِيَت هذه . ولم يكن أنجل يريد أن يجعل من وجهة النظر الوظيفية فى عـــلم النفس نوعاً خاصاً مستقلا منه كما يظهر فيما نشره سنة١٩١٢ باسم : فصول من علم النفس الحديث Chapters from Modern Psychol.

(٨) كتّل (چيمس ماك كين) : J. Mckeen Cattell : ولد فى سنة ١٨٦٠ ، وبعد دراسات حرة فى كلية لافايت سافر للدراسة سنتين (١٨٨٠ ـ ١٨٨٢) حيث وجّهه لوتسه Lotze فى جتنجن ثم ڤونت فى ليپتسك إلى المواهب الإنسانية . وعادإلى هوپكنز فى أمريكا وتتلمذ سنة على استانلى هول الذى كان قائماً إذ ذاك على علم النفس . وعاد بعدها إلى ليپتسك حيث طلب إلى ڤونت أن يكون مساعداً له ، وقضى معه سنوات ثلاثاً كانت خصبة الإنتاج ، وكان ينشر مقالاته فى مجلة Brain Mind « دراسات فلسفية Philosophische Studien كلها عن زمن الرجع والفوارق الفردية individual

differences وحصل على الدكتوراه مع ڤونت سنة ١٨٨٦

وفى سنة ١٨٨٧ عُيّن محاضراً فى علم النفس بجامعة پنسلڤانيا ، ثم فى السنة التالية بجامعة كمبردج حيث اتصل لأول مرة بجالتون — وجمع بينهما تشابه آرائهما فى مشكلة الفوارق الفردية وإن كانا قد انتهيا إليها كلٌّ على حدة . ومنذ سنة ٨٨ حتى ٩١ تولى كتل معمل علم النفس كأستاذ له فى جامعة پنسلڤانيا . وأهم إنتاجه فى هذه الفترة رسالته مع فلرتون G.S. Fullerton « فى إدراك الفوارق الدقيقة On the Perception of Small Differences » سنة ١٨٩٢ . وتدل هذه والرسالة التالية لها فى العام التالى عن « أخطاء الملاحظة Errors of Observation » على استعانة كتل بالطريقة الإحصائية ، ومبلغ حَمله على المناهج المُتواضَع عليها فى السيكوفيزيقا ، وثورته على مكانة علم النفس الاستبطانى ، وتقديره دائماً لاحتمال الخطأ أو الهفوة المحتملة probable error التى قام يؤكدها فى علم النفس الفردى — فى مقابل علم النفس العام .

ومن پنسلڤانيا رحل كتل إلى كولومبيا وأسس بها معملاً آخر قام عليه من سنة ١٨٩١ حتى ١٩١٧ ؛ وما زالت به ميوله الأولى فى علم النفس — وإن كان الآن أقل تعبيراً عنها . فى سنة ١٨٩٦ نشر مع فاراند L. Farrand دراسته للقياسات البدنية والعقلية لطلبة كولومبيا كما نشر حتى سنة ١٩٠٦ ست مقالات عن زمن الرّجع ، والفوارق الفردية ، والاختبارات ؛ وأنشأ مع بولدوين مجلة علم النفس ، وظل محرراً لها منذ ١٨٩٤ حتى أخذها بولدوين سنة ١٩٠٤ . وقد عِنىَ — منذ مطلع هذا القرن — بنبوغ رجال العلم بصفة خاصة ، ونشر دراسات إحصائية لمقاييس وشروط هذا النبوغ . وساعده على ذلك وثيق صلته بالهيئات العلمية والصحف وتحريره مجلة «رجال العلم الأمريكيون American Men of Science »

وقد أُبعِد عن جامعة كولومبيا فى سنة ١٩١٧ لميوله السلمية — فى وقت كانت أمريكا تدخل فيه الحرب العظمى — فلم يمنعه ذلك من التعبير عن آرائه فى شىء من الصراحة . وتولى كتل أخيراً رياسة كثير من الجمعيات التى كانت تبيع خدماتها وآراءها السيكولوجية لدور الصّناعة والعمل ، ويستشيرها الجمهور ، حتى أصبح أكبرَ عالم نفسى فى أمريكا ، وانتُخب رئيساً للمؤتمر الدولى التاسع لعلم النفس ١٩٢٩ ، وعُدّ مناظراً لڤونت فى زمن الرجع .

وقد جمع تلاميذه (سنة ١٩١٤) أشتات بحوثه فى موضوعات ستة : عن زمن الرجع ، وعن الترابط الحر والارتباط المقيد (مقالتاه فى سنتى ١٨٨٧ ، ١٨٨٩) ، وفى موضوع الإدراك والقراءة ، الذى بيّن فيه الزمن

الذى تأخذه رؤية الأشياء والأشكال والألوان والحروف والجمل والنطق بها ؛ قائلا إن الزمن الذى يلزم لكل منها يقل عند ما يزيد عدد الأشياء المعروضة منها زيادة قليلة . وفى السيكوفيزيقا له مع جالتون قانون الخطأ الذى ذكرنا ، ومع فلزتون قانون جذر تربيعى فى وصف خطأ الملاحظة لا الإحساس كما فى قانون ڤيـبر Weber ، واكتشافه منهج ترتيب الجدارة method of order of merit أو الموضع النسبي — وكلها تقوم على مسألة الفوارق الفردية — وأخيراً دراسته للعلماء الأمريكيين ؛ التى يريدهم فيها « أن يأخذوا بالمناهج العلمية ليحددوا الظروف التى تأخذ بالتقدم العلمى أو تعوقه » .

وكان لكتل أثر كبير فى علم النفس الأمريكي ، لكثرة مَن تخرج عليه من التلاميذ فى جامعة كولومبيا بدرجة الدكتوراه فى علم النفس .

(٩) هربارت (يوحنا فريدرش) J. F. Herbart : (١٧٧٦ — ١٨٤١) كان فيلسوفاً ، وكان أباً للتربية الحديثة التى أقامها على علم النفس . وهو يشغل مكاناً هاماً فى علم النفس ؛ وان كان قد اتخذه أساساً للبيداجوجيا . وكتاباه فى علم النفس هما أهم كتاباته ؛ كان لهما أثر كبير فى علم النفس التجريبى مع أنه أنكر فيهما قيمة التجربة كما أنه بفضله توثقت صلة التربية بعلم النفس ، وزاد تأثير كل منهما فى الآخر .

قضى منذ طفولته حياة رقيقة — كطبيعته — اختلف فيها إلى الجمنازيوم فى أولدنبرج — بلده — منذ الثانية عشرة ؛ فكان لكانت E. Kant عليه أثر عميق جَعَله يرحل فى الثامنة عشرة إلى يينا ليدرس الفلسفة على فِختَه Fichte . ومن هنا كان ميله أول الأمر إلى المنطق والفلسفة كچون استيوارت مل وإن هو لم يقبل كل تعاليم فخته . وكانت فرصة تحوله من الفلسفة إلى التربية حين صار مدرساً خاصاً لأبناء الحاكم فى أنترلاكن . وبعد سنتين — وهو فى الثالثة والعشرين — رحل إلى برمن وقضى هناك ثلاث سنوات ، ولم يترك سويسرا حتى زار المصلح التربوى الشهير پستالوتزى J.H. Pestalozzi ، ومن برن انتقل إلى جتنجن وظل فيها سبع سنوات (١٨٠٢ — ١٨٠٩) حصل فيها على الدكتوراه ، وصار معيداً بجامعتها . وهناك عارض فلسفة كانت ونهض بفلسفته هو ونظريته فى التربية ، ونشر كتباً كثيرة . ولم تظهر مواهب هربارت إلا حين دُعِى ليشغل كرسى كانت فى كينجزبرج — بعد وفاته — وهو فى الثالثة والثلاثين ، وقضى هناك أربعة وعشرين عاماً كانت أخصب فترة فى حياته وَقَفَها على إتمام مذهبه فى علم النفس ومعالجة مشاكل التربية العملية . وفى سنة ١٨١٦ نشر كتابه ِمَتن فى علم النفس Lehrbuch zur Psychologie

وفى ١٨٢٤ — ٢٥ كتابَه : علم النفس كعلم « Psychol. als Wissenschaft ». كما كتب فى « الميتافيزيقا » ، التى لم تكن لعهده منفصلة تماماً عن علم النفس.

واتسعت شهرته وكثر أتباعه فى ألمانيا فعاد فى ١٨٣٣ أستاذاً للفلسفة فى جتنجن . وظل حتى مات سنة ١٨٤١ ، وخلفه فى كُرسيِّه هرمَن لوتسه R.H. Lotze ثم يوهانِس ميلر J. Müller .

ولمؤلفات هربارت طبعتان ؛ أكثرهما شيوعاً طبعة هارتنشتين G. Hartenstein ترجم سميث M.K. Smith كتابَه Lehrbuch إلى الانجليزية ، ولم يُترجَم الكتابُ الآخر « علم النفس كعلم » . كما أن هربارت قد نشر ، قبل وفاته بسنة : بحوث سيكولوچية Psychologische Untersuchungen . راجع فى كتابات هربارت ما كتبه راند فى قاموس الفلسفة وعلم النفس لبولدوين ج ٣ سنة ١٩٠٥ (ص ص ٢٥٣ — ٢٥٧) .

(١٠) وارد (چيمس) J. Ward (١٨٤٣ — ١٩٢٥) تلقى دراساته الفلسفية فى كمبردج وبرلين وجتنجن — حيث عاصر لوتسه — بعد أن رحل اشتَمَف وميلر ؛ الذى عاد فيما بعد معيداً ؛ إلا أن تأثير هذه الحركة الجديدة فى علم النفس لم يكن فيه كبيراً . عُيِّن زميلا بكلية الثالوث Trinity College بكمبردج (١٨٧٥) ، فمحاضراً (١٨٨١) فأستاذاً لفلسفة الأخلاق (١٨٨٧) . وإنما أثر فيه من الناحية السيكولوچية برنتانو ؛ فأنشأ فى سيكولوچيا الفعل مذهباً عن العلاقة بين الذات الفاعلة والموضوع ، وعبَّر عن آرائه السيكولوچية هذه فى مادة « علم النفس Psychology » من الطبعة التاسعة والحادية عشرة لدائرة المعارف البريطانية (١٨٨٦ ، ١٩١١) وفى كتابه : مبادئ سيكولوچية Psychological Principles (١٩١٨) الذى يقول إنه قضى فى إعداده أربعين سنة . وهو يقسم موضوع علم النفس إلى : المعرفة cognition التى هى حدوث التأثيرات فى المحيط الحسى ، والجهد أو العزم conation الذى هو حصول الأشياء الحركية ، والشعور feeling — وهو ليس حصولا كهذين ؛ لأنه ليس خبرة Erlebnis بل هو حد وسط بينهما .

ومنه نرى أن وارد قد كان فى المقام الأول فيلسوفاً ، وأن اهتمامه بعلم النفس قد كان فلسفياً على الطريقة الإنجليزية . ومن أجل هذا كان أثره كبيراً ، وعُد أكبرَ عالم نفسى فى بريطانيا بعد بين Bain . وليس معنى هذا أنه كان ينكر التجريب فى علم النفس ؛ فإنه قد درس — غير كمبردج — فى برلين وجتنجن ، وعاصَر هذه الحركة واحترمَها حتى لقد حاول أن يُنشئ معملا فى كمبردج بعد عودته إليها : فهو مثل

برنتاتو الذى أراد أن ينشىء معملا فى ڤينا ، وان لم يكن أحدهما مهيئاً بطبعه للبحث التجريبى .

راجع فى تاريخ حياته مقال سورلى W.R. Sorley فى مجلة Mind (مجلد ٣٤ سنة ١٩٢٥ ص ص ٢٧٣ — ٢٧٩) . وفى كتاباته مقالة تتشنر وفوستر فى مجلة علم النفس الأمريكية (مجلد ٢٣ سنة ١٩١٢ ص ص ٤٥٧ — ٤٦٠) التى أعيد طبعها وتنقيحها وإضافة ما زاد عليها حتى وفاة وارد فى مجلة Monist (مجلد ٣٦ ، ١٩٢٦ ؛ ص ص ١٧٠ — ١٧٦) ومنها نرى أن علم النفس قد سيطر على تفكير وارد حتى ١٨٨٠ ، ثم قل اهتمامه به فيما بعد . وأهم ما كتب عن وارد مقالة استوت G.F. Stout فى الـ Monist (مجلد ٣٦ ، ١٩٢٦) .

(١١) ثورندايك (إدوارد لى) Ed. Lee. Thorndike : ولد فى سنة ١٨٧٤ ، وهو أول من أدخل نماذج معينة من الحيوانات العليا فى المعمل وقام بالتجربة عليها بأجهزة خاصة . كما أنه مخترع التواهة أو المحيرة puzzle - box التى استخدمها مع القطط والكلاب ؛ وظل يجرب على الفراريج كيف تتعلم الخروج من مآزق ومتاهات بسيطة mazes يركبها من الكتب قائمة ، فهو قد كان يدرس ذكاء الحيوان دراسة تجريبية بدأت فى هارڤرد ، وانتهت فى معمل كتل بكولومبيا .

والذى انتهى إليه ثورندايك أن هذه الحيوانات لا تظهر فى تعلمها أى دليل على الاستبصار أو الاستدلال ، وإنما هى تتعلم بتركيبات وارتباطات عارضة فى مجرى خبرتها ، أى ماسماه هـ لويد مورجن C. Lloyd Morgan — فيما بعد — بالمحاولة والخطأ trial and error ؛ إذ لم يقم لديه دليل على أن الحيوانات تتعلم بالملاحظة أو تستفيد من رؤية سلوك بعضها البعض ؛ فقال بأنه ينقصها الصور الحرة free images ، والذاكرة — أى الرجوع بوعى إلى المخيلة — إلا ما كان منها بصورة بسيطة فى الارتباطات .

واهتمام ثورندايك بعلم النفس الحيوانى يشغل فترة دراسته فى هارڤرد ، ومع كتل فى كولومبيا — حيث استقر فيما بعد . وتعد دراسته هذه مرحلة انتقال من دراسة ذكاء الحيوان Animal Intelligence إلى دراسة الحياة العقلية فى القردة The Mental Life of Monkeys (وهما عنوانا بحثين نشرهما فى مجلة psychol. Monog. سنتى ١٨٩٨ ، ١٩٠١ كانا تمهيداً لدراسة وظائف التفكير ومسائل التربية فى الأطفال) . وكان قد نشر عن سلوك الحيوان فى سنة ١٨٩٩ بحوثاً ثلاثة . نشرت فى سنة ١٩١١ كتاباً عنوانه : ذكاء الحيوان Animal Intelligence .

راجع بقية كتبه وبحوثه ومختصر

تاريخ حياته ومدى نشاطه فى واشبرن M.F. Washburn وفى سجل علم النفس (ج ٢ ص ص ٢٤٠ – ٢٤٤) .

(١٢) قانون الأثر law of effect : لما أنكر ثورندايك الصور الخيالية على الحيوان فى تعلُّمه بالمحاولة والخطأ ؛ بقى عليه أن يُبين كيف يتأتى لمحاولات الارتباط الصحيحة أن تَثبُت ، وللخاطئة أن تزول . ولكى يفسر هذه الحقيقة اصطنع نظريته المعروفة بالأثر effect الذى يرتدّ بالسرور عند تكوين هذه الارتباطات – وهى ما سمى فيما بعد بقانون الأثر المرتد retroactive effect . ولذة الظفَر بتكوينها تأتى بطبيعة الحال بعد أن تكون الارتباطات الصحيحة قد تكونت فعلا وعند ما تصبح الأفعال المؤدية لهذا الظفَر عنده غير مشعور بها ؛ لأن الحيوان – كما قدمنا – تنقصه – عند ثورندايك – المخيلة الضرورية . فهو يقول إذن إن السرور له رد فعل مباشر فى تثبيت الارتباطات السابقة ، وعلى هذا يقوم قانونه فى التعلم ؛ وكلاهما فى بحثه فى « علم النفس التربوى Educational Psychology » سنة ١٩١٣ . ووجه الاعتراض على نظرية الأثر هذه : أن رد الفعل بالسرور – فى تثبيت ارتباطات ماضية أو سابقة – يُخيِّب دائماً ظنّ المرء (وهذا أوضح فى المصطلح الإنجليزى منه فى العربى : علة ومعلول أو مؤثر وأثر cause, effect) إذ لا يُتصور المؤثر إلا سابقاً على الأثر . والحق أن ثورندايك لا يعنى أن اللذة تُثبِّت فقط آثار الارتباطات السابقة الموجودة ، وما زال هذا النقد يُعوزه البرهنة ؛ ما دامت هذه الآثار الارتباطية لا يمكن ملاحظتها مباشرة إلا عن طريق التخيل المرتد ، وما دام لا يمكن اختبار تخيل الحيوان – ولا اختباره بدقة فى الإنسان بالاستبطان .

راجع غير دراسة ثورندايك آنفة الذكر (علم النفس التربوى ١٩١٣) ؛ كتابَ سلوك الحيوان Ani. Behav. لمورجَن L. Morgan (١٩٠٠)

(١٣) يِركِس (روبرت) R.M. Yerkes المولود سنة ١٨٧٦) قد شغل عدة مناصب فى هارڤرد (من ١٨٩٩ إلى ١٩١٧) صار فيها أستاذاً مساعداً ، ثم اشتغل فى تنظيم وإدارة اختبارات الذكاء فى الجيش الأمريكى للولايات المتحدة خلال اشتراكها فى الحرب العظمى (١٩١٧ – ١٩١٩) . واستمر بعد ذلك نشاطُه فى هيئة البحث القومى National Research Council بواشنطون حتى ١٩٢٤ . ومنذ ذلك الحين صار أستاذاً لعلم النفس فى ييل Yale ، فكان عالِم النفس المقارن بكل معنى الكلمة . اشتغل أول أمره فى هارڤرد بذكاء الحيوان ، وفى ييل بالحيوانات الشبيهة بالإنسان .

بدأ إذن بدراسة علم النفس الحيوانى فى سنة ١٩٠٠ ؛ وهنا يمكن أن يعد رائد الحركة الأمريكية فى علم النفس الحيوانى : لوفرة إنتاجه ، وثباته فى الميدان ، وأثره فى تنظيم هذا الاتجاه . وأجرى تجاربه – منذ ذلك الحين – على أنواع الحيوان على نحو تطورى ؛ من السرطانات المائية crabs إلى السلاحف ، فالضفادع ، فالفأر الراقص dancing mouse فالفأر الكبير rat ، فالديدان ، والغراب ، والحنلة ، والخنزير ، والقرد ؛ وأخيراً القِردة الشبيهة بالإنسان . وساهم يركس فى دراسة المناهج ؛ فبحث مع وطسون فى مناهج دراسة البصر فى الحيوانات (١٩١١) وخصوصاً منهج الحيرة أو الاختيار المتعدد multiple choice الذى استعمله هاملتون G.V. Hamilton لأول مرة حين كان معه فى هارفرد – وهو اختبار للذكاء يرمى إلى بيان كيف أنه من العسير أن يتعلم الحيوان أو الإنسان قانوناً للاختيار فى استجابة غامضة ، وأن يستخدم « مفتاحاً » للموقف . راجع فى منهج دراسة البصر فى الحيوان : يركس ووطسون (بحوث فى السلوك Behav. Monog. ١ –١٩١١ رقم ٢) وفى منهج الاختيار المتعدد راجع هاملتون (مجلة سلوك الحيوان J.A nimal Behav. ١–١٩١١ – ص ص ٣٣ – ٦٦) .

وليركس دراسات هامة على القِردة والشمپانزى سبق بها كيلر ، فإنه كان قد فكر قبل الحرب العظمى فى إنشاء مركز لدراسة القردة الشبيهة بالإنسان– وهو مشروع ظل معلقاًسنوات طويلة . وله فى ذلك بحوث عن : الحياة العقلية للقردة MentaL life of Monkeys and Apes (بحوث فى السلوك . Behav. monog ١٢ ، ١٩١٦) ؛ بعد أن أثار الاهتمام بدراستها بحث كيلر الذى نشره سنة ١٩١٥ من مقر دراسته للقردة فى تنريف Teneriffe باسم : اختبار ذكاء القردة الشبيهة بالإنسان Intelligenzprüfung anMenschenaf-fen

وقد وجه يركس علم النفس المقارن فى عهده بما يجعل منه مرادفاً لعلم النفس الحيوانى ، فأعلن فى سنة ١٩١٣ أن هذا اللفظ يستخدم بمعناه الصحيح حين يراد به دراسة الفروق بين الحيوانات – بما فيها الإنسان – وبين النبات ؛ بين الأطفال والبالغين ؛ بين الشواذ والعاديين – مما انتهى به إلى مقياسه للذكاء المسمى Point Scale ، وإلى تجاربه فى الذكاء بالجيش الأمريكى كما قدمنا ؛ ثم إلى نوع من علم نفس الأجناس racial psychol. راجع فى تعريفه لعلم النفس المقارن (مجلة الفلسفة J. Philos. جـ ١٠ ١٩١٣ ص ص ٥٨٠ – ٥٨٢) وفى قياس الذكاء راجع له مع بردجز J. W. Bridges وهاردوك R. S. Hardwick بحث : A Point

Scale of Measuring Ability (سنة ١٩١٥) .

وفى يركس بوجه عام — حياته ومؤلفاته — راجع واشبرن (١٩٢٦) وسجل مرتشيزون (جـ ٢ ص‌ص ٢٩١ — ٩٣) .

(١٤) پاڤلوف Ivan Petrovitch Pavlov (المولود فى ١٨٤٩) له أثره الهام فى قيام السلوكية ، وآثاره التى معظمها بالروسية ، وقليل منها مقالات مبعثرة بالفرنسية والألمانية قد تُرجمت جميعها إلى الانجليزية . فى سنة١٩٢٧ ظهر كتابه : الأفعال المنعكسة الشرطية Conditioned Reflexes، وهو بحث فى النشاط الفيزيولوچى للحاء الشوكى كما يظهر من الجملة المكملة لعنوان هذا الكتاب . وفى السنة التالية (١٩٢٨) كتابه الآخر : محاضرات فى الأفعـــال المنعكســـة الشرطية Lectures on Conditioned Reflexes، وهو يحوى إحدى وأربعين محاضرة رتبها ترتيباً زمنياً منذ ١٩٠٣ حتى ١٩٢٨ ، مع مختصر تاريخى .

ومنذ أعلن پاڤلوف سنة ١٩٠٣ عن المنعكس الشرطى للعاب ؛ لم يزل يتكلم عن منهجه الجديد فى الكشف عن الذكاء والظواهر العقلية الأخرى فى الحيوان على أنها نفسية psychic ، وعن مسيل اللعاب بالإشراط على أنه إفرازات نفسية psychic secretions . ولسنا ندرى أهو بهذا يُعرِّض بعلم النفس أم أنه تصريح فيزيولوچى يؤمن أن علم النفس ليس — فى أبعد ما يمكن أن يكون علمياً — شيئاً آخر غير الفيزيولوچيا ؛ فإنا نراه يقول فى سنة ١٩٠٤ : « إن فيزيولوچيا الأجزاء العليا من الجهاز العصبى المركزى فى الحيوانات العليا لا يمكن أن تدرس بنجاح إلا إذا تخلى المرء تماماً عن تصورات السيكولوچيا اللامحدَّدة ، ووقف على أساس موضوعى خالص » وما يزال يردد هذا الرأى فى قوة وإصرار — ست مرات — حتى سنة ١٩١٣ .

وهو هنا — كما يقول بورنج (تاريخ علم النفس التجريبى ، ص ٥٨١) — لا يعبر عن عدم ثقته بمنهج علم النفس لعظيم ثقته بمنهج الفيزيولوچيا ؛ بل هو يُقدم منهَج المنعكس الشرطى الجديد على أنه يحل المشاكل التى كان يُظَن بها أنها مشاكل نفسية ، فلم تصل حينئذ إلى حل سليم — فى الحيوانات على الأقل . ومنهجه هذا هو طريقة تُبين إلى أى المنبهات الحسية يمكن أن يستجيب الحيوان مع تبيُّن الفروق . ويمكن أن يُستخدم فى الكشف عما يدركه الحيوان بعد استئصال أجزاء مختلفة من مخه ، كما فى اختبار استعداده العادى . وهو يفتح — كما كان ينبه پاڤلوف دائماً — ميداناً كاملا للفيزيولوچيا يعالج المسائل التى كان يُظَن من قبل أنها سيكولوچية

راجع فى آثار پاڤلوف ماكتبه

يركس ومرجولس S. Morgulis فى صحيفة علم النفس Psychol. Bull. (عدد ٦ سنة ١٩٠٩ ، ص ص ٢٥٧ — ٢٧٣) . وفى تمهيده بعلم النفس الموضوعى لظهور السلوكية : راجع دسرنز C.M. Diserns (مجلة علم النفس Psychol. Rev. مجلد ٣٢ سنة ١٩٢٥ ص ص ١٢١—١٥٢) .

(١٥) بختروف Vladimir. M. Bekhterev ترجع أهميته إلى أنه — قبل پاڤلوف ومعه — قد عمل على اكتشاف المنعكس الشرطى ؛ محولا بذلك علم النفس وجهة موضوعية . وبينما كان علماء النفس الأمريكيون أكثر بطئاً فى إدراك القيمة الكبيرة التى لهذا المنهج الذى قدم لهم منذ ١٩٠٩ ؛ فإنه وصاحبه (الروسيين) قد مهدا بدراستهما أكبر التمهيد لظهور السلوكية كتطبيق لعلم النفس الموضوعى . ولا يجد المؤرخون مايقولونه فى بختروف أكثر من هذا ، فإن مقالاته المتناثرة ، وكتابه فى علم النفس الموضوعى ؛ معظمها بالروسية والألمانية وقليل منها بالفرنسية . (راجع مقال دسرنز المشار إليه فى پاڤلوف) .

(١٦) تويتماير (إدوين بيركت) Edwin Burket Twitmyr ولد فى McElhattan بفيلادلفيا بالولايات المتحدة فى سپتمبر ١٨٧٣ ، وحصل على إجازة الفلسفة من كلية لافايت (سنة ١٨٩٦) وعلى الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة پنسلڤانيا (سنة ١٩٠٢) ، ومنذ سنة ١٨٩٧ اشتغل بهذه الجامعة معيداً فأستاذاً مساعداً فأستاذاً لعلم النفس ثم مساعداً لمدير معمل علم النفس وعيادته . وكان عضوا فى هيئة علماء النفس الأمريكية ، وجماعة تقدم العلم الأمريكية وغيرها . (سجل علم النفس لمرتشيزون — ج ٢ ص ٢٥٥ عمود ١) .

(١٧) سميث (ستيفنسن) S. Smith (وهو غير مرغريت كيفر سميث الألمانية ، وفرانكلين أوريون سميث بجامعة مونتانا) ولد فى فيلادلفيا سنة ١٨٨٣ ، ولحق بجامعة پنسلڤانيا فنال درجة الدكتوراه فى الفلسفة (سنة ١٩٠٩) . اشتغل أستاذاً لعلم النفس فى كلية همدن سدنى Hampden Sidney (من ١٩٠٦ حتى ١٩١١) ثم انتقل إلى جامعة واشنطون حيث صار أستاذاً مساعداً (١٩١٣) فأستاذاً ومديراً لمعمل علم النفس (منذ سنة ١٩١٥) . وهو عضو هيئة علماء النفس الأمريكية .

وله غير الكتاب الذى أخرجه مع جوترى — المذكور فى قول ودورث — علم النفس العام فى مصطلح السلوكى (نيويورك ١٩٢١) وبحث فى مجلة علم النفس المرضى والاجتماعى J. Abn. & Soc. Psychol. (سنة ١٩٢٢) بعنوان Exihibitionism ، وفى مجلة علم النفس Psychol. Rev. (سنة ١٩٢٧) بحث عن التعرف

والتذكر Recognition and Recall (مجلد ٢٤ ص‌ص ٢٨ – ٣٣) وفى العدد الأول من مجلة الطب البريطانية Brit. Med. J. بحث فى حالة تورم فى المخ بدون أعراض A Case of Tumour of the Brain without Symptom (راجع سجل مرتشيزون جـ ٢ ص ٢٢٠) .

(١٨) جوترى (إدوين راى) Edwin Ray Guthrie :— وهو بقسم علم النفس بجامعة واشنطون أيضاً — ولد بعد صاحبه بثلاث سنوات (١٨٨٦) ، ولحق بجامعة نبراسكا (١٩٠٧ – ١٩١٠) ولكنه حصل على الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة پنسلڤانيا سنة ١٩١٢ ، وظل بها حتى سنة ١٩١٤ زميلا University Fellow ثم انتقل معيداً بجامعة واشنطون (١٩١٤ – ١٩١٩) وظل بهـا حتى صار أستاذاً لعلم النفس فى سنة ١٩٢٨ .

وكان هو الآخر عضواً فى هيئة علماء النفس الأمريكية ، والجمعية الأمريكية للفلسفة .

وله مع سميث كتاب « علم النفس العام » المذكور ، و : الاستعراض Exhibitionism (فى مجـلة علم النفس المرضى والاجتماعى) . وله (فى مجلة الفلسفة جـ ٢١ سنة ١٩٢٤) بحث عن الغرض والآلية فى علم النفس Purpose and Mechanism in Psychol. (ص‌ص ٦٧٣ – ٦٨١) وفى مجلة علم النفس المرضى والاجتماعى (سنة ١٩٢٧ ، مجلد ٢٢) قياس الانطواء والانبساط Measuring Introversion and Extroversion (ص ٨٢ – ٨٨) انظر (سجل مرتشيزون جـ ٢ ص ٩٧) .

(١٩) هولنجورث (هارى ليڤى) H.L. Hollingworth — المولود سنة ١٨٨٠ — درس بجامعة نبراسكا حتى ١٩٠٦ ، ثم انتقل إلى جامعة كولومبيا فحصل منها على الدكتوراه فى الفلسفة (سنة ١٩٠٩) واشتغل مدرساً بها وبكلية برنارد (١٩١٠ – ١٩١٤) ، ثم صار أستاذاً مساعداً (١٩١٥ – ١٩٢١) فأستاذاً للتربية (سنة١٩٢٢) . وكان مساعداً لتحرير مجلة علم النفس التطبيقى J. of Applied Psychol. ولمجلة علم النفس العام J. of General Psy. (١٩٢٨) كما كان عضواً بهيئة علماء النفس الأمريكية (تولى رياستها سنة ١٩٢٧) .

وله بحوث ودراسات كثيرة فى علم النفس التجريبى والعملى عن الحكم judgement والإدراك ، والتعلم practice وعن : علم النفس ، والطب ، والأثر النفسى للكحول (مجلة علم النفس المرضى والاجتماعى ، ١٩٢٣ جـ ١٨ ص‌ص ٢٠٤ – ٢٣٧) وفى الفكر وعلاقاته الرمزية ... مما تجد عرضاً له حتى سنة ١٩٢٩ فى سجل مرتشيزون

(ج ٢ ص ص ١٠٨ — ١٠٩) .

(٢٠) واشبرن (مرغريت فلوى) M.F. Washburn : ولدت بنيويورك فى يوليو ١٨٧١ ، وحصلت على درجتى الـ A.B. والـ A.M. من كلية ڤاسر Vasser (سنتى ١٨٩١ ، ١٨٩٣) ثم حصلت على الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة كورنل (سنة ١٨٩٤) . اشتغلت أستاذاً للفلسفة ومحاضرة فى علم النفس بكلية ولز Wells Gollege وجامعة كورنل وغيرهما حتى سنة١٩٠٣ حيث عينت أستاذاً مساعداً للفلسفة مع القيام بعلم النفس فى كلية ڤاسر Vasser ؛ ثم فى سنة ١٩٠٨ أصبحت أستاذاً لعلم النفس فى هذه الكلية .

وقد اشتركت وساعدت فى تحرير مجلات كثيرة : منها مجلة علم النفس المقارن ، ومجلة علم النفس الأمريكية Ameri. J. of Psychol. والصحيفة النفسية Psycholo. Bulletin ، ومجلة سلوك الحيوان J. of Animal Behav. ، والمجلة النفســـية Psychol. Review وغيرها . كما كانت عضواً بهيئة علماء النفس الأمريكية — التى رأستها سنة ١٩٢١ — والجمعية الأمريكية لتقدم العلم (كانت نائبة الرئيس ومنظمة لقسم ١ منذ ١٩٢٦) ؛ وفى لجنة البحث القومى ، قسم الأنثروپولوچيا وعلم النفس .

ولا ترجع أهمية واشبرن إلى مجرد مشاركتها فى حركة علم النفس الحيوانى ، الذى — وإن لم يكن عملها قد اقتصر عليه — فقد دفع بها إلى ميدانه نجاح كتابها : عقل الحيوان The Animal Mind ؛ بل لأنها كانت — كما يقول بورنج Boring (تاريخ علم النفس التجريبى ص ٥٦٠) — سكرتيرة وموسوعة لهذه الحركة . وكتابها الذى أشرنا اليه ، والذى ظهر سنة ١٩٠٨ وروجع سنتى ١٩١٧ ، ١٩٢٦ هو كتاب جامع لكل بحث فى هذا الموضوع . وإذا كان لا بد لأى حركة من كتاب أو متن يعبر عنها لكى تبلغ شبابها ؛ فإن كتاب واشبرن يقدم هذا النوع الواعى من الدراسة لتاريخ هذه الحركة .

وتجد ثبتاً كاملا لبحوث وكتب واشبرن حتى ١٩٢٩ بسجل مرتشيزون (ج ٢ ص ص ٢٦٥ — ٢٦٨) .

(٢١) نظرية چيمس — لانجى James — Lange theory فى سنة ١٨٨٤ صاغ چيمس لأول مرة نظرية له فى الانفعال ؛ قام حولها نقاش وبحث واسعان ، وأصبحت فيما بعد أشهر نظريات چيمس السيكولوچية . فقد قال بأن ثمة تكيفات منعكسة داخلية فى الجهاز العصبى للاستجابات الانفعالية ؛ تكيفات تؤدى بطريقة آلية إلى تغيرات جسمية معظمها فى الأحشاء والعضلات ، وأن بعض هذه التغيرات يمكن أن يحس ؛ وأن إدراك

هذه التغيرات هو الانفعال emotion . وفكرته أن الشيء فى علاقته بعضو الحس يثير إدراكاً للشيء عن طريق المركز اللحائى المختص ، وأن هذا الإدراك الحسى هو « فكرة الشيء مفهوماً فحسب idea of object-simply-apprehended » ، وأن هذه الفكرة تيارات منعكسة تمر فى طرق معينة ، وتغير حالة العضلات والجلد والأحشاء ؛ وأن إدراك هذه التغيرات هو « فكرة الشيء مشعوراً به على نحو انفعالى — idea of object emotionally-felt » .

وفى السنة التالية وضع لانجى C. Lange فى كوپنهاجن نظرية قوية الشبه بهذه ، غير أنها أقل عمقاً ، وأكثر تأكيداً للتغيرات العصبية المحركة للأوعية الدموية vasomotor changes فأعاد چيمس فى « مبادئه Principles» (١٨٩٠) نشر هذه النظرية ، مقيما اعتباراً لفكرة لانجى ، ومُدخِلا عليها تغييرات وتحسينات . ولم تسلم هذه النظرية من النقد ؛ نقد نشأ معظمُه — كما يقول بورنج (تاريخ علم النفس التجريبى ص ٥٠٣) — من التبسيط أكثر مما ينبغى ، الناتج عن أسلوب چيمس التصويرى ؛ مما جعله يُظهر الانفعال على أنه نتيجة — وليس علة — للتغيرات الجسمية ، وذلك كما لو قلنا : « نحن نشعر بالحزن لأننا نبكى ، وبالخوف لأننا نرتعـــد » ؛ مما يتعارض مع مألوف ما نعرف . وفى مقالة له (سنة ١٨٩٤) ألمّ چيمس بهذه الاعتراضات قائلا : إن المنبه للتغيرات الجسمية ليس شيئاً بسيطاً ، بل هو موقف بأكمله total situation فنحن قد نجرى من الدبّ ، ولكننا لا نجرى منه إذا كان مقيدا ، أو إذا كنا صائدين نُحسِن الرمى . وميّز — فى المقام الثانى — بين الانفعال ، وما سماه قوة الشعور feeling-tone ؛ مُعرِّفاً الانفعال بأنه : نوع من إصابة يشمل هذه التغيرات الجسمية .

وقد حدّت هذه التعديلات من شمول النظرية وبساطتها ، ولكنها جعلتها لا شك أقربَ إلى الحقيقة . راجع فى هذه النظرية : مبادئ علم النفس لچيمس (١٨٩٠) ج ٢ ص ص ٤٤٢ — ٤٥٥ ، ومجلد ٩ من مجلة Mind (١٨٨٤) ص ص ١٨٨ — ٢٠٥ . أما رده على مُعترضيه فتجـــده فى العدد الأول من مجلة علم النفس .Psychol. Rev (سنة ١٨٩٤) ص ص ٥١٦ — ٥٢٩ ، كما تجده فى مقالاته ونشراته المجموعة Collected Essays and Reviews (سنة ١٩٢٠) . أما ورقة لانجى المســماة Om Sindsbevoegelser (١٨٨٥) فقد تُرجمت إلى الألمانية (فى Ueber Gemütsbewegungen الانفعالات) ١٨٨٧ .

(٢٢) كَنَن (ولتر برادفورد) .W. B

Cannon : ولد فى أكتوبر ١٨٧١ ولحق بجامعة هارڤرد فحصل منها على الـ A.B. والـ A.M. فى سنتى ١٨٩٦ ، ١٨٩٧ . وفى ذلك الحين لحق بمدرسة الطب بهارڤرد ، وحصل منها على الدكتوراه فى الطب سنة ١٩٠٠ .

اشتغل بجامعة هارڤرد مدرساً للزولوچيا حتى ١٩٠٢ ، فمدرساً للفيزيولوچيا حتى ١٩٠٦ حيث صار أستاذاً مساعداً للفيزيولوچيا واشترك فى كثير من الجمعيات والهيئات العلمية بأمريكا وپاريس ولندن وپولونيا وبيونس أيرس .

وقد تولى هو — بعد چيمس ولانجى — دراسة الانفعال دراسة تجريبية فى المعمل الفيزيولوچى ، ووصف بعض هذه التغيرات الجسمية بأن الجهاز العصبى السمپتاوى يُنبِّه فى الانفعال ، فيثير كثيراً من التغيرات الانفعالية التى تهيئ الكائن العضوى لفعل عنيف كالمقاتلة أو الهرب . كما بيّن أن تنبيه الجهاز العصبى السمپتاوى يطلق الأدرينين adrenin فى مجرى الدم وأن كثرة الأدرينين نفسها تميل إلى إحداث هذه التغيرات . وقد أيد كنن أيضاً فكرة قوة الشعور feeling-tone الناشئة عن تهيج التلاموس كعامل أساسى فى الانفعال . وكان ما انتهى إليه كنن ؛ أن كل الانفعالات متشابهة من حيث التغيرات الجسمية الناشئة عنها . وبهذا تصبح نظرية چيمس ـ لانجى غير صحيحة ؛ فقد فسر بعض علماء النفس نتائج كنن على عكس ذلك ؛ قائلين إنها تتناول طبيعة الانفعال ككل ، وكما هو ، وإنها تعجز عن بيان وجوه الفرق بين الانفعالات .

وتقف على أثر كنن — معظمه — فى كتابه : تغيرات الجسم فى الألم والخوف والغضب Bodily Changes in Pain, Hunger, Fear and Rage (١٩١٥) متضمناً أحدث آرائه (فى الطبعة الثانية منه سنة ١٩٢٩) ، كما تجد ثَبت مقالاته وبحوثه — حتى سنة ١٩٢٩ — فى سجل مرتشيزون ج ٢ ص ص ٣٦ — ٣٧ .

(٢٣) مايِر (مكس فريدرش) M. F. Meyer : ولد فى دانتسك بألمانيا (فى يونيو ١٨٧٣) ، ولحق بجامعة برلين (من ١٨٩٢ حتى ١٨٩٨) حيث حصل على الدكتوراه فى الفلسفة سنة ١٨٩٦ ، ومنذ سنة ١٩٠٠ صار أستاذاً لعلم النفس بجامعة ميسورى بكولومبيا . وكان عضواً وزميلا لهيئة علماء النفس الأمريكية ، والجمعية الأمريكية لتقدم العلم . وقد أورد مرتشيزون فى سجله الثانى (١٩٢٩) قائمة كتبه وبحوثه بالألمانية والإنجليزية (ص ص ١٥٨ — ١٥٩) .

(٢٤) اشتَمف (كارل) Karl Stumpf : المولود سنة ١٨٤٨ فى قرية من مقاطعة بڤاريا قريبة من ڤيرتسبورج ، اشتغل

أبوه وجده لأمه بالطب الشرعى ، فكان لهذا الأخير فى تربية اشتمف كبيرُ الأثر بعد أن اعتزل الخدمة : علّمه اللاتينية ، والطبَّ والعلمَ الطبيعى قد أحبهما لكثرة مَن كانوا يترددون على الدار من الأطباء ، وكان يحسن الموسيقى على خمس آلات موسيقية أو أكثر ، قبل أن يختلف إلى الجمنازيوم فى الحادية عشرة .

وفى السابعة عشرة لحق بجامعة ڤيرتسبورج ، ولم يحصل على درجته فى الموسيقى ؛ بل اتجه إلى علم الجمال الذى انتهى به إلى الفلسفة ، متأثراً بشخصية برنتانو ولوتسَه — الذى أحاله إليه برنتانو فى جتنجن ليحصل على درجته معه سنة ١٨٦٨ ، وليعود ثانية إلى برنتانو فى ڤيرتسبورح يشارك فى أفكاره الدينية عن المسيحية الجديدة وليَعود مرة أخرى — بعد انغماسه فى هذه الثالوچيا والفلسفة المدرسية — إلى جتنجن للحصول على إجازة التدريس برسالة له فى « البديهيات الرياضية » عين بها معيداً Dozent فى جتنجن ثلاث سنوات . وأتيح له أن يتعرف جيداً بلوتسه وڤيبر وفخنر ، وبدأ منذ سنة ١٨٧٢ يدرس فكرة أصل إدراك المكان ، فأصدر فيها كتابه الأول فى علم النفس «فى الأصل السيكولوچى للإدراك المكانى Ueber den psychologischen Ursprung der Raúmvorstellung» فى ربيع ١٨٧٣ ، قال فيه إن اللون والامتداد كلاهما جزء أولى مكون للإحساس البصرى . وفى هذه السنة حصل اشتمف على كرسى الفلسفة خلفاً لبرنتانو المستَقِيل ، وبتأييده هو ولوتسَه ؛ فقضى هنا ست سنوات تعرضت حياته بعدها لتغيرات جغرافية كثيرة — كما يقول بورنج (تاريخ علم النفس التجريبى ٣٥٣) — فقد قضى خمس سنوات فى براغ ، وخمساً فى هَلّى Halle ، وخمساً فى ميونخ ، وأخيراً ذهب إلى برلين (١٨٩٤) . وصاحَب تنقلاتِه هذه تحولُه إلى علم النفس وإن لم يُزايِله سلطانُ الفلسفة ، بل هو يخدم الفلسفة بعلم النفس كما يفعل برنتانو ومل . وعاوده غرامه بالموسيقى ، فكتب عن سيكولوچيا النغم الموسيقى Tonpsychologie (بدأ عمله فيه سنة ١٨٧٥ فى ڤيرتسبورج ، وظهر مجلده الأول سنة ١٨٨٣ فى براغ ، ومجلده الثانى سنة ١٨٩٠ فى ميونخ) وبتعيينه فى برلين — هذا المركز العلمى والموسيقى الممتاز — تفجرت مواهبه وزاد نشاطه فى الثلاثين سنة التالية أضعاف أضعاف ما كان عليه فى الثلاثين سنة الماضية ؛ فأصبح معمله معهداً كبيراً ، وترأس مع لپس Lipps مؤتمر علم النفس الدولى فى ميونخ سنة ١٨٩٦ . وفى سنة ١٩٠٠ كان أحد مؤسسى جمعية برلين لسيكولوچيا الطفل Verein für Kinderpsychologie ، وهَمَّ بكتابة مجلد ثالث فى « سيكولوچيا

النغم » ولكنه كتب بدلا منه : « أقوال في علم الأصوات والموسيقى Beitrage zur Akustik und Musikwissenschaft » منذ ١٨٩٨ وما بعدها .

وبتأمل كتابات اشتمف (سجل علم النفس لمرتشيزون جـ ٢ ص ص ٤٧٣ — ٤٧٦) نجد أن معظمها في سيكولوچيا النغم والموسيقى . في هذا الميدان المحدود من علم النفس قصر نشاطه ، ولا يدين له علم النفس العام بإنتاجه بقدر ما يدين له بشخصيته التي استمدها في الأغلب من مركزه العلمي ، وإن كان ذلك لا يجرده من قدرته ونشاطه .

كتب اشتمف بنفسه تاريخ حياته، وكتبه في اشميت : فلسفة الحاضر كما يقدمها أصحابها : R. Schmidt. Die Philosophie der Gegenwart in Selbostdarstellungen (جزء ٥ — ١٩٢٤ — ص ص ٢٠٥ — ٢٦٥) ، كما كتب في نظرية الانفعال والشعور — التي أدى به إليها غرامه بالموسيقى — ثلاث مقالات في مجلة علم النفس Zsch. f. Psychol. سنة ١٨٩٩ (عدد ٢١ ص ص ٤٧ — ٩٩) وسنة ١٩٠٧ (عدد ٤٤ ص ص ١ — ٤٩) ، وسنة ١٩١٦ (عدد ٧٥ ص ص ١ — ٣٨) نقدها وعلق عليها في مجلة علم النفس الأمريكية : تتشنر (عدد ٢٨ سنة ١٩١٧ ص ص ٢٦٣ — ٢٧٧) . وفي بقية آثار اشتمف — تاريخ نشرها ومصادرها — راجع بورنج : تاريخ علم النفس التجريبي ٣٧٠ — ٣٧١ .

(٢٥) فايس (ألبرت پول) A.P. Weiss : ولد بقرية من مقاطعة سليزيا بألمانيا (في سبتمبر ١٨٧٩) ولحق بجامعة ميسوري فحصل على درجة A. B. سنة ١٩٠٩ ، ودرجة A. M. سنة ١٩١٢ ، والدكتوراه في الفلسفة ١٩١٦ ، وعين مدرساً بجامعة ولاية أوهايو (١٩١٢ — ١٩١٥) فأستاذاً مساعداً (١٩١٦ — ١٩١٨) فأستاذاً لعلم النفس (منذ سنة ١٩١٨) . وتولى مساعدة تحرير مجلة علم النفس العام (منذ ١٩٢٨) . كما كان عضواً في هيئة علماء النفس الأمريكية ، والجمعية الأمريكية لتقدم العلم ، وفي المجمع اللغوي الأمريكي Am. Linguistic Society .

وقد أسهم فايس مبكراً في المذهب السلوكي ، وعارض به علمي النفس الوظيفي والبنائي (التركيبي) . وتجد ثبت مقالاته وبحوثه الهامة في السلوكية في سجل مرتشيزون (جـ ٢ ص ٢٧٣) .

(٢٦) هنتر (ولترصمويل) W.S.Hunter: ولد في مارس ١٨٨٩ ، ولحق بكلية الهندسة بتيكساس Texas (من ١٩٠٥ إلى ١٩٠٨) ثم حصل على الـ A.B. من جامعة تكساس (سنة ١٩١٠) وعلى الدكتوراه في الفلسفة من جامعة شيكاغو (سنة ١٩١٢)

وصار مدرساً للفلسفة فى جامعة تكساس (حتى ١٩١٤) فأستاذاً مساعداً لعلم النفس (حتى سنة ١٩١٦) فأستاذاً فى جامعة كنساس Kansas (حتى ١٩٢٥) ثم انتقل إلى جامعة كلارك وظل بها . وكان هَنتر عضواً بهيئة علماء النفس الأمريكية ، كما كان زميلا لجمعية تقدم العلم الأمريكية .

وتولى مساعَدة تحرير مجلة سلوك الحيوان J. of Animal. Beh. ، وصحيفة علم النفس Psychol. Bulletin ومجلة علم النفس المقارن ، وبحوث سيكولوچية Psychal. Monog. ، وأسبوعية التربية Pedag. Semin. ، وبحوث علم النفس التكوينى ؛ وغيرها

وكان هنتر أحد الذين استهوتهم تعاليمُ السلوكية فأقبلوا عليها ، فكانت له بحوث طيبة فى الفكر والشعور والمعرفة ؛ تجد قائمة لها (حتى سنة ١٩٢٩) بسجل مرتشيزون (جـ ٢ ص ص ١١٤ — ١١٥) .

(٢٧) كار (هارڤى) H.A. Carr : ولد فى مورس (فى أبريل ١٨٧٣) ولحق بجامعة كولورادو فحصل منها على درجتى الـ B. S. ، M. S. (سنتى ١٩٠١ ، ١٩٠٢) ثم بجامعة شيكاغو حيث حصل على الدكتوراه فى الفلسفة (١٩٠٥) . وبعد أن اشتغل مدرساً بمعهد پرات Pratt Institute عين أستاذاً مساعداً بجامعة شيكاغو (١٩١٦ — ١٩٢٣) فأستاذاً (سنة ١٩٢٦) . وتولى (١٩٢٨) مساعدة تحرير مجلة علم النفس العام ، كما رأس هيئة علماء النفس الأمريكية (١٩٢٦) .

راجع قائمة بحوثه ومؤلفاته فى سجل مرتشيزون (جـ ٢ ص ص ٣٨ — ٣٩).

(٢٨) لاشلى (كارل اسنپسر) K. S. Lashley : ولد سنة ١٨٩٠ وحصل على الـ A. B. من جامعة وست ڤرچينيا (سنة ١٩١٠) وعلى الـ S. M. من جامعة پتسبورج (سنة ١٩١١) ثم على الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة چونز هوپكنز (سنة ١٩١٤) وظل بها حتى ١٩١٧ .

اشتغل مدرساً بجامعة منسوتا Minnesota ، فأستاذاً مساعداً فأستاذاً (١٩٢٤ — ٩٢٦) وبعد أن اشتغل بالبحث فى الشئون الصحية والسلوكية ببلاده عاد مدرساً فى جامعة شيكاغو (سنة ١٩٢٥) حيث صار أستاذاً لعلم النفس (سنة ١٩٢٩) . وتولى مساعدة تحرير مجلة علم النفس المقارن ومجلة علم النفس التكوينى (١٩٢٤) وبحوث فى علم النفس التكوينى Gen. Psychol. Mon. (١٩٢٦) كما رأس هيئة علماء النفس الأمريكية (١٩٢٩) واشترك فى كثير غيرها من الجمعيات العلمية .

وتجد ثبت بحوثه ومقالاته فى سجل مرتشيزون (جـ ٢ ص ص ١٣٧ — ١٣٨) .

(٢٩) جول (فرانتس جوزيف) : F. J. gall (١٧٥٨–١٨٢٨) كان عالماً بالتشريح ، شغل نفسه خصوصاً بالمخ والرأس ؛ حتى إنه كان يلاحظ ما يقوم من العلاقات بين الخصائص العقلية لبعض زملائه فى المدرسة وأشكال رءوسهم ، وبين عيونهم وذاكراتهم . وما زال يتوسع بدراسته هذه لأصدقائه حين كبر — مستعيناً ببروز الرأس الذى يتّخذ منه علمُ القوى العقلية علامةً لدراساته . وبدأ يحاضر فى نظريته الجديدة فى الفراسة physiognomy بڤينا حيث اتصل به اسـبرتسايم Spurzheim تلميذاً (سنة ١٨٠٠) . ولاقت هذه النظرية إقبالا رغم ما أمَرت به الحكومة — بناء على إرادة الكنيسة — من وَقف هذه المحاضرات (سنة ١٨٠٢) . وقام هو ومساعده اسپرتسايم بجولة محاضرات فى ألمانيا ، انتهيا منها إلى پاريس (١٨٠٧) وبدءا ينشران معاً ، ولكنهما اتفقا على أن يفترقا (١٨١٣) فبقى جول فى پاريس يحاضر ويكتب ويبحث ؛ بينما راح اسپرتسايم يُبَشر بالمذهب الجديد فى فرنسا وانجلترا وأخيراً أمريكا .

وأول ما ظهر من الكتب فى علم القوى العقلية (علم مراكز القوى العقلية فى الدماغ phrenology) باسم جول ومساعده اسپرتسايم — فى المجلدين الأولين منه (فيما بين ١٩١٠ –١٩١٩) — هو : تشريح وفيزيولوچيا الجهاز العصبى بوجه عام . وخصوصاً المخ Anatomie et Physiologie du Système Nerveux en Général et du Cerveau en Particulier مع ملاحظات عن إمكان معْرفة استعدادات عقلية وخلقية كثيرة للإنسان والحيوان من أشكال رءوسها . وفيما بين ١٨٢٢ — ١٨٢٥ أعاد جول نَشر هذا الكتاب مُنقَّحاً باسم : فى وظائف المخ Sur Les Fonctions du Cerveau .

وهذا الكتاب علمى من الطراز الأول ، يبحث الجزءُ الأولُ منه (١٨١٠) فى الجهاز العصبى بوجه عام وفى الأعصاب الهامة والحبل الشوكى والمخيخ والحواس الخمس ، والثلاثة الأخرى تبحث فى فيزيولوچيا المخ وفى أخص خصائص علم القوى العقلية ؛ وإن كان هذا الاسم لم يُنشئه جول — بل استعمله لأول مرة تلميذه اسبرتسايم (١٧٧٦ — ١٨٣٢) . ويعترف لجول خصومُه وناقدُوه بما قدم لعلم القوى العقلية من حسنات ؛ حتى كاد يُختار هو واسبرتسايم (سنة ١٨٠٨) أعضاء فى المجمع الفرنسى Institut de France لـولا أن السياسة كانت تمنع إذ ذاك انتخابَ الأجانب .

(٣٠) فلورنس (پيير) P. Flourens أهم شخصية فى تقدم فيزيولوچيا المخ بعيداً عن تيّارَى النزعة التقليدية

ونظريات علماء القوى العقلية . فاق رولاندو وغيره من نظرائه بدقته ووضوح بحثه وصدق نتائجه ، ولا يزال يُعدّ حتى اليوم قد أسهم بجزء فى مادة هذا العلم ومنهجه يمكن قبوله على أنه حق . احتضنه كيڤييه Cuvier السكرتير الدائم لمعهد باريس ؛ الذى كان يَعهد إليه بدراسة بحوث العلماء وتقديرها ، فجعله يحاضر فى فيزيولوجيا الحواس حيث لاقى نجاحاً . فجُمِعت بحوثه الهامة فى المخ ، وقدَّمها كيڤييه إلى أكاديمية العلوم (سنة ١٨٢٢ ، ١٨٢٣) ثم طبِعت مع مقدمة تمهيدية لها ؛ فكان منها كتابهُ الأول الأهم (١٨٢٤) كما طبع له كتاب آخر صغير يشمل بعض مقالات (سنة ١٨٢٥) . وفى سنة ١٨٢٨ ، انتخب عضوا فى الأكاديمية ؛ ولم يلبث بعد وفاة كيڤييه أن حل محله سكرتيراً دائماً (سنة ١٨٣٣) ثم أُلحق بتدريس التشريح المقارن فى متحف Jardin du Roi — مَنصِب خُلِق خصيصاً له . كما أنه انتخب (سنة ١٨٤٠) لأكاديمية فرنسا بعد ڤكتور هيجو ؛ فكان ينشر ويشتغل بالسياسة . وفى سنة ١٨٤٢ أعاد نشر كتاب ١٨٢٤ وكتب فى : فحص علم القوى العقلية Examen de la phrenologie . وعُيِّن فى سنة ١٨٥٥ أستاذاً للتاريخ الطبيعى فى الكوليج دى فرانس ، وتوفى بعد ١٢ سنة .

(٣١) فرانتس (شِپَرد أيفُوْرى) Sh. Ivory Franz : (المولود سنة ١٨٧٤) إليه يرجع الفضل فى التقدم الهائل الذى ناله علمُ النفس الحيوانى بإدخال منهجى التمييز الباحث investigating discrimination والتعلم فى الحيوان ، ومنهج الاستئصال extirpation فى دراسة وظائف المستويات المختلفة للمُخيخ — هذا النوع الجديد الخصب من الدراسة كما يصفه بورنج (تاريخ علم النفس التجريبى ص ٥٥٩) — بدأ فرانتس عمله سنة ١٩٠٢ ، وفى خلال الخمس عشرة سنة التالية نشر ست رسائل هامة عدا المقالات الكثيرة. وقد استطاع بتجاربه أن يقول بعلاقات بين الفصوص الأمامية frontal lobes وبين تحصيل (اكتساب) العادات واعتقالها (إيقافها) ؛ وبين الفصوص الخلفية أو القفائية occipital lobes والوظائف البصرية . وهذه العلاقات كانت مقبولة بطبيعة الحال من الناحية الإكلينيكية ؛ فقد كانت هذه المناطق المخية معروفة باسم المستويات البصرية ومستويات الارتباط .

وقد كان لنتائج فرانتس — إلى جانب هذا — مدلول سلبى لا يقل أهمية : فقد اتضح أن المستويات أو المراكز المخية لم تحدد تحديداً كاملا ، بل وحتى مواضعها التقريبية قد بدا أنها خاضعة للتغير ؛ وأن تحطيم مركز منها قد يتبعه القضاء على اكتساب

سابق ، ولكنه لا يتدخل فى وظيفته . فتحطيم جزء من الغدد الأمامية قد يؤدى إلى فقدان بعض العادات — وخصوصاً ما كانت منها حديثة التكوين ؛ ولكن ذلك لا يمنع اكتسابها من جديد. وقد كانت هذه النتيجة مفزعة لعلماء الفيزيولوجيا النفسيين الذين رحبوا منذ فريتش G. Fritsch وهتسك E. Hitzig بعلم القوى العقلية الجديد — كما سمى فرانتس نظريته فى التحديد الموضعى الدقيق .

ومن هنا بدأت الأنظار تتطلع من جديد إلى فلورنس ، الذى رفض أن يأخذ بأى تحديد موضعى لوظيفة أى جزء من أجزاء المخ ؛ قائلا إن كل جزء — إلى جانب أن له فعلا خاصاً محدداً — فإن له أيضاً فعلا عاماً فى المخ ككل .

الفصل الرابع

سيكولوچيا الجشطلت أو الشكلية

فى الوقت الذى كانت فيه السلوكية تَظهَرُ فى أمريكا ، بدأت طائفة صغيرة من علماء النفس المحدثين فى ألمانيا لوناً من التفكير ؛ هو ثورة على تصوراتهم لغاية علم النفس ومنهجه ؛ وعن ذلك نشأت واحدة من أشدّ مدارس اليوم قوة . ومع أن لها من السنّ ما للسلوكية ، فإن هذه المدرسة لم تُعرف إلا بالتدريج فى الولايات المتحدة[*] ، « ولهذا » تبدو لنا أصغرَ المدارس .

وقد استخدمت هذه الطائفة كلمة « جشطلت » صيحةً لها ، فسميت مدرسة الجشطلت[(1)] . و « جشطلت » كلمة ألمانية عامة معناها شكل shape أو صورة form . وغالباً ما تؤدى هـذا المعنى كلمةُ صيغة pattern ، لأن استعمال علم النفس كلمة configuration قدقُصِدَ به مُرادفاً بالإنجليزية . وعلماء النفس الجشطلتيون يُسمّون أحياناً بفلاسفة الشكل أو الصيغة configurationists .

جوهرية سيكولوچيا الجشطلت :

وأول ما ينبغى أن نفهم خاصاً بهذه المدرسة الجديدة ؛ أنها — كغيرها من المدارس — قد بدأت ثورةً على النظام القائم . اصطدمت بعلم النفس التقليدى لعهدها ، وشقّت عَصا الطاعة خصوصاً على ڤونت ؛ وبوجه عام على المدرسة الارتباطية associationism ؛ هذا المذهب فى علم النفس الذى انحدر عن القرنين السابع عشر والثامن عشر ، والذى سيطر بِتوسّع — وليسَ بطريقةٍ كاملة — على نظرية علم النفس فى القرن التاسع عشر .

وقد كان للارتباطية مميزان رئيسيان : فهى كانت ترمى إلى التحليل ، وتُعنَى خصوصاً بالجانب العقلى من الحياة . وقد انتهت إلى أن تعتقد فى نفسها نوعاً من الكيمياء العقلية ، يبحث عن العمليات أوالخبرات الأولى وقوانين ارتباطها . وبتوجيه همّها غالباً إلى الجانب العقلى من الحياة ؛ فإنها كانت تنشُد أبسطَ عمليات المعرفة ،

[*] فى الأصل يقول المؤلف الأمريكى on this side of the water فترجمنا لها بالولايات المتحدة

أو أبسطَ الخبرات التى تُعطى أيةَ معرفة . وأخذَت بالإحساسات البسيطة على أنها العمليات الأولية التى منها تتركب الخبراتُ والأفكار المركبة .

وقد ثارت السلوكية والجشطلتية كلاهما على وجهة النظر هذه بعَينها فى علم النفس . ولكنهما ثارتا فى اختلاف كبير : فالسلوكية قد ثارت على الأساس العقلى لعلم النفس القديم . وأصرت على أن الحيوان أو الإنسان يجب أن يُؤخذ بوصفه كائناً مُتحركاً أو سالِكاً . أما سيكولوجيا الجشطلت فقد ثارت على التحليل كمشكلة أساسية فى علم النفس . فحَيْث قالتِ السلوكية : « يجب أن نُحالل السلوك لا الخبرة » : قال علماء النفس الجشطلتيون : « إننا لن نتقدم فى علم النفس بعدُ بتحليل أىّ من السلوك أو الخبرة » . والسلوكية قد اطرّحت العبارةَ القديمة « تداعى المعانى » فى سبيل « تداعى المنبه والاستجابة الحركية » : بينما اعتقدت سيكولوجيا الجشطلت أن فكرة التداعى بأسرها فكرة مُضلِّلة . كلاهما قد رفض الإحساسات وعلى الأقل الإحساسات الأولى : ولكن لأسباب مختلفة : السلوكية لأن الإحساس ليس استجابة حركية . وعلم النفس الجشطلتى لأن الإحساس يُفترَض أن يكون عنصراً أو ذَرّة للخبرة . وقد أحبّت السلوكيةُ المُنعكسَ بحُسبانِه العنصرَ السيكولوچى . وحبّذت فكرةَ الأفعال المنعكسة الشرطية أو المرتبطة : لأنها تُظهر إلى أى حد من التركيب يتكون السلوك من أفعال منعكسة أولية : أما الجشطلتية فعارضت المنعكس البسيط كما عارضت الإحساسَ البسيط . وكرهت السلوكية الاستبطانَ لأنه تَصدّى لإظهار الخبرة بدلا من السلوك : بينما سيكولوچيا الجشطلت لم يكن لها اعتراض على الاستبطان بالمعنى الواسع . وانما اعترضت بجد على هذا النوع التحليلى من الاستبطان الذى نهض به الوجوديون وكأنه وحده المنهج الصالح لاستخراج حقائق علم النفس . كانت الوجودية تبدو للسلوكيين مُلطخة بالذاتية — وغالباً بالخيالية — وتبدو لعلماء النفس الجشطلتيين مُصطنعة « أو غير طبيعية » .

ولكى أُبيِّنَ لك المذهب الذى ثار عليه علماءُ النفس الجشطلتيون خصوصاً : دَعنى أرجعْ بك إلى طريقة ڤونت فى تحديد مهمة علم النفس . فهو يبدأ بأن يقول إن الخبرة تأتى فى مركبات أو أخلاط — لا فى عناصر . فكل خبرة . وكل فكرة ، وكل انفعال وكل انتباه إلى فعل : هو مركَّب . وإذن فمهمة علم النفس أولاً هى أن يُحلِّل هذه العمليات المركبة إلى عناصرها . ثم أن يدرس بَعدُ كيف ترتبط العناصر والقوانين التى يتمُّ بها هذا الارتباط . وحّد العناصر أولا ، ثم تقدّم إلى مُركّباتٍ أكبر

فأكبر ؛ وهذا ما سماه علماء النفس الجشطلتيون « سيكولوچيا الطوب والمونة » brick and mortar psychology مع التشبث « بالطوب » لأن الصعوبة إنما هى فى إيجاد « المونة » . ومن قبل كانت مشكلة « المونة » مشكلة خطيرة لدى الارتباطيين . فبعضهم رأى أنْ لا مشكلة ، ولكن بعضاً آخر بدا أنه قنعَ بمجرد كلمة « تداعى أو ترابط associations » كجواب لهذا السؤال : « ما الذى يُمسك العناصرَ معاً ؟ » . وقد أشار خصوم الارتباطية إلى إفلاسها فى هذا الصدد ، وحاولوا قبول العقل أو الروح أو الأنا على أنها الفاعل الذى يقوم بالربط . وقد بيّن چيمس أن الصعوبة هنا إنما نشأت من افتراض العناصر أو الذرات التى لا وجود لها فى الخبرة . إذ الخبرة — كما هو مسلم به — تأتى فى صور مركبة . فإذا كانت العناصر لا حقيقة لها ، وغير طبيعية ، لم نحتجْ إلى شىء حقيقى يُمسك بها معاً . ومن ثم ناقش چيمس مسألة التحليل التركيبى كلها فى علم النفس وكأنها مسألة مصنوعة manufactured وليست حقيقية .

وسيُعين صدى الماضى على إظهار أن لِعلم النفس الجشطلتى بعضَ أساس تاريخى . فأكثر أهميةً إذن هذا النقاشُ الجدلى للمشكلة القديمة عن الكل والأجزاء أو « الكثرة والوحدة » الذى كان تقدِمةً لعلم نفس فكرة « خاصة الصورة » أو خاصة الصّيغة — وبالألمانية Gestaltqualität . ودراسة فون إيرنفلس Von Ehrenfels[٢] حول هذا الموضوع فى سنة ١٨٩٠ قد كان لها تأثير فى علم النفس . فخاصة الصورة هى صفة يملكها الكل ليست مملوكةً لواحد من الأجزاء المكوِّنة للكل . فاللحن مثلا يتألف من درجات من السلم . ولكنه لا يوجد فى هذه الدرجات إذا أخذت بمفردها ؛ بل عندما تترتب فى تتابع أو صيغة معينة . وكثير من الألحان يمكن أن تتركب من أنغام بعينها . فضعْ الدرجاتِ معاً بطريقة ما ؛ فإن نغمةً معينة تحدث . ثم ضَع الدرجاتِ نفسَها معاً بطريقة أخرى فسيكون لديك نغمةٌ مختلفة كل الاختلاف . وأكثر من هذا ؛ فإنك تستطيع أن تنتقل إلى مفتاح آخر ، وحينئذ فحين تأخذ مجموعة جديدة من الدرجات لتعمل بها — وبترتيب هذه المجموعة الثانية من الدرجات ترتيباً مناسباً — فإنك تحصل على نفس النغمة فى المفتاح الأول . ففى لغة الموسيقى تستطيع أن تنقل نغمة من مفتاح إلى آخر . وذلك يُغيِّر الدرجاتِ أو « العناصر » ولكنه لا يُغيِّر النغمة . وأنت حين تعرف نغمة ؛ فليست الدرجات هى التى تعرفها ، ولكن النغمة ذاتها . فللحن إذن « خاصة صورة » خاصة به . وهناك أمثلة أخرى

كثيرة . فالنموذج من النقط له شكل أو تصميم لا يوجد فى النقط ، ويظل هو بعينه وإن تغيَّر لون النقط . ومن هذه العناصر بعينها يمكن أن تُستخرَج أشكالٌ وصورٌ ونماذجُ مختلفة ، كما أن نفس الشكل يمكن أن يؤلف من عناصرَ مختلفة . وخصائص هذه الأنواع من الكل واضحٌ أنها تستحق الدراسة السيكولوچية كما استحقتها خصائص العناصر .

ومنذ ١٨٩٠ فصاعداً رأى علماء النفس أن هناك صعوبة فى تنسيق خصائص الصورة ليكون منها هيكلُ علمِ نفس . وبُذِلَت المجهودات لكى تجعل لها مكاناً بين العناصر ؛ كما كان بعض علماء النفس القائلين « بالفكر بلا صورة » يذهبون إلى القول بعناصر التفكير . على أن مدرسة الجشطلت التى بدأت سنة ١٩١٢ قد أكدت أن التمايز الكلى فى العناصر والمركبات مُضلِّل فى علم النفس . وقد أكدُّوا من بعدُ أن خصائص الكل المنظم تضع المشكلةَ الأجدرَ حينئذ "بدراسة" علم النفس . قد ينبغى أن تنسى المسألةَ القديمة الخاصةَ بالعناصر ، وندرُس الكل المنظم كما يبدو فى الخبرة وفى الفعل . فتحت أىِّ ظروف يظهر شكل معين ؟ هذا هو السؤال الحقيقى الذى قالوا به . وهو سؤال يلزم أن يُردَّد باستمرار فى كل فصل ومسألة فى علم النفس .

سيكولوچيا الجشطلت تؤكد الكل المنظم :

لو أن علماء النفس الجشطلتيين قد علّلوا أنفسَهم باعتبارات نظرية كالتى رأينا من قبل ؛ لما استطاعت مدرستهم أن تُظهر هذه الحيوية الكبيرة التى تظهرها . لقد كانوا تجريبيين إلى حد ما ، واستطاعوا أن يأخذوا مبدأهم الموجِّه فى المعمل ، وأن يقتفوا أثرَه فى العثور على تجارب حديدة ومفيدة . لقد درسوا المشاكل جديدها وقديمها — وخصوصاً القديم — ولكنهم أقبلوا عليها من ركن جديد ، ووصلوا إلى نتائج تستوقف انتباهَ علماء النفس جميعاً .

ولعلّى أستطيع أن أعطيك فكرة أولية عن طريقتهم فى الإقبال عليها ؛ بذِكر حملتهم على مسألةٍ جِد محسوسة — وإن لم تكن أساسية كثيراً — تلك هى مسألة التعبير الوَجهى facial expression للانفعال والشخصية . فإن علماء النفس الآخرين قد نزعوا — فى غير تردد — نحو دراسة تحليلية لهذه المسألة . تناولوا كل شكل على حدة ؛ مُعتبرين ما يتخذ من أوضاع مختلفة ، محاولين أن يكشفوا عما يعبِّر عنه كل منها . فارتفاع الحاجبين ، وانخفاض الحاجبين ، واتساع الحدَقة ، إغماض العين نِصفياً ،

إبراز الشفتين ، ضم الشفتين ؛ كل هذه التفاصيل ربما تدل على حالة انفعالية بسيطة نسبياً ، وبضمّها إلى بعضها البعض نحصل على تعبير لحالة انفعالية مركبة+.

ويعرض عالِم النفس الجشطلتى إلى هذه المسألة بفكرة أن الوجه يجب أن يؤخذ ككل . وبالطبع هو — لكى يُحصّل نتيجةً ما — يجب أن يعتبر شيئاً آخر إلى جانب مجرد الوجه فى مجموعه . فعليه أن يقيم وزناً للأجزاء بطريقة ما ، ولكنه ينظر إليها فى صلتها بالمجموع* . فهو يجد أن التعبير الظاهرى لجزء ما يمكن أن يتغير — فى صورة ما — عندما تتغير بقية الوجه فى غير تغيير خارجى لهذا الجزء الخاص . أو — إذا كان الجزء الأعلى من الوجه ؛ بما فيه العينان ؛ يُعرض أولا ؛ ثم تكون بقية الوجه غير مغطاة أيضاً — فإنه يبدو أن العينين ذاتهما تُغيّران تعبيرهما×. وفى أثناء اشتغاله بظلال الأشخاص silhouettes ؛ وجد أن مجرد تغيير طفيف لجزء من «البروفيل» ربما بَدا أنه يغيّر خطّ الوجه كله ، ويُعطى للكل شخصية مخالفة ؛ بينما تغييرات أخرى ربما كانت كبيرة فى ذاتها ، ولكنها تُحدث قليلَ اختلافٍ فى التعبير الكلى . ولو أن ذَقناً بعينها أُدخلَت فى صورتين مع ما بينهما من اختلاف ، فإنها قد تبدو مختلفة فى الشكل اختلافَها فى التعبير . فمن الواضح أن شكل الوجه يوجد فى الوجه ككل ، وتعبيرُ الوجه كذلك .

وبنفس الطريقة يُصرّ عالِم النفس الجشطلتى على أننا لا نَحصُل على صورة صحيحة لشخصية المرء بإحصاء خطوط الشخصية المختلفة ؛ وإعطاء الفرد معياراً أو مقياساً لكل خط ؛ وأخيراً بوضع معاييره جنباً إلى جنب فى لوحة أو جدول . فإن مثل هذه اللوحة تفشل فى إظهار أى هذه الخطوط هو الرئيسى المتحكم فى شخصية الفرد ، وأيها ذو أهمية ثانوية فى حالته ؛ فلا تُظهر دَور كل خَط أو وظيفته على حدة فى الشخصية بأكملها . والشخصية ليست مجردَ مجموع خطوط ، بل كل منظم — أو صيغة .

+ بورنج وتتشنر E.G. Boring & E.B. Titchener مجلة علم النفس الأمريكية (١٩٢٣) مجلد ٣٤ ص ص ٤٧١ / ٤٨٥

* أرنهايم R. Arnheim بحث سيكولوجى Psychologische Forschung (١٩٢٨) مجلد (١١) ص ص ١ - ١٢٣

× مما هو جدير بالذكر أن هذه الحقيقة ذاتها قد كشف عنها عالم نفس ليس من سلالة مدرسة الجشطلت : ك. دنلب K. Dunlap : بحوث فى علم النفس التكوينى Genetic Psychology Monographs (مطبعة جامعة كلارك ، ١٩٢٧ ، جزء ٢ — ص ص ١٧٩ — ٢٣٣)

والمجموع المجرد — أو المجموع الخالص — هو هذا الذى يكون كل صنف فيه فى استقلال عن غيره . ويقوم كوحدة فى تركيب المجموع . فنحن فى الحساب لدينا مجموعات خالصة ولكنها مجردة . وليس بمثل هذه السهولة فى الواقع يتركب المجموعُ حقيقةً من أصناف منفصلة فيما هو حسى . فمجموع موائد حجرة الطعام كلها فى شقة بيت هو مجموع مجرد لكل الأغراض والمقاصد . ولو أنك وصفت كلا منها على حدة ودوّنت الوصف فى قائمة ، فإنك تكون فعلت ما هو ضرورى ، ولا حاجة بك إلى أن تستمر فى اعتبار كيف أن مجموع هذه الموائد يؤثر فى خصائص كل واحدة . ولكن من الأسهل — حتى فى الطبيعة اللاعضوية — أن تجد أمثلة لكليات منظمة ، أكثر مما تجد لكليات هى مجرد مجموعات أجزائها . فالمجموعة الشمسية solar system مثلا هى كل منظم ، أو صيغة فيزيقية ؛ ما دامت حركة كل جِرم (كوكب) فيها تتأثر بوجود كل ما عداه . ولأعطِك مثلا أو مثلين آخرين للصيغة الفيزيقية .

فمن أمثلة ذلك العجلة حين تدور ؛ لأن حركة كل جزء فيها تتوقف على شكل الكل . ولكى نزيد الأمر وضوحاً ؛ لننشِىء عجلةً من الخشب — من نوع ما — بجَعل اثنتَى عشرة عصــــاةً فى مركزها تتفرع منه . وتثبيت كرة خشبية فى الطرف الخارجى لكل عصاة ؛ حتى تتركب حافة العجلة من اثنتى عشرة كرة . ومثل هذه العجلة ستدور — ولكن فى قفز jerkily . ولما كنا قد ركبنا العجلة هنا من قلب وفروع وكرات ؛ فربما حسبنا من المنطق أن نقول إن حركة الكل تقوم فى حركة كل جزء من هذه . ولكنا حينما نلاحظ حركة واحدة من هذه الكرات ؛ فإنا نجدها تعبر عن سلسلة من دورات أعلى وأسفل — أو منحنيات دورية — يدفعها إلى هذه الحركة العجيبة صلتها بالعجلة ؛ والشكل المستدير لهذه العجلة فى مجموعها . فكل كرة لا تدور أو تندفع كما لو كانت وحدة منفصلة .

ورغوة الصابون مثل طيب . فإذا خدشت جزءاً صغيراً تحطم التركيب كله . وفى الكهرباء أمثلة كثيرة ؛ حيث القوة المحركة (الدينامو) والأسلاك المتفرعة عنه ، والأضواء أو المحركات كلها فى دائرة ؛ تتشابك مع بعضها البعض ، وتغيير أى موضع فى الدائرة يغير من التيار فى كل نقطة .

والكائن العضوى الإنسانى أو الحيوانى هو لا شك صيغة . هو كل منظم ، وليس مجرد مجموع أجزاء وأعضاء . ففى دورة الدم ، وفى الجهاز العصبى تترابط

أجزاء الشكل كلها . والحق أن بعض الأجزاء أقوى ترابطاً من غيره ؛ حتى أن الكائن العضوى يسلك كوحدة مركبة أكثر منه وحدة بسيطة . ولكن لعل كل واحد ربما أقر مبدئياً أن الكائن العضوى يفعل ككل ، وأن سلوكه لا يقوم فى مجرد مجموع منعكسات . فإن شرنجتون Sherrington [٣] — أحد كبار الباحثين فى الأفعال المنعكسة — قد قال بأن المنعكس البسيط تجريد مُرض ؛ ووقف جهوده فى معظمها على إثبات « الفعل التكاملى للجهاز العصبى » ، وپاڤلوف قد درس توقف المنعكس الشرطى على الآخر ، ويصر وطسون على أننا نفكر بكل بدننا ؛ وإن كانت أعضاء الكلام تلعب الدور المؤدى "لهذا التفكير المُعبَّر عنه" ، ولاشلى قد انتهى إلى أن المخ يعمل ككل . وينبغى أن أذكر هنا دراسات كوجيل Coghill[٤]* الحديثة عن تقدم السلوك فى صغار الضفادع tadpoles ؛ فهو قد لاحظ بعناية كل الاستجابات المبكرة لهذه الكائنات الصغيرة وارتقاء أجهزتها العصبية . فأول استجابة تقوم بها ؛ هى أن تثنى جسمها بعيداً عن المنبه — وهى استجابة تجنُّب بسيطة . فإذا نما الجهاز العصبى يصبح هذا الانثناء مزدوجاً ، وينتهى إلى حركة الالتواء فى السباحة . ولا ينتقل الحيوان مطلقاً إلى درجة تكون فيها الحركات منفصلة غير مرتبطة ؛ يربطها هو فيما بعد فى أفعال أكبر ؛ ولكنّ حركاتِه منذ البدء حركات متكاملة للجسم العضوى كله . وإنما يكون الارتقاء من حركة بسيطة للجسم كله إلى أخرى أكثر تركيباً للجسم كله " أيضاً " .

وهكذا نجد كثيراً من الذين يدرسون السلوك على وفاق فى هذه المسألة . إلا أنه لا شك أن علماء النفس الجشطلتيين قد أصروا بكل قوة على الكلية المنظمة للسلوك ، وأنهم قاموا بأكبر تطبيق لهذه الفكرة كمبدأ مُوجِّه فى البحث .

دراسات جشطّلتية للإدراك الحسى :

وعند الاقتضاء أقدم لك بعض علماء النفس الذين يُكوِّنون هذه الطائفة . فإنها وإن كانت كُلاًّ منظماً ؛ إلا أنها تتركّب مع هذا من أفراد . فكان زعماؤها الثلاثة : مكس ڤِرتَيمر Max Wertheimer وكورت كُفكه Kurt Koffka وڤُـــولفجانج كِيلَر Wolfgang köhler .

فى سنة ١٩١٢ كان علماء النفس الشبان هؤلاء يعملون معاً فى أكاديمية

* كوجيل G. E. Coghill : التشريح ومشاكل السلوك (شركة مكملان ١٩٢٩) .

– والآن جامعة – فرنكفورت . أما ڤرتيمر (المولود فى ١٨٨٠)[٥] فكان أكبرهم ، ولعله أن يكون الروح الموجِّه فى المبدأ ؛ وكان من قبلُ قد اضطلع بجزء مشهور من العمل فى استخدام اختبار الارتباط الحر للكشف عن المعرفة الخفية . والاستخدام الكشفى لهذا الاختبار أحياناً ما كان يستعان به على اختبار الأشخاص المشبوهين فى جريمة ما . وأما كفكه (المولود فى ١٨٨٦)[٦] فقد قام بعمل هام فى التصور والتفكير . وأما كيلر[٧] (المولود فى ١٨٨٧) فكان تلميذاً لاشتمف Stumpf فى برلين ، وقد تخصص – بتأثير منه – فى مسائل النغم والاستماع . وكيلر وڤُرتيمر هما الآن فى جامعة برلين – التى أصبحت أكبر مركز لعلم النفس الجشطالتى – بينما كفكه هو الآن فى أمريكا كأستاذ للبحث فى كلية سميث . ويوجد عدد لا بأس به من علماء النفس المحدثين الألمان أتباعاً لهذه المدرسة ، كما يوجد أتباع عديدون آخرون فى أمريكا ، أذكر منهم أوجدن R. M. Ogden[٨] وهويلر R.H. Wheeler[٩].

وإذن ففى فرنكفورت ، فى سنة ١٩١٢ ، كان ڤرتيمر يقوم ببعض التجارب على رؤية الحركة ، وكان كفكه وكيلر يقومان له بدور الأشخاص " موضوعات التجربة " ؛ والمشكلة يمكن أن تعد مشكلة فى علم نفس صور الحركة . ولعله ليس معلوماً لديكم أن صور الحركة قد بدأت أصولها منذ مائة سنة تقريباً ؛ وأنه قد اخترعها عالم نفسى – أو على الأقل عالم فيزيولوچى – كان أحد السابقين إلى علم النفس التجريبى ؛ " وأعنى به " پلاتو Plateau[١٠]. وهو فيزيولوچى بلچيكى ، ابتكر طريقة بسيطة لعرض مجموعة من الرسوم فى تتابع سريع ، بحيث تُرَى كلٌّ واحدة منها فى مجرد لمحة عابرة . فأما إذا كانت الرسوم تَعرض حيواناً فى مَشاهد متتابعة لحركة ما ؛ فإن الملاحظ – حين يرى تتابعاً سريعاً لهذه الصور الساكنة – كان يحصل له تأثير بالحيوان متحركاً . والذى حدث حينئذ فى فن الصور المتحركة هو اختراع التصوير ، وتقدُّم آلة التقاط الصور المتحركة وجهاز إلقائها .

ولكن أصول المسألة تظل كما كانت فى عهد پلاتو . فآلة التقاط صورة الحركة تأخذ سلسلةً من الصـــور الخاطفة snapshots ؛ كل منها – مأخوذة على حدة – هى منظر ثابت . وجهازُ الإلقاء مُرتَّب بحيث يَعرض هذه الصور الخاطفة كمجموعة من المناظر الثابتة – فى غير ما حركة للصورة على الشاشة . وجهاز الإلقاء هذا ؛ يقطع الضوء أثناء حركة الشريط من منظر إلى الذى يليه ؛ لأنه إذا سُمح للصورة أن تتحرك فعلا على الشاشة ؛ فإن النظارة سيشاهدون بقعة بدلا من أن

يروا حركة الأشياء المصورة . فإذا رأيتَ ما يُعرض فيزيقياً على الشاشة ؛ فسوف ترى مجموعةً من المناظر الثابتة تفصل بينها فترات قصيرة من الظلام . وعلى أى حال ؛ لن تستطيع أن ترى ما يُعرض فيزيقياً . فأولا : أنت لا تستطيع أن ترى فترات الظلام ، لأن الإحساس البصرى يستمر أكثر من المنبه الفيزيقى ويظل حتى العرض التالى ؛ على ألا تكون الفترة طويلة جداً ، فإذا كانت طويلة أكثر مما ينبغى فإنك تحصل على بعض تلألؤ . وثانياً : أنت لا تستطيع أن ترى سلسلة المشاهد الثابتة ، لأن مخك — بهذه الطريقة أو تلك — يستجيب إلى هذا النوع من المنبه برؤية الحركة خلال مجموعة المواقف ؛ وليس "خلال" المواقف ذاتها كل على حدة . وأنت تعلم أنه فى مراقبة شخص يمشى أو يجرى فعلا ؛ أنت لا ترى — ولا تستطيع أن ترى — النقط المتتابعة التى يمر فيها ، لأنك إذا أخذت صورة خاطفة له أثناء حركته ؛ فإنك تجد غالباً أن الصورة تبين ما يشبه أن يكون موقفاً غريباً جداً . وقلما تستطيع أن تُصدِّق أنه قد افترض هذا الوضع فى مجرى حركته ؛ ومع هذا فإن المُصوِّرة لم تكذب . فإذا وضعتَ هذه الصورة الخاطفة فى سلسلة من المناظر المتعاقبة ، وعرضتَ المجموعة على الشاشة ؛ فإن حركة الشخص ستبدو طبيعية تماماً . والحقيقة إذن هى أنك لا تستطيع أن تستخرج المواقف المتعاقبة — لا من الحركة المستمرة ، ولا من سلسلةٍ من المناظر الثابتة تمثل هذه المواقف فى تعاقبُ سريع — فأنت مُضطَر بحكم تركيبك العضوى أن ترى الحركة وكأنها كُلّ مستمر ؛ لا كمجموعة من المواقف المتعاقبة .

ولدينا هنا إذن مشكلة هامة وواقعية جداً فى ديناميكا النشاط العقلى . وليس مِن حَلِّها أن نشير إلى تتابع الصور الساكنة كأجزاء أو عناصر للتجربة الكلية فيما يتعلق برؤية الحركة ؛ لأن هذه العناصر لا تُكون الحركةَ التى تتطلّب تفسيراً .

وفى معالجة هذه المشكلة * اقتنع ڤِرتيمر أن محاولة التقدم بتحليل الخبرة الكلية لرؤية الحركة إلى عناصرها لم تكن تؤدى إلى شىء — شأنُها شأنُ المواقف المتعاقبة . وبدا له أن خَط التقدم هو أن يدرُس الشروط التى تحتها تبدو أو لا تبدو الحركة . فبسط « الصور » إلى الحد الذى يبين فقط خطاً طولياً أولا ، ثم خطاً مشابهاً أبعد قليلا إلى اليمين أو اليسار ؛ خطّان الواحدُ بعد الآخر ، بينهما مسافة فراغ . وجعل يُنوِّع طولَ المسافة الفراغ . فإذا كان طولها ثانية ؛ رأى الملاحظ مجردَ خط ثابت ، ثم الخط

* م . فرتيمر : مجلة علم النفس الألمانية ١٩١٢ ، مجلد ٦١ ص ص ١٦١ — ٢٦٣

الآخر الثابت ؛ وفقاً للحقيقة الفيزيقية تماماً . ثم تقدم فأنقص المسافة الفراغ فيما بين طرفى الخطين . اقتطعها إلى خُمس ثانية ، وما زال الملاحظ يرى أولا خطاً ثابتاً ثم الآخر . فاقتطع المسافة مرة أخرى ، فبدأ الملاحظ يرى منظر الحركة فيما بين الخط الأول والثانى . فلما قلل المسافة إلى ١/١٥ أو ٠٦٠ و من الثانية ؛ رأى الملاحظ حركة واضحة من النقطة الأولى إلى الثانية ، وبدا أن خطاً مفرداً يتحرك بينهما . فلما ظلت المسافة تقل ؛ أصبحت الحركة أقل وضوحاً . وفى فترة ١/٣٠ من الثانية لم تبقَ أيةُ حركة ظاهرة ، وإنما بدا الخطّان ساكنَين جنباً إلى جنب .

ونوّع ڤرتيَمر التجربة بطرق كثيرة : فإذا عرض خطاً أفقياً يَصحبُه خط طولى ؛ ظهر ثمة — فى الفترة المحدَّدة — خط يتذبذب خلال ٩٠ . وبتصويرات مناسبة استطاع أن يحصل على خطين يبدو أنهما يتحركان فى اتجاهات متعارضة فى نفس الوقت . وتلك كانت نتيجة هامة لأنها حدَّدت تفسيرَ حركة العين . فلما لم تستطع العينان أن تُتابِعا فى نفس الوقت حركتين فى اتجاهين متعارضين ؛ اقترح ڤرتيمر تفسيراً يفترض — بمعنى عام — أن عمل المخ فى الاستجابة لمنبهين متتابعين يقوم فى تغير مستمر ؛ بمعنى أن المخ لم يقف أولا على موقف ثم على موقف ثان — كل بذاته — ثم يتقدم فيركبهما فى إدراك للحركة ؛ ولكن عندما وصل الموقفان إلى مسافة ملائمة ، ظهرت الاستجابة للموقف الأول بحركة تدريجية فى الاستجابة للموقف الثانى . فالحركة لم تُستنبَط ، وإنما تُحَس فعلا ؛ لأن عملية الإدراك الأولى للمخ كانت عملية حركة أو انتقال .

وإذا نحن عَنَينا بالإحساس أىَّ استجابة أُولَى من المخ لتنبيه أعضاء الحس ؛ فإنا نرى أن الحركة مُتضمَّنة فى الإحساس — حسبما يرى ڤرتيمر . وقد ذهب علماء النفس الجشطلتيون إلى القول بأن كثيراً من خِبرتنا — التى يُظَن أنها قامت على الإحساس عن طريق عمليات عقلية عُليا — هى متضمَّنة فعلا فى الإحساس . ولننظرْ الحجمَ الظاهر للأشياء التى نرى . فإنه إذا بَعُد عنك شخص من مسافة عشرة أقدام إلى مسافة عشرين قدماً ؛ فإن صورته البصرية على الشبكية تقل إلى نصف أبعادها الأولى . ومع هذا فهو يبدو كبيراً كما كان من قبل . والتفسير العادى كان يقول إننا قد تعلمنا أن نفسر حجم الصورة على الشبكية فيما يتعلق ببُعد الشىء ؛ حتى أن الثبوت الظاهرى لحجم الشىء نفسه فى أبعاد مختلفة من العين ليس مسألة إحساس ، وإنما هو تفسير أعلى مُكتسَب . وفى هذا يشك علماء النفس

الجشطلتيون . فإنهم يصرون على أن عملية المخ الحسية هى جزء لا يَعدِلهُ جزء من الموقف كله ، وهى بهذا خاضعة لتأثير ُبعد الشىء ؛ وأن استجابة المخ الأولى فى هذا المجال الكلى هى التى تجعل للحجم ثبوته . وثمة حالات كثيرة مشابهة نبدو فيها لأنفسنا — فى سذاجة — أننا نرى الأشياء كما هى عليه من الناحية الموضوعية ؛ وتُظهر فيزيولوچيا العين فيها أننا لا نستطيع حقيقةً أن نراها كما هى ، إذا كانت رؤيتنا تتعلق تماماً بالتنبيه الواقع على العين . ونتيجة لهذا ؛ قد تعوَّد علماءُ النفس أن يقولوا إننا لا نرى فى الواقع هذه الحقائق ، ولكنا نستنبطها ، أو نصل إليها بعملية رَبط تقوم على سابق الخبرة . وفى مثل هذه الأحوال كلها ، يأمل علماء النفس الجشطلتيون أن يُبيِّنوا أن الرؤية — بمعنى استجابة المخ الأولى للموقف — تُعطى الحقائقَ مباشرة . هم يَرون إذن أن استجابة المخ الأولى لا تقوم فحسب على التنبيه الذى تتلقَّى الشبكية ؛ بل أيضاً على عوامل المجال الكلى الأخرى . وكل تنبيه يصل إلى المخ يَصير إلى نظام تفاعلى ديناميكى ، يتوقف أثره هناك على النشاط الكلى الموجود حينئذ فى المخ .

وكان الارتباطيون قد نظروا إلى كل جزء من التنبيه يصل من أعضاء الحس وكأنه وحدة منفصلة ، وإلى كل الوحدات وكأنها متجمعة فى داخل نشاط المخ الكلى من هذه الوحدة الجزئية . هذه الجزئيات كانت الأجزاء القصوى أو العناصر للعملية الكلية ؛ وبتجميعها تتحدد العمليةُ الكلية . أما علماء النفس الجشطلتيون فيرون أن العملية الكلية تُوجِّه استجابةَ المخ لأجزاء التنبيه المنفصلة .

وربما ازدَدنا وضوحاً فى هذا الصدد إذا نحن أدخلنا مسألة كَم هو الفِطرى وكم المكتسَب فى إدراك الأشياء . وكانت الارتباطية قد رفضَت الأفكارَ الباطنة وكل معرفة فطرية للأشياء . فقد رأت أن أعضاء الحس تقدم بالطبيعة المواد الخام فحسب ، وكل معرفة أو استخدام لهذه المواد يجب أن يَحصُل بالخبرة والاكتساب . فالمواد الخام من العين مثلا تتركب من أجزاء صغيرة من نقط من الضوء ، والظل ، واللون ؛ وهو مجال يمكن أن يكون موحداً أو متنوعاً ، ولكنه فى مجموعه غير منتظم . فما يبدو أننا نراه يتركب فى الواقع من أشكال وأشياء فى المكان ، إلا أن ذلك — كما أخبرَنا علماءُ النفس عادة — إنما هو لأننا تعودنا أن نفسر الكثرة من النقط الملونة . لقد تعلمنا أن نعرف الأشياء بتناولها حين رؤيتها ، ثم ربَطنا المظهرَ البصرى للشىء بما تنقَّل لنا أيدينا عنه . لقد رأينا أشياء كثيرة مستديرة ، وانتهينا إلى معرفة مجموعات

معينة من النقط البصرية وكأنها تُبيِّن دائرة . فلو استطعنا لحظةً أن ندَع جانباً كلّ ما تعلّمنا ، وأن نرى مجال البصر كما تُظهره العينان بالضبط ؛ إذن لرأينا مجردَ قِطع (موزايك) من نُقَط متنوعة ، خِلواً من المعنى ، والموضوع ، والشكل ، والفكرة . تلك هى النظرة الارتباطية التقليدية للمسألة .

ولكى نفهم وجهةَ نظر الجشطلتيين يلزم أن نقوم بتفرقة . فإن تنظيم المجال البصرى يؤدى لنا شيئين مختلفين : فهو يعطينا أشكالا أو رسوماً بصرية دون اعتبار لدلالتها كأشياء، ثم هو يعطينا أشياء وأشجاراً وسُحباً وأشخاصاً معروفة . وهنا فعندما نرى شيئاً ، نحن تعرف شيئاً آخر أكثر من شكله البصرى ومظهره . نحن نعرف أكثر مما تُظهر لنا العينان مباشرة . فالشجرة — والظل تحتها — تبدو رطيبة ؛ أعنى أنها تُشعِر كيف يُحسُّ الجلدُ حين يَرقُد تحت هذه الشجرة . ومن غير شك لقد كان علينا أن نتعلم أن المظهر البصرى يدل على نقطة رطيبة ؛ وبنفس الطريقة قد كان علينا أن نُحصِّل كلّ الدلالات الموضوعية للنماذج البصرية التى نرى . فأما أن علينا أن نتعلم رؤية الأشكال والنماذج ذاتها فتلك مسألة أخرى تماماً . وليس شك أيضاً أننا نتعلم معرفةَ هذه الأشكال بدقة أكثر بالدراسة عليها . إلا أنه تَبقَى مسألة ما إذا كان علينا أن نتعلم رؤيةَ الأشكال ككتل مُتلاصقة من الضوء بارزة فوق خَلفيّتها . فالنظرية الارتباطية الخالصة تقول إنه كان علينا أن نتعلم حتى هذا ، أما سيكولوچيا الجشطلت فلا تظن ذلك .

هَب أننا حين نفتح أعيَننا فى مناسبة معينة لا نجد أمامنا إلا بقعة خضراء فوق خلفية رمادية ؛ فنحن فى غير تردد نأخذ البقعة الخضراء على أنها كل متماسك ، على أنها شكل غامض يَبرُز فوق خلفيّته . قلّما نستطيع أن نُرغِم أنفسَنا على أن نأخذ نصفَ البقعة الخضراء مع جزء من الرمادى المجاور على أنهما وحدة ، وأقل منه أن نقطع جزءاً من البقعة الخضراء مع أجزاء بعيدة من الرمادى ونجعل منها وحدة مرتبطة . إلا أن نظرية الارتباط — مأخوذة كما هى بدقة — تقول أن ليسَ شىءٌ فى عملية الإبصار الطبيعية يؤدى بنا إلى أن نأخذ البقعات المصاقبة على أنها وحدات فى سبيل أى ربط آخر لنُقَط من أجزاء بعيدة فى المجال . لقد تعودنا أن نرى الأشكال المتجاورة كوحدات ؛ لأن الصور البصرية المجاورة تدل غالباً على أشياء ذات أهمية عملية . فإذا كان علينا أن نتعلم هذا الدرس ؛ فقد تعلمناه جيداً بالتأكيد ، إذ من المستحيل تقريباً أن نرى مجالا غريباً ولا معنى له على أى نحو آخر . ولهذا

يقوم الدليل لأول وهلة على رأى الجشطلت ؛ الذى هو : أنه ليس علينا أن نتعود أن نرى البقعة المتلاصقة كوحدة ؛ لأن استجابة المخ الأولى لمجال ذى تأثير متجانس هى نظام ديناميكى ، وليست تجميعاً لنُقَطٍ حية كل على حدة* .

الشكل والخلفية فى سيكولوچيا الجشطلت :

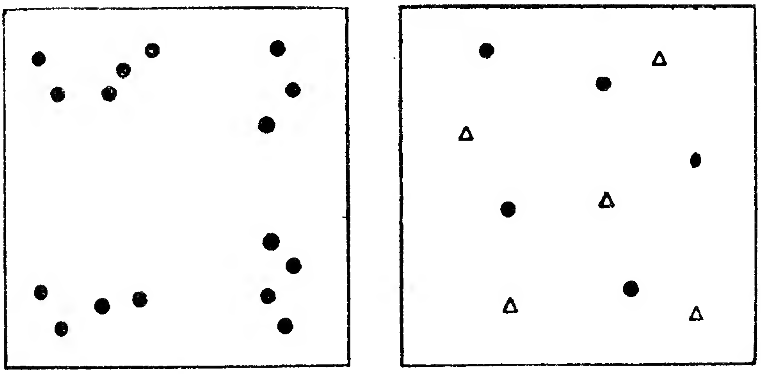
وهذه التفرقة بين الشكل والخلفية تُعدُّ لدَى علماء النفس الجشطلتيين مُطلَقة الجوهرية فى عملية الإبصار . فمن المؤكد أن شكلا ما يُرى إذا قدّم له المجالُ أىَّ إمكان للرؤية . فالشكل مختلط على نحو رمزى ، ولكنه على أى حال يبدو أن له صيغة وتخطيطاً بينما تبدو الخلفية فراغاً غير محدود . والشكل أجدر بأن يجتذب الانتباه من الخلفية . عند ما يفتح الطفل عينيه أول الأمر على العالَم ، فبينما هو على التأكيد لا يرى عالَماً من الأشياء على نحو ما يَرى ويَعرف الكبار ؛ قد لا يرى — على عكس ذلك — مجرد كثرة مختلطة من النقط ، أو « خليطاً كبيراً مضيئاً وصاخباً » كما ظن چيمس . فلو كان ثمة كتلة مختلطة واضحة اللون فى مجال بصره ، كوجه ينحنى فوق سريره ؛ فربما برز ذلك له على أنه شكل « متميز » من الخلفية العامة . ليس مفروضاً أن الطفل يرى الوجه بدقة ، ولا أن تكون له أية فكرة عما هى هذه البقعة ؛ ولكن على الأقل — كما يعتقد علماء النفس الجشطلتيون — هو يُفرِد الوجه كوحدة بصرية مرتبطة ؛ وبهذا يأخذ بَدءاً هاماً نحو الوصول إلى معرفة الوجه . فإذا لم يكن أسهلَ عليه أن يرى الوجه المرتبط كوحدة من أن يجمع نقطاً كثيرة فى المجال كله ؛ فتقدّمه فى معرفة الأشياء تحت بصره قد يكون أبطأ بكثير مما هو عليه بالفعل .

والصورة والخلفية ليستا قاصرتين على حاسة البصر . فدقة الطبلة الإيقاعية أو سير قارب بخارى تَبرُز كصورة فوق خلفية عامة من أصوات أقلَّ تميُّزاً . وشىء يتحرك فوق الجلد يَبرُز من كتلة الإحساسات الجلدية العامة . فالحقائق يعترف بها كل شخص مُسلَّماً بها ؛ إلا أن دلالتها السيكولوچية قد أُغفِلَت حتى بيَّنها إدجَر روبن+ (المولود سنة ١٨٨٦) وهو الآن أستاذ فى جامعة كوپنهاجن(١١) . وقد أصرَّت سيكولوچيا الجشطلت على هذه التفرقة بين الصورة والخلفية بوصفها مبدءاً أساسياً فى تنظيم الخبرة والسلوك .

* كيلر : سيكولوچيا الجشطلت — بونى وليفريت : ١٩٢٩ . ف ٥

+ إ . روبن : الأشكال البصرية المدركة جيلدندال ١٩٢١ .

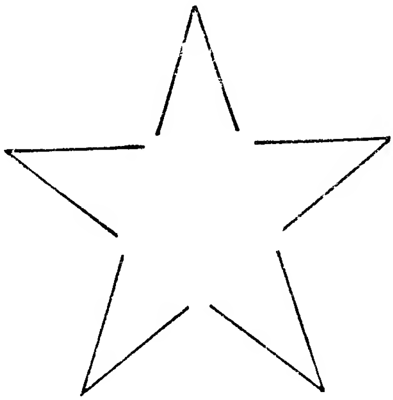
E. Rubins Visuell wahrgenommence Figuren-



ويحاول علماء النفس الجشطلتيون — استمراراً فى هذا اللون العام من الدراسة ، وبتركيز جهودهم فى معظمها حول مادة الإبصار — يحاولون أن يكشفوا تحت أى شروط يبرز جزء من المجال ككل منفصل عن الكتلة للعامة للمنبهات الموجودة . ويمكن أن نعثر على عوامل هامة كثيرة من ملاحظة مجموعات من النقط مبعثرة فى غير نظام فوق مجال ؛ فإن هذه النقط تَرى وكأنها واقعة فى مجموعات ، والمسألة هى : تحت أى الشروط يَسهُل تكوين مجموعة . فشرط وَجيه منها أن تكون النقط قريبة بعضها من بعض ، فالنقط المتجاورة على استعداد لأن تقع فى نفس المجموعة . وشرط ملائم آخر هو تشابه النقط ؛ فإذا اشتمل المجال على نقط من شكلين أو بالأحرى ذات لونين ، فهذه المتشابهة منها أكثر قبولا لأن تُرى وكأنها تُكوِّن مجموعة . وشرط وجيه ثالث هو أن تكون النقط شكلا مُتمماً ، وخصوصاً إذا كان شكلا منتظم الصورة (التركيب)*

ويُغلِّب علماء النفس الجشطلتيون الشكلَ المُتمِّم وخاصَّته على غيره " من الشروط " الجديرة بالذكر . فلو أن شكلا رُسِم بفَجوة أو فَجوات صغيرة فيه ؛ فإن هذه الفجوات قابلة لأن تُملأ عند إبصار هذا الشكل ، أو — إذا هى لم تملأ — تُعدّ غيرَ ذات أهمية . والواقع أنها أحياناً ما تأخذ العينَ وتبرُز بوصفها أهم شىء فى الشكل . وعلى العموم فالميل الطبيعى يبدو أنه إلى مِلء الفجوات" أنزع " . وبدلا من أن يفسروا هذا الميل بأنه نتيجة خبرة أشياء كلية كثيرة ؛ يعتقد علماء النفس الجشطلتيون أنه يمثل ديناميكا العقل الباطنية فى تلَقِّى كتلة من المنبهات عن طريق العين . هم يعتقدون فى عمليـــة المخ أنها تميل إلى أن تنتشر خلال الفجوة ،

* م . فرتيمر : بحث سيكولوچى Psychologische Forschung ١٩٢٣ مجلد ٣ ص ص ١٠٦ — ١٢٣



ومع الفجوة توجد حالة امتدادات غير متعادلة ؛ ولكنّ سدّ الفجوة هو الذى يؤدى إلى التعـــادل . فعملية الاستقبال فى المخ تنجذب نحو شرط التعادل ، أو التوازن ، أو الامتداد الأقل ؛ كما تفعل الأجهزة الفيزيقية المســتمرة الأخرى تماماً — قطرات الماء ، رغوة الصابون ، أو شبكات الكهرباء. والمخ لا يستجيب باستعداد وإخلاص متساويين لكل الأشكال ؛ بل هو يستجيب إلى « كل » شكل ككل . وعلى هـــذا فرؤية الأشكال لا تُكتسَب ، بل هى ضِمنيّة فى طبيعة النشاط الذهنى .

وملء الفجوات فى الأشكال يُساوقه الميلُ إلى تجاوز الأمور الشاذة "غير المنتظمة" ، وبالجملة رؤية ما يبدو للعين على أنه « حَسَن » أو « مُفعَم بالدلالة » ما أمكن . والشكل الناقص — فى النظرية الجشطلتية — يَدلّ على امتدادات المخ غير المتوازنة ؛ بينما الشكل الحسن يُعنَى به التعادل . ومن ثم فاستجابة المخ لما يقدم له تنجذب نحو تكميل الشكل وتنظيمه وإحكامه .

ويجب ألا ننسى — فى اعتبارنا عمليةَ رؤيةِ الأشكال والأشياء — حركات العين ؛ حركات النظر إلى الشىء فى اتجاه مستقيم ، ومحاولة بأورته . فهذه الحركات تعطى أشكالا أحسن مما يمكن أن نحصل عليه فى النظر المُصَبَّب . وميلنا المكتسب بالعادة هو بحيث يُوجّه ويُبأور العينين حتى يُؤمّن أحسنَ وأوضح شكل . وبهذا ؛ فإن النشاط الحركى فى الإبصار يُنظر إليه على أنه جزء هام جداً من عملية الإدراك . « إن الإحساس والحركة البصريّين لا يمكن أن يُعدّا قطعتين منفصلتين من جهاز ؛ ما داما فى كثير من أنواع الفعل يُكوّنان عضواً واحداً — أعنى نظاماً فيزيقياً قد تستجيب فى داخله أجزاء عضوية منفصلة لأجزاء أخرى . وبالتالى فإن ما يحدث فى نقطة ما فى الجهاز العضوى ليس قط منفصلا أو لا تأثير له على ما يحدث فى أى جزء آخر من الجهاز* » .

* كفكه : نمو العقل The Growth of the Mind هاركورت وبريس وشركاهما — ١٩٢٥ ص ٨٠

ومع أن علماء النفس الجشطلتيين يقفون — على هذا النحو — كثيراً من جهودهم على دراسة الإدراك الحسى ؛ فليس ذلك لأنهم ينظرون إلى وجوه النشاط الحركى على أنها تقع خارج ميدان علم النفس . لقد بدا لهم أن دراسة العمليات الحسية تمهد أحسن التمهيد للاقتراب من آليات السلوك بوجه عام . وهم على يقين أيضاً من أن السلوك لا يمكن أن يُفهَم أقل درجة من الفهم دون أن نعمل حساباً للعمليات الإدراكية . وأنتَ تذكر أن « هَنتر » السلوكى قد حاول أن يَخرُج بدراسة ما سماه « البيئة المحيطة » من دراسة السلوك . فإن علوماً أخرى — كما أصر هو — تقف وقتها على دراسة " هذه " البيئة . ودارس السلوك يستطيع بحق أن يتركها لهم ، ويُركِّز جهودَه فى استجابات الكائن العضوى . وهنا فإذا كانت البيئة المحيطة هى التى تُعالَج فى دراسات الإدراك ؛ فهى على الأقل البيئة كما تؤثر فى الفرد ، البيئة كما يأخذ بها الفرد . ويرى علماء النفس الجشطلتيون أنَّ من القُبح أن ندرس استجابات الكائن العضوى الحركية للبيئة ؛ من غير أن ننظر فى : ما هى البيئة ، كما يفهمها الكائن . هم يرون أن النشاطَ الحركى يحدده النشاطُ الإدراكى ، أو بالأَحرى أن كليهما إذا أُخِذ وحدَه كان قطاعاً مُصطَنعاً ؛ ما دام الكائن العضوى يفعل ككل. فالإدراك الحسى مُنطَوٍ فى النشاط الكلى للكائن ، والاستجابة الحركية منطوية فى نفس هذا النشاط الكلى .

دراسات الجشطلتيين للسلوك :

تكره سيكولوجيا الجشطلت إدراكَ استجابة المنبه . وهى تعترض — أول ما تعترض — على فكرة أن السلوك يمكن بالتعيين أن يَنحلّ إلى وحدات استجابة تنبيه ، وهذا الاعتراض يتمشى مع اعتراضها العام على الذَّرِّية فى علم النفس . هى ترفض فكرة "وجود" رابطة بين التنبيه والاستجابة سواء أكانت هِبة من الطبيعة أم رياضة بالمران والخبرة . وهى تعترض على نظرية هربرت اسپنسر التى أخذ بها كثير من السلوكيين فى أن الغريزة هى مجرد سلسلة من الأفعال المنعكسة ، وهى ترفض أيضاً النظرية المشابهة أن السلوك المكتسب يتركب من أفعال منعكسة تربطها ببعضها البعض عملية « تشريط » . وأكثر من هذا هى تحمل على الطريقة غير المحددة التى يستعمل بها كثير من علماء النفس كلمة « تنبيه » . فإن عالِم النفس ليتحدث عن شىء معقد كالتنبيه ، وعن الاستجابة الحركية التى يثيرها مباشرةً هذا التنبيه ،

"يتحدث عنهما" دون مراعاة للتنظيم العضوى الذى يجب أن يَحدُث فى الإدراك الحسى قبل أن تتسنَّى رؤيةُ كتلة المنبهات المنفصلة الآتية من الشيء كشيء مطلقاً. وعند الجشطلتيين أن الطفل لا يبدأ حياتَه بطائفة من الحركات المنعكسة منفصلة؛ ثم تصبح بالتدريج شرطية ومرتبطة فى سلوك. وإنما يبدأ الطفل بسلوك من نوع متدفق وغير منظم تنظيماً كافياً، وتكيفه بالبيئة يضمن هذا التنظيم سواء فى الجانب الحسى والجانب الحركى؛ وبانطواء هذين فى النشاط الكلى للكائن العضوى. وأكثر من هذا؛ فإن هذا النشاط الكلى له منذ البدء — وفيما بعده — خاصة يمكن أن نسميها بالغرضية.

والأستاذ كورت لڤن Kurt Lewin (ولد سنة ١٨٩٠)[١٢] فى جامعة برلين، هو عضو مدرسة الجشطلت الذى وقف نفسَه خصوصاً على سيكولوچيا الفعل. واعتراضه على الارتباطات وروابط المنبه والاستجابة ليس — إلى حد كبير — أن مثل هذه الروابط لا وجود لها؛ بقدر ما هو أنها لا تستتبع الفعل، وأنها ليست السبب الكافى للفعل. وهو يصور فكرته تصويراً من الحياة اليومية يفسر على نحو نقدى*:

هب أننى وضعت خطاباً فى جيبى؛ محمِّلا نفسى ضرورةَ إلقائه فى صندوق الخطابات حين أمرُّ فى طريقى بواحد منها؛ فأنا هنا قد أقمت رابطة بين رؤية صندوق الخطابات — كمنبه — وبين استجابة إخراج الخطاب وإرساله. ثم أرى صندوقاً وألقى بالخطاب فيه. سوف يذكر هذه الحالةَ الارتباطىُّ أو عالمُ النفس "الذى يقول" باستجابة المنبه، "يذكرها" — إلى حد ما — على أنها شاهد قوى لنظريته. إلا أنه تبعاً لعلم النفس الارتباطى هنا أيضاً يجب أن يُقوِّيها التدرب على هذا الربط بين المنبه والاستجابة. وإذن؛ فعندما أصل صندوق الخطابات الثانى، فإن استجابة تَحسُّس الخطاب فى جيبى ستكون أقوى، وهذا الميل — على عكس ذلك — قد يكون لا أثرَ له إطلاقاً. فأنا عندما وضعتُ الخطابَ فى الصندوق الأول قلت لنفسى «لقد انتهى»، ومحوت رابطة المنبه والاستجابة. ويُصِرُّ لڤن على أن القوة الدافعة التى نشَّطت السلوك لم تكن الرابطة، ولم يكن صندوق الخطابات كمنبه؛ بل الميل الذى نشأ عندما وضعت الكتاب فى جيبى مع نية إصداره. وهذا

* ك لڤن K. Lewin : القصد والإرادة والحاجة Vorsatz, Wille und Bedürfnis : فى بحث سيكولوچى ١٩٢٦، مجلد ٧ ص ١٣٣٥

الميل قد زال عندما أصدرت الخطاب ، ولم يعد للرابطة بعدُ أىّ تأثير فى سلوكى . ولو أنه قد حدث أنى تعقبت عاملَ البريد وسلمته الخطاب ؛ فإن هذا الفعل المغاير قد كان يُزيل هذا الميلَ أيضاً .

والسلوك فى مثل هذه الأحوال يمكن أن يوضع فى الصيغة « سد الفراغ » ؛ وبهذا يوضع إلى جانب الميل لرؤية الأشكال التامة . وربما كانت آليات العقل فى كلتا العمليتين هى نفسها إلى حد كبير . فعندما وضعت الخطاب فى جيبى قد تركت فى سلوكى فجوة " أو " فراغاً سُدّ عندما صدّرت الخطاب . وسد الفراغ قد أدى بهذا الجهاز الديناميكى الخاص إلى حالة من التعادل لا قدرة لها بعدُ على أن تؤثر فى سلوكى .

فعندما يتعهد فردٌ بعمل ، أو يبدأ فى فعل — حتى ولو كان مجرد عمل معين له بوصفه موضوعاً فى تجربة معمل — فإنه تنشأ فيه ميول لا تتحرر حتى يتم العمل . هذه الميول تتحول إلى « شبه حاجة » تحكى الحاجات العضوية ؛ وإن كانت موقوتة فحسب . فإذا عُوق الشخص فى أثناء الفعل ، فإنه يشعر بالحاجة إلى معاودته حالما ينتهى التعويق . فإذا لم يُتح له ذلك ، فإنه يَلصق بذاكرته ساعة أو ساعتين أكثر من الأفعال المشابهة التى أتمها . فالعمل الذى تم يمكن أن يُنسى ؛ بينما العمل المعوق ما يزال به ميل إلى « شبه حاجته » ، وفراغه لم يُسدّ بعد . ومن ناحية أخرى ؛ إذا كان الشخص بإزاء عمل مُملّ لا نهاية له محدّدة ، وتُرك لنفسه ، فإن شبهَ حاجته سرعان ما تُشبع . فإذا كان القائم على التجربة قد علمه أن يُبقى عليها حتى يشعر أنه لن يستطيع أن يؤديها ، فربما استمر ساعة يرسم ساسلة لا نهاية لها من النقط والخطوط فوق قصاصات من الورق ؛ ولكنه حقيق جداً بأن يجد لنفسه أهدافاً وهو يأخذ طريقَه . فنهاية الخط هدف ، ونهاية القصاصة هدف ؛ سوف يصل إليه قبل أن يستسلم . هو ينزع جهدُه فى وقت ما إلى السرعة ، وفى آخر للنظام . وهو ربما يربط نقاطه فى مجموعات ، وبهذا يُضفى على العمل الرتيب شيئاً من المعنى . وأخيراً يكون الفراغ فوق الامتلاء ، فيزول عنه الميل . ومع أن الشخص ما يزال يحثّه القائمُ على التجربة بأدبٍ أن يستمر إذا شاء ؛ فإنه ينفجر بإصرار أو حتى بثورة غضب ☆ .

☆ هذه الدراسات عن تلميذ لفن : أوفسيانكينا M. Ovsiankina : بحث سيكولوچى Psychologische Forschung ١٩٢٨ مجلد ١١ ص ص ٣٠٢ — ٣٧٩ ، وتلميذه تسيجارنك B. Zeigarnik : المرجع المذكور — ١٩٢٧ مجلد ٩ ص ص ١ — ٨٥ ، وتلميذه كارستن A. Karsten نفس المرجع ١٩٢٨ مجلد ١٠ ص ص ١٤٢ — ٢٥٤ .

على أن أطرف ما فى عمل مدرسة الجشطلت بوجه عام هى دراسة « كيلر » للتعلم فى القِرَدة *. ففيما قبل الحرب العظمى ، أنشأ الألمان محطة لدراسة الحيوانات الشبيهة بالإنسان فى تنريف بجزر كناريا ، وأُرسلَ كيلر إلى هناك سنة ١٩١٣ ليقوم بدراسات نفسية على الشمپانزى . وكمواطن ألمانى أُسِرَ هناك طيلة الحرب ، فتوافر لديه الوقتُ الكافى ليقوم بدراسة كاملة تقدَّم هو فى الواقع ليضطلع بها . والمشكلة التى وضعها لنفسه كانت : هل تُظهر أذكى الحيوانات هذه أىَّ ذكاء حقيقى . وكان يعنى بالذكاء شيئاً أكثر من التعلم بالمحاولة والخطأ . إنما أراد به « الاستبصار » بمعنى رؤية ما يفعله المرء . وكان ثورندايك قد اقتنع من دراساته للقطط والكلاب وصغار القردة أن هذه الحيوانات تتعلم بالمحاولة والخطأ ، يعنى بدافع لتثبيت الاستجابات الصائبة وانتزاع الخائبة وفقاً لقانون الأثر law of effect — وهى عملية تعلم عمياء . ومع أن تجاريب ثورندايك لم تمتد إلى القردة الشبيهة بالإنسان ؛ فإن الفكرة العامة التى تمخَّض عنها عملُه هى : أن التعلم بالمحاولة والخطأ — من غير أن يكون ثمة ما يسمى تدبيراً أو استبصاراً — هو من الناحية العملية المنهج الخاص بتعلم الحيوان . وقد أدخل كيلر الشكوك على هذا الأمر ، وظن أن أساس ثورندايك الارتباطى قد أدى به إلى بناء زائف ، وإلى تفسيرات للنتائج خاطئة .

وقد استخدم ثورانديك المتاهات والمُحيِّرات، وهى مواقف غامضة ليست مُهيَّأة لأن يكتشفها الحيوان. إنما أراد ثورندايك بهذا أن يُعطِى للحيوان شيئاً يتعلمه، فلو أنه ترك الطريق إلى الهدف مفتوحاً لا عقبة فيه ؛ فمن الطبيعى أن الحيوانات كانت تسلكه رأسا إلى الهدف ، ولم يكن ثمة شيء يُتعلَّم . وقد أقرَّ كيلر ضرورة وجود عائق أبداً ؛ فإن الحيوان يجب أن يضطر إلى أن يأخذ طريقاً ملتوياً — حقيقياً أو ظاهرياً — حتى يتأدى إلى هدفه . ولكن كيلر قد ناقش أن الحيوان يجب مع هذا أن يستطيع منذ البدء أن يَطوف بالمجال كله ، حتى يستطيع — إذا كانت له قوة الاستبصار — أن يَحُلَّ المشكلة فى غير حاجة إلى عماء المحاولة والخطأ . إن عناصر الموقف يجب أن تكون كلها بحيث تُرى . والمسألة هى ما إذا كان الحيوان يستطيع أن يؤلف بينها ، وما إذا كان الحيوان يستطيع أن يرى صيغة الموقف .

ولكى نُبيِّن ماذا يراد بكلمة « الاستبصار » يمكن أن نصف أبسطَ شاهدٍ له .

* ف . كيلر .. عقلية القردة The Mentality of Apes هاركورت وبريس وشركاها ١٩٢٥

فإذا أتينا بكلب فى ساحة جديدة ذات سور طويل ، ووضعنا — حين يكون الكلب فى منتصف السور — شيئاً من الطعام أمامه مباشرة ؛ ولكن فى الناحية الأخرى من السور ؛ فإن الكلب غالباً ما يخترق السور من آخره مباشرة إلى الطعام كما وجد كيلر . فالكلب « هنا » يمكن أن يرى الطريق إلى الطعام ، وإن كان طريقاً غير مباشر . أما فى المتاهة المعقدة — من ناحية أخرى — فإن على الحيوان أن يستكشف ، لأنه لا يستطيع أن يرى الطريق كله إلى الهدف . وقد كانت شمپانزية كيلر تحل بسهولة أية مشكلة تقوم فعلا فى طريق ملتو إلى الهدف ، حتى ولو لم يكن الطريق كله يُرى بوضوح .

فإذا كان الشمپانزى داخل قفصه ، ووضعتَ فى خارج القفص — وإلى مسافة كبيرة لا يُوصَل إليها مباشرة — موزة معلقة فى خيط ومتدلية إلى الأرض نحو القفص ؛ فإن الشمپانزى سوف يجذب الخيط مرة واحدة . ولكن إذا عُلِّقت خيوطٌ كثيرة إلى الأرض ، وكلها تمتد فى نفس اتجاه الموزة ؛ ولكن واحداً منها هو المشدود للموزة ؛ فان الشمپانزى سوف يخطىء غالباً ويجذب خيطاً آخر أولا . الرجل فى مثل هذا الموقف لن يجد صعوبة فى رؤية أيّ هذه الخيوط يتصل بالشىء ، وسوف يحصل على الموزة بسرعة . إلا أن الصورة البصرية كانت أعقد بعض الشىء من أن يقف الشمپانزى على صيغتها فى الحال .

والعصا — يُمسَك بها مستقيمة فى اليد — قد استُخدمت كذلك وسيلة لتحريك موزة تقع أبعد من أن تصلها اليد وحدَها . فلو كانت العصا موضوعة إلى خلف القفص ، ومع أن الحيوان قد يراها ويمسك بها عندما يبعد القفص ؛ إلا أنه ليس من المحتمل أن يستخدمها أول الأمر كمحرك . وإخفاقه فى الحالة الأخيرة يرجع — فيما يبدو — إلى عدم وجود صورة بصرية متماسكة للعصا والموزة. « فالفراغ » فى المجال أكبر من أن يوصل فى الحال . إلا أن كثرة استخدام العِصِىّ لاجتذاب الأشياء " يؤدى إلى " التغلب على هذه الصعوبة .

وبالمثل ، وجد الشمپانزية من الأسهل نوعاً أن يستعينوا بصندوق للوصول إلى الطعام الذى لا سبيل إليه بالوثب ، وأن يستحضروا الصندوق إلى الموضع الصحيح إذا لم يكن بعيداً جداً . إلا أن استخدام صندوقين ، ووضع أحدهما فوق الآخر للوصول إلى هدف ما يزال بعيداً ؛ كان مشكلة أكثر صعوبة ، وإن حلّها عدد من الحيوانات . لقد أظهروا قليلا من الاستبصار فى مسألة تثبيت البناء ، وربما

ركبوا الصناديق فى غير عناية الواحدَ فوق الآخر ؛ معتمدين إلى حد كبير على خفتهم أنفسهم فى الوصول إلى الشيء قبل أن ينهار البناء .

والعمل الذى يستحق الإعجاب ؛ هو عمل أحد الشمپانزية — أذكى المجموعة المختبَرة جميعاً — الذى عرف كيف يربط قطعتين من الخيزارن فى عصا كبيرة ، وبها كان يصل إلى أشياء بعيدة عن مُتناوَل كل قطعة على حدة . وقد جاء الحل بعد ساعة سلوك بالمحاولة والخطأ . إلا أنه كان مفاجئاً عندما جاء ؛ مصحوباً بالنشاط بعد الغفلة وبتذكرُّه جدياً فى اليوم التالى ؛ بما لا يدع فى عقل الملاحِظ أى شك فى عبقرية الاستبصار . ولم يأتِ الحلُّ فى الواقع نتيجة عملية تدبير — يمكن أن يُعبرَّ عنها بقولنا : « قد أستطيع أن أصل إلى الموزة إذا كان عندى عصا أطول ، فكيف أستطيع أن أعمل عصا أطول من هذه التى عندى ؟ » — إلا أنه لم يظهر أيضاً كحدث فى خلال السلوك الحركى الغريزى ؛ إنما يبدو أنه ظهر فى مجال الإدراك الحسى ، وأنه يقوم حقيقةً فى إبصار مُركَّب أو صِيغَة للأشياء .

ضرورة الاستبصار للتعلم ؛ باعتبار علم النفس الجشطلتى :

لقد رأينا علماء النفس الجشطلتيين أشد ما يكونون رغبة فى إزالة صفات السلوك القديمة — وإن لم تكن قديمة فى الواقع — وأن يتركوا وراءهم أيضاً الطرق القديمة فى وصف الخبرة الواعية . وهم هاهنا فى صراع أكثر جوهرية مع النظريات المأخوذ بها من قبل فى نظرية التعلم . فقد كان ميل النظرية السيكولوچية منذ أيام إبنجهاوس يتجه نحو تصور آلى للتعلم . والحق أنه يجب ألا نغفل نتائج ج . إ . ميلر التى بينت أهمية التجميع والتقريب والمعانى فى تذكر الأعداد وما أشبهها . إلا أنه من ناحية أخرى فإن دراسة پاڤلوف ؛ والتحمس الذى استقبل به علماء النفس فكرة الشرطى المنعكس ؛ قد قوَّيا الفكرة الارتباطية القديمة عن التعلم بوصفه مركباً من حلقات تقوم بين أفكار منفصلة ، أو — بتعبير أحدث — بين المنبهات والاستجابات. وعلم النفس الجشطلتى هو الخصم الرئيسى للارتباطية : ليس له ثقة فى هذه الروابط الأولية — فطرية كانت أو مكتسبة — لا لأنه يكره آليات العقل أو ديناميكياته ؛ بل لأنه يعتقد أن العقل يعمل فى صيغ كبيرة بطريق « سد الفراغات » ونحوها أولى " من أن يعمل فى هذه الصيغ " بما تقوم به الطرق العصبية من ربط هذا المركز الصغير فى المخ بذاك " الآخر " .

وكفكه فى نقاشه* لموضوع التعلم كله — الذى يقوم إلى حد كبير على دراسات كيلر للقردة — يبدو أنه ينتهى إلى أن كل تعلم فإنما يقوم على الاستبصار ، وأنَّ تعلُّم ثورنديك المفروض بالمحاولة والخطأ هو محض غلطة . وأنت تذكر أن ثورنديك قد أشار إلى التقدم التدريجى الذى يظهر فى تعلم المنحنيات كدليل يُدحِض به أىّ استبصار مفاجئ . و " هنا " يختبر كفكه منحنيات ثورنديك من جديد ، ويجد فى بعض منها سقوطاً مفاجئاً . وقد ظهرت هذه فى بدء تعلم المسائل التى كانت سهلة على الحيوانات . وبتأمُّل هذه الأمثلة من التعلم السريع ؛ لاحظ ثورنديك أنه « بطبيعة الحال حيث يكون الفعل الناشئ عن الدافع بسيطاً جداً ، وواضحاً جداً ، ومعرفاً بكل جلاء ؛ فإن تجربة واحدة قد تجعل الارتباط تاماً . ويكون لدينا انحدار فجائى فى منحنى الزمن — من غير حاجة إلى أن نفترض الاستدلال العقلى+ » . فليس الاستدلال بالتأكيد ؛ ولكن قد يكون أن ما هو « بسيط جداً ، وواضح جداً ، ومُعرَّف بكل جلاء » لدى الحيوان مجالا يرى فيه الحيوان ماذا ينبغى بالضبط أن يفعل . هو قد لا يعرف آليات مقبض الباب ، إلا أنه ربما لاحظ أن الزرَّ هو الشىء الذى يُضغَط ، وهذا قد يكون استبصاراً من الدرجة الدنيا .

ويستطرد كُفكَه أيضاً إلى أنه لا يوجد تعلم إلا عن طريق الاستبصار . فالاستبصار لا يوضع ببساطة إلى جانب المحاولة والخطأ كطريقة أخرى للتعلم ؛ بل إنه يحل محله بالكلية . فمبدأ المحاولة والخطأ — كما يفهمه كفكه — يعنى فى المقام الأول أن لا شىء جديداً يمكن أن يُتعلَّم ؛ ما دام سلوك المحاولة والخطأ يتركب من استجابات غريزية ، وكل ما يحصُل بعملية التعلم هو استبعاد بعض هذه الاستجابات وتثبيت ما بقى منها . ولا يمكن كذلك أن يكون لسلوك المحاولة والخطأ أى غرض أو اتجاه ، وعلى الحيوان فقط أن يحاول عبثاً . فالاستبصار والقصد لا يمكن أن يقوما بدور فى حركته ، واستبعاد الحركات الخائبة وتثبيت الحركات الصائبة يجب أن يتقدما « دون أية مشاركة من جانب الحيوان . فليس للحيوان

---

* ك . كفكه : نمو العقل The Growth of the Mind — هاركورت وبريس وشركاها ١٩٢٥ ص ص ١٥٣ — ٢٣٠

+ إ ل . ثورنديك : ذكاء الحيوان ، دراسات تجريبية Animal Psychology Experimental Studies شركة مكملان ١٩١١ ص ص ٧٣ — ٧٤

أدنى فكرة عن السبب الذى من أجله يتحول سلوكه ، والعملية كلها التى فيها تتبقى الأفعال الصائبة وتستبعد تدريجياً غير الصائبة هى آلية محض . ذلك هو مبدأ المحاولة والخطأ ✩» . فلا تصل الحيوانات إلى أن ترى أو تعرف كيف تصل إلى هدفها . إنما هى تتعلم بطريقة عمياء ، ولا تستطيع — وفقاً لمبدأ المحاولة والخطأ كما يفهمه كفكه — حتى أن تلاحظ موضع الفتحة أو العصا التى تتشبث بها فى الاستجابة الصائبة . فهى لا تبصر الفتحة أو القضيب طريقاً أو وسيلة للخلاص .

ولست على يقين من أن كفكه يريد أن ينسب كل هذه الأقوال إلى ثورندايك . إنما يبدو بالأحرى أنه يأخذ على ثورندايك مزالق قليلة غير مقصودة فيما "يتعلق" بطريقته الحـ ـية فى ملاحظة أفعال الحيوان . وقد كان على ثورندايك أن يوافق — من الناحية المنطقية — على كل الأقوال المتقدمة باعتبار كفكه . والحقيقة أن ثورندايك يتحدث غالباً عن الحيوانات وكأنها تستجيب « للمنبهات الحسية » ، وهو بالتأكيد لا يفكر فيها على أنها تندفع فى عماء هنا وهناك كما لو كانت فى ذهول أو نوبة عمياء . ووصفه لها يجرى على النحو التالى :

عند ما توضع القطة فى صندوق فإنها تبدى علامات ظاهرة للقلق ولدافع الهرب من المحبس . هى تحاول أن تنسلّ من أية فتحة ، هى تحدش وتعض القضبان أو الأسلاك ؛ وهى تُخرج أظافرها من أية فتحة . وتخدش أى شىء تصل إليه ؛ وتستمر فى محاولاتها عند ما تصادف شيئاً هَشاً وغير مشدود ؛ وقد تخمش فى أشياء داخل الصندوق . . . +

والقطة التى تخدش كل ما فى الصندوق ربما تخدش فى صراعها الدافع الخيطَ أو الفتحة أو الزر لكيما تفتح الباب . وبالتدريج سوف تنتزع كلّ الدوافع الأخرى غير الصائبة ، وتثبت الدافعَ الجزئى المؤدى إلى الفعل الصائب بما ينتج عنه من غبطة ؛ حتى إنه — بعد عدة محاولات — ستصل القطة ، عند وضعها فى الصندوق ، إلى أن تخدش مباشرة الزرَّ أو الفتحة بطريقة نهائية .

فما يقوله ثورندايك يتضمن بالتحقيق أن الحيوان كان يستجيب ؛ ليس فقط لموقف الحبَس فى صندوق غريب ككل ؛ بل أيضاً لنواحٍ جزئية من الموقف :

✩ ك . كفكه : نمو العقل The Growth of the Mind (١٩٢٥) ص ١٥٥

+ إ . ل . ثورندايك : ذكاء الحيوان : دراسات تجريبية (١٩١١ ص ص ٣٥ - ٣٦)

فتحات ، قضبان ، أى شىء هش وغير مشدود ، أزرار أو خيوط . . . وكانت استجاباتها توجهها المنبهات البصرية . وإلى حد ما لا بد أنها قد أبصرت ما كانت تخدشه أو تعضه . فأما إلى أى حد من الدقة أبصرته فتلك مسألة أخرى . وفى تجارب معينة ، حرك ثورندايك حبل السلك الذى كان يجب أن يشد إلى جزء آخر من القفص ، فتعلم الحيوان أن يستجيب له هناك بقليل من الإبطاء . ومرة أخرى استبدل المجرب الحبل بقضيب صغير يجذب إلى أسفل ، واضعاً إياه حيث كان الحبل ؛ فلم يجد الحيوان صعوبة فى تحويل جهوده للحيلة الجديدة فى الموضع القديم . وقد أخذ ثورندايك من هذه النتائج أنها تدل على أن الحيوان لم يلحظ التغير الذى طرأ على الموقف ، « فهو يستجيب إلى تنبيه حسى غامض وغير محدد ؛ غير متميز ؛ بل غير مدرك بالمعنى الدقيق للكلمة . . . وبهذا فإن القطط قد تخدش موضع الحبل من غير أن يكون ثمة حبل* »

وهذه النتيجة الأخيرة تبين أن القطط تلاحظ — بمعنى ما — الموضع الذى كان عليها أن تعالجه كيما تخرج . وقد أظهرت تجارب أخرى أن الحيوانات تتعلم المواضع بسرعة ، كما أظهرت تجارب تعلم الإنسان أنه هو أيضاً يتعلم المواضع بسهولة أكثر من " تعلم " أكثر الأشياء . وهنا فإن « الاستبصار » مسألة نسبية . فإنه إذا كان عليك أن تخرج من قفص بإدارة زرّ باب ، وتلاحظ ببساطة أين هو الشىء الذى يجب أن تديره ؛ فهذا استبصار من الدرجة الدنيا . فأما إذا رأيت الزر على أنه عقبة يجب تنحيتها جانباً حتى تدع الباب ينفتح ؛ فذلك استبصار من نوع أعلى . فإذا فهمت آليات الشىء فذلك استبصار أكثر علواً أيضاً .

والاستبصار من الدرجة الدنيا ربما تركب من مجرد تركيز نشاط الحيوان فى حل المشكلة ؛ تلك هى طريقة كفكه فى قراءة الاستبصار فى نتائج ثورندايك . فهو يكتب+ :

بل إن تجارب ثورندايك يبدو أنها تبين أن الحيوان ليس فقط أنه يكتسب الخبرة بمواقف كلية غامضة معينة ، بل إنه فى مجرى التعلم يصبح هذا الموقف الكلى منظماً . (فيصبح الحبل) . . . « شيئاً يجذب » أو « شيئاً يحرك » . وبهذا يصل إلى أن يشغل الموضع الرئيسى فى مجال الظاهرة الكلى . . . وهنا ، فإذا أصبح الحبل

---

* ثورندايك : نفس المرجع ، ص ١١٩ .

+ كفكه : نفس المرجع ، ص ١٧٢ .

الشيء الرئيسيّ فى المجال ؛ فذلك يدل على أنه لا هو ولا الحركاتُ التى تؤدّى به هى غير ذات مغزى للحيوان ؛ لأن الحيوان قد ربط — على نحو ما — ما يفعله بالحبل ، بالطعام فى خارج القفص . فنظرية التعلم بِغَير معنى بتاتاً " هى نظرية " لا يمكن حتى القول بها . »

والذى يتشبث به علم النفس الجشطلتى هو العامل الإدراكى فى التعلم . فالتعلم يعنى فعلَ شيء جديد ، والجدّة لا يمكن أن تُفهَم بتفحُّص الفعل الحركى وحده ؛ لأن الجدة تقوم فى إعادة تنظيم المجال ، حتى تُعبَر الهوّة فيما بين المجال كما هو و" بين " الهدف . و" هذه " الهوة تُعبَر برؤية المجال كصورة تشمل وتؤدى إلى الهدف .

على أن تجربةً أخرى فى تعلّم الحيوان يُظَن أنها تؤيد فكرة الجشطلت. فلنَجعل الحيوانَ أولا يتمرن على أن يجد طعامه فى هذا الواحد من الصندوقين المُعلَّم بعلامة من درجة معينة من اللون الرمادى . ولنفرض أن الصندوقين موضوعان أمامه : ا ، ب : أحدهما « ا » مُعلَّم برمادى خفيف ، والآخر « ب » بالرمادى المتوسط ، وبعد أن يتعلم الحيوان أن يذهب دائماً إلى « ب » ، يُبعَد الصندوق « ا » ويُستبدَل به الصندوق « ج » مُعلَّماً بلون رمادى أدكن من « ب » . فهل يَبقى الحيوانُ على ربطه الثابت المفروض ، أو على استجابته الثابتة لـ «ب» ؟ الواقع أنه الآن يذهب إلى ج . فإنه ما يزال يذهب إلى أدكن الصندوقين ، وما تعلمه إذن ليس استجابة لرمادى جزئى بعينه ؛ بل هو قد تعود أن يستجيب لصورة الأدكن والأخف بأن يقصد الجانب الأدكن . فأما هل نستطيع أن نُعمِّم من السلوك بإزاء درجات الرمادى ، وننتهى إلى أن الحيوان يستجيب دائماً لنماذج وصِيَغ أكثر منه إلى تنبيهات منفصلة ؛ فتلك مسألة لم تُدرَس دراسة كافية . ولكن على أساس هذه التجربة قد قام الجدل حول وجوب التخلى عن نظرية التعلم القديمة بأسرها ؛ خصوصاً وأن قوانين ثورندايك فى التعلم قد انتهت إلى أن تُطرَح الآن . وقد صاغ أحد أتباع مدرسة الجشطلت الأمريكيين* المسألةَ على هذا النحو :

إن « قوانين » ثورندايك . . . تنشأ عن طائفة من الافتراضات ؛ من بينها أولا : افتراض أن مُنبهاً واحداً معيناً سوف يُنتج دائماً وفى غير امتناع نفسَ الاستجابة .

---

* م . ه . لويس : M, H. Lewis : مجلة علم النفس التجريبى ، ١٩٣٠ مجلد ١٣ ، ص ص ٦١ — ٧٥ .

وثانياً : افتراض أن « قوانين » التعلم تعالج وحدات افتراضية من السلوك يشار إليها بالصيغة : م — س (منبه — استجابة) . والسلوك — مجزءاً على هذا النحو — يؤدى بنا من الناحية المنطقية إلى أن نبحث عن العناصر فى موقف معين ، وأن ننظر إلى هذه العناصر — إذا كان لها وجود أو افتراض — وكأنها الجزئيات الأولى التى يجب أن نضيفها معاً حتى تنتج وتفسر التعلم .

ولو أنك تقرأ لثورندايك ، فقد لا تجد هذه « الافتراضات » مألوفة . فهى لا تتحدث كما يتحدث خصوصاً ثورندايك الذى قرأتَ ، ولا بد أنها صدرت عن شخص آخر بنفس الاسم : أعنى عن رجل لا قيمة له . أما ثورندايك الحقيقى فهو يتحدث دائماً عن « المنبه والاستجابة » ؛ بينما ثورندايك التافه — كما قيل بالضبط — فهو الذى يجزئ السلوك بالبحث دائماً عن العناصر فى المجال . أما ثورندايك الحقيقى فيقول ✡ :

إن السلوك يمكن التنبؤ به . . . فنفس المجال سوف يُنتج — فى نفس الحيوان — نفس الاستجابة . . ولو أن نفس المجال يُنتج فى مرتين استجابتين مختلفتين ؛ فلا بد أن يكون الحيوان قد تغير .

وأقرب ما أستطيع أن أجده فى كتابات ثورندايك إلى فكرة التجزىء التى ينسبها إليه علماء النفس الجشطلتيون ؛ هى الآتية+ :

كل تعلم فهو تحليلى . فأولا : الرابطة التى تتكون لا تأتى بحال من مطلق الموقف كله أو " من " حالة الأفعال الراهنة ، وثانياً : فى داخل أية رابطة تتكون يوجد دائماً روابط أقل — من أجزاء المجال إلى أجزاء الاستجابة — لكل منها درجة معينة من الاستقلال ؛ حتى أنه إذا ظهر جزء من المجال فى مُركّب جديد ، فهذا الجزء من الاستجابة له ميل معين إلى أن يبدو بغير مصاحباته القديمة . . . فى الحيوانات الدنيا ، وفى الأطفال الصغار جداً ، تفعل المجالات أيضاً ككليات كبيرة ؛ ورابطة العلاقات التى نسميها « الرابطة » بين المجال واستجابته تفعل أيضاً كوحدة . . . وفى كل الناس — ما عدا الأغبياء — ينشأ المران الذى تكسبه الحياة الحديثة عن تكوين عدد كبير من الروابط من عناصر منفصلة لمواقف .

✡ ثورندايك : نفس المرجع ص ٢٤١ .

+ إ . ل . ثورندايك : علم النفس التربيى ، مجلد ٢ « سيكولوچيا التعلم » كلية المعلمين بجامعة كولومبيا ١٩١٣ ص ص — ٣٢ — ٣٥ .

فمثل هذا الرأى بعيد عن التجزىء . وقد أريد به أن يكون أساساً لفهم كيف يصل الإنسان بالتمرين إلى أن يستجيب إلى مثل هذه النواحى المنعزلة من الموقف : كالعدد ، والحجم ، ودرجة الأصوات . كما يبدو أيضاً أنه يضع أساساً لمواجهة النقد المختلف ؛ بل المضاد ؛ الذى يقوم به كفكه ، والذى اقتبسنا منذ صفحات : « وحتى تجاريب ثورندايك يبدو أنها تبين أن الحيوان لا يكتسب خبرة المواقف الغامضة الكلية فحسب ؛ بل إنه فى مجرى التعلم يصبح هذا المجال الكلى منظماً ». فعند ثورندايك أن الحيوان يمكن أن يتقدم قليلا عن الارتباط الكلى الأولى بالمجال كله ، وأن الإنسان يمكن أن يتقدم أكثر فى الاتجاه التحليلى . يقال إن الارتباط هو دائماً مركب — كما يحتمل أن يكون — ولكن لا يقال شىء عن كونه مركباً من عناصر جزئية .

إن المدارس الجديدة يلزمها رجال قليلو الشأن تهاجمهم . فالمدرسة الجديدة تثير مشكلة جديدة لم يحاول أحد من قبل أن يعالجها بنوع خاص . وتأخذ المدرسة الجديدة جانبها من المشكلة الجديدة ، وتحتاج إلى من يأخذ الجانب الآخر من المناقشة التى تثيرها . فهى تختار أكثر المصادر صحة ، وتتقدم فتضع على لسانه إجابة المسألة الجديدة . هو لم يكن قد قال بهذا الحل مباشرة ، لأن المسألة لم تكن قط قد "عرضت" أمامه ؛ إلا أن المدرسة الجديدة تقول إنه كان ينبغى بكل منطق أن يكون قد عرض هذا الحل ، ما دام متضمَّناً كافتراض خفى فيما قال به . وهكذا تستطيع المدرسة الجديدة أن تبدأ الجدل بالهجوم ، بدلا من أن تعرض بذوق مشكلتها الجديدة وموقفها الخاص منها . إنها كلها مجرد قطعة من علم النفس ، ولا يحتمل أن يعترض عالم نفس له مكانته على أن يكون رجلا قليل الشأن فى مناقشة من الدرجة الأولى .

نظرية التعلم أقل يقيناً من ذى قبل :

والموقف الراهن فيما يتعلق بعملية التعلم شائق من غير شك : فإن لدينا ما هو بحق جدل مستمر ذو ثلاثة وجوه ؛ لدينا طائفة من الحقائق ، كل منها يجب أن يُبرهَن له بنظرية كافية ؛ ولدينا اختيار بين نظريات ، لا واحدة منها قد حاولت أن تُعنى بكل الحقائق . لدينا حقيقة التعلم بالمحاولة والخطأ — يقوم على تفسيرها قانون الأثر ، ولدينا حقيقة المنعكس الشرطى — تفسرها نظرية الشرط ، ولدينا حقيقة

التعلم بالاستبصار– مع نظرية الميل إلى سد الفراغ كتفسير لها .

والمؤيدون لكل تفسير قد استطاعوا أن يكتشفوا حالة مُرضِية توضح كل الحقائق على طريقتهم الخاصة. فاستطاع المؤيدون لقانون الأثر أن يشيروا إلى المناهج المستخدَمة فى إحداث المنعكس الشرطي وإزالته كدليل حسَن على أن نتيجة الاستجابة هى التى تحدد ما إذا كانت تثبَّت أو تُمحَى . ومن حيث التعلم بالاستبصار ؛ قد استطاعوا أن يُبَيِّنوا أن الفراغ يمكن أن يُسد بطرق مختلفة ، وأن المجال يمكن أن يُنظم بطرق كثيرة – وإن كانت طريقة واحدة هى التى تنجح فى حل المشكلة ؛ بمعنى أنه يمكن أن يكون ثمة استبصارات خاطئة ووسائل مُبشِّرة تُخفِق وتسقط تبعاً لهذا لحساب الاستبصار الذى يأتى حينئذ . وبالمثل ربما شك – وبالفعل يشك – علماء النفس الجشطلتيون فيما إذا كان لا يوجد على الأقل استبصار فى أدنى درجاته حتى فى أكثر المحاولات والخطأ عَماءً . وفيما يتعلق بالمنعكس الشرطى قد يَشُكُّون فيما إذا كان الكلب لم يأخذ المترونوم – السابق للإحساس – على أنه إشارة (كما كان يسميها پاڤلوف غالباً) وبهذا يكون له « انجذابات » عَبر الفراغ بين المترونوم والإحساس . وأخيراً استطاع مؤيدو الشرط أن يقولوا إنه مهما يكن الموقف المعقد الذى يَحدُث فيه التعلم ؛ فإن التعلم الأساسى يقوم بالدقه فى عملية الشرط . فلا فكرة الشرط ، ولا فكرة المحاولة والخطأ ؛ تقوم حقيقةً على التجزئ الذى يمقته علماء النفس الجشطلتيون إلى هذا الحد . ولعلّنا نجد – عندما تصبح حقائقنا أكثر وأدق ، والصلاتُ بينها أوثق – أنّ ما تقول به المدارس المختلفة كلها له مكانه فى نظرية للتعلم شاملة .

وكما تجرى الأمور اليوم ، يمكن أن نجد بالتحقيق فى علم النفس الجشطلتى زيادة قوية قيمة فى مسائل علم النفس . فبينما الوجوديون مشتغلون بالتحليل الحسى ، والسلوكيون بالأفعال الحركية ؛ تجعل طائفة الجشطلت الأهمية لموضوع – كان يُسمَّى عادةً الإدراك – أغفله السلوكيون ، وتناوله بخفةٍ الوجوديون . من المحتمل أن يوجد كثير من الحق فى إصرارهم على أنه إلى جانب الأحساس والاستجابات الحركية والروابط بينهما – إلى جانب هذه وفيها كلها " أيضاً " – توجد عملية التنظيم الديناميكى . أنا لم أُقدِّم لك إلا مقدمة تخطيطية لمذهبهم السيكولوچى ، ولكنى أظن أنك توافق على أنهم قد أدخلوا وجهةَ نظر جديدة هى جديرة حقاً باهتمامك المستمر .

تعليقات

على الفصل الرابع

(١) الجشطلت Gestalt : لهذه الكلمة الألمانية — بمعنى الصورة أو الشكل — مرادفان انجليزيان : اقترح أحدهما « configuration » تنتشر فى أمريكا (راجع هلسون H. Helson : مجلة علم النفس الأمريكية Amer. J. of Psychol. جزءى ٣٦ ، ٣٧ — سنتى ١٩٢٥ ، ١٩٢٦) والآخر فى انجلترا « shape » ، (أورده اسپيرمن فى مجلة علم النفس البريطانية Brit. J. of Psychol. : مجلد ١٥ ، سنة ١٩٢٥ ، ص ص ٢١١ — ٢٢٥) . ويمكن الاعتراض على هذه الأخيرة بأنها تدل على مجرد الخطوط الخارجية outline ، وأنه يَنقُصها ما فى كلمة form من معنى . ويُوجَّه مثلُ هذا الاعتراض لكلمة configuration — ولكن بدرجة أقل — وكلاهما على أى حال لا تؤدى معنى الكلمة الأصلية ؛ وخير منهما اصطلاح structural psychol. الذى استعمله كفكه عند ما كتب بالإنجليزية لأول مرة سنة ١٩٢٢ . فإن كلمة Strukturpsychologie ترادف فى الألمانية تماماً كلمة Gestaltpsychol. لولا أن تتشر قد وضع هذا التعبير «علم النفس البنائى» مقابلا لما سُمِّى علم النفس الوظيفى functional psychol. — الشىء الذى يثور عليه بشدة علمُ النفس الجشطلتى . وقد اقتُرِح أخيراً استعمال كلمة « عضوى organic » ؛ ويبدو لأول وهلة بُعدُها عن المقصود.

ونحن فى ترجمتنا لهذه الكلمة نستعملها صفة واسما (جمعاً ومفرداً) على نحو ما كان كيلر يستعمل هذه الكلمة فى كتاباته الألمانية والإنجليزية.

ومذهب الجشطلت — كالسلوكية — ثورة هى ردُّ فعل للسيكولوچيات القديمة ؛ هما فيها على النقيض من ناحية ، والوفاق من ناحية أخرى : فالجشطلت يأخذ بالوصف الظاهرى للخبرة الشعورية أو الاستبطان فى أوسع صور ؛ بينما تنكره السلوكية إنكاراً باتاً . الأول يدنو قليلا أو كثيراً من الفلسفة أو المذهب système — كأثر للتقاليد الألمانية التى تربط بين الفلسفة وعلم النفس ؛ بينما السلوكية الأمريكية — والروسية من قبل — تنأى بنفسها عن المذهبية . وبينما تركز السلوكية اهتمامَها بعلم النفس الحيوانى ؛ لا يتخلَّى علمُ النفس

الجشطلتى عن هذا النوع من الدراسة ولكنه يُعنى فى المقام الأول بالمسائل الإنسانية ، وخصوصاً مسألة الإدراك .

ومن الناحية الأخرى فإن السلوكية ومذهب الجشطلت لهما هذا الطابع المشترَك : وهو قيام كل منهما بالبحث التجريبى القيِّم الفعال ؛ وإن كان الباحثون التجريبيون فى علم النفس اليوم لا يحبّون أن ينتموا إلى هذه المدرسة أو تلك . إلا أن الإنصاف يقتضى أن نقول إن قليلا من البحوث التجريبية هو الذى يمكن أن يقال عنه إنه لم يتأثر بخطوات كلتا المدرستين أو إحداهما

ونستطيع بعد هذه المقارنة أن نستخلِص خصائصَ هذه المدرسة : الجشطلت وهى : أنها أولاً تجريبية ؛ وأنها تُجرى تجاربَها فى الأغلب على الإنسان ؛ أو الحيوانات الشبيهة بالإنسان . وأنها سوّت العقلَ بالشعور ، وجعلت من السلوك استدلالاً عن الشعور ؛ وأنها لم تَسلم من المذهبيّة والفلسفة ، حتى فى طريقة إنكارها للفلسفة . ويجب فوق هذا أن نُقرر أنها لم تتحرَّر من سلطان السيكولوچيات القديمة التى ثارت هى عليها ؛ فما زالت تؤكد الاستبطان — وإن تكنْ قد توسعت به عن نَظرتِه التحليلية وما يزال بها أثرٌ من العنصرية والارتباط فى قولها بالكل والأجزاء ، وما تزال تحاولَ وصف العقل mind الذى أحلته محلّ الشعور — بِرَبط الأَحساس والصور والمشاعر وغيرها من الحالات الأولية . كما أنها ما تزال لاصقة بثُنائية الجسم والعقل ؛ محاولةَ أن تخلق جسما عنصرياً توازى به العنصرية التى بَدَا أن العقل يتركب منها . وقد كانت هذه النظرة القديمة إلى العقل مَثار ثائرة الجشطلتية والسلوكية معاً ، وسبيلهما إلى الوجود والتحقق .

وسنتبيَّن من خلال عَرضنا لأهم شخصيات مذهب الجشطلت ؛ كيف أنهم — وإن بدءوا مع السلوكيين من هذه النقطة سنتى ١٩١٢ ، ١٩١٣ — قد تفرقت بهم السُّبل ، وتشعّبت بهم المذاهبُ .

(٢) فون إيرنفِلس (كرستيان) : Christian von Ehrenfels : (المولود سنة ١٨٥٩) كان مع برِنتانو فى ڤينا ، ومع مينونج . Meinong فى جراتس ، وعاد إلى ڤينا معيداً سنة ١٨٩٠ فأنشأ بحثاً جديداً يقول فيه بفكرة خاصة الصورة Gestaltqualitat . فقد كان عليه أن يُجيب عَما إذا كانَ للصورة فى الزمان والمكان صفةٌ خاصة ؛ أم أنها هى ارتباطٌ صفات وخواص . وقد قرَّر هو الإجابةَ الأولى ؛ قائلا إن المرُبع يمكن أن يتكون من أربعة خطوط هى الإحساسات التى توجد وراء هذا الإدراك ، وهى له بمثابة الأساس Grundlage . وفكرة التربيع لا تشمل واحداً من هذه الآساس Fundamente ؛ اللهم إلا

إذا أُخذت كلُّها فى مجموعها . وتلك هى خاصة الصورة form-quality .

واستمر إيرنفلس بمذهبه ، فميَّز فيه بين نوعين من خواص الصورة : الزمنية وغير الزمنية . فالأولى منها تشمل اللحن الموسيقى ، والضوئى ، وكل ما يتغير من الأحساس بالزمن . أما الأخرى فهى فى مُعظمها مكانية ؛ ولكنها تشمل أيضاً الأنغام المختلطة ، والألوان المتضاربة ، والطعوم ، والشموم ، وإدراك المكان .

وفى كل هذه الحالات يمكن أن يُبرهَن على خاصة الصورة بالقابلية للتغير : فإذا كانت خصائص العناصر يمكن أن تتغير بدون تغيير الصورة ؛ فإنه يجب إذن أن يكون ثمة « خاصة صورة » مستقلة .

كما أن إيرنفلس بيَّن أن وجوه العلاقة بين الآساس (ولا نقول العناصر ؛ لأنه يعنى بها Fundamente لا Elemente) وبين « خاصة الصورة » يمكن أن تحدث فى مستويات كثيرة ، وأن هناك أنواعاً من « خاصة الصورة » فى مستويات أرفع ؛ تتخذ آساساً لها ذاتَ خاصة صورة أدنى — مما يُفصَّل فيه القولَ ، ولا يَعنينا .

ونظريته بهذا هى تحليل منطقى لإدراكات معينة ؛ تقوم على جدل — هو فى أساسه تجريبى نظرى empirical — لا يعتمد على التجربة العملية ؛ مما هو منهج مألوف فى سيكولوچيا الفعل ، وإن لم تكن ثمة علاقة ضرورية مباشرة بين « خواص الصورة » والأفعال النفسية . والحق أن إيرنفلس — كما يقول بورنج (تاريخ علم النفس التجريبى ص ٤٣٥ — ٤٣٦) — قد ربطها فى الوسط النمسوى بالفعل قائلا : إنه النشاط العقلى بالمقارنة أو الربط الذى يستخرج « خاصة الصورة » من الآساس Grundlage . ولا ينبغى مع هذا أن يُفهَم أن إيرنفلس يقول بأن « خاصة الصورة » تنشأ من الروابط بين الآساس ، أو أنه ينتهى إلى أن « خاصة الصورة » هى العلاقة قائمة مستقلة بين الآساس .

وكما أن إيرنفلس فى بحثه عن خاصة للصورة لا توجد للآساس — قد استلهم إرنست ماخ (فى كتابه القيم تحليل الإدراكات الحسية Analyse der Empfindungen الذى أصدره فى پراغ سنة ١٨٨٦) ؛ فإنه قد أسلَم هذه الدراسةَ من بَعده إلى زميله مَينونج Meinong الذى بَقِى بعده فى جراتس . وأهم ما جاء به هـذا هو قولهُ بالمواد المـكوِّنة fundierende Inhalte (وبالانجليزية founding contents) ، والمواد المُتَكوِّنة fundierte Inhalte (وترجمتها founded contents) . الأولى عنده هى الآساس Fundamente عند إيرنفلس ، والثانية هى خاصة الصورة . والعلاقة بينهما نسبية وتصاعدية ،

كما أنه ينعت الأولى بالمواد الدنيا inferiora ، وينعت المادة المتكونة من هذه المواد الدنيا بالمادة العليا Superius . ويقول مينونج بمركبات لهذه المواد—هي الإدراكات— تقوم أولاً على عملية التكوين ذاتها التي تقوم على علاقات وروابط داخلة في الشيء المدرك ذاته ؛ مما لم يقل به إيرنفلس .

وهذه الخطوة الطيبة في نظرية « خاصة الصورة » قد أدخل عليها كورنليوس في ميونخ —وكلهم فلاسفة أكثر منهم علماء نفس — تعديلين رئيسيين : أولهما قوله بأن خاصة الصورة ليست مادة متكونة ؛ بل صفة متكونة founded attribute. كما أنه نفى — في المقام الثاني — تكون هذه الصفات بفعل تكوين act of founding ، وأنها تنحل أو تزول بانتباه فاحص محلل . بل هي خبرات تلاحظ أو تعطى لصفات مميزة لكليات لا توجد في آساسها . وهو تغيير لفظي لمينونج ، ولكنه تغيير موفق .

وقد عمل على هذه النظرية آخرون من تلاميذ مينونج وغيرهم مثل : شومان ، وبنوسي .

وفي سنة ١٨٩٦ صار إيرنفلس أستاذاً مساعداً في براغ ، فأستاذاً سنة ١٩٠٠ . وكان رجلا ذا ميول أدبية وفنية ، تعدى أثر دراسته ميدان الفلسفة وعلم النفس إلى الدراما والأخلاق ونظرية القيم . إلا أن ما يعرف به في تاريخ علم النفس هو أنه صاحب نظرية « خاصة الصورة » في مقاله : في خواص الصور Ueber Gestaltqualitäten (بمجلة المعرفة والفلسفة Vtljsch. f. Piss. philos. ، السنة ١٤ (١٨٩٠) ص ص ٢٤٩ — ٢٩٢) .

(٣) شرنجتون (تشارلز) Ch. S. Sherrington : ولد سنة ١٨٥٧ ، وهو فيزيولوچي بريطاني مشهور بعمله سنة ٩٠ في رؤية اللون وخصوصاً في الضوء غير المستقيم flicker ، كما أنه قد أسهم بفصول الإحساس اللمسي والعضلي tactual and muscular sensi في كتاب شيفر Schacfer : متن في الفيزيولوچيا Text-book of Physiology (١٩٠٠) وأخيراً نشر كتابه الهام : الفعل التكاملي للجهاز العصبي Integrative Action of the Nervous System سنة ١٩٠٦ ، فلم يقتصر أثره على تجسيم هذه البحوث وإبرازها بل كان له أثر فعال في توجيه علم النفس في بريطانيا وأمريكا نحو الفيزيولوچيا . وقد أعطى في هذا الكتاب وصفاً لآليات الفعل العصبي من حيث علاقته بالكائن العضوي ككل ، وصوره تصويراً يقوم في أساسه على الفيزيولوچيا ؛ مما كان الخط الفاصل — كما يقول فرانتس—بين علم النفس الفيزيولوچي وعلم النفس الحيواني .

(٤) كوجيل (جورج إلت) G.E. Coghill
ولد فى بوكو فى مارس ١٨٧٢ ، ولحق بكلية شرتلف Shurtleff Coll. (١٨٩١ – ١٨٩٤) ثم بجامعة براون (١٨٩٤ – ١٨٩٦) فحصل منها على الدكتوراه فى الفلسفة (١٩٠٢) – بعد أن قضى فى جامعة مكسيكو الجديدة سنتى (١٨٩٨ – ١٩٠٠) وعين فيها أستاذاً مساعداً للبيولوچيا (١٨٩٩ – ١٩٠٠) . وبعدئذ صار أستاذاً للبيولوچيا فى جامعة الپاسفيك (١٩٠٢ – ١٩٠٦) فأستاذاً لها بجامعـــة ويلاميت Willamette (١٩٠٦ – ١٩٠٧) فى كلية الآداب ولعلم الأنسجة (الهستولوچيا) وعلم الأجِنّة (الأمبريولوچيا) بكلية الطب ؛ ثم أستاذاً لعلم الحيوان (الزوولوچيا) فى جامعة دنيسون (١٩٠٧–١٩١٣) . ومنذ ذلك الحين انتقل إلى جامعة كانساس وقضى بها حتى ١٩٢٥ أستاذاً مساعداً ، فأستاذاً للتشريح ورئيساً للقسم ، وسكرتيراً لمدرسة الطب . وفى سنة ١٩٢٥ انتقل أستاذاً للتشريح المقارن بمعهد وِستَر للتشريح والبيولوچيا Wistar Inst.of Anat & Biol. فى جامعة پنسلڤانيا بفيلادلفيا ؛ كما صار منذ ١٩٢٦ عضوا بكثير من الجمعيات العلمية ، ومحاضراً فى يونيڤرستى كوليچ بلندن (١٩٢٨) ومحرراً لكثير من الصحف العلمية الأمريكية والإنجليزية ومنحته جامعة پتسبرج الدكتوراه فى العلوم Sc. D. سنة ١٩٣١ .

ومن أهم دراساته : نمو حركة السباحة فى الكائنات المائية ، ودراساته التشريحية والفيزيولوچية لنموّ الجهاز العصبى فى الأمفيبيا – تسعة بحوث ضخمة نشرها فى مجلة العلم العصبى المقارن J. Comp. Neur. فيما بين سنتى ١٩١٤ ، ١٩٣٠ من نواح مختلفة ذكر عنواناتِها مرتشيزون فى سِجلّه الثالث ص٩٢ ، ونمو الوظائف العصبية وأثره فى نمو السلوك – والسلوك هو يتناوله من نواحى الفردية والتكامل ، الغريزة والمنعكس الشرطى ، الحركة والنمو والتركيب . وأهم هذه كتابُه الصغير : التشريح ومشكلة السلوك Anatomy and the Problem of Behavior (لندن ، مطبعة جامعة كمبردج ١٩٢٩) ؛ والأسس التركيبية لتكامل السلوك The Structural Basis of the Integration of Behavior (فى مجلة العلم الطبيعى الأكاديمى Proc. Nat. Acad. Sci. – ١٩٣٠ ١٦ ص ص ٦٣٧ – ٦٤٣) .

(٥) ڤِرتيمر (مَكس) M.Wertheimer
ولد فى پراغ فى ١٥ أبريل ١٨٨٠ ، وفيها بدأ أولَ نشاطه السيكولوچى مع مارتيوس Martius ، ومنها ذهب إلى اشتَمف فى برلين ، فكيليه فى ڤرتسبورج حيث حصل على درجة الدكتوراه بالإجماع مع شكر اللجنة summa cum laude سنة ١٩٠٤ ،

ثم عاد إلى برلين . وفى صيف ١٩١٠ عاد إلى فرنكفورت حيث اشتغل فى أكاديمية العلوم الاجتماعية معيداً (١٩١٢ – ١٩١٤) ، ففى جامعة فرنكفورت معيداً (حتى سنة ١٩١٦). وفى ذلك الحين كان قد وصل اليها شومان – مساعد ميلر واشتمف من بعده – كما كان هناك كيلر وكفكه تلميذا اشتمف ، فكانا الملاحظين الرئيسيين لبحوث ڤرتيمر فى رؤية الحركة ؛ تلك الدراسة الشاقة التى بدأت بها حركة الجشطلت . ومن هنا قيل إنها نشأت حول سنة ١٩١٢ ؛ أنشأها ڤرتيمر بمعاونة ملاحظيه كيلر وكفكه . وبمقالته : دراسات تجريبية فى رؤية الحركات Experimentelle Studien über das Sehen von Bewegungen (مجلة علم النفس الألمانية : مجلد ٦١ سنة ١٩١٢ ص ص ١٦١–٢٦٥) التى أعيد نشرها فى كتابه : ثلاث مقالات Drei Abhandlungen (١٩٢٥) وسنذكره بعد .

وبعدئذ عاد ڤرتيمر إلى برلين ، ثم دعى مرة أخرى إلى فرنكفورت ليشغل كرسى شومان المستقيل . إلا أن حركة الجشطلت الجديدة قد اتخذت برلين مركزاً لها بوجه عام ، وكانت إلى حد كبير أثراً من آثار اشتمف وتلاميذه – وإن كان هو لا يعد واحداً من رجال هذه المدرسة . والذى هيأ لهذه المدرسة سبيلها إلى الظهور بحث ڤرتيمر الذى أسلفنا ، والذى كان احتجاجاً ثورياً صارخاً – له من السلبية والانتقاد بقدر ما يكون له من القدرة على تخليص علم النفس من قيوده فى البحث – فضلا عما كان له من نجاح فى معالجة مشكلة رؤية الحركة ؛ التى ما زال علم النفس حتى ذلك الحين يتعثر فيها .

وفى هذا البحث استطاع ڤرتيمر أن يعبر عن الحركة الفيزيقية فى لغة عقلية ، قائلا : إن الحركة هى تغير المكان فى الزمان ، مستعيناً بالخلط أو الانتباه لاستخلاص طابع للحركة ، ومشبهاً لها «بخاصة الصورة» ؛ بمعنى أن الإحساسات تتغاير من حيث الخاصة لا من حيث المكان . والجديد فى فكر ڤرتيمر هنا ؛ هو إنكاره لصحة هذا التحليل الحسى لرؤية الحركة . فهو يرى أن الحركة تدرك كما هى ؛ لأنها ظاهرة قابلة لأن تعرف ، ولأنها فى ذاتها خبرة . وحين يتساءل : لم لا ننظر إلى الحركة ككل ؟ يستعين بحقائق الحركة الإستروبوسكوبية stroboscopic movement التى ألِفها فى الصور المتحركة (الخيالة) والتى أوضح ودورث فى هذا الفصل أمر نشأتها . والمهم أن ڤرتيمر قد انتهى منها إلى أن فكرة الإحساس كوحدة أو ذرة هى التى أدت إلى كل تعقيد فى تناول مشكلة الحركة .

الحركة إذن ظاهرة أو خبرة ،

وليست هذا الإحساسَ أو هذه الأحساسَ المتتابعة (وهو لكى يتفادى أو يَستبعِد هذا الفهمَ القديم للحركة يُسميها phi-phenomenon) وليس ثمة علاقة مساواة بين المنبه والظاهرة (ما دامت الحركة لا تنشأ عن المنبه — الذى هو هنا جهاز إلقاء الصور الثابتة — بل فى الإدراك الكلى الذى يحدث وحدَهُ الحركة) . والتحليل الظنّىّ لا يفيد فى إدراك الحركة ، وإنما ينبغى النظر إليها ككل ؛ كجشطلت ؛ لا كمجموعة أحساس . وهنا ترى فى مقالة ڤرتيمر هذه — مقالة ١٩١٢ — ما يمكن أن يُعدَّ أساساً لمذهب الجشطلت كله ؛ وإن كان البحث قد اتخذ موضوعاً له رؤيةَ الحركة كما ترى أن دراسة ڤرتيمر — وإن كانت فى معظمها هَدماً للتقاليد القائمة فى إدراك الحركة فى ذلك الحين فإنها قد تمخضت عن نتائج إيجابية قيّمة ؛ كانت أساساً لما لا نزال تأخذ به حتى اليوم على أنه التفسير الصحيح لإدراك الحركة .

وأهم ما نشره ڤرتيمر بعد هذا البحث : بحوث فى نظرية الجشطلت Untersuchungen zur Lehre von der Gestalt سنة ١٩٢١ (فى : بحوث سيكولوجية. Psychol. Forsch عدد ١ ص‌ص ٤٧ — ٥٨) وفيها ناقش المبادئ العامة لمذهبه الجديد ؛ ونُشر مِثلُها فى السنة التالية مقالُ كفكه

وفى سنة ١٩٢٥ نَشَر محاضرة له فى أربع وعشرين صفحة بعنوان : فى نظرية الجشطلت Ueber Gestalttheorie ، كما جمع فى نفس السنة ثلاثَ مقالاتٍ له نشرها باسم ثلاث مقالات فى مذهب الجشطلت Drei Abhandlungen zur Gestalt Theorie وكلها تكملة وإيضاح للخطوط الأولى التى تضمنها مقال ١٩١٢

راجع ثَبت بحوث ڤرتَيمر حتى سنة ١٩٢٧ فى سجل مرتشيزون ج ٣ ص ٨٨٨ .

(٦) كفكه Kurt Koffka : ولد فى برلين فى ١٨ مارس ١٨٨٦ ، وذهب إلى جامعة برلين (١٩٠٣ — ١٩٠٤) فجامعة إيدِنبرَه (١٩٠٤ — ١٩٠٥) ثم عاد إلى جامعة برلين حيث حصل على الدكتوراه فى الفلسفة سنة ١٩٠٨. وفى هذه الأثناء التقى بڤرتيمر فى فرنكفورت وعمِلَ معه فى ملاحظة تجارب رؤية الحركة — على نحو ما ذكرنا من قبل . ثم انتقل هو ليعمل معيداً فى جيسن (١٩١١ — ١٩١٨) فكان من نتائج دراساته التجريبية هناك رسائله التى نشرها بين ١٩١٣ ، ١٩١٩ بعنوان : أقوال فى سيكولوجيا الجشطلت Beitrage zur Psychol. der Gestalt التى عرض فيها المراحل الأولى لهذه الحركة فى علم النفس ؛ متناوِلاً بحوثَ السابقين على هذه الحركة فى دراسة رؤية الحركة .

فذكر بحث كنكل F. Kenkel ، وقوانين رؤية الحركة التى قال بها كورتى A. Korte ، ثم نشر نقدَه هو لرأى بنوسى Benussi — تلميذ مَينونج الذى أشرنا إليه مع إيرنفلس — ثم انتهى إلى نظريته فى رؤية الحركة . وقد نُشرت هذه البحوث لأول مرة فى مجلة علم النفس الألمانية Zsch. f. Psychol. (أعداد ٧٢ ، ٧٣ ، ٨٢) . وذلك هو ما أسهم به كفكه وتلاميذه حينما كانت حركة علم النفس الجشطلتى فى أول مراحل تكوينها .

وفى سنة ١٩٢١ — بعد أن صار أستاذاً لعلم النفس فى جيسن (١٩١٨ — ١٩٢٧) نشر كتابه : أساس التطور النفسي Grundlegung der psychischen Entwicklung عرض فيه لمسألة نمو العقل منذ الطفولة — من وجهة النظر الجشطلتية — واستطرد فيه إلى كثير من المبادئ الرئيسية لعلم النفس الجشطلتى .

واتجهت أنظار المدرسة إلى نشر مذهبها فى الخارج — وخصوصاً فى أمريكا — فبدأ الجشطلتيون يكتبون بالإنجليزية . وفى سنة ١٩٢٢ كتب كفكة مقالا عن : الإدراك ؛ مدخل إلى نظرية الجشطلت Perception: an Introduction to Gest. Theo. حاول فيه تقديم مبادىء الحركة الجديدة إلى علماء النفس الأمريكيين ؛ مما كان له الأثر الأول فى توجيه الأنظار فى أمريكا إلى هذا المذهب وإلى أهم الكتابات فيه (راجع الصحيفة النفسية Psychol. Bull. مجلد ١٩ سنة ١٩٢٢ ص ص ٥٣١ — ٥٨٥) .

وفى مطلع سنة ١٩٢٤ زار كفكه وكيلر أمريكا — نزولا على دعوتها — وقاما بمجهود كبير فى نشر مبادئ حركتهم الجديدة ؛ خصوصاً وقد دُعِىَ كفكه ليكون أستاذاً زائراً للتربية فى جامعة كورنل (١٩٢٤ — ١٩٢٥) ، وأستاذاً زائراً لعلم النفس فى جامعة شيكاغو (١٩٢٥) فى جامعة ونسين Wisconsin (١٩٢٦ — ١٩٢٧) . كما اختير عضواً دائماً فى لجنة علم النفس الأمريكية Amer. Psychol. Commu. سنة ١٩٢٧ ؛ حيث صار أستاذاً فى كلية سميث لكرسى وليم ألن نلسن . واستمر يكتب وينشر بالألمانية والإنجليزية والفرنسية فى سيكولوجيا الصيغة ، ودراسة نمو العقل ، والطفل ، وفى منهج الاستبطان — استبطان الظاهرات لا استبطان التحليل الذى لا يصلح منهجاً لعلم النفس — مما تجد له تصنيفاً كاملا حتى سنة ١٩٣٢ فى سجل مرتشيزون ج ٣ ص ص ٢٨٥ — ٢٨٧ .

وأهم هذه الكتابات من الناحية التجريبية ، كتابه : فى تحليل المواقف وقوانينها Analyse der Vorstellungen und ihrer Gesetze (ليپتسك ١٩١٢)

وخصوصاً كتابه الهام فى الإنجليزية : مبادئ علم النفس الجشطلتى Principles of Gestalt Psychology (١٩٣٥) ؛ عدا مقالاته الكثيرة فى مختلف المجلات العلمية الألمانية والأمريكية .

(٧) كيلر (ڤولفجانج) W. Köhler : ولد بعد كفكه بأقل من سنة (يناير ١٨٨٧) وذهب إلى جامعة تبنجن (١٩٠٥ — ١٩٠٦) فجامعة بون فى السنة التالية ، ثم جامعة برلين (١٩٠٧) حيث حصل على الدكتوراه فى الفلسفة (١٩٠٩) . ثم عين فى أكاديمية فرنكفورت مساعداً ، فمعيداً (١٩١٠ — ١٩١٣) . وفى هذه السنة ذهب إلى تنريف ليعمل فى سيكولوچيا القردة ، وليكون مديراً لمحطة تنريف لدراسة القردة الشبيهة بالإنسان Tenerife Anthropoïdenstation حتى ١٩٢٠ .

وفى هذه الأثناء نشر خلاصة دراسته فى كتاب له عن اختبار ذكاء القردة Intelligenzprüfung der Menschenaffen سنة ١٩١٧ (ظهرت طبعته الثانية ١٩٢١ ، وترجمته الانجليزية سنة ١٩٢٥) وفيها يُصوّر لنا عملَه مع القِردة ، والنتائج التى انتهى إليها : مُطرحاً كل التعبيرات التى تواضع الباحثون على وصف ذكائها بها ، مُدخِلا لفظةَ الاستبصار Einsicht لأول مرة ؛ فاتخذها بعده للتعبير عن هذا الموقف من السلوك الإدراكى كثير من علماء الجشطلت وغيرهم ، كما عرض الكتاب لكثير من مبادىء الجشطلتيين ونظريتهم .

وبعد الحرب العظمى نشر كيلر كتابَه : الصور الفيزيقية فى الراحة وفى حالة السكون Die physischen Gestalten in Ruhe und im stationaren Zustand (١٩٢٠) الذى حاول فيه تطبيق النظرية الجديدة على البيولوچيا والفيزيقيا وأن يقدم وجوه الشبه بين الفيزيقا وعلم النفس ، وأن يعرض آراءه فى علم النفس الفيزيولوچى . ويُمثل هذا الكتاب مذهبَ الجشطلت فى تمام نُضجه كحركة شاملة ، كما أنه يحاول أن يُثبِت تعلُّق مذهبهم بمشاكل البيولوچيا والفيزيقا ؛ ويتوسع بهذا المذهب ليجعل منه نظرية العصر فى علم النفس ، وليجعلَه أساساً للعلوم — وإن لم يكن من المحقق تفسيرُها به جميعاً . وليس شكٌ فى أن كتاب كيلر هذا قد أفاد علمَ النفس ؛ لأنه كان عرضاً لوجهات النظر القديمة التى على أنقاضها قام المذهبُ الجديد فى الفيزيقا والكيمياء ، كما أن كيلر قد استطاع بعدئذ أن يحصُل على كرسى علم النفس فى برلين ١٩٢١ .

وفى سنة ١٩٢٢ صار كيلر مديراً لمعهد علم النفس فى برلين ، كما صار من قبلُ مديراً لمعهد علم النفس بجامعة جتنجن — فى نفس السنة قبل أن يعود إلى برلين . وفى هذا الحين نشر

مقالة له فى : سنوية الفيزيولوچيا الألمانية Jahresber. u.d. ges.Physio بعنوان مشاكل الصورة وبدايات نظرية جشطلتية Gestaltprobleme und Anfange einer Gestalttheorie (١٩٢٢ ص ص ٥١٢ — ٥٣٩) وفيها عرض سهل واضح لبعض مبادىء الجشطلت عن طريق الأمثلة .

ولما رحل مع كفكه إلى أمريكا ، وعين أستاذاً زائراً بجامعة كلارك (سنة ١٩٢٥ — ١٩٢٦) بدأ يكتب بالإنجليزية ليساهم مع صاحبه فى نشر المذهب . وكان أهم ما نشره فى ذلك الحين : مشكلة الصورة فى الإدراك The Problem of Form in Perception (فى مجلة علم النفس البريطانية مجلد ١٤ سنة ١٩٢٤ ص ص ٢٦٢ — ٢٦٨) التى ترجع أهميتها — مع إيجازها — إلى نظرها فى روابط الإدراك وتغيرات المكان . ومقالتاه فى مجلة Ped. Sem. جـ ٣٢ سنة(١٩٢٥ عن ذكاء القردة Intelligence of Apes صورة من علم النفس الجشطلتى ، وقد نشرتا مرة أخرى فى سيكولوچيات ١٩٢٥ وأخيراً كتابه علم النفس الجشطلتى Gestalt Psychology (١٩٢٩) الذى يعرض فكرة الاستبصار فى أوج اكتمالها ، ويتجنب كثيراً من وجوه النقد التى كانت قد وجهت إلى النظرية فى مبدئها . (وكان كيلر قد رد على اعتراض چ . ميلر فى بحوث سيكولوچية Psychol. Forsch. ٦٠ ، ١٩٢٥ بمقاله Komplextheorie und Gestalttheorie) .

وبقية بحوث كيلر ومقالاته فى تأييد مذهب الجشطلت والدفاع عنه تجدها حتى سنة ١٩٣٢ فى سجل مرتشيزون جـ ٣ ص ص ٨٢٧ — ٨٢٨ . وأهمها — فيما عدا المقالات الكثيرة بمجلة علم النفس ، وبحوث سيكولوچية ، وسائر المجلات العلمية ؛ وعدا ما ذكرنا من الكتب — ذكاء القردة Intelligence of Apes (فى سيكولوچيات ١٩٢٥ ص ص ١٤٥ — ١٦١) ، ووجهة علم النفس الجشطلتى The Aspect of Gestalt Psychol (فى سيكولوچيات ١٩٢٥ أيضاً ص ص ١٢٩ — ١٤٣) ، وكذلك بعض مهام علم النفس الجشطلتى Some Tasks of Gestalt Psychol (فى سيكولوچيات ١٩٣٠ ص ص ١٤٣ — ١٦٠) ؛ عدا مقالتين بالفرنسية فى مجلة علم النفس الفرنسية J. de Psychol. (١٩٣٠) ، إحداهما فى القوى الدافعة للسلوك Les Forces Motrices du Comportement ، والأخرى فى الإدراك الإنسانى La Perception Humaine (مجلد ٢٧ ص ص ٣٦٧ — ٣٩٠ ، ص ص ٥ — ٣٠) .

(٨) أوجدن (روبرت موريس) R. M. Ogden : ولد فى

بنجهامتون فى يوليو ١٨٧٧ ، ولحق بجامعة كورنل حتى ١٩٠١ . ثم انتقل إلى ڤرتسبورج فى هذه السنة ، فحصل منها على الدكتوراه فى الفلسفة سنة ١٩٠٣ . عين مساعداً لعلم النفس فى جامعـــة مسورى Missouri (١٠٩٣ — ١٩٠٥) فأستاذاً مساعداً لعلم النفس فى جامعة تنسى Tennessee (حتى ١٩٠٩) حيث صار أستاذاً لعلم النفس والفلسفة (حتى ١٩١٤) وبعدئذ انتقل إلى جامعة كانساس Kansas أستـــاذاً لعلم النفس (١٩١٤ — ١٩١٦) فجامعة كورنل أستاذاً للتربية (بعد ١٩١٦) حيث صار منذ ١٩٢٣ عميداً لكلية الآداب والعلوم ، كما صار فى هذه السنة محاضراً فى التربية بجامعة هارڤرد .

وقد ساعد فى تحرير المجلة النفسية Psychol. Bull. منذ ١٩٠٩ ، وصحيفة علم النفس الأمريكية Am. J. of Psychol. منذ ١٩٢٦ . وكان عضواً وأمين سر لهيئة علماء النفس الأمريكية كما كان زميلا لجماعة تقدم العلم الأمريكية Am. Assoc. for Adv. of Scie.

ونشر أوجدن كثيراً من البحوث والمقالات بالإنجليزية والألمانية عن الذاكرة والتعلمُّ ، والفكر بلا صورة ، والمعرفة والتعبير ، وعن سيكولوجيا السمع ، والصور البصرية والخيالية ، والصوت ، والشعور ، والذكاء كما كتب فى الإحساسات ، وهل هناك إحساسات ؟ (مجلة علم النفس الأمريكية : ١٩٢٢ ، حـ ٣٣ ص ص ٢٤٧ — ٢٥٤) والنشاط العقلى . والتربية ، والتعلم ، ونظرية الجشطلت ...

وأهم كتبه : مقدمة إلى علم النفس العام Intro. to General Psychol. (نيويورك ١٩١٤) ، وكتابه فى السمع Hearing (١٩٢٤) ، وعلم النفس والتربية psychol. and Edu. (١٩٢٦) . وقد تبع أوجدن كيلر فى الاعتراض على التحليل بمعناه القديم ، التحليل الذى ليس كما نعته كيلر تحليلا تفاضليا differential analysis — يفيد فى الجمع التفاضلى ، وإن كان هو فى ذاته غيرَ حقيقى — بمعنى أن العناصر الظنية فيه تُفترَض لأجل العمل فحَسب ، ثم تعود فتختفى فى النتيجة النهائية . وفى هذا يقول أوجدن : إن اعتراض الجشطلتيين على التحليل ليس مُوجَّهاً إلى التحليل فى ذاته ؛ بل إلى التحليل إلى عناصر حقيقية . هــــذا عدا ترجمته لكثير من مُتون علم النفس الهامة

وفى مقالات أوجدن وبحوثه راجع مرتشيزون (جـ ٣ : ٣٥٩ — ٣٦٠)

(٩) هويلر (ريموند هولدّر) R.H. Wheeler : ولد فى برلين سنة ١٨٩٢ ، ولحَق بجامعة كلارك ، فحصل على الليسانس (A. B.) سنة ١٩١٢ ،

والماچستير (A. M.) سنه ١٩١٣ ، والدكتوراه فى الفلسفة (Ph. D.) سنة ١٩١٥ . وانضم بعدئذ لجامعة أوريجون معيداً حتى ١٩١٧ ، فأستاذاً مساعداً حتى ١٩١٩ ، فأستاذاً لعلم النفس حتى ١٩٢٥ ؛ حيث انتقل إلى مثل منصبه فى جامعة كانساس . وساعد فى تحرير مجلة علم النفس العام (سنة ١٩٢٨) كما كان عضواً بهيئة علماء النفس الأمريكية . وله مقالات كثيرة فى الظواهر البصرية ، والمعنى meaning ، ووصف الذكاء ، والاستبطان والسلوك ؛ وعُنى خصوصاً فى دراسة الإدراك بالاشتراك الحسى synaesthesia ، وله فيه مع كتسفورث T. D. Cutsforth بحوث كثيرة فى مجلات علمية مختلفة .

(راجع مرتشيزون ج ٣ ص ٥٤٠)

(١٠) پلاتو I. Plateau : ما زال علماء الفيزيولوچيا — بعد علماء الطبيعة ؛ ومنذ أنشأ نيوتن سنة ١٧٠٤ قانونى امتزاج الضوء الأولين اللذين وضع ثالثهما جراسمن Grassmann (١٨٥٣) — يُعنون بدراسة إدراك اللون . وأول من قام بمحاولة دراسة امتزاج اللون عن طريق الاسطوانات الدائرة rotating disks هو موشنبرويك P. Musschenbroek (١٧٦٠) . وجاء پلاتو سنة ١٨٥٣ فصاغ قانون هذا الامتزاج . إلا أن مَكسويل Maxwell قد جاء بعده (١٨٥٧) فكمل هذا المنهج ، حتى أن الاسطوانات الملونة التى تستخدم فيه سُمِّيت : اسطوانات مكسويل Maxwell's disks .

وإذا كان نيوتن أيضاً هو أول من وصف دائرة الضوء التى تبقى فى إحساسنا عند ما نُبعد جسما مضيئاً عن أبصارنا ؛ فإن ميلر يذكر أن پلاتو قد حدد لزمن هذه الدائرة الضوئية حوالى ثلث ثانية بعد توقف الجسم عن الإضاءة . ويقول بورنج (تاريخ علم النفس التجريبى ص ٦٠٠) : إن قانون پلاتو فى امتزاج الضوء قانون أساسى وكذلك منهجه فى الإسطوانات الدائرة التى شاع تسميتها باسطوانات مكسويل.

(١١) روبن (إدجر) Edgar Rubin : لعل روبن (١٨٨٦) هو الذى قدم لمذهب الجشطلت مصطلحاته التى ما زال يستعملها فى التعبير عن إدراك الأشكال البصرية . وكان روبن قد جاء من كوپنهاجن سنة ١٩١٢ ليقضى سنتين مع ميلر للتحضير لدرجة الدكتوراه ، وهناك فى جتنجن نشر كتابه المشهور — الذى أخذ فيما بعد على أنه جزء من صميم علم النفس الجشطلتى ؛ أياً كان اتجاه مؤلفه ؛ لأنه حلل فيه الإدراكات البصرية تحليلا ظاهرياً إلى عناصر كالشكل والخلفية والكنتور (المحيط) بدلا من أن يُدخل فيها التحليلَ الآخر الذى يحمل عليه الجشطلتيون إلى عناصر حسية حقيقية .

أما هذا الكتاب فهو Synsop- levede Figurer ظهر بالدانمركية سنة ١٩١٥ ، وترجم إلى الألمانية سنة ١٩٢١ باسم : الأشكال البصرية المُدرَكة Visuell Wahrgenommene Figuren في ٢٤٤ صفحة ؛ وسرعان ما أمدَّ علمَ النفس الجشطلتي بأفكار الشكل والخلفية والكُنتور كمصطلحات ظاهرية لوصف الإدراك البصري للأشكال . وبهذا أفادَ رُوبن علمَ النفس الجشطلتي بما أنتجه في معمل ميلر ؛ وعن غير قصد منه (والثبْت الكامل لبحوثه ومقالاته في سجل مرتشيزون الثالث ١٩٣٢ صص ٦٦٩ — ٦٧٠) .

(١٢) لِڤِن (كورت) Kurt Lewin : ولد في موجلنو Mogilno سپتمبر سنة ١٨٩٠ ، ولحق بجامعة فرايبورج (١٩٠٨) ، فميونخ في السنة التالية ، فبرلين في التالية أيضاً ؛ حتى حصل على الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٩١٤ ، وصار بها أستاذا مساعداً سنة ١٩٢٧. راجع ثَبت بحوثه ومقالاته حتى ١٩٢٩ في سجل مرتشيزون ج ٣ ص ٨٣٦ .

الفصل الخامس

التحليل النفسى والمدارس الملحقة

نُقبِل الآن على مدرسة من مدارس علم النفس ؛ ليست — كتلك التى درسنا — ناشئةً عن علم النفس ذاتِه ، ولا على الأقل فى داخل علم النفس الأكاديمى ؛ وإنما نشأت عن ممارسة الطب . وبالمعنى الواسع هى مدرسة الطب العقلى psychiatry ، ولكنها أقامت على ممارستها هذه بناء شامخاً فى علم النفس ؛ حتى لَتجتذبُ الانتباه ، وتسترعى اهتمامَ كافة علماءِ النفس . ومن الممكن أن تُسمَّى بعلم نفس سلوكى ؛ وإن كانت أبعدَ ما يمكن أن تكون عن المناهج السلوكية وأفكارها . وأحياناً ما تأخذ اسمَ « سيكولوجيا الأعماق » depth psychol. من أجل تعلقها بما يختفى فى عمائق اللاشعور من حياة الفرد . وقد سمّت نفسَها أحياناً « سيكولوجيا الشعور أو العاطفة » feeling psychol. لتدل به على ثورتها على توكيد النزعة العقلية فى سيكولوجيا القرن التاسع عشر . ثم هى قلّما تستعين بعلم النفس التقليدى (الأكاديمى) فى المعمل ، أو بتجارب الحيوان ، أو اختبارات الذكاء ؛ التى شغلت علماء النفس إلى حد كبير ، فإن واحداً من مجالات الدرس هذه لا يصل إلى « الأعماق » ، ولا يعطى تقدماً عمليا أكثر فى فن الطب . فثورتها على علم النفس التقليدى إذن تقوم بالأكثر فى تجاهُلِها لَه .

فالتحليل النفسى — كحركة فى داخل الطب العقلى — كان ثورة على النزوع الجسمى somatic الغالب فى القرن التاسع عشر ، وتوثباً إلى حياة جديدة للنزوع النفسى psychic . ففى الوقت ذاته الذى كاد فيه علم النفس يُصبح جسمياً ؛ بدأ الطب العقلى جاداً فى أن يكون نفسياً . وإذ اقتنع أن إصابات المخ ليست توجد فى بعض أنواع من الأشخاص المنحرفين ؛ فإن الطب العقلى قد بدأ يَنشُد علل الانحراف فى حياة الفرد العقلية ، وفى عاداته الخاطئة فى التفكير والعقل ، وفى ضَعف إرادته ، وفى قابليته للإيحاء ، وفى حاجته إلى التوازن الانفعالى . وتاريخ هذا التقدم مُشوّق ، ولكنه قصة بذاته . هو مرتبط بتاريخ التنويم hypnotism ؛

الذى بإدخاله على الاتجاه العلمى والطبى فى سنة ١٧٨٠ على يد مِسمر Mesmer ومعرفته منذ ذلك الحين بأنه مِسمَرى قد أدى إلى حياة متقلبة نحو قرن ؛ ولكونه متصلا بكثير من الادعاء ، فقد رفضته رفضاً باتاً تقريباً المهنُ الطبية حتى عهد المدارس المتناظرة المشهورة فى باريس ونانسى فى السنوات الستينية والسبعينية والثمانينية من أواخر القرن الماضى . وكان على رأس مدرسة باريس شاركو Charcot (١٨٢٥ — ١٨٩٣)(٣) النيورولوچى المشهور لِتَعهده . وهو شخصية رائعة وأستاذ كبير . فقد وجد شاركو أن الأفراد الذين يمكن أن يُنوَّموا نوماً عميقاً كانوا هدفاً لإصابات الهستريا واستعان بهذه الحقيقة على فهم الهستريا وعلاجها ، وأيضاً على بيان ما عسى أن تكون لعمله طبيعةُ التنويم ،وقد حَسِب أنها حالة پاثولوجية (مَرضية) خاصة فى الكائن العضوى . وفى وجهة النظر هذه عارضته مدرسة نانسى ؛ التى أذاعت أن التنويم الخفيف يمكن أن يجرى على كل الأشخاص العاديين تقريباً ، لكونه مجرد حالة سلبية قابلة تحدث بالإيحاء . وقد استخدموه هم فى علاج الحالات العصبية . وكان النزاع بين هاتين المدرستين الفرنسيتين المتنافستين على أشدّه .

وكان لشاركو كثير من التلاميذ الذين صاروا أعلاماً فى دراسة الأمراض العُصابية neuroses فمورتُن پرنس فى بوستن (١٨٥٤—١٩٢٩)Morton Prince(٤) of Bostom قد استخدم التنويم وما شابهه من العمليات فى علاج الشخصية المتكثرة أو المتحللة. وهو معروف لدى علماء النفس بفكرته عن الوعى المشترك co-conscious وبتجاربه فى الوعى المنقسم (الموزع أو الشتيت) split consciousnesss. وپيير چانيه Pierre Janet(٥) فى باريس (ولد سنة ١٨٥٩) قد كان مُولعاً أيضاً بأفعال العقل اللاشعورية. أو كما سماها هو — آليات العقل mental automatisms وفى السنوات التسعينية وما بعدها وقف نفسه بأسرها على دراسة الأمراض العُصابية وعلاجها فتقدم بما اضطلع به شاركو من التنويم فى الهستريا ، ووَجد أن المصاب بالهستريا قد استطاع — بفعل التنويم — أن يستعيد الأحداثَ التى لم يكن يستطيع أن يقف عليها فى حالة الصَّحو (اليقظة) . فالصدمة الانفعالية — إذ كانت قد نُسِيت تماماً فى حالة الصحو — قد سهل تذكُّرها ، وَوُصِفت وصفاً تاماً أثناء التنويم. وأكثر من هذا ؛ فإنه إذا كانت الإيحاءات أثناء التنويم يقوم بها الطبيب نتيجة أن « هذا كله قد مرَّ وانتهى الآن » ؛ فإن أعراض الهستريا المتصلة بالصدمة الانفعالية تختفى . واستمر چانيه فى دراسة أنواع أخرى من الأمراض العُصابية

والمخاوف phobias ، والحصر النفسى obsession ؛ التى جمعها تحت الاسم الشامل : السيكاستانيا psychasthenia ٭ التى عالجها بالتعليم من جديد reeducation وفكرته عن الأمراض العُصابية هى أنها تُعزى إلى حالة توتر عقلى مخفّض ، يمنع الشخصَ من أن يجد نشاطاً كافياً للإرادة والفعل يتغلب على عقبات الحياة. وبإعطاء هذه الحالة الأولية من التوتر غير الكافى (أو القوة الدافعة voltage كما يمكن أن نقول) فإن المخاوف ، والحصر ، والشلل — العصبية الجزئية ، وغيرها — تنشأ من الشعور العام بعدم الكفاية (النقص) . وعَمَلُ چانية — الذى يُؤرَّخ له قبل التحليل النفسى بقليل — قد كان بسبيل أن يُحدِث أثراً عظيما ؛ سواء فى علم النفس وفى فن الطب العقلى ؛ عندما طغت عليه أفكار فرويد الأكثر دَرامية (أَسيًّ) ، حتى ألقَت به فى الظل .

ذلك إذن هو الأساس الذى ظهر عليه التحليلُ النفسى . أساس عام من الطب العقلى الجسمى ، مع محاولات قوية نحو علم نفسٍ للأمراض العُصابية كان يُضطَلع بها وقتئذ .

محاولات فرويد الأولى :

ولد زجموند فرويد Sigmund Freud سنة ١٨٥٦ (٦) فيما يسمى الآن تشيكوسلوفاكيا ، ولكنه عاش فى ڤينا منذ أيامه الأولى . ولما لحق بالجامعة درس الطب ، وولع خصوصاً بالناحية العلمية منه . وقد عمل سنواتٍ سِتاً فى معمل الفيزيولوچيا ، فلما لم يجد فى هذا العلم ما يعين مباشرة على كَسْب قوتهِ صمم على أن يخوض فن الطب . وفى حوالى ١٨٨١ تحول عن معمل الفيزيولوجيا إلى المستشفى ، وما زال يواصل التخصص فى الجهاز العصبى : تشريحه وأمراضه العضوية كالشلل وإصابات المخ . وفى ذلك الحين قليلٌ ما كان يُعرَف فى ڤينا عن الأمراض العصبية ، وقلما كان يُحاوَل علاجُها بالطب . وقد سَمِع بشهرة شاركو عن بُعد . وفى سنة ١٨٨٥ رحَل فرويد إلى پاريس ودرس معه نحوَ سنة . وقد تأثر كثيراً باستخدام شاركو للتنويم طريقةً لعلاج

٭ فى قاموس شرف معناها : مرض يتملك الإنسان obsessive neurasthenia (ص ٧٠٧) وهو مصطلح وضعه بيير جانيه لكى يدل على مجموعة من الأمراض التى تتميز بالشعور بالتعب والإرهاق والشك والمخاوف المرضية.. إلخ . ويؤثر بيير جانيه استعمال هذا اللفظ على نورستانيا لكى يشير الى أهمية العامل النفسى . ويمكن أن نسميها الخور النفسى ، وخير منها تسمية السيكاستانيا — على غرار النورستانيا التى شاع استعمالها فى العربية كما هى .

الهستريا ، كما أعجبه أيضاً سماعُه بملاحظة شاركو أنه فى كل أحوال الأمراض العصبية يوجد اضطراب فى حياة الفرد الجنسية « دائماً أبدا » إذا تعمّقتَ النظر. وتعجّب فرويد : لئن صح ذلك فلم لا يستعين شاركو بهذه الحقيقة فى نظريته وعلاجه ؟ ظل السؤال فى ذهن فرويد ، وآتى أُكُله بعد .

وفى ١٨٨٦ عاد فرويد إلى ڤينا ، وبدأ يعمل جاهداً فى حالات الأمراض العصبية — وخصوصاً الهستريا. واتخذ من التنويم طريقته الرئيسية للعلاج — ولكنه سرعان ما لاقى صعوبات فيها : إحداها أن كثيراً من المصابين بالأمراض العصبية لم يمكن أن يُنَوَّموا . وأخرى أنه — حتى لو نجح فى تنويم المريض — فإنه لم يستطع دائماً أن يقدم له بوسائله علاجاً . ونجاحه هذا الثابت الذى كان يلاقيه قد أدى به إلى أن يقوم بحِجّة أخرى إلى فرنسا ، ليختبر فى هذه المرة عملَ مدرسة نانسى التى أعلنت أنها تُنوِّم بالفعل كل قادم عليها ، وأنها مُوفّقة أكثر فى إيحاءاتها العلاجية بتأثير التنويم . وقد خيّب ظنَّه بعضَ الشىء ما أنبأه به أحدُ علماء هذه المدرسة من أن نجاحهم ليس حسناً فى شىء مع خاصة المرضى كما هو مع الفقراء منهم فى معمَل الدرس . فإن خاصة المرضى كانوا من شدة الذكاء ؛ أو الدهاء ؛ بحيث يفهمون كلَّ قيمة للإيحاءات العلاجية . وعاد فرويد إلى ڤينا ، وظل يعمل فى العلاج بالتنويم على خاصة المرضى — وبنجاح متوسط فحسب — آملا فى منهج آخر أحسن .

وهنا يشترك فى القصة رجل لعل فرويد أخذ عنه أكثر مما أخذ عن شاركو أو مدرسة نانسى . ذلك هو يوسف بروير Joseph Breuer . (ولد سنة ١٨٤٢) وهو عالم من ڤينا ، بدأ — كفرويد — فيزيولوچياً ، ثم تحول أخيراً إلى مهنة الطب وقد كان وصل إلى اكتشافات فيزيولوچية هامة ، وماتزال نظريته فى القنوات الهلالية semicircular canals معمولا بها . وكان فرويد وبروير صديقين قديمين ، فبدءا حينئذ يتعاونان فى دراستهما للأمراض العصبية . وحدث أن بروير كان يستخرج طريقة جديدة للعلاج اقترحها عليه فى الأصل أحد مرضاه . سيدة جاءته تعانى من الهستريا ، وكان بروير كعادته قد استخدم التنويم فى علاجها ، فرأت أنه لو أتاح لها — فقط أثناء التنويم — أن تعبر عن مشاكلها الانفعالية ؛ فإنها تتحسن بعد . وبتأثير التنويم استطاعت أن تتذكر أيضاً الأحداث المنسية التى تتعلق بحياتها الانفعالية . وعندما أخبرت بها العالِم المنوِّم ؛ شعرت بارتياح ، وقلت

بعد ذلك حِدَّة أعراض الهستريا. ومن أجل هذا وصل بروير طريقة العلاج بالتعبير talking out treatment هذه فتحسنت آخرَ الأمر تحسناً كبيراً ، بما يقرب من الحياة العادية . وجربَ بروير وفرويد هذه الطريقة الجديدة على آخرين من المرضى – فى شيء من النجاح – ونشرا نتائجهما فى ١٨٩٣ ، ١٨٩٥. وإلى هذا الحد ؛ كانت الطريقة الجديدة تَستخدم التنويم مرتبطاً بالتعبير . وفى نفس هذا الوقت عند بروير وفرويد تقريباً ؛ نشر چانيه بعض دراسات فى الهستريا ؛ بين فيها أن التنويم يمكن أن يستفاد منه فى َطرق ذاكرة المريض ، والكشف عن أصل الأعراض. فكانت طريقة چانيه بهذا هى بعينها طريقة بروير وفرويد – باستثناء أن الأخيرة تؤكد الأثر العلاجى لمجرد التعبير ؛ إذا استمر بدرجة كافية . وقد سموا طريقتهم الجديدة طريقة التنفيس العقلى mental catharsis ؛ لأنها تعمل على استبعاد مصادر الاضطراب من الجسم . واستخدموا أيضاً كلمة التصريف abreaction ؛ بمعنى أن تنفيس الاضطراب يهيىء تعبيراً أو مَصرفاً للانفعال المكبوت ، وبذلك يُزيله . فقد بدا أن الأحداث التى تسبب الخجل أو ما شابهه من اضطراب انفعالى إنما يحبسه الشخص بقوة، فيصير بذلك لا مشعوراً به أو مَنسياً بقدر ما تختص به حالة الوعى، ولكنه بفعل التنويم ينبعث من جديد ويُنفَّس عنه.

وبعد هذه البداية المبشرة بقليل ، أصبح بروير – لبعض علة لم يُبيِّنها – غير راض عن هذه الطريقة الجديدة ، منصرفاً عنها ، تاركا فرويد يستمر وحده فيها . وأخيراً اتضح سبب فشل بروير . فإن إحدى مرضاه من النساء – عندما أوشكت سلسلةُ علاجاتها الطويلة أن تنتهى – أعلنت أنها لا تستطيع مفارقته ؛ لأنها قد وقعت بشدة فى حبه. فهذا التنفيس الغير المنتظر قد صَدَّ بروير ، فانتهى إلى أن هذه الطريقة الجديدة خطر على مزاولها، وأنها تجعل من الصعب عليه أن يُبقى على اتجاهه الطبي الخالص. وسرعان ما ارتطم فرويد بنفس المشكلة. ولكنه لم يضطرب لها بهذه السهولة وبتَدبُّر سيكولوچية الأمر ؛ انتهى إلى أنه ليست شخصيتُه الخاصة هى التى تجذب هؤلاء النسوة ، ولكنه يُؤخَذ فقط بوصفه بديلا substitute أو نائباً surrogate لموضوع حبهن الأصيل ؛ الحب منتقل إليه . فإذا هو استطاع من جانبه أن يعالجهن مع الإبقاء على اتجاه غير شخصى ؛ فربما استطاع حتى أن يستفيد بهذا التحول فى العلاج . وكانت سنوات قبل أن تتم نظرية التحول الكاملة وطرائق توجيهها ، ولكنها فى الحال شغلت مركزا بارزاً فى النظرية والعمل جميعاً .

وسرعان ما أسقط فرويد – حين انفرد لنفسه – « طريقة » التنويم ، واستمر بطريقة التعبير من دونها ؛ ولم يُبقِ من طريقة التنويم إلا على القدر الذى يجعل الشخصَ يفترض « لنفسه » موقفَ ارتخاء واستسلام . إلا أنه بدلا من أن يستمر فى إحداث حالة نوم ، أوعمل أية إيحاءات ؛ كان فقط يطلب إلى الشخص أن يَبسُط – وهو على حاله من الارتخاء – متاعبَه ومالها من سبب ، وأن يقول كلّ مايرِد على ذهنه . وسمّى هذه طريقةَ التداعى الحر meth. of free association وإن لم يكن التداعى المطلوب من الشخص حراً كل الحرية . وقد كشف نوع من مقياس للضبط بالتشديد على الشخص بوجوب لصوقه بأموره ومشاغله الخاصة ؛ فلم يكن له أن ينساق فى حديث عام . على أن فكرة فرويد عن التداعى الحر كانت : أن الأَعِنّة يجب أن تُرفع ، وألا يَضغط الكَبتُ أو الرقيب على أية ذكريات قد تَعرض فى ذهن المريض . « فإذا كان ماتثيره لاقيمة له ؛ قُله هو بعينه . وإذا كان محرجاً ؛ دَعه يظهر » . فالاسترخاء وهذا التداعى الحر هما بديل فرويد بالتنويم . ومع أنها كانت عملية أبطأ ؛ فإنها أجدَت مع أشخاص أكثر ، وأدت فيما حسب هو إلى تصريف كامل أكثر .

ومهما يكن من أمر ؛ فإن عملية تحليل صعوبة المريض هذه بالهجوم المباشر كانت بطيئة إلى حد لاسبيل إلى إنكاره . وكان فرويد يأخذ أُهبَته لهجوم جانبى على اللاشعور ينتزعه من الرقيب عليه ، وسرعان ما وجد أن أحلام المريض هى التى تتيح خطة الهجوم تلك . فالمريض يُعيد حلماً « رآه » فى الليلة السابقة ، وبتوجيه المحلل يدع عقله يلعب حراً على كل جزء من الحلم بطريقة التداعى الحر ، ويتتبع – فى غير تأنيب – كل جزئية من جزئيات الحلم ؛ على أمل أن توجد فيها ذكريات لها دلالتها ؛ فتتلاءم مع بعضها البعض ، وتظهر العقدة التى يعانى منها الشخص وتحليل الحلم – هذا الذى اكتشفه فرويد فى السنوات التسعينية – ما يزال جزءا مهماً من فن التحليل النفسى . وملاحظاته الواسعة ونظرياته فيما يختص بالأحلام قد أداها إلى العالَم كتابُه تفسير الأحلام The Interpretation of Dreams الذى نشر بالألمانية سنة ١٩٠٠ . وقد أظهر هذا الكتاب مؤلفه وكأنه من مشاهير الكتاب فى علم النفس العام . أما أتباعه فقد تبدّى لهم فجرُ علم نفس المستقبل العلمى الصحيح . وقد أتبع كتاب الأحلام «هذا» – بعد قليل – بتحليله المرضى النفسى الرائع للحياة اليومية Psychopathology of Everyday Life (ظهرت طبعتة الألمانية الأولى سنة ١٩٠١)

الذى يحلل فيه هفوات اللسان أو الذاكرة وكل الزلات ، ويبين كيف أنه يمكن أن يستفاد فيها جميعاً بالكشف عن العقد اللاشعورية . أما "البديهة « النكتة » وعلاقتها باللاشعور" Wit in Relation to the Unconscious (سنة ١٩٠٥) فقد أنضجَ فكرتَه فيما يتعلق بالدور الذى تقوم الرغباتُ المكبوتة فيما نُحبُّ أن نسمّيه الحياة العادية أو السوية . فمنذ حوالى ١٩٠٠ فصاعداً ، لم يكن يَعنى بالتحليل النفسى مجردَ فن لعلاج الأمراض العصبية ؛ بل نظريةً فى علم النفس حسَنةَ التعريف .

والرغبات المكبوتة والعقد التى كان يجدها فرويد فى تحليله لأعراض الأمراض العصبية والأحلام والهفوات والبديهة wit كان يغلب عليها أنها من طبيعة جنسية . فلم تتأكد فحسب ملاحظة شاركو الجدلية أن الاضطرابات الجنسية توجد فى كل حالات الأمراض العصبية ؛ ولكن فرويد قال بأن الرغبات الجنسية المكبوتة من أجل أنها تعارض ما يتطلب المجتمع — موجودة فى العاديين من الناس أيضاً ، وهى المسئولة عن غرابات السلوك التى لايمكن لأول وهلة أن تكون لها صلة بالجنس . ولم يتلق العالَم المترقب فى هدوء ما سيكولوجياه هذه : لأنها من ناحية تتشبث بمسألة الجنس ، ولأنها — من ناحية أخرى — طبيعةُ كثيرٍ من نظرياتها أساسية ومُغالطية . لقد تلقاها قليلون بحماس ، ورفضها الأكثرون بقوة . وبدت للبعض وكأنها أشبه بوحى مُنَزَّل ؛ وللآخرين وكأنها علم شيطانى مزعوم . وبِتقدُّم الأعوام وعشرات السنوات ؛ صفا الجو بعض الشىء ، وأصبح الأتباع والخصوم كلاهما أكثر نفاذاً وأصبح يُنظَر الآن إلى علم النفس الفرويدى بوجه عام — كما يمكن أن نقول فى غير إسراف — وكأنه مساهمة ذاتُ بال فى علمنا هذا الناشئ وإن لم يكن الحقيقةَ النهائية الشاملة . وفرويد نفسه — حتى إلى عهد متأخر — قد استمر يقدم ويحوّر آراءه ؛ وإن لم يجد من الضرورى أن يراجع الكثير من النتائج الكبرى التى وصل إليها فى أيامه الأولى .

وسرعان ما بدأ يتكون لفرويد — بعد سنة ١٩٠٠ — أتباع فيما بين مزاولى الدراسات العصبية ، حتى جمع حوله دائرة صغيرة فى ڤينا . وبدأ يتصل به معجبون من الدول الأخرى ؛ وخصوصاً فى السويد ؛ حتى كان من الممكن فى حوالى ١٩٠٨ أن يعقد مؤتمراً دولياً لأصحاب التحليل النفسى . على أن اتساع جماعة التحليل النفسى لم يتقدم فى غير نزاع داخلى : فالمحللون السويسريون قد تقدموا فى خطوط مستقلة بعض الشىء ، وانفصلوا عن وثيق تبعيتهم لفرويد ؛ كما

انشق من بين جماعة ڤينا بعض ذوى العقول الجريئة. والنتيجة الواضحة أنه منذ حوالى ١٩١٢ كان ثمة تحت مدرسة التحليل النفسى العامة مدارس فرعية عدة. فاسم التحليل النفسى يتعلق خصوصاً بفرويد، ولكن – بطريقة عامة – «علم النفس التحليلى» ليونج و«علم النفس الفردى» لأدلر كانت أنواعاً من التحليل النفسى. وكلاهما منهج لعلاج الأمراض العصبية ونظرية فى علم النفس. وعلى أى حال، فإن فرويد يصرّ على أن يونج وأدلر يَعُدَّان أنفسهما خارج التحليل النفسى برفضهما الأهمية المطلقة للرغبات الجنسية فى الأمراض العصبية وفى الحياة بوجه عام. وسنعود إلى يونج وأدلر بعد اعتبار أوفى لعمل فرويد الخاص.

خطوات أوسع فى فن التحليل النفسى:

وقبل أن نحاول عرضاً متصلا لنظرية فرويد النفسية؛ يجب أن نشير إلى التقدم الأوسع للعلاج بالتحليل النفسى. فإنه سرعان ما ظهرت بين المحللين النفسيين فكرة أن أشياء معينة هى رموز ثابتة لأشياء وعمليات جنسية محددة. فما إنْ يَقُصّ المريض حلمَه بهذه الأشياء؛ حتى يعرف المحللُ مرة واحدة طبيعةَ العقدة الخفية وراءها. وباستخدام هذه الرموز الثابتة كان يَقتصد كثيراً من الوقت فى عملية التحليل المُطولة؛ باستثناء هذا المبدأ الجوهرى فى مذهب فرويد – وهو؛ أن المريض يلزمه – ليس مجرد أن يعرف ما هى مشكلته – بل أن يستثير من جديد الخبراتِ التى هى سبب إشكاله فى الأصل، وأن يرتفع بعقداتِه إلى مستوى الشعور. والرموزُ الثابتة إذن – وإن لعِبَت إلى حين دوراً بارزاً – اتخذت مكانَها بعدُ فى الصفوف الخلفية.

وفى اشتغاله بطرائقه الجديدة فى التداعى الحر وتحليل الأحلام؛ تقدم فرويد لعلاج كثير من الأفراد المصابين بأمراض عُصابية علاجاً موفقاً إلى حد كبير. فتمكن من أن يثير تجارب سبق كبتها. وأن يزيل الشللَ الهستيرى، وفقدانَ الحس anaesthesias، والمخاوف العُصابية؛ والقيودَ بأنواعها المختلفة. ولكنه أحياناً ما حدث أن أحوالا استبُعدت بحُسبانها قد شفيت؛ تعود بعد زمن فى أمراض مختلفةٍ شيئاً. وتلك كانت التجربة «التى عاناها» كافة العلماء الذين تَصَدّوا لعلاج الأمراض العُصابية. على أن فرويد – كالعهد به، وبدلا من أن يرتد – ظل واثقاً بقيمة مناهجه، وانتهى إلى أنه لم يتعمق بتحليله إلى درجة كافية، واعتقد أنه قد اخترق الأغشِيَة الخارجية

للأمراض العُصابية ؛ ولكنه لم يصل إلى لُبِّها . فكان من الخير إذن أن يعود راجعاً إلى حياة المريض . وكلما اتسعت خِبرته ؛ حاول أن يرجع أبعدَ فأبعد فى تحليله للفرد . وبعد أن كان أولَ الأمر يرضى بالكشف عن عقدة حديثة الوجود ؛ انتهى بعدُ إلى أن العقدة الحديثة إنما هى انبثاق عقدة أقدم ماتزال قائمة فى لاشعور الشخص ، وربما أحدثت له مَشقةً أكبر .

وقد افترض بادئ الأمر أن العقدة الأصلية هى نتيجة صدمة انفعالية خاصة تلقاها المريض ؛ كما كان يظن برويبر وشاركو . إذن فقد عاد يتفحص أكثر فأكثر ذكريات الشخص المنسية ؛ علَّه يجد الصدمةَ التى بدأت بها المُعاناة . وكثير من النساء المصابات بالهستيريا ــ اللاتى استَشرنَه ــ قد تأدى بتحليل أحلامهن إلى أن يَستعِدن صدماتِهنّ الانفعالية منذ الطفولة . فذَكرن عن الآباء أو الأعمام أو الأخوة الكبار مهاجمَتهم أو إغراءَهم الجنسى لهن . وقد استطاع فرويد ــ مصطدما هو نفسُه بما يظهر من « نُدرة » وقوع مثل هذه الأشياء ــ أن يعترض بعض هذه القصص ؛ وتبين له أنها خيالية . وقد صدَّقتهُ وقتاً ما بالفعل نتيجةُ تحليله الأحلامَ الواهمة « هذه » ولكنه سرعان ما رجع ؛ وتبين أن ماتذكَّره المريض إنما كان نوعاً من حلم اليقظة أو هواجس الطفولة أو مُقتبل الشباب ، وأن الصدمة الموهومة ــ وإن لم تكن حقيقة موضوعية ــ هى حقيقة لدى المريض ، وأن لها من الأهمية فى تاريخ حياة المريض كما لو كانت حَدَثاً موضوعياً « حقاً » . وأكثر من هذا ؛ انتهى إلى أن الهاجس phantasy قد تجسِّد من الشخص رغبةً صبيانية ، « وأن » حلم اليقظة فى الطفولة المتأخرة يدل على رغبة غير متحققة منذ الطفولة الأولى. فلو أنه استطاع أن يرجع بتحليله إلى رغبة الطفولة الأولى تلك ، إذن لتوصَّل إلى محور مشكلات المراهق فى حياته ، ولو أنه استطاع ــ بتحليل الأحلام ــ أن يحمل الشخص على إثارة الذكريات المفقودة لطفولته الأولى ، وأن يعيش على رغبات ذلك العهد ؛ فقد يأمل فى علاج رئيسى لهذه الأمراض العُصابية .

هل نرجع بالتحليل إلى الطفولة الأولى ؟ ولكن هذا مستحيل من الناحية العملية إذا كان معناه أن على الفرد ــ بوَصفِه نتيجة لأى مقدار من تحليل الأحلام.. الخ ــ أن يتذكر أحداث السنوات الأولى القليلة من حياته « كاملة » أى نحو من الكمال . وبرغم قول فرويد : إن شيئاً قد كان موضعَ خبرة لا يُنسى قط نسياناً مطلقاً ، وأن

كل شىء سوف يعود إذا زالت العوائق زوالا كافياً ؛ فإن الجهود الجبارة لاتفلح فى إرجاع « شىء » أكثر من أشتات هذه الخبرة القديمة . ومهما يكن من أمر فقد يكون أن التذكر العقلى للأحداث القديمة ليس القصد الأساسى . فأما ما يُراد ؛ فقد يكون بالأحرى بَعث الناحية الانفعالية للطفولة الأولى ، اجعَل الفردَ مرة أخرى طفلا صغيراً — من حيث هو منفعل — فقد يكفى حتى مجرد التذكر الشتيت للأحداث الأولى فى إحياء رغبات الطفل وميوله ، تلك — كما أفهمها — هى فكرة فرويد الناضجة عما يرمى إليه بالتحليل .

فإذا أثار الشخصُ على هذا النحو ميله الانفعالى القديم — دون أية إثارة كاملة للحوادث والأشياء ، والأشخاص ؛ التى لعبَت دوراً فى قصة حياته — فقد فتح البابُ على مصراعَيه للتحول transference . فيجد الشخص موضوعاً حاضراً لانفعالاته المثارة ؛ وهذا الموضوع هو المحلِّل . وبقدر ما كان أبو الطفل على الأقل موضوعَ حبه — أو حبِّها . وكراهيته — أو كراهيتها ؛ بهذا القدر يصبح المحلل — كبديل الأب — موضوعَ الانفعال المتحوِل . وفى مراحلَ معينة من تقدم التحليل ؛ يُظهر الشخص حباً واندفاعاً مبالَغاً فيه نحو المحلِّل ، بينما فى مراحل أخرى قد يُظهر عدمَ اطمئنان ؛ بل كراهية . وكلا التحول الإيجابى والسلبى يُظهر نواحىَ الميل السابق نحو الأب . فما إن يَقترِبْ التحليلُ من غايته ؛ حتى يكون التحول الإيجابى كله إلى الماضى ، فلا يبقى للمريض إلا الاعتماد اعتماداً صبيانياً على المحلل ما لم تُتخَذ خطوةٌ أبعد ؛ تحدُث « نتيجةَ » إجهادِ المريض من تَحوله . وفى أثناء التحول تُنتزَع رغباتُ الطفل من اللاشعور وتُجرَّد من مُلابسَاتها الصبيانية . فإنه يجب ألا يُسمَح لها أن تظل مُستَعصيةً على المحلل ، بل يجب أن يعانَ المريضُ على أن يجد لها مَخرجاً فى اتفاق مع أحوال حياة مراهقته « كما » يجب على المحلل أخيراً أن يَنسحِب من المأساة ، ويترك المريض يستطيع أن يؤدى دوره وحده .

وهكذا انتهت صعوبَتا التحليل النفسى الكبيرتان إلى نجاحه بضربة عبقرية ممتازة لرجل لم يكن عالِماً نظرياً خِصباً فحسب ؛ بل على صلة وثيقة أيضاً بحقائق عمله ، فالتداعى الحر الذى أمكن أن ينتج قليلانسبياً فى استعادة حقيقية للأحداث القديمة ؛ قد انتُفع به فى الاسترجاع الانفعالى . والتحوُّل — الذى كان قد هدَّد بتحطيم العملية كلها — قد أصبح الوسيلةَ الأولى للنجاح . وفرويد نفسُه قد قدَّم

تخطيطاً موجزاً لتطور منهجه . فى إحدى كتاباته المتأخرة * هو يميز مراحل ثلاثاً فى تقدمه :

فى البدء كانت محاولات الطبيب المحلل وقفاً على قراءة لاشعور المريض الذى لم يكن حريصاً عليه ، وإحداث التأليف بين عناصره ووصلها فى الوقت المناسب ... ولما كان العمل العلاجى حتى الآن لم يتم ؛ فالهدف الثانى هو أن نحمل المريض على أن يقوم بالاستعادة عن طريق ذاكرته هو . وفى محاولته كان التشبث الأكبر إنما هو بمعوقات المريض ؛ والفن هنا يقوم فى الكشف عن هذه ما أمكن بتوجيه انتباه المريض إليها ؛ و... تعليمه أن يترك عوائقه . ومع هذا فقد أصبح أكثر وضوحاً أن الغرض المنشود — « أعنى » إخراج اللاشعور إلى الشعور — لم يمكن الوصول إليه تماماً بهذه الطريقة أيضاً . فالمريضَ لا يستطيع أن يستدعى كل ماهو دفين ؛ بل وحتى الجزءَ الرئيسى منه ... فهو بالأحرى مضطر إلى أن يدلى كخبرة جارية بما هو دفين ... وكقاعدة ؛ لايستطيع الطبيب أن يُعفى المريضَ من هذا النوع من العلاج ، بل يجب أن يدَعه يحيا فى جزء معين من حياته المَنسيَّة .

ومن هذا الوصف لطريقة المحلل النفسى القدير يبدو جلياً أن لا موضع فيها للهواية . فالمحلل يلزمه — كما يحتج فرويد* — سنتان على الأقل من الدراسة الواسعة والمران تحت الإشراف ؛ قبل أن يبدأ العمل لحسابه الخاص . والمدارس الطبية فى الوقت الحاضر لاتقوم بشىء يستحق التقدير فى هذا التمرين. هى تُعلِّم موضوعات كثيرة لافائدةَ فيها للمحلل النفسى فى عمله ، وتستبعِد موضوعات معينة : كالاتنولوجيا وتاريخ الحضارات ، والميثولوجيا ، وسيكولوجيا الأديان ، والأمثال الشعبية والأدب ؛ إلى جانب سيكولوجيا اللاشعور — أو سيكولوجيا الأعماق — البالغة الأهمية . فهى تُمرِّن طالبَ الطب لا على التحليل النفسى ؛ بل ضدّه ؛ وذلك بجعله يُكبِر العللَ الفيزيقية والخارجية فحسب للمرض . والمتخرج فى الطب الذى يُفترَض أنه قد تخصص فى المشاركة فى العلاج بالتحليل النفسي ؛ يوشك — على خطر — أن يكون مُحتالاً . وبالتالى ؛ وفيما يتعلق بالحاجة الماسّة إلى محللين

---

* ز . فرويد : ما وراء مبدأ اللذة Beyond the Pleasure Principle بونى وليفريت ١٩٢٢ ص ص ١٧ — ١٨

* ز فرويد The Problem of Lay Analysis برنتانو ، ١٩٢٧ ص ١٢٦ .

نفسيين مختصين ؛ يستطرد فرويد « قائلا » إن قَصر مزاولة التحليل النفسى على فن الطب ليس مما يمكن عملُه من الناحية الاقتصادية. فالخطوة الأولى للميران الواسع الذى للمُحلل هى أن يخلِّل هو ذاتَه؛ إذ الشخصُ وحدّه الذى قد تحرّر من رغباته المكبوتة هو الذى يستطيع أن يعالِج رغباتِ غيره ، وإلا فإن رغباته هو سوف تنمو أثناء التحليل ؛ وبدلا من أن يكون التحول بكليته من المريض إلى المحلل ، فإنه سوف يأخذ الاتجـــاهَ الآخرَ كذلك ؛ فيكون لدينا موقف شخصى لا غير شخصى - ويأمل فرويد أن يكشف التحليل النفسى عن قيمة كبيرة لأول تناولٍ لانحرافات الطفولة والشباب .

سيكولوچيا فرويد :

لقد كنا نتتبع حتى الآن تقدُّم التحليل النفسى كمنهج لعلاج الأمراض العُصابية وبوصفه مدرسة أو حركة ؛ وتركنا فى الأساس نظريات فرويد النفسية . وليس من السهل تماماً أن نقدم تقريراً عن حقائق فرويد من غير أن نخلط فيها النظريات؛ لأن الحقائق تُعرَض عادة فى ثوب نظريات .

وفرويد نفسُه قد قدم تقريراً مختصراً عن حقائقه الرئيسية* :

تحاول نظريةُ التحليل النفسى أن توضح خِبرَتين تنشآن بطريقة عجيبة وغير منتظرَة خلال محاولة إرجاع أعراض المرض عند المصاب بمرض عُصابى إلى أصلها فى تاريخ حياته ؛ وأعنى بهما حقيقتى التحول transference والتعويق أو المقاومة resistance .

فأما حقيقة التحوُّل فقد سبق عَرضُها بكفاية ؛ وإن كان يجب أن يُقال إن حقائقه فى الواقع هى الميول الانفعالية — الموجبة أو السالبة — نحو المحلِّل ؛ التى يكشف عنها المريض خلال مجرى التحليل . ف« تحول » هذه الميول من موضوعاتها الأصلية إلى المحلل فيه عنصر كبير من النظرية . وأما حقيقة المقاومة فهى حقيقة بالتحديد؛ بمعنى أن المريضَ يتجنَّب الصراحةَ التامة فى الإدلاء بخبراته إلى المحلل . فبعض الذكريات التى تظهر أثناء التحليل الحر هى « أتفه بكثير » من أن يذكرها ،

* ز . فرويد : تاريخ حركة التحليل النفسى — شركة النشر الأمراض العصابية والعقلية . ١٩١٧ ، ص ٩ .

وبعضها الآخر « أحرَى به » ألا يذكُره . إلا أن المقاومة تذهب فيما وراء هذه الرقابة الواعية censorship ، لأن الذِّكرَى التي تكون قد استُرجعَت تماماً وعرَفها المريض ؛ غالباً ما تتردد بطريقة مُريبة جداً . هو يدنو منها مرة أخرى ، ولكنه يَبْعد عنها لأنه لا يستطيع أن يسترجعها تماماً . إلا أنها عندما تبرُز أخيراً بوضوح واكتمال ؛ فقد كان يجب أن تكون حاضرة فى ذاكرة المريض طول الوقت . ولكى نستخلص أنها قد مُنعَت بمقاومة لاشعورية أولى منها بنواحي نقص فى الجهاز الارتباطى ؛ ففى هذا أيضاً عنصر نظرية . فسوف يُرَى إذن أن حقائق فرويد الأساسية أيضاً تختلط من قبلُ بالنظرية . فهى تفسيرات لحقائق سلوك المريض أثناء التحليل ؛ تفسيرات تلائم السلوك بوضوح — حتى أنها غالباً ما تُقحَم على المحلل — ومع هذا فيمكن أن تكون هذه التفسيرات خاطئة أو مطابقة فى جزء منها للحقائق فحسب .

وفى محيط النظرية ، وعلى مَقربة جداً من الحقائق أيضاً ، يضع فرويد الكَبت والغريزةَ الجنسية عند الطفل . فيكتُب * :

إن نظرية الكَبت هى العماد الرئيسى الذى يرتكز عليه صَرح التحليل النفسى . إنه حقاً الجزء الرئيسى منه ، وليس هو ذاته شيئاً آخر غير التعبير النظرى عن خبرة يمكن أن تُعاد بلذة عندما يحلل المرء مريضاً بمرض عُصابى دون استعانة بمخدر . والمرء هنا يواجه مقاومة تَعوق عملَ التحليل بإحداث خَيبة فى الذاكرة حتى تتعطل... مِثلُ هذا الحاصل تماماً ... (مستَخرج نظرى من عدة خبرات كثيرة) ... ولكن بعده بأيام كثيرة نظرية الطفولة الجنسية ... فقد لوحظ فقط أولاً أن نتيجة مرَّات الكَبت الحقيقية يجب أن يُرجَع بها إلى الماضى ... وما تزال الآثار تؤدى فى الطفولة والسنوات الأولى ... إلى إصابات جارحة traumas ... وسرعان ما تبع ذلك الاعتقاد بأن هذه الإصابات تعمل على إخفاء وجوه النشاط الشَّهوى auto-erotic فى سنوات الطفولة الأولى ... والآن فإن حياة الطفل الجنسية كلها قد ظهرت من خلف هذه الإصابات ... وبعد سنوات لاقت اكتشافاتى فى معظمها نجاحاً عن طريق الملاحظة المباشرة وتحليل الأطفال فى سنوات مبكرة جداً . .

والكَبت والطفولة الجنسية — وإن تحدّث عنهما هنا كنظريات أولى منهما حقائق—

---

* نفس المرجع : ص ص ٩ — ١١

فإن فرويد لاينظر إليهما على أنهما نظريّين فى شىء ؛ فهما يبدوان له نظريتين تؤكدهما جِدَّ التأكيد خبرةُ المحلل اليومية مع مرضاه ، وهما مفروضان عليه من الناحية العملية. وهما — على أى حال — تفسيران يَجِدُهما مُقنِعين إلى حد كبير ؛ سواء فى تفكيره هو وفى بَسط الأمور لمرضاه . فلو وضعنا النظريتين معاً : لأصَبنا بضربةٍ واحدة * حقائق سيكولوچيا فرويد الرئيسية : الطفليّة الجنسيّة المكبوتة * repressed infantile sexuality فنحن نرى مباشرة أن الكلمات الثلاث لم يمكن أن تقلل إلى اثنتين بحال وأن الصرح يقوم على أعمدة ثلاثة بدلا من اثنين . فأهمية الكبت ، وأهمية الرغبة الجنسية ، وأهمية مرحلة الطفولة ؛ هى الثلاثة الأشياء الرئيسية التى يؤكدها فرويد +.

وقد كان علينا أن نذكر بعناية ماكرَّره فرويد مِراراً من أن نظريته هذه لاتدَّعى أنها تشمل الحياةَ العقلية كلها ، وأنها — على عكس ذلك — تهدف خصوصاً إلى تفسير كل ما كان على النظريات الأخرى أن تتركه غامضاً . فنظريته نظرية أحلام وهفَوات lapses ، ولكنها خاصة بالأمراض العصابية . فالعصاب منشؤه الطفولة الجنسية المكبوتة ؛ تلك هى قضيته الرئيسية ؛ ومهما يكن من أمر فليست الطفولة الجنسية المكبوتة قاصرة على هؤلاء الأفراد الذين لديهم مرض عصابى فى فترة من حياتهم ، ولكنها توجد فى الجميع ، وهى عامل فى حياة الجميع .

فلو استطعنا أن نكتشف المناهج التى بها يحقق مفكر خِصب كفرويد آراءه ونظرياتِه لكانت قطعةً من علم النفس لها قيمتها . قد نستطيع أن نذهب قليلا فى هذا السبيل فحسب ، فنحن نلاحظ أنه عندما بدأ دراسته للمصابين بأمراض عُصابية قد كان لديه من قبلُ أساسٌ من العملِ العلمى عشرَ سنين . وقد كان منذ صباه طالباً نابهاً طموحاً ، مع ميل عقلى ؛ بل علمى . ومع هذا فلا أقول فيما يتعلق بكتاباته كلها إن مِزاجه هو بالضبط مِزاج الرجل العلمى ؛ فهو يبدو ملاحظاً seer أكثر منه باحثاً ، وكذلك أيضاً مخترعَ فروض خِصب أولى منه فاحصاً بطيئاً للفروض . ويبدو أنه قد تَبع حكمةً أخذها عن شاركو ؛ هى أن يُلقى بنفسه فى الحقائق — خصوصاً الحقائق المحيِّرة — على أمل أن يجىء الكشف . فإذا جاء الكشفُ فعلا — كما كان يحدث بوضوح مع فرويد غالباً — فإنه يجىء بقوة ويقين كبيرَين ؛ ويبدو له وكأنه أكثر من فرض لاختبار أبعد . فما تقرأ كتب فرويد حتى تَفجَأك كثرة

* أصبنا فى قشرة بندق have in a nutshell

+ سنقدم صفة الجنسية على الطفلية دائما

ما لو فكرت فيه لحظة لوجدته فروضاً. فأنت تجد فى صفحات معينة منها ما يكفى ليجعل طائفة من الباحثين فى شغل واختبار لها سنة « كاملة » . ولكن فرويد يمر مسرعاً ويعطيك كثيراً غيرها على الصفحة التالية إن له لا شك لعقلاً خصباً .

إن فرويد يبدو أنه يحب المغالطة . أو هو – على الأقل – يحاول بمهارة أن يفر من الميدان . فلديه مبادئ موجهة معينة تبعد بذهنه عن الوضوح . ومن بين هذه المبادئ الموجهة أن ما هو محظور لا بد أن يكون مرغوباً . فلو لم يرغب الناس فى أن يفعلوا شيئاً ؛ لما قامت الموانع ضد هذا الشيء فى قانون أو عادة . وما هو محظور أشد الحظر يجب أن يكون مرغوباً أقوى الرغبة . وما هو مفزع ومروع يجب أن يكون «فيه كذلك » أونس رغبة . فقتل المرء والده حقيقة مفزعة خصوصاً . والقوانين قد وضعت ضد هذا السلوك عقوبات أكثر صرامة ؛ وإذن فيجب أن يكون ثمة رغبة أعم وأقوى خصوصاً لارتكاب هذه الجريمة الخاصة . والتحريم فى العلاقات الجنسية بين الأقارب هو جريمة مفزعة جداً أيضاً ؛ فلماذا تبدو كذلك؟ يؤدى بفرويد مبدؤه الموجه إلى أن يفترض أن الفرد يجب أن يتجنب الرغبات البالغة القوة للتحريم الذى يشدد النكير عليه بالاتهام وتهديدات العقاب القوية من جانب المجتمع . فالرغبات الأولية المكبوتة يمكن بهذا أن تكشف وأن تتخذ بدءاً لسيكولوجيا الأعماق .

وفكرة موجهة أخرى هى أن ما يخشى ربما كان مرغوباً ؛ لأن الخوف هو قناع للرغبة . فتجنب الألم والضرر المباشر شيء عقلى كاف ؛ إلا أن المخاوف التى نجدها فى الحياة المدنية هى غالباً غريبة queer عندما تفكر فيها . ويصدق ذلك خصوصاً فى حالات المخاوف المرضية عند المصابين بأمراض عصابية . فبدلا من القول بأن هذه مخاوف شرطية – كما قد يقول السلوكى – يشك فرويد فيها كدعامة للرغبات المقبولة . وبهذه الطريقة فإن التحمس المتطرف لنفع شخص قد يخفى رغبة لاشعورية فى الإضرار به .

دعاوى فرويد الرئيسية : الدافع والعقد المستديمة :

ويبدو أن فروضاً رئيسية معينة من نوع مخالف هى التى تكمن وراء تفكير فرويد كله . فإنه وإن كان يتحدث هو نفسه عن الكبت وكأنه العمود الرئيسى للتحليل النفسى ، أو ؛ فى مواضع أخرى ؛ « أنه عمود » نظرية اللاشعور

(الناشئة عن الكبت) كأساس لسيكولوجيا الأعماق عنده إلا أن هذه الفروض تبدو مع ذلك أكثر جوهرية .

وأهم هذه الافتراضات هى أن كلّ سلوك له ما يدفع إليه . فإلى جانب الأفعال الإرادية التى تدفع إليها بوضوح الدوافعُ والرغبات ؛ فإن الحوادث التى تبدو لنا غير إرادية وعرضية بل وحتى غير متفقة مع ميولنا هى الأخرى تشبع رغبةً « فينا » . وتلك هى خصوصاً نظرته للأمراض العصابية. فإن مكدوجل * فى تلخيص قيّم له عن مدارس علم النفس المرضى يبيّن أن فرويد ؛ فى تمايُز عن سابقيه ؛ يقيم رأيه فى الأمراض العصابية على الدوافع . فإن سابقيه – وحتى معاصره چانيه – قد تحدثوا عن الأمراض العصابية وكأنها تعبير عن ضعف المريض . وتكلّم چانيه عن « التوتر العقلى المخفوض "low mental tension" وكأنه الضعف الرئيسى فى المريض ؛ ضعف اختبره المريض على أنه «شعورٌ بالنقص» feeling of inadequacy وعنه نشأ الخوف المرضى phobia والحصر النفسى obsession الجزئيان كنوع من تفسير المريض لضعفه هو. إلا أن فرويد قد فسر الأمراض العصابية من حيث هى ترجع إلى الرغبات وكبتها. فلم تكن أعراض المرض العصابى عنده مجردَ علامات ضعف ؛ بل كانت إشباعاً إيجابيا للرغبة . فإذا لم يرد المريض « هذه » المخاوف أو الشلل شعوريا ؛ فلا بد أن يريدهما بطريق لاشعورى . فكل نشاط كان إشباعاً لرغبة ؛ مباشرة أو بطريق ملتوٍ شيئاً ما .

قد يبدو من النادر إمكانُ أن يكون العمى أو الشلل – حتى ولو كانا هستيريّين أو وظيفيّين ، وليسا راجعين إلى إصابة عضوية فى المخ – مرغوباً فيهما ؛ أو أنهما يشبعان رغبةً فى المريض . وچانيه يصف هذه الحالات فى اتفاق مع فكرته العامة فى التوتر العقلى المخفوض على أنها شواهد على تحلّل أو « انقسام الشعور » . فإن العينين أو الساقين – وقد ارتبطا فى ذهن المريض بصدمة انفعالية ما ، لم يعد يقوى المريضُ على أن تتكامل مع مجرى وجوده الشخصى الرئيسى – تنفصلان وتختفيان عن رقابة المريض . أما تفسير فرويد فمختلف تماماً : فالعمى والشلل قد يكونان وسيلة للهروب من موقف عسير ؛ إذ المريض ليس أهلا للمسئوليات . إلا أن تفسير فرويد أقلُّ وضوحاً من هذا . فثمة – على سبيل المثال – شابة لديها شلل هستيرى فى الساقين ، ومنذ سنة أو سنتين قد كانت تمرّض أباها

* و . مكدوجل : تخطيط لعلم النفس المرضى (١٩٢٦) ص ص ١ – ٢٩ .

أثناء مرض طويل ؛ فكانت أمينة ومخلصة ، فتعودت أن ترفع أباها المُقعَد ؛ مستخدمةً ساقيها بكل ما يمكن ، وكانت حياتها فى ذلك الحين معقدة لأنها قد أحبت شاباً معيناً وكانت على أُهبة زواجه لولا هذا المرض « الذى لازم » أباها لسوء الحظ ؛ فلم تملِك إلا أن ترغب — رغم إخلاصها -- فى أن ينتهى هذا المرض على نحو أو آخر . ومثل هذه الرغبة — وإن كانت قوية لا تُقهَر تقريباً — قد ردَّها الخوفُ ، فهربت منها « الفتاة » عقلياً — أو بالأحرى كَبَتَها . بَيد أنها قد ظلت بقوتها فى اللاشعور ، ووجدت إشباعَها بطريقة عمياء فى الشلل . وفرويد يسمى هذه العملية « ارتداد » الرغبة إلى عرَض فيزيقى . وهو يتحدث عن الرغبة وكأنَّ لها شُحنة من الطاقة تبقى فى الكائن رَغم الكبت ، وتُضطر إلى أن تُشعِرَ بنفسِها بطريق ملتوية شيئاً ، مادام غيرَ مُتاحٍ لها التعبيرُ المباشر .

ولنتبعْ فرضَ الدوافع لفرويد فى ميادينَ أخرى ، فهو مشكلة كتابه سيكوباثولوچيا الحياة اليومية . فالباحثون السابقون قد صنّفوا زَلّات اللسان أو القلم على أنها أخطاء حذف أو إبدال أو تغيير فى الوضع .. إلخ ، وتحدثوا بصفة عامة عن أنواع من الترابط أو « التداعى » تنشأ عن « هذا » الخداع . ولكن فرويد يتساءل لم لا تحدث هذه السقطات دائماً إذن بدلا من « أن تحدث » فى مناسبات بعينها فحسب ؟ يبدو له أن سابقيه قد عالجوا السقطة وكأنها بصفة جوهرية عَرَض أو حدَث لا علة له . وهو يُصر على أنه حتى فى المحيط العقلى كلُّ حدَثٍ له علّة كافية . وهو يحلل أمثلة السقطات منفصلة ، فيجد — بما يُرضيه هو ويَعجَب له مريضُه — أن كل سَقطة إنما كانت إشباعَ رغبة .

وسأذكر شاهداً كان لفرويد نفسِه فيه سَقطة ذاكرة وجَد عناءً فى تحليلها . ففى بَدء عهده بالتحليل النفسى نسِىَ اسمَ مريضة معينة كانت فى رعايته ، ولم يستطع أن يتذكر الاسم مع كونه قد قام على علاج المريضة زمناً طويلا . ومثلُ فقدان الذاكرة هذا قد بدا عجيباً . وهنا فقد حدث أن هذه المريضة قد أخطأ فرويد تشخيصها ؛ فعالجها من مرض عُصابى حين كانت تعانى فى الحقيقة من قُرحة فى المعدة. وهذا النوع من الحالة هو الذى يُحبُّ الطبيبُ أن يَمحوه من ذاكرته. وفرويد قد انتهى إلى أنه قد محا الأسمَ وكل شيء . ومن هذه الأمثلة — مُفسَّرة بطريقته الخاصة — انتهى فرويد إلى فكرة النسيان المدفوع motivated forgetting. وهو — وإن لم يُغامِر بنِسبة النِسيان كله إلى هذه العلة — قد ذهب إلى شيء منها فى نظريَّة أن

لاشيءَ قد عُرِف مرةً يُنسَى بكُلِّه أو يُستَبعدُ من الجهاز ؛ وإن كان الكثير يمكن أن يكون مكبوتاً ،ويُصبِح من الناحية العملية لاسبيل إليه .

وفرويد يُظهر مهارة وجرأة أدبية فى تخيُّر عُنوانات كتُبه . فـ« تفسير الأحلام » — عنوان كتابه الأول الكبير —يُؤذِن أننا هنا بصدد كتاب أحلام الدكتور فرويد . وهو يتناول المُتعَة القديمة التى لم تخمُد بعد ؛ فى تفسير الأحلام . ومن قديم قد فُسِّر الحلمُ على أنَّ له دلالةَ تنبُؤ ؛ بينما فرويد يفسره بحسبانه إثارةً لماضى الفرد . وقد فسر علماء النفس السابقون الأحلامَ بأنها مجرد تقَاطُر غير منتظم لتداعٍ لارقابةَ عليه .فهُم لم يفسروا — على حد تفكير فرويد —لِمَ لَم يحلمْ الفردُ بشىء أولىَ من شىء آخر — لقد تركوا الكثيرَ للصدفة ، ونظروا إلى الحلم فيما بَقِى وكأنه مجردُ انسياق آلى للجهاز الارتباطى . إلا أن فرويد يأخذ نقطة بدئه من أن الاطفال يحلَمون غالباً بتَملُّك ما يريدون أن يكون لهم فى حياة اليقظة . وأذكر أنى نفسى قد تعودتُ أن أحلم بعثورى على براميل كاملة من « المطوات » jackknives وكم خاب أملى عندما كنت أستيقظ فأجد « المطوات » قد ذهبت ؛ وحتى حين أصبحتُ بالغاً ، قد حلمت أنى وجدت « بنسا » وبالتنقيب فيما حوله وجدت ربع ريال ، فريالا ، وأخيراً بعض نقود حقيقية . فلو أن أحد أتباع فرويد قد سمع بهذا الحلم ؛ لفسره بالتأكيد بالشك فىّ to my discredit . والحق أن أكثر أحلام البالغين ليست إشباعات رغبة واضحة ، ولكنها مثل إشباع الرغبة تماماً — كما يقول فرويد — لولا أن الرغبات المُتضمِّنة تشبه أن تكون مكبوتة فالرغبة يُعبَّر عنها رمزياً فحسب ، وتظهر فى الحلم . فالحلم الواضح هو إبراز لفكرة الحلم ورغباته الكامنة . والمضمون الكامن لا بد أنه مُفزع للفرد الواعى ، فإذا ما بدأ يظهر فى الشعور ؛ فإنه يُقاوَم ويُعاد مرة أخرى إلى اللاشعور . أما فى النوم فإنه يكون لدى المضمون الكامن فرصة أحسن بقليل ؛ إلا أنه ما يزال مراقَباً ، ويُسمَح له فحسب أنْ يَسرِّى عن نفسه فى خفاء — خفاء تام جدا — عادة .

وأحسَب أننا قد تتبَّعنا فرويد تتبُّعاً كافياً لأن نتأكد من فَرضه الأساسى : أن كل نشاط فهو مدفوع all activity is motivated. فالدافع هو من الناحية العملية عِلمُ النفس كله كما يراه هو . وكل ما فعله علماءُ النفس التجريبيون — بسَبيل اختبار آلية الحلم أو التفكير أو الذاكرة — يبدو له ذا أهمية يمكن إغفالها . إنه لايجد لِواحِدٍ منها فائدة ، فهى (هذه الدراسة) تسير من افتراض أن الأحداث العقلية

— كما يقول هو — تحدث بغير ما علل . ومثل هذا الاتهام طالما حيَّرنى من حيث أن علماءَ النفس التجريبيين كانوا يدرسون ، بصفة عامة ، العلةَ أو المعلول بحق . وأخيراً رأيتُ أن فرويد يَعنى بالعلَّة — فى ميدان علم النفس — الرغبةَ ليس إلا . فهو يرى أن العلة — فى علم النفس — يجب أن تكون علة نفسية . والعلة النفسية يجب أن تكون رغبة أو دافعاً . فالقول بآلية ارتباطية ، أو بآلية للمخ ، فيه إسقاط للمجال العلّية السيكولوجية ، وهو أحياناً ما يستخدم التعبير « فعل نفسى كامل full psychic act ». والحلم أو السقطة هو فعل نفسى كامل . فهو إذن كالفعل الإرادى فى جوهره ؛ أعنى أنه إشباع رغبة .

وأقول لك إذن إن افتراض فرويد للعلة النفسية الكلية ؛ افتراضه أن كل نشاط فهو مدفوع ؛ هو أكثر جوهرية فى سيكولوچياه من نظريته فى الكبت . وتتضح جوهريتها الأكثر عندما نتذكر كيف يصل هو إلى نظرية الكبت . فالكبت هو « التعبير النظرى عن حقيقة المقاومة » . وهذه الحقيقة ترتد إلى حقيقة أن المريض تحت التحليل يبتعد عن ذكريات معينة وكأنه يخافها . وقد فسر علماء النفس إخفاق التذكر بوصفه راجعاً إلى التدخل فى آلية التداعى ، ولكن فرويد لن يقول بواحد من هذه التفسيرات — فإخفاق التذكر لابد أن يكون له دافع ؛ يعنى المقاومة التى ترجع بدورها إلى كبتٍ سابق .

والافتراض الرئيسى الآخر الذى أَجدُ فى فرويد هو أن العلل والرغبات يجب أن يُبحَث عنها فى الماضى ؛ وأن السقطة أو الحلم لا يشبع رغبة الساعة ، بل رغبة فى الماضى ؛ وأن المرض العُصابى أصلُه إنما هو فى الماضى . وقد رأينا كيف أن فرويد — بسلوك هذا السبيل — قد ارتدَّ من الماضى القريب إلى أُولى سنوات الطفولة ، وقد تقول إن كل شخص يَفترض بالضرورة أن الحاضر يُفسِّره الماضى . ولكننى سأبين بإيجاز أن كلا من يونج وأدلر يختلف مع فرويد فى هذه النقطة عَينِها . فافتراض فرويد عن الماضى أنه مسئول عن الحاضر يتجاوز الزعم بأن ما قد حدث يترك وراءه آثاراً . وهو يعنى شيئاً أكثر دِقةً من هذا ، هو يعنى أو يبدو على التحقيق أنه يَفترض من البديهى أن المواقف الخاصة إذا خُبِرَت مرة ؛ فإنها تبقى فى الفرد ، وتظهر من حين لآخر ؛ كمضمون خفى للأحلام أو بطرق أخرى . وبالأَجلَى هو يَعنى أن الرغبات الخاصة إذا نَشِطت مرة ، فإنها تظل باقية فى الفرد .

ولننظر فى هذا الشأن مسألة التحول . فالحقيقة هنا هى المَيلُ الانفعالى الموجَّب

أو السالب للمريض نحو المحلل . أما فى ذهن فرويد ؛ فهذه « حقيقة التحول » . فالحقيقة كما يرى هو أن رغبات قديمة ؛ تاريخها منذ الطفولة ؛ قد بقيت ، وكونت موضوعاً جديداً فى شخص المحلّل — الذى هو بَديل الأب . فلنفرض الآن أنناً نفسّر ميلَ الشخص الانفعالى نحو المحلل من دون أن نفترض بقاء هذه المواقف والرغبات من الطفولة إلى حياة البلوغ . فى هذه الحالة ، يمكن أن نقول إن الموقف الحالى العاجز والقاصر للشخص هو أشبه بموقفه كطفل ، وأن موضع المحلل فى هذا الموقف يشبه أن يكون موقفَ الأب فى موقف الطفل ، وأن التداعى الحر — بإثارة بعض ذكريات الطفولة — قد أحيا فى الشخص بعضَ انفعاله الطفلى . وإذن فيمكن أن ننتهى إلى أن موقف الشخص وحالته — لما كانا يشبهان موقفَه وحالتَه حين كان طفلا — فإنه يستجيب للمُحلل كما كان قد تعود حينئذ أن يستجيب لأبيه . ولن يكون ذلك تحوُّلا بمعنى فرويد ، فليس ثمة تحوُّل رغبة بعينها من شىء لآخر . وقد يكون تفسير فرويد أحسن . ولكن النقطة هى أنه تفسير وأنه يقوم على افتراض أن رغبات الماضى تستمر هى هى بعينها ، وأن الأشياء الجديدة التى تَجدُها من حين لآخرَ هى مجرد أبدال تتحول إليها الرغبات . فما أتركه لحكمك إذن ؛ هو أولا : أن التحول ليس إحدى حقائق فرويد الأساسية ؛ بل أحد عُمُد نظريته ، وثانياً أن عموده « هذا » قد أُقيمَ على افتراض ثبات المواقف والرغبات الخاصة .

افتراض فرويد للثنائية أو القطبية الفطرية فى الفرد :

تحدثنا عن الثلاث الكلمات : « الطِّفليّة الجِنسّية المَكبوتة » وكأنها تُجسّم العُمُدَ الثلاثة لسيكولوچيا فرويد ، ووجدنا أن افتراض الدافع الكلى يدعم عَمود « الكبت » ، وافتراض الرغبات أو العقد الثابته يدعم عمود « الطفولة » ؛ فهل ندعن لهذا الإغراء ونفتش عن شىء يكون أساساً لعمود « الجنسية » ؟ ربما كان ذلك إسرافاً فى التعلق بمذهب أو نظام . ولكن ثمة اقتراحاً بافتراض أساسى فى عرض الحياة الجنسية كما يراها فرويد . فهو ينظر إلى « مَصّ الأصبع » بحُسبانه لوناً من ألوان التصريف الجنسى ؛ وكذلك طريقة الطفل فى عَض الأشياء وإدخالها فى فمه ، وكذلك الدّلك أو الاحتكاك بالغير ، أو الضرب ، أو الربّت ؛ وحركات الذراعين والساقين الإيقاعية التى يبدو أنها تُحدث لذة طفلية ، والتبرز والتبول ، والنظر إلى الأشياء وإبرازها ، وتمزيق الأشياء إرْباً والقذف بها ؛ وبالجملة أى نشاط يحدث

للطفل لذة حسية ونفسية . وفى مستوى أعلى يضع تحت التصريف الجنسى كلّ سلوك وصداقة وُدّيّن ، وكذلك حُبَّ الفن والموسيقى . فأىُّ شيء نقول — بصفة عامة — إننا نُحبه أو نحبُّ أن نفعلَه ؛ واقعٌ تحت الدافع الجنسى . قد تقول : حسناً ؛ ذلك هو مجرد استعماله للكلمات ، فهو يستخدم كلمة جنسية بوصفها مرادفاً للحب بمعناه الأوسع . إلا أننا يجب أن نلاحظ — من ناحية أخرى — أن فرويد يعترض بقوة على أية محاولة لتجريد الشهوة أو الغريزة عنده من الجنسية . وهو يصر على أن الود أو المحبة affection جنسية خالصة ، وأن مَص الطفل إصبعَه متأصل ؛ وإن كان لذة جنسية أولية .وهو يؤكد أن تصوّره للجنسية دقيق بقدر ما هو واسع . ويبدو أنه لايجد هنا أىَّ تناقض . فما يؤخذ على أنه واضح وبَيِّن بنفسه هكذا يمكن جيداً أن يُغطِّى فرضاً خفياً .

ومن الممكن تماماً أن يكون هذا الفَرض الخفى هو فرض ازدواج أو قُطبية فى الحياة العقلية. فى كثير من نظرياته يَنجَذِب فرويد نحو تقسيم ثنائى . وأكثر أزواجه his dichotomy شيوعاً هو زوج الشعور واللاشعور ، والحق أنه يتحدث أيضاً عن ما قبل الشعور preconscious ، ولكن « ما قبل الشعور » يتصل عن كَثب بالشعور. فهو ما يمكن تَهيئَته لِأن يكون شعوراً ؛ وإن لم يكن بالفعل شعوراً فى أية لحظة معينة . وليس ما قبل الشعور نقطةَ مُنتصَف الطريق فى مقياس دائم يمتد من الشعور الأكثر إلى الشعور الأقل ، أو من أكثر إلى أقل ما يمكن أن يُوصَل إليه فى استرجاع الشعور . فاللاشعور هو ما قد كُبِت ، وما قبل الشعور لم يُكبَت شأنه شأنُ ما هو الآن شعور. فأَخْذُ ما قبل الشعور على أنه مجرد مرحلة وسطى بين الشعور الأكثر واللاشعور الأكثر معناه قَلب فكرة فرويد بأسرها عن اللاشعور. فما يرى هنا هو استقطاب polarity وليس استمراراً continuum .

ولكن ما علاقة القطبية بفكرة فرويد الواسعة الدقيقة العجيبة عن الجنسية ؟ يبدو لى أن من الممكن جداً أن فرويد — عندما واجه سلوكَ الطفل وشعوَره بفرضه الأساسى فى القطبية — كان خَط التقسيم الذى صدمه هو خط بين ما يُفعَل تلقائياً وبلَذة مباشرة « من ناحية » وبين ما يُفعَل ضرورةً وكوسيلة لِغاية ، من الناحية الأخرى . وكل ما كان يُفعَل بلذة قد تبيَّن له فى جملته ؛ فى جملته الحقيقية ، وليس كمجرد تَصنيفٍ مُرضٍ . فالشعور والنشاط الجنسيان للبالغ — إذ يبدو أنهما أوضح وأكمل مظهر للمَيل إلى الحب واللذة — هما الاسم الصحيح « لهذا » الميل كله .

فمصُّ الطفل إصبعه إذن ليس مجرد أنه يُشبه النشاط الجنسى بمعنىً غامض وسطحى ؛ بل هو نشاط جنسى حقيقى من نوع غير ناضج . ومن الجَلىّ أنه يخالف فروضَ فرويد الأساسية تماماً أن نتصور السلوكَ الإنسانى وكأنه كَثرةٌ مختلطة من أنواع من النشاط مختلفة ، أو كأنه استمرار فى درجات نشاط واحد .

وقد يقوم الاعتراضُ على أن فرويد لم يُقدّم أولاً اسماً أو تعريفاً للقطب المقابل للجنس. فى كتابه الأول — وإن تكلَّم كثيرًا عن الكَبت والمقاومة والرقابة والصِّراع والمهادنة ؛ وكل منها تشمل قوةَ معارضةٍ تكبِت الشهوة — فإنه وجَّه قليلا من العناية لهذه القوة المقابلة. وقد تكلَّم أحياناً عن الأنا أو عن المَيل إلى الأنا ego-tendency ؛ فصرَّح فجأة أنه يَعرف عنه القليل . وكان على يَقين من أن القليل هو الذى يُمكن أن يعلَم عنه حتى يأتى الوقت الذى يمكن فيه للتحليل النفسى أن يُحلل ويعالج اضطراباتِ الأنا . وهذه الاضطرابات — فيما حسِب — إنما توجد بوفرة فى الجُنون insanity ، إلا أن المرضى بالجنون قد أثبتوا حتى حينئذٍ أنهم ليسوا موضوعاتٍ صالحةً للتحليل ؛ فكان على الأنا إذن أن يظل — مُؤقتاً — أكثرَ بقليل من مُجردِ اسمٍ للمَيل المقابل للشهوة .

وأياً ما كان الأمر ؛ فقد تكلم عن قُطبية مبدأ اللذة ومَبدأ الحقيقة . فالإنسان يتبع بالفطرة مبدأَ اللذة . وهو يَنشُد اللذةَ المباشرة والتصريف المباشرَ الصحيح لرغباته . إلا أنه يجد نفسَه فى مجابهة حقائقِ الطبيعة الخارجية وبيئته الاجتماعية ؛ التى تعترض رغباتِه بشدة . فيتعود أن يتجنَّب اللَّذاتِ التى تأتى بآلام أكثر ، وأن يؤجل تصريفَ الرغبات فى سبيل تصريفٍ أكملَ وأبعد . فهو فى أحلامه اليومية وفى اللاشعور يتبعَ مبدأ اللذة ، ولكنَّ حياته الواعية المنظمة خاضعة لمبدأ الحقيقة . وهذه الثنائية هى أولا بين الفرد والبيئة المحيطة ، إلا أن الفرد يَنقُل فى نفسه شيئاً من البيئة كما هى ؛ وبذا يكون له فى داخله قوة أو عامل لتعويق دافع اللذة. إلا أن مبدأ الحقيقة — لوجوده فى داخل الفرد — هو فى خدمة الشهوة أولَى منه حَاثّاً أولياً مضاداً primal counter urge . وبالتالى فهو لم يصادِف تماماً حاجةَ فرويد إلى قطبية رئيسية فى الفرد .

وحينئذ فإن قُطبية الأنا واللّبيدو لم تكن تقومُ بنفسها جيداً . فقد وُجد أشخاصٌ كانوا فى حب مع أنفسهم ، وهذا الشذود للحياة الجنسية قد سُمِّىَ النركسية narcissism نسبة إلى الشاب الخرافى نركيسوس Narcissus الذى وقع فى حُب صورتهِ فى الغَدير بل لقد بَدا أن ثمة نركسية أولية فى الطفل الصغير ، تَحدُث قبل أن يستطيع بوضوح

أن يَعرف الأشخاصَ والأشياء الخارجية كموضوعات لِحُبه ومصدر لِلذّاته . وعلى أى حال فإن الطفل عندما يَصدُّه أحدُ موضوعات حبه ؛ فإنه يميل إلى أن يرتد على نفسه ويُوثّق بين لذته والأنا الخاص به ، فإذا أمكن بهذا أن يكون الأنا موضوعَ حب ؛ فإنه يجب أن يتعلق فى جزء منه بمحيط الشهوة . وغرائز المحافظة على الذات — مفهومةً أولا على أنها فى مقابل الشهوة — يجب أخيراً أن توضَع إلى جانبها ؛ ما داما يحاولان الإبقاء على موضوع الحب هذا الهام . قد يحتوى الأنا ميولا أخرى لا توضع إلى جانب الشهوة ، إلا أن من الواضح أنه لا يمكن أن يُعَدّ بعد كائنا أو مَيلا متماسكا فى مقابل الشهوة .

وبتوسيعه على هذا النحو — بإدخال غرائز المحافظة على الذات — فإن الشهوة أو الدافع الجنسى قد سُمىّ أيضاً إيروس Eros أو دافع الحياة . وتبقى مسألة ما إذا كان يشمل الآن كلّ الدوافع أياً كانت ، أو ما إذا كان يمكن أن تُكتشَف قُطبيةٌ بينه وبين شىء آخر غيره . وقد أدّت حقائقُ غامضة أخرى غير هذه بفرويد أن يُصادِر على « غريزة الموت » باعتبارها القطبَ المقابل . ومن أمثلة هذه الحقيقة المَيل إلى الانتحار الموجود فى بعض الأشخاص . وأخرى « حقيقة » تحمل اسمَ « الصّادية sadism » ترجع فى أصلها إلى الشذوذ الجنسى الذى يقوم فى رَبط الفعل الجنسى باضطهاد الشخص المحبوب . وقد توسعت الكلمة على يد فرويد لتشمل كل مظاهر القسوة والهدم (التحطيم) . ثم تأثر فرويد أكثر بنغمة الكون والفساد فى كل الكائنات والأنسجة الحية ؛ ماعدا — فى الواقع — خلايا الجراثيم « الباقية بالقوة » potentially immortal التى تتعلق — مع هذا — بالإيروس . وعلاوة على هذا فإن فرويد — كقائل بالدوافع — لم يستطع أن يرى حقيقة أن الموت هو نهاية الحياة بمعنى أن الموت هدف لِحَاثٍ فى داخل الفرد . وإطالة الراحة أو النرفانا كانت تعبيراً عن غريزة الموت . والتحطيم والقسوة هما نفس الغريزة مُوجَّهةً نحو أشخاص أو أشياء أخرى .

وهكذا — بعد تَجوال طويل ، وبمعونة ما يُعرف أنه تفكير نظرى — انتهى فرويد أخيراً إلى قطبية مُرضية وجوهرية . وهو لا يقصد أن هذه القطبية النهائية سوف تُستبدل بكل القطبيات الأقل التى استخدمها فى تفسير الشواهد المحسوسة من السلوك الإنسانى . فتعارُض الأنا واللذة مايزال قائماً فى مجاله الخاص .

وجُمَل متفرقة قليلة من كتُب فرويد الأخيرة يمكن أن تؤيد وتوضح ما أحاول أن أُخبِرك به :

« وفى هذه النقطة تسنح فرصة إعادة النظر فى التقدم التدريجى لنظريتنا فى اللبيدو ، فإن تحليل أمراض التحول العصابية قد فرض علينا أن نلاحظ — فى المقام الأول — التعارض بين « الغرائز الجنسية » التى توجه نحو موضوع ما ؛ وغرائز أخرى تبيناها تبيناً ناقصاً ، ووصفناها مؤقتاً بأنها « غرائز الأنا ». ومن بين هذه الأخيرة ادعت هذه « الغرائز » التى تعين على بقاء الذات فى الفرد أنها أول ما عرف ...

« وفى مجرى تقدم أكثر تحرراً تبين — بملاحظة التحليل النفسى — كيف يرتد اللبيدو بنظام عن الموضوع ويتجه إلى الأنا. فقد أخذ الأنا مكانه كأحد الموضوعات الجنسية ، وعرف مباشرةً بأنه الأفضل من بينها ... ومن هنا أصبح التعارض الأصلى بين غرائز الأنا والغرائز الجنسية غير كافٍ ؛ فإن جزءا من غرائز الأنا قد عرف على أنه لبيدى (شهوى) .

« ونحن نغامر بالخطوة الأبعد فى معرفة الغريزة الجنسية على أنها الشهوة (الإيروس) التى يقوم عليها كل شيء ... وموقفنا كان موقفاً مثنوياً منذ البدء ، وهو اليوم أكثر حدة منه فيما قبل — مادمنا لم نعد نسمى بعد كل هذه الميول المتعارضة غرائز ذاتية وجنسية ، بل غرائز حياة وغرائز موت✡ .

« وفى كتابات سنواتى الأخيرة ... قد أسلمت عنانى إلى الميل إلى الفكر النظرى الذى احتفظت به طويلا ... وقد ربطت غرائز المحافظة على البقاء وغرائز المحافظة على النوع تحت فكرة اللبيدو ، وجعلت فى مقابلها غريزةً للموت أو الفساد تعمل فى صمت ... والصورة التى تقدمها لنا الحياة هى نتيجة عمل الشهوة eros وغريزة الموت معاً وضد بعضهما البعض + .

« وأبعد فأبعد نجد بتعقب الدوافع الغريزية أنها تظهر نفسها وكأنها مشتقات من الشهوة. فإذا لم تكن ... بسبب المكونات السادية التى ألصقت نفسها بالشهوة ؛ فسوف نجد صعوبة فى أن نبقى على وجهة نظرنا الثنائية الرئيسية . ولكن مادمنا لانستطيع الخلاص من وجهة النظر هذه ؛ فإننا مضطرون إلى أن ننتهى إلى أن غرائز الموت هى بطبيعتها صامتة ، وأن صخب الحياة ينشأ فى معظمه من الشهوة ومن الصراع ضد الشهوة × » .

✡ ز . فرويد : ما وراء مبدأ اللذة (١٩٢٠) ص ص ٦٤ — ٦٧ .

+ ز . فرويد: The Problem of Lay Analysis (١٩٢٧) ص ص ٢٩٠ — ٢٩١

× ز . فرويد : الأنا والهو The Ego and the Id مطبعة هوجارث (١٩٢٧) ص ٦٦ .

آراء فرويد الأولى وآراؤه الأخيرة فى اللاشعور .

وبمثل هذه الطريقة اضطر فرويد إلى مراجعة قطبية الشعور واللاشعور . وقد بدا بوضوح أول الأمر أن الأنا هو الشعور ؛ وأن الجانب الشعورى من الحياة هو الذى يَكبِت الرغبات التى لا يقبلها الأنا ويجعلها لاشعوراً بالمقاومة . إلا أنه وجد أن المرضى الذين يجرى عليهم التحليل غيرُ شاعرين بمقاوماتهم هم . فمن الناحيةِ الشعورية ؛ لم يكونوا يقاومون فى شىء التذكرَ الحر لخبراتهم الماضية ، فكانت المقاومة إذن لاشعورية ، وكان الكَبت الأصلى من غير شك كذلك . وعلى هذا فإن الأنا — فى قيامِه بالكَبت والمقاومة — كان يَعملُ بطريقة لا شعورية . والأنا إذن هو فى جزء منه شعور ، وفى جُزءٍ لا شعور . ففى الجانب الشعورى ؛ هو على صلة بالبيئة التى يُدركها بالحواس ، ويتناولها باستخدام العضلات . فألَم الشعور ولذّته تُبيِّنانِ أنه هو أيضاً على صلة بداخل الكائن العضوى والنفس ؛ مع أن هذا الداخل هو لاشعورى إلى حد كبير. والداخل اللاشعورى للنفس يتكون ديناميكيا من الغرائز ومن رغبات وخبرات مُضطربة قد كَبتناها . والتعارض هنا هو بين ما يمكن أن نسميه ظاهرَ النفس فى صِلَته بالبيئة ؛ وبين الداخل الذى لاصلة له مباشرةً بالبيئة . وهذا الداخل يسميه فرويد الآن « هو » it أو Id . والأنا هو فى صلة بالبيئة ، إلا أنه قد نشأ عن الهُو ويظل متصلا به هناك ؛ أعنى طالما كان الأنا لاشعوريًا. ويشمل الهُو القوى الغريزية الدافعة فى وجود الفرد ، « أى » كلا غرائز الحياة وغرائز الموت التى تأخذ صورة رغبات جزئية فى صراعها مع البيئة ؛ وبهذا تؤثر فى الحياة الشعورية . وعندما تُكبَت هذه الرغبات الجزئية بواسطة الأنا ؛ فإنها ترتد إلى الهو ، « فيحاول الأنا أن يتوسط بين العالَم والهُو لكى يجعل الهو فى اتفاق مع رغبات العالَم ، وأن يكيف العالَم عن طريق النشاط العضلى برغبات الهو+ » . ويجاهد الأنا مجاهدة عمياء فى سبيل الإشباع وفقاً لمبدأ اللذة ؛ إلا أن عليه أن يعمل خلال الأنا الذى قد عَرَف مبدأَ الحقيقة . والأنا يكون أولا ضعيفاً وناشئاً نُشوءاً بسيطاً فقط ، وبالتالى فهو يقابل صعوبات كثيرة فى تنفيذ إرادات الهو . فهو يسعى وراء أشياء كثيرة تُنكرها البيئة . فعندما يكون على الأنا أن يتخلى عن موضوع حب ؛ فهو يحتفظ بصورة لهذا الشىء ، وهو يُقرِّب الصورةَ من

+ ز . فرويد : الأنا والهو — ١٩٣٧ ص ٨٣ .

قلبه مُوحداً بين نفسه وبين الشيء . وهكذا ينمو الأنا باصطناع خاصة الأشياء التى كان عليه أن يَطرِحّها . فإذا تقدم الأنا بنجاح ؛ أصبح مُتوافقاً ومنظماً ومتكيفاً مع بيئته ، ويظل الهو بدائياً وغير منظم .

ومأساة الهو والأنا هذه تنعقد بشخص ثالث هو الأنا العُلوى super-ego أو الأنا المِثَالى ego-ideal . ويرتبط الأنا العلوى ارتباطاً أولياً بما نسميه عادةً الضمير . والمحلل النفسى مُضطَر إلى إضافة هذا العامل إلى المأساة « مدفوعاً »بأقصى معانى الجريمة التى يُظهرها كثيرٌ من مرضاه أثناء التحليل . وللأنا العلوى تصورات وموانع — « يجب أن » و« يجب ألاّ »فهو يحاول أن يفرضَها على الأنا. وليست هذه تصورات نافعة مأخوذة من حقائق البيئة ، بل أوامر قَطعية مأخوذة من العالم الداخلى ؛ من الهو ومناقضاته الداخلية ؛ بينما الأنا يجب أن يكون مفروضاً فيه أن ينمو إلى حد ما فى كل الحيوانات عن طريق صراعها مع البيئة . والأنا العلوى خاص بالإنسان ، وينشأ نتيجةً لهذا — عن طفولته الطويلة وعن التأخُّر الذى يجب أن تمر به شَهوتُه libido قبل أن يستطيع الوصول إلى غرَضِه المُعيَّن فى حياة البلوغ الجنسى . ومن المفروض أن يكون الأنا العلوى قد وُجدت أُصولُه فى الإنسان البدائى ، وأن أصوله القديمةَ قد انتقلت إلى كل فرد بالوراثة . إلا أن الأنا العلوى ينشأ من جديد — فى الأغلب — فى كل طفل . هو ينشأ عن الدافع الجنسى المكبوت فى الطفل الصغير . والجنسية فى الطفل هى — عند فرويد — جنسية حقيقية إلى حد أنها تتطلب موضوعَ حُب من الجنس الآخِر خصوصاً ، وهى تجِد موضوعَ الحُب هذا فى أحد الأبوَين . ومن هنا تنشأ « عقدة أوديپوس œdipus complex » ، وهى أشهر أفكار فرويد . ويلزم أن تُفهَم قبل أن نُوغلَ فى توضيح أصل الأنا الأعلى .

فأوديپوس — البطل الأصم فى الأساطير اليونانية ؛ كما ستذكرون — قد نبذه أبوه ملك طِيبَة بشوكة فى قدميه ؛ لأن الوحى قد تنبأ أن هذا الطفل سوف يقتل أباه ويتزوج من أمه . فأنقذه وتبنّاه ملكٌ من ملوك الدول المجاورة . فنشأ حتى الرجولة فى جهل بأبُوّته الحقيقية وبحَظّه المقدّر له . وفى ذات مرة عندما كان يزور الوحى علم أنه سوف يقتل أباه ويتزوج من أمه . ولكى يتجنب هذه المصيبة ظل بعيداً عن بيت مُتبَنِّيهِ . ولكنه التقى فى جَولاته بأبيه الحقيقى ، فتشاجر معه وقتله . واستمر فى طريقه ، فوصل طيبة حيث حَل مشكلة الإنسان الغامض Sphinx فحرر طيبة من محنة طويلة ، ونُودِيَ به مَلكاً ، وأُعطِى الملكةَ الأرملَ ليتزوج بها. وبعد سنوات

— بعد أن وُلِد لهذا الزوج الآثم البرئ أربعةُ أطفال — تكشّفت له الحقيقة . وقضى أوديبوس المسكين — فى يأس — على عينيه ، وعاش بعد ذلك فى شقاء متصل .

ومن هذه الأسطورة أخذ فرويد مجرد الفكرة فحسب. فإن أوديبوس — عن غير قصد منه — قد قتل أباه وتزوّج من أُمه ؛ مرتكباً جريمتى قتل الأب والزنى بالأم معاً — اللذين هما لشدة هولهما يجب أن يكونا مرغوباً فيهما من الجميع . ونظر فرويد إلى الأُسطورة على أنها تُمثل عُقدة يَحمِلها كلُّ إنسان ، تنشأ فى حُب الولد لأمه والحقد على أبيه فى حب أمه . فشهوة الطفل الذكر التى تلصِق نفسَها بالأم تجد ما يُقوّيها لحظةً ، ولكن بالفِطام أو بإمكان مَولد طفل آخر ، أو بالعقاب والتهذيب ، فإن دور حُبه الحقيقى الأول لا يصبح مُيَسّرا تماماً . وفى هذه الأثناء يكون الطفل قد ارتبط بأبيه أيضاً كأنموذج أو مثل أعلى له يُقلّده فى كل شىء . فهو قد وحّد بين نفسِه وأبيه. إلا أنه يكشِف ، لسوء حَظه ؛ أنه لا يستطيع أو لا يَجِب أن يفعل كما يفعل أبوه ، ولا يستطيع ولا يجب خصوصاً أن يُحبَّ أُمه كما يُحبّها أبوه. فهو يجد فى أبيه منافِساً دَخيلا ، ويُريده ألا يكون فى طريقه نهائياً. فيُصبح مَثله المعبودَ أيضاً مُنافِسه المكروه كما أنكره مَوضوعُ حُبه المختار. فيضطرم صراعٌ خطير فى نفسه ، ويَصل غايتَه — كما يرى فرويد — حَول السنة الرابعة أو الخامسة ؛ عندما تكون شهوة الطفل قد أصبحت مُركّزة فى أعضاء التناسل بعد أن تمر بدور الإشباع الفَمىّ والأستى . وهو الآن يُواجه معارضةً حادة من كِلا أبويه تحول دون تقدّم أبعد فى حياة حُبه ؛ فكل المحاولات المتعلقة بالشهوة يُقابلها تهديداتٌ وحشية قليلا أو كثيراً للفرد المخطئ . فلم يعد له شىء إلا أن يَذعن ويَكبت . وهذا العمل الجرىء إنما يفعله باتخاذ مَثله الأعلى فى نفسه . فهو يَحمل تشخّصه بأبيه إلى حَد أن يجعل فى شخصه كِلا الفكرة الإيجابية « إنك ستكون مِثلَ والدك » ، والنواهى « يجب ألا تَقتُل أباك أو تطمع فى زوجته » ؛ وهذه القوانين التى يَتخذها الولد هى محورُ الأنا الأعلى له .

تلك هى عقدة أوديبوس البسيطة وطريقة كَبتها . إلا أن المأساةَ عادةً تتعقد بازدواج الجنسية فى الطفل ولداً كان أو بنتاً . فشهوة الولد قد تذهب إلى الأب كما إلى الأم ، وتكون الأم — إلى حدما — المثال المكتشَف أخيراً ليكون منافساً ، والمتّخذ فى النهاية بالتقَمُّص فى الذات ، والمُعطَى دَوراً يؤديه فى الأنا الأعلى . وربما كان تَقَمص الولد لأمّه أكثر ؛ حتى ليأخذ خُلقه طابَعاً نسائياً . ونفس المأساة بكل تعقيداتها تقوم بأبدال مناسبة عند الفتاة ؛ وإن كانت قابلة لأن

تكون أقل تعقيداً وأسى . وبالتغلب الموفق على عقدة أوديپوس — فى حوالى السنة الخامسة — يتوقف نمو الطفل الجنسى حتى المراهقة . وكون الطفل سيواجه بنجاح رغباتِ الحب الناضج وظروفه ؛ فذلك يعتمد إلى حد كبير على تكيفه فى طفولته بنجاح مع موقف أوديپوس .

ولئن كانت قصة أوديپوس عند الطفل تبدو خرافية كالأسطورة اليونانية القديمة ؛ فإنه يمكن أن نعدّها صورة أو تخطيطاً لمصاعب الفرد فى الحياة . وهى لا يمكن أن تُلاحَظ مباشرة فى الطفل ، وإن كان السلوك الذى يمكن أن يوضع فى هذا التخطيط ملحوظا . ولفكرة أوديپوس عند المحلل النفسى قيمة عملية ؛ لأن قبول هذه الفكرة — فى أغلب ما أظن — تساعد المريضَ بمرض عُصابى على التغلب على المقاومات وعلى أن ينظر إلى نواحى صراعه نظرة هادئة . فإذا كان الصراع يمكن أن يُقدَّم على أنه صراع يرجع إلى الطفولة ؛ فإن المريض يمكن أن يقترب منه أكثر موضوعية ، ويعترف فرويد نفسُه فى كُتبه الأخيرة أن الصورة الحقيقية أكثرُ غموضاً مما يُصوِّرها التخطيط . فهو يكتب * :

لدى المرء فكرة أن عقدة أوديپوس البسيطة هى أعَمُّ صورها ؛ إلا أنها بالأحرى تُقدِّم تبسيطاً أو تخطيطاً يكفى بحَق غالباً للأغراض العمليّة ... فليس للولد مجرد اتجاه تكافؤ الضد ambivalent نحو أبيه وموضوع علاقه عاطفية affectionate object-relation نحو أمه ؛ إلا أنه فى نفس الوقت يسلك أيضاً كفتاة ، ويتخذ ميلا نسوياً عاطفياً نحو أبيه ؛ وبالتالى عداوة وحقداً نحو أمه . وهذا العنصر المعقد الذى يأتى به ازدواجُ الناحية الجنسية هو الذى يجعل من الصعب أن نحصل على فكرة واضحة عن الحقائق ، ... بل إن من الممكن أن هذا التكافؤ ambivalence القائم فى العلاقات مع الأبوين ينبغى أن يُعزَى بأسره إلى الثنائية فى الجنس bisex ، وأنه ليس ... ينشأ عن تقَمُّص identification هو نتيجة للتنافس rivalry .

والآن فإذا كان تنافس الولد مع أبيه يمكن أن نُسقِطه من القصة ، فإن وضوحها الدِّرامى يزول . ولو أن « ازدواج الجنس » قد فُهم على أساس من فكرة « واسعة » كهذه للجنس ؛ فإنه يصير إلى استجابة عاطفية لأشخاص من كلا

* ز. فرويد : الأنا والهو (١٩٢٧) ص ص ٤٢ — ٤٣ .

الجنسين . وميل الطفل التكافؤى ambivalent (إيجابياً كان أو سلبياً ؛ بالحب أو بالكره) نحو كلا أبويه يمكن إذن أن يكون نتيجة أن الطفل يُعامَل لا برفق « دائماً » ؛ بل كذلك بشدة أحياناً . وقوى الهو العمياء سوف لا يلزم أن ندخلها . والقصة كلها — بينما تبدو صحيحة — قلما تدخل فى سيكولوجيا الأعماق

تلخيص وتقدير :

الدافع الكلى ، وثبات الرغبات الخاصة ، والثنائية أو القطبية ؛ تلك هى الفروض الخفية التى لمحناها فى استعراض الخطوط الواسعة لسيكولوجيا فرويد . ولو أنك سمحت لى بالتعبير عن الفرض الثانى فى ألفاظ أكثر تعميماً ؛ فإنه يمكننا أن نتكلم عن الرغبات الخاصة وكأنها كائنات ، ونذكر أنفسنا فى نفس الوقت بالكائنات الأخرى العديدة التى تلعب دوراً فى سيكولوجيا فرويد . فالهو ، والأنا ، والأنا الأعلى ، والشهوة eros ، وغريزة الموت ؛ هى كائنات اصطلح عليها نهائياً . وخلال هذه توجد كائنات كالليبيدو والرقيب . فالرغبة الخاصة المكبوتة والتى مع هذا وبرغم تحولها إلى شىء « آخر » جديد تظل هى هى بعينها ، لها خاصة الكائن . وعندما يفترض فرويد أن كل سلوك فهو مدفوع أو محقق لرغبة ؛ فهو يفترض أيضاً أن الدافع ينشأ من كائنات فى داخل الفرد ؛ كائنات ترغب ولها غايات ، وقوى راغبة . وإذن فبينما يمكن تلخيص بناء مذهبه السيكولوجى فى الكلمات « الطفولة الجنسية المكبوته » ؛ فإنه يمكن أن نقترح أساساً : « الكائنات الراغبة المستقطبة polarized wishful entities » .

وإذا كنا قد أنصفنا سيكولوجيا فرويد بتركيز انتباهنا — كما رأيت — فى المسالك العليا لنظريته بما هى عليه من جاذبية ؛ فإنه تبقى مسألة : فمن الممكن حقاً أن فرويد الأبلغ دلالة هو فرويد فى صلة أدنى بالوقائع ؛ فرويد الذى بثباته فى دراسة الحياة الجنسية قد فعل كل ذلك لكى يفتح باباً للنظر العقلى إلى المشاكل الشخصية ؛ فرويد الذى اصطنعت مناهج تحليله بصورة معدلة كثيراً أو قليلا عيادات إرشاد الطفل والمكاتب الأخرى التى تحاول أن تهيئ التكيف الحسن بالحياة وأن تستأصل الأمراض العصبية . ف « آليات فرويد العقلية » أو « آليات الدفاع defense mechanisms » *

* انظر هيلى W. Healy وبرونر A.F. Bronner وباورز A.M. Bowers : تركيب التحليل النفسى ومعناه The Structure and Meaning of Psychoanalysis عند Judge Baker Foundation ١٩٣٠ ص ١٩٢ .

أو كما تسمى بالأحرى « دِينامِيَّات » dynamisms حيث أنه لا يوجد فيها شيء آلى (ميكانيكى) — هى أفكار مفيدة فى علم نفس الشخصية . فإخفاء الرغبة بالخوف هو « ديناميكية » ، و «ديناميكا » أخرى هى وضع الرغبة التى هى غير مقبولة فى صورة عقلية . وربما كان أحسن ما عرف هو « الإعلاء » والعثور على مخرج اجتماعى مقبول للرغبة التى لا يمكن أن يتهيأ لها تعبير مباشر . والحق أنه كيف ومتى وإلى أى حد يمكن أن يتم الإعلاء يظل « موضع » تساؤل . ولكن « هنا » كما فى أمثلة أخرى ؛ تفيد أفكار فرويد — أقلّ ما تفيد — فى الإشارة إلى حقائق معينة ؛ منظوراً إليها من أعلى عادةً ؛ وفى إثارة ملاحظة أبعد . وقد حاول التحليلُ النفسى ، كالسلوكية بل أكثرَ من السلوكية ، أن يمتد بتأثيره فى ميدان المشاكل الاجتماعية ، واتخذ صورة الحركة الاجتماعية ؛ بل ما يُشبه العقيدةَ الدينية .

إلا أنه — لكى نُقدّر كل أهمية فرويد فى التقدم العلمى والطبى لوقتنا الحاضر — يجب أن نذكر أن جُلَّ مجهوداته الخطيرة قد كانت مُوَجهة على طول الخط لفهم الأمراض العُصابية وعلاجها . وأفترض أن من المُتفق عليه أن ما أتى به فى هذا — فى ميدانه المختار — قد كان قوياً وراسخاً ، لقد أحدث ثورةً فى الموضوع بإظهار أن المرض العُصابى لا يَرجع بصفةٍ أساسية إلى صَدمةٍ انفعالية أو إصابة من خارج ، بل إلى محاولات المريض السيئة أن يصل إلى شيء من التوفيق بين رغباته هو وظروف حياته ، وأكثر من هذا أن المريضَ العُصابى يجب أن يستبدل بنفسه بتكيفه هذا الهزيل تكيُّفاً أحسن ؛ بينما يُعين الطبيب عن طريق الوسيلة ذات الشكل الغريب فى مُعظمها — التى يتخذها العُصاب تحت تأثير الطبيب — وأعنى بها عُصاب التحول . ففرويد لا يسمح لنا أن نَظن بالفرد أنه خاضع كالعجينة putty « لنواحى الضغط من البيئةِ المحيطة » ، أو على أنه « مَشروط » لأى موقف اجتماعى بِتأهُّب كامل . فمطالب المجتمع تَعوق المطالبَ المضادة التى للفرد ، ومن هنا ينشأ التعارض والحاجة إلى التكيف وصعوبته . فبِقَدر ما تظهر تكيفاتٌ خاطئة ذاتُ خطر أكبر أو أقل فى كل منا ، وبقَدر ما يمكن أن يكون ما اكتشفه فرويد خاصاً بالأمراض العُصابية الأكثر خطراً صالِحاً للتكيفات الخاطئة الأخف أيضاً ؛ فإن ما ساهم به فى سيكولوچيا الشخصية واضح أنه عظيم جداً .

ولو بحثتَ عن رأيى الشخصى فى سيكولوچيا فرويد ؛ لَكان علىَّ أن أقول

إننى لا أومن بأن يكون مذهبه صحيحا بأى معنى مطلق، ولا أنه يوضع فى مصاف النظريات العلمية الكبرى التى تربط المعرفة الراهنة ، وتقوم دليلاً إلى كشف أبعد ، فإنها بكائناتها وثنائيتها تبدو متخلفة أكثر منها ناظرة إلى الأمام . أما نظريات فرويد الأكثر تحديداً فتقوم على أساس مغاير ، وهى تبشر بإثارة البحث ؛ وإن كان من الممكن — بطبيعة الحال — أن يؤدى إلى اطراحها هذا البحث الذى تثيره . فعظمة فرويد الحقيقية يبدو أنها لا تقوم فى الصيغ التى ألقى فيها بتفكيره . ولا فى التفكير نفسه أو فى جدة تناوله ؛ وإنما تقوم بالأحرى فى تأثيره كرائد لا فى نتائجه التى انتهى أخيراً إليها .

تعديلات التحليل النفسى : علم النفس الفردى لألفرد أدلر :

كان ذلك حول سنة ١٩١٢ ؛ نحو عشر سنوات بعد أن بدأ التحليل النفسى يطوف بالعالم ويجتذب الأتباع ؛ حين ظهرت الصدوع فى داخل الجماعة التى تجمعت حول فرويد . قد يكون من الكثير جداً أن نتوقع من هؤلاء الشبان النشطين — مهما كان تحمسهم للمكتشفات الجريئة التى جاء بها فرويد — أن يظلوا حيث وضعهم هو . فإن ڤلهلم اشتيكل Wilhem Stekel وفريتس ڤتلز Fritz Wittels العضوين البارزين بجماعة فرويد فى ڤينا — قد خرجا منها بسبب ما يبدو أن يكون خلافات جزئية فى المنهج أو النظريات ، كما انفصل أدلر ويونج — أو فصلا — عن فرويد ؛ لأنهما كانا يعلمان سيكولوچيا أخرى مغايرة لسيكولوچياه .

فألفرد أدلر فى ڤينا (ولد سنة ١٨٧٠) [٩] قد انضم منذ حداثته إلى دائرة فرويد، وربما كان له أثر كبير على أفكار فرويد الأولى فى الأنا . إلا أنه منذ ١٩١٢ ظهر جلياً أن تشبثه بالأنا — فى مقابل اللبيدو — لن يؤهله للتبعية الوثيقة لفرويد . وبهذا أنشأ هو مدرسة مناهضة أسماها « علم النفس الفردى » . ويبدو أن أدلر قد اقتنع منذ البدء أن فرويد يؤكد الجنس أكثر مما ينبغى . ومع أن أدلر يعرف شيوع مشاكل الجنس فى الأمراض العصابية ؛ فإنه ظن أنه رأى شيئاً أكثر جوهرية .

لقد بدا له أن الحقيقة الرئيسية فى الأمراض العصابية إنما هى الشعور بالنقص (الدونية) inferiority . قد يكون ثمة نقص حقيقى من نوع جسمى ، إلا أنه يوجد على أى حال الشعور بالنقص . ومثل هذا الشعور لا يمكن أن يقاسيه أحد ، لسبب بسيط : هو أن لكل فرد إرادة قوة ، ونزوعاً إلى السيطرة والعلو ، فإذا رأى

أحد فى نفسه شيئاً من دُونِّية أو نقص ؛ فإنه يندفع لِيموت أو لِيجعلَ نفسَه أعلى بأية طريقة ، أو ليدَّعى — على الأقل — لنفسه ولغيره أنه أعلى . وقد يستطيع بحق أن يعوض عن نقصه بجهد مُجِدّ مُحكَم التوجيه ؛ على نحو ما تَغلب ديموستِنيس على لكنته بالكلام على شاطئ البحر والأحجارُ فى فَمِه ، حتى صار أعظم خطباء اليونان ؛ أو كما تغلب روزفلت على ارتخائه الطبيعي بحياة المراعى وأصبح « شبه فارس » ومغامراً . وغالباً ما يَبدأ التعويض من نُقطة النقص ؛ كما يستطيع الولد الضعيف العضلات أن يَجِد أنه يُمكنه أن يرتفع نَجمُه فى المدرسة ويَلقى فيها نجاحاً ؛ وكم من رجل يجعلنا نَجاحُه فى الحياة نَظنُّ به الفخر وتمام الاعتداد بالنفس نرتد عنه حين نخبُره عن كثب — إلى أنه يعانى أحساساً قوية بالنقص لم يتغلّب عليها كلها . وبالجملة إذن ؛ فإن أدلر يعتبر أن دافع تقرير الذات — بدلا من الدافع الجنسي — هو القوة الإيجابية المُسيطرة فى الحياة ، وأنه الدافعُ الأكثر تعرُّضاً لأن تعوقَه البيئةُ وحساسية الفرد الخاصة ؛ وهو بهذا مصدر الفعل من ناحية ، وسوء التدبير والتكيف من ناحية أخرى .

فحيث رأى فرويد أن الأنا فى توافُق تام مع مبدأ الواقع ، قال أدلر إنه يميل خصوصاً إلى تزييف الواقع ، فخيالات الفرد لاتتكون عنده فى أساسها من إشباعات خيالية للشهوة ؛ بل هى ببساطة — لأنها خيالية — وسائل للهُروب من الشعور بالنقص. والفرد الضعيف من المحتمل أن يخترع « ترتيبات » لنفسه ، وأن يصطنع « أسلوباً للحياة » ونموذجاً للسلوك ليُمكِنَه أن يتجنب حاجاتِ البيئة ، وأن يُحرِزَ نجاحاً فى تقديره لنفسه . ومثلُ هذا الفرد المريض الأعصاب يَضع لنفسِه « هدفاً خيالياً » لم يَقصِد به إلى غرَض حقيقى . وكما يقول أدلر * :

إن مشكلة كل مرض عصبي هى — لدى كل مريض — صعوبة اتخاذ أسلوب للفعل والتفكير والإدراك يَقلِب حاجات الواقع ويُنكرها ... فكما أثبت عمل علماء النفس الفردى مراراً ؛ هدفُ التعالى الفردى هو العامل المحدِّد فى كل مرض عصبي . إلا أن الهدف ذاتَه ينشأ دائماً من ... خِبرات النقص الحقيقية.« فلو لم أكن بهذا القدر من القلق ، ولو لم أكن بهذا القدر من المرض ؛ إذن لاستطعتُ أن أفعل

* آ. أدلر : مبادئ العصاب Principles of Neurosis — الناشر Cosmopolitan Book Corp ١٩٣٠ ص ص ٢١ ، ٤٦ ، ٤٧ .

كما يفعل الآخرون . ولو لم تكن حياتى حافِلةً بالمَصاعب الخطيرة ؛ لكُنتُ فى الطليعَة » . وبهذا الاتجاه ما يزال الشخص قادراً على أن يشعر بالعلوّ... فكل ما يَشغَله فى الحياة هو البحث عن المصاعب ... وهو يفعل ذلك ليؤثر فى نفسه أولًى من الغير . إلا أنه من الطبيعى أن الآخرين يعملون لأعبائه حساباً و ... هو يشق طريقه إلى حياة أرقى ؛ يحكمها معيار أخف مما للغير . وفى نفس الوقت هو يدفع تكاليفه بمرضه العصابى .

وأسلوب الحياة يصطنعه الطفل فى سنواته القليلة الأولى ، ويظل ثابتاً فى خطوطه الرئيسية . فلكل فرد إذن هدف من نوع خاص يميل نحوه فى كل موقف جديد ؛ وخصوصاً عندما يواجه مشكلات الحياة الكبرى الثلاث : مشكلة حياة الاجتماع والمجتمع ، ومشكلة المهنة ، ومشكلة الحب . فأسلوب الحياة ليس مفروضاً على الفرد بالوراثة ، بل يُحدِّده إلى حد كبيرٍ مركزُ الأسرة التى يجد الطفل نفسَه فيها . وعلى هذا فإن أطفالَ الناجحين جداً من الرجال يُعطِّلهم فقدانُ الأمل فى بلوغ أى شىء يَبلغ ما وصل إليه آباؤهم ؛ ويُحتَمل أن يصطنعوا أُسلوباً من الحياة لا يَستدعى مجهودات جِدية ، والطفل لأبوَين فقيرَين جداً — ولكن مَظهره جذَاب — ربما اتخذ مَيلا إلى التسول يَظَلّ بَعدُ فى كل نوع من مواقفه ، والطفل المُدلَّل يتخذ هدفاً له أن يكون مركزَ الانتباه ، والطفل المنبوذ له هدفُ الهروب إلى مسافة آمنة ، والطفل الأكبر يميل إلى حفظ ما يملك ؛ أى يتخذ مَيلا إلى المحافظة ، والطفل الثانى هو منذ البداية فى الخلف من السباق ؛ وهو يُنمِّى ميلَه إلى محاولة التغلب — ويمكن أن يكون هذا الاتجاه أيضاً للطفل الأصغر وإن كان هو بالأحرى يُحتمل أن يُنمِّى ميلَ الطفل المُدلَّل ، والطفل الوحيد الذى لم يلق قط تنافساً ؛ يَفترض أن الغَير سيَخدُمونه وأنه سيَحكُم . ولا يعنى أدلر أن مجرد الوضع فى ترتيب الميلاد يُحدد أسلوبَ الطفل فى الحياة ؛ ولكن الطفل يُولَد خاصةً فى موقف مُعين ، وبالتالى فإذا كان الأكبر أو أصغر ، واتجاهه فى الحياة ، وما يتوقعه من الحياة ... يُحتَمل أن يُشكِّلها منذ البداية موقفُ التنافس التى تَجِد نفسَها فيه . وبهذا فإن أدلر يؤكد « تأكيداً » لا يقل عن فرويد ولكن بطريقة مغايرة جداً — مركزَ الأسرة من حيث هو يُكوِّن الفرد .

ولا ينكر أدلر أهمية الدافعِ الجنسى ، إلا أنه يَعتقد أنْ لَيس له هذه الأهمية الشاملة فى حياة الطفل التى عَلقها فرويد عليه . هو يَجد مَكانَه فى تخطيط أو أسلوب

كلى للحياة يتركب فى الأصل من دافع حاضر أبداً نحو التعالى ، أو على الأقل ضد الدونية . وتحليل حياة الفرد ومشاكله الذى يُركِّز كلَّ شيء حول دافع الجنس يُعطى صورة مقلوبة . « فالمقومات الجنسية لا يمكن أن نُقدِّرها حقَّ قَدرها إلا فى علاقتها بأسلوب الفرد فى الحياة ... ونستطيع أن نَحظى بالنفوذ إلى حياة الشهوة بكل مُنحَرفاتها وحَيرتها وحِدّتها الخفية ؛ بقدر ما نستطيع أن نقف على أسلوب الفرد فحسب . » *

ومن بين المشاكل الكبرى الثلاث فى الحياة ، الحياة الجَمعية ، والمهنة ، والحبُّ — المشكلة الاجتماعية هى التى يواجهها الطفل أولا ، وتكيفه الاجتماعى « بها » كطفل هو النموذج الأول prototype لتناول المشكلتين الأخريين عندما تظهران ، فإذا كان ميل الطفل الاجتماعى ميلا إلى الشجاعة والائتناس بالآخرين ، متفائلا فى أخذِه وفى إعطائِه ؛ فإنه يمكن بعد أن يَرقى بالدافع الجنسى إلى هذا الأسلوب من الحياة وينجح فى الحب والزواج . أما إذا كان مَيل الطفلِ الاجتماعى ميلا إلى محاولة تَتوق إلى سَبق أقرانه ؛ فإن الجنسَ سوف يُستخدَم فيما بعدُ وسيلةً لهذا الغرض عَينه .

وفى دراسة الفرد المريض وتحليله ؛ يكون العمَل الرئيسى هو الكشفُ عن « أسلوب حياته » ، والهدف الغَريب للتعالى الذى نَصَّب نفسَه له طِفلاً ، وما يزال يتبَعه فى صورة أو أخرى . ومركز الفرد فى أسرته يُعطى الأثر العام . فما يُحبُّ وما يكره ، و « أبطاله » من التاريخ والخرافة ، وما يختاره أولا ومن بَعدُ مهنةً فى حياته ؛ كل هذه تُعطِى أثراً . وطريقته فى الوقوف ، والمشى ، والجلوس ؛ ربما أظهرت مُيولا جوهرية . ومثل ذلك طريقته فى المصافحة ، بل والوضع الذى يتخذه أثناء النوم . « فعندما نرى شخصاً ينام على ظهره ؛ متمدداً كجندى فى الانتباه ؛ كان ذلك دليلا على أنه يُريد أن يَبدو عظيما بقدر ما يستطيع . والذى يرقد منحنياً كالقنفذ (أو الدالج hedgehog) والمُلاءَة ملتفةٌ على رأسه ؛ ليس من المحتمل أن يكون مناضلا أو متصفاً بشجاعة ... والشخص الذى ينام على مَعِدته (بَطنه) يكشف عن العناد والسلبية + » فأسلوب الحياة يظهر فى كل موضع ، وإن كان المرء قد يتصور أن مثل هذه المماثلات اليسيرة ربما تؤدى بالمحلل غالباً إلى الشطط . « فعالم النفس الفردى » فى المعمل لاشك أنه يُقيم نتائجَه على نظرة شاملة لألوان كثيرة من السلوك . وعلى هذا فكون الطفل هو الأكبر ليس فى ذاته حقيقة خادعة . « فكل أسرة هى حالة فى

* أ. أدلر : مشاكل العصاب — ١٩٣٠ — ص ٩٣ .

+ أ. أدلر : نفس المرجع — ص ٢١٥

ذاتها ... وليس ثمة فى مجموعة الأسرة وضعٌ يكون ملائماً فى كل الظروف ، أو وضع ... يجب أن يأتى ظهوره بتطور غير ملائم لا بد منه »☆ .

وتحليل الأحلام يستخدمه أدلر غالباً بنفس طريقة فرويد، إلا أنه لا يعتبر أن الحلم فى جوهره تحقيقُ رغبات قديمة. وهو يعتقد أنه يتصل بالمستقبل أولى منه بالماضى . هو نوع من إعادة فعل هام سوف يحدث سريعاً فى الواقع . وأهميته عند عالم النفس هى فى أنه يكشف عن أسلوب الفرد فى الحياة كما يُطبقه فى الموقف الحرج القريب . فالرجل المتردد — على وشك الزواج — يحلم بإيقافه عند الحدود بين دولتين وتهديده بالسّجن . والحلم يُعالج مسائل لم تُحلّ بعد فى الحياة الواعية ، ويَنجذب بالضرورة إلى اتجاه الفرد الرئيسى نحو هذه المسائل ؛ والاتجاه الذى اتخذ فى الطفولة وظلّ صفةً ثابتة فردية .

والفرد المريض يُعالَج بالتأدّى به برفق إلى أن يرى مُركّب نقصه وطريقه الثابت لبلوغ التعالى ؛ حتى يَرى بجلاء ماذا يحاول أن يفعل ، وما يخشاه ويتجنّبه . فبينما أسلوب الفرد الرئيسى فى الحياة لا يمكن أن يتغير بعد الطفولة الأولى ؛ فإنه يمكن أن يُوجَّه إلى صُور عملية واجتماعية أكثر .

فسيكولوجيا أدلر — إذا نَظرنا إليها كمذهب أو نظرية — منسجمة بالتحقيق . ويبدو أن من البساطة جداً أن نُسميها سيكولوجيا الأعماق . فاللاشعور يلعب دوراً صغيراً نسبياً ، وليس منظوراً إليه على أنه ينفصل عن الحياة الواعية . ويُصبح بهذا أسلوبُ الحياة شيئاً مع الفرد بطبيعة الحال ، ولهذا قلما يُفهَم ؛ حتى لَرُبّما سميناه لا شعوراً إلا أنه يصير شعوراً بنسبة ما يُفهَم . وحقيقتا فرويد الأوليّتان ، المقاومة والتحول ؛ يُواجهُهما أيضاً أدلر ومدرستُه فى علاجهم للمصابين بأمراض عُصابية ، ولكنهما تُفسَّران على نحو لا فرويدى . والمقاومة تُرى — لا بوَصفها مُمانَعة لا شعورية لظهور رغبات مكبوتة قديمة — بل كدفاع ضد العلاج ذاته : المريض يَخشى أن يُشفى ، لأنه إذا شُفى سيقوم بأعمال ربما فَشل فيها ! ومثلُ ذلك التحول : فإذا وقع المريض فى حُب مع الطبيب ، فليس ذلك حباً حقيقياً ؛ بل مجرد وسيلة للتفوق عليه : وبوجه عام ؛ فالشعور واللاشعور ليسا كائنَين منفصلَين أو شِطرين متصارعين فى الفرد ، ولكنهما يرتبطان معاً بما لهما من رغبات وميول بعينها . ومُركّب النقص اللاشعورى

☆ فكسبرج E. Wexberg : علم النفس الفردى — ترجمة وولف W.B W.olfe ، ١٩٢٩ Cosmopolitan Book Corp. ص ١٩٩

والشعور الباحثان عن القوة يُكوِّنان وحدةً ديناميكية . فلسنا فى حاجة إلى « كائنات متحاربة » نفترضها — على حد تعبير أدلر .

وإذا ذكرنا العبارة التى صُغنا فيها ما ظننّا الوقوف عليه من فُروض فرويد الثلاثة الرئيسية : « الكائنات الراغبة المستقطِبة » ؛ فإنا نرى أن أدلر قد رفض اثنين من الثلاثة ، فهو يتقدم بغير كائنات ، وبدون أى استقطاب نهائى . هو ما يزال من القائلين بالدوافع ؛ وفى هذا يُشبه فرويد ؛ وَيأخذ كل الأخذ بمبدأ « العِلية الفيزيقية » . والعلل الفيزيقية التى يكتشفها مختلفة عن علل فرويد ، ولكن الشعور بالنقص والهدف إلى التعالى هما بالتحقيق فكرتان سيكولوچيتان أولى منهما فيزيولوچيتين . وفرويد وأدلر — فى إصرارهما على أن الطفولة هى مرحلة التكوين — متفقان ؛ رغم اختلافهما حول هذا الذى يَحدُث فى الطفولة بهذه الأهمية فى الحياة التالية ..

ومهما تكن سيكولوچيا أدلر صحيحة وكافية ؛ فقد تكون أو لا تكون بمعنى نهائى . هى تَصوغ بالتأكيد حقائقَ كثيرة تقريباً ؛ مما يمكن تطبيقُه مباشرة على الحياة . وقد نقول إن أفكاره أيسَر من أفكار فرويد ، وأسهل فى الفهم ، وأدنى إلى التطبيق . وقد أثبت لونُ أدلر من الدراسة قيمتَه خصوصاً فى مساعدة الأطفال على ضبط مشاكلهم ؛ حتى إنه قد ظفِر من قبلُ بمكانةٍ ذاتِ شأن فى مَيدان التربية .

« علم النفس التحليلى » ليونج :

تعرّف ك . ج . يونج[١٢] فى زيورخ (ولد سنة ١٨٧٥) بفرويد شخصياً ؛ بعد سنوات عدة من الدراسة والعمَل فى التحليل النفسى . وفى سنوات قليلة ارتبط الرجلان ارتباطاً وثيقاً ؛ فى المؤتمرات وعن طريق المراسلة . وقدّر فرويد إلى حد كبير هذا الشاب القدير الذى تَبِعَه ؛ حتى جعلَه رئيساً للهيئة الدولية للتحليل النفسى التى أُنشِئَت حديثاً ؛ ظناً منه — وعن خطأ من غير شك — أن استقبال العامة والعلم للحركة الجديدة قد يكون أنسب إذا ظَلَّ هو نفسُه من خلفها . إلا أنه سرعان ما اتضح أن يونج يرى أن أفكار فرويد قَيِّمة وثَورية فى الحقيقة ؛ ولكنها مُتَحيزة وغير ناضجة بعضَ الشىء . وتقدم هو ليبسُط نظرية أكثر كَمَالاً يُسمِّيها « علم النفس التحليلى » .

وتعلقت تعديلاتُ يونج بالأمراض العُصابية وبالشهوة . أما فيما يتصل بالأولى ؛ فإن فرويد ، يتتبَّعه نشأةَ العُصاب فى الشباب ، راجعاً إلى عقدة أوديبوس فى الطفل

قد بيّن السببَ المهيّء predisposing cause ولكنه أقام قليلَ وزنٍ للسبب المباشر exciting cause. والفردُ يمكن أن يَحمل معَه فى داخله عُقَداً سيئة مُتخلّفة عن تكيفات بائسة فى طفولته ، ومع هذا لا يقع فريسة للعصاب حتى يواجه مشكلة عسيرة فى الحياة . والسبب المباشر « المثير » للعُصاب هو موقفٌ ما يتطلب من الفرد تكيفاً جديداً . فهو يحاول أن يواجه هذا الموقفَ الجديد ؛ ولكن ليس لديه قوة كافية ؛ فيُخفِق فى هذا التناسق الجديد ، فينزلق أو يرتد إلى عاداته الأولى فى مواجهة المواقف الحرجة ؛ يرتد إلى الخط الذى اتخذه طفلا فى تنسيق نفسه ومركز الأسرة . قد يكون تنسيقه الطفلى هزيلا ، والرجوع إليه لا يفيده شيئاً — فهو كطفل ربما كان يحتمى بأخيلَته — والآن فهو يرتد إلى هذا النوع الخيالى فى حل مشكلته ؛ وهذا الارتداد يَبعُد به عن مُشكلته الحقيقية وحَلها . فإذا تصادف أن حُلّت المشكلة الراهنة نفسُها ؛ فإن سلوكه الطفلى يختفى مباشرة . ومن هنا فإن مشكلة التكيف القائمة هى السبب الحقيقى للعصاب :

لنأخُذ العقبَة التى فى مجرى الحياة ؛ فإن هذا البناء كله من الأخيلة الصبيانية ينهار مرة واحدة ، ويصبح أيضاً غيرَ فاعل أو مؤثر كما كان من قبل . ولكن لا ننسى أنه فى عمله — إلى حد ما — يؤثر فينا دائماً وفى كل مكان ... من أجل هذا لا أجد بعدُ سببَ العصاب فى الماضى ، بل فى الحاضر . وأنا أسأل : ما هو العمل الضرورى الذى لن يقوم به المريض* ؟

وفى علاج الأمراض العُصابية ؛ يتبع يونج ما اصطلح عليه فرويد من التداعى الحر وتحليل الأحلام . فهو يبدأ عادة بدراسة مشكلة المريض الراهنة ، ويحاول أن يكشف عن عناصر الضّعف فى هجومه عليها . وأحلامُ المريض هو يُفسرها — لا على أنها مُجرد إظهار لرغبات جنسية قديمة مَكبوتة ؛ كما فى عقدة أوديبوس — بل على أنها تُبيّن اتجاهَ اللاشعور فى المريض نحو مشكلته الراهنة . وبالتحليل يصبح المريض شاعراً بهجومه الأول على المشكلة ؛ وبهذا يتمكن من إكمال اللاشعور بالشعور . وهكذا يهيئ التحليل للمريض فَهم حالته القائمة ؛ كما يهيئ له «فَهم» ماضى طفولته ،

* ك . ج . يونج : أوراق مجموعة عن علم النفس التحليلى Collected Papers on Analytical Psychol. ترجمها لونج C.E. Long وبريير Brilliere وتندل Tindell وكوكس Cox الطبعة الثانية ١٩٢٠ ص ٢٣٢ والورقة الخاصه التى أخذ منها هذا الاقتباس يرجع تاريخها إلى ١٩١٣.

ويُحيي فيه شخصيةً متكاملة أحسن . وقد اعترض فرويد على هذا الميل الأخلاقى فى عمل يونج .

أما الشهوة (اللّبيدو) فإن يونج قد أعطاها معنًى أوسع حتى من فرويد. ولكنه بهذا العمل قد أنكر أنها جنسية بشكل واضح . لقد حاول أن يجعلها أشملَ للشهوة من فرويد ، ونُشدان التعالي وإرادة القوة من أدلر . ويونج الموفّق المتوحد قد نظر إلى الشهوة الأولى على أنها حَادثٌ عام؛ تعادل إرادةَ الحياة عند شوپنهور ، أو الدَّفعة الحيَوية élan vital عند برجسون . فهى الطاقة الحيوية الكلية الباحثة عن هَدف النمو ، وكذلك النشاط والتناسل . فى الطفل تَجد مُنصَرفاً لها فى نواحى النشاط الغذائية . ولذةُ الطفل بالحصول على الغذاء تنشأ من الشهوة ، ولكنها لا تُسمَّى بأى معنًى لذةً جنسية ؛ ما دام الدافع الجنسى لم يَتمايز بنفسِه بعدُ من الدافع الأولى للحياة . وقد عبر يونج عن نفسِه بقوة كافية من حيث فكرة فرويد عن الجنسية فى الطفولة* :

إن التحليل الفرويدى الدقيق ... هو دائماً تحليل جنسى يقوم على القطع بأن العلاقة بين الأم والطفل هى بالضرورة جنسية . وسوف يؤكد لك أى فرويدى – بطبيعة الحال – أنه لا يعنى جنسية غير مُهذَّبة ؛ بل « جنسية نَفسية » psycho-sexuality وهو تَوسُّع غير عِلمى ، ولا يمكن تحقيقه منطقياً ... ومَيل الطفل الارتدادى يمكن أن يُصوَّر « بالعبارة » : ميل مُحَرم نحو الأم incestuous craving for the mother مجازيا فحسب ... وكذلك أيضاً فى الكلمة «عقدة أوديپوس» : فهى مُجرد مَجاز... وكلمة « محرم » incest لها معنى محدد ... وتطبيق نفس الكلمة على مشاكل الطفل ... يكون سَيئاً أكثر منه قَبيحاً .

وقد عبَّر فرويد عن نفسه بمثل هذه الصراحة – فيما يتعلق بتطهير يونج للشهوة بإبعاد محيطها الجنسى . فعند يونج أن فرويد قد كان مُتحيزاً فى تشبّثه بالجنس ؛ بينما الأمر عند فرويد أن يونج قد ضَحَّى بالانتصارات العظيمة التى أحرزها فرويد نفسه فى علم النفس الجنسى .

* ك ج يونج : أقوال فى علم النفس التحليلى Contributions to Analytical Psychol. ترجمة بينز وبينز H.G. & C.F. Baynes – هاركوت وبريس وشركاها(١٩٢٨)ص ص ٣٣٩ — ٣٤٠

وقد حاول يونج أن يضع فكرة الشهوة عنده فى صَف فكرة الطاقة فى الفيزيقا . فالطاقة تتحول ؛ ولكنها تظل الطاقةَ بِعَيْنِها — سواء هى حرارة أو كهرباء ، أو حركة كُتَل ، فكما أنها طاقة فيزيقية واحدة ؛ فشهوة واحدة ، هى التى تُظهر نفسَها الآن فى تقرير الذات ، وأيضا فى الرغبة الجنسية . وقد عَرف فرويد واحدة من صور الطاقة هذه ، وأدلر الأخرى ؛ وحاول كل منهما من جانبه أن ينظر إلى الطاقة كلّها بحُسبانها ذاتَ صورة واحدة . فإذا وجهنا الطاقة خارج النشاط الجنسى ؛ إلى الفن أو نوع من إعلاء آخر ؛ فإنها تتحول ، ولا تَبقى بَعدُ رغبةً جنسية فى الأصل ؛ وإن كانت بعضُ آثار المصدر المباشر للطاقة قد تظل فى النشاط المُتعالِى .

وجانب آخر مُهم من نظرية يونج فى الطاقة ؛ هو أن الطاقة يمكن أن يُظَن بها الميلُ إلى حالة نهائية من التعادل . وكان فرويد قد لجأ دائماً إلى ماضى الفرد لفهم السلوك الحاضر . وأدلر — بينما كان يتكلم عن الأهداف — قد رجع أيضاً إلى الطفولة ليجد الأهدافَ التى اصطنعها الفردُ نتيجةً لموقفه الطِّفلى . وكلاهما يُقلّد هذا النوعَ « العِلّى الميكانيكى » من التفسير الذى هو شائع فى العلم الطبيعى . فنحن نجد فى الفيزيقا فكرةَ الطاقة التى لم تتوافق قَطّ مع فكرة العلية الميكانيكية ؛ بل التى تبدو أن تكون متعارضة معها من الناحية النظرية . إلا أن فكرة الطاقة أكثر مُسايَرة للاتجاهات الحديثة فى الفيزيقا ؛ وخصوصاً لأنها كَمية . والحق أننا لا نستطيع أن نتقدم فى علم النفس بطريقة كَمية دقيقة ؛ إلا أننا نُعنَى — فى علم النفس المرضى على الأقل — بقِيَم هى كَمية تقريباً ؛ كأن تكونَ قيمةٌ أكبرَ من أخرى . وهنا فإن فكرة الطاقة أكثر كفاء فى علم النفس التحليلى من التفسير العِلّى الميكانيكى للسلوك . والمرض العُصابى هو محاولة فى الحاضر للتكيف بالحياة ؛ محاولة هزيلة فى الواقع ، ولكنها على الأقل محاولة تَحَوُّل وتركيب جديد . والعُصاب يَشفى إذن بمساعدة المحلل طوال هذا التركيب الجديد ؛ لا عن طريق جَثّ أسبابه الخيالية الماضية ؛ وإن كانت العملية الأخيرة ذاتَ فائدة بوَصفها مرحلةً أولى فى العلاج .

وهذا العَرض الموَجز لمناقشات يونج الواسعة فى هذا الموضوع ✿ هو بطبيعة

✿ انظر مثلا « ك . ج . يونج » أوراق مجموعة عن التحليل النفسى — ترجمة لونج C.E. Long الطبعة الثانية (١٩٢٠) ص ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤١٧ ، وأقوال فى علم النفس التحليلى Contributions to Analytical Psychol· بينز وبينز (١٩٢٨) ص ١ — ٧٠ .

الحال غير كافٍ ، وربما فَشل فى إظهار فكرة المؤلف . وقد أُحبُّ أن أُوجِّه نظرَك إلى أنه يوجد بعضُ شَبَه بين فكرة يونج القوية عن العُصاب أو أى تكيف بوَصفه مُركباً جديداً ؛ من ناحية ، ومن ناحية أخرى : فكرة الجشطلتيين فى الاستبصار من حيث هو « سَد فراغ » ووصول إلى تعادل .

ووجوه الفرق بين علمائنا الثلاثة الكبار فى علم النفس المرَضى يمكن أن نُبرِزَها بالرجوع لحظةً إلى مسألة تفسير الحلم . فقد عارض يونج تفسيَره بتفسير فرويد فى مثال حُلم الشاب الذى تَخرَّج حديثاً فى الجامعة ، والذى لم تكن له القدرة على أن يستقرَّ فى وظيفته ، ثم وقع فى مرض عُصابى . والحلم هو* :

كنتُ صاعداً درجاتِ السُّلَّم مع أختى وأمى . فما إن وَصلنا إلى أعلى ؛ حتى علِمتُ أن أختى ستُصبح فى الحال « أماً » لطفل .

سيكون ذلك من السهل على أحد تلاميذ فرويد : فَرُقِىّ السلم يُؤخذ دلالة مُطَّردة على النشاط الجنسى ، والأم والأخت هما الشيئان اللازمان للرغبات الطفلية المحرمة ؛ وسيكون الحلم بهذه البساطة إشباعاً لرغبة طِفلية مَكبوتة . لم يقتنع يونج بهذا التفسير السهل ، وتقدَّم ليحصُل على أنواع من التداعي الحر ؛ بادئاً من كل عنصر فى الحلم . فالأم تدل على إهماله لواجباته ؛ لأنه قد أهمل أمَّه طويلا ، والأخت هى الحب الحقيقى للمرأة ، ورُقِى الدرَج يقترح السعىَ إلى النجاح فى الحياة ، والطفل المرتقَب يُؤذِن بخَلق جديد أو ميلاد آخر لنفسه . وانتهى يونج إلى أن الحلم قد كشف عن إثارة قوى اللاشعور إلى مَواجهة موقف الشاب الحاضر . أما كيف كان أدلر يفسر هذا الحلم فلا نستطيع أن نقول ، مادام يَنقُصنا العلمُ بالحالِم : هل كان أكبر طفل ، أو أصغر من أخته . إلا أنه مادام الحالِم لم يَرتقِ الدرجَ وحده ؛ فهو يبدو وكأنَّ أسلوبَه فى الحياة أسلوب اعتماد على مؤازرة الغير له . وهنا فإن إمكان وجود تفسيرات كثيرة متشعبة لحلم بعينه ؛ كلٌّ منها له فائدته بين يَدى المحلل ؛ يجعلنا نقف ونفكر . فالمرء يَعجب كيف أنه حَوَل حياة نابليون قد قامت أحلامٌ مختلفة كثيرة ، وتفسيرات حسنة بطرق كثيرة ؛ إلاّ أنه لا واحدَ منها على التحقيق يُصوِّر حياةَ نابليون . لا تفسيرَ يُؤَوِّل الحلمَ حقيقةً . وأنا أُحدِّث نفسى أنَّ بى شُكوكاً غليظة فى صِحَّة أى تفسير حلم . فما يختفى وراء حلم

* يونج : أوراق مجموعة . . الخ – ص ٢١٩ .

معين هو بالتأكيد أكبر كثيراً من أن يجد مجالاً فى أى تفسير . ومن حسن الحظ أننا نضع نُصبَ أعيننا فى تفسير الحلم — لا أن نفهم هذا الحلم الخاص — بل أن نكتشف عقدة ، أو رغبة ، أو أملاً ، أو أسلوبَ حياة للشخص صاحب الحلم . فإذا اكتشفنا شيئاً جوهرياً يتعلق به ؛ فقد لقينا غرضنا العملى ، حتى ولو أسأنا كثيراً تفسيرَ الحلم ذاته . ومهما يكُن من أمر ؛ فمن الناحية العِلمية — إن لم يكن من الناحية العَملية — الفرقُ جدير بأن يُذكَر .

الانطواء والانبساط عند يونج :

وبمنأى عن تحقير عمل فرويد وأدلر ؛ عُنِىَ يونج عناية أكثر باصطناع نتائج كليهما فى مذهبه . ولكن كيف السبيل إلى التوفيق أو التأليف بين نظريتين متشعبتين هكذا تشعُّباً رئيسياً الواحدةِ عن الأخرى ؟ ففرويد قد نظر إلى الحلم أو العُصاب على أن الدافعَ له رغبات جنسية مكبوتة ، أما أدلر فبإرادة القوة . وكل دافع يَبدو وحدَه كافياً ، إلا أنهما معاً لا يمكن الجمعُ بينهما . وقد حل يونج اللّغز بنظريته المشهورة فى الأنماط السيكولوچية . فشخص ما قد يندفع بطريقة فرويد ، وآخر بطريقة أدلر . والذى اندفع بإرادة القوة لابد أن تكون ميوله — كما يقول يونج — مُركّزة فى الذات ؛ بينما الذى دافِعه الجنس لا بد أن يُركِّز ميولَه فى موضوع حبه . وبالإجمال فإن يونج قد اعتقد بإمكان التمييز بين نوعين من الأفراد : أحدهما ميلُه وانتباهُه يتركز بالأولى داخل ذاته ، والآخر مَيلُه واهتمامُه قد نفذا إلى المحيط الاجتماعى والفيزيقى ؛ الانطوائى ينقلب إلى الداخل ، والانبساطى مُنقَلَبُه إلى الخارج ، المنبسط — الذى يندفع بشهوة فرويد — قد سَيطر عليه الشعور ؛ والمنطوى — الذى يَدفعه أدلر بإرادة القوة — يُسيطر عليه الفكر ، ويميل إلى التردد واجترار التفكير . أما يونج فقد استطاع أن يقول — مستعيناً بفكرته الخاصة فى الشهوة كطاقة حيوية — إنه فى الانبساط تحركت الشهوة إلى الخارج نحو الأشياء ، وفى الانطواء إلى الداخل نحو الفرد ذاته .

ولم تُثِر واحدة من نظريات يونج مثلَ هذا الاهتمام العام « الذى أثارَته » نظريتَه فى الانطواء والانبساط . ومن المُمتع أن نُصنِّف الناس ؛ ونجد أن بعضهم يتبَعون هذا النوع ، والبعض الآخر « يتبعون » هذا الآخر . وقد تعود القدماء أن يُصنفوا الناسَ تحتَ الأخلاط الأربعة : الدموى sanguine ، والصفراوى choleric ،

والبلغمى phlegmatic ، والسوداوى melancholic . ومن دراسات جالتون فى التصور العقلى نحو نهاية القرن الماضى ، تعود علماء النفس أن يقسّموا الناس إلى أنماط بَصَرى ، أو سمعى ، أو حركى ؛ مع أنماط متفرقة قليلة تتعلق بالشّمى والأنماط الأخرى . وقيل إن مثل هذا التصنيف له أهميته فى التربية ؛ لأنه إذا كان الطفل يتبع النّمط السمعى ، فإن التعليم البصرى سيخفق معه. وبذا كان يختبر تصور الأطفال إلا أنه لم تلبث أن ظهرت النتيجة المفاجئة : أنهم يتبعون جميعاً النّمط المختلط. ومثل هذه النتيجة توجد دائماً حيث يتسنى لنا أن نقيس صفة طبيعية . فنحن نجد أن الأفراد لا يخضعون لأقسام منفصلة ، بل يتوزعون جميعاً حول وسط واحد أو متوسط ؛ مع وجود أولئك الذين يقربون من الوسط غالباً جداً ، ثم الضيق التدريجى نحو الأطراف .

وقد دَفعَت مثلُ هذه الحقائق بعلماء النفس إلى الشك فيما يتعلق بأنواع الناس . وبالتالى فنحنُ نميل إلى الشك فى النمطَين الانطوائى والانبساطى ؛ إذا كان مضمونهما أن النوع الإنسانى يوجد فى هذين الفريقين . ومهما يكن من أمر ؛ فإن يونج قد عرف هذه المشكلةَ إلى حد ما ، وتحدث أيضاً عن المُتقلّب ambivert الذى تتّجه شَهوتُه إلى كلا الخارج والداخل ، والذى مُيولُه ليسَت تتركز إنْ فى الذات أو فى الخارج . وقد أخذ علماءُ النفس فكرةَ يونج فى الأنماط ، وحاولوا اختباراتٍ لوضع الفرد فى درَجة تَمتدُّ بين الانطواء النهائى والانبساط النهائى . وقد وجد من الممكن أن يفعلوا هذا ؛ وإن يكن مع فَهم أنَّ أكثرَ الأفراد يَقعون حولَ مُنتصف المِقياس .

والطريقة التى بها انطلق علماءُ النفس إلى العَمل فى قياس الناس بمقياس الانطواء والانبساط ؛ تقوم فى التِقاط أكبر عدد ممكن من الأعراض أو الدلالات المختلفة للانطواء والانبساط ، ثم حَصْر أعراض كل نوع يَقومُ به الفرد أو يعرفُه عن نفسه . فهو يسأل أسئلة كالتالية :

هل تُحبُّ العزلة كثيراً ؟
هل تَثِق بالآخرين ؟
هل تحبُّ أن تتحدث فى مجتمع ؟
هل تَود أن تكون دائماً هادئاً وحازماً ؟

هل تحب العمل على وتيرة واحدة ؟
هل تفكر ملياً قبل أن تصل إلى قرار ؟
هل تُحب أن تنغمس فى أحلام اليقظة revery ؟
هل تحتفظ بمذكرات يومية لشخصك ؟
هل تُفضِّل أن تقرأ عن المغامرات أو أن تغامر ؟

وربما استطعتم أن تُقرِّروا لأنفسكم أىَّ إجابة على كل سؤال من هذه الأسئلة هى إجابة المُنطوى ؛ وإن لم تكن واضحة تماماً . والرأى عندى فى الحقيقة أنه يوجد على الأقل صِنفان مختلطان معاً فى المقياس الانطوائى الانبساطى كما يُستعمَل الآن وفى صيغة يونج الأصلية أيضاً . فصِنف سيكون ميلا إلى العمل المباشر الصريح – فى مقابل الميل إلى التروى والاجترار ؛ وربما حلم اليقظة . والصنف الثانى سيكون الميل إلى الآخرين من الناس وإلى النشاط الاجتماعى . وكلا الصنفين يبدو لى اعتمادُ بعضِه على البعض مُحتَملاً . فمثلا أنا متأكد أننا نجد أُناساً يميلون إلى أحلام اليقظة والاجترار مع ميلهم الغالب فى الوقت ذاته إلى النشاط الاجتماعى . ومن المهم أيضاً أن نعلم أن العلماء فى ملاحظتهم ، والمخترعين والميكانيكيين ؛ هم عادةً يكونون إلى الانطواء أميَل – وإن كانوا بالتحقيق مُنصرِفين إلى الأشياء . ومن الممكن أن يكون ثمة أكثرُ من صِنفَين على حِدَة مُختلطَين معاً فى التمييز بين المُنطَوين والمُنبَسِطين .

وقد تقدم يونج بنظريته فى الأنماط فى اتجاهات عدة✫ . فهو يعرف أساساً آخرَ للتقسيم يُمكن تبعاً له أن يَنقسِم الأفرادُ الى نوع حسى ، ونوع فكرى ، ونوع شعورى ، ونوع عيانى ، وربما كان أكثرَ طرافةً اقتراحُه أن الأشخاص الذين هم مُنبَسطون فى حياتهم الواعية هم مُنطَوون فى « حياتهم » اللاشعورية ؛ والعكس صحيح . « ففى حالة المُنطوى ؛ مثلا ، يوجد إلى جانب ذلك – أو بالأحرى وراء مَيلِه الشعورى – مَيلٌ لا شعورى مُنبَسط يُعوِّض بطريقة أوتوماتيكية عن انحيازه فى الشعور ... فَلِلا شعور – بقدر ما نَستطيع أن نرى الآن – وظيفة تعويض فيما يختص بالشعور* .

✫ راجع نماذج سيكلوجية Psychological Types ترجمة بينز H.G. Baynes هاركورت وبريس وشركاها ١٩٢٣ .

* يونج C.G. Jung : أقوال فى علم النفس التحليلى . Contributions to Analytical Psychol (١٩٢٨) ص ٣٠٦ — ٣٠٧ .

اللاشعور كما يراه يونج وغيره :

اللاشعور فكرة لها عند يونج من الدلالة ما لها عند فرويد . وما عدا هذا ؛ فإن يونج يزيد فيها. فهو قد ميز بين اللاشعور الشخصي واللاشعور الجماعي أو النوعي racial فاللاشعور الشخصي يتكون في جزء منه بالـ كبت من الشعور — كما بيّن فرويد ؛ ولكنه يشمل أيضاً — عند يونج — خبرات ومعرفة أخرى قد نسيت أو تحللت من الشعور . وكذلك المادة الأخرى التي حصّلت بطريق لاشعوري . وأكثر جوهرية اللاشعور الجماعي ؛ الذي عنه تنشأ الحياة الشعورية واللاشعورية للفرد كلاهما . ونادراً ما يظهر هذا اللاشعور الأعمق في الأحلام أو في الأمراض العصابية ؛ ولكن أخيلة الأشخاص المخبولين فعلا تأتي أحياناً بأفكار غريبة ، وطرق للتفكير تبدو شبيهة بآثار التفكير البدائي للنوع .

واللاشعور الجماعي أو النوعي يتوارث . فهو يورث — ككل شيء آخر — عن طريق التركيب العضوي : فتركيب المخ الموروث يجعل الفرد يفكر ويفعل كما كانت عادة النوع أن يفكر ويفعل خلال أجيال لاحصر لها من الحياة البدائية . واللاشعور الجماعي يمكن أن يقال إنه يتركب من غرائز وأفكار بدائية primordial ideas أو « نماذج أصلية archetypes ». فالغرائز طرق بدائية للفعل ، والنماذج طرق أولية للتفكير . إلا أن الاثنين لا يمكن أن ينفصلا تماماً ، لأن التفكير والفعل يسيران معاً ؛ وخصوصاً في صور الحياة البدائية .

ونظرية النماذج الأولى أو الأفكار البدائية لا ينبغي أن تخلط بالنظرية المهجورة من زمن ؛ « نظرية » الأفكار الباطنية ، فاللاشعور الجمعي لا يحتوي أفكاراً بالدقة أو شيئاً مصقولا كهذا ؛ ولكنه يحتوي طرقاً طبيعية للتفكير ، وخطوطاً لأقل مقاومة ، وميولا تنجذب في أفكارنا نحو النماذج الأولية للفكر . ففي الأحلام ، وفي مخاوف الطفل من الليل ، وفي هلوسات المجنون وأوهامه ؛ بل وفي الحياة الواعية عند ما ننصرف عن رقيبنا إلى شيء لم نكن نتوقعه بالكلية كزلزال مثلا ؛ فإن أفكارنا المكتسبة حينئذ عن العمليات الطبيعية تسقط منا ، ونفكر بطريقة حيوانية أو تأتينا أفكار أولية غامضة عن سحر نحسه جميعاً وعن الأرواح والجن والسحرة والتنين dragons والشياطين . فالأب ، والأم ، والطفل ، والذكر والأنثى ، والنشوء ، والارتقاء والفساد ؛ كلها حقائق أولية قد فرضت نفسها على الفكر النوعي حتى أنها لتظهر دائماً

كرموز فى فكر الحاضر . ونحن نَنجذب إليها كأفكار سهلة موضحة ، ونتحدث عن « نشأة أُمة » و « انقراض قانون » غير مُلاحِظين —إلا قليلا — صورةَ الكلام . وبعضُ النماذج الأولية ؛ كنموذج الطاقة ؛ قد سيطر عليها الفكر العلمى ، ويمكن أن تكون غالباً ذات فائدة لصحة الفرد العقلية ؛ فيصبح فى حذر من بعض نماذج النوع الأولية ؛ وكذلك من بعض غرائزه ، ويُكمِّل هذه بِفكره وعَمله الشعوريَّين . ودراسة الميثولوچيا والعادات الأولية البدائية ذات قيمة لعلم النفس التحليلى لِما تُلقى من ضوء على اللاشعور الجمعى .

وبعضُ ما قال به يونج خاصاً باللاشعور يدعو للعَجب — على أقل تقدير . ويبدو أنه يتضمن فكرة أخرى عن اللاشعور غيرَ هذه التى كنا نُبيِّنها . فماذا عسى أن نعمل بفقرات كالتالية ؟ *

« يتركب الشعور فحسب من هذه المُركَّبات القادرة على تكوين الأفكار ideational complexes والتى ترتبط مُباشرةً بالأنا ... فى السنوات الأولى من الحياة ينذُر أن يوجَد أىٌّ شعور أولا ؛ وإن كان وجود العمليات النفسية منذ البدء واضحاً . إلا أن هذه العمليات ليست تتركز فى أنا مُنظَّم ؛ أى ليس لها محور ، وبالتالى ليس لها استمرار ؛ وبدون هذا تكُون الشخصية الواعية غير ممكنة ... فأما عندما يبدأ الطفل يقول « أنا » فيمكن أن يكون استمرار إدراكى للشعور ...

وهنا فإذا كان لنا أن نسأل : ماذا يحدث لولم يكن ثمة مدارس ، وتُركَ الأطفال لأنفسهم تماماً ؛ لكان علينا أن نُجيب : إن الأطفال سوف يَظلون إلى حد كبير غيرَ شاعرين ...

إن الطفل ينتقل من حالة لاشعورية — وشبيهة بالحيوان فى الأصل — إلى الشعور ؛ شعور بدائى أولا ، ثم إلى شعور مُتَحضر تدريجاً . والحالة فى السنتين أو الثلاث الأولى من حياة الطفل — عندما يكون غير شاعر بنفسه — يمكن أن تقارَن بالحالة الحيوانية .

فِمَّا يثير العَجَب أن يُقال لنا إن الطفل غيرُ شاعر حتى يَبدأ الكلامَ عن نفسه

* يونج C.G. Jung أقوال فى علم النفس التحليلى Contributions to Analytical Psychol. (١٩٢٨) ص ٣١٥ .

بقوله « أنا » فهذا تأريخ للشعور متأخر عن تأريخ وطسون عندما وحد بينه وبين النطق verbalization وأنكره بالتالى على الأطفال الذين لم يتعلموا الكلام بعد . فإذا كان الطفل فى شهور قليلة من العمر أو فى سن سنتين هو « غير شاعر » ؛ فلا يمكن أن يكون ذلك بنفس المعنى الذى به يقال إن المريض المخدر غير واع .

ويشارك « اللاشعور » فى الاستعمال المتغير « للشعور » الذى قد يدل على « الشعور بشىء » أو « الشعور بالذات » أو مجرد « الشعور » أو الوعى . وتتشنر وإن كان من أتباع التأمل الباطنى قد تخلى عن استخدام « الشعور » لأنه وجد أنه لا يمكن أن يقصر على معنىً محدود . واستخدام عام « للاشعور » يكاد يقرب من استعمال يونج فى المقتبسة « المذكورة » يشير إلى نقص الاستبصار أو الحاجة إلى التدبر التى تميز كثيراً من نشاط كل فرد . ونحن نسمى الفعل لاشعورياً إذا لم يكن قد حلله الفاعل . ربما لا يكون قد حلل الدوافع التى وراء فعله أو عواقبه ؛ وبهذا فقد يصيب بعض الناس بطريق لا شعورى ، وقد يكون محاولاً أن يصيبهم بغير وعى منه ، وقد يكون بوعى منه محاولاً أن يساعد أحداً ؛ ولكن مساعدة شخص قد تكون طريقاً للدلالة على نقص هذا الشخص . والدوافع تنتهى إلى مركبات يصعب تحليلها غالباً . والدوافع المنفصلة التى يحللها يونج أو فرويد أو أدلر فى فعل ما هى لهذا لا شعورية بهذا المعنى عند فاعل هذا الفعل . وربما يفعل الطفل بهذا المعنى بغير وعى ، مع أنه قد لا يزيد حينئذ عن البالغ . وإلى شىء من هذا القبيل يجب أن يكون مغزى يونج ؛ وإن كان قد يرضيه أن نفسره بقولنا : إن الطفل يستجيب أول الأمر إلى البيئة بطريقة الدوافع أو الغريزة ؛ وتدريجياً فحسب يصبح وحدةً مستقلة نسبياً . ويستطرد يونج قائلا إن حالة اللاشعور فى الطفل الصغير هى « حالة اختلاط تام بالظروف المحيطة » وإن « نفسية الطفولة الأولى هى إلى درجة كبيرة جزء من نفسية الأم ، وبسرعة جداً ... جزء من نفسية الأب » . فما تعنيه هذه التعبيرات عملياً أن متاعب الأعصاب ومصاعب السلوك فى الطفل الصغير هى أعراض عدم التكيف بالحياة من جانب الأبوين ، وهما اللذان يجب تحليلهما وعلاجهما إذا شئنا أن ننقذ الطفل .

واللاشعور عند محللى الأمراض النفسية ليس قط فكرة أكاديمية ، أو مجرد فرض علمى يخضع للاختبار ؛ بل هو أداة يشعرون أن لا غنى لهم عنها . فچانيه ، وپرنس ، وفرويد ، وأدلر ، ويونج ، وكثير غيرهم ؛ كلهم ينجذب إليه ، وكلهم

يُعرِّفه تعريفاً مختلفاً . فأية فائدة حقيقية لهم فيه ؟ هو يلزمهم — كما يقول ماك كردى Mac Curdy*(١١) — لكى يتسنى لهم أن يلصقوا بحدود علم النفس ؛ حتى حين يتجاورون الحدود الضيقة للشعور . فلِمَ لا نعترف بأن كل العمليات التى تجرى خارج الشعور هى فيزيولوچية خالصة ونتكلم عنها بمصطلح الفيزيولوچيا؟ حسناً ؛ لنحاول ذلك الآن . لِنتكلمْ عن الدافع اللاشعورى فى ألفاظ فيزيولوچية . تستطيعُ ذلك فحسب بأغمض طريق مهما تكنْ معرفتُك بالفيزيولوچيا حسنة . ولو أنك قمتَ بعملك فى الوصف الفيزيولوچى بجد ؛ فإنك ستُضطر إلى الكلام فى مُصطَلح وحدات النسيج العصبى (النيورونات) وفى عمليات دقيقة ومفصلة جداً ؛ ولن تستطيع أن تكرر كل هذا التفصيل متى أردت لكى تشير إلى المسألة من جديد . وبهذا فستُضطر عملياً أن ترجع إلى اصطلاحك السيكولوچى : الدافع اللاشعورى . ومثل هذا قد يكون صحيحاً أيضاً فى التفكير اللاشعورى ... الخ . إنّ وصف السلوك بحدود السلوك لا يمنع أىّ فرد يستطيعُه من وصفه بمصطلح الفيزيولوچيا ؛ فالعمليات السيكولوچية كلها هى فى نفس الوقت عمليات فيزيولوچية ، والمسألة هى بالضبط أىّ مجموعة من الحدود الوصفية تأخذها لتطبقها عليها .

ونحن ربما أطلنا فى اللاشعور ، وربما أطلنا إلى غير حد مع محللى الأمراض النفسية — ولكن قد يَحسُن الوقوفُ عند حد ، والسماح لأنفسنا بفكرة ختامية . فإنه — إلى جانب الأتباع المعروفين لفرويد وأدلر ويونج — توجد كثرة كبيرة من الأطباء العقليين لا ينضمون لمدرسة ، ولا يرون عيباً فى اصطناع مناهج الجميع ونظرياتهم ؛ وبهذا يُنشىء كل منهم مذهباً لنفسه . إن توكيد قليل من المحللين النفسيين أربعين سنة للعوامل العقلية فى الأمراض العصبية قد ترك أثره فى الهيكل العام للأطباء العقليين ؛ حتى أن الفكرة العقلية المتكونة عن الأمراض العصبية قد اتسع الأخذُ بها اليوم ، وحتى أنه فيما يتعلق بأمراض نفسية كالجنون المبكر أو الفُصام dementia praecox وجنون الهوس والاكتئاب manic-depressive insanity يوجد ميلٌ كبير الآن إلى توكيد العوامل العقلية . وبهذا فإن فرويد وچانيه وغيرهما قد ساهموا بطرقهم المختلفة فى تقوية النوع « النفسى » من الطب العقلى فى مقابل « الجسمى » . وهذا التقدم كله قد كان ذا أهمية كبيرة لعلم النفس أيضاً . فعالِم

---

* ماك كردى T. J. Mac Curdy : الصحة العقلية Mental Hygiene (١٩٢١) مجلد ٥ ص ص ٢٣٦ — ٢٦٥ .

النفس المرضى – كالطبيب العقلى – ينظر فى الأفكار العديدة للتحليل النفسى وعلم النفس التحليلى وعلم النفس الفردى من وجهة النظر العملية النفعية ، ويُسَر إذا نجح أحدها فى علاج مشكلة الطفل . أما عالِم النفس الأكاديمى – وهو عملى بعض الشىء أيضاً فى ميدانه هو – فيتساءل عما إذا كانت فكرة كالهو ؛ التى فيها يبدو أن فرويد قد ترك مجالا للاشعور الجماعى عند يونج ؛ يمكن أن تلعب دوراً مفيداً كنظرية علمية . والآن ؛ فإن عالِم النفس الأكاديمى له نظرة فى هذه النظريات والأفكار الجذابة ، يُحيط بكل منها هَالة تأخذ – بتأملها عن كَثَب – شكلَ علامة استفهام .

تعليقات

على الفصل الخامس

(١) التنويم : ظهرت فى تاريخ التنويم المغناطيسى كتابات كثيرة ، ذكر منها راند B. Rand فى قاموس الفلسفة وعلم النفس لبولدوين J.M. Baldwin (قسم ٢ ؛ ٢ – ١٩٠٥ ص ص ١٠٥٩ – ١٠٦٧) قائمة تحوى ٤١١ بحثاً . بل ذهب دسوار M. Dessoir فى كتابه : قائمة كتابات التنويم حديثاً Bibliographie der modernen Hypnotismus (١٨٨٨) إلى ذكر ١١٨٢ عنواناً كتبها ٧٧٤ كاتباً ، وعاد فأتبعه بملحق مُتمِّم له سنة ١٨٩٠ . وأهم ما تستطيع أن ترجع إليه منها فى الإنجليزية : كتاب براموويل J.M. Bramwell : التنويم : تاريخه وتطبيقه ونظريته Hypnotism; its History, practice and Theory (١٩٠٣) ، ومقالة : تنويم Hypnotism فى دائرة المعارف البريطانية لوليم مكدوجل W. McDougall . وفى الفرنسية : المغناطيسية الحيوانية Le Magnétisme Animal لبنيه وفرى A. Binet & C. Féré (١٨٨٧) وترجمته الإنجليزية (١٨٨٨) . وفى الألمانية : التنويم Der Hypnotismus لمول A. Moll (١٨٨٩) .

هذه الكتب فى تاريخ التنويم المغناطيسى عامة . أما أهم البحوث التى كتبها أصحاب التنويم المغناطيسى أنفسهم فهى : تأثير الكواكب De Planetarum Influxu لِمسمَر A. Mesmer (١٧٦٦) ؛ وفيه يعرض لحالات التنويم التى أجراها بالمغناطيس ، كما تقرأ له : فكرة فى اكتشاف المغناطيسية الحيوانية Mémoire sur la Découverte du Magnétisme Animal (١٧٨١) ؛ وفيها يعرض نظريته فى المغناطيسية الحيوانية كقوة ، بعد أن تخلى عن استعمال المغناطيس فى التنويم ؛ وتقرأ له أخيراً : المِسمَرية Mesmerismus الذى كتبه (١٨١٤) فى نظريته التى سميت باسمه — وذلك قبل وفاته بسنة ، وبعد هجرته عن باريس بزمن . كما تقرأ لبقية أصحاب التنويم من المسمَريين وغيرهم فى كتبهم التى سنشير إليها مع كل منهم .

(٢) مِسمَر : (فريدرش أنطن) F.A. Mesmer (١٧٣٤ – ١٨١٥) طبيب فى ڤينا تأثر بالفكرة القديمة المعروفة عن تأثير النجوم فى الكائنات

الإنسانية – كما هو معروف فى علم التنجيم astrology ، وكما قال به وزاوله كثير من العلماء والصوفيين من قبل ؛ ظناً منهم بوجود مبدأ يخترق الكون ويؤثر فيها كالمغناطيسية والكهرباء وغيرها من قوى الطبيعة . وأدى به هذا إلى أن يختبر بنفسه أثر المغناطيس على الأشخاص ؛ بمسح أجسامهم أو إمرار المغناطيس عليها . فاكتشف مبدأ ما نسميه اليوم « التنويم » ، ونشر حقائق بحثه هذا فى كتابه الذى أشرنا إليه : تأثير الكواكب De Planetarum Influxu (١٧٦٦) .

وقد ظل يستعمل المغناطيس فى علاج بعض الأمراض ، وبعد عشر سنوات لَقِىَ قَساً فى سويسرا يعالج بدون استعماله ويَشفى الأمراض بطريقة خاصة به . فتخلى عن استعمال المغناطيس – لِتَزَعزُع إيمانه به – وقال بقوة مغناطيسية حيوانية كالمغناطيسية الطبيعية هى التى يُعزَى إليها هذا التأثير ، وكتب بذلك إلى الأكاديميات العلمية . ولما كثر خصومه فى ڤينا انتقل إلى باريس (١٧٧٨) ، وفيها أنشأ جهازاً له يسمى baquet هو عبارة عن صندوق من خشب البلوط يحتوى على مواد كيماوية ، ومجهز بزوائد من الصلب قد مَغنَطها مِسمَر بما يجعلها تستطيع أن تنقل المغناطيسية إلى حلقة من الأشخاص تجلس حوله فيما يُشبه اليوم « الجلسة الروحية » . وكان مسمَر يهيئ ظروف المكان والأشخاص بشكل سحرى استطاع معه أن يؤثر فى كثير من المرضى ، وينتهى بهم إلى الشفاء .

واهتمت الدوائر العلمية والرأى العام بما اكتشفه مسمر ، وبنظريته التى سميت باسمه ؛ فكثر خصومه واشتدت حملات الأطباء عليه – حتى اتهموه بالدجل والسحر – ومات فى سويسرا (١٨١٥) .

وقد استطاع أتباع مسمر أن يستمروا بمزاولة مذهبه وتعديله والكتابة فيه ؛ حتى جعلوه أمام العالم حقيقة علمية ، وأسلموه أخيراً إلى فرويد .

وأهم هؤلاء الأتباع – فى انجلترا والهند – والمراحل التى مر بها تاريخ التنويم المغناطيسى إلى التنويم الإيحائى ؛ تجد ذلك كله فى مقالنا عن « التنويم والتحليل » بمجلة علم النفس المصرية (مجلد ٤ عدد ٢ نوفمبر ١٩٤٨) .

(٣) شاركو (چان مارتان) J.M. Charcot (١٨٢٥ – ١٨٩٢)

هو أبو علم النفس الطبى بفرنسا ، اتصل أول أمره بمدرسة سالپتريير Ecole de Salpêtrière (١٨٦٢) : حيث بدأ مزاولاته للتنويم ، وأخذت نظريته الهامة فيه على أنها نظرية هذه المدرسة ، فأصبح من بعدُ قائدَها ، وظلت صِلَتُه بها طول حياته .

وأول ما نشر شاركو من بحوثه فى التنويم تجده فى نشرة المستشفيات

المدنية والحربية Gazette des Hôpitaux Civils et Militaires (٥١ ؛ ١٨٧٨) . إلا أن أهم ما صنف من كتبه : دروس فى أمراض الجهاز العصبى Leçons sur les Maladies du Système Nerveux (١٨٧٣ وظهرت طبعته الرابعة ١٨٨٠ ، وترجمته الإنجليزية ١٨٧٧). وكذلك فإن أهم ما عُرف به مذهب مدرسة سالبتريير أوراقه الكثيرة المتناثرة التى جُمعت فى تسع مجلدات سميت : الآثار الكاملة Œuvres Complètes (١٨٨٦ — ١٨٩٠) . وخلاصة رأيه فيها أن ظواهر التنويم هى فى جوهرها هِستيرية ، وأنها بالتالى أعراض شذوذ وانحراف ؛ وذلك فى مقابل ما قالت به مدرسة نانسى Ecole de Nancy وقال به بريد James Braid من قبل ؛ من أن التنويم يجب أن تفسَّر ظواهره بالإيحاء ، وأنها بالتالى ظاهرة سيكولوجية عادية .

وقد تتلمذ على شاركو ألفرد بنيه ، وپيير چانيه ، كما درس فرويد عليه سنة ؛ وتأثر به هؤلاء جميعاً — كما سنرى — فسار فرويد بالتحليل التنويمى إلى نهايته ، وتولى پيير چانيه من بعده مكانته على رأس مدرسة علم النفس المرضى فى فرنسا .

(٤) پرنس (مورتن) Morton Prince : ولد فى بوستن Boston فى ديسمبر ١٨٥٤ ، ولحق بكلية هارڤرد (١٨٧٥) فمدرسة الطب بهارفرد حيث حصل على درجته فى الطب (١٨٧٩) واشتغل طبيباً فى مقاطعته ؛ طبيباً للأمراض العصبية (١٨٨١ — ١٨٨٦) قضى منها فى مستشفى مدينة بوستن من ١٨٨٢ إلى ١٨٨٥ طبيباً ، وفى مدرسة الطب بهارڤرد من ١٨٨٥ إلى ١٨٨٨ مدرساً للأمراض العصبية . ومنذ ١٩٠٢ صار أستاذاً بكلية تفتس Tufts ، كما أنه منذ ١٩٢٦ حتى ١٩٢٨ قد اشتغل أستاذاً لعلم النفس المرَضى والديناميكى بجامعة هارڤرد . وكان عضواً بكثير من الجمعيات العلمية والطبية بأمريكا ، ومحرراً لمجلة علم النفس المرضى والاجتماعى منذ ١٩٠٦

ولپرنس دراسات ومقالات كثيرة فى مجلة الطب والجراحة ببوستن ؛ وصحيفة الأمراض العصابية والعقلية ، وصحيفة علم الطب الأمريكية . . . وغيرها ؛ معظمها فى الأمراض العصبية والعقلية ، وفى الطب ودراسة بعض حالاته المختلفة من شلل وهستيريا وصادية sadism وتسلط imperative idea وفوبيا ونيورستانيا . . . إلخ فى مواضع مختلفة من الجهاز العصبى كالمخ واللحاء والحبل الشوكى والأنسجة العصبية ... كما درس الشعور ، واللاشعور ؛ ومُساعد الشعور Co-consiousness والأمراض الجنسية والنفسية ؛ ودَرَس الشخصية وتعدُّدها وتحللها

ووسائل علاجها من تنويم ، وإيحاء ، وكهرباء ، وإعادة الشخصية بالإيحاء Suggestive repersonalization (سجلات الطب العصبي والعقلى . Arch. Neur. & Psychiat. ١٩٢٧ مجلد ١٨ ص ص ١٥٩ — ١٨٠) . ودرس فوق هذا كثيراً من حالات التخاطر ، والسلوك السيكوباتى ، وتحليل الأحلام ، وما دون الشعور Subconscious فى الشخصية المتكثرة . . . كما كتب فى العادة ، والتحول الدينى المفاجئ ، والمسئولية الأخلاقية والجنائية للمجنون . . . إلخ .

وأهم كتبه : طبيعة العقل والآلية الإنسانية The Nature of Mind and Human Automatism (١٨٨٥) ، وأمراض الحبل الشوكى Diseases of the Spinal Cord مع مؤلفين أمريكيين آخرين (١٨٩٥) وتحلل الشخصية Dissociation of Personality (نيويورك لونجمانز جرين ١٩٠٦) ، وخطابه عن : ما دون الشعور Subconscious فى مؤتمر علم النفس الدولى بجنيف (١٩٠٩) الذى نشره مع مينستر برج H. Münsterberg وريبو وچانيـه وجاسترو وهارت B. Hart (١٩١٠) فى بوستن باسم : الظواهر تحت الشعورية Subconscious Phenomena ، وكتابه اللاشعور The Unconscious (نيويورك مكملان ١٩١٤) ، ومقاله فى مؤتمر علم النفس الدولى بأكسفورد (١٩٢٣) فى : الحذر ، والشعور ، ومساعد الشعور ، وذكاء الحيوان من وجهة نظر حقائق علم النفس المرضى Awareness, Consciousness, Co-conssiousness and Animal Intelligence from the Point of View of the Data of Abnormal Psychol. ، وهو — كما يقول هو — « نظرية بيولوجية فى الشعور » ؛ نشره — ومقالين آخرين عن : مشكلة الشخصية ، وثلاثة أخطاء رئيسية للسلوكيين والمُوفِّقين بين فكرتى القَصدية والآلية — فى : سيكولوچيات ١٩٢٥ (مطبعة جامعة كلارك ١٩٢٦) .

(٥) چانيه (پيير مارى فيلكس) Pierre-Marie-Felix Janet : ولد فى باريس فى ٣٠ مايو ١٨٥٩ ، ولحق بالمعلمين العليا (١٨٧٩—١٨٨٢) فحصل على ليسانس الفلسفة (١٨٧٩) وعلى إجـازة تدريس الفلسـفة L'agrégation (١٨٨٢) وفيما بين ١٨٨٠ ، ١٨٨٢ لحق بكلية الطب بجامعة باريس ، وكذلك فيما بين ١٨٨٩ ، ١٨٩٢ ؛ فحصل على الدكتوراه فى الآداب (١٨٨٩) والدكتوراه فى الطب (١٨٩٣) .

واشتغل چانيه أول أمره مدرساً للفلسفة فى مدارس شاتورو وهاڤر (من ١٨٨٢ حتى ١٨٨٩) وفى مدرسة (ليسيه) لويس الأكبر وكوندورسيه

وغيرهما (من ١٨٩٠ إلى ١٨٩٧). وعُيِّن في هذه الأثناء مديراً لمعمل علم النفس الپاثولوجي في عيادة سالپـــتريير (١٨٩٠)، كما اشتغل (منذ ١٨٩٣) طبيباً للأمراض العقلية والعصبية في باريس. وأخيراً تولى أستاذية علم النفس التجريبي في الكوليج دى فرانس خلفاً لريبو Th. Ribot (من ١٨٩٥ إلى ١٩٠٢) وأستاذية علم النفس في كلية الآداب بجامعة باريس (من ١٨٩٨ إلى ١٩٠٢). وظل منذ ١٩٠٢ أستاذاً لعلم النفس في الكوليج دى فرانس — فيما عدا أستاذية علم النفس بجامعة هارڤرد (١٩٠٦) وجامعة مكسيكو (١٩٢٥). وكان رئيساً لتحرير مجلة علم النفس السَّوى والمَرَضى J. de Psychol. Normale et Pathol. (منذ ١٩٠٦) بمساعدة چورج ديما، عدا اشتراكه ورياسته لكثير من المجلات العلمية والمؤتمرات والجمعيات والأكاديميات في فرنسا وانجلترا وإيطاليا والدانيمرك وأمريكا

وفيما عدا كثير من المقالات في مجلة علم النفس (الفرنسية) والصحيفة الفلسفية، وفي كثير من المجلات الطبية الفرنسية والإنجليزية؛ نشر چانيه طائفة كبيرة من الكتب من أهمها: دراسة في سيكولوچيا مالبرانش وفي نظرية الأرواح الحيوانية في القرن السابع عشر Etude sur la Psychol. de Malebranche et sur la Théorie des Esprits Animaux au XVII Sciècle (ألكان بپاريس ١٨٨٦)، وبيكون والسيميائيون Bacon et les Alchimistes (نفس الناشر ١٨٨٩) وكتابه الهام: الآلية السيكولوچية L'Automatisme Psychologique (١٨٨٩، وطبعته السادسة عند نفس الناشر بباريس ١٨٩٣ في ٥٠٠ صفحة)، وكتابه القيم: الحالة العقلية للمصابين بالهستيريا Etat Mental des Hystériques (١٨٩٢ وطبعته الثانيـــة عند ألكان ١٩١١ في ٧٠٨ صـــفحة عدا المقدمة. ترجَمه إلى الإنجليزية كورسُن C.R. Corson ونشره پوتنام Putnam في نيويورك ولندن ١٩٠١، وإلى الألمانية كاهانى M. Kahane ونشره دُويتِكه في ليپتسك ١٨٩٤)، ثم كتابه: مختصر في الفلسفة Manuel de Philosophie نشره ڤوبيير Vuibert (١٨٩٣)، وكتابه الهام مع ريمون F. Reymond: أنواع من الحصر والسيكاستانيا Les Obsessions et la Psychasthénie في مجلدين: الأول دراسات تجريبية في الأفكار المتسلطة والدوافع والمانيا العقلية وجنون الشك والتهيج والفوبيا والقلق وشعور النقص والنيورستانيا .. إلخ. — كيف تنشأ وما علاجها؛ والثاني مقتطفات من دروس إكلينيكيّة في هذه الاضطرابات النفسية (نشرهما ألكان بباريس ١٩٠٣ في ٧٦٤، ٤٥٢ صفحة).

ونشر چانيه وحده كتاباً شبيهاً بهذا ومتمماً له باسم : أمراض العُصاب والأفكار الثابتة Névroses et Idées Fixes في مجلدين أيضاً : الأول عن اضطرابات الإرادة والانتباه والذاكرة والانفعالات والأمراض المتسلطة وعلاجها ؛ والثانى مقتبسات Frage-ments من دروس إكلينيكية فى الأمراض العصبية والأمراض الناشئة عن الانفعالات والأفكار المتسلطة وعلاجها (نشرهما ألكان بباريس ١٨٩٨) .

وكان چانيه مندوباً فى مؤتمرى علم النفس الدوليين الثالث (١٨٩٧) والرابع (١٩٠١) ونشر تسجيلات لمحضر جلسات هذا الأخير (عند ألكان ١٩٠١ فى ٨١٤ صفحة) . وأهم ما كتبه بعد هذا : العُصاب Les Névroses (نشره فلامَّريون ١٩٠٩) ، وظواهر ما تحت الشعور Subconscious Phenomena بالاشتراك مع هارت وجاسترو ومينستربرج وپرنس وريبو (نشره بادجر فى بوستن ١٩١٠) ، وكتابه الكبير : العلاج السيكولوچى Les Médications Psychologiques وهو كما وصفه . دراسات تاريخية ونفسية وإكلينيكية فى مناهج الطب النفسى ؛ فى ثلاثة مجلدات ، (نشرها ألكان بباريس ١٩١٩ ، وترجمها إلى الإنجليزية پول E. & C. Paul باسم : Psychological Healing فى مجلدين نشرهما ألِن وأنوين فى لندن ١٩٢٦ فى ١٢٦٥ صفحة) ؛ ثم كتابه الطب السيكولوچى La Médicine Psychologique (فلامَّريون بباريس ١٩٢٣) ، وكتابه : من القلق إلى الشهود De l'Angoisse à l'Extase فى مجلدين (ألكان بباريس ١٩٢٦) ، ثم : مراحل التطور النفسى Les Stades de l'Evolution Psycholog. ؛ والفكر الباطنى واضطراباته La Pensée Intérieure et ses Troubles ، وتطور الذاكرة وفكرة الزمن L'Evolution de la Mèmoire et de la Notion de Temps نشرها شاهين Chahine بباريس (١٩٢٧) .

وكذلك كتبُه : دروس فى الضعف والقوة النفسيين Cours sur La Faiblesse et la Force Psychologiques ، والحب والكره L'Amour et la Haine ، ونمو الشخصية السيكولوچى L'Evolution Psychologique de la Personalité عند نفس الناشر بباريس (١٩٣٠) .

وقد دوَّن چانيه تاريخ حياته فى المجلد الأول من تاريخ علم النفس بالتأريخ Hist. of Psychol. in Autob. (ص ص ١٢٣ — ١٣٣) كما كتب عن : التحليل السيكولوچى L'Analyse Psychologique فى سيكولوچيات ١٩٣٠ (ص ص ٣٦٩ — ٣٧٣) ، وعن : الخوف من الفعل

كعنصر رئيسى فى الشعور بالماليخوليا Fear of Action as an Essential Element in the Sentiment of Melancholia فى موسوعة وتنبرج فى : العواطف والانفعالات Feelings and Emotions (١٩٢٨) ص ص ٢٩٧ — ٣٠٩ ؛ عدا كثير من البحوث والمقالات فى مختلف الصحف العلمية والسيكولوجية .

وكان چانيه — كما قدمنا — تلميذاً لشاركو ، فأتاح له هذا — إلى جانب مزاولته للطب فى الأقاليم ، وقيامه بتدريس علم النفس فى السوربون والكوليج دى فرانس — أن يكون أباً لعلم النفس المرضى فى فرنسا ؛ لأن دراسته تعد الخط الفاصل بين دراسة العاديين والشواذ من المرضى ؛ وخصوصاً فى ظاهرة الهستريا . كما أن أهم ما يعرف به هو كتابه : الحالة العقلية للمصابين بالهستريا L'Etat Mental des Hystériques (١٨٩٢) الذى ذكرنا ، والذى ظهرت ترجمته الإنجليزية (١٩٠١) ، وكذلك مختصره الذى ظهر سنة ١٩٠٣

(٦) فرويد (زجموند) Sigmund Freud : هو عالم النفس الذى — على حد وليم مكدوجل — قد ساهم فى تقدم علم النفس بما لم يساهم به أحد منذ أرسطو ، والذى يعد فى علم النفس بمثابة نيوتن فى الطبيعيات وهارڤى فى الطب ولد فى فرايبورج فى موراڤيا بالنمسا فى ٦ مايو ١٨٥٦ ، ولحق بجامعة ڤينا (١٨٧٥ — ١٨٨٢) حيث حصل منها على الدكتوراه فى الطب (١٨٨١) ، ثم لحق بالمستشفى لدراسة أمراض الجهاز العصبى — بعد إذ اطّرح الفيزيولوچيا التى لم تكن تُجدى عليه كَسْبا وما لبث أن قصد مدرسة سالپتريير فى پاريس Ec. de Salpêtrière — التى كان على رأسها شاركو Charcot — فتأثر بما كانت تقول به هذه المدرسة من تفسير لظواهر التنويم والأمراض العصبية بوصفها هستيرية ، وأن دافعها جنسى أبداً . وبعد سنة عاد فرويد إلى ڤينا (١٨٨٦) معيداً لپاثولوچيا الأمراض العصبية (حتى ١٩٠٢) فأستاذاً مساعداً (حتى ١٩٢٠) ؛ فأستاذاً منذ ذلك الحين .

وتدل كتاباته فى هذه المرحلة الأولى على تأثره بشاركو الذى ترجم محاضراته الجديدة عن : أمراض الجهاز العصبى وخصوصاً الهستيريا Die Krankheiten des Nervensystems insbesondere über Hysterie (١٨٨٧) فى صحيفة النيورولوچيا المركزية Neur. Zentbl. (مجلد ٦ ص ٤٢٩) ، كما كتب بتأثيره فى طريقة دراسة الجهاز العصبى المركزى (صحيفة العلوم الطبية بڤينا ١٨٨٤ ، وسجلات التشريح والتاريخ التطورى Arch. f. Anat. u. Entwick.-gesch. ١٨٨٤ ص ص ٥٤٢ — ٤٦٠) ،

ظهرت ترجمتها الإنجليزية فى مجلة Brain (١٨٨٤ ص ص٨٦–٨٨). وكتب كذلك فى : نبات الكوكا Cocapflantze (١٨٨٤) وفى : مفعول الكوكايين وآثاره Cocawirkung (أسبوعية الطب بفينـا Wien. Med. Woch. ١٨٨٥ ص ص ١٢٩ – ١٣٥) وأيضاً Allegemeinwerkung des Cocains (فى مجلة طب الجراحة Med.-chir. Zentbl. ١٨٨٥ص٣٧٤) ، ونشر فى ذلك رسالة باسم : فى الكوكا Ueber Coca (مستخرجة من مجلة الطب العلاجى العام بفينا ١٨٨٥) فى ٢٦ صفحة . كما كتب كثيراً فى الهستيريا الإنسانية männliche Hysterie (١٨٨٦ – ١٨٨٧) . وأخيراً كتب فى شاركو بحثا باسمه : Charcot (فى أسبوعية الطب بفينا ١٨٩٣ مجلد ٤٣) وأعيد نشره فى : مجمـــوعة أوراق صغيرة فى نظرية الأمراض العصـــابية فيما بين سنتى ١٨٩٣ ، ١٩٠٦ Sammlung kleiner Schriften zur Neurosenlehre aus den Jahren 1893 - 1906 التى ظهرت سنة ١٩٠٦ (ص ص ١ – ١٣) ؛ وفى : كتابات مجموعـــة Gesammelte Schriften (مجلد سنة ١٩٢٥ ص ص ٢٤٣ – ٢٥٧) . ترجمها إلى الإنجليزية برنيز Bernays فى : مجموعـــة أوراق Collected Papers (مجلد١سنة ١٩٢٤ ص ص ٩ – ٢٣)

ثم يأتى الدور الثانى الذى عمل فيه فرويد مع بروير على منهج هذا الأخير فى التصريف والتطهير الذى اكتشفه حوالى ١٨٨٠ ؛ والذى كتب فيه معه : فى الآلية النفسية لظواهر الهستيريا Ueber den psychischen Mechanismus hysterischer Phänomene (فى : الصحيفـــة المركزية السنة ١٢ ـ ١٨٩٣ – ص ص ٤ – ٤٣) ؛ نشرت فى : دراسات فى الهستيريا Studien über Hysterie (١٨٩٥ ص ص ١ – ١٤) ، وكذلك فى : مجمـــوعة أوراق فى النظرية العصبية بين سنتى ١٨٩٣ ، ١٩٠٦ (ص ص ١٤ – ٢٩) ، وكذلك فى : كتـــابات مجموعة (مجلد١سنة ١٩٢٥ ص ص ١ – ٢٥) ترجمها إلى الإنجليزية بريل A.A. Brill باسم : The Psychic Mechanism of Hysterical phenomena فى : أوراق مجموعة فى الهستيريا والأمراض العصبية والنفسية الأخرى ١٩٠٩ ، ١٩١٢ (ص ص ١ – ١٣) ، وفى : أوراق مجموعة (مجلد١سنة ١٩٢٤ ص ص ٢٤ – ٤١) . كما نشر معه أيضاً : دراســـات فى الهستيريا Studien über Hysterie فى ليبتسك وفينـــا (١٨٩٥) فى ٢٦٩ صفحة . ظهرت طبعته الرابعة سنة ١٩٢٢ ، كما أعيد نشره فى المجلد الأول من : كتابات مجموعة Gesam. Schr. (١٩٢٥) .

وفى نفس هذه السنة نشر فرويد وحده : فى العــلاج النفسى للهستيريا Zur Psychotherapie der Hysterie ضمن مجموعة : دراسات فى الهستيريا (ص ص ٢٢٢ — ٢٦٩) ؛ وفى : كتابات مجموعة — الألمانية (مجلد ١ ، ١٩٢٥ ص ص ١٧٨ — ٢٣٨) ؛ ترجمه إلى الإنجليزية بريل أيضاً فى : أوراق مجموعة — الإنجليزية (١٩٠٩ — ١٩١٢ ص ص ٧٥ — ١٢٠) .
وله كذلك مجموعة دراسة حالات أمراض باسم : Krankgeschichten فى : دراسات فى الهستيريا .Stu. ü. Hyst. (١٨٩٥) للسيدة إيمى Frau Emmy والآنسة لوسى Fraul. Lucie وكاتارينا Katharina والآنسة إليزابيث Fraul. Elisabeth . . . نشر كثيراً منها فى : كتابات مجموعة (الألمانية) ، وترجم معظمها بريل فى : أوراق مجموعة (الإنجليزية) الأولى سنة ١٩٢٥ والثانية ١٩٠٩ — ١٩١٢ ؛ وتجد تلخيصاً لها بالإنجليزية فى مقال للدكتور وزدم J. Wisdom بمجلة علم النفس المصرية (مجلد ٤ ، عدد ٢ ، ١٩٤٨ ص ص ٢٩٦ — ٣١٦) . . . عدا كتابات أخرى كثيرة لفرويد فى هذا الباب .

وانفرد فرويد لنفسه بعد هذا ، وأهم ما كتبه فى مذهبه كتابه : تفسير الأحلام Die Traumdeutung (نشره دويتكه فى ڤينا وليپتسك ١٨٩٩ فى ٣٧٥ صفحة) ظهرت طبعته الثامنة المنقحة سنة ١٩٣٢ فى ٤٣٥ صفحة عدا المقدمة . وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية بريل المذكور ونشرته دار ألن Allen فى لندن ومكملان فى نيويورك (١٩١٣) فى ٥١٠ صفحات كما ترجمـه إلى الفرنسية مايرسن L. Meyerson باسم : La Science des Rèves ونشره ألـكان بباريس (١٩٢٦) فى ٦٤١ صفحة ، وترجم كذلك إلى الروسية (١٩١٣) وإلى الإسبانية (١٩٢٢ — ١٩٢٥) .

ولفرويد رسالة أخرى باسم : فى الأحلام (فى الحلم Ueber den Traum) ظهرت سنة ١٩٠١ فى ٣٧ صفحة ، وطبعتها الثالثة (١٩٢٢). ترجمت إلى الروسية (١٩٠٩) ، وإلى الهولندية (١٩١٣) ، وإلى الإنجليزية باسم : On Dreams (١٩١٤) — ترجمها إيدر M.D. Eder مع مقدمة لماكنزى — وإلى الهنغارية (١٩١٥) والإيطالية (١٩١٩) والدانيمركية (١٩٢٠) والإسپانية (١٩٢٢ — ١٩٢٥) والپولونية (١٩٢٣) والسويدية (١٩٢٤) وأخيراً إلى الفرنسية باسم Le Rève et son Interprêtation (پاريس ١٩٢٥) ترجمـه لوجرو H. Legros.

وبعد ذلك ظهر كتابه القيم : سيكوپاثولوچيا الحيـاة اليوميـة Zur Psychopathologie des Alltagslebens

نشره كارجر فى برلين (١٩٠٤) فى ٩٢ صفحة — وكان قد نشره من قبل فى شهرية الطب العقلى والأمراض العصابية Monatschr. f. Psychiat. u. Neur. (مجلد ١٠ سنة ١٩٠٤ ص ص ١ — ٣١ ، ٩٥ — ١٤٢) . ترجمه إلى الإنجليزية بريل A.A. Brill ونشره مكملان فى نيويورك (١٩٢٤) وأن فى لندن (١٩٢٠) فى ٣٤١ صفحة عدا المقدمة ، كما ترجمه إلى الفرنسية چانكلفتش S. Jankélévitch ؛ ونشره پايو Payot فى پاريس (١٩٢٢) فى ٣٢١ صفحة ؛ وإلى جميع اللغات التى ذكرنا فى سابقه فى سنوات مختلفة ؛ وظهرت طبعته الألمانية الحادية عشرة فى ڤينا (١٩٢٩) فى ٣١٣ صفحة .

وفيما عدا مقال : منهج فرويد فى التحليل النفسى Die Freud'sche Psychoanalytische Methode (١٩٠٤) وقطعة فى تحليل حالة هستريا Bruchstück einer Hysterieanalyse (١٩٠٥) وفى العلاج النفسى Ueber Psychotherapie (ڤينا ١٩٠٥) ؛ ظهر كتابه : ثلاث مقالات فى النظرية الجنسية Drei Abhandlungen zur Sexualtheorie (دويتكه بڤينا ١٩٠٥) فى ٨٣ صفحة وطبعته الخامسة (١٩٢٢) فى ١٠١ صفحة . ترجمه إلى الإنجليزية بريل ونشرته شركة مطبوعات الأمراض العصبية والعقلية Nerv. & Ment. Dis. Publ. Co. بنيويورك وواشنطن (١٩١٠) ، كما ترجمه إلى الفرنسية دى رڤرشون De Reverchon (پاريس پايو Payot ، ١٩٢٣) وترجم كذلك إلى الروسية والهنغارية والإيطالية والإسپانية .

أما كتابه فى موضوع البديهة وعلاقتها باللاشعور Der Witz und seine Beziehung zum Unbewussten فقد نشره لأول مرة دويتكه فى ليپتسك ڤينا (١٩٠٥) فى ٢٠٥ صفحات ، وظهرت طبعته الرابعة سنة ١٩٢٥ فى ٢٠٧ صفحات عدا المقدمة . ترجمه إلى الانجليزية بريل ، ونشر فى لندن ونيويورك (١٩١٦) فى ٣٨٨ صفحة ؛ كما ترجم إلى الروسية والإسپانية حتى سنة ١٩٢٥

وكتب فرويد بعد هذا مقالات كثيرة فى تطبيق منهج التحليل النفسى على نواحى الحياة ، كالتحقق من صدق الشهادة أمام القضاء Tatbestandsdiagnostik (١٩٠٦) — ترجمها إلى الإنجليزية هرفورد E.B. M. Herford فى : مجموعة أوراق (الإنجليزية) مجلد ٢ (١٩٢٤) ص ص ١٣ — ٢٤ ، وكالأفكار المتسلطة obsessive والأفعال الدينية Zwangshandlungen und Religionsübungen (١٩٠٧) — وترجمها الإنجليزية فى مجموعة الأوراق

المذكورة مجلد ٢ (١٩٢٤) ص ص ٢٥ — ٣٥ ، والشاعر وحلم اليقظة Der Dichter und das Phantasieren (١٩٠٨) ، والخبَل والأحــلام Der Wahn und die Traüme في قصة غرام ڤلهلم ينسن W. Jensen المسماة جراديڤا Gradiva — نشرت في ڤينا (١٩٠٧) والطبعة الثالثة (١٩٢٤) ، ترجمها إلى الإنجليزية داونى H. M. Downey ونشرت بنيويورك (١٩١٨) ولندن (١٩٢١) . . . وكثير غير هذه من المقالات في المشاكل الجنســية Sexprobleme والكبت Die Verdrängung واللاشعور Das Unbewusst (١٩١٥)، وفي الهستريا والفوبيا (المخاوف) ، وفي التحليل النفسى وعمله وتاريخ حركته ، إلى غير ذلك من موضوعات مذهبه الكثيرة.

وأهم ما كتبه فرويد بعد هذا يتعلق بصميم المذهب : في التحليل النفسى Ueber Psychoanalyse — وهي خمس محاضرات كان ألقــاها في جامعة كلارك في سبتمبر ١٩٠٩ ، نشرها في ليپتسك وڤينا دويتكه (١٩١٠) في ٦٢ صفحة ، ظهرت طبعتها الثامنة سنة ١٩٣٠ ، وترجمت إلى الإنجليزية (١٩١٠) والبولونية والهنغارية والروسية والهولندية والدانيمركية والإيطاليــة والفرنسية والإسبانية في سنوات متتابعة حتى ١٩٢٢ ؛ ومجموعة كتابات صغيرة في النظرية العصــابية Sammlung Kleiner Schriften zur Neurosen Lehre نشره دويتكه في ليپتسك وڤينا (١٩١٣) في ٣٢١ صفحة ؛ وكتابه : محاضرات مقدمة للتحليل النفسى Vorlessungen zur Einführung in die Psychoanalyse نشره هلّر في ليپتسك وڤينا (١٩١٦) في ٥٥٣ صفحة . وظهرت طبعته الخامسة (١٩٣٠) — ترجمه إلى الإنجليزية ريڤيـــير J. Rivière مع مقــدمة لاستانلى هول ، ونشر في نيويورك (١٩٢٠) وظهرت طبعته السابعة عشرة (١٩٢٧) ، وفي لندن (١٩٢٢) ، كما ترجم إلى بقية اللغات . وكتابه الهام مع بروير : دراسات في الهستريا Studien über Hysterie نشره دويتكه في ليپتسك (١٩١٦) في ٢٦٩ صفحة .

وكتابه : ما وراء مبدأ اللذة Jenseits der Lustprinzips نشره في ليپتسك وڤينا وزيورخ (١٩٢٠) وطبعته الثالثة (١٩٢٤) ، ترجمه إلى الإنجليزية هاباك Hubback ونشر في لندن ونيويورك (١٩٢٢) في ٩٠ صفحة . وكتابه الآخر : علم النفس الجمعى وتحليل الأنا Massenpsychol-ogie und Ich-Analyse نشر في ليپتسك وڤينــا وزيورخ (١٩٢١) في ١٤٠ صفحة ، وطبعته الثانية (١٩٢٤) — ترجمه إلى الفرنسية چانكلڤتش (پايــو ، باريس

١٩٢٤) وإلى الإنجليزية استراتشى J. Stratchey لنـــدن (١٩٢٢) ونيويورك (١٩٢٥) ؛ كما ترجم إلى لغات أخرى كثيرة .

وأهم كتب فرويد الأخيرة كتاب له بالإنجليزية فى : سيكولوچيا الأحلام للمبتـــدئين Dream Psychol. for Beginners بنيويورك (١٩٢٢) فى ٢٣٨ صفحة ؛ والأنا والهو Das Ich und das Es ظهر فى ليپتسك وڤينا وزيورخ (١٩٢٣) — ترجمه إلى الإنجليزية ريڤيير ، وإلى الفرنسية چانكلڤتش (١٩٢٧) ، كما تُرجم إلى لغات أخرى كثيرة ؛ ومقالتاه فى مادتى : تحليل نفسى Psychoanalyse ونظرية اللبيد و Libidotheorie فى قاموس العلم الجنسى Handworterbuch der Sexualwissenschaft فى بون Bonn (١٩٢٣) ؛ وكتابه : فى فن التحليل النفسى وما وراء علم النفس Zur Technik der Psychoanalyse und Metapsychol. ليپتسك وڤينا وزيورخ (١٩٢٤) ؛ وكتابه : دراسات تحليلية نفسية فى عمل الشعر والفن Psychoanalytische Studien an Werken der Dichtung und Kunst عند نفس الناشر وفى نفس السنة ؛ ومقاله فى دائرة المعارف البريطانية : تقدم التحليل النفسى فى هذه السنوات الخصبة Psychoanalytic Exploring in these Eventful Years . (١٩٢٤)

وقد جُمعت كتابات فرويد فى عشرة مجلدات كبيرة نشرتها هيئة التحليل النفسى الدولية Inter. Psychoanal. Verlag. فى ليپتسك وڤينا وزيورخ باسم : كتابات زجموند فرويد مجموعةً Gesammelte schriften von Sigmund Freud(سنتى ١٩٢٤ — ١٩٢٥) كل منها فى حوالى خمسمائة صفحة ، نشرت أربعة منها بالإنجليزية فى لندن — فى هاتين السنتين — باسم : Collected Papers by Sigmund Frend .

تلك هى أهم كتابات العلامة فرويد كما تجدها فى ثَبَتِها الكامل بسجل مرتشيزون حـ ٣ ص ص ٥٩١—٦٠٥ . أما أثر فرويد فى علم النفس فيكفى أن تتبينه من تصفح : فهرس التحليل النفسى Index Psychoanalyticus فى مكتبة التحليـــل النفسى الدوليـة بإشراف إرنسِت چونز Ernst Jones حيث ذكر مؤلفـــه چون ريكمـــن J. Rickman اسم ٤٧٣٩ مؤلفاً بمختلف اللغات فى التحليل النفسى فيما بين سنتى ١٨٩٣ ، ١٩٢٦ . وما ظهر قبل هذا التاريخ — وبعده خصوصاً — كثير جداً لا يجمعه حصر .

(٧) اشتيكل (ڤلهلم) W. Stekel : ولد فى بويـــان Bojan فى مارس ١٨٦٨ ، ولحق بجامعة ڤينا (١٨٨٧ — ١٩٠٣) حيث حصل على الدكتوراه فى الطب ، وتولى رياسة مجـــلات التحليل النفسى الكبيرة الثلاث : صحيفة

التحليل النفسى المركزية Zentralblatt für Psychoanalyse (١٩١١–١٩١٤) – وهى الشهرية الطبية التى أنشأها وتولى رياستها فرويد من قبل (١٩١٠)، ومجلة : خطوات أبعد فى العلم الجنسى والتحليـــل النفسى Fortschritte der Sexualwissenschaft und Psychoanal. (سنوات ١٩٢٤ ، ١٩٢٦ ، ١٩٢٨ ، ١٩٣٠) ؛ وكذلك : فن التحليل النفسى Psychoanalytische Technik.

واشتيكل من بين أتباع فرويد ، وله طائفة كبيرة من الكتب والبحوث . وقد كتَب – أولَ ما كتَب – فى الخوف وأثره فى الأمراض العصبية والأطفال ، ثم ظهر بعد ذلك كتابُه الكبير : اضطرابات حياة الدوافع والانفعالات Störungen des Trieb-und Affekt-lebens وجُــزؤه الأول فى شروط الخوف العصبى وعلاجه Angstzus-tande und ihre Behandlung نشره أوربان واشڤارتسنبرج فى ڤينا وبرلين (١٩٠٨) فى ٣١٥ صفحة ، وظهرت طبعتُه الرابعة (١٩٢٤) فى ٦٨٠ صفحة ، وترجمَه إلى الإنجليزية جابلر R. Gabler باسم : Disturbances of the Impulses and Emotions – نشره فى لندن كيجان پول (١٩٢٢) وفى نيويورك دود وميد (١٩٢٣) .

وكان قد كتب فى سنَوية بحوث التحليـــل النفسى Jahrbuch für psychoanal. Forsch. (١٩٠٩) فى تفسير الأحلام ، ثم نشر فى ذلك كتاباً خاصًّا باسم : دلالات الأحلام (أو مَنطوق الحلم) : عرض لرمز وتفسير الحلم للنفوس المريضة والسوية لـــدى الأطبـــاء وعـــلماء النفس Die Sprache des Traumes: Eine Darstellung der Symbolik und Deutung des Traumes in ihrer Beziehung zur Kranken und gesunden Seele für Ärzte und Psychologen نشره برجـمَـن فى ڤيسبادن (١٩١١) وظهرت طبعتُه الثالثة (١٩٢٧) ؛ وترجمَ أجزاء منه لِند فى مجلة التحليل النفسى الإنجليزية (١٩١٧) وكذلك فان تِسلار J.S. Van Teslaar فى بوستُن بأمريكا (١٩٢٢) .

ولاشتِيكِل كتب أخرى كثيرة فى مختلف مسائل التحليل النفسى : المرضى بالعُصاب Nervöse Leute ڤينا (١٩١١) ، وأحلام الشعراء Die Traume der Dichter (ڤيسبادن ١٩١٢) ، والأنا المحبُوب Das Liebe Ich : أسس الدراسة الجديدة للنفس (برلين ١٩١٣) والطبعـــة الثالثة (١٩٣٠) – ترجـمَـه جابلر إلى الإنجليـــزية The Beloved Ego لندن (١٩٢١) ؛ والطفولة الجنسية النفسية Der Psychosexuelle Infanti-lismus أوربان واشڤارتسنبرج (١٩٢١) ؛ وأعماق النفس (بالإنجليزية)

The Depths of the Soul كيجان
پول بلندن(١٩٢١) ؛ واثنا عشر مقالا
فى الجنس والتحليل النفسى Twelve
Essays on Sex and Psychoanalysis
ترجمة تانِنبَاوم S.A. Tannenbaum
نيويورك (١٩٢٢) ؛ وكتابه الكبير :
التعشّق Der Fetischismus أوربان
واشڤار تسنبرج بڤينا (١٩٢٣)فى ٦٠٣
صفحات .

وأتمّ اشتيكل فى ذلك الحين كتابَه
الكبير : اضطرابات الحياة الدافعة
والانفعالية Störungen des Trieb-
und Affektlebens المذكور ؛ فظهر
منه سنة ١٩١٧ عند نفس الناشر فى
ڤينا المجلد الثانى فى : عُصاب الجنسية
المثلية Die homosexuelle Neurose —
نشر ترجمته الإنجليزية فان تِسلار فى
بوستن (بادجَر ١٩٢٢) ؛ والمجلد الثالث
فى : البرُود الجنسى عند المرأة
Geschlechtskalte der Frau عند نفس
الناشر فى ڤينا (١٩٢٠) ، ونشره نفسُ
المترجم الإنجليزى الأمريكى فى
نيويورك فى مجلدين باسم : Frigidity
in Woman in Relation to her Love
Life (بُونى وليڤرَيت ١٩٢٦) ؛ والمجلد
الرابع فى : عِنّةُ الرّجل Die
Impotenz des Mannes عند نفس
الناشر فى ڤينا (١٩٢١) .

ونشر غيرَ هذا : التحليل النفسى
والعلاج الإيحائى Psychoanalysis and
Suggestion Therapy ترجمه فان
تسلار (لندن ونيويورك ١٩٢٣) ؛ ودعائم
الجنسية Masken der Sexualität
(كنپلر بڤينا ١٩٢٤) ؛ وكتابه :
غرائب السلوك Peculiarities of Behav.
فى مجلدين نشرهما بونى وليڤريت
بنيويورك (١٩٢٤) ووليمز ونورجيت فى
لندن (١٩٢٥) ؛ وكتابه الكبير :
الصادية والمازُوكَيّة Sadism and
Masochism فى مجلدين ، نيويورك
(١٩٢٩) ؛ ثم كتابه : الانحرافات
الجنسية Sexual Aberrations
(ظواهر العِشق فى علاقتها بالجنس)
فى مجلدين ، ترجمها پاركر S. Parker
ونشرهما ليڤريت بنيويورك(١٩٣٠) ؛
وأخيراً كتاباه الكبيران : أشواط أبعد فى
العلم الجنسى والتحليل النفسى
Fortschritte der Sexualwissenschaft
und Psychoanalyse فى ثلاثة مجلدات
نشرها دويتكه فى ڤينا وليپتسك :
الأول (١٩٢٤) والثانى (١٩٢٦)
والثالث (١٩٢٨) ؛ والحصر والشك
Zwang und Zweifel أوربان واشڤار–
تسِنبرج فى ڤينا — مجلدان : الأول
(١٩٢٧) والثانى (١٩٢٩) .

(٨) ڤِتلز (فريتس) Fritz S.Wittels :
ولد فى ڤينا فى نوفمبر ١٨٨٠ ، ولحق
بجامعة ڤينا (١٨٩٨) فحصل على
الدكتوراه فى الطب (١٩٠٤) ، وعُيّن
مساعداً فى المستشفى العام Allegemeines
Krankenhaus بڤينا (١٩٠٤ —
١٩٠٨) ، فمديراً لمستشفيات ماربُورج

والقسطنطينية والقدس وديار بكير فى تركيا (١٩١٥ – ١٩١٩)؛ ثم اشتغل مستشاراً نفسياً لمعهد علم النفس الصناعى فى النمسا، فحاضراً بمعهد الفيزيولوجيا فى جامعة ڤينا (١٩٢٦ – ١٩٢٨) فأستاذاً لعلم النفس والتحليل النفسى بمدرسة نيويورك الجديدة للبحوث الاجتماعية، فأستاذاً لهذه العلوم كذلك فى معهد بروكلين Brooklyn للآداب والعلوم (١٩٣٠).

ومعظم بحوث ڤتلز وكتاباته فى التحليل النفسى؛ فكتابه: العقدة الجنسية Die sexuelle Not نشره اشتيرن فى ڤينا وليپتسك (١٩٠٩) فى ٢٠٦ صفحات؛ وكتابه: كل شىء حول الحب Alles um Liebe، نشره فليشل فى برلين (١٩١٣) فى ٣١١ صفحة؛ وكتابه: فى الموت وفى الاعتقاد بالله Ueber den Tod und über den Glauben an Gott نشره موريتس پيرلس فى ڤينا (١٩١٤)؛ كما كتب كثيراً من المقالات فى الجنس والحياة الجنسية – بالألمانية والإنجليزية – وأهم كتبه فى هذه الأخيرة: حدّ للفقر An End to Poverty نشره ألن وأنوين فى لندن (١٩٢٤)؛ وكتابه: نقد الحب Critique of Love نُشر فى لندن ونيويورك (١٩٢٩). أما فى الألمانية فله: فن التحليل النفسى Die Technik der Psychoanalyse نشره برجمن فى ميونخ (١٩٢٦)؛ وكتابه: تحرير الطفل Die Befreiung des Kindes نشر فى اشتتجرت (١٩٢٧)؛ كما كتب فى الحب والجنس والهستريا والتحليل النفسى، وعن جيتَه وفرويد ... إلخ.

وأهم كتب ڤتلز – من حيث هذا الاتجاه – كتابه عن زجموند فرويد: الرجل، نظريته، ومدرسته S. Freud: Der Mann, die Lehre, die Schule نشره تال ڤرلاج Tal Varlag فى ليپتسك وڤينا وزيورخ (١٩٢٤) – ترجمه إلى الإنجليزية پول E.C. Paul ونشره فى نفس السنة ألن وأنوين فى لندن، ودود فى نيويورك؛ كما نقله إلى الفرنسية دى هربير De Herbert ونشره فى السنة التالية ألكان بباريس باسم: Freud : l'Homme, la Doctrine, l'Ecole.

(٩) أَدلَر (أَلفِرِد) Alfred Adler (١٨٧٠ – ١٩٣٧): ولد فى ڤينا فى فبراير ١٨٧٠، ودرس فى جامعتها منذ ١٨٨٨ حتى حصل على درجته فى الطب سنة ١٨٩٤؛ وألم حينئذ بالفلسفة وعلم النفس والتشريح وعلوم الاقتصاد والاجتماع. واشتغل منذ ١٨٩٨ طبيباً للعيون، ثم فى الطب الباطنى وأخيراً فى الأمراض العصبية حتى انضم لفرويد (١٩٠٩) ثم انفصل عنه (١٩١١) ليكوّن مذهبه فى علم النفس الفردى. ولم يَتولّ مناصبَ علمية أو تعليمية إلا حين

اشتهر بمذهبه ؛ فكان محاضراً فى معهد التربية بفينا ، وأستاذاً زائراً فى جامعة كولومبيا (١٩٢٩ — ١٩٣٠) ؛ هذا عدا جَولاته للدعاية لمذهبه فى النمسا وألمانيا وأمريكا . وقد تولى منذ ١٩٢٢ تحريرَ مجلة علم النفس الفردى الدولية Intern. Zeitschr. f. Individual-psychol.

وقد كتَب أدلر مقالات كثيرة فى موضوعات التحليل النفسى وعلم النفس الفردى ؛ أهمها : فى الموضع المادى للعمليــات النفســية Ueber das materielle Substrat der psychischen Vörgange فى أسبوعيّــة الطب العقلى والعصبى (١٩١٠) مجلد ١١ ص ص ٣٦٩ — ٣٧٠ ؛ ودور اللاشعور فى العُصاب Die Rolle des Unbewussten in der Neurose فى صحيفة التحليل النفسى المركزية (١٩١٣) Zentbl. f. Psychoanal. مجلد ٣ ص ص ١٦٩ — ١٧٤ ؛ والحلم وتفسير الأحــلام Traum und Traumdeutung فى نفس المجلة ونفس السنة (ص ص ٥٧٤ — ٥٨٣) ؛ ومقــالات كثيرة عن علم النفس الفــردى ، وعــلاج المرضى بالعُصاب ، والتربية وسيكولوجيــا الأطفال ، ومشكلة الجنسية المثلية (الهوموسكس) ؛ ووجهة النظرالجديدة فى مسألة عصاب الحرب Die neuen Gesichtspunkte in der Frage der Kriegsneurose فى : العيادة الطبية Med. Klin. (١٩١٨) الســنة ١٤ ص ص ٦٦ — ٧٠ ؛ وأخيراً : تقدُّم علم النفس الفردى Fortschritte der Individualpsychol. فى مجــلة علم النفس الفردى الدولية (١٩٢٤) مجلد ٢ ص ص ١ — ٧ ، وبالإنجليزية فى صحيفة الطب البريطانية Brit. Med. J. (١٩٢٤) مجلد ٤ ص ص ١٢ — ٢١ ومجلة علم النفس الطبي البريطانيــة Brit. J. Med. Psychol. (١٩٢٤) مجلد ٤ ص ص ٢٢ — ٣١ ، وفى الإيطالية Fondamenti e Progressi della "Psychologia Individuale" فى سِجلات التحليل النفسى والعصبى العامة (١٩٢٥) مجلد ٦ ص ص ٢٢٧ — ٢٣٨ وبالألمانية مرة أخرى فى مجلته (١٩٢٧) وبالفرنسية Les Idées fondamentales de la Psychol. Individ. فى مجلة علم النفس الواقعى Revue de Psychol. Concrète (١٩٢٩) حـ ١ ص ص ٨٩ — ١٠١ .

أما كتبه فكثيرة جداً ؛ أهمها فى الألمانيــة : دراسة نَقص عضو وتعويضــه النفسى Studie über Minderwertigkeit von Organen نشره برجمَن فى ميونخ (١٩٠٧) والطبعة الثانية (١٩٢٧) فى ٩٢ صفحة ، وترجمه إلى الإنجليزية چليف S.E. Geillife وأصدرته منشورات الأمراض العصبية والعقلية & .Ner

Ment. Dis. Publ. Co. (١٩١٧) ؛ وكتابه الكبير : فى الشخصية العُصابية Ueber den nervosen Charakter الذى وصفه بأنه : أساس لعلم نفس فردى وعلاج نفسى مقارن Grundzuge einer Vergleichender Individualpsychol. und Psycho-therapie نشره برجمن فى ڤيسبادن (١٩١٢) وطبعته الرابعة فى ميونخ (١٩٢٨) . ترجمه إلى الإنجليزية جلويك ولند B. Glueck & J.E. Lind ونشره موفات فى نيويورك (١٩١٧) ، كما نشر ترجمته الفرنسية پايو فى پاريس (١٩٢٦) ، وكتابه مع فورتميلر G. Furtmüller وغيره : Heilen und Bilden وهو يشمل أعمال جماعة علم النفس الفردى الطبية والتربوية Ärztlichpädagogische Arbeiten, des Vereins für Individualpsychol. نشره راينهارت فى ميونيخ (١٩١٣) وطبعته الثالثة نشرها برجمن فى ميونخ أيضاً (١٩٢٨) ، وكتابه : مشكلة الهوموسكس Das Problem der Homosexualität نشره راينهارت فى ميونخ (١٩٢٧) وطبعته الثانية هرتسل فى ليپتسك (١٩٣٠)؛ ثم كتابه : الجانب الآخر ؛ دراسة سيكولوجية اجتماعية فى خطأ المجتمع (الناس) Die andere Seite: Eine massenpsychologische Studie über die Schuld des Volkes نشره هيدرش فى ڤينا (١٩١٩) . كما نشر فى مذهبه : تطبيق علم النفس الفردى ونظريته Praxis und Theorie der Individualpsychlo. نشره برجمن فى ميونخ (١٩٢٤) وطبعته الرابعة (١٩٣٠) فى حوالى ٢٥٠ صفحة ؛ وظهرت ترجمته الإنجليزية The Practice and Theory of Individual Psychology نشره فى نيويورك هاركورت وبريس ، وفى لندن كيجان پول (١٩٢٤) والطبعة الثانية (١٩٢٧) ؛ وكتابه : معرفة الإنسان Menschenkenntnis الذى نشره هرتسل فى ليپتسك (١٩٢٨) والطبعة الرابعة (١٩٣١) فى ٢٣٠ صفحة ، والذى ظهرت ترجمته الإنجليزية باسم : Understanding Human Nature ترجمه ولف W.B. Wolfe ونشره جرينبرج فى نيويورك (١٩٢٧) وألن وأنوين فى لندن (١٩٢٨) ؛ وكتابه : فن علم النفس الفردى Die Technik der Individ. Psychol. الذى ظهر جزؤه الأول فى : الفن : قراءة تاريخ الحياة والمرض Die Kunst: eine Lebens-und - kranken - geschiechte zn lesen (فى ١٤٦ صفحة) ، وجزؤه الثانى فى : نفسية تلاميذ المدارس المشكلين Die Seele der schwererziehbaren Schulkinder (فى ١٨٨ صفحة) — نشرهما سنتى ١٩٢٨ ، ١٩٣٠ برجمن فى ميونخ .

وأخيراً كتابه : علم النفس الفردى فى المدرسة Individualpsychologie in der Schule نشره هرتسل فى ليپتسك (١٩٢٩).

ولأدلر فى الإنجليزية كتب كثيرة — منذ ١٩٢٩ خصوصاً — أهمها : مشاكل العُصاب Problems of Neurosis الذى جمع وصف تاريخ حالات منها، نشره كوزموپوليتان فى نيويورك وكيجان پول فى لندن (١٩٢٩ — ١٩٣٠)، وكتابه : علم الحياة The Science of Living نشره جرينبرج فى نيويورك (١٩٢٩) وألن وأنوين فى لنـــدن (١٩٣٠) فى ٢٦٤ صفحـــة ؛ وكتابه : حالة الآنسة ر : تفسير قصة حيـاة The Case of Miss R. The: Interpretation of a Life History نشره (سنة ١٩٣٠) جرينبرج فى نيويورك وألن وأنوين فى لنـــدن فى أكثر من ٣٠٠ صفحة ؛ وكتابه : تـاد الطفل على مبادئ علم النفس الفردى Guiding the Child on the Principles of Individ. Psychol. بالاشتراك مع غيره — نشره جرينبرج فى نيويورك وألن وأنوين فى لنـــدن (١٩٣٠) فى ٢٦٨ صفحة ؛ وتربية الأطفـــال The Education of Children ترجمه له ينسن E. & F. Jensen ونشره ألن وأنوين بلنـــدن (١٩٣٠) فى ٣١٠ صفحة ؛ وأخيراً كتاباه الهـامان : أنموذج الحيـــاة The Pattern of Life نشره له ولف عند كوزموپوليتان فى نيويورك (١٩٣٠) وكيجان پول فى لندن (١٩٣١) فى أكثر من ٢٧٠ صفحة ؛ ثم : كيف يجب أن تفهم الحيـاة What Life should mean to you نشره پورتر A. Porter عند لتل وبراون فى بوستن (١٩٣١) فى ٣٠٠ صفحة.

ومن أبلغ ما كتب أدلر فى الدلالة على مذهبه ؛ مقالة : العواطف والانفعالات من وجهة نظر علم النفس الفـــردى Feelings and Emotions from the Standpoint of Individ. Psychol. فى موسوعة وتنـــبرج : العواطف والانفعالات Feelings and Emotions التى نشرها ريمرت M.L. Reymert فى مطبعة جامعة كلارك بوستر ومطبعة جامعة أكسفورد بلندن (١٩٢٨) ص ص ٣١٦ — ٣٢١ ؛ ومقاله : علم النفس الفردى Individual Psychology فى سيكولوچيات ١٩٣٠ عند نفس الناشر الأمريكى وفى دور النشر المذكورة بوستر ولندن (١٩٣٠) ص ص ٣٩٥ — ٤٠٥ ؛ وخطابه فى اللجنة الوطنية للسجون والعمل فيهـــا Nat. Commitee on Prisons and Prison Labor فى نيويورك عن : الفرد المجرم وعلاجه The Individual Criminal and his Cure (١٩٣٠).

وتجد فى تاريخ حياة ألفرد أدلر ومذهبه فى علم النفس الفردى فى

العربية كتاب الأستاذ إسحق رمزى : علم النفس الفردى ، دار المعارف بمصر ١٩٤٦ .

(١٠) يونج (كارل چوستاف) C.G. Jung : ولد فى بازل فى يوليو ١٨٧٥ ، ولحق بجامعة بازل (١٨٩٥ — ١٩٠٠) حيث حصل على درجته فى الطب (١٩٠٢) ؛ واشتغل بعدئذ طبيباً فى زيورخ . وكان عضواً فى جمعية العلاج النفسى الطبية العامة Allegemeine ärztliche Gesellsch. für Psychother. وغيرها ، كما حصل على الدكتوراه فى الآداب من جامعة كلارك (١٩٠٩) . وكانت درجته (١٩٠٢) فى رسالة له عن : سيكولوچيا وپاثولوچيا ما يسمى بالظواهر البصرية Zur Psychol. und Pathol. sogennanter occulter Phanomene نشرها موتسه فى ليپتسك (١٩٠٢) .

وأهم مقالات يونج كتبها فى : الإصابة بالهستريا Ueber hyster isches Verlesen — وكانت رداً على الهر هان Hr. Hahn · نُشر فى سجلات علم النفس العام الألمانية Arch. f. d. ges. Psychol. (١٩٠٤) مجلد ٣ ص ص ٣٤٧ — ٣٥٠ ؛ وفى : نظرية الهستريا لفرويد Die Hysterielehre Freuds — رداً على ناقديها — نُشرت فى أسبوعية الطب بميونخ München Med. Woch. (١٩٠٦) مجلد ٥٣ ص ٢٣٠١ ؛ وكذلك فى نفس الموضوع : Die Freudsche Hysterietheorie فى شهرية الطب العقلى والعُصاب Monatschr. f. Psychiat. u. Neur. (١٣٩٠٨) السنة ٢٣ ص ص ٣١٠ — ٢٢) .

وبَحث يونج كذلك فى : الارتباط : تحليله وتفسيره ومنهجه وتطبيقه ، ونشر فى ذلك — وحده ومع رِكلن F. Riklin وپترسن F. Peterson وغيرهما — مقالات كثيرة معظمها فى : دراسات تشخيصية فى الارتباط «Diagnostische Assoziationsstüdien التى نشرها يونج عند بارت فى مجلدين فى حوالى ٥٠٠ صفحة (ليپتسك ١٩٠٦) والطبعة الثانية فى مجلد واحد (١٩١١) ؛ وكذلك فى مجلة عِلمَى النفس والأعصاب (النيورولوچيا) J. f. Psychol. u. Neur. ؛ وفى صحيفة الأمراض العصبية والطب العقلى المركزية Centbl. f. Nervenkh. u. Psychiat. — التى أنشأها فرويد كما قدمنا — من أهمها : التحليل النفسى وتجارب الارتباط Psychoanalyse und Assoziationsexperiment فى صحيفة علم النفس والنيورولوچيا المذكورة (١٩٠٥ — ١٩٠٦) مجلد ٧ ص ص ١ — ٢٤ ، وفى : دراسات تشخيصية · فى الارتباط (١٩٠٦) ص ص ٢٥٨ — ٢٨١ ، وكذلك : التفسير النفسى الپاثولوچى لتجارب الارتباط Die psychopatho-

logische Bedeutung des Assoziationsexperimentes في سجـلات الأنثروبولوچيا الألمانية (١٩٠٦) مجلد ٢٢ ص ص ١٤٥ — ١٦٢ ، وكذلك : المقالة الثامنة من « دراسات تشخيصية في الارتباط » في : الارتباط ، والحلم ، وأعراض الهستريا Assoziation, Traum und Hysterisches Symptom ليپتسك (١٩١٠) ص ص ٣١—٦٦ ونشرت في صحيفـة عـلم النفس والنيورولوچيا (١٩٠٦ — ١٩٠٧) السنة الثامنة ص ص ٢٥ — ٦٠ ؛ وكذلك : في موانع الاسترجاع في تجربة الارتباط Ueber die Reproduktionsstorungen beim Assoziationsexperiment المقالة التاسعة في « دراسات تشخيصية » مجلد ٢ ليپتسك ، بارث Barth (١٩١٠) ص ص ٦٧ — ٧٦ ، وفي مجلة عـلم النفس والنيورولوچيا (١٩٠٧) مجلد ٩ ص ص ١٨٨ — ١٩٧ .

وليونج كذلك من المقالات : تحليل الأحلام L'analyse des Rèves في السنة السيكولوجية (الفرنسـية) ١٩٠٩ مجلد ١٥ ص ١٦٠ وما بعدها ؛ ومنهج الارتباط The Association Method في مجلة علم النفس الأمريكية (١٩١٠) مجلد ٣١ ص ص ٢١٩ — ٢٦٩ ؛ وملاحظات جانبية على كتاب ڤـتلز في العقدة الجنسـية Randbemerkungen zu dem Buch von Wittels: Die sexuelle Not في : سنوية بحوث التحليل النفسي والمرضي Jahrb. f. Psychoanal. und Psychopathol. Forsch. (١٩١٠) مجلد ٢ ص ص ٣١٢ — ٣١٥ ؛ وفي نقد التحليل النفسي Zur Kritik über Psychoanal. في نفس المرجع والسنة ص ص ٨٤٣ — ٨٤٦ ؛ ومورتن برنس Morton Prince : آليـة الأحلام وتفسيرها The Mechanism and Interpretation of Dreams نفس المرجع (١٩١١) مجلد ٣ ص ص ٣٠٩ — ٣٢٨ .

ومنذ حوالي ذلك الحين يتجه يونج إلى الكتابة في مذهبه وتحديد معالمه وتمييزه عن مذهبي فرويد وأدلر وغيرهما من أتباع التحليل النفسي ، فيكتب في : قول في دراسة الأنماط السيكولوجية Contribution à l'Etude des Types psychologiques في : سجلات علم النفس (الفرنسية) Arch.de Psychol. (١٩١٣) السنة ١٣ ص ص ٢٨٩ — ٢٩٩ ؛ وفي : أهمية اللاشعور في تحليل المرض النفسي The Importance of the Unconscious in Psychopathol. جـ ٢ ص ص ٩٦٤ — ٩٦٨ ؛ وفي : نظرية التحليل النفسي The Theory of Psychoanalysis في صحيفة التحليـل النفسي Psychoanal. Rev. (١٩١٤، ١٩١٥) في أعداد متفرقة جمعتها — في نشرة

واحدة — سلسلةُ بحوث الأمراض العصبية والعقلية Nerv. & Ment. Dis. Monog. Series (١٩١٥) فى ١٣٣ صفحة (برقم ١٩) . وعاد يونج فتناول هذا الموضوع وتركيبَ اللاشعور La Structure de l'inconscient واللاشعور والغريزة Instinct and the Unconscious ، ومسألة القيمة العلاجية للتصريف The therapeutic Value of « Abreaction » وأُسس الاعتقاد فى الأرواح The psychol. Foundation of Belief in Spirits ؛ وفى : علاقة علم النفس التحليلى بفنّ الشعر . . . وغير ذلك من مسائل علم النفس التحليلى فى مجلات علمية كثيرة .

وأهم الكتب التى ألّفها وأصدرها يونج هى — عدا رسالته و « دراسات تشخيصية » التى ذكرنا : فى سيكولوجية الخَبال العقلى المبكر Ueber die Psychol. der Dementia praecox نشره مارهولد فى هلى (١٩٠٧) وترجمه إلى الإنجليزية بريل وپترسون وأصدرتة شركة منشورات الأمراض العصبية والعقلية Nerv. & Ment. Dis. Publ. Co. بنيويورك (١٩٠٩) ؛ وكتابه : مضمون الذهان Der Inhalt der Psychose نشره دويتكه فى ليپتسك وڤينا (١٩٠٨) فى ٢٦ صفحة ، والطبعة الثانية (١٩١٤) فى ٤٤ صفحة ؛ وكتابه : مَبنى الليبيدو وما يَرمزُ إليه Wandlungen und Symbole der Libido الذى كان قد نَشره على مرتين فى « سنَوية بحوث التحليل النفسى والمرضى » التى ذكرنا : مجلد ٢ (١٩١١) ص ص ١٦٢ — ٢٦٤ ومجلد ٣ (١٩١٢) ص ص ١٢٠ — ٢٢٧ ؛ وعاد فنشره دويتكه فى ڤينا (١٩١٢) فى ٤٢٢ صفحة ، وطبعته الثانية (١٩٢٥) ؛ ثم كتابُه الصغير : خطوط جديدة لعلم النفس Neue Bahnen der Psychol. نشره راشر Rascher فى زيورخ (١٩١٢) فى ٣٧ صفحة ؛ والكتاب الذى نَشره بعنوان : مقالات سيكولوجية Psychologische Abhandlungen لمجموعة مقالات ، نشره دويتكه فى ڤينا (١٩١٤) فى ٢١١ صفحة .

على أن أهم كتب يونج المذهبية : أوراق مجموعة فى علم النفس التحليلى Collected Papers on Analytical Psychol. التى ترجمها إلى الإنجليزية لونج C.E. Long ونشرها بايير Baillière فى لندن (١٩١٦) فى ٤١٠ صفحة ، والطبعة الثانية (١٩١٧) فى ٤٩٢ صفحة ؛ وكتابه : سيكولوجيا اللاشعور Die Psychol. der Unbewussten الذى وصفه بأنه : نظرة أخرى فى نظرية ومنهج التحليل النفسى الحديثين Ein Ueberblick über die moderne Theorie und Methode der Analytischen Psychol. نشره

راشر فى زيورخ (١٩١٧) ، وطبعته الثالثة المختصرة والمعدلة (١٩٢٦) نشرها باسم : اللاشعور فى الحياة النفسية السوية والمرضية Das Unbewusste im normalen und kranken seelenleben (فى ١٦٦ صفحـــة) وقد ترجم له فى ذلك هِنكِل B.M. Hinkle : سيكولوجيا اللاشعور : دراسة لتحولات اللبيدو ورُموزه، وقول فى تاريخ تطور الفكر Psychology of the Unconscious: A Study of the Transformations and Symbolisms of the Libido. A Contribution to the History of the Evolution of Thought نشره موفات ويـــارد فى نيويورك (١٩١٧) فى ٥٦٦ صفحة ؛ كماترجم له إِيدَر M.D. Eder تجاربه فى تشخيص الشروط السيكوپاثولوچية التى طبِعت فى عيادة الطب العقلى بجامعـــة زيورخ باسم Studies in Word Association ونشرها عند نفس الناشر الأمريكى وعند هاينمان بلندن (١٩١٩) فى ٥٧٥ صفحة .

ثم بعد هذا يأتى كتابه الهام : الأنماط السيكولوچية Psychologische Typen نشره راشر فى زيورخ (١٩٢١) والطبعة الثانية (١٩٣٠) فى أكثر من سبعمائة صفحة — ترجمه إلى الإنجليزية بينز H.G. Beynes باسم : Psychological Types; or the Psychol. of Individuation ونشره فى نيويورك هاركورت وبريس (١٩٢٣) ؛ وكتابه المذهى الصغير : علم النفس التحليلى والدافع Analytische Psychol. und Erziehung (١٩٢٦) فى ٩٥ صفحة ؛ ثم كتابه : العلاقات بين الأنا واللاشعور Die Beziehungen zwischen dem Ich und dem Unbewussten نشره رايشل Reichl فى دار مشتات (١٩٢٨) فى ٢٠٨ صفحات ؛ وكتابه : أقوال فى علم النفس التحليلى Contributions to Analytical Psychol. ترجمه الأستاذان بينز C.F. Beynes & H.G. Beynes ونشره فى نيويورك هاركورت وبريس، وفى لنـــدن كيجان پول (١٩١٠) فى ٤١٠ صفحات؛ ثم الترجمة الفرنسية لكتابه اللاشعور فى الحياة النفسية السوية والمريضة — سابق الذكر — L'Inconscient dans la Vie Psychique Normale et Anormale نقلها جرانچان بايار Granjean-Bayard ونشرها پايو فى پاريس (١٩٢٨) ؛ ثم : مقالتان فى علم النفس التحليلى Two Essays on Analytical Psychology هما : فى العقل اللاشعورى السوى والمريض ، والعلاقات بين الأنا واللاشعور (سبق ذكرهما بالألمانية) ترجمهما له الأستاذان بينز أيضاً ، ونشرهما پريير فى لندن (١٩٢٨) فى ٢٩٨ صفحة ؛ وأخيراً كتابه : فى النشاط النفسى وموضوعات سيكولوچية

أخرى Ueber die Energetik der Seele und andere psychologische Abhandlungen نشره راشر فى زيورخ (١٩٢٨) فى ٢٢٤ صفحة .

(١١) ماك كُردى (چون طومسون) J. Th. MacCurdy : ولد فى تورنتو بكندا (١٨٨٦) ولحق بجامعة تورنتو (١٩٠٤ — ١٩٠٨) فحصل على درجة الليسانس فى الآداب A.B. (١٩٠٨) ثم لحق بجامعة چونز هوپكنز (١٩٠٨ — ١٩١٢) حيث حصل على الدكتوراه فى الفلسفة (١٩١١) ، ثم عين فى مدرسة الطب بجامعة كورنل محاضراً فى علم النفس الطبى (١٩١٣ — ١٩٢٢) فمحاضراً منذ ذلك الحين لعلم النفس المرضى فى جامعة كمبردج . وكان عضواً ورئيساً لبعض الجمعيات العلمية والطبية والمرضية فى أمريكا

وقد كتب ماك كردى — عدا مقالات كثيرة — مجموعة من الكتب فى : سيكولوچيا الحرب Psychology of War عند هاينمان بلندن (١٩١٧) فى ٦٨ صفحة ، وداتون بنيويورك (١٩٢٦) فى ٩١ صفحة ؛ وعُصاب الحرب War Neuroses نشرته مطبعة جامعة كمبردج بلندن (١٩١٨) فى ١٣٢ صفحة . كما تناول علم النفس الديناميكى فى كتابه : مشاكل فى علم النفس الديناميكى Problems in Dynamic Psychol. — وهو كما يقول فى عنوانه : نقد للتحليل النفسى وتعديلات مقترحة — نشرته فى لندن مطبعة جامعة كمبردج ، وفى نيويورك شركة مكملان (١٩٢٣) فى ٣٨٣ صفحة ؛ ثم : سيكولوچيا الانفعال The Psychol. of Emotion نشره هاركورت وبريس فى نيويورك (١٩٢٥) فى ٥٨٩ صفحة ، وكيجان پول بلندن فى نفس السنة بنفس الحجم ، ثم : تَشكل الأحلام Metamorphosis of Dreams فى مجموعة : مشاكل الشخصية Problems of Personality نشره فى لندن كيجان پول ، وفى نيويورك هاركورت وبريس (١٩٢٥) فى ٤٣٤ صفحة ، وأخيراً كتابه : مبادئ علم النفس والفيزيولوچيا العامة Common Principles in Psychology and Physiology نشرته فى لندن مطبعة جامعة كمبردج ، وفى نيويورك شركة مكملان (١٩٢٨) فى ٢٨٤ صفحة عدا المقدمة .

الفصل السادس

مذهب القصد أو علم النفس الهُورمى

كما أن المدرسة الوجودية ترى فى الإحساس الحقيقةَ الأساسية لعلم النفس ، والسلوكية تَجدُها فى الحركات الجسمية ، وعلم النفس الجشطلتى فى إدراك الأشكال ؛ كذلك يوجدُ عِلمُ نفس يأخذ نقطةَ بدئِه من حقيقة القصد purpose . والنشاط الإنسانى يُظهر هذه الوجوهَ المختلفة إن لم يُظهر إلى جانبها أكثرَ منها . وليس من الغريب أن يَجذب هذا أو ذاك فى عالِم نفسٍ ما ميلَه الخاص ، ويؤدى به إلى إنشاء مذهب سيكولوچى على وَجه بِعينهِ من النشاط — يَسترعيه هو وكأنه أكثر أهميةً .

حقيقة القصد :

فحقيقة القصد الإنسانى لايمكن أن تكون موضعَ جدَل(١) . وهؤلاء من علماء النفس الذين يَستبعدونه من علم النفس هم أنفسُهم أفراد مُغرِضون purposeful . ولا يمكن أن يقرأ يَتشِنر أحدٌ إلا ويُدرك أنه بين يدى رجل مُقصِد . إنه يريد أن يَستبعدَ القصدَ والمعنى والقيمة ؛ لأنه بهذا الاستِبْعاد وحدَه — فيما حَسِب — يمكن أن يَتنزَّل علمُ النفس إلى وَصف ما هو حقيقى . وهو فى نهاية « مقدمته » Prolegomena يُبين أن الغرضَ المباشر لعلم النفس الوجودى يجب أن يكون فى إعطاء الحقائق التى هى موجودة : « بل إننا لا نريدِ أن نَفرِضَ طابعاً جديداً على حقائق علم النفس ... وإنما نأمل فقط أن نَنسِجها كلَّها بتوافُق فى شكل سَبق تَصميمُه فى جزءٍ منه » . ليس من شك فى أن وَطسون فرد مُقصِد ؛ وإن هو لم يَستعِن فى سيكولوچياه بالقصد : « فى سنة ١٩١٢ صمَّم السلوكيون إما أن يتخلوا عن علم النفس أو أن يجعلوا منه علماً طبيعياً ... إن اهتمام السلوكى بأفعال الإنسان هو أكثر من اهتمام المتفرج (الناظر) . هو يريد أن يُراقب استجاباتِ الإنسان » . وأنا لا أقتبِس من هؤلاء المؤلفين لِأرميَهم بالتناقض ، فإنهم هنا فى هذه الفقرات يسمحون لأنفسهم أن يتحدثوا بوصفهم كائنات إنسانية — لا كعلماء نفس. هم يتحدثون «عن» علم النفس

لا « فى » علم النفس . ولكن المرء يستطيع أن يَستشهد بهم – كما يَستشهد بأى إنسان آخر – لِيَتبيَّن حقيقة القصد الصائبة أو الظاهرة لأول وهلة . أما أن هذه الحقيقة يجب أن تُبسَط أو تُجعَل حقيقةً أساسية فى علم النفس ، فهذه مسألة أخرى .

ويَعتقد الأستاذ كيو Z. Y. Kuo(٢) – بجامعة فَه تان Fuh Tan بالصين ، ومن أتباع طائفة السلوكيين فى أمريكا – أن السلوكية قد بلغت حتى ذلك الحين منتصفَ الطريق فى تحريرها نفسها من أفكار العقلية فى علم النفس التقليدى . وما يقولُه عن القصد جَديرٌ بأن نَأخذ عنه ؛ بوصفِه تقريراً قوياً للاتجاه المقابل نحو أى استخدام لهذه الفكرة فى علم النفس* :

« إن فكرةَ القصد هى بديل خامل lazy substitute للتحليل المُفصَّل الدقيق ... وبِفَهمٍ أحسن ... للمُنبهات الأولية وطابع المنبه ، وبمعرفة أكثر للحقائق السيكولوجية ، وبتَبَصُّرٍ أوضح فى تاريخ السلوك بالطريقة عينِها التى يصف بها الفيزيقى حركةَ آلةٍ ما ... فهذه الآلة الإنسانية تَسلُك على نحوٍ مُعين ؛ لأن تأثير البيئة قد حدا بها إلى أن تفعل ذلك ...

ورَفض فكرة القصد يتضمن نَبْذَ الفكرة الشائعة عن المحاولة والخطأ فى تَعلُّم الحيوان ، إذ أن هذه النظرية تقوم على فكرة أن ... للحيوان قصداً ، أو أنه يَبذل جهداً لحل مشكلة ... ولو أننا أخذنا بفكرةِ أن كلَّ حركةٍ للحيوان فهى سلبية ومدفوعة بالتأثيرات المحيطة به ؛ فإنه لا بد أن فكرة المحاولة والخطأ هذه يجب أن تُترَك ... فالقَصد يُتنبَّأ به أو يَخلقه المجرب ، وليس للحيوان نفسِه هدف أو غرض ... وكَون الفعل مُوفقاً أو فاشلا يتوقف على قَصد المجرب . أما من وجهة النظر الموضوعية فالفعل الواحد له من التوفيق أو الإخفاق ما لأى فعل آخر تماماً . »

ليس من شك فى أن كيو يكتب كما يكتب فرد مغرِض . بل هو يعترف بأن المجرب يمكن أن يكون له قَصد ، ولكن الحيوان الذى تُجرى عليه التجربة لا يمكن أن يكون له قصد ؛ ولا الكائن الإنسانى الذى يَدرُسه عالِمُ النفس . وبعبارة أخرى ؛

* ز . ى . كيو : الغلطة الأساسية فى فكرة القصد ومغالطة المحاولة والخطأ — مجلة علم النفس (١٩٢٨) مجلد ٣٥ ص ٤١٤ — ٤٣٣

إن القصد يمكن أن يُسمَح له بالبقاء فى عالَمنا العادى ، ولكنه يجب أن يُستبعد من ميدان علم النفس . والأسباب التى تدعو إلى استبعاده هى أنه فكرة عقلية وليس تَصوراً موضوعياً (خارجياً) ، وأنه غير ناضج ولا مُتحلِّل ؛ وينبغى أن يَترك المجال لوصف أكثر تفصيلاً وفيزيولوچية .

فالقصد إذن يقدِّم نفسَه كحقيقة . والمسألة هى كيف نَعرِض له . قد نرفض أن يكون لنا به شُغل ، وقد نُقسِّمه ونبقى على أجزائه ، وقد نعترف به فى مجموعة الحقائق السيكولوچية ونحاول أن نجد له مكاناً ، أو قد نَجعله مَلِكاً على علمِ النفس ونُلحِق به كلَّ الحقائق الأخرى ؛ وإذا أخذنا بهذا الدور الأخير فنحن قَصدِيون .

والقصد — كما نَستخدِم اللفظَ بصفة عامة — يشمل حقيقتين ليستا مُتَساوقتين دائماً . فهو يشمل التنبؤ بعاقبة فعل معين ، ويشمل الرغبة فى هذه العاقبة . فالطيار فى مأزق معين ربما تنبأ أنه مُقبِل على الاصطدام بشجرة ؛ ولكن ذلك ليس ما يقصد إليه بالتحديد . والطفل الجائع يَصيح ويَتخبَّط ؛ دون أن يكون لديه بالضرورة أى تنبؤ بالحالة التامة التى يحاولها . فمذهب القصد يعنى أسبقية المحاولة أو السعى أولىَ من أسبقية التنبؤ. وأحياناً فإن الكلمة الأوسع هورم(hor-may كلمة يونانية بمعنى حَاثَ urge) تُستبَدل بها كلمةُ قصد ؛ وكذلك يُسمَّى مذهبُ القصدبعلم النفس الهورمى .

دعوة مكدوجل للقَصدِية :

ويشمل علمُ النفس الهورمى — بالمعنى الواسع — مذاهب فرويد وأدلر ويونج ، وربما شمِلَ علمَ النفس الجشطلتى أيضاً . على أن هناك مدرسة — يتركز لديها عِلمُ النفس بالتحديد حول حقيقة القصد — هى التى يمكن أن نَتميَّزها بوصفها مدرسة القصد . والمتحدث بلسان هذه المدرسة خصوصاًهو وليم مكدوجل(٣) (المولودسنة ١٨٧١) بكمبردج ولندن وأكسفورد قديماً ، وجامعات هارڤرد وديوك أخيراً . وأخَذَ علمُ النفس الهورمى لمكدوجل شكلَه فى ١٩٠٨ ؛ فهو بهذا أقدم المدارس التى نعرِض لها — باستثناء المدرسة الوجودية وتحليل فرويد النفسى . ولعل مكدوجل لم يتأثر بفرويد أولَ الأمر ؛ إذ أنه كان يُعنى فى ذلك الحين بِعلم نفسٍ اجتماعى أولى من علم نفس مَرضى . ولكنه حديثاً قد نادى بفرويد زعيماً لعلم النفس الهورمى ، بينما تَشبَّث هو بمذهب يختلف كثيراً عن مذهب فرويد .

وتعهّد مكدوجل – بعد عمل مُبكر فى علم النفس التجريبى والفيزيولوچى بالغ الأهمية – أن يضع فى سنة ١٩٠٨ أساساً للعلوم الاجتماعية . ومقدمته للعلوم الاجتماعية كتابٌ ظاهرُ الأهمية فى تاريخ عصرنا هذا . فقبلَ هذا العهد لم يقم علمُ النفس بمحاولة جدّية ليكون فى خدمة العلوم الاجتماعية ، وإنما ترك لكل عالم اجتماعى أو مؤرخ اقتصادى أن يتخذ له علم نفس يختص باستعماله . أما أنّ هذه السيكولوچيات المرتَجلة كانت فَجة فهذا حقاً خطأ علماء النفس المختصين الذين لم يتحملوا مشقة اعتبار كيف أنهم أنفسَهم يمكن أن يُزوِّدوا "هؤلاء" بعلم نفس قد يُلقى ضوءاً على المشاكل الاجتماعية . لقد كانت السيكولوچية العلمية من الانغماس فى دراسة العمليات العقلية وفى تفاصيل الإحساس والذاكرة وتكوُّن العادة حتى أنها نادراً ما مَسَّت مشاكلَ الدوافع . على أن العلوم الاجتماعية لم تكن تُعنَى بتفاصيل العمليات العقلية أو الحركية ، ولكن ربما شاءت أن تَعرف دافعَ السلوك الإنسانى : هل الناس يعيشون جماعات ويخضعون لحكومة بدافع الخوف من بعضهم البعض ؟ أو بحساب أكبر فائدة لأكبر عدد ؟ أو بمجرّد القُصور الذاتى والتقليد ؟ هل كانت العقيدة من عمل غريزة دينية ، والسياسات نتيجة غريزة سياسية ؟ وهل الضمير مَلَكة فطرية يتميز بها الصوابُ من الخطأ ؟ فالذين أرادوا لهذه الأسئلة حَلاً قد أخَذوا بأحسن إجابة عرَضت لهم ، بينما أخذَ علمُ النفس طريقَه فى الجانب الآخر .

ومن هنا كانت ثورة مكدوجل على النظام القائم ثورةً مزدوَجة : فهو قد اعترض على علم النفس السابق المُهوَّش كما وجده فى العلوم الاجتماعية ؛ كما اعترض على النزعة العقلية ذات الجانب الواحد فى علم النفس التى كانت ، واعترض على الإيمان بأن الاستبطان هو وحدَه المنهجُ الصحيح فى علم النفس ؛ « لأن حياة الانفعال والدور الذى تقوم به الدوافع هما الجزء من حياتنا العقلية الذى يُعطى للملاحظة والوصف الباطنيين أقلّ الميادين فائدة » . أما الدراسات غير الباطنية فى الحيوان والأطفال والشواذ من المراهقين فقد كانت تُبشر بكثير فى دراسة الدوافع . والميل إلى النزعة العقلية فى علم النفس قد أدى إلى افتراض أن كل السلوك الإنسانى عقلى وقائم على تدبُّر العواقب . ولكن لِمَ كانت عواقبُ معينة موضعَ رغبة أكثر من غيرها ما لم تكن هناك رغبات أو حاجات أو دوافع أولية ؟ فكما أنه فى الهندسة يجب أن نُقيم استدلالاتِنا على بديهيات لا يمكن البرهنة عليها ؛ فكذلك السلوك يرجع فى أصله إلى دوافع أولية هى غير عقلية – لمجرد أنها نهائية ، وأنها بَيِّنة بنفسها للفرد .

« إنها القوى العقلية ، مصادر النشاط ؛ تلك التى تضع الغايات وتنهض بمجرى كل فعل إنسانى — والتى ليست العمليات العقلية لهذه القوى إلا خُدَّاماً أو آلاتٍ ووسائلَ لها — « هذه القوى العقلية » هى التى يجب أن تُحدَّ بوضوح ، والتى يجب أن يُوضَّح تاريخُها فى الجنس وفى الفرد ، قبل أن تستطيعَ العلومُ الاجتماعية أن تَبنى على أساس سيكولوچى ثابت . والآن . . . فإن علماء النفس . . . قد أغفلوا بوجه عام هذه المسائل الهامة جداً من الناحية الاجتماعية* . »

ومع أن تَشبُّث مكدوجل بالغرائز كان جديداً ؛ فقد وجَد له بالفعل أسلافاً جديرين بالاعتبار فى مناقشات دارون و . ج . ه . اشنيدر G. H. Sehneider ووليم چيمس . فقد كتب چيمس* :

« لم يعُد شيءٌ أكثرَ شيوعاً من ملاحظة أن الإنسان يختلف عن الكائنات الدنيا بحاجته التامة تقريباً للغرائز ، وافتراض أنها تعمل فيه « بالعَقل » ... يجب بطبيعة الحال أن نتجنب الخصومة حول الألفاظ ، وحقائقُ الأمر هى فى الواقع ظاهرة الوضوح . فلِلإنسان مجموعة مِن الدوافع أكبرُ بكثير مما لأى حيوان أدنى ، وأى واحد من هذه الدوافع — إذا أُخذَ فى ذاته — هو من العمَى بما يمكن لأقل الغرائز أن تكون . ولكن نظراً لذاكرة الإنسان ، وقدرته على التفكير ، وقدرته على الاستدلال ؛ تأتى كلٌّ من هذه إلى أن تكون مشعوراً بها من جانبه بعد أن يكون قد ... اختبر نتائجها فيما يتعلق بتنبؤ هذه النتائج . »

وبدأ مكدوجل يعمل بجِدّ فى تَنمية علم نفسِ دَوافع السلوك الإنسانى . وكدوافع أولية أخذ « غرائزَ » الإنسان . ولم يُركز انتباهَه كله فى الحركات الغريزية ، كما أنه لم يَقبل قَط تصور هربرت سپنسر للغريزة وكأنها سلسلة أفعال منعكسة . فالغريزة — عند مكدوجل — ليست مجرد فعل حسى حركى آلى ، لأنه لاحظ أن الحس المشترك غالباً ما يَربط الغريزةَ بالانفعال . فالخوف مثلا يمكن أن يُتحدَّث عنه وكأنه غريزة ؛ أو بوصفه انفعالا ، ويمكن ذلك فى الاستطلاع وفى غيره

* وليم مكدوجل : مقدمة إلى علم النفس الاجتماعى — مثيون وشركاه (١٩٠٨) ، ج . و . لوس وشركاه (١٩٠٩) ص ص ٣ — ٤ .

* وليم چيمس : مبادئ علم النفس (١٨٩٠) جزء ٢ ص ص ٣٨٩ — ٣٩٠ .

« من الغرائز » . وقد بدا له أنه — فى الأحوال التى تتعلق بالجماعة — يكون صلب الغريزة هو الانفعال ، وبتمييزها بصعوبة عن الانفعال ؛ بواسطة الحس المشترك ؛ يوجد عنصر نَازِعٌ أوسَاعٍ conative or striving element هو الدافع نحو هدف معين . وعلى هذا فالخوف يتضمن دافعاً للهروب ، والغضب دافعاً لتحطيم الخصم فالغريزة إذن عقلية كما هى حركية ، وأبعد من هذا فهى تشمل فى الجانب الحسى ؛ ليسَ مُجردَ استقبال سلبى للتأثير ؛ بل إفرادَ الشيء المثير ، والانتباه له وإدراكه .

فالغريزة عند مكدوجل إذن هى دافع أول ، وتَحفُّز فطرى للفعل . وهى ليست ارتباطاً غير مكتسَب بين مُنبه معيَّن وحركةٍ بعينها . وهو يحللها إلى أجزاء أو وجوه ثلاثة رئيسية :

(١) فمن ناحية الاستقبال receptive side هى استعداد لملاحظة تنبيهات معينة تثير النشاط .

(٢) ومن ناحية الفعل executive side هى استعداد للقيام بحركات معينة أو إحداث تغييرات خاصة فى الموقف .

(٣) وبين الناحيتين الاستقبال والفعل. يوجد الانفعال الذى هو صلب الغريزة كلها

وعلى هذا فغريزة الخوف أو غريزة الهروب — مثلا — تشمل تثبيت الانتباه فى الأشياء المُرِيبة ، والانفعال بالخوف ، والنزوع إلى الهرب والحركات المختلفة التى يتحقق بها هذا النزوع .

ولعل من الخير أن نأتى هنا على قائمة مكدوجل فى الغرائز ، لنظهر — على الأقل — ما هنالك من فرق بين طِراز علم النفس الهورمى عنده وبين طَرز فرويد ويونج وأدلر ؛ الذين يقولون عادة بغريزتين ؛ أو طائفتين من الغرائز . وسأعطى القائمةَ المُوسَّعة كما قدمها مكدوجل فى كتابه المحدَث : تخطيط علم النفس Outline of Psychology سنة ١٩٢٣ :

غريزة الهروب من الخطر ؛ مع انفعال مصاحب بالخوف ؛
غريزة المقاتلة ، مع انفعال بالغضب ؛
النفور والكراهة « التقزز » ؛
غريزة الوَلاَدَة فى حماية الصغار ، مع الشعور بالحنان ؛
صيحة الألم الغريزية . مع الشعور بفقدان المعونة (العجز) ؛

غريزة التزاوج أو الجنس ، مع الانفعال الجنسى ؛
حب الاستطلاع ؛
الخضوع مع الشعور بالتواضع ؛
تقرير الذات ، مع الشعور بالتفوق « أو العلو » ؛
نشدان الصحبة (غريزة التجمع) ، مع الشعور بالعزلة ؛
البحث عن الطعام ، مع استمراء الطعام ؛
غريزة الاختزان ، مع الشعور بالملكية ؛
غريزة الإنشاء « التكوين » ، مع شعور بالإبداع ؛
الضحك ، مع شعور بالتسلية . « العبث » ؛

وهناك غرائز أخرى أقلّ من هذه : كغرائز العَطس والسُّعال والإخراج والتبوُّل ؛ التى تلعب دوراً غير كبير فى الحياة الاجتماعية ؛ وإن كان الشعور والنزوع المصاحبان لها أحياناً ما يكونان — بصفة مؤقتة — قَويَين جداً . ولكن الغرائز الكبرى التى يقول بها مكدوجل تلعب بالفعل دوراً كبيراً ؛ وتمُد بكل الدوافع الأولى اللازمة للتمهيد للأسرة ، وللمجتمع ، والحرب ، والدين ، وسائر ضروب النشاط الاجتماعى الأخرى .

والغرائز لا يُحصِّلها الفرد ، وإنما هى تُسلَّم إليه بالوراثة . وهى الوَثَبات الأصلية فى كل نشاطه ، وبغيرها تكون آليته العقلية والحركية أشبه بمعمَل نُزعَت منه القوة . إذَن لكانَت الآلةُ الإنسانية سلبية ، يَدفعها مجرد تنبيه يتفق أن يأتى عليها . إن الفعل المنعكس يبدو أنه يَدفع بهذه الطريقة بتأثير الساعة ، ولكن ما نُسميه السلوك يختلف عن جُملةٍ من الأفعال المنعكسة . فالسلوكُ يُظهر الخصائصَ الآتية* :

(١) هو يُظهر درجةً من التلقائية والانفصال عن البيئة المحيطة ؛ فى الوقت عَينه الذى هو فيه استجابة لهذه البيئة .

(٢) وهو يُمثِّل استقراراً فى لون من النشاط ؛ رُبما بَدأ بمُنبه مَوقوت ، ولكنه يستمر بعد تَوقف هذا المنبه . والأرنب الذى ما يزال مُندفعاً نحو جُحرِه بعدَ صوت مؤقت هو مثال ذلك .

(٣) وفى كل هذا الاستقرار يوجد كثير من التنوع فى السلوك الحركى . فإذا عرضَت عَقَبة كان عَودٌ ثم وصول إلى نفس الهدف ؛ كأن لم تقُم بإزائِه هذه العقبة

* وليم مكدوجل : تخطيط علم النفس — مثيون وشركاه — ص ص ٤٣ — ٤٦ .

(٤) وينتهى النشاط المتنوع عندما يُوصَل فيه إلى نتيجة بِعينها . يأخذ القط حركة قوية نحو شجرة ، وفوق الجذع ؛ ثم يجلس مطمئناً فوق غصن يُطِلّ منه على الكلب.

(٥) وغالباً ما يتركب الجزءُ الأول من سلسلة السلوك من حركات تهيئ الحيوانَ للمرحلة التالية . والرَّبضُ المُتحفِّز لقِط الصيد مثلٌ لذلك .

(٦) فإذا تكرر غالباً الموقفُ المثير لسلسلة السلوك ؛ فإن السلوك المتنوع يأخذ صورة محددة أكثر ، فتُستبعَد الحركاتُ التى لافائدة منها ، وتَدخُل اختصارات وتعديلات . وفى كلمة واحدة ؛ يتعلم الحيوان عن طريق المحاولة والخطأ .

وبالجملة فإن السلوك — إذا نظرنا إليه من ناحية موضوعية خارجية — يَدُل على نُشدان الهدف . وهؤلاء السلوكيون الذين يَغُضُّون نظرَهم عن هذه الخاصة الرئيسية المميِّزة لا يمكن أن يُعَدُّوا دارسين للسلوك مُخلِصين . فنُشدان الهدف goal seeking يتطلب الدوافع ، والدوافع الأولى تقدمها الغرائز .

ومع أن مكدوجل قد تَشبَّث إلى هذا الحد بالغرائز الموروثة كدوافع أساسية ؛ فليس من الإنصاف أن نقول إنه قد أغفل أهميةَ الاكتساب . فالغريزة — كما يَستطرِد هو فى الشرح — قابلة للتحول عن طريق خبرة الحيوان . فغريزة الغضب أو المقاتلة مثلا تتحور بطريقتين رئيسيتين : فمن الناحية الحسية ؛ تتحور هى بأن تلتصق بالمنبهات الجديدة ؛ بمعنى أنها تصبح مستمرة — كما يقول پاڤلوف . فالسلوك الغضبى فى الطفل يُثيره الكَبح الفيزيقى أو التدخل الفيزيقى فى حركات الطفل ، ثم بعد هذا ؛ الكَبحُ أو التدخلُ بنوع آخرَ أكثر صِلة كما يظهر فى الأوامر اللفظية أو نحوها هو الذى يثير الغضب . ومن الناحية الحركية أو التنفيذية ؛ يحدُث كثير من التحور والاكتساب أيضاً . فالتجريح والقذف عند الطفل الغاضب تَصير إلى العَضّ ، والخدش ، وشَد الشَّعر ، والضرب بِجُمع اليد ، وبطُرق كلامية وغير مباشرة أخرى لإضرار الخَصم .

وعلى هذا النحو يترك مكدوجل مجالا كبيراً للاكتساب — سواء فى الناحية الحِسية وفى الناحية الحَركية ؛ ولكنه ما يزال يقول بأن صُلبَ الغريزة والانفعال يَبقَى — من الناحية العملية — هو هو رَغم كل اكتساب وخبرة . وهذا الصُّلب الانفعالى (الدافع) هو الذى يَجعل للغريزة استمراراً . فالطفل حين يستجيب للإمساك بمِرفَقَيه بالجرَح والقذف ، والبالغ حين يستجيب لكلمةِ إهانة بالبَتّ

فى وَسائل مُعينة يريد بها إلى إيذاء مُهينِه ؛ يبدو واضحاً جداً أنهما يقومان بأفعال جِدّ مختلفة ، ولكنّ الذى يجمع بين هذه الأفعال المختلفة تحت غريزة بعينها هو انفعالُ الغضَب والنزُّوع إلى الإضرار المشتركان بينهما .

وليس بالطرق التى وَصفنا فحسبُ تتحور الغرائز ، وإنما هى ترتبط أيضاً فى مُيول مُركّبة ؛ أو عواطف . ويتحدث مكدوجل عن الغرائز وكأنها مُيول منفصلة من الأصل ؛ ثم هى تُصبح مرتبطة فى مجرى خِبرة الفرد . فأكثر من غريزة واحدة تتعلق بنفس الشخص أو الشئ أو الموقف ، وعن طريق هذا النوع من الربط تنمو عواطف الطفل الكبير والبالغ . فالوطنية مثلا هى عاطفة . الوطنية ليست غريزة ولا انفعالا أولياً . فوطَنُ الإنسان يصبح مرتبطاً بأكثر من غريزة واحدة ، وعاطفة الوطنية المركبة هى نتيجة لها . الوطن فى حالة الخطر يثير الخوف ، وهو حين تَعتدى عليه دولةٌ أخرى يُثير الغضَب ، وهو فى تَنافُسه مع الآخرين يُثير تقريرَ الذات ، والدولة — كوطن لنا — تثير انفعالات الكثرة المحبين لها . فدولتنا مرتبطة بانفعالات وغرائزَ متعددة ، ومَيلنا المركَّب للوطنية ينمو على هذا النحو ؛ ويُصبح قُوة دَافعة فى سلوكنا .

والطفل يُنمِّى عواطفَه نحو أفرادٍ كأبيه وأمه ، ونحو أنظمةٍ كالمدرسة والكنيسة ؛ مما يُثير فيه مختلفَ الانفعالات . وهو يُنمى عاطفتَه نحو نفسه ؛ عاطفة احترام الذات التى يُعلّق عليها مكدوَجل أهميةً كبُرى فى ضَبط النفس والتخلّق والتوفيق . وتقوم عاطفة احترام الذات هذه خصوصاً على غريزتى السيطرة والخضوع : فللمرء بطبيعته رغبة فى القوة ، وله أيضاً قدرة مُكافِئة لتَعرُّف السلطة فى الآخرين والخضوع لها بلُطفٍ قليل أو كثير . وكثيرٌ من الاكتساب يَدخل فى نُموّ اتجاه الفرد نحو نفسه .

وقد راض مكدوجل وغيرُه كفايتَهم فى رَسم المصادر الغريزية المحتَملة للعواطف المُركبة والمُيول فى حياة البالغ . وهو يرَى أن هذه العواطف هى أكثر من مجرد الغرائز ؛ هى العوامل الدافعة المباشرة فى سلوك البالغ . وهو لا يقول — كما يُفترَض أنه يقول أحياناً — إن كل سلوك إنسانى تَدفَع إليه الغرائزُ مباشرة ، وما يقوله بالأحرَى هو : إن السلوك مَدفوع بعواطف تنشأ عن الغرائز ، وما تزال لها الصفةُ الانفعالية والدافعة التى للغرائز . فالسلوك ليس مَدفوعاً باعتبارات عقلية خالصة ؛ بل بأنواع المحبة والكراهة ، والمنفعة والجرأة ، والتنافس والتحمُّس ؛ وكل منها

له طابع انفعالى دافع يُشتقّ أصلاً من الغرائز . ولا يقوم السلوك الاجتماعى فى أساسه على اعتبارات عقلية ، ولا على غريزة اجتماعية واحدة ؛ بل على ارتباط كثير من الغرائز أو كلها . فغريزة التجمّع بذاتها قد تجعل الناس معاً جماعاتٍ فحسب ، ولكن إذا ما تجمّعوا ؛ فإن كل غرائزهم الأخرى تتكيف بالمواقف الاجتماعية ، وترتبط فى عواطف هى القوى الدافعة لكل أنواع النشاط الاجتماعى .

ذلك هو النوع من علم النفس الذى قدمه مكدوجل إلى العالَم فى ١٩٠٨ . وقد استقبله بحماسة علماءُ النفس — كثير منهم وليس جميعهم — وأدى إلى كثير من المناقشات والكتبُ والمناهج الجامعية فى علم النفس الاجتماعى لدى علماء النفس . لقد خُلِق علمُ النفس الاجتماعى كفرع من علم النفس ؛ بينما كان يُعالجه من قبلُ علاجاً خارجاً فى الغالب علماء الاجتماع . كما تلقاه بميل شديد أيضاً طلابُ العلم الاجتماعى ، وبدا حيناً أنه هو الذى كانوا ينشدونه . وأصبحت الغرائز كأساس للنظم الاجتماعية قضية سلسلة من الكتب لعلماء الاجتماع والاقتصاديين . فجراهام ولاس Graham Wallas (٤) — الاقتصادى الإنجليزى — قدكتبَ عن « الطبيعة الإنسانية فى السياسة » (١٩٠٨) وعن « المجتمع الكبير » (١٩١٤) مُقتفياً أثرَ مكدوجل إلى حد كبير ؛ وإن لم يكن على استعداد تام لأنْ يُتابعه فى أن تفكير الإنسان مدفوع كله بهذه الغرائز كما صنّفها مكدوجل . وقد تعلق ولاس بفكرة أنه توجد غريزة معقولية ؛ بمعنى أن الإنسان يُحبّ أن يفكر ويقدر المعقولية فى ذاتها الخاصة ، وليس فقط إذن أو عندما تنتهى إلى إشباع غريزة أخرى . وعلى أى حال ؛ فإن ولاس قد قبلَ الغرائز وكأنها حاجات ملازمة للفرد ؛ حاجات على المجتمع أن يُواجهها إذا ظلّ الفرد مُكتفياً . وهو يَخشى أن مجتمعنا الصناعى الحاضر قد تجاوز بعيداً ظروفَ الحياة الأولية التى تشكلت معها غرائزُه ؛ حتى لم يَعُد بعدُ قادراً على أن يُواجه حاجاتِ الفرد الغريزية . فبجعل الصناعة آلية هو قد أتاح للعامل دوراً قليلا فى تقرير ذاته ، وبتأخير سِن الزواج قد عَطّل من الغريزة الجنسية . وعلى هذا النحو تَهيّأ الفردُ فى مجتمعنا هذا الحديث لِأَن تكونَ له غرائزُ مُعطّلة ، و« استعدادات مُعوّقة » ؛ وبالتالى لِأَن يكونَ عديمَ الراحة ومُصاباً بالعُصاب . فاحتاج المجتمعُ إلى إعادة تكوينه حتى يَستطيع أن يُقدّم مجالا صحيحاً للغرائز . وهذا اللونُ من التفكير نفسُه قد تَبِعه عددٌ من الكتّاب

المتأثرين* ، وبَدا أنَّ فيه كَثيراً من التنوير .

نِقاش حَارّ حول الغرائز :

ونظرية مكدوجل فى الغرائز – وإن قُوبلَت بحماسة مَوقوتة – قد ارتدت إلى ما يمكن أن نُسَمّيه الأساس الوظيفى لعلماء الاجتماع . فإنهم لما وَضعوا نُصبَ أعينهم الجماعةَ بِحُسبانِها موضوعَ الدراسة الهام ؛ تأثروا قليلا بحاجات الفرد الملازمة أكثر مما تأثروا بأى لون آخر من الحقائق التى لا شك فيها – التى تَدل على أن الفرد قد صَهرَه المجتمع . فالفرد يَنتزِع لغتَه وعقائدَه وأخلاقَه وعاداتِه من البيئة الاجتماعية . وليس شك أنه يوجد كثير غير هذه مما يَأخُذ عن هذا المصدر ؛ يظهر حيث هو مُعرَّض فى طفولته فى الأسرة وعلى الملعب وفى المدرسة ، إلى التأثر بأناس آخرين . فكل ما يسميه علماء الإنسان (الأنثروپولوچيون) حضارة الجماعة ؛ يبدو أنه مفروض على الفرد ، وليس هو الذى اخترعه أو تَطلَّبه . فبينما قد يَبدو من البَيّن لعالِم النفس أن المجتمع يتركَّب من أفراد ، ويَجب أن يُواجه حاجاتِ الأفراد ؛ إذ الحقيقةُ الرئيسية عند عالِم الاجتماع أن المجتمع موجودٌ ثمّةَ قبلَ أيّ فرد معين ، وأنه سابق من حيث الظهور وما بَعده ليُكوِّن ويُهذِّب الفردَ فى اتفاق مع حاجاته هو الخاصة ومن هنا فنحن نَسلُك فى تشابه ، ونَسلُك ككائنات إنسانية ؛ لا بسبب غرائزنا بصفة رئيسية ؛ بل بسبب الحضارة التى يتلقاها بدَوره كلٌّ واحد منا . تلك هى الفكرة المميزة لعالِم الاجتماع .

وفيما بين علماء الاجتماع فى ذلك الحين بدأ يظهر استِيَاء من نظرية الغرائز استَعَر طويلا حوالى ١٩٢٠ . وأكثرها فى نوعه لَحِيباً كتابٌ لبرنارد L. L. Bernard(٥) فى ١٩٢٤ ، وعنوانُه : الغريزة : دراسة فى علم النفس الاجتماعى ؛ وقد وَقفَه على إثبات عَبث كثيرٍ من النقاش الجارى عن الغريزة وعدم أهمية الغريزة فى المجتمع . وجُزء من مهمة المؤلف كان سَهلا حقاً . فإنه لم يُعطِ اثنان من علماء النفس نفسَ قائمة الغرائز هذه . فقد قال البعض بأكثر من مائة ، بينما رد البعض الآخر هذا العدد – بالتهذيب والربط – إلى واحدة أو اثنتين . ومثل هذا الخلاف

* مثلا أ . تيد O. Tead : الغرائز فى الصناعة Instincts in Industry (هوفتون مفلين وشركاه ١٩١٨) ، ك . پاركر C. Parker : العامل الاتفاقى ومقالات أخرى The Casual Laborer and other Essays . (هاركورت وبريس وشركاهما) ، والأخير لا يصر فقط على قائمة مكدوجل فى الغرائز ، بل على تحول الانفعال عند فرويد وعلى مركب النقص والتعويض عند أدلر .

فى التفاصيل كان طَعناً فى صحة الفكرة فى مجموعها .

على أن نَقد « برنارد » الأقوى قد كان فى أنّ ما يُسمّى الغرائز – سواء فى الحديث العادى وفى مختلف السيكولوجيات – إنما هو إلى حد كبير وُجوهٌ من النشاط مكتسَبة . فالصُّحبة ، ورعاية الأبوين ، وتقرير الذات ، والتحصيل أو الاقتناء – كما نراها بين الناس – هى طرائق مُركَّبة من النشاط يُحصِّلها الفردُ خلال صلته بالبيئة الاجتماعية . وليسّ تبدو عليها علاماتُ الوحدات القابلة للوراثة . فأَن نَتحدث عن صُلب مَركزى انفعالى فى السلوك ؛ موجود فى كل وجوه النشاط المتغيرة التى يُقال إنها تابعة لغريزة ؛ يَدهَش له برنارد وكأنه صُوفى أو ميتافيزيقى . حقاً إن هناك غرائز ؛ ورُبما غرائز كثيرة – يؤمن بها برنارد – ولكنها أفعال صغيرة أولية ، لا تشبه فى شىء وجوهَ النشاط الشاملة التى نسميها عادة بالغرائز . وينبغى ألا يَنسى عالِمُ الاجتماع والمُصلح الاجتماعىُّ وجودَ هذه الغرائز الضئيلة ؛ بل يَلزم أن يُعلّقا عليها قليلَ أهمية . إنها لا تلعَب الدورَ الذى وضَعه مكدوجل للغرائز ، ثم هى لا تُحدِّد الأهدافَ ولا تُقوِّم نشاطَ سلوك الإنسان .

أما الذى يُحدِّد الأهداف ويُزَوِّد النشاطَ بالمنبهات فهو – فى نظر برنارد – البيئةُ المحيطة وخصوصاً البيئةُ الاجتماعية . فالبيئة المحيطة تُهيئ العواملَ المكونة التى تُهيمن على نُموّ الذكاء والتدبير . ويجب أن نذكرُ أن الإنسان – بتَعاقب أجيالٍ كثيرة – قد أنشأ حولَ نفسه بيئةً مُصطَنعة إلى حد كبير ؛ سواء فى الأشياء المادية التى يَستخدمها ، وفى العادات والنظم التى يَضبط بها سلوكَ كل قادم على المسرَح . وليس شك فى أن هذه الترتيبات الاجتماعية عليها أن تلقى بالا إلى حاجات الفرد البيولوجية ؛ ولكن ؛ فى الأغلب ؛ فإن الفرد يَتشكل ويَتكيَّف بتأثيرات البيئة المحيطة .

وعبارات قليلة من برنارد سوف تصور وجهة نظره* :

« وهناك وجهتا نظر فى العلوم الاجتماعية مُحدّدتان تحديداً حسناً فيما يتعلق بأهمية نظرية فى الغرائز كأساس لِتقدُّم نظرية فى الاجتماع . فطائفة من الكتاب والمعلمين قد قَنِعوا بأن الغرائز ذاتُ أهمية ثانوية فى دَفع السلوك الاجتماعى . . . وهم يقولون بأنه مَهما تكن الغرائز التى للإنسان جِدَّ أولية ، وذاتَ طابَع بيولوجى مُقرر تماماً ؛ فإنها قبلَ كل شىء مُحدِّدة لتكيفاته الاجتماعية . . . والإنسان المتَمدين – فيما

* ل . ل برنارد . الغريزة ... الخ – هنرى هولت وشركاه (١٩٢٤) ص ٢٦ ، ٢٧ ، ٥٤

يقولون — هو حيوان مُتَنوِّر يعيش فى بناء أو مجتمع صناعى (مصطنع) . هذا النظام المُصطَنع ، المجتمع الإنسانى ؛ يصبح باستمرار أكثرَ اصطِناعاً واشتِقاقاً ؛ حتى إلى حَد إبطال الدافع الفطرى للإنسان بدرجة كبيرة . . . وتحت « هذا » النظام المُصطَنع أو المتمَدين يَختار موضوعاتٍ أخرى لصَرف المجهود غيرَ هذه التى قد تمليها الدوافعُ الفِطرية وحدها أو الغرائز ؛ إذا ما سُمِح لها بأن تَضبط سلوكَه .

وهؤلاء الذين يؤيدون وجهةَ النظر المعارضة يَحتجون بأن الإنسان ما يزال هو مخلوقَ الغريزة ؛ وإن كان قد اكتسب — فى القسم الأكبر — أن يقودَ دوافعَه الغريزية فى طُرق أكثرَ كِفاية واجتماعاً فى إبقاءٍ على حاجَاتِ المدَنيَّة المتُوسعة . . . والغريزيون — ويمثلهم بِحَق مكدوجل — يقولون بأن العناصر المكتسبة فى التخلُّق أو التصُّرف والتدبير إنما تتكوَّن تحت سيطرة الغرائز . أما القائلون بالبيئة المحيطة فيقولون بعكس ذلك ، وينظرون إلى البيئة — وخصوصاً البيئةَ السيكو اجتماعية — وكأنها عوامل مُكونة .

وبرنارد يَعُد نفسَه بصفةٍ مُقرَّرة وكأنه من أنصار البيئة environmentalist . وهو فى الأغلب يتحدث عن الدوافع المحيطة وكأنها محدَّدة بسلوك الفرد . وهو يعترف بأن الفرد ليس عجينة « تتشكل » تماماً ، وأن الدوافع المحيطة هى حقاً المنبهات التى تثير استجابات الفرد . وربما يبدو أنه يَقف على كثير من الأساس نفسِه الذى وقفَ عليه كيو Kuo الذى قال — كما تَذكُر — أن « الآلة الإنسانية تسلُك فى طريق معين ؛ لأن تأثير البيئة قد دَفع بها إلى أن تفعل ذلك » . إلا أن برنارد يُعنَى خصوصاً بتأكيد البيئة الاجتماعية . ويبدو أنه قلَّما استخدَم من الأغراض أو الدوافع أكثرَ مما استعمل كيو . ولكنك ستَجد برنارد يَمضى أحياناً فى نَوع من الكلام يبدو أنه يكشِف عن أمرِه كله . لاحِظ ما يَقولُه تحت عنوان « سيطَرة البيئة المُحيطَة » * :

« المَدَنيَّة نفسُها هى فى جزء كبير مَذهبُ إعلاءَاتٍ ودوافع . فنحن لا نُطلِق لدوافعنا الغضَبية والجنسية والذوقية والخوف والتجمع كلَّ عنان ؛ بل على العكس من ذلك نُنشئ لها ضَوابط لا حصرَ لها حتى لا نُحطِّم عملَ الحضارة « بالرجوع إلى الطبيعة » عن طريق التتبُّع الأعمى لدوافعِنا . . . وأحسَن مَنهج لهذا الضبط . . .

* ل . ل . برنارد : مقدمة إلى علم النفس الاجتماعى ، هنرى هولت وشركاه (١٩٢٦) ص ص ١٣٨ — ١٣٩ .

هو بما نسميه الإعلاء sublimation . وهذا يشمل توجيه الدوافع فى طرق اشتقاقية وبديلة . . . ونظمنا المكونة . . . هى دائماً مشتغلة بهذه المشكلة ؛ مشكلة أكثر وسائل الضبط تأثيراً ، وبالتدريج . . . ستكون قادرة على أن تضع نظاماً سوف ينزل بالدوافع الفطرية إلى خدمة المثل المجردة الكبرى لمدنية حضارية . وإذن فالبيئة — أولى من الغريزة — هى التى تشكل الآن سلوكنا فى الأصل . بل إن البيئة تنتفع بالغريزة فى خدمة . . . مثلها الخاصة .

فإذا كانت هذه المقتبسة الأخيرة تمثل بحق وجهة نظر برنارد ؛ فإنه يجب أن أقول إننى لا أرى فارقاً جوهرياً بينه وبين مكدوجل . فمكدوجل — والحق يقال — يأخذ موقف الفرد ومطالبه على المجتمع ؛ بينما برنارد يأخذ موقف المنظم أو المصلح الاجتماعى الذى يريد أن ينتفع بهذه المطالب لمصلحة المجتمع . ولكن كليهما يتكلم عن الدوافع الفطرية التى يمكن أن توجه من جديد أو تجد مخرجاً جديداً . ويحاول مكدوجل أن يبين فى شىء من التفصيل كيف تعمل الغرائز خارجاً فى الحياة الاجتماعية . فيكتب مثلا* :

« إن غريزة المقاتلة قد لعبت دوراً ليس ثانياً لشىء فى تطور النظام الاجتماعى وفى العصر الحاضر هى تعمل بقوة أكثر من كل غير فى إنتاج أدلة للانفعال والفعل الجمعيين بدرجة كبيرة . . . ولكن طرقها فى التعبير قد تغيرت بنمو المدنية ، فكما أن نمو القانون والعادة يقلل من الصراع البدنى للأفراد ويجعله غير ضرورى، فهذا يترك مجالا للصراع الجمعى للجماعات ولأشكال من الصراع بين الجماعات أكثر تهذيباً ».

وقد كان برنارد يستطيع أن يقتبس هذه الفقرة ليبين ماذا يعنى « بضبط الإعلاء » control of sublimation . وصحيح لا شك أن مكدوجل يفكر فى هذه الطريقة وكأنها أكثر أهمية فى السلوك الاجتماعى مما يفكر برنارد .فإن برنارد يفكر فى السلوك وكأنه نسق من العادات يتكون عن الحركات العفوية random movements أو الغرائز الصغيرة للطفولة بعملية إشراط تحت تأثير البيئة ؛ حتى ن سلوك البالغ فى الأصل ينبغى أن لا تكون له صلة بالدوافع الفطرية

* وليم مكدوجل : مقدمة الى علم النفس الاجتماعى (١٩٠٨) ص ٢٧٩ .

وقد كان علماءُ الاجتماع جِدَّ مُستعدِّين لأن يَنبُذوا صِلَتَهم بنظرية الغرائز . وأنا قد انحرفتُ بمَجرى الحوادث بعضَ الشيء بوَضع ثورتهم على الغرائز قبل ثورة علماء النفس . فإن علماء النفس لم يَقبلوا قَطُّ طريقةَ مكدوجل فى معالجة الغرائز بما يُشبه الاتحادَ فى الرأى . فثورندايك ووطسون كلاهما قد نقد هذه الغرائز الواسعة بوَصفها فقيرة فى إنشائها ، ولم يُعلِّق كثيراً من الأمل على فكرة القوى الدافعة الفطرية . إنما كانت المسألة الرئيسية لعلماء النفس هى : إلى أى حَد كانت نماذجُ السلوك المركب موروثةً أكثر منها مُتكونة بالاكتساب . وقد بدأت الشكوكُ تُثار عما إذا كانت الأفعال المركبة تُزوِّدنا بها الطبيعةُ ؛ فربما كان أن الحركات البسيطةَ وحدَها هى التى تُزوِّد بها الطبيعة ، وكل الفاعليات المُركبة مكتسَبة . وقد عَرض المنعكسُ الشرطى اقتراحاً بأنَّ مثل هذا الاكتساب ربما استمر عن غير قصد ، وكذلك مُبكراً جداً فى سن الطفولة . وحاصل هذه المناقشة جعلُ علماء النفس أكثرَ نقداً للغرائز مما كانوا .

على أن هذا العَود السيكولوجى لنظرية الغرائز لا علاقة له ضروريةً بمذهب القَصد . وأنتَ تُلاحظ أنه توجد مسألتان تختلطان معاً فى هذا الجدل حول الغريزة . إحداهما هى إلى أى حَد تكون نماذج السلوك فطرية وإلى أى حد يجب أن تكون مكتسبة ؛ وتلك هى المسألة التى عُنِى بها علماءُ النفس أكثر ما عُنوا ، والتى حولها قوَّوا اتجاهَهم النقدى ؛ هذا الذى يَتطلَّب أن يَتبيَّن — قبل أن يَعترف — أنَّ نموذجَ سلوكٍ ما فطرى . والمسألة الأخرى هى مسألة الدوافع الفطرية أو البواعث الأولية . ولن يُودى كثيراً بمذهب مكدوجل فى علم النفس اضطرارُه إلى الاعتراف بأن كل نماذج السلوك تقريباً من خوف ، وغضب ، وحب ، واستطلاع ، وسيطرة ؛ والغرائز الأخرى إنما تَحصُل بالاكتساب والشَّرط . وما يُريده هوَ من غريزته فى المقاتلة أو الصراع ليسَ القيامَ بأى قتال من نوع رَاق ؛ بل الميل إلى مقاومة التدخل بقوة الغضب . فإذا كان المرء فى تركيبه بحيث يفعل ذلك ؛ مستخدماً من الوسائل ما يَعرض له ؛ فهنا إذن يمكن أن نتكلم عن دافع غضَبى أوَّلِى يعمل فى صُور كثيرة فى مختلف مُستَويات السلوك .

وعندَ كثير جداً من علماء النفس تقريباً أن فكرة دوافع أولية بوصفها « قوى دافعة » أو « مصادر أولىَ للنشاط » تَهتف بنوع من الميثولوجيا التى يَأملون هم أن يتخلصوا منها . فالغرائز ككائنات تُذكِّرهم « بالملكات » القديمة . وهم يشكون فى

وجود واحدة من هذه الكائنات أو العوامل المنفصلة . ولذا فإن جملة علماء النفس — الذين يمكن أن نسمِّيهم وَضعيِّين فى اتجاههم — يبدو أنهم قد تأثروا قليلا بالغرائز كما تَصوَّرها مكدوجل ؛ بينما هؤلاء الذين يشتهون الكائنات يَسرُّهم فى العادة ثُنائية فرويد فى غريزتَيهِ الكبيرتين ، أو لبيدو يونج الواحد ؛ أكثر « مما تسرهم » قائمةُ مكدوجل المتعددة فى الغرائز ، وأدناهما إلى حقائق السلوك — مع هذا — هى الأخيرة لا شك . أما عند الوجودى فإن مكدوجل يبدو أنه يعالج فروضاً أولَى منها حقائقَ مباشرة للخبرة ، ويبدو — أبعدَ من هذا — أنه من الانغماس فى الفوائد الاجتماعية لعلم النفس بحيث يَندُر أن يَثبُت قَط فى ميدان علم النفس الخالص . أما علماء النفس الجشطلتيون فيبدو أنه لا اعتراضَ لهم كبيراً على الغرائز ، ولَديهم مَوضعُ مُحدَّد فى مذهبهم « للبحث عن الهدف » ؛ حيث يبدو فى طريقة « مَلء الفراغ أو سَدّ الهُوة closing the gap » ويرتبط بحركات ديناميكية وفيزيقية . وعلى العموم فإن مذهبَ القَصد — كما يمثله مكدوجل — يَشغل مركزاً غير مُتعين فى الوقت الحاضر ، ومنَ المُحتمل أنه لا يَلقى الانتباهَ الذى يستحقه .

الموقف الحالى لمذهب القصد :

وعلى أى حال فإن مكدوجل يُعبِّر عن نفسه* فى شجاعة أكثر بانسياق جديد لفكرة اتجاهه فيقول :

« منذ خمسةَ عشر عاماً أظهر علماءُ النفس فى أمريكا — بغير استثناء تقريباً — إغفالا تاماً لأخصِّ وأميَز وأهمّ طابَع للنشاط الإنسانى والحيوانى ؛ أعنى بحثه عن الهدف . فكانت جميعُ الأفعال الجسمية وكل وجوه التجربة استجابات آلية لمنبهات ، وكان كلُّ اكتساب هو تحوير هذه الاستجابات بإضافة استجابة إلى أخرى تبعاً لمبادئ الربط الميكانيكى . . . أما الآن فكل شيء لحسن الحظ قد تغير ؛ فإن علماء النفس الحيوانية قد بدءوا يدركون أن أىَّ وصف لسلوك الحيوان يُغفِل طبيعةَ بحثه عن الهدف فهو تافه ؛ . . . وهم يشتغلون بدراسة « الدوافع » ، و « الأوضاع » و « البواعث » الداخلية . . . وكثيراً ما تظهر نفس حالة هذه الأمور فى الكتابات الأمريكية الجارية عن علم النفس البشرى... فالدافع — بعد أن كان

* فى ك . مرتشيزون C. Murchison ناشر سيكولوچيات ١٩٣٠ (مطبعة جامعة كلارك) ص ٣

مجهولا تقريباً – قد أصبح مسألةً ذاتَ أهمية رئيسية . ومع هذا . . . فنحن فى فترة انتقال ؛ وكل هذه المعرفة بالطبيعة القَصدية للنشاط الإنسانى جزئية وغير مُرضِية » .

والذى يعنيه بتسمية المعرفة الحاضرة بالقصدية «جزئية وغير مُرضية» هو أن غالبية علماء النفس يبدون مُصرِّين على أن يردُّوا القصدَ إلى شيء أكثر بساطة . فالجوع ، والعطش ، والتعب ، والنوم العميق ، وربما الشهوة الجنسية ؛ يُقال إنها حاجات عضوية ، « حاجات الأنسجة ». أى حالات كيميائية للكائن العضوى تَفرض عليه أنواعاً مُعينة من النشاط (أو الخُمول) . والخَوف والغضب مُرتَبطان – بالمِثل – بالحالة العضوية التى تُنتِجها الأعصابُ السمپتاوية وإفراز الغدد الأدرينالية* . وعلى هذا فكثير من الدوافع الأولية يبدو أنه تُعنَى بها الحالاتُ الفيزيولوجية للكائن الحىَ . وقد وَجد علماءُ النفس صعوبة أكثر فى أن يَردُّوا إلى حدودٍ أبسط الأغراضَ أو المَقاصدَ التى هى شائعة فى الحياة اليومية والتى لا علاقة لها واضحةً بهذه الحالات الفيزيولوجية . وفى مثال بسيط ؛ أنتَ تطلُب شيئاً ما لغرض خاص ، وتذهب تبحث عنه ؛ فأنتَ تظَل فى هذا النشاط بعضَ دقائق حتى تجد ما تريد . هذا البقاء ربما لا يشير إلى أى « مَطلَب للأنسجة » شبيه بالجوع أو العطش ؛ ولكن علماء النفس يقترحون أن نوعاً من الوضع – أو تكييف المخ أو الكائن العضوى كله – يبدأ فى النشاط عندما يبدأ نُشدان الهدف ، ويظل فى الداخل حتى يُتَوصل إلى الهدف . وقد عُرِضَت اقتراحات غامضة من هذا النوع بشأن رد القصد إلى شيء فيزيولوجى ، وبصدد تمكين علم نفس استجابة المنبه من أن يعنى بحقيقة القصد من غير أن يزيد أية مَقولة رئيسية جديدة على نظامه .

ومكدوجل لا يرضى عن مثل هذا الإدخال « الجزئى وغير المُرضى » للقصد فى علم النفس . وهو الآن يُعرِّف سيكولوجيا القَصد عنده فى حدود واضحة قوية * :

إن مهمتى هى أشق مهمة لتحقيق علم النفس – الأبعد جوهرية وقصدية –

---

* قارن « الوظائف الذاتية والشخصية » لـكيمف E. J. Kempf — بحوث فى المرض العصبى والعقلى (١٩١١) رقم ٢٨ .

* سيكولوجيات ١٩٣٠ — ص ٤ .

الموسوم بصفة « الهورمى » ؛ وهو علم نفس . . . يقرر أن السَّعىَ القوى نحو هدفٍ مَا هوُ مقولة رئيسية فى علم النفس ، وهو عملية من نوع لا يمكن أن يفسر بطريقة آلية أو أن يُحَلَّ إلى نتائجَ آلية

وبدلاً من أن يَبدأ بالأفعال المنعكسة أو الإحساسات الأولية أو أى شيء آخر بسيط ؛ يرى مكدوجل أن خَط الهجوم المُعيَّن فى علم النفس هو أن تتقدم من المعلوم إلى المجهول . فالذى نعرف أكثر – فى ميدان السلوك – يتركب من أفعال قَصدية واضحة . فينبغى إذن أن نجعل من السلوك القصدى المحدد أساساً لفهمنا للسلوك الذى لا نَفهَمُ جيداً هذه الجودة . فالسلوك الأمثل هو سلوك قصدى . والقصد ليس استثنائياً ، ولا هو خارج الميدان ، ولا يُفسَّر بِرَدِهِ إلى شيء أبسط . إن القصد يُمكن خصوصاً أن يُنقل إلى علم النفس المَرَضى ؛ على نحو ما فعل علماء التفس الهورميون ، وفرويد بصفة خاصة ؛ والقصد يمكن أن يُنقّل خصوصاً إلى علم النفس الحيوانى ، وأن يُطبَّق على كل سلوك يكون له – منظوراً إليه من الناحية الموضوعية – خَصائِصُ البحث عن الهدف . وفى هذه الناحية النظرية ؛ يفكر مكدوجل فى الطبيعيات والكيمياء الهورمية ، وفى إمكان أن يكون العِلمُ النهائى غائياً teleological وليس آلياً ميكانيكيا . فنحن نقف إذن – حسب مكدوجل – عند مفترق الطرق فى علم النفس . فعلينا أن نَحُلَّ مسألة ما إذا كان النشاط العقلى الإنسانى ميكانيكياً أو يرمى إلى غاية . ويجب أن نتخيَّر جوابَنا ونُوجِّه علمَ النفس لدينا بمقتضاه . وأعترف – عن نفسى – أَنىِّ لا أستطيع أن أرى هذه المسالة وكأنها مُحرِجَة بحق ؛ فإنه يبدو لى أن القصد والتنبؤ ممكنان فحسب عندما تكون لدينا معرفةٌ ما بالعلَّة والمعلول الآلِيَّين . والنشاط القصدى الكامل النمو يتطلب استخدام وسائل للتأدى إلى غايات ؛ والوسيلة هى علةُ الغاية معلولة لها . فنحن نقوم بفعل معين . ونتنظر نتائجَه التى هى ما نقصد إليه حقيقة . فنلقى دِلوَ ماء على النار لنطفئها مُعتَمِدين على تالٍ علمِى معروف . وأبعد من هذا ؛ فإنه يبدو لى أن التنبؤات والمقاصد تنهضُ كنتائج فى مجرى العمليات الطبيعية ، وأن لها نتائجَها فى نفس هذا المجرى . وبَعض علماء النفس بعد أن يحمِلوا أنفسهم على كثير من المشَقة فى إظهار أن المقاصد وما شابَهها هى فى الواقع طبيعية وعمليات سلوكية – فإنهم مع هذا يَخشَون أن يُنكروا عليها أيةَ كِفاية عِلّية . ومثل

هذا التردد لا أساس له ؛ لأنه إذا كان القصد يتعلق بعالَم العمليات الطبيعية بوصفه معلولا ؛ فإنه يقوم ثمة أيضاً بوصفه علة

ولستُ أرى أيّ خطأ كذلك فى قبول القصد كحقيقة يقينية ، وفى نفس الوقت أسعى إلى ردّه إلى عمليات فيزيولوجية — إذا أُخِذَت هى بمفردها لم تكن قصدية . وهذه بالضبط حالة أخرى لكلّ له خصائصُ ليست توجَد فى أجزائه . وليس هذا بأقبح من أن ترتَد إلى الفيزيولوجى — وقد ألقيتَ كُرة — وتسأله أن يشرح لك أى العضلات اشتركت فى هذه الحركة ؛ وإن لم يمكن أن يقال عن واحدة من هذه العضلات أنها قذفَت بالكرة . فالقصد — كما نعلم — يقوم فقط فى الفاعليات المركبة ، وإذا نحن سمحنا لأنفسنا بأى تقسيمَ لهذه الفاعليات المركبة ، فنحن مضطرون إلى فَقد القَصد فى هذا النّتاج التحليلى .

ومكدوجل — شأنُه فى ذلك شأنُ يونج — يربط النظريةَ الهورمية بنظرية الفيزيقيين فى الطاقة . « فالنشاط الهورمى . . . يبدو أنه يشمل إطلاق الطاقة الموجودة أو الكامنة بصورة كيميائية فى الأنسجة . . . ولكنه يرفض أن يذهب إلى ما وراء الحقائق ، وأن يرتبط بفرُوض جارية فى علم الفيزيقا ، كما أنه يرفض أن يَعمّى عن الحقائق الأساسية » فى نُشدان الهدف . ومكدوجل لا يبدو إذن أنه يُصادِر على نشاط هورمى خاص مختلف عن النشاط الفيزيقى .

والنشاط القَصدى — كما يُصرّ مِراراً مكدوجل — نَعرفه على أنه نشاط عقلى ؛ مع إدراكٍ للموقف ، وتنبؤ بالنتائج التى سوف تحدث ، وسَعىٍ نحو هدف . وارتياح لبلوغ هذا الهدف . تلك هى الحقائق الأساسية التى يَأبَى علمُ النفس الهورمى أن يُغفِلَها . فهو يقول بالمعرفة كحقيقة جوهرية ، ولكنه لا يقع فى النزعة العقلية ، ما دامت حقيقتُه الأولى هى : « حُث على الحياة لتكون فعالا » . فالقَول بالسعى والارتياح يجعل فى مذهبه مجالاً لِلقيَم ، ويُعطى الأساسَ الحقيقى لمعالجة الأخلاق وعلم الجمال فى الفلسفة

وأكبرُ قيمةٍ لسيكولوجيا فِى القَصد — كما يرى مكدوجل — هى أنها تُهيّئ حقيقةَ القصد لنظَر الفلاسفة الذين يريدون أن يتفهّموا مجرى الطبيعة وحدودها الرئيسية : هل عملية الطبيعة ميكانيكية خالصة ، وكل حادثة جديدة يُخبر عنها تمام الخَبر ما حدَث قبلها ؛ أم أنه يوجد أيُّ مجال للغائية فى الطبيعة ؟ فلو أن علم النفس تَقدَّم بحقيقة القصد كحقيقة نهائية ؛ فإن الفلسفة إذن سيكون لها شىء

تستَنِد إليه فى تأييد الغائية . وعلى هذا فإن مذهب القصد يَمَسُّ أكثرَ الفيزيقيين والبيولوجيين من الفلاسفة ، الذين يُعيدون فحص العلاقات بين العلم والدين . وكثير من المشتغلين بالعلم يَبدو أنهم يشعُرون بأن فاسفةَ الكون الميكانيكية فى القرن التاسع عشر — وخصوصاً فلسفة الحياة — قد حَطَّمت من غُلَوائها هى . « والتطور الظاهر » هو أكثر الأعراض المألوفة فى هذا التغير . ومن غير أن يَقبَل هو نفسُه هذا التطورَ الظاهر أو أيَّ فلسفة أخرى من الفلسفات الجديدة فى الطبيعة ، يُصرُّ مكدوجل * بكل قُوته على حقيقة القَصد السيكولوجية ، ويَعتقد أنها كافية لِأَن تُنشئَ حقيقةَ « عِلِّية الغائية » ؛ وهى نوع من العلية يكون السعىُ فيه نحو هدف مُتوقَّع ذا أثر حقيقى على مجرى الحوادث . وهو يقترح معرفةَ العلية الغائية — ليس فقط فى ميدان السلوك الإنسانى — بل وأيضاً ، وبغير جدال ؛ فى ميدان السلوك الحيوانى . وهو يميل بشدة إلى أن يمتد بالفكرة إلى أن تشمل نُمو الكائنات العضوية كما تشمل سلوكَها . وإذا هى شَمِلت نموَّ الكائن العضوى الفردى فلِمَ لا تَشمل أيضاً تطور كل الكائنات الحية ؟

وعلى هذا فإن قَصدية مكدوجل تذهب إلى ما وراء ميدان علم النفس . فليس عالِمُ النفس فى عَمَله مُلزَماً بأن يُصدِر عنها . فالمرء حُر فى أن يقبَلَها ، أو أن يرفضَها ، أو أن يُنحِّيها جانباً ؛ من وجوهها الفلسفية ؛ بينما لا يزال له — بكل ما لِحُرية عالِم النفس الخاصة — أن يَعرض عرضاً كاملا صريحاً للقصد ونُشدان الهدف كما يجدُهما فى ميدانه هو . ففلسفة مكدوجل القصدية هى من الغموض فى علم النفس غموضَ فلسفة ڤايس Weiss فى الإلكترون والبروتون . أما علم النفس ذاك ، فقد أصبح له الحق — بعد جهاد عنيف — فى أن يكون غير فلسفى ولنا "بعد هذا" أن نسهر أبدا لكى نُبقى على حريتنا . فلكل سيكولوجى بمفرده حريته الفردية — بطبيعة الحال — فى أن يطبق سيكولوجياه على المشكلات الفلسفية . فليس ثمة ما يمنع الواحدَ منا — مَثله مَثلُ الواحد من إخواننا فى العلوم الأخرى — من أن يَشعر فى حُرية أنه يَنطلق طائراً بين الحين والحين فى ميدان النظر ، وإن كان المرءُ على يَقينٍ من أنه يَجد نفسَه فى موقف الحمَل. إلا أننا يجب أن نَعزل تأملنا النظرى عن عِلمنا المنظم كسيكولوجيين ، وألا نُهيب خصوصاً بإخواننا من علماء النفس أن يشتركوا فى مغامراتنا الخارجية .

---

* المادية الحديثة والتطور الظاهر : مثيون (١٩٢٩) .

تعليقـــات

على الفصل السادس

(١) الغَرَض أو القَصد purpose أو intention : هو ما يتصوره المرء نتيجةً لأفعال يُصمم على القيام بها تحقيقاً لما يتصوره . والغَرَضية أو القَصدية Purposivism وبالفرنسية Intentionnalisme هي النظــرية السيكولوچية التي ترى أن الأغراض – مفهومةً على نحو ما ؛ علاوةً على المنبهات والدوافع – تُعيّن السلوكَ تعييناً حاسماً . وهي هنا مدرسة علم النفس الخاصة بمكدوجل. والهورمية جزء منها ؛ فإن مكدوجل يستعمل هذا اللفظ ليصف به الطاقة العقلية ومذهبه في علم النفس . وهو مُشتق من الكلمة اليونانية ορμàω بمعنى إثارة الحركة motion أو urge on – ويُعرِّفه مكدوجل بأنه ما يدفع نحــو هدف impulse towards a goal (مجلة علم النفس المصرية مجلد ١ عدد ٣ ص ص ٣٨٣ – ٣٨٤) .

ومكدوجل قد نهض بمذهبه هذا في القصدية خصوصاً بعد أن غادر انجلترا إلى أمريكا سنة ١٩٢٠ . وهو – بدراسته للعقل من حيث الدور الذى يلعبه الدافع القصدى فيه – أدنى إلى علم نفس الفِعل act psychol. (أو الوظيفي) منـــه إلى علم نفس الخبرة (أو البنائي) ؛ شأنه شأن وارد J. Ward واستَوت Stout في أمريكا ؛ وإن كان هو أنزعَ إلى التجريب منهما : لشدة تأثره ببرنتانو ووليم چيمس وبتقاليد دوجالد اســتيوارت الأسكتلندية ، وبممارسته الطبَّ في كمبردج ولنــدن ، ودراسته مع ميلر G.E. Müller في جتنجن ، فهو بهــذا يمثل النزعة الإنجليزية في علم النفس .

وقد كان مكدوجل يشبه استَوت في خطوط مذهبه الرئيسية ؛ فهو يُعرِّف علم النفس بأنه « علم العقل الوضعى التجريبي » the positive empirical science of the mind» ، ويُعرف العقل بأنه : « ما يعبر عن نفسه في خبرته وسَلوكه that which expresses itself in its experience and in its behavior » . فلما أصر على النشاط القصدى (الغرضي) للكائن العضوى بدأ يتميز عنه وعن السلوكية وغيرها من المذاهب التي تجعــل السلوك مجرد حركة وآلية منعكسة ؛ وخصوصاً بعد أن اضطر في أمريكا إلى صَوغ معيــار يتميز به السلوكُ السيكولوچي عنده من السلوك الفيزيقي عند غيره في

هذه الصفات السبع التى ذكر ودورث ستًّا منها ، وهى : (١) تلقائية الحركة. (٢) بقاء النشاط بمَعزل عن استمرار المنبه الذى أثاره .(٣) تنوُّع اتجاه الحركات الثابتة . (٤) انتهاء حركات الحيوان حالَما تؤدى إلى نوع جزئى من التغيير فى موقفه (٥) التمهيد للموقف الجديد الذى يساهم الفعلُ فى إنتاجه (٦) التحسن بدرجة ما فى نتيجةالسلوك عند ما يكرره الحيوان فى ظروف بعينها ؛ وأخيراً (٧) الاستجابة الكلية فى الكائن العضوى .

ولا شك أن مكدوجل قد انتهى إلى أن يجعل الحقيقة الأساسية فى مذهبه — مُوضحاً على هذا النحو — فى الدافع القصدى للسلوك ؛ نتيجة لدراساته التجريبية على السلوك الحيوانى والإنسانى وبالتأمل الباطنى وخصوصاً فى اشتغاله بالعمل الطبى النفسى أثناء الحرب العظمى ، وقبل أن يستجيب لدعوة جامعـــة هارڤرد فى أمريـــكا لأستاذية علم النفس سنة ١٩٢٠ وعندَه أنه يبدو لكل منا جَليًّا — فيما يتعلق بعقله هو — « ماذا يريد أن يَفعل » ، والحال كذلك فى عقول الآخرين . وبهذا يُدخل مكدوجل جانباً من الحرية فى الفعل الإنسانى بما انتهى إليه من نتيجة سلبية ، فى ملاحظتـــه ضرورةَ عِلل السلوك ومعلولاته . فهو قد أراد أن يُبرز فكرة الحرية freedom أو اللاجَبرية indeterminateness كخاصة مميزة للعقل وفى هذا يتعارض مع فكرة الجبرية فى العلم ، فلم يشاركه فى رأيه هذا فى أمريكا كثيرون — وخصوصاً لسيطرة فكرة الآلية فى السلوكية الأمريكية .

وليس هنا موضع تأييد غَرَضية مكدوجل أو نقضها ، ولكنا نقول مع بورنج E. Boring (تاريخ علم النفس التجريبى ص ٤٦١) إن هذه الآلية فى السلوك لاتسلَم من الهَفوة المحتمَلة probable error أى تخلُّف العلة عن المعلول بتَغــيُّر الظروف اللازمة . وبدلا من أن نستطرد معه قائلين : « إنه يبدو لى أن الجدل الذى نشأ ليس أكثر من أنَّ ما يُسميه الجَبرى هفوة محتملة يُسميه مكدوجل حرية » — فإن هذا فى الواقع إساءة لفهم مذهب مكدوجل ، وذهابٌ بفكرة القصد إلى أن تكون غير مقصودة ؛ بل نقول : إنه توجد هنا الثغرة التى يمكن النفاذ منها إلى فكرة مكدوجل التى هى أوسع وأشمل وأَتَمُّ من أن تكون مجرد هفوات الجبرية أو العلية .

(٢) كيو (زنج يانج Zing Yang Kuo) : اشتغل بجامعة فَه تان (١٩١٦ — ١٩١٨) ثم بجامعة كاليفورنيا (١٩١٨ — ١٩٢٢) ، وأخيراً صار وكيلا لجامعة فَه تان ومديراً لمعامل علم النفس وأستاذاً له بها وقد كتب فى السلوكية : علم النفس السلوكى Behavioristic Psychology بدائرة

المعارف التربوية Educ. Encyclo. (١٩٢٧) ؛ واعتراف سلوكي A Confession of a Behaviorist بشهرية الشرق Eastern Miscellany حـ ٢٤ (١٩٢٧) ، وله فيها كتابه : مبـادئ السلوكية Principles of Behaviorism المطبعة التجـارية بشنغهاى (١٩٢٧) ، وكتابه : متن فى علم النفس للمدارس العليا A Text-book of Psychology for Senior High Schools (فى نفس السنة ، وعند نفس الناشر) . وله قبل ذلك كتابه الكبير : السلوك الأنسانى Human Behavior المطبعة التجارية بشنغهاى (١٩٢٣) عدا مقالاته فى مجلات علم النفس ، ومنها — عدا ما ذكر ودورث : تجربة سلوكية للاستدلال الاستقرائى A Behavioristic Experiment on Inductive Inference مجلة علم النفس التجريبي (١٩٢٣) مجلد ٦ ص ص ٢٤٧ — ٢٩٣ ؛ وطبيعة الأفعـال الخاطئة وطريقة استبعادها The Nature of Unsuccessful Acts and their Order of Elimination مجلة علم النفس المقارن (١٩٢٢) مجلد ٢ ص ص ١ — ٢٧

والأستاذ كيو معروف فوق هذا بمعارضته للغريزة والوراثة بوجه عام ، وله فى ذلك : اتركوا الغرائز فى علم النفس Give up Instincts in Psychol. صحيفة الفلسفة J. Philos. (١٩٢١) مجلد ١٨ ص ص ٦٤٥ — ٦٦٤ ؛ وكيف نتحصل غرائزنا ؟ How are our Instincts acquired? مجلة علم النفس (١٩٢٢) مجلد ٢٩ ص ص ٣٤٤ — ٣٦٥ ؛ وأخيراً : الحركة ضد الغريزة وآخر رأى لى فى المسألة The Anti-instinct Movement and my Latest View on the Question فى : شهرية الشرق Eastern Misc. (١٩٢٤) السنة ٢١ ص ص ١ — ١٠ ؛ ثم : علم نفس بلا وراثة Psychol. without Heredity مجلة علم النفس (١٩٢٤) مجلد ٣١ ص ص ٤٢٧ — ٤٤٨ .

(٣) ولـيم مكدوجـل W. McDougall : ولد فى لانكشير بانجلترا فى يونيو ١٨٧١ ودرس فى منشستر (١٨٨٧ — ١٨٩٠) وكمبردج (١٨٩٠ —١٨٩٤) ومستشفى سانت توماس بلندن (حتى ١٨٩٨) حيث كان عضواً فى بعثة كمبردج الأنثر وبولوچية إلى توريس ستريتس Torres Straits (١٨٩٨ — ١٨٩٩) فاشتغل حينئذ بالعمل الأنثر وبولوچى ، ودرس سنة مع ميلر فى جتنجن (١٩٠٠) ثم عاد إلى انجلترا — وقد حصل على درجته فى الطب من كمبردج — فعين محاضراً (قارئاً) Wilde reader لعـلم النفس التجريبي فى يونيڤرستى كوليج بلندن ، فقارئاً فى الفلسـفة العقليـة بجامعة

أكسفورد (١٩٠٤ — ١٩٢٠) ؛ وفى كليهما كان له معمل صغير يجرى فيه تجاربه ويتوسع به . وأخيراً جـاء إلى جامعة هارڤرد — بدعوة منها ؛ أو كما يقول بعض المؤرخين : لأنه يُظن بعلماء النفس أنهم يُعاملون فى أمريكا خيراً منهم فى انجلترا — فصار أستاذاً لعلم النفس (١٩٢٠) ، فأستاذاً ورئيساً لهذا القسم بجامعة ديوك فى كارولينا الشمالية (منذ ١٩٢٧) .

وقد نشر مكدوجل كثيراً من البحوث التجريبية معظمها فى مشكلات البصر والإحساس Problems of Vision البصرى — ككثير من البريطانيين غيره — كما نشر رسائل عن الانتباه attention ، وتعرّض لمشكلة تحديد مواضع الصوت Localization of Sound . وله نظرية فى الكفّ العصبى بالإخراج nervous inhibition by drainage ظهرت أولا فى مجلة Brain ٢٦ (١٩٠٣) ص ص ١٥٣—١٩١ ؛ عاد فكتب عنها فى الـ Psychol. Rev. مجلد ٣٣ (١٩٢٦) ص ص ٣٧٠ — ٣٧٤ . أما عمله فى الشبكية on retinal rivalry فنُشر فى مجلة Mind مجلد ١٢ (١٩٠٣) ص ص ٤٧٣ — ٤٨٨ . وفى منهجه الذى دَرَسه فى جتنجن مع ميلر لقياس الانتباه measurement of attention راجع مجلة علم النفس البريطانية Brit. J. of Psychol. مجلد ١ (١٩٠٥) . وأما استخبار البقعة «pattern-spot» test فيوجد فى كتابه : علم النفس الفيزيولوچى ص ص ١٢٩ — ٢٤٣ .

وقد أثار مكدوجل فى هارڤرد جدلا حول دارون وأتباعه ونظرية الوراثة العقلية mental heredity . فإنه قد قام هناك بدراسة تجريبية لوراثة القدرات العقلية المكتسَبة ؛ على الفيران البيضاء ؛ فى مجلة علم النفس البريطانية ١٧ (١٩٢٧) ص ص ٢٦٧ — ٣٠٤ ؛ وانتهى منها إلى تأييد فكرة لامارك ومعارضة ڤايزمان Weismann — الذى ينظر إليه العلم بوصفه باعثاً لمذهب دارون .

ولمكدوجل مقالات كثيرة وبحوث تجدها (حتى ١٩٣١) فى سِجل مرتشيزون الثالث (١٩٣٢) ص ص ٣٢٦— ٣٢٨ . أما أهم كتبه — باعتبار تاريخ صدورها — فهى : كتابه مع مايرز C.S. Myers : السمع والشم والذوق والإحساسات الجلدية . . إلخ. Hearing, Smell, Taste, cutaneous Sensations etc. — وهو الجزء الثانى من المجلد الثانى من تقريرات بعثة كمبردج الأنثروبولوجية إلى خطوط توريس Reports of the Cambridge Anthropological Expedition to the Torres Straits فى الفيزيولوچيا وعلم النفس ، مطبعة جامعة كلارك (١٩٠٣) ص ص ١٤١ — ٢٢٣ ؛ وكتابه : علم النفس

الفيزيولوچى Physiological Psychology نشره مكملان فى نيويورك (١٩٠٥) فى ١٧٢ صفحـــة عدا المقدمة . ثم كتابه : مدخل إلى علم النفس الاجتماعى An Introduction to Social Psychology نشره ميثون فى لندن ، ولوس فى بوستن (١٩٠٨) فى ٣٢٥ صفحة ومقدمة فى عشر صفحات ؛ ظهرت طبعته الثانية والعشرون معدلة (١٩٣١) ، وترجَمَه إلى الألمانية عن الطبعة الحادية والعشرين الإنجليزية كاوتسكى برَون Kautsky Brunn باسم Grudlagen einer Sozialpsychol. نشره فشر Fischer فى بينا (١٩٢٨) — وهذا الكتاب هو الحد الفاصل فى مذهب مكدوجل ونظرية علم النفس .

وبعـــد هذا يأتى كتابه : الجسم والعقــل Body and Mind وفيـــه اختبارات لنظريات العلاقة بين الجسم والروح على الطريقة القديمة ، نشره مكملان فى نيويورك ، وميثون فى لندن (١٩١١) فى أكثر من ٣٨٤ صفحة ؛ ظهرت طبعته السادسة (١٩٢٣) ؛ وكتابه : علم النفس : دراسة السلوك Psychology: The Study of Behavior نشره فى لندن وليمز ونورجيت ؛ وفى نيويورك هولت (١٩١٢) فى ٢٥٤ صفحة — وقد حمَلَتهُ نشأةُ السلوكية فى أمريكا فى ذلك الحين على أن يتخلى عن هذا اللفظ الذى خرج عما وضَعهُ هوَ لَه .

أما كتابه عن : القبائل الوثنيَة فى بورنيو The pagan Tribes of Borneo (مع هوز C. Hose) الذى نشره لهما مكملان بنيويورك (فى مجلدين) ١٩١٢ — وهو دراسة اجتماعية لهذه القبائل التى لا تؤمن بإله ؛ وكتابه : الأنثروپولوچيا والتاريخ Anthropology and History الذى نشرته مطبعة جامعة أكسفورد بلندن (١٩٢٥) فى ١٢٥ صفحة — وهو محاضرة روبرت بويل التى ألقاها ؛ وكتابه الهام : العقل الجَمْعى The Group Mind الذى نشره پتنام فى نيويورك ولندن (١٩٢٠) فى ٤١٨ صفحة — ظهرت طبعتُه الثانية (١٩٢٧) ، وقد وصَفَه مكدوجل بأنه : تخطيط لمبادئ علم النفس الجَمعى مع محاولة لتطبيقها على تفسير الحياة والطابَع القومى ؛ وكتابه : صلاح الوطن وفساده National Welfare and Decay عند ميثون بلندن (١٩٢١) فى ٢١٤ صفحة ؛ وكتابه الكبير : تخطيط علـــم النفس Outline of Psychology الذى عبَّر فيه عن مذهبه الخاص وتعارَض مع السلوكية الأمريكية ، والذى نشره اسكربنر فى نيويورك (١٩٢٣) فى ٤٥٦ صفحة ؛ وكتابه الأخلاق وبعض مشاكل العالم الحديث Ethics and Some Modern World Problems الذى نشره پتنـــام فى

نيويورك (١٩٢٤) فى ٢٥١ صفحة ؛ وكتابه : الاتحاد الذى لا ينفصم The indestructible Union الذى كتبه عن شعب الولايات المتحدة ونشره لِتل وبراون فى بوستن (١٩٢٥) فى ٢٦٣ صفحة ، ثم نشره ألن وأنوين فى لندن (١٩٢٦) بنفس الحجم وباسم آخر : الشعب الأمريكى : مشاكله وسيكولوچياه The American Nation: its Problems and Psychology — تقول : هذه الكتب تمثل اتجاهه إلى علم النفس الاجتماعى منذ تحددت معالم مذهبه ، وتعالج كلها مشاكل ذات طابع سيكواجتماعى

كما أن مكدوجل اتجه — منذ اشتغاله بالطب النفسى فى الجيوش البريطانية ، أثناء الحرب العظمى — إلى علم النفس المرضى إلى جانب علم النفس الاجتماعى ؛ فكتب فى ذلك — عدا مقالاته عن فرويد وإيحاء مدرسته — فى : مشاكل الشخصية Problems of Personality بالاشتراك مع كامبل C.M. Campbell ولانجفيلد H.S. Langfield وروباك A.A. Roback وتيلور E.W. Taylor نشره هاركورت وبريس فى نيويورك (١٩٢٥) فى ٣٣٤ صفحة ؛ وكتابه : التطور العقلى Mental Evolution فى مجموعة : التطور على ضوء العلم الحديث Evolution in the Light of Modern Science التى نشرها مكملان بلندن (١٩٢٦) ؛ ثم كتابه الهام : تخطيط لعلم النفس المرضى Outline of Abnormal Psychology نشره اسكربنر فى نيويورك (١٩٢٦) فى ٥٦٦ صفحة ؛ ثم كتابه : المادية الحديثة والتطور الظاهر Modern Materialism and Emergent Evolution نشره فان نوستراند فى نيويورك (١٩٢٩) فى ٢٥٠ صفحة ؛ وكتابه الحديث الهام : طاقات الإنسان The Energies of Man — الذى عرض فيه دراسات لمبادئ علم النفس الديناميكى ، وأتى فى أوله على إشارة عاجلة لمدارس علم النفس — نشره اسكربنر وأولاده فى نيويورك (١٩٣٣) فى ٣٩٥ صفحة ؛ وأخيراً مقاله الهام عن الإيحاء : فى مادة Suggestion مجلد ٢١ من دائرة المعارف البريطانية Encyclo. Brit. الطبعة الرابعة عشرة (١٩٢٩) ص ٧٠٥ وما بعدها .

وقد كتب مكدوجل عن اهلويد مورجن Lliod Morgan وپاڤلوف ووليم چيمس ولامارك وغيرهم ، كما كتب مع وطسن : معركة السلوكية The Battle of Behaviorism نشره كيجان پول فى لندن (١٩٢٧) ونورتن Norton فى نيويورك (١٩٢٩) فى ٩٦ صفحة . كما كتب فى السلوكية عدا التخطيط Outline السابق الذكر : الطبع والتصرف فى الحياة Character

and Conduct of Life نشره ميثون فى لندن (١٩٢٧) فى ٢٨٧ صفحة

أما أهم مقالات مكدوجل وكتاباته الشخصية والمذهبية فهى : أناس أم آلات ؟ Men or Robots? ، فى سيكولوچيات ١٩٢٥ بوستر Worcester ولنــدن (١٩٢٦) ص ص ٢٧٣ — ٣٠٥ ؛ والبحث النفسى كدراسة جامعيـــة The Psychical Research as a University Study — فى كتاب : حالة الاعتقـــاد فى النفس ما له وما عليه — The Case for and against psychological Belief الذى نشره فى جامعة كلارك بوستر الدكتور كارل مرتشيزون (١٩٢٧) ص ص ١٤٩ — ١٦٢ . ومقالة : الانفعال والعاطفة متميزين Emotion and Feeling Distinguished وهى الفصل ١٥ من موسوعة وتنبرج فى : العاطفة والانفعال Fecling and Emotion التى نشرها الأستاذ ريمرت فى جامعتى كلارك وأكسفورد (١٩٢٨) ص ص ٢٠٠ — ٢٠٥ ؛ ثم : علم النفس الهورمى The Hormic Psychol. وهو فصل مذهبي ممتع طريف فى علم النفس القصدى صدّر به مرتشيزون سيكولوچيات ١٩٣٠ (فصل ١ ص ص ٣ — ٣٦) ؛ وأخيراً تأريخه لحياته فى : تاريخ علم النفس بالتأريخ Hist. of Psychol. in Autobio. وستر ولندن (١٩٣٠) ص ص ١٩١ — ٢٢٣ .

راجع فى أثر مكدوجل وقيمته فى علم النفس وخطوط مذهبه الرئيســـية وآرائه مقالنا عنه فى باب شخصيات سيكولوچية من مجلة علم النفس المصرية مجلد ٣ عدد ٢ ص ص ٢١٥—٢٣٢ .

(٤) وَلّاس (جراهام) G. Wallas

عالِم الاقتصاد الإنجليزى المعروف ، ولد فى سندرلاند Sunderland بدرهام فى انجلترا فى مايو ١٨٥٨ ، ولحق بكلية المسيح Corpus Christi College بجامعة أكسفورد (١٨٧٧) فحصل على درجة B.A. فى (١٨٨١) وال M.A. (١٨٨٣) ، ثم اشتغل بمدرسة العلوم الاقتصادية والسياسية بجامعة لندن (منذ ١٨٩٠) محاضراً خارجيّاً « للمنتسبين » Extention Lecturer (حتى ١٨٩٥) فمحاضراً (حتى ١٩١٥) ، ثم أستاذاً (حتى ١٩٢٣) ثم أستاذاً فخرياً للعلوم السياسية فيما بعد .

وقد حصل على الدكتوراه فى الآداب من جامعة منشستر ، وكان عضواً بجمعية علم النفس البريطانية Brit. Psychol. Society وكان ولاس باحثاً نفسيّاً فى الاقتصاد والسياسة ، ومن أهم ما كتب فى ذلك : الطبيعة الإنسانية فى السياسة Human Nature in Politics نيويورك (١٩٠٨) ، تُرجم إلى الألمانيـــة Politik und menschlicher Natur ونشره برنشتين E. Bernstein فى يينا (١٩١١) . ثم كتابه الهام الكبير : المجتمع الكبير

The Great Society نشره مكملان فى لندن ونيويورك (١٩١٤) فى ٤٠٦ صفحة ؛ وكتابه : ميراثنا الاجتماعى Our Social Heritage نشره فى لندن ألن وأنوين ، وفى مطبعة جامعة ييل (١٩٢١) فى ٣٠٧ صفحة ؛ ثم كتابه : The Art of Thought فن التفكير نشره فى لندن جوناثان كيب Jonathan Cape وفى نيـــويورك هاركورت وبريس (١٩٢٦) فى ٣١٤ صفحة .

(٥) برنارد (لوثرلى Luther Lee Bernard : ولد فى كى Ky فى أكتوبر ١٨٨١ ولحق بكلية باتست Baptist College فى مدينـــة بيرس Peirce City بمقاطعـــة مسورى التى التحق بجامعتها (١٩٠٤ – ١٩٠٧) حيث حصل على الليسانس A.B. ثم لحق بجامعة شيكاغو فحصـــل على الدكتوراه فى الفلسفة (١٩١٠) .

واشتغل برنارد مساعداً للعلوم الطبيعية فى كلية باتست (١٩٠١ – ١٩٠٣) ثم أستاذاً للاتينية واليونانية والأدب الأمريكى فى كلية لامار (١٩٠٣ – ١٩٠٥) وبعد حصوله على الدكتوراه اشتغل مُعيداً للاجتماع فى جامعـــة وسترن ريزرف Western Reserve (١٩١٠ – ١٩١١) فأستاذاً للتاريخ والعلوم الاجتماعية فى جامعات فلوريدا (١٩١١ – ١٩١٤) ومســـورى (١٩١٤–١٩١٧) ومنسوتا Minnesota (١٩١٧ – ١٩٢٥) وكورنل (١٩٢٥ – ١٩٢٦) وشيكاغو صيف سنوات ١٩٢٢ ، ١٩٢٣ ، ١٩٢٤ ، ١٩٢٧ . وكان أستاذاً زائراً ومحاضراً منتدباً فى جامعات أخرى ، حتى انتهى بعد زيارته لجامعة واشنطن فى صيفى ١٩٢٨ ، ١٩٢٩ إلى أن يستقر بها أستاذاً للاجتماع ورئيساً لقسم الاجتماع والعمل الاجتماعى (١٩٣١) وأن يكون عضواً لكثير من الجمعيات النفسية والاجتماعية ومساعداً فى تحرير بعض مجلاتها .

ومن هذا نتبين طبيعة عمل برنارد ولون دراسته وتعاليمه . فإلى جانب مقالاته الكثيرة فى الغريزة وسوء استعمالها ، والغريزة والمحللون النفسيون ، ونقـــد نظريتهم فى الشهوة (الليبدو) وفى العصاب ، وعما إذا كان علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى يستغنيان عن الغريزة ، واتجاهات علم النفس الاجتماعى وعلاقته بالسلوك الإنسانى وبالمجتمع ، ونشأة الوعى الاجتماعى والعلوم الاجتماعية . . . إلى جانب مقالاته هذه كلها ؛ فإن أهم كتبه : الانتقال إلى معيار موضوعى للضبط الاجتماعى The Transition to an objective Standard of Social Control نشرته مطبعة جامعة شيكاغو (١٩١١) فى ٩٦ صفحة . وكتابه مع رودس G. Rhodes وبتار C. Buttar وفولى E.J. Foley : العقل فى عمله The Mind at Work وهو كتاب صغير

يؤخذ متناً فى علم النفس التطبيقى – نشره ميربى Murby فى لندن (١٩١٤) فى ٢٣٥ صفحة. ثم كتابه الهام: الغريزة: دراسة فى علم النفس الاجتماعى Instinct: A Study in Social Psychology نشره هولت فى نيويورك (١٩٢٤) فى ٥٥٠ صفحة. وكتابه الكبير: مدخل إلى علم النفس الاجتماعى An Introduction to Social Psychology عند نفس الناشر فى نيويورك (١٩٢٦) فى ٦٥٢ صفحة.

وقد شارك برنارد فى كثير من الكتب الجامعة فى علم النفس الاجتماعى والاجتماع والإصلاح الاجتماعى، ومن ذلك: الأسس النفسية للمجتمع The psychological Foundations of Society فى الكتاب الثانى من القسم الثالث لكتاب: مقدمة إلى علم الاجتماع Introduction to Sociology الذى نشره ديفز J. Davis وبارنز H.E. Barnes عند هيث Heath فى نيويورك (١٩٢٧) ص ص ٣٩٥ – ٤٩١. ومثلُ هذا البحث عينه فى: قراءاتٍ فى علم الاجتماع Readings in Sociology لنفس الناشرين فى نفس الدار وفى نفس السنة ص ص ٥١٧ – ٦٠٣. وكذلك: الاجتماع وعلم النفس Sociology and Psychology فى: العلوم الاجتماعية وعلاقتها بعضها ببعض The Social Sciences and their Interrelations الذى نشره أوجبيرن F. Ogburn وجولدنفيزر A. Goldenweiser فى بوستن (١٩٢٧) ص ص ٣٤٦ – ٣٦٨ ثم: العقل Mind فى: المعرفة العلمية الحديثة بالطبيعة والإنسان والمجتمع Modern Scientific Knowledge of Nature, Man,and Society الذى نشره كليفلاند F.A. Cleveland فى مطبعة رولاند بنيويورك (١٩٢٩) ص ص ٤٠٢ – ٤٦٠. واتجاهات السلوك وتوجيهاته Attitudes and the Redirection of Behavior فى: وجهات اجتماعية Social Attitudes الذى نشره يَنج K. Young عند هولت بنيويورك (١٩٣١) ص ص ٤٦–٧٤.

وعالَج برنارد – غيرَ هذا – بعضَ مواد دائرة معارف العلوم الاجتماعية Encyclo. of the Soc. Scie. التى نشرها سليجمن A. Seligman – وجونسن A. Johnson عند مكملان بنيويورك (١٩٣٠ وما بعدها)؛ ومنها مادة: Social Attitudes (فى المجلد الأول ص ص ٣٠٥ – ٣٠٧)، والجَمْع Crowd فى المجلد الرابع (١٩٣١) ص ص ٦١٢ – ٦١٣.

أما مرجع مقالاته ودراساته فى السلوك والغريزة والاجتماع فهو – فى الأغلب – مجلة: قوى اجتماعية Social Forces. التى تولى مساعدة تحريرها منذ ١٩٢٧.

الفصل السابع

وسَط الطريق

وإلى جانب هذا الأساس التاريخى الذى صَوَّرنا لمدارس علم النفس — كلٌّ بدورها — يوجَد بطبيعة الحال أساسٌ عَصرى عام يقوم فى سيكولوچيا اليوم بالمعنى الأوسع ؛ بكل ما لها من تَنوّع فى الاتجاهات وكثرة فى نواحى البحث — سواء فى المشاكل العلمية والعملية . وبغير إشارة إلى هذا الأساس المعاصر ؛ فإن صورَتنا ينقصُها المَنظور ، وربما أعطت تأثيراً مُبالَغاً فيه عن الدور الذى تقوم به المدارس فى النشاط السيكولوچى فى هذه العصور . ففى ختام نظرتنا إذن ؛ نستطيع بحَق أن نترك المدارسَ خلفَنا ، لنلُق نظرة خاطفة على الهيكل العام لعلماء النفس المعاصرين .

لنفرض أننا سنُنظّم سباقاً عالَمياً أو مُباراة أولمپية لعلماء النفس ، وأننا سنجمع الألفين أو الثلاثة الآلاف منهم فى ميدان كبير ؛ بأعلام تُرفَع هنا وهناك كنقط جامعة لأَتباع هذه المدارس العديدة : فعَلَم هنا لفرويد ، وعلَم هناك لأدلر ؛ واحد ليونج ، وآخر لمكدوجل ، واحد لمدرسة الجشطلت ، وواحد للسلوكيين ، ثم واحد للوجوديين ؛ وربما رايَتان أو ثلاثة أخرى تَخفُق لمدارسَ لم أذكرْها . فبعد أن يتجمّع الأتباعُ المخلصون لكل مدرسة حول راياتهم الخاصة بهم ؛ سوف يبقَى جِسمٌ كبير فى وسط الميدان — أو على المنصة الكبرى — على استعداد لأن يرقبُ المبارزة . كم هُم الذين سيَبقَون هكذا غيرَ مقيدين ؟ أهم أغلبية ؟ أنا مقتنع بأنهم أغلبية كبيرة .

وهذه الأغلبية غير المرتبطة ليست تقوم كذلك فى مجرد صِغار الأتباع . فليس ينبغى أن نتصور أنه قد كان أمامَنا كافةُ أئمة علماء النفس اليوم ؛ حتى ولو رأينا كثيرينَ ممَّن ليَسوا أتباعاً لأية مدرسة . ليس شك فى أن رائدِى كل مدرسة من المدارس إنما هم رجال ذوو مقدرة ظاهرة . ومثلُ ذلك أيضاً — على عكس ذلك — كثيرٌ من علماء النفس الآخرين الذين ترجع زعامتُهم إلى اضطلاعهم ببَحث هام أولَى من أية محاولة من جانِبهم لإقامة مذاهبَ يُحدّد فيها ميدانُ علم النفس وتُوضَع

أغراضه العامة ومناهجه . فبعضُ علماء النفس يتزعّمون فى دراسة الذكاء ، وآخرون فى دراسة الإدراك الحسى ، وآخرون فى علم النفس التربوى أو الصناعى أو المرضى أو الحيوانى أو الاجتماعى . ولكن هؤلاء القادة — وإن كان لهم تلاميذ وأتباع — لم يُؤسسوا بصفة عامة مدارسَ من النوع الذى كُنّا بِسَبيلِهِ .

وذِكرُ « طائفةٍ » قليلة مختارة من بين القادة الكثيرين الذين يَستحقون الذكر إذ من الواضح أننا لن نستطيع أن نذكُرَ إلا القليل — قد يَبدو بَغيضاً ؛ لولا هذه الحقيقة : وهى أننا « بإزاء » مجرد تخطيط فكرة ؛ استدعاء قليلين يمكن أن يُمثلوا الأغلبيةَ الكبيرة بحق . فبدلا من أن أذكر مثلا أىَّ واحد من زملائى الأمريكيين ؛ سأقدّم جانباً من الإحصائيات تأييداً لما أقول من أن كثيراً من القادة إنما تَجدُهم فى خارج المدارس . فمنذ تأسيس هيئة علماء النفس الأمريكية سنة ١٨٩٢ قد اختِيرَ سبعةٌ وثلاثون من أعضائها رؤساء بالتعاقب ، دليلا على الشرف والامتياز . ومن بين هؤلاء السبعة والثلاثين قد أتيح لى أن أذكر أربعة عشر ؛ من بينهم اثنان فقط أتباع أى من هذه المدارس .ومن بين السبعة والثلاثين جميعاً قد يُذكَر حوالى ستة بوَصفهم أصحابَ مدرسةٍ أو أخرى . وبهذا ؛ فإن نظرةً إلى هذه المدارس شىء مختلف كل الاختلاف عن نظرة إلى الحالة الحاضرة لعلم النفس

بعض علماء النفس الأجانب خارجَ المدارس :

فى بريطانيا العظمى — إذا قورنت بالولايات المتحدة أو بألمانيا — عددُ علماء النفس المحترفين قليل ؛ إلا أن مُستَواهُم رفيع . فالأستاذ كارل اسپيرمن (١) بجامعة لندن (ولد سنة ١٨٦٣) يمكن أن يُعدَّ رأسَ مدرسة ؛ إلا أنها تكوِّن مدرسة من نوع آخر غير التى وَصفنا . والأمريكيون على عِلم بالجدل الطويل بينه وبين ثورندايك عن طبيعة الذكاء — ثورندايك مُؤَيداً وجهةَ نَظرٍ أنّ الذكاء مجموعة كفايات خاصة متعددة غير مرتبطة بعضها ببعض إلاّ فى أن كلا منها يتوقف على سهولة التعلم ؛ واسپيرمَن — مع التسليم بقدرة خاصة لكل نوع من الفعل — يُصِرّ أيضاً على مقدرة عامة تدخل بدرجة ما فى كل نوع من سلوك الذكاء . وهذا العامل المشترك يَرمز له بـ (م) . والجدل حول (م) قد استمر بحرارة خمسة وعشرين عاماً ، وانتهى اسپيرمَن حديثاً إلى أن هذا العامل المشترك يقوم — إلى حد كبير — فى القدرة على رؤية العلاقات والاستفادة بها . واسپيرمَن وثورندايك — وإن كان

لكليهما تلاميذُ ومُعاونون كثيرون — فلَستُ أسلُكهما فى داخل المدارس ؛ لأن المشكلةَ فيما بينهما هى من العدل بحيث تُحَلُّ بالبيِّنة « والحُجة » ، والمساجلة بينهما إذن هى مُساجَلة من النوع العلمى الأمثَل أكثر منها جَدلا بين مدرستَين متنافستين. أما المسألة بين مدرستين كالسلوكية والوجودية فلا يمكن أن تُفَضّ بالحجة ؛ بل هى بالأحرى مسألة تفضيل .

ورائد بريطانى آخر ذو تأثير واسع هو الدكتور ش . ص . مايرز(٢) بلندن (ولد سنة ١٨٧٣) الذى يَشغل مكاناً خاصاً فى علم النفس البريطانى كأول مدير لمعَمل سيكولوجى فى المملكة — معمل كمبردج — والذى قد أصبح أخيراً مديراً لمعهد علم النفس الصناعى القومى ؛ وهو معهد يَتفرَّد فى الميدان التطبيقى بعمل وبحث فى درجة كبيرة من الأهمية قد أُسنِدا إليه .

وننتقل الآن إلى ألمانيا ، فنذكر أولا الثلاثةَ القادةَ الكبارَ الأصليين لعلم النفس التجريبى آنِفى الذكر : ڤونت ، واشتَمف ، و ج . إ . ميلر G. E. Müller فكل واحد من هؤلاء الرجال قد استعان بكلا المنهجين الاستبطانى والخارجى ، ولا واحدَ منهم يمكن أن يُعدَّ من المدرسة الوجودية — التى لم تأخذ شكلا محدداً إلا بعد أن تحدَّدت خطوطُ تفكيرهم . وكان لكل واحد من هؤلاء الرجال تلاميذ عديدون لم يظلوا فى الغالب جِسماً متماسكاً أو مدرسة . فتلاميذ ڤونت مثلا يشملون رجالا ذوى ميولٍ مختلفة أمثال تِتشنر وكِتل واسپيرمَن . وخليفة ڤونت كمدير لمعمل ليپتسك هو تلميذه فيلِكس كريجَر Felix Kreuger(٣) (ولد ١٨٧٤) وهو باحث فى الفونتيكِ (علم الأصوات) وفى سيكولوجيا الشعوب Folk Psychol. وقد نهض بعلم نفس كلِّى totality psychol. ليس مشابها سيكولوچيا الجشطلت بحال ؛ لشىء واحد : هو أن كريجر يُبين أن الشكلَ الذى نُدركه فى أيةِ لحظة هو ذاته مُتَضمَّن فى شعور كلى . فالشعور عنده حقيقة أكثر جوهريةً من الصورة والخَلفية .

وبعضُ أعضاء مدرسة الجشطلت البارزين هم تلاميذ قدماء لاشتمف . ومن الطريف أن نلاحظ تعليقَ الأستاذ على مهمتهم * ، فهو يتحدث عن :

الصيغَة (جشطلت) التى عليها يَودُّ بعضُ علماءِ نفسٍ مُحَدَثون على صلةٍ بى

* فى كارل مرتشيزون (ناشر) تاريخ علم النفس بالتأريخ — مطبعة جامعة كلارك (١٩٣٠) مجلد ١ ص ص ٤٣٣ — ٤٤١ .

قد قاموا بعمل مشكور فى دراسة قوانينها ؛ « عليها يَودُّون » أن يُقيموا — فيما يبدو — ليس فقط علمَ النفس كلّه ؛ بل حتى المنطقَ ذاتهُ .

أنا لم أحاول قط أن أنشئ مدرسة بالمعنى الدقيق ، بل وجدتُ أَدعَى للسرور تقريباً ؛ وأكثَرَ طرافةً على التحقيق ؛ أن أجعلَ تلاميذى يَبلُغون نهاياتٍ مختلفة أولَى من أن أجعلَهم يَتعبَّدون لِقضاياى .

والأستاذ ا . اشپرانجر E. Spranger (٤) بجامعة برلين (ولد سنة ١٨٨٢) هو ممثل بارزلما يُسمَّى علمَ النفس الإدراكى understanding Psychol. تمييزاً له عن علم النفس التوضيحى explanatory psychol. أو العِلِّى . فأن «تُدرِك» مَعناه أن تقِف على معنى شيءٍ ما . ومعنى أى شىء إنما يأتى من مساهمته فى قيمةِ كل أكبر ، كما أن مَعنَى الكلمة فى جُملتها ينشأ من مُساهمتِها فى التعبير عما يريده المتكلم . ولكى نفهم فرداً ؛ ليس علينا أن نقتطِعه ولا أن نعتبره كُلاًّ منفصلا عما يحيط به ، بل أن نَراه فى علاقاتِه الاجتماعية ، وأن نرى حاضِرَه فى صلتِه بماضيه .

ومن بين تلاميذ ميلر اثنان ؛ يَقرُب عملُهما بعضَ الشىء من عمل مدرسة الجشطلت ، وإن لم يكونا بالتحديد تابعَين لهذه المدرسة . فَيينش E. R. Jaensch (المولود فى ١٨٨٣) والآن استاذ فى ماربورج (٥) ؛ قد عمل بجد فى مشكلات الإدراك البَصرى ، وأثار أخيراً مَيلاً خاصاً بدراساته للصور العقلية المسماة eidetic images ، أى الصور الارتسامية ، التى يراها كثير من الأطفال . وداڤيد كاتس David Katz (٦) (المولود فى ١٨٨٤) الأستاذ فى رُستوك — إلى جانب عمله فى سيكولوچيا الطفل والحيوان — هو جدير بالذكر لإثباته للطرق العجيبة التى يتأثر بها إدراكُ اللون بالشروط التى يُرى فيها اللون .

ومن بين علماء النفس الألمان النشيطين العديدين الآخرين اليوم وليم اشترن W. Stern (٧) (المولود فى ١٨٧١) تلميذ ابنجهاوس — وهو جدير بالذكر للميادين الكثيرة التى كان هو رائداً فيها ، لقد كان رائداً فى ألمانيا لدراسة الفروق الفردية ، ولإدخال اختبارات الذكاء والنهوض بها ، وفى دراسة الأطفال والشبان ، وفى ميدان علم النفس التطبيقى . وقد بدأ العمل فى سيكولوچيا البَيِّنة أو الشهادة testimony psychol. ؛ وأكثر من هذا فقد اتخذ سيكولوچياه — على طريقة مكدوجل — حجرَ البدء فى فلسفةٍ أسماها الشخصية personalism . فالشخص

– كما يقول – يُظهر الوحدةَ فى الكثرة ، وبهذا يُوفِّق فى نفسه بين مَقولَتى الوجود والقيمة .

ويوجد علماءُ نفس بارزون – غير مُتصلين بالمدارس – فى دول أخرى عديدة . ففى سويسرا نجد الأستاذ كلاپارِد (٨) E. Claparède فى چنيف (ولد سنة ١٨٧٣) الذى نَهض – فى استقلال عن ديوى وأنجل – بعلم نفس وظيفى يشبه كثيراً عِلمَهما ، وبتطبيقات مشابهة على التربية . وقد أنشأ معهد روسو لدراسة الأطفال ، وهو مركز نشيط لهذه الدراسة . وفيما يتعلق بالارتباطية ؛ يُدلى بملاحظة خِصبة : هى أن الارتباط نفسه لا يغنى عن ضبط الارتباط – الذى هو واضح جداً فى بعض وجوه النشاط العقلى كالقراءة والجمع . والضبط يجب أن يقوم – كما يقول هو – مع عامل المَيل . وتَصوُّره للنوم على جانب من الأهمية ، فهو يرى أنه لا يمكن أن يُفسَّر بأنه مجرد تَسَمُّم بنتائج التعب ؛ بل يجب أن يكون استجابة إيجابية للكائن العضوى وغريزةً بالفعل . ويَعتقد كلاپارد – كرجل محب للسلام ، وسكرتير دائم لمؤتمر علم النفس الدولى – أن المناقشات بين المدارس تمثل مجهوداً ضائعاً يمكن أن يُصرَف فى نواحٍ أكثرَ إنتاجاً .

ولإيطاليا علماءُ نفس نشيطون كثيرون ؛ لا واحدَ منهم – على ما أعلم – تابع مُعيَّن للمدارس ؛ وإن كان ڤِكتور بِنُوسى Vittorio Benussi[٩] (١٨٧٨ – ١٩٢٧) الأستاذُ السابق بجامعة پادو قد كانَ عضواً فى مدرسة الجشطلت النمسوية التى بدأت بإيرنفِلس Ehrenfels ودراستِه لخاصّة الصَورة . وقد شارك بنوسى مشاركة هامة فى دراسة إدراك الصورة ، وله أهميةٌ أيضاً كمُكتشف لاختبار التنفس للوصول إلى حقيقة الكذِب detection of lying .

ودى سانكتِس S. de Sanctis (١٠) – (المولود فى ١٨٦٣) أستاذ الطب العقلى وعلم النفس التجريبى فى روما – يسترعى كثيراً انتباه عالِم النفس . فإلى جانب عَملِه الكثير المُتنوع فى الأمراض العصبية والنفسية ؛ كان باحثاً نشيطاً سابقاً لفرويد فى أحلام الأشخاص العاديين والشواذ . وربما كان مَيدانُه الرئيسى سيكولوچيا الطفل بما فيها دراسةُ الأطفال الشواذ ودونَ العاديين . وقد وضع تَصميماً لأحد مقاييس الاختبار القديمة البسيطة لِبيان درجة النقص العقلى .

والأستاذ كيسو F. Kiesow[١١] فى تورين (ولد سنة ١٨٥٨) كان تلميذاً قديماً لڤونت ، ودَرس أيضاً مع عالِم النفس الإيطالى موسو Mosso الذى يَعرِفه علماءُ النفس

بمقياسه للمجهود ergograph وبدراساته للتعب فى العضلات الإنسانية . ولما كان «كيسو» قوى الاستعداد لهذا العلم الناشئ — علم النفس التجريبى — فإن موسو قد أفرد جزءاً من معمله فى سنة ١٨٩٥ وضمن لكيسو أن يعمل فيه ورأس كيسو هذا المعمل السيكولوچى الوليد عشر سنوات، ثم أعطى له معمل كاف خاص به ؛ كان له فيه كثير من التلاميذ ؛ وعنى فيه — أخص ما عنى — بالإحساس : الذوق واللمس ، ووضع الجسم ، وكذلك بالمشاعر والصور. وهو فى آرائه النظرية يقرب كثيراً من ڤونت ؛ وبينما يعلم — فيما يتعلق بعلم النفس الجشطلتى — أنه قد اتخذ لوناً هاماً من الدراسة ؛ إذا به يجادل فى أنه لم يقض قط على حقيقة الإحساسات الأولية ولا على الحاجة إلى متابعة دراستها .

وفى فرنسا أيضاً يوجد كثير من علماء النفس النشيطين — ليس بينهم من هو تابع بالتحديد لمدرسة من المدارس ؛ إلا أن يكون منهم بعض محللين نفسيين . ولا يزال الفرنسيون على صلة قوية بعلم النفس الارتباطى ؛ وإن كانوا يدركون الحاجة إلى أن يربطوا به شيئاً من المبدأ الهورمى . وقد شارك فلاسفتهم — أمثال پولان F. Paulhan (١٢) وبرجسون — فى كثير من التعاليم الرئيسية سواء فى علم النفس الهورمى والجشطلتى . ويميل علماء النفس الفرنسيون إلى الإبقاء على استقلال واختيار واعيين .

وخليفة بنيه Binet فى معمل السوربون هو هنرى پييرون H. Piéron (١٣) (المولود ١٨٨١) الذى لم يجار عمله الرئيسى عمل بنيه فى اختبارات الذكاء ؛ بل فى علم النفس التجريبى والفيزيولوچى ، وفى دراسة اصابات المخ أثناء الحرب . ومن اليسير أن يعد پييرون سلوكيا ؛ ما دامت دراساته للحيوان قد انتهت به إلى أن يحد علم النفس بأنه دراسة السلوك Study of behavior قبل أن يستخدم وطسون هذه الصيغة . إلا أن پييرون ربما كان أوضح فكراً من السلوكيين . فهو لا يجد عناء فى أن يشمل فى دراسة السلوك دراسة الإحساس ، بل ودراسة الصور ؛ ولا يرى ضرورة لأن ندخل فى الأمر شهادة الفرد بشعوره هو .وإنما لكى تصبح الاستبطانات والتأثيرات صحيحة فقط كحقائق علمية ؛ يجب أن تسجل على نحو ما فى صورة موضوعية ومعقولة من الناحية الاجتماعية — أى فى كلمات مثلا . فكل خبرة مسجلة على هذا النحو هى سلوك موضوعى . وعلى هذا ؛ فإن كافة علماء النفس يستخدمون بالفعل حقائق السلوك والمسألة إذن هى فى درجة المعقولية

واليَقين التى لِنوَع بِعينهِ من الحقائق ، وليس ثمة خَط واضح يُرسَم فى هذا الصدد بين المنهجَين الموضوعى والذاتى فى عِلم النفس .

وعالمُ نفسٍ فرنسى بارز آخر ؛ هو چورچ ديما George Dumas[١٤] (المولود فى ١٨٦٦) والأستاذ فى جامعة پاريس ، والذى كان أهمّ ما شغلَه فى أبحاثه الخاصة هو الانفعالات ، هو أكثر من هذا جدير بالذكر بوَصفه رائدَ جماعة كبيرة اشتركوا فى : الرسالة الجديدة فى علم النفس Nouveau Traité de psychologie الشاملة ، التى ظهر مجلدها الأول فى سنة ١٩٣٠ . ووجهة نظر هذه الجماعة أن الاستبطان — برغم صعوباته — قد أثبت خِصبَه إلى حد معين ، وأنه بحَق لا غنى عنه فى علم النفس ؛ ما دام قد قدّم خصوصا لفكرة الدراسات الموضوعية التى أخَذ بها ؛ و « ما دام » أيضاً يُشبع اللذةَ الشخصية التى يجَدها المرء فى النتائج السيكولوچية . فعلمُ النفس الفرنسى قَوى بأساسه البيولوچى ، وبما فيه من وضع اجتماعى لوجوه نشاط الفرد ؛ وأكثر من هذا — ووفقاً لتقاليده الطويلة منذ أيام شاركو وما قبلها — هو يَميلُ بقوة نحو علم النفس المرَضى « أو علم الأمراض النفسية » (السيكوپاثولوچيا) . أما مبادىء فرويد الديناميكية فتبدو للفرنسيين أقل ثورة من مبادئ جانيه أكثر مما كنا نظن

وأخيراً ؛ فإنه — وإن أمكننا أن نجد ممثلين نابهين لعلم النفس فى ممالك أخرى كثيرة — يمكن أن نختتم هذه النظرة العجَلى بإثبات علم النفس الرسمى لروسيا السوڤيتية ؛ الذى يحاول أن يقيم نفسَه على فلسفة كارل ماركس ؛ الفلسفة المعروفة « بالمادية الديالكتيكية » . والقصدُ — من ناحية — إبراز حقائق علم النفسِ المعروفة بوضعها إلى جانب الفلسفة ؛ ومن ناحية أخرى — اتخاذ الفلسفة هادياً لبحث وكشف جديدَين . وفى النوع الماركسى من المادية مجالٌ للشعور كظاهرة حقيقية ، وخاصة جديدة ؛ تظهر عندما تبلُغ العمليات الجِسمّية درجةً معينة من التعقّد . ومن هنا فإن علماءَ النفس الروسيين هؤلاء يرفضون كِلَا النوعَين الذاتى البَحت والموضوعى البَحت من علم النفس . فالاستبطان لا ينبغى اطِّراحه ، ولكن نتائجَه يجب دَعمُها دائما بالمناهج الموضوعية ؛ ما دامت هذه الأخيرة تقرُب كثيراً من العمليات الفيزيقية الرئيسية . ويَستطردون قائلين : إن الفرد يجب أن يُدرَس من الجانب الاجتماعى كما يُدرَس من الناحية البيولوچية ؛ ما دام هو نتيجة بيئته الاجتماعية ؛ هوَ نِتاج طبقته الاقتصادية والعمل الذى يُطلَب إليه أن يقوم به فى

العالَم . وإذن ، فالفرد يجب أن يُدرَس كعضو فى طبقة اقتصادية أو مِهنية . ودراسة سيكولوچيا الطبقات هى دراسة جوهرية كما هى عملية . وكورنيلوف K. N. Kornilov (المولود فى ١٨٧٩) مدير معهد علم النفس التجريبى فى جامعة ولاية موسكو (١٥) — هو أحد القادة فى جامعة الرّوس .

اتجاه علم النفس :

هذه الأسماء القليلة التى ذكَرتُ ، قد قُصِدَ بها أن تعطيك فكرة عن جسم أَوسطَ كبيرٍ لعلماء النفس الذين لا يعترفون بالتبعّية لواحدة من المدارس ؛ وإن كان البعضُ يميلون أكثر نحو واحدة ، والآخرون نحو أخرى . فهم يرفضون أن يتعاطوا الدواءَ الذى تقدّمه واحدة من هذه المدارس ؛ بمعنى أنهم يرفضون أن يصطَنعوا مذهباً أو نظرية لإحدى هذه المدارس . ومثلُ هذا الرفض لا يَستلزم أن يَحُول بيَننا وبين تَعرُّف العمل الحسَن أينما وجدنَاه حين نكونُ تابعينَ لجماعة الوسَط . فإذا قدّم لنا الوجوديُّ تحليلاً طيباً للإحساس بالحرارة أو لِخبرات اللون ؛ قبِلناه منه شاكرين . وإذا بيّن السلوكيُّ بالتجاريب على صغار الأطفال كيف يمكن أن تنشأ حالاتُ الخوف الشرطى ؛ فنحن فى حِلٍّ من أن نَستفيد بهذا الكشف فى علم النفس الخاص بنا . وإذا شاء عالِمُ النفس الجشطلتى أن يُبين أن كلَّ تَعلّم فهو يعتمد بدرجةٍ ما على الاستبصار ؛ وجب أن نُراجع آراءنا فى التعلم وَفقاً له .وإذا أقنعَنا عالِمُ النفس القصدى بأن الفرد لا يمكن أن يكون سلبياً عندما يصل إليه منبه ؛ فهذه هى الأخرى نقطة هامة يجب أن تُنظَر . وإذا فتح عالِمُ التحليل النفسى عيونَنا لأهمية الدافع الجنسى ؛ فإنا نشكر له ذلك . فكل نتيجة إيجابية قيمة هى غذاء لعلم النفس الذى لا يتأثر بالإخلاص لنوع بعينه من علم النفس . وعالِم النفس غير المُنتَسب — الذى لا يتخذ نقطة بدئه من مذهب محدّد من قبل ، والذى يأخذ بالأَحرى طريقَه نحو مذهب ما بالتوفيق بين الحقائق كما هى مكتشَفة — " عالِم النفس هذا " ؛ يمكن أن يُهزَأ به على أنه مجرد مُلفّق . ولَا عليه أن ينزعج لذلك ؛ لأنه من المحقّق أن أى مذهب يُعرَض اليوم يجب أن يُراجَع بقدر ما يُلقى البحث ضوءاً جديداً على مشكلاتنا ، إن ثمة آفاقاً جديدة أمام التقدم السيكولوچى غير مكتشَفة . وكل واحدة من المدارس — إذ تلمَح من نقطة مُفيدة شيئاً من أساسِ المجال أمامها — تُعدُّ خريطةً تخطيطية لما عسى

أن تجد ، وتقدّمها كدليل لاكتشافاتها . إلا أن هذه اللوحات التخطيطية تختلف واحِدَتُها عن الأخرى ، ولا يمكن أن تكون كلها صحيحة ؛ بل إن من الممكن أن تكون واحدة منها صحيحة تماماً ، وأن كثيراً من المفاجَئات تنتظر الباحثَ السيكولوچى .

ولا أريد أن يُظَن أن هذا الهيكل الضخم لعلماء النفس غير المتسببين فى اتفاق تام حول كل مسائل علم النفس ؛ فإننا إذا قسّمنا هيكلَنا هذا كله من علماء النفس إلى طوائف — وَفقاً لميادين بحثها المُفضَّلة : كعلم النفس الحيوانى ، وعلم نفس الطفل ، وعلم النفس المرضى ، وسيكولوچيا الاختبار والفروق الفردية ، وعلم النفس التربوى ، وعلم النفس الاجتماعى ، وعلم النفس الصناعى ، وسيكولوچيا الإحساس ، والإدراك ، والتعلم ، والانفعال . . . إلخ — فإننا سَرعان ما نجد خصومة قائمة فى كل من هذه الطوائف الخاصة ؛ سوف نجد مناقشات فى طبيعة الذكاء ، وفى الغريزة ، وفى الوراثة فى مقابل البيئة ، وفى فروق الأجَناس ، وفى الدافع ، واللاشعور ، وفى موضوعات أخرى كذلك ذاتِ أُفق أضيَق . نحن نجد خصومات كهذه فى كل علم ؛ خصومات ترجع فى جزء منها إلى طبيعة العلماء البشرية ؛ وفى جزء آخر إلى عدم كمال البَيِّنة فى المَسائل موضِع الجَدَل .

إلا أنه بينما الخصوماتُ ومسائلُ الجدل مألوفة فى العلوم كلها ؛ فإن مدارسَ كالتى كُنَّا بِسَبِيلها يبدو فى الأغلب أنها خاصة بعلم النفس . ربما وُجِد بعضُها فى العلوم الاجتماعية ، إلا أنها فى العلوم الطبيعية — اليومَ على الأقل — قَلَّ أن تُوجَد . فمن حين لآخر نَجد رجالا يَظهرون بنَظريات جديدة رائعة كنظرية مِندل Mendel فى الوراثة ، وأينشتَين فى النسبِّية العامة ؛ ويقوم الجدل مباشرة حول هذه النظريات ، وتميلُ بعض المصادر إلى الأخذ بها والأخرى إلى رفضها ؛ إلا أن أينشتَين مثلا لم يُكوِّن مدرسةً بالمعنى الصحيح ، والذى فَعَلَه هو استخلاص نتائج نظريته التى يُمكن إقرارُها بالملاحظة . أما الفيزيقيون وعلماءُ الفلك — الذين كانوا بِحَيث يتهيأ لهم القيام بالملاحظات الضرورية — فقد وضَعوا النتائج موضعَ الاختِبار ؛ وبهذا ربما كان بعضُ من اختبَروا النظرية يأملون أن يحققوها ، والآخرون أن يُوجِّهوا إليها الضربةَ القاضية ، إلا أن جميعَهم مُتفقون على أن الذى ينشُدونه هو البيِّنة : فما إن كانَت الحُجة التى انتهوا إليها فى صالح النظرية ؛ حتى بدأ الميلُ العام نحوها يُحبذها — وإن لم يَزل ثمة من الفيزيقيين من يُعارضها ،

ومَن يقول بأن حُجتها ما تزال غيرَ كافية بحيث تُتيح لنا حتى محاولةَ الأخذ بها إلا أنه فى كل هذا قليلُ شَبَهٍ بمدارسنا فى علم النفس ومناقشاتها .

ونحن — علماء وسط الطريق — أحياناً ما نَضيق بعض الشيء بوجود المدارس فى عِلمِنا ؛ فإنها تُشبه أن تكون دليلا على أن الحال ليست مُرضية ، وأن علم النفس لم يتبين بعدُ أينَ هو ، وماذا يجبُ أن يفعل . إلا أنه يجب أن نعترف جميعاً أن نشاط الفرد الإنسانى « وفاعليته » فى غاية التعقيد ، ومن هذا التعقيد ذاته يمكن أن تجد المدارسُ أصلاً لها . ومن هذا النشاط المركَّب جوانبُ كثيرة تَعرض نفسَها للدرس ، وعلم النفس الذى يَعكف على جانب منها من المحقق أن يؤكد أهميته ؛ وقد ينتهى إلى اعتباره الشيءَ النهائى ، فالوجودى يُعنى بالإحساس ويَعدُّه نهائياً ، وعالِم النفس الجشطلتى يُعنى بالإدراك ويُعد وَضع الصِّيغ الذى يجده فيه حقيقةَ علم النفس النهائية ، والسلوكى يُصبح مَعنياً بالسلوك الحركى والغُدّى ويأخذ به على أنه الغاية ، « وعالِم النفس » القَصدى يَعدُّ القصدَ غايتَه ؛ وهكذا الأمر مع فرويد والليبيدو ، ومع أدلر وإرادة القوة . . . فالمدارس كلها تؤكد شيئاً يتطلب التأكيد وتؤدى وظيفة نافعة فى تقدم علم النفس . وبَديهى أنه يجب أن نَحُدَّ عِلمَنا على نحو من الاتساع يكفى لتغطية النتائج والتأكيدات الإيجابية للمَدارس كلها .

وحينئذ : فإنكَ إذا سألتَنى أية مدرسة أَختارُها لك ؛ فإنى أَميلُ إلى النصح لك بأن تلتزم وسط الطريق . يجب أن تَذكرُ أن جماعة وسط الطريق ليسوا مجرد أكتاف يُنهض عليها left - overs ، أو هؤلاء الذين لا يستطيعون أن يُعمِلوا عقولَهم . وأحياناً ما يُقال عنا — بتغيير طَفيف فى صيغة القول — إننا أصحاب وسط الطريق نجلِس على السُّور sitting on the fence ، وأن لنا — فى حالات فردية سيئة — مَيلا مألوفاً إلى أن نجلس على السور « مُتفرجين » . هذا حسَن ، ولتأييد هذا المجلِس يمكن أن يُقال : إنه هُنا أَبرَد ، ويمكن أن يُشرِف المرءُ على مَنظر أحسن لكل ما هو جارٍ . إلا أننى أُحبُّ عبارةَ وسط الطريق ، لأنها تحمل معها استمرارَ هذه الجماعة . لقد وُجدوا فى سنة ١٩٠٠ قبل أن تظهر المدارس ، وما زالوا يسيرون قدُماً منذ ذلك الحين ، وحصَّلوا زيادةً محسوسة من المعرفة خلال الثلاثين سنة . ولهذا لا أجد داعياً لحَث إخوانى الصغار إلى هذه المدرسة أو تلك . أما إذا احتاج أحدُهم إلى إثارة ، أو لَزِمَه دافعُ إخلاصٍ بعينه ؛ فإنى أنصَح له أن يختار لنفسه على أى نحو .

من المحقق أن المدارس ليست غيرَ ذات قيمة ، فإن كُلاًّ منها تؤكد لا شك شيئاً جديداً . وكل منها — لما تلاقيه من معارضة الهيكل العام لعلماء النفس — تندفع فى كثير من النشاط لمحاولة إظهار قيمة لونها من الدراسة . ولن يَعجز أحد أن يَرى أن نشاط البحث الكبير فى مدرسة الجشطلت قد كان الدافعُ عليه فى معظمه رغبتَهم فى أن يَستخرجوا حالةً طيِّبة لنظريتهم العامة . وكذلك الحال فى محاولة وطسون اللطيفة دراسةَ انفعالات الأطفال وإشراطهم ؛ دفعَته إليها رغبتُه فى إثبات قيمة النوع من الهجوم الذى اختار .

ومن بين الأسباب التى من أجلها لم يتشعَّب علمُ النفس خلال العشرين سنة الماضية إلى جماعات متفرقة ؛ حاجةُ كل مدرسة إلى أن تَعرض حالتَها أمام الهيئة العامة على أمل أن تَلقى تأييدا . وسَببٌ آخر نَجدُه فى كثرة عدد أولئك الذين يظَلون وسطَ الطريق . وأخيراً ؛ فالسببُ الثالث هو أن كافة علماء النفس يعمّلون فى ميدان عام بعينه : هو قُوَى الفرد إنساناً أو حيواناً ، طفلا أو شاباً ، سَوياً أو منحرفاً . من أجل هذه الأسباب — وربما لأسباب غيرها أخرى — يُظهر علماء النفس فى العالَم تضامناً أكثر مما قد يَتوقعة مَن فى خارج جماعتهم ؛ بسبب ما يصل إلى أُذنَيه من صَوت التعارض . حقاً إن بعض الأعضاء الأكثر دَأباً فى المدارس المختلفة قلّما عُنوا باجتماعات علماء النفس العامة ، ومن الحق أيضاً أن علماء النفس الطبي غالباً ما تجمّعوا بمفردهم مُشتغلين بمسائلهم العملية ومناقشاتهم الخاصة ؛ إلا أنه على أى حال يمكن أن يقال إن علماء النفس مُتوادُّون . وإنك لَتجد فى أحد اجتماعاتهم أو مؤتمراتهم كثيراً من التآخى والاحترام المتبادَل بين أعضاء الجماعات المختلفة ، ترى الأسدَ والحمل راقدَين معاً فى اطمئنان حتى لا تستطيعَ أن تقول أيُّهما الأسد وَمن الحمل .

ولو أنك سألَتنى أية مدرسة سوف تُثبت قضيتها وتخرج ظافرة — وبهذا تَزُجُّ بمُحدِّثك على كرهٍ منه فى خَطر موقف المتنبئ — لأجبتك : كلها ، ولا واحدة منها . لا واحدة : لأن آراء كل مدرسة يبدو لى أنها ليست من طبيعة الغَرض الذى يقبل البرهان أو النقض بالترجيح أو البَيِّنة . فكل مدرسة تَعرض تفضيلَ نوع أو آخر من الدراسة ، ونَبذ أنواع أخرى بعَينها من الدراسة . وما دام من المحتمل أن تُثبت كلٌّ مدرسة قضيتَها إلى هذا الحد ؛ فيُصبح من المعلوم أن لونها الذى اختارته من الدراسة خصب مثمر . ويَنتج ألا واحدة منها يمكن إخراجها . وبالتالى لا

واحدة منها يمكن أن تكسب الميدانَ كله لنفسها .

ولو سألتنى : كم تستمر مدارسُ اليوم ؟ فلن يَسعنى أن أقول إلا أنها تُظهر كلُّها كثيراً من قوة الشباب . فلكل منها مجال لكى تذهب لاستطلاع الجزء من الميدان الذى اختارته خصوصاً لنفسها . وأكثر من هذا ؛ فإنه طالما بقى من الممكن « أن تحدُث » تغييرات بعيدة فى نظرية كل مدرسة ؛ فمن الممكن أن نعتقد أن الأصول الناشئة سوف تستمر فى دفع النظرية إلى نهايتها . وفى نفس الوقت ؛ فإن عملية الانحلال التى بدأت من قبل — بتأثير جماعة وسط الطريق فى الأغلب — من المحقق أنها مستمرة ؛ إذ المادة من هذا الجانب أو ذاك مُضطرة إلى أن تأخذ طريقها فى الوسط وتُصبح مِلكاً عاما . فعملية التوفيق « ومحاولة » الانسجام قائمة . وعلم النفس الرئيسى (المركزى) سُيلِّم بكل ما يستطيع ؛ بينما تُبقى المدارسُ على مادتها فى أقوال منحازة .

ولا أريد أن يُفهَم أن الاعتدال والوسطَ الذهبى بين أى طرفَين هما اللذان سيؤديان بالتحقيق إلى الآراء التى ستكشف عنها الأحداث ؛ فإنه قد يحدث أن الآراء التى تبدو اليوم متطرفة تماماً سوف تُثبت جدارتها . إلا أننى مقتنع تماماً أنهم لن يُقحِموا آراءً أخرى يبدو الآن أنها لا تغلَب — عندما تكون هذه الآراء كتلك التى تُدلِى بها مدارسُنا خصوصاً . والذى أعنى ؛ أن الفروض التى تقترحها واحدة أو أخرى من المدارس ، والتى يبدو أنها تتعلق بالعقائد الكبرى لهذه المدرسة سوف يتبين أنها ليست بهذا التعلّق ؛ بل هى تقوم بصَرف النظر عن علاقتها بصَيحاتِ المدارس . فأنا أستطيع أن أتصور مثلا أن البحث عن الهدف ، والاستبصار ، والمنعكس الشرطى قد نجد أنه لا غنى عنها جميعاً فى عملية التعلم .

ولا بد أنك قد تمتّعتَ بالجمال الرائع لِوادٍ كشامونكس Chamonix أو يوزميت Yosemite . وإذا علمتَ قِصتَهما رأيتَ أن سحرَها العجيب إنما يأتى من كونهما واديَين صغيرَين بالمعنى الجيولوجى ، نحتَتهما ثلاجات تقهقرت حديثاً فقط ؛ تاركةً وراءها هذه المهاوى الجميلة ومساقط الماء المتدفقة . ولم تَطُل التعرية بهذه الوديان بعد ، ولكنها بالتدريج سوف تنحت المهاوى إلى مُنحدَرات لطيفة ، وتحوّل مساقطَ المياه إلى مجرد مجارى جبلية . إلا أنه — لسوء الحظ — قد تعود الثلاجاتُ ثانية !

وعلمُنا هذا النفسى الجميل ربما يدين بهذا النوع من سحره الرائع إلى هذه

الحقيقة : وهى أنه هو أيضاً ناشىء (صغير) . وثلاجات الفلسفة — وبالطبع لا بد أن تكون الفلسفة — حين انحسَرت إلى أعالى الجبال قد تركت لنا مَهَاوِيَها ومساقطَها . إلا أن التعرية قد حَلّت ، وتعمل عملَها لتقلل من قوة هذه المَهاوى ، وشدة اندفاع هذه المساقط . وحتى حيث يُقيم الكابيتان El Capitan الآن خطّ دفاعه الحجرى ؛ ربما توقعنا ألا نجدَ يوما غيرَ منحدر خشبى لطيف . إلا أنه — يا للأسَى ! — ربما عادت الثلاجاتُ ثانية ، وحينئذ ؛ فإن الوادى القديم المنحوت له على التحقيق بعضُ حسَنات .

تعليقـــــــات

على الفصل السابع

يَعنى ودورث بوسط الطريق – كما هو ظاهر من قراءة هذا الفصل – جماعة مُتوحّدين من علماء النفس ؛ يأخذ كل منهم طريقه فى استقلال عن التبعية لأى مدرسة ، مُركّزاً جهودَه حول موضوع خاص يدرُسه. وهو مع هذا لا يُصنّفهم حسبَ دراستهم لموضوعات بعينها من علم النفس ، ولكنه يَذكرهم – أمثلةً منهم لا جميعَهم – بحَسب بلادهم وميادين نشاطهم . وهو فى هذا الفصل الختامى يوجز إيجازاً مُخلاًّ ، ويتخذ صورة المؤرخ الإحصائى بصورةٍ ظاهرة ؛ وإلا فإن أتباع وسط الطريق قد كان حتمُّهم عليه – ما دام يُقيم لهم هذه الأهمية ، ويَتوقع على يَديهم من الكشف أكثر مما يتوقع من المدارس – نقول كان يجب أن يَشغل الكلامُ عنهم النصفَ الثانى من الكتاب . ولسنا ندرى أكان هو يُؤثر الوقوفَ بمحاضراته عند هذا الحد ، أم أن مدارسَ علم النفس كانت تَشغل حينئذ أكبرَ ميادينه ، وتشتَغل بأكثر موضوعاته . قد يكون حقاً هذا أو ذاك ، ولكن من الحق أيضاً أنّ لِعلماء « وسط الطريق » مكانَهم وشخصيتَهم . وسنُورِد نُبذَة عن كل واحد منهم ممَّن لم يَسبق ذكره .

(١) اسپيرمَن (تشارلز إدوارد) Ch. Ed. Spearman ولد فى لندن فى سبتمبر ١٨٦٣ ولكنه درس فى ليپتسك وڤيرتسبورج وجتنجن بألمانيا ، وحصل على الدكتوراه فى الفلسفة فى لَيپتسِك (١٩٠٤) ونشر فيها بحوثاً كثيرة ، وعاد إلى انجلترا يُمثّل فيها النزعةَ الألمانية فى علم النفس . فعُين محاضراً فى يونيڤرستى كوليج بجامعة لندن (١٩٠٦ – ١٩١١) حيث صار أستاذاً للمنطق والعلوم العقلية (منذ ١٩١١) . وقد رأس جمعيةَ علم النفس البريطانية (١٩٢٣) واشترك فى جمعية الفيزيولوچيا البريطانية ، والجمعية الملكية ، وجمعية علم النفس البريطانية وتولى منذ ١٩٢٨ مُساعَدة تحرير صحيفة علم النفس العام.

وليس اسپيرمَن عالماً تجريبياً ؛ وإن يكن قد نشر فى ألمانيا بحوثا تجريبية عن إدراك المكان ؛ عاد فلَخّصها فى مجلة Mind (مجلد ١٦ سنة ١٩١٠) باسم : An Economic Theory of Spatial Perception . إلا أنه منذ رسالته فى ١٩٠٤ قد اتجهت ميولُه إلى الذكاء وطبيعة العمليات العقلية بوجه عام . ونظريتُه فى العامل المشترك فى

الذكاء والعوامل الخاصة الأخرى ؛ التي قدمها بتحليل علمي واختبارات عقلية عملية ؛ هي على جانب كبير من الأهمية. راجع : نظرية العاملين The Theory of Two Factors (مجلة علم النفس ، مجلد ٢١ ، سنة ١٩١٤) وفي مجلد ٢٧ (١٩٢٠) من نفس المجلة : نظريات فرعية كثيرة في العاملين Manifold Subtheories of "theTwo Factors" وفي صحيفة علم النفس البريطانية Brit. J. of Psychol. (ج ٣ ، ١٩٢٣) : فكرة أبعد في نظرية العاملين Further Note on the "Theory of Two Factors".

ومن أهم كتبه : طبيعة الذكاء ومبادىء المعرفة The Nature of Intelligence and Principles of Cognition مكملان بلندن (١٩٢٣) ومقياس للذكاء A Measure of Intell. مثيون بلندن(١٩٢٥) وقدرات الإنسان The Abilities of Man مكملان (١٩٢٧).

وقد خلف اسپيرمن مكدوجل في معمل يونيفرستي كوليج ، وفيه طبق نظريته الهامة جداً في ترابط أو تعلق الذكاء Correlation of Intelligence مفسراً هذا التعلق بين صنفين بأنه يدل على وجود عامل مشترك بينهما وعامل خاص بكل صنف ؛ كما بيّنت قياساتُ القدرات العقلية المختلفة في الأفراد . وانتهى اسپيرمن من هذه الحقيقة — وبمنهجه الخاص — إلى وجود عامل مشترك بين عدد كبير من القوى العقلية ؛ أي عامل يمكن أن يُسمّى ذكاء عاماً . وهنا نرى أهمية اسپيرمن في اختبارات الفروق بين الأفراد في القدرات العقلية والذكاء . أما منهجه الإحصائي فقد انتقده طومسون Thomson وأيّده جارنت Garnett ولا تزال له قيمة كبيرة . راجع في حياة اسپيرمن وآثاره العلمية : مجلة علم النفس المصرية عدد٣ ، فبراير ١٩٤٦ ؛ وثبت بحوثه وكتاباته : سجل مرتشيزون ج ٢ ص ص ٣٣٥—٣٣٦ ؛ وفي منهجه ودراساته مقالاته وكتبه التي ذكرنا — وخصوصاً كتابه The Abilities of Man . راجع كذلك تأريخه لحياته ومذهبه في تاريخ علم النفس بالتأريخ لمرتشيزون ج ١ ص ص ٢٩٩ — ٣٣٤ . توفي في سنة ١٩٤٥ (راجع حياته وآثاره العلمية في مجلة علم النفس المجلد الأول ص ص ٣٥٠ — ٣٦١) .

(٢) مايرز (تشارلز صموئيل) Ch. S. Myers : ولد سنة ١٨٧٣ ، ودرس العلومَ الطبيعية في جامعة كمبردج (١٨٩٣ — ١٨٩٦) كما درس الآداب في كلية جونفيل وكايوس Gonville and Caius Coll. (١٨٩١ — ١٨٩٥) فحصل على درجة B.A. (١٨٩٥) ودرجة M.A. (١٩٠٠) وأخيراً حصل على الدكتوراه في العلوم

Sc.D (١٩٠٩) . وفى ذلك الحين لحق بمستشفى سان برتولوميو (١٨٩٥ – ١٨٩٧) فحصل على درجتى الـ M.B. والـ B. Ch. (١٨٩٨) وأخيراً على الدكتوراه فى الطب M. D. من كمبردج (١٩٠١) .

ومنذ ١٩٠٣ عين مايرز أستاذاً لعلم النفس فى كِنجز كوليج Kings College بجامعة لندن (حتى ١٩٠٧) وفى نفس هذا الوقت (١٩٠٤ – ١٩٠٦) كان مُشرفا على علم النفس التجريبى فى جامعة كمبردج ، حيث صار محاضراً وقارئاً فى علم النفس التجريبى منذ ١٩٠٦ حتى ١٩٢٢ ما عدا سنوات الحرب العظمى الأولى (١٩١٤ – ١٩١٩) حيث اشترك برتبة «قائمقام» فى الجيش البريطانى ، وعمل مُستشاراً نفسياً مع الجيوش فى فرنسا . ومنذ ١٩٢٠ صار زميلا لكليته جونفيل وكايوس بكمبردج . وفى ١٩٢١ صار مديراً للمعهد القومى لعلم النفس الصناعى ، كما كان محرراً لصحيفة علم النفس البريطانية Brit. J. of Psy. (١٩١١ – ١٩٢٤) – هذا عدا جمعيات ومؤتمرات علم النفس الكبرى التى يرأسها .

وقد قام مايرز مع ريفرز W.H.R. Rivers بدراسات نفسية للبدائيين عن طريق اختبارات الذكاء خصوصاً ، واستمرّا فى دراستهما الأنثروبولوچية النفسية هذه عشرَ سنوات تقريباً. وكانت معظم كتاباتهما فى ذلك الحين تتجه نحو العقل البدائى ، والحضارة الأولية والموسيقى البدائية ، و« إتنولوچيا مصر الحديثة » . . . وغير ذلك ؛ كما ترى من قائمة تآليفه ومقالاته فى سجل مرتشيزون ج ٢ ص ٣٢٩ . كما اشترك مايرز فى دراسة تحديد المَوضع الأدنى للنغمات مع ولسن H.A. Wilson ؛ ومع ڤالنتين وفيلديس Fildes وغيرهما فى دراسات أخرى كثيرة .

وأهم كتبه فى علم النفس فى ذلك الحين : مَتن فى علم النفس التجريبى Text-Book of Exper. Psychol. (١٩٠٩) ظهرت طبعتُه الثانية (١٩١١) والثالثة (١٩٢٥) ؛ وكذلك كتابُه الصغير : مقدمة إلى علم النفس التجريبى Introd. to Exper. Psychol. (١٩١١) وطبعتُه الثالثة (١٩١٤) . أما أهم كتبه بعد اتجاهه إلى الناحية التطبيقية والصناعية فكتابه : التطبيقات الحالية لعلم النفس مع إشارة خاصة إلى الصناعة Presentday Applications to Psychol. with Special Reference to Industry (١٩١٩) ؛ وكتابه : العقل والعمل Mind and Work (١٩٢١) ؛ وعلم النفس الصناعى فى بريطانيا العظمى Industrial Psychol. in Great Britain (١٩٢٦) . كما أنّ له فى ذلك الحين أيضاً كُتباً ومحاضراتٍ أخرى كثيرة مَطبوعة فى علم النفس التجريبى وعلم النفس العام . توفى فى أكتوبر ١٩٤٦ .

راجع مرتشيزون : تاريخ علم النفس بالتاريخ حـ ٣ ص ص ٢١٥ – ٢٣٠ .

(٣) كريجر (فليكس إميل) Felix Emil Krueger : ولد فى أغسطس ١٨٧٤ ، ولحق بجامعة اشتراسبورج (١٨٩٣) فجامعة برلين (١٨٩٤) فجامعة ميونخ (١٨٩٥) فجامعة ليبتسك (١٨٩٧) حيث حصل على الدكتوراه فى الفلسفة (١٨٩٨) ثم عُيِّن مساعداً فى معهد علم النفس بجامعة كيل (١٨٩٩ – ١٩٠٢) فمساعداً لمعهد علم النفس بجامعة ليبتسك (١٩٠٢ – ١٩٠٦) وهنالك صار معيداً (١٩٠٣ – ١٩٠٩) حيث دعى فيما بين سنتى ١٩٠٦ – ١٩٠٨ ليكون أستاذاً للفلسفة وعلم النفس ومديراً لمعهده فى جامعة بيونس أيرس ، وعاد إلى ليبتسك أستاذاً لعلم النفس (١٩٠٩–١٩١١) فأستاذاً للفلسفة فى جامعة هلى (١٩١٠ – ١٩١٧) حيث انتدب فيما بين سنتى ١٩١٢ – ١٩١٣ أستاذاً بجامعة كولومبيا ، وأخيراً عاد سنة ١٩١٧ مديراً لمعهد علم النفس بجامعة ليبتسك .

وهنا كان كريجر خليفة لڤونت ، وتركز حوله علمُ النفس المسمَّى بعلم النفس التطورى Entwicklungspsychol. وهو يؤمن بجوهرية « الجشطلت » فى علم النفس ، ولكنه يزيد أن الحقائق السيكولوجية يمكن ان تُفهَم فحسب فى ألفاظ تاريخ تطورها . وعلى أساس وجهة نظره هذه قام معمل ليبتسك – كما قام معمل برلين – يبحث فى مشاكل الإدراك . ولم يكن رأى كريجر هذا قاصراً على المعمل ؛ فهو يقول فى سيكولوجياه بإمكان الوصول إلى فهم الظواهر الحضارية ، كما يرى فيها فرصة لتطبيق علم النفس عملياً على مشاكل الاجتماع .

وبهذا الأفق الواسع ظهرت من ليبتسك مطبوعات كثيرة لكريجر وغيره ممن تأثروه فى رأيه ؛ منها لكريجر نفسه : هل الفلسفة بغير علم نفس ممكنة Ist Philos. ohne Psychol. möglich ميونخ (١٨٩٦) ؛ وفكرة القيمة المطلقة كأساس لفلسفة الأخلاق Der Begriff des absolut Wertvollen als Grundbegriff der Moralphilos. ليبتسك (١٨٩٨) . وله فى النغم والأصوات وعلم الفونتيك (الأصوات) Die Theorie der Konsonanz : فى : دراسات فلسفية Philos. Stud. حـ ١٦ (١٩٠٠) ، وعلاقات الفونتيك التجريبى بعلم النفس Beziehungen der Experimentellen Phonetik zur Psychologie ڤيرتسبورج (١٩٠٦) وحركات الغناء والكلام والسمع Mitbewegungen beim Singen, Sprechen und Hören ليبتسك (١٩١٠) .

وفى فكرته فى علم النفس التطورى والحضارى راجع : العوامل السحرية فى أول تطور للعمل الإنسانى Magical Factors in the First Development of Human Labor فى مجلة علم النفس الأمريكية (١٩١٣) حـ ٢٤ ؛ وفى علم النفس التطورى Ueber Entwicklungspsychol. (١٩١٥)، والأسلوب والحضارة Stil und Kultur منشورات جمعية الكشافة الألمانية Flugblatter d. Bundes dtsch. Ringpfadfinder (١٩٢٢) ، والاختلاط : نظرة نفسية أخلاقية Der Verker: Eine psychologisch - moralische Betrachtung همبورج (١٩٢٢) — أما بقية بحوث كريجر ومقالاته فتجد قائمة لها حتى ١٩٢٩ فى سجل مرتشيزون حـ ٢ ص ص ٤٤٣ — ٤٤٤ . توفى كريجر فى فبراير سنة ١٩٤٨ .

(٤) اشبرانجر (إدوارد)

: Ed. Spranger ولد سنة ١٨٨٢ ، وعُرِف فى برلين بأنه مُمثل نزعة علوم الظاهرات العقليـــة فى علم النفس Geisteswissenschaftlische Psychol. التى قَويَت فى ألمانيا فى ذلك الحين ، والتى قوّاها هُسّرل Husserl خصوصاً ، وأخذ بها كرِيجَر أيضاً بوَصفها مُتمّماً للعلم الطبيعى ؛ إذ كانت تَمُتّ إلى سيكولوچيا الفِعل أكثر من أى مذهب سَيكولوچى سَبَقها

واشبرانجر قد تقدم فى هذا الصدد بنظرية طريفة فى النماذج الشخصية لاقت كثيراً من المُعجَبين والأتباع . ويمكن القول بأنه قد استعان فى عمله بمنهج حَدسى عيانى intuitive method ؛ إذ كانت خُطط المعمل واختبارات الذكاء أبعَد ما تكون عن عمله ، وأهم كتبه : صور الحياة : سيكولوچيا علم العقل وأخلاقيات الشخصية Lebensformen : Geisteswissenschaftlische Psychol. und Ethik der Persönlichkeit (١٩١٤) ظهرت طبعته الثانية سنة ١٩٢١ ؛ وتُرجم إلى الإنجليزية سنة ١٩٢٨ باسم أنماط الأشخاص Types of Men .

(٥) ييِنش (إيرش رودلف)

: Erich Rodulf Jaensch ولد فى برسلاو فى فبراير ١٨٨٣ ، ولحق بجامعات تبينجن وڤيينا وبرسلاو وجتنجن منذ سنة ١٩٠٢ حتى حصل على الدكتوراه فى الفلسفة ١٩٠٨ ، ثم اشتغل معيداً بجامعة اشتراسبورج (١٩١٠ — ١٩١٢) فجامعة هَلّى (١٩١٢ — ١٩١٣) حيث ناب عن أستاذه كريجَر مدة وجوده فى أمريكا. ومنذ ١٩١٣ عين فى جامعة ماربورج أستاذاً للفلسفة ومديراً لمعهد علم النفس وهناك نشأت فكرة التصور الخيالى. والنماذج الخيالية eidetic types والصورة الارتسامية eidetic image هى صورة شبيهة بالهلوسة hallucination فى كل

شيء — وإن كان صاحبها يرى فيها صورة . وهي شائعة في الطفولة ؛ وإن كان تكرارُ حدوثها للأطفال لا يمكن تسجيله عددياً لكثرة درجات وضوحها وصحتها ، ولتوقف إحصاءاتها على المعيار الذي نختاره . ومن الممكن أن تستمر هذه الصور في المراهقة ، ولكنها غالباً ما تختفي . وهذه الصور الخيالية يقسمها ييتش إلى نوعين . وقد تعمّق مدلولَ هذه الفكرة فانتهى إلى أن اختلاف التخيل يفترض اختلافَ أنماط الأفراد ، وأدى به هذا إلى علم نفس مَرَضي ، وإلى إنشاء نمطين فيزيولوجيين للأفراد : نمط ب ونمط ت قائلا إنه يوجد غيرُهما ولكنّ هذين هما الرئيسيان . وقد كان لحماسة ييتش وأصحابه وجرأة أقواله هذه أثرها في علم النفس حينئذ — خصوصاً في مشكلة الفوارق الفردية .

وأهم كتبه : في تركيب عالَم الادراك Ueber den Aufbau der Wahrnehmungswelt (١٩٢٣) ظهرت طَبعته الثانية (١٩٢٧) وكتابه الصغير : الصورة الخيالية ومنهج البحث النوعي Die Eidetik und die typologische Forschungsmethode (١٩٢٥) وطبعته الثانية (١٩٢٧) أيضاً .

وتجد كثيراً من دراسات ييتش في مجلة علم النفس الألمانية Zsch. f. Psychol. من مجلد ٨٥ سنة ١٩٢٠ فما بعدها ، كما تجد ثبتَ كُتبه ومقالاته حتى ١٩٢٩ في مرتشيزون ح ٢ ص ص ٤٣٤ — ٤٣٦ ، وتجد كثيراً من مقالاته وبحوثه ضمن تلخيصات قدمها كليڤر Klüver في الصحيفة النفسية Psychol. Bull. مجلد ٢٥ (١٩٢٨) ص ص ٦٩ — ١٠٤ . (وكليڤر هذا قد عرض للدراسات الألمانية الحديثة في الفروق الفردية عند ييتش وغيره منهم في صحيفة الأمراض العصبية والعقلية J. Nerv. & Ment. Diseases مجلد ٦٢ (١٩٢٥) ص ص ٥٦١ — ٥٩٦ ؛ وله من البحوث الهامة في جتنجن التي نُشرت في : Zsch. f. Psychol. في تحليـــل المُدرَكات البصرية Zur Analyse der Gesichtswahrnehmungen السنة الرابعة (١٩٠٩) ؛ وفي إدراك المكان Ueber die Wahrnehmnng des Raumes السنة السادسة (١٩١١).

(٦) كاتس (داڤيد) : D. Katz : ولد في كاسل في أكتوبر ١٨٨٤ وحصل على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة جتنجن (١٩٠٦) وعُيّن بها (منذ ١٩٠٧ حتى ١٩١٩) مساعداً بمعهد علم النفس ، ثم طُلِب في جامعة رستوك أستاذاً لعلم النفس والتربية . وأهم ما نَشره في جتنجن بحث له عن : كيفيات ظهور الألوان Die Erscheinungsweisen der Farben (١٩٠٩) الذي ميّز فيه بين

خصائص ألوان الحجم وألوان السطح وألوان التصوير الشمسى التى هى أنواع أولية تخرج منها الألوان الأخرى ؛ فكانت دراسة تجريبية لها قيمتها — سبق بها ڤرتيمر ومدرسة الجشطلت .

وبحوثه ومقالاته الهامة الكثيرة أوردها مرتشيزون فى سجله الثانى (١٩٢٩) ص ص ٤٣٧ — ٤٣٨ . ونشر عام ١٩٤٨ الأطلس السيكولوجى Psychological Atlas.

(٨) اشتيرن (لويس ڤلهلم) Louis W. Stern : ولد فى برلين فى ابريل ١٨٧١ ، وحصل على الدكتوراه فى الفلسفة من جامعتها (١٨٩٢) ؛ فعين معيداً بجامعة برسلاو (١٨٩٨ — ١٩٠٨) فأستاذاً مساعداً (١٩٠٨ — ١٩١٦) فأستاذاً للفلسفة وعلم النفس ومديراً للدراسات الفلسفية ومعامل علم النفس بجامعة هامبورج بعد سنة ١٩١٦ . وهناك فى هامبورج نهض بعلم نفس للشخصية personalistic psychol. هيأه له اتجاهه منذ البدء لعلم النفس التربوى والفارقى (سيكولوچيا الفوارق الفردية) . ومذهبه هذا فى التشخصية النقدية critical personalism يأخذ الفرد كصيغة أولى ، ويتفق فى منهجه مع أشد أنواع علم النفس تجريبية — وإن كان المؤرخون يرون أن ما قام به من التجريب أقل من كريجر وڤيينش .

ومن أهم ما كتب : فى علم نفس الفروق الفردية Ueber Psychol. der Individuellendifferenzen ليپتسك (١٩٠٠) ؛ ومقالاته وكتبه الكثيرة فى : سيكولوچية النطق (الكلام) Psychol. der Aussage — وخصوصاً فى الأطفال . على أن أهم كتبه جميعاً : الشخص والشئ Person und Sache ظهر جزؤه الأول (١٩٠٦) وطبعته الثانية (١٩٢٣) ؛ وجزؤه الثانى (١٩١٨) وطبعته الثالثة (١٩٢٣) ؛ وجزؤه الثالث (١٩٢٤) .

راجع تأريخه لنفسه وفلسفته فى شميت R. Schmidt : فلسفة الحاضر فى تأريخات شخصية Die Philos. der Gegenwart in Selbstdarstellungen ج ٦ (١٩٢٧) ص ص ١٦١ — ١٨٢ ؛ وفى مرتشيزون : تاريخ علم النفس بالتأريخ Hist. of Psychol. in Autobi. ج ١ ص ص ٣٣٥ — ٣٨٨ ؛ كما تجد ثبت كتبه ومقالاته الكامل حتى ١٩٢٩ فى سجل مرتشيزون Psychol. Regis. ح ٢ ص ص ٤٧٠ — ٤٧٣ .

(٨) كلاپارد (إدوار) : Edouard Claparède : ولد فى چنيڤ فى مارس ١٨٧٣ ، ولحق بجامعة چنيڤ فحصل على درجته فى العلوم (١٨٩٢) وعلى الدكتوراه فى الطب (١٨٩٧) . وبعدئذ رحل إلى پاريس ومدرسة سالپتريير (التى أوردنا ذكرها فى الفصل الخامس وتعليقاته)

فيما بين سنتى ١٨٩٨ – ١٨٩٩ ، ثم عاد إلى جنيف حيث صار أستاذاً فى كلية العلوم منذ ١٩٠٩ . وفى سنة ١٩١٢ أنشأ معهد چان چاك روسو ، كما تولى تحرير : محفوظات علم النفس Arch. de Psychol. منذ ١٩٠١ ، وحصل على الدكتوراه الفخرية فى الفلسفة من كلية وتنبرج Wittenberg College كما اشترك فى كثير من الجمعيات والصحف الأمريكية والفرنسية والإيطالية والسويسرية والألمانية وَتولى رياسةَ بعضها .

وكتب كلاپارد كثيراً من البحوث والمقالات فى علم النفس ، ومن الموضوعات التى تناولها : السمع اللونى l'Audition Colorée ، هل الحيوانات واعية ، وتجارب فى سرعة رَفع الأثقال ، وملكة التوجيه البعيد Faculté d'Orientation Lointaine ونظرية بيولوجية فى النوم ، وهل علم النفس علم توضيحى ؟ ، وفى علم النفس القضائى ، وتعريف الهستريا ، وفى التربية وعلم نفس الطفل ، وفى الذاكرة ، ووظيفة النوم والأحلام ، وفى سيكولوچيا الذكاء والاختبارات العقلية ، وفى الشخصية والإرادة ، وفى سيكولوچيا فرويد وتربية ديوى . وأهم كتبه : تداعى الأفكار L'Association des Idées باريس (١٩٠٣) ؛ وسيكولوچيا الطفل والتربية التجريبية Psychol. de l'Enfant et Pédag. Expér. جنيف (١٩٠٥) وطبعته الثالثة (١٩٠٩) والرابعة (١٩١١) عند كيندج Kündig ترجم إلى الإنجليزية والألمانية والروسية (١٩١١) والإيطالية (١٩١٢) والإسبانية (١٩١٠) ؛ وكتابه : التوجيه المهنى: مشكلاته ومناهجه l'Orientation Professionnelle: Ses Problèmes et ses Méthodes جنيف (١٩٢٢) الذى تُرجم إلى الإنجليزية ؛ وكيفية تشخيص قدرات التلاميذ Comment Diagnostiquer les Aptitudes des Ecoliers باريس (١٩٢٣) . وله أخيراً : المشاعر والانفعالات Feelings and Emotions فى الموسوعة المسماة بهذا الاسم التى أصدرتها مطبعةُ جامعة كلارك (١٩٢٧) ص ص ١٢٤–١٣٩

والثبت الكامل لبحوث كلاپارد ومقالاته حتى ١٩٢٩ فى سجل مرتشيزون الثانى ص ص ٥٤٣ – ٥٤٥ .

(٩) بنوسى (فكتور) : Vittorio Benussi : ولد فى تريسته فى يناير ١٨٧٨ ودرس بجامعة جراتس ، ثم اشتغل بها حتى صار أستاذاً مساعداً لعلم النفس التجريبى منذ ١٩٠٨ وظل بها حتى الحرب العظمى ؛ فكانت أخصب فترة فى حياته ، تمتاز بكثرة دراساته فيها دراساتٍ كلها تجريبية . وفى سنة ١٩١٩ انتقل أستاذاً مساعداً فى الجامعة الملكية Regia Università بپادوا حيث صار بعد سنة ١٩٢٢

أستاذاً لعلم النفس التجريبي ومديراً لمعمل علم النفس .

وقد عمِل خصوصاً فى : إدراكات الزمن ، والثقل ، والصلابة ، وفى خداع البصر illusioni ottico geometriche ، والحركة البصرية والحركة اللمسيّة Tacktierweckter Scheinbewegungen إلخ ، وقد تبع إيرنفلس — كما قدمنا — فى العمل على نظرية خاصة الصورة - Gestalt qualitat التى مَهدت لسيكولوجيا الجشطلت عموماً ، وله فى ذلك : حركات البصر الأستروبسكوبية وخداعات الصورة البصرية الهندسية Stroboskopische Scheinbewegungen und geometrischoptische Gestalt-täuschungen فى سجلات علم النفس العام Arch.f.d. Ges. Psychol. (١٩١٢) ج ٢٤ ص ص ٣٠ — ٦٢ ؛ وإدراكات الصورة Die Gestaltwahrnehmungen مجلة علم النفس الألمانية (١٩١٤) ج ٦٩ ؛ وأهم كتب بنوسى فى هذا الصدد : سيكولوجيا الإدراك الزمنى Psychol. der Zeitauffassung هيـــدلبرج (١٩١٣) ؛ وفى علم النفس الأجنبى Aus der Forensichen Psychol. ڤينا (١٩١٨) .

وأخيراً فهو قد اتجه إلى الكتابة فى التنويم والإيحاء ، وأهم ما كتب فيهما : الإيحاء والتنويم كوسيلة للتحليل النفسى الحقيقى La Suggestione e l'ipnosi come mezzo di analysi psychia reale التى نشرت فى الا Zanichelli ببولونيا (١٩٢٥) وفى المجلة النفسية Riv. Psicol. (١٩٢٥) مجلد ٢١ ص ص ٢ — ٢٢ ؛ وفى نشرة مؤتمر علم النفسى القَومى Atti. del Cong. naz. di Psicol. فى ڤيرنتسَه (١٩٢٦) ص ص ٣٦ — ٦٥ . وكتَب فى هذا الموضوع بالألمانية (فى : بحوث سيكولوجية Psychol. Forsch. ١٩٢٧ ج ٩ ص ص ١٩٧ — ٢٧٦) بعنوان : تحليل الأساس التجريبي لمناهج الإيحاء التنويمى النفسية Zur experimentellen Grundlegung hipnosuggestiver Methoden psychischer Analyse .

وله كتابات أخرى بغير الألمانية والإيطالية — بالفرنسية . وقد عُنِىَ كفكَه وهِلسون بتَصنيف مقالات بنوسى وجَمعِها ؛ وأشمَلها ما جاء بسجل مرتشيزون حـ ٢ ص ٤٩٤ ؛ فانظره .

(١٠) دى سانكتس Sante de Sanctis : ولد فى پارانو Parrano ولَحق بجامعة روما المَلكية فحصل على درجته فى الطب والجراحة ، ثم عين بعيادة الطب العقلى حيث حصل على إجازة التدريس Abilitatione alla pivata Docenza كما حصل على إجازة التدريس فى علم النفس أيضاً من كلية الفلسفة ؛ ثم صار بعد ذلك مساعدا لتدريس علم النفس الفزيولوچى بكلية الطب . ثم أستاذاً

مساعداً لعلم النفس التجريبى فأستاذاً لهذا العلم ولتدريس الطب العقلى العصبى Neuropsiciatria ؛ كما كان مستشاراً لكثير من جمعيات الأمراض العصبية ، ومحرراً لمجلات علم التفس الإنجليزية .

ولدى سانكتس بحوث ومؤلفات كثيرة فى الطب وعلم النفس بالألمانية والإيطالية ؛ منها : بحوث فى تركيب وتكوين الفاصل المخيخى للمخ الإنسانى Untersuchungen über den Bau und die Markscheidenbildung des menschlichen Kleinhirns فى شهرية الطب العقلى والعصاب Monatschr. f. Psychiat. u. Neur. (١٨٩٨) ؛ وفى مؤتمر الجمعية الإيطالية لعلم النفس Convegno della Soc. Ital. di Psicol. بروما (١٩١٣) تجد له : الظاهرات النفسية والجهاز العصبى Fenomeni psichici e sistema nervoso . كما أن له فى دراسة الانتباه كتباً ومقالات كثيرة منها : الدراسة التجريبية للانتباه La Studio Sperimentale dell'attenzione روما (١٨٩٥) ؛ والانتباه وعوائقه L'attenzione e i soui disturbi — وهى دراسة له فى الپاثولوجية النفسية بروما (١٨٩٦) ؛ وبحث سيكوفيزيولوجى فى انتباه الأسوياء والسيكوپاتيين Ricerche psicofisiologiche sull'Attenzione dei normali e dei Psicopatici روما (١٨٩٧) ؛ وله فوق هذا محاضرتان فى : الأسس العلمية للسيكوپاثولوچيا I Fondamenti Scientifici della Psicopatologia الأولى (١٩٠٠) فى الأساس البيولوجى لهذه الظاهرة ، والثانية فى الأساس التشريحى الفيزيولوچى لها .

وكتب دى سانكتس أيضاً فى : الأحلام Die Träume (١٩٠١) ومشكلة الشعور (١٩٠٤) ، وسمات التفكير La Mimica del Pensiero (١٩٠٦) — ترجم إلى الألمانية Die Memik des Denkens ؛ كما كتب فى التربية Educazione وقيمة الذكاء Intelligenza فى السيكولوچيا العملية والتطبيقية ، وفى : تصنيف السيكوپاتية Sulla Classificazione delle Psicopati (١٩٠١) ؛ وفى : نقص القدرة العقلية (الخبال) demenza ؛ وفى الطفولة Infantilismo ؛ وفى الهستريا L'isterismo ... وفى موضوعات أخرى كثيرة تتناول نواحى متشعبة عديدة من الدراسات الطبية والنفسية القيمة .

راجع تأريخ دى سانكتس لحياته وعمله فى : مرتشيزون : تاريخ علم النفس بالتأريخ Hist. of Psychol. in Autob. ج ٣ ص ص ٨٣ — ١٢٠ ؛ وتصنيف كتبه ومقالاته فى : مرتشيزون : سجل علم النفس Psychol. Reg. ج ٢ ص ص ٤٩٥ — ٤٩٨ .

(١١) كيسو (فريدرش) F. Kiesow : ولد بألمانيا فى مارس ١٨٥٨ ؛ ولحق بجامعة ليپتسك حيث حصل على الدكتوراه فى الفلسفة بعد خمس سنوات قضاها فيها ؛ وصار — منذ ١٨٩٥ — أستاذاً ومديراً لمعمل علم النفس التجريبى فى الجامعة المَلَكية بتورينو Regia Università di Torino . وكان كيسو مساعد تحرير مجلة علم النفس العام الإنجليزية ومحرر سجل علم النفس الإيطالى Archivio Italiano di Psicologia كما ساعد فى تحرير سجل علم النفس العام الألمانى Archiv für die Ges. Psychol. ومجلة علم النفس الإيطالية Rivista di Psicologia ؛ واشترك فى جمعية علم النفس التجريبى الألمانية وجمعية علم النفس الإيطالية والجمعية الألمانية للفلسفة .

ومن أهم ما كتب : أقوال فى سيكولوچيا حاسة الذوق الفيزيولوچية Beiträge zur physiologischen Psychol. des Geschmackssinnes فى : دراسات فلسَفية Philos. Stud. (١٨٩٤ ، ١٨٩٦) ؛ وبحوثه فى قياس ضغط الدم بمقياس موسو Versuche mit Mossos Sphygmomanometer ؛ وبحوثه فى الإدراك الحسى للحرارة Untersuch. über Temperaturempfindungen — وكلاهما فى : دراسات فلسفية حـ ١١ (١٨٩٥) ؛ كما أنه قال فى المجلد ١٤ من هذه الصحيفة بجهاز أبسط لتحديد الادراك الحسى لنقط الحرارة Ein einfacher Apparat zur Bestimmung des Empfindlich von Temperaturpunkten كتَبَ عنه بالفرنسية والإيطالية فى نفس السنة ، كما عاد لِيتناول هذه الدراسة فى المجلات الإيطالية والألمانية سنة ١٩٠١ . وكتَبَ كذلك عن جهاز آخر لتحديد أبسط زمن رَجع لحاسة اللمس Apparat für die Bestim. der einfachen Reaktionzeit der Tastempfind.

كذلك كتَبَ عن ڤونت ، وترجَم لموسو ، وكتَبَ فى : هاتف سقراط ودفاعه Daimonion di Socrate Apologia ؛ وتناول كثيراً من الموضوعات فى علم النفس كالخداع البصرى الهندسى illusione ottico-geometrica وفى علم الطبيعة وعلم النفس التجريبى Scienza della Natura e Psicol. Empirica وموضوعات أخرى كثيرة تجد تصنيفها الكامل حتى ١٩٢٩ بسجل مرتشيزون حـ ١ ص ص ٥٠٣—٥٠٦ ؛ كما تجد تأريخ حياة كيسو لنفسه وعمله بتاريخ مرتشيزون حـ ١ (١٩٢٨) ص ص ١٦٣ — ١٩٠ .

(١٢) پولان (فريدرك) F. Paulhan : فيلسوف فرنسى ولد سنة ١٨٥٦ فى نيم Nimes وكان عضواً فى جمعية علم النفس الفرنسية وفى

أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية . وله طائفة من الكتب الفلسفية نشرتها له دار النشر ألكان F. Alcan بباريس من أهمها : الظواهر الوجدانية وقوانين ظهورها Les Phenomènes affectifs et les Lois de leur Apparition ؛ والصوفية الجديدة le Nouveau Mysticisme ؛ والنشاط العقلي وعناصر الفكر L'Activité Mentale et les Elements de l'Esprit ؛ وسيكولوجية الابتكار Psychol. de L'Invention ؛ والنماذج العقلية Les Types Intellectuels ؛ ومنطق التناقض La Logique de la Contradiction ؛ ووظيفة الذاكرة والتذكر الوجداني La Fonction de La Memoire et le Souvenir Affectif ؛ والإرادة La Volonté . . . إلخ فضلا عن كثير من المقالات .

(١٣) پييرون (هنرى) H. Piéron : ولد فى باريس فى يوليو ١٨٨١ ، وحصل على الليسانس فى الفلسفة من جامعة پاريس (١٨٩٩) وعلى إجازة التدريس agrégation (١٩٠٣) ؛ وفى السنة التالية حصل على ليسانس العلوم Lic. ès Sci. ثم على الدكتوراه (١٩١٢) .

اشتغل محضراً préparateur فى مدرسة الدراسات العليا العملية فى السوربون (١٩٠١–١٩٠٧) فمحاضراً حتى ١٩١٢ حيث صار مديراً لمعمل علم النفس الفيزيولوجى فى السوربون ؛ كما اشتغل – منذ ١٩٢١ – أستاذاً لعلم النفس الفيزيولوجى فى جامعة باريس ومعهدها السيكولوجى ، ومنذ ١٩٢٣ أستاذاً لفيزيولوجيا الحواس فى الكوليج دى فرانس . واشترك فى كثير من الجمعيات العلمية والطبية والبيولوجية والنفسية ، كما ساعد فى تحرير كثير من مجلاتها فى انجلترا وفرنسا وإيطاليا .

ومن أهم بحوث پييرون مقاله فى المؤتمر الدولى لعلم النفس بپاريس (١٩٠١) عن : تفسير وقائع السرعة غير العادية فى عملية ابتكار الصور L'Intérprêtation des Faits de Rapidité Anormale dans le Processus d'Evocation des Images ؛ وبحوثه مع ڤاشيد N. Vaschide فى كثير من المجلات العلمية عن : الحلم Le Rève ، فن تشخيصه وأعراضه Sa Séméiologie وقيمته التنبؤية Sa Valeur Prophétique عند البدائيين وخصوصاً اليونان والرومان والشرق القديم وفى الإنجيل وفى علم النفس والطب الحديثين وعند فلاسفة العرب ... إلخ (١٩٠١ – ١٩٠٢) ؛ كما تناول ظاهرة التخاطر phénomènes de télépathie وتداعى المعانى Associations d'Idées ؛ وعرض مع ڤاشيد وتولوز E. Toulouse لتصنيف الظواهر النفسية للبحث التجريبى (مجلة الطب العقلى ١٩٠٣) ولمصطلح علم النفس التجريبى

Technique de Psychol. Exper. فى مجلدين : الأول (١٩٠٤) والثانى (١٩١١) .

ثم اتجه بعد هذا إلى علم النفس الحيوانى ، فكتب فى مجلة الفلسفة Rév. Philos. (١٩٠٤) حـ ٢٧ عن مناهج علم النفس الحيوانى Méthodes de la Psychol. Zoologique فدرس النحل ، والذباب وتنويمه بالكلوروفورم ، ولغة الببغاء ... إلخ ؛ وأدى به هذا إلى تناول موضوعات التربية والذكاء والذاكرة والادراك وغيرها . . . . موضوعات ومقالات لا يحصيها العدّ فى مختلف المجلات العلمية الفرنسية والإيطالية والإنجليزية والألمانية ؛ مما أورده مرتشيزون فى سجله الثانى فى عشر صفحات كاملة من ٣٩٠ إلى ٤٠٠ .

على أن أهم كتبه : تطور الذاكرة L'Evolution de la Mémoire باريس (١٩١٠) ؛ ومشكلة النوم الفيزيولوجيـــة Le Problème Physiologique du Sommeil باريس (١٩١٢) ؛ والمخ والتفكير Le Cerveau et la Pensée باريس (١٩٢٣) نشرته دار النشر ألكان ، وترجم إلى الإنجليزية (١٩٢٧) باسم : Thought and Brain ترجمه أوجدن C. K. Ogden ونشرته دار النشر هاركورت وبريس وشركاهما بنيويورك ؛ وكتابه : علم النفس التجريبى Psychologie Expérimentale نشرته دار النشر كولان Colin بباريس (١٩٢٧) ، ونشر سنة ١٩٤٥ كتاب : الإحساس مرشد الحياة : La Sensation : Guide de Vie. وقد تولى الإشراف على إصدار السنة السيكولوجية منذ ١٩١٤ .

(١٤) دِيمـا (چورچ)

G. Dumas : ولد فى لِدِنيان Lédignian فى ٦ مارس ١٨٦٦ ولحق بمدرسة لوى الكبير Louis Le Grand (١٨٨٤ — ١٨٨٦) فمدرسة المعلمين العليا (١٨٨٦ — ١٨٨٩) حيث حصل على الليسانس فى الآداب (١٨٨٧) وإجازة تدريس الفلسفة Agrég. d. Phil. (١٨٨٩) ثم لحق بعدئذ بكلية الطب بجامعة باريس فحصل على الدكتوراه فى الطب (١٨٩٦) ، وأخيراً نال الدكتوراه فى الآداب (١٩٠٠) .

واشتغل ديما منذ ١٩٠٢ أستاذاً لعلم النفس التجريبى بكلية الآداب بجامعة باريس ، ثم صار (منذ ١٩٢١) أستاذاً لعلم النفس الباثولوجى فى المعهد السيكولوچى ، كما أنه (منذ ١٨٩٦) قد كان مديراً للمعمل النفسى بعيادة الأمراض العقلية Laborat. de Psychol. de la clinique des Maladies Mentales بكلية الطب ، واشترك فى كثير من الجمعيات الطبية والسيكولوچية وجميعات الطب العقلى والآداب والعلوم فى فرنسا ولشبونه وبيونس أيرس وريودى چانيرو وغيرها .

وأهم كتُب ديما — عدا مقالات كثيرة كتبها فى المجلة الفلسفية Rév. Philos. وغيرها ؛ ذكرها مرتشيزون فى سجله الثانى ص ص ٣٧٢ — ٣٧٣ — أهم كتبه هى : الحالات العقلية فى المزاج السوداوى Les Etats intellectuels dans la Mélancolie ألكان بباريس (١٨٩٤) ؛ وترجمته لكتاب لانجى Lange الدانيمركى فى الانفعالات Les Emotions عن الترجمة الألمانية للدكتور كوريلا Dr. Kurella ألكان بباريس (١٨٩٥) ؛ والحزن والفـــرح La Tristesse et la Joie ، باريس ألكان (١٩٠٠) ؛ ونظرية الانفعال La Théorie de L'Emotion التى ترجمها عن مقتطفات وليم چيمس ، ونشرها نفسُ الناشر-بباريس(١٩٠٣) ؛ والابتسام وتعبير الانفعالات Le Sourire et L'Expression des Emotions ألكان بباريس (١٩٠٦) .

وقد اشتغل أثناء الحرب العظمى الماضية ، بالأمراض العصبية والنفسية ، وله فيها مع إيميه H. Aimé : أمراض الحرب العُصَابية والذُّهانية عند الألمان النمسويين Névroses et Psychoses de Guerre chez les Austro - allemands باريس، ألكان (١٩١٨)؛ وكتابُه : الاضطرابات العقليـــة والاضطرابات العصبية أثناء الحرب Troubles Mentaux et Troubles Nerve ux de Guerre باريس ، ألكان (١٩١٩) . وله مع أربعة وعشرين مؤلفاً آخرين كتابٌ ضخم من مجلدين كبيرين باسم Traité de Psychologie باريس ، ألكان(١٩٢٣ — ١٩٢٤) . وله حديثاً الموسوعة الجديدة فى علم النفس فى عشرة مجلدات ظهر منها ثمانية. كما أنه نشَر سنة ١٩٤٦ أى قبل وفاته بقليل كتابَ : عالَم الارواح والآلهة فى ضوء الأمراض العقليـــة Le Surnaturel et les Dieux d'après les Maladies mentales. (Essai de Théogénie pathologique).

(١٥) كورنيلوف K. H.

Korniloff : ولد فى سيبريا (١٨٧٩) واشتغل بجامعة موسكو (١٩١٠ — ١٩١٥) مساعداً ، فعيداً حتى ١٩٢١ فأستاذاً . وفى سنة ١٩٢٤ صار مديراً لمعمل علم النفس التجريبى ، وكان نائبَ رئيس جمعية الأمراض النفسية والعصبية الروسية ، ورئيس تحرير مجلة علم النفس .

ومن أهم ما كتب : فى مسألة طبيعة نوع الرجع البسيط Zur Frage von der Natur der Typen der einfacher Reaktion فى : بحوث سيكولوچية Psychol. Forsch. جـ ١ (١٩١٤) ص ص ١ — ٥٤ ؛ ومقاله : المنهج الديناموميترى لبحث الرجّع Dynamometrische Methode der Untersuchungen der Reaktionen فى : بحوث سيكولوچية جـ ١ (١٩١٤)

ص ص ٢٦٩ – ٢٧٣ . وقد كتب في نفس هذا الموضوع في سجل علم النفس العام Arch. f. d. Ges. Psychol. حـ ٤٢ ص ص ٥٩ – ٧٨ .

وأهم كتب كورنيلوف : سيكولوجيا الطفل Psychol. des Kindes موسكو (١٩١٥) ؛ ظهرت طبعته الثالثة (١٩٢٧) ؛ وكتابه : نظرية الرَّجع في الإنسان Die Lehre von der Reaktionen des Menschen موسكو (١٩٢١) وطبعته الثالثة (١٩٢٧) أيضاً ؛ وكتابه : أبسط بحث سيكولوجي Die Einfachsten Psychologische Versuche موسكو (١٩٢١) والطبعة الثالثة (١٩٢٧) .

وأخيراً فهو يتجه الاتجاه القومي في كتاباته النفسية ؛ فتراه يكتب في : علم النفس الحالي والماركسية Gegenwärtige Psychol.und Marxismus موسكو (١٩٢٤) والطبعة الثانية (١٩٢٥) ؛ والموقف الحاضر لعلم النفس في روسيا السوفيتية Gegenwärtige Zustand der Psychol. in U. d. S.S.R. يعني تحت النظام الماركسي (١٩٢٧) ؛ وكتابه الهام : مَتْن في علم النفس من وجهة نظر المادية التاريخية Lehrbuch der Psychol. von der Gesichtpunkte des Dialektisches Materialismus موسكو ؛ الطبعة الثانية (١٩٢٧) ؛ وغير هذه من الكتب مما يدرس كورنيلوف على ضوء المادية التاريخية والماركسية من موضوعات علم النفس .

دليل المراجع

(١) قراءات مقترحة

ودون الرغبة فى إيراد ثَبت كتُب كامل ؛ فالقائمة التالية من المراجع التى يَسهل الحصولُ عليها يمكن أن تُفيد فى تقديم دعائم المدارس المختلفة النشيطين . والأسئلة المُلحقة ببعض هذه المراجع تقترح الموضوعات التى تعالجها فى فقرات بارزة .

١ — قراءات عامة

— مرتشيزون C. Murchison (ناشر : سيكولوجيات ١٩٣٠ Psychologies of 1930 مطبعة جامعة كلارك (١٩٣٠) : وتحتوى هذه المجموعة على مقالات لممثلى كل واحدة من المدارس ولعلماء النفس الآخرين فى العصر الحاضر .

— ميرفى G. Murphy : مقدمة تاريخية لعلم النفس الحديث An Historical Introduction to Modern Psychology هاركورت وبريس وشركاهما (١٩٢٩) : وفيه تصوير لكافة المدارس ولأساسها التاريخى .

— بورنج E. G. Boring : تاريخ علم النفس التجريبى A History of Experimental Psychology نشرته شركة القرن The Century Co. (١٩٢٩) : وهذا الكتاب وافٍ تماماً فى علم النفس الوجودى وما قبله ، ويحوى معلومات قليلة موجزة عن السلوكية ومدرسة الجشطلت .

— مرتشيزون C. Murchison (ناشر) : تاريخ علم النفس بالتأريخ A History of Psychol. in Autobiography مطبعة جامعة كلارك (١٩٣٠) مجلد ١ : وهذه التأريخات ممتعة من كِلَا الجانب الشخصى وبسبب العَرض الموجز الصريح لوجهات نظر أصحابها . ويحوى هذا المجلد تاريخَ حياة علماء نفس عديدين ممَّن وَرَد ذكرهم فى النّص : چانيه ، ومكدوجل ، واشتَمف ، وكلاپارد ، وكيسو ، واسپيرمن ، واشتيرن وآخرين غيرهم كثيرين ممن لم نذكرُهم ولكنهم بارزون فى عصرنا هذا .

(وقد تبع هذا المجلد مجلدان آخران سنتى ١٩٣٢ ، ١٩٣٦ وإن لم يُشر المؤلف إليهما حتى فى أحدث طبعات كتابه ، بحيث تشمل تأريخ نَيِّف وأربعين من علماء النفس بأقلامهم هُم تأريخاً مُمتعاً طَريفاً هو عمدة كل باحث فى هذا السبيل . ومن أهم ما ورد فى مُجلده الثانى من التأريخات : دنلاب K. Dunlap وفرانتس S. I. Franz وكارل جروز K. Groos بجامعة تبنجن إذ ذاك ، وهيفدنج ، وچَض Ch. H. Judd ومورجَن ، وبلزبُرى ، وواشبرن ، ومؤلفنا نفسه (ودورث ص ص ٣٥٩ — ٣٨٠) ، ويركس . وفى المجلد الثالث (١٩٣٦) أنجل ، وبارتلت ، وبنتلى ، وكار (هارڤى) ودى سانكتس ، ومارب ، ومايرز ، واسكرپتشر ، وثورندايك ، ووطسن ... المترجم)

— تتشنر E.B. Titchener : علم النفس المَذهبى : مقدمة Systematic Psychol.:Prolegomena شركة مكملان (١٩٢٩) ، وفيه جدَل نَقدى لأفكار علم النفس الأخرى ينتهى إلى صَوغ وتكوين للموقف الوجودى .

— ويلد H. P. Weld : علم النفس كعلم Psychology as Science هنرى هولت وشركاه (١٩٢٨) وفيه علم النفس الوجودى فى علاقاته بعلم النفس الحيوانى والاجتماعى والمرضى . إلخ .

— وطسون J.B. Watson : السلوك : مقدمة لعلم النفس المقارن Behavior: An Introduction to Comparative Psychol. هنرى وهولت وشركاهما (١٩١٤) والفصل الأول منه هو المَنطوق الرئيسى لموقف السلوكيين .

— وطسون J. B. Watson : علم النفس من وجهة نظر السلوكى Psychol. from the Standpoint of a Behaviorist لِپنكوت وشركاه ، الطبعة الثالثة (١٩٢٩) ، وفيه أكمل وأوفى تقرير للمؤلف عن سيكولوچياه .

— وطسون J.B. Watson : السلوكية Behaviorism نورتن وشركاه (١٩٣٠) وهو تبسيط شعبى .

— هَنتر W. S. Hunter : السلوك الإنسانى Human Behavior مطبعة جامعة شيكاغو (١٩٢٨) وتحوى الصفحات من ١ — ١٦ تقرير وجهة نظر المؤلف بوجه عام .

— كيلر W. Köhler : سيكولوچيا الجشطلت Gestalt Psychology بونى وليفريت (١٩٢٩) .

— هيلى H. Healy وبرونر A. F. Bronner وباورز A. M. Bowers : مَبنَى التحليل النفسى ومعناه The Structure and Meaning of Psychoanalysis نشرَه نوف A. A. Knopf (١٩٣٠) ويجمع هذا الكتاب من الناحية المذهبية آراء فرويد وتلاميذه فيما يتصل بأفكار التحليل النفسى المختلفة .

(المترجم : قبل أن نستطرد مع المؤلف فى ذكر مراجع أخرى يشفع هو كلا منها بسؤال يبين أهميته ؛ نورد طائفة من الكتب الحديثة لعلماء النفس البارزين التى ظهرت بعد ١٩٣٠ والتى لم يشر إليها المؤلف من أجل هذا . وطبيعى أننا لا نستوعب كل ما ظهر من الكتب فى مختلف اللغات ؛ بل نذكر أهم ما وصل إلى أيدينا أو علمنا منها فى الإنجليزية والفرنسية — والقليل الذى ظهر بالألمانية بعد ١٩٣٠ — ونصنف هذه الكتب باعتبار مؤلفيها حيناً ؛ إن كانت تكون سلسلة كاملة ، وباعتبار موضوعها حيناً آخر ، إن كانت متفرقة من حيث مؤلفيها ومتفقة فى موضوعها . وإليك إذن طائفة من المراجع التى يسهل تناولها :

(١) سيكولوچية الطفل

من أهم وأمتع ما نشر من الدراسات التجريبية الحديثة فى سيكولوچيا الطفل ، مجموعة العلامة پياچيه Jean Piaget الأستاذ فى كلية العلوم بجنيف ومدير المكتب الدولى للتربية ومعهد چان چاك روسو بمعونة مساعديه الأحد عشر أو مساعداته الأربع ، وبالاشتراك مع غيره أحيانا . وتبلغ هذه المجموعة القيمة أربعة عشر مجلداً أوتزيد ؛ صدرت منذ سنة ١٩٢٦ حتى الآن فى أكثر من طبعة عند ألكان بپاريس ودولاشو Delachaux ونيستلى Niestlé بنيوشاتل وپاريس خصوصاً . وهذه المجموعة هى :

(١) اللغة والفكر عند الطفل Le Langage et la Pensée chez L Enfant دولاشو ونيستلى ، الطبعة الثانية ١٩٣٠ فى ٣٠٠ صفحة ومقدمة لكلاپارد وترجمته الإنجليزية The Language and Thought of the Child نشرها كيجان پول بلندن فى طبعة حديثة .

(٢) الحكم والاستدلال عند الطفل Le Jugement et le Raisonnement chez L'Enfant دولاشو ونيستلى ، الطبعة الثانية ١٩٣٥ فى ٣٥٠ صفحة ،

والترجمة الإنجليزية The Judgement and Reasoning in the Child عند كيجان بول بلندن .

(٣) تصور الطفل للعالم La Représentation du Monde chez l'Enfant طبعته الثانية عند ألكان بباريس ١٩٢٦ وترجمته الإنجليزية The Child's Conception of the World عند كيجان بول بلندن .

(٤) العلية الفيزيقية عند الطفل La Causalité Physique chez L'Enfant نشره ألكان بباريس ١٩٢٧ ، والترجمة الإنجليرية The Child's Conception of Physical World عند نفس الناشر الانجليزى بلندن .

(٥) الحكم الأخلاق عند الطفل Le Jugement Moral chez l'Enfant نشره أكثر من مرة منذ ١٩٣٠ ألكان بباريس ، كما نشر ترجمته الانجليزية The Moral Judgement of the Child كيجان بول أيضاً .

(٦) نشأة الذكاء فى الطفل La Naissance de L'Intelligence chez l'Enfant دولاشو ونيستلى بباريس ونيوشاتل ١٩٣٦ .

(٧) تركيب الحقيقة عند الطفل La Construction du Réal chez l'Enfant نفس الناشر بباريس ١٩٣٧ .

(٨) نشأة العدد عند الطفل La Genèse du Nombre chez l'Enfant بالاشتراك مع زيمنسكا Alina Szeminska عند نفس الناشر بباريس ١٩٤١ .

(٩) نمو الكم عند الطفل Le Developpement des Quantités chez l'Enfant بالاشتراك مع إينهلدر Barbel Inhelder المساعدة بمعهد علوم التربيـــة بجامعة جنيف سابقاً وقد تناولا فيه دراسة الحفظ conservation والتجزىء atomisme ، نشره نفس الناشر الفرنسى فى ديسمبر ١٩٤١ ، فى ٣٤٤ صفحة من القطع الكبير .

(١٠) تكون الرمز عند الطفل La Formation du Symbole chez l'Enfant وفيه يعرض لرمزية التقليد واللعب والحكم والتخيل والتصور . ظهر عند نفس الناشر الفرنسى بباريس .

(١١) الأصناف والعلاقات والأعـــداد Classes, Relations et Nombres نشره ڤران Vrin .

(١٢) سيكولوجية الذكاء La Psychologie de l'Intelligence نشره كولان Colin .

(١٣) نمو فكرة الزمن عند الطفل Le Developpement de la Notion de Temps chez l'Enfant نشرته شركة المطابع الجامعية الفرنسية (١٩٤٦) فى ٢٩٨ صفحة .

(١٤) فكرتا الحركة والسرعة عند الطفل Les Notions de Mouvement et de Vitesse chez l'Enfant عند نفس الناشر ، وفى نفس السنة فى ٢٨١ صفحة .

وكثير من مجموعة بياچيه هذه قد تولت حق نشرها بعد الحرب الثانية المطابع الفرنسية الجامعية Presses Universitaires de France ١٠٨ سان چرمان بباريس ، وتنشرها ضمن مجموعة : مكتبة الفلسفة المعاصرة Bibl. de Philos. Contemp. التى أنشأها فليكس ألكان فى قسم علم النفس والاجتماع الذى يشرف على إصداره الأستاذ پرادين Maurice Pradines .

ومن أهم ما وقفت عليه من منشورات هذه المؤسسة الجامعية فى باريس المراجع الآتية فى مختلف موضوعات علم النفس ؛ بعضها يعاد نشره ، وبعضها الأكبر ينشر لأول مرة :

للأستاذ ريبو Th. Ribot الأستاذ الفخرى بالكوليج دى فرانس وعضو المجمع الفرنسى كتابان : الأول فى : الوراثة السيكولوجية L'Hérédité Psychologique ضمن منشورات مكتبة الفلسفة المعاصرة Biblio. de Philos. Contemp. والآخر فى سيكولوچية العواطف La Psychol. des Sentiments ضمن هذه المجموعة أيضاً .

وللأستاذ برونشفك L. Brunschwicg كتابان ضمن مجموعة الفلسفة المعاصرة هذه هما : العقل والدين La Raison et la Religion وتقدم الشعور فى الفلسفة الغربية Le Progrès de la Conscience dans la Philos. Occidentale كما أن له كتاباً ثالثاً صغيراً ضمن موسوعة الفلسفة الجديدة Nouvelle Encyclo. Philos. هو : أعمار الذكاء Les Ages de l'Intelligence .

وللأستاذ هنرى دولاكروا H. Delacroix الأستاذ بالسوربون وعميد كلية الآداب بجامعة باريس كتاب صغير باسم : صور الحياة العقلية الهامة Les Grandes Formes de la Vie Mentale ضمن موسوعة الفلسفة الجديدة كذلك .

وللأستاذ فلسيان شاليه F. Challaye كتاب فى سيكولوچية الطفل La Psychol. de l'Enfant وجزؤه الأول كما يقول فى الخصائص الوظيفية للطفولة Les Caract.—éristiques fonctionnelles de l'Enfance يظهر ضمن مجموعة Nouv. Traité

. de Psychol.

وكذلك كتابا الأستاذين جيزل A. Gesell وإلج F. L. Ilg الكبيران : الأول فى الطفل من الخامسة إلى العاشرة L'Enfant de 5 à 10 ans والثانى عن الطفل الصغير فى المدنية الحديثة Le Jeune Enfant dans la Civilisation Moderne وكلاهما ضمن المكتبة العلمية الدولية .Bibl. Scient. Interna .

وفى سيكولوچية الغريزة والدوافع ظهر للأستاذ أوجست لِي A. Ley الأستاذ بجامعة بروكسل بالاشتراك مع ڤوتييه M.L. Wauthier كتاب باسم : دراسات فى سيكولوچيا الغريزة والدافع Etudes de Psychol. Instinctive et Affective يبحث فى الخوف والغضب والحب والكره والانتقام والحسد والمشاركة والاستطلاع وغيرها من الدوافع . ظهر ضمن مجموعة : مكتبة الفلسفة المعاصرة .Biblio. de Phil Cont. ؛ وكتاب للأستاذ پول دييل P. Diel باسم سيكولوچية الدوافع Psychol. de la Motivation ضمن هذه المجموعة أيضاً .

وفى هذه الموضوعات متفرقة توجد كتب كثيرة ؛ منها : حقد الحب La Jalousie Amoureuse للأستاذ لاجاش أستاذ علم النفس بالسوربون — فى مجلدين كبيرين يبحث أولهما فى حالات الحقد ومشكلة الشعور بالبغض ، وثانيهما فى بقاء هذه العاطفة حية ؛ وهما ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة أيضاً .

وللأستاذ پيير مندوس P. Mendousse كتابان كذلك فى نفس المجموعة عن نفسية المراهق L'Ame de l'Adolescent ونفسية المراهقة L'Ame de l'Adolescente

وللأستاذ ألفرد اشتيرن A. Stern فى نفس المجموعة أيضاً كتاب فى فلسفة الضحك والبكاء Philos. du Rire et des Pleurs ، ومثله كتاب للأستاذ مارك شاپيرو M. Chapiro باسم : L'Illusion Comique إلى جانب النشرة الجديدة لكتاب برجسون فى الضحك Le Rire — وكلها ضمن نفس المكتبة .

أما كتاب چان پول سارتر الصغير فى التخيل L'Imagination فقد نشر ضمن موسوعة الفلسفة الجديدة .Nouv. Encycl. Philos .

وقد ظهرت فى مكتبة المطابع الجامعية بباريس أيضاً ترجمة فرنسية لكتاب ودورث الكبير : علم النفس التجريبى (١٩٣٨) الذى أشرنا إليه فى المقدمة ص ٤٢) باسم Psychologie Expérimentale فى مجلدين كبيرين — نشرا ضمن مجموعة : المكتبة العلمية الدولية .Bibl. Scienti. Inter .

اما فى دراسة الشخصية فثمة كتاب للأستاذ شارل بودوان Ch. Baudoin المعيد بجامعة جنيف باسم : اكتشاف الإنسان Découverte de la Personne ضمن موسوعة الفلسفة الجديدة Nouvelle Encyclo. Philos. ، وكتاب الأستاذ بلوندل Ch. Blondel باسم : الشخصية Personalité ضمن مجموعة Nouveau Traité de Psychol. ؛ وكذلك كتاب ثالث جرى طبعــه أيضاً بالمطابع الجامعية باسم La Personalité للأستاذ ديشو M. Deschoux .

وفى أمراض الشخصية والطب العقلى بصفة عامة : أظهرت هذه الدار طائفة كبيرة من الكتب منها : عدم التوازن النفسى أو الاختلال النفسى ، أمراضه النفسية والخلقيــة Le Déséquilibre psychique, ses psychoses, sa Morale للدكتور بوريل Dr. J. Borel كبير أطباء المستشفيات العقلية ، والطب العقلى الخلقى والتجريبى الفردى والاجتماعى Psychiatrie Morale, Expérimentale, Individuelle et Sociale للدكتور باروك H. Baruk كبير أطباء دار شارنتون الوطنية ، وكتاب للدكتور چان دلبى J. Delay الأستاذ بكلية الطب بجامعة باريس باسم : تحلل الشخصية Les Dissolutions de la Mémoire ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة مع مقدمة للأستاذ چانيه J. Janet عضو المجمع الفرنسى ؛ وأمراض الذاكرة Les Maladies de la Memoire ضمن موسوعة الفلسفة الجديدة Nouv. Encyclo. Philos. لنفس المؤلف ؛ وكتابان للأستاذ هرمن رورشاخ H. Rorschach فى التشخيص النفسى Psychodiagnostie أحدهما فى « مناهج ونتائج تجربة فى تشخيص الإدراك » ضمن المكتبة العلمية الدولية Bibl. Scien. Intern. والثانى لوحات تصويرية لهذا التشخيص . وكتاب صغير لجوستاف لوبون G. Le Bon فى : سيكولوچيا المجنونات Psychol. des Foules ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة Bibl. de Philos. Contemp. . وكتاب لدوسوى R. Desoille فى : الحلم كما يكشف عنه العلاج النفسى Le Rêve éveillé en Psychothérapie — وهو كما يصفه : علاج لوظيفة نظام اللاشعور الجمعى ، ظهر ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة أيضاً ، ومثله فى موضوعه تقريباً كتاب لليون ديپوى L. Dupuis عن بعض الأمراض الاجتماعية كالارتياب والحياء والحساسية والسيادة باسم : Les Aboulies Sociales ضمن مجموعة مكتبة الفلسفة المعاصرة .

وثمة كتابان آخران للأستاذ دشي G. Deshaies ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة.

أيضاً أحدهما كبير : سيكولوچية الانتحار Psychol. du Suicide ؛ والآخر صغير فى حساسية المريض L'Esthétique du Pathologique.

وكتاب للأستاذ إتيين دو جريف E. De Greef أستاذ القانون الجنائى فى جامعة لوڤان Louvain : مقدمة إلى العلم الجنائى Introd. à la Criminologie ؛ وآخر للأستاذ چورج جيزدورف G. Gusdorf : تجربة التضحية الإنسانية L'Expérience Humaine du Sacrifice ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة .

كما تجد من بين منشورات هذه الدار الجامعية طائفة كبيرة من المراجع فى علم النفس الصناعى والتوجيه المهنى ؛ منها كتاب للأستاذ ريمون روييه R. Ruyer الأستاذ بكلية الآداب بجامعة نانسى باسم : عناصر السيكوبيولوچيا Elements de Psycho-Biologie ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة ؛ وكتابان صغيران للأستاذ پواييه G. Poyer ضمن موسوعة Nouveau Traité de Psychol. أحدهما فى الوراثة السيكولوچية L'Hérédité Psychologique والآخر فى سيكولوجية الطبائع Psychol. des Caractères ؛ وكتابان أكبر قليلا ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة للأستاذ چيل پايو J. Payot الأول فى تربية الإرادة L'Education de la Volonté والثانى فى العمل العقلى والإرادة Le Travail Intellectuel et la Volonté ؛ وكتاب صغير للأستاذ مايرسون I. Meyerson بالاشتراك مع أربعة آخرين ؛ باسم العمل والفنون Le Travail et les Techniques إلى جانب الطبعة الجديدة لكتابيه الكبيرين فى الفلسفة : الهوية والحقيقة Identité et Réalité وسلوك الفكر le Cheminement de la Pensée وكلاهما ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة ؛ وكتاب ضمن هذه المكتبة أيضاً للأستاذ موريس ميرلو پونتى M. Merleau-Ponty فى : تركيب المزاج La Structure du Comportement ؛ وكتاب هام أيضاً للأستاذ رينيه لوسين R. le Senne الأستاذ فى السوربون وفى المعلمين العليا بسيڤر Sèvres : دراسة لعلم الطبائع Traité de Caractérologie ظهر ضمن مجموعة لوجوس Logos ؛ وكتاب للأستاذين لاهى J. M. Lahy وپاكو S. Pacaud فى دراسة خاصة لإحدى المهن : مهندسى وسائقى القاطرات Etude d'un métier : Méchaniciens et Chauffeurs de Locomotive وكتاب للدكتور دليى J. Delay سابق الذكر (فى أمراض الشخصية) باسم : فساد المزاج Les Dérèglements de l'Humeur ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة ، مع مقدمة للأستاذ روسى G. Roussy عضو المجمع الفرنسى ؛

وكتاب طريف ضمن هذه المجموعة أيضاً فى دراسة طابع الشخصية من الكتابة L'Ecriture et le Caractère للأستاذ كريپيوچامان Crépieux-Jamin ؛ وكتاب العلامة كلاپارد Ed. Claparède الصغير فى التوجيه البعيد L'Orientation Lointaine ضمن الـ Nouveau Traité de Psychol. ، ثم كتابان أحدهما ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة : مبادئ سيكولوچيا الميول Principes d'une Psychol. des Tendances. والآخر ضمن موسوعة الفلسفة الجديدة Nouv. Encycl. de Philos. : فى الطبع Le Caractère للأستاذ بيرلو A. Burloud ؛ وأخيراً كتاب للدكتور بوناردل R. Bonnardel الأستاذ بمعهد علم النفس بجامعة باريس ورئيس الدراسات العليا بها باسم : تكيف الإنسان بمهنته L'Adaptation de l'Homme à son Métier وهو دراسة تجمع بين علمى النفس الاجتماعى والصناعى مع مقدمة للأستاذ لاپيك L. Lapicque عضو المجمع الفرنسى ظهر ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة .

ومن كتابات كبار أساتذة علم النفس الحاليين فى فرنسا تجد عدداً كبيراً من المؤلفات التى تولت نشرها هذه الدار أيضاً ؛ منها للأستاذ هنرى بيرون H. Piéron الأستاذ فى الكوليج دى فرانس ومدير معهد علم النفس بجامعة باريس : علم النفس الحيوانى Psychologie Zoologique ضمن موسوعة Nouv. Traité de Psychol. ؛ وكتابه : علم النفس التفاضلى Psychol. Différentielle ؛ خصوصاً صحيفة : السنة السيكولوجية L'Année Psychologique التى تصدر هذه الدار مجموعاتها الجديدة ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة Biblio. de Philos. Contemp. ابتداء من سنة ١٩٤٠ (أى منذ السنة الحادية والأربعين لظهورها) .

ومما أصدرته هذه الدار أيضاً من الدوريات السيكولوجية الخالصة والتطبيقية (عدا كثير من المجلات الفلسفية والاجتماعية) : مجلة علم النفس السوى والمرضى Journal de Psychol. Normale et Pathologique التى تصدر أربع مرات فى السنة للمشتركين بإشراف الأستاذين جيوم ومايرسون ومجلة : الطفولة Enfance التى تصدر منها خمسة أعداد فى السنة تتناول مختلف موضوعات علم النفس والتربية والطب العقلى والعصبى والاجتماع بإشراف الأستاذ هنرى ڤالون H. Wallon ومجلة العمل الإنسانى Le Travail Humain التى تصدر عددين مرتين فى السنة بإشراف الأساتذة : بوناردل R.Bonnardel ولاهى J.M.Lahy ولوچييه H. Laugier ومجلة التحليل النفسى الفرنسية Revue Française de Psychanalyse التى تصدر أربع مرات

فى السنة ، والتى يتولى سكرتيرية تحريرها الدكتور ليوبا Dr. J. Leuba ، هذا إلى جانب : السنة الاجتماعية ، ومجلة الميتافيزيقا ، وعلم الجمال ، ودراسات فلسفية Etudes Philosophiques ، وديالكتيكا ، وصحيفة التاريخ والفلسفة الدينية ، ومجلة تاريخ الأديان وصحف البيولوجيا ، والجراحة ، والاقتصاد والسياسة . . . . إلخ .

وللأستاذ موريس برادين M. Pradines الأستاذ فى السوربون كتابه الكبير الهام : بيان فى علم النفس العام Traité de Psychol. Générale فى مجلدين كبيرين يتناول الأول المظاهر النفسية الأولية Psychisme Elementaire ويتناول الثانى : الموهبة الإنسانية Le Génie Humain من ناحيتى : آثارها Ses Oeuvres وأدواتها Ses Instruments وهى ضمن مجموعة لوجوس Logos التى تشمل أيضاً كتاب بيرون الكبير Traité de Psychol. . وثمة كتاب هام فى التقدم لسيكولوجيا موريس برادين ألفه الأستاذ چاك جراب J. Grappe باسم La Genèse Réciproque ظهر ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة Biblio. de Philos. Contemp..

وللأستاذ چورچ ديما G. Dumas الأستاذ الفخرى بالسوربون وعضو المجمع الفرنسى وأكاديمية الطب موسوعته الكبيرة فى علم النفس Nouveau Traité بمجلداتها الست التى يجرى الآن طبع سابعها : الأول مقدمة فى المنهج والأفكار الأولى Notions Préliminaires. Introduction. Méthodologie. والثانى فى أسس الحياة العقلية Fondements de la Vie Mentale ، والثالث فى الروابط الحسية الحركية ، Les Associations Sensitivo-Motrices ، والرابع الوظائف والقوانين العامة Les Fonctions et les Lois Générales ، والخامس فى الوظائف الجهازية للحياة العقلية Les Fonctions systématisées de la Vie Intellectuelle ، والسادس فى هذه الوظائف عينها للحياة الانفعالية والحياة الفاعلة Fonctions systématisées de la Vie Affective et de la Vie Active أما المجلد السابع الذى يجرى طبعه الآن فهو فى المركبات العقلية Les Synthèses Mentales . ومما نشرته هذه الدار من كتب العلامة ديما أيضاً الحياة الانفعالية la Vie Affective من وجهة النظر الفيزيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية ، ظهر ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة ، وكتابه : عالم الأرواح والآلهة من وجهة نظر الأمراض العقلية Le Surnaturel et les Dieux, d'après les Maladies Mentales الذى يتناول الأفكار الدينية المتسلطة والباثولوجية ؛ ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة أيضاً ، ثم كتابه الصغير :

سيكولوجيا وفيزيولوجيا الابتسام Le Sourire : Psychol. et Physiologie ضمن هذه المكتبة أيضاً .

أما العلامة بول جيوم P. Guillaume الأستاذ بكلية الآداب بجامعة باريس فقد نشرت له هذا الدار — أو أعادت نشر — ثلاثة من كتبه هى : تكون العادات La Formation des Habitudes (وكان قد نشره ألكان ١٩٣٦ فى نفس المكتبة التى أعيد نشره بها) بمكتبة علم نفس الطفل والتربية Biblio. de Psychol. de l'Enfant et de Pédago. طبعته الجديدة مزيدة ومنقحة وإن كانت شعبية (فى ١٦٣ صفحة) وكتابه : مختصر فى علم النفس Manuel de Psychologie نشرت هذه الدار طبعته الرابعة فى مجلد واحد مزيدة ومنقحة (١٩٤٦) ، وكتابه سيكولوجيا القردة العليا La Psychol. des Singes وهو المجلد الثالث من موسوعة ديما G. Dumas الكبيرة آنفة الذكر Nouv. Traité de Psychol. ظهرت طبعته سنة ١٩٤١ .

وبقية آثار جيوم قد تولت نشرها دور نشر أخرى غير المطابع الجامعية الفرنسية ودار فليكس ألكان قبل أن تستولى عليها المطابع الجامعية ، وأهمها : التقليد عند الطفل L'imitation chez l'Enfant الذى نشره ألكان (١٩٣٥) فى مجلد واحد ضمن مكتبة علم نفس الطفل والتربية المذكورة ؛ ثم كتابه الهام : سيكولوجيا الجشطلت Psychol. de la Forme الذى نشره فلامريون Flammarion بباريس (١٩٣٧) ثم أعاد نشره أخيراً فى طبعة حديثة ضمن مكتبة الفلسفة العلمية Biblic. de Philos. Scient. التى يشرف على إصدارها الأستاذ بول جولتييه Paul Gaultier ؛ أما كتابه : علم النفس الحيوانى La Psychol. Animale فقد نشره أرمان كولان Armand Colin بباريس (١٩٤١) ؛ وكتابه : مقدمة لعلم النفس Introd. à la Psychologie ظهرت طبعته الثالثة عند ڤران Vrin بباريس (١٩٤٦) ؛ وأخيراً : سيكولوجية الطفل La Psychol. de l'Enfant وهو المجلد السنوى الذى ينشره المعهد الدولى للتعاون الفلسفى Instit. Intern. de Collabor. Philos. عن سنة ١٩٤٠ فقد نشره هرمن Hermann .

وللأستاذ هنرى ڤالون H. Wallon الأستاذ فى الكوليج دى فرانس ومدير دراسات مدرسة الدراسات العليا بجامعة باريس كتاباه الهامان جداً : أحدهما الذى ظهر سنة ١٩٤٥ بنزعة تجريبية وعمق وأصالة ، وأعنى به : نشأة الفكر فى الطفل Les Origines de la Pensée chez l'Enfant فى مجلدين كبيرين : الأول

فى : الوسائل العقلية Les Moyens Intellectuels والثانى فى : الوظائف العقلية Les Tâches Intellectuelles والآخر عن : الشعور والحياة دون الشعورية La Conscience et la Vie Subconciente ظهر ضمن موسوعة ديما Nouv. Traité de Psychol. أما كتابه المشهور : من الفعل إلى الفكر De l'Acte à la Pensée الذى يعد بحثاً قيما جدا فى علم النفس المقارن ؛ فقد نشره فلاماريون بباريس (١٩٤٢) .

ومما نشرته هذه الدار أيضاً فى دراسة الذكاء بعد الحرب الأخيرة كتابان صغيران للأستاذ رنيه زازو R. Zazzo المحاضر فى معهد علم النفس بجامعة باريس ورئيس معمل مستشفى هنرى روسل ؛ الأول فى : مصير الذكاء Le Devenir de L'Intelligence ؛ والثانى فى : الذكاء ومتوسط السن Intelligence et Quotient d'Ages — وكلاهما دراسة مقارنة ممتعة — ظهرا ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة — هذا فضلا عن كتابه ، سيكولوجية أمريكا وعلماؤها Psychologues et Psychologies d'Amérique الذى ظهر ضمن موسوعة الفلسفة الجديدة Nouv. Encycl. Philoso وأخيرا كتاب بزوغ الذكاء L'Eveil de l'Intellig. الذى نشره ألكان ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة للدكتور يوسف مراد Dr Youssef Mourad (١٩٣٩) فى ٤٠٣ صفحة .

ويعد مانشرته هذه الدار أهم ماينشر بالفرنسية فى علم النفس بعد أن تولت إدارة كثير من دور النشر خصوصاً مكتبتى ألكان (فليكس) ولير و Ernest Leroux وتعهدت نشر كثير من آثار هذه الدور ومؤلفاتها بنفس مجموعاتها ومكتباتها والإضافة إليها ؛ حتى قيل لى إن هذه المؤسسة التى يشرف عليها كبار أساتذة الجامعة تظهر كل يوم كتابين ؛ وتتعهد نشر ٢٠ ألف كتاباً فى مختلف فروع العلم والأدب والفلسفة والفن .

وإليك بعد هذا ما طلعت به دُور النشر الأخرى بباريس من أحدث الكتب :

يعنى لاروس خصوصاً بالنشر فى النواحى اللغوية والفيلولوجية والمعاجم والأدب ومع هذا فقد اطلعت فى هذه المكتبة فى أغسطس الماضى على الكتب الآتية فى علم النفس مما نشر فى يوليو .

كتاب لهلين دويتش H. Deutsch باسم : سيكولوجية المرأة La Psychologie

des Femmes والذى ظهر منه الجزء الأول فى : الطفولة والمراهقة . ويشمل الكتاب كما هو عنوان المكتبة التى ظهر فيها (مكتبة التحليل النفسى وعلم النفس الإكلينيكى (Bibl. de Psychanal. et Psych. Clinique) طائفة كبيرة من تحليل نفسيات هذا الجنس فى مراحل المراهقة والطفولة على غرار ما فعل فرويد فى كتابه « سيكو باثولوجيا الحياة اليومية » ؛ وهو دراسة طريفة ممتعة وتحليل قيم مفيد يقع فى حوالى ٣٣٠ صفحة . وكتاب الأستاذ مارسيل ديشو M. Deschoux فى الشخصية بعنوان Essai sur la Personalité نشر ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة ، ويقع فى ٣٨٨ صفحة عدا المقدمة . وكتاب صغير للأستاذ چورج بارباران G. Barbarin عن الخوف باسم : La Peur, Maladie No.1 ، وكتاب للأستاذ بيير ماربلى P. Marbille عن التقليد فى المعرفة الإنسانية Imitation à la Connaissance de l'Homme ضمن مكتبة الفلسفة المعاصرة ، فى ٢٠٤ صفحات . . . هذه أهم الكتب التى ظهرت حديثاً فى علم النفس عدا عدة كتب فلسفية خالصة (عن برونشڤك وهيجل وأفلاطون . . . .) وأخرى منطقية وميتودولوجية خالصة لاتعنينا كثيراً .

أما فلامريون E. Flammrion فأهم ما ظهر عنده فى علم النفس حديثاً عدا كتابى ڤالون H. Wallon (de l'Acte à la Pensée) وجيوم P. Guillaume (la Psychologie de la Forme) : كتاب لألفرد بنيه A. Binet عن : الآراء الحديثة فى الطفولة Les Idées Modernes sur les Enfants ، وكتاب للأستاذ بيير جانيه P. Janet عن بشائر الذكاء Les Débuts de l'Intelligence وكتاب للأستاذ لوى لاپيك L. Lapicque عضو المجمع الفرنسى باسم : الآلة العصبية La Machine Nerveuse وآخر للأستاذ لوى لاڤيل L. Lavelle باسم : قوى الأنا Les Puissances du Moi وأخيراً كتاب للدكتور شوشار Dr. Paul Chauchard فى : النوم وحالات النوم Le Sommeil et les Etats de Sommeil هذا عدا نشرة البراجماتزم لجيمس ، وكتاب فيليب فرانك Ph. Frank فى العلية وحدودها وكتب بوانكاريه H. Poincaré الثلاثة فى مناهج العلوم . . .

ويحوى قسم الفلسفة من مجموعة أرمان كولان Armand Colin التى تصدرها مكتبة أرمان كولان بسان ميشيل بباريس عدداً من الكتب الصغيرة القيمة فى علم النفس لأئمة علمائه منها سيكولوجية الذكاء La Psychol. de L'Intelligence للعلامة پياچيه J. Piaget وهذه طبعته الثانية (١٩٤٩) فى ٢١٢ صفحة من القطع

الصغير؛ أما الأصل فكان قد نشره مكس ليكلير M. Leclerc (١٩٤٦) ؛ ومبادئ علم النفس التطبيقي Principes de Psychol. Appliquée للأستاذ هنرى فالون H. Wallon الطبعة الرابعة (١٩٤٦) في ٢٢٤ صفحة والأصل نشره ليكلير أيضاً (١٩٣٠) ؛ وكتاب علم النفس التجريبي Psychol. Expérimentale للعلامة بييرون H. Piéron (الطبعة السادسة) ؛ ومقدمة لعلم النفس الاجتماعي Introd. à la Psychol. Collective للدكتور بلوندل Dr. Ch. Blondel (الطبعة الرابعة) ؛ وعلم النفس الحيواني La Psychologie Animale لجيوم P. Guillaume (الطبعة الثانية) ؛ ثم تقدم الطفل السيكولوجي L'Evolution Psychologique de l'Enfant لفالون H. Wallon أيضاً (الطبعة الثانية) ؛ والغريزة والسلوك الحيواني L'Instinct et le Comportement Animal لإتيين رابو E. Rabaud في مجلدين : والوراثة L'Hérédité لنفس المؤلف (الطبعة الثالثة) والنوم Le Sommeil للدكتور ليرميت J. Lhermitte الأستاذ بكلية الطب بجامعة باريس .

وقد اطلعت بلندن في الصيف الماضي على الكتب الآتية التي أصدرها أخيراً روتلدج وكيجان پول في علم النفس : كتاب ضخم في التقديم لعلم السلوك الإنساني كما شاء مؤلفه الأمريكي تريجانت بورو T. Burrow أن يعلق على عنوانه : The Nature of Man . والمؤلف — كما يقال في إعلان مرفق بالكتاب — أحد تلاميذ فرويد ويونج الذين أدخلوا التحليل النفسي في أمريكا أول ما دخل ؛ وكتب فيه : الأساس الاجتماعي للشعور The Social Basis of Consciousness وبيولوجية الصراع الإنساني Biology of Human Conflict . . . وهذا الكتاب الكبير يشمل هذا كله ويدرس السلوك الإنساني من حيث هو علاقة بين أفراد لكل منهم تحليله النفسي الخاص ؛ وكتاب آخر يعرضه هذا الناشر في موضوع يقرب من هذا مع إحلال الدراسة الأخلاقية محل التحليل الطبي المرضي ، أي مع ميل إلى يونج أكثر واسمه : الإنسان لنفسه : بحث في سيكولوجية الأخلاق Man for Himself: An Enquiry into the Psychol. of Ethics للأستاذ إريش فروم Erich Fromm ثم كتاب صغير للأستاذة مارى ماكولى M. Macaulay مؤسسة معهد التربية المعروف في لندن باسم Iona Adult Education Centre الذى يتولى دراسة طبيعة الحياة الإنسانية والأبوة والبنوة والتربية عموماً دراسة عملية تطبيقية — واسم الكتاب : فهم أنفسنا Understanding Ourselves وهو صورة لعملها النشيط في هذا الميدان

تتناول فيه بعد عرض لقوانين الحياة والنمو مسائل الزواج والنسل والطفولة والشباب داعية إلى استخدام العيان والبصيرة التى تستند إلى الخبرة لا الذكاء دائماً — ومنادية بسلام وأخوة دائمة .

هذا ما نشرته هذه الدار فى علم النفس حتى صيف ١٩٤٩ ، أما قبل ذلك فأهم ما نشرته : الترجمة الإنجليزية لكثير من كتب بياچيه J. Piaget فى سيكولوجيا الطفل وقد أشرنا إليها بأسمائها مع أصول هذه الكتب الفرنسية . مضافاً إليها كتاب ليويس M.M. Lewis فى : كلام الطفل Infant Speach ، وكتاب همفرى G. Humphrey فى : طبيعة التعلم The Nature of Learning وكتاب يينش E.R. Jaensch فى : التصور الارتسامى وأهميته لنظرية التعلم Eidetic Imagery and its Importance for the Theory of Education والترجمة الإنجليزية لكتاب كفكة K. Koffka المشهور : نمو العقل The Growth of the Mind ترجمة أوجدن R.M. Odgen (الطبعة الرابعة) .

ومن بين ما نشرته هذه الدار من كتب علم النفس فى الشخصية :

كتاب ألپورت G.W. Allport : الشخصية : تفسير سيكولوجى: Personality: A psychological Interpretation (١٩٣٧) ؛ وكتاب جوردون R.G. Gordon فى الشخصية العصابية The Neurotic Personality ، وكتاب كرتشمر E. Kret-schmer فى : الطبيعة والطبع Physique and Character (الطبعة الثانية) وكتاب روباك A.A. Roback فى : سيكولوجية الطبع The Psychology of Character ؛ وكتاب آخر لروباك فى : مشاكل الشخصية Problems of Personality ؛ وأخيراً كتاب لمتشل T.W. Mitchell فى : مشاكل فى السيكوباثولوجيا Problems in Psychopathology .

أما الكتب الآتية فى الحياة العاطفية وتحليل أمراضها :

كتاب لهويتلى سميث W. Whately Smith فى : قياس الانفعال The Measurement of Emotion ؛ وكتاب للدكتور ثالبتزر S. Thalbitzer فى : الانفعال والخبل Emotion and Insanity مع مقدمة للأستاذ هرالد هيفدنج ؛ وكتاب الفيلسوف الفرنسى بولان F. Paulhan فى قوانين العاطفة الذى ترجمه أوجدن C.K. Ogden إلى الإنجليزية باسم : The Laws of Feeling: ؛ وكتاب لديلى كنج C. Daly King فى : سيكولوجيا الشعور The Psychol. of Consciousness ؛

ثم كتاب مارستون W.M. Marston ومارستون E.H. Marston وديلى كنج C. Daly King المشهور فى : علم النفس التكاملى Integrative Psychology وأخيراً كتاب للأستاذ لينيل لاڤاستين – M. Laignel Lavastine فى : المنهج التركيزى فى تشخيص المرضى بالعصاب The Concentric Method in the Diagnosis of Psychoneurotics . . . . هذا عدا ترجمة جودوين بينز H. Godwin Baynes الإنجليزية لكتابى يونج الكبيرين : النماذج السيكولوجية Psychological Types (الطبعة السادسة) ؛ وأقوال فى علم النفس التحليلى Contributions to Analytical Psychology وكتاب أدلر الكبير : تطبيق علم النفس الفردى ونظريته The Practice and Theory of Individual Psychology.

وفى علم النفس الحيوانى أصدرت هذه الدار الطبعة الثانية المنقحة لترجمة كتاب كيلر W. Kohler الإنجليزية (عقلية القردة) The Mentality of Apes وكتاب تسوكرمان S. Zuckermann : الحياة الاجتماعية للقردة والقردة العليا The Social Life of Monkeys and Apes وكتابا ألفردز F. Alverdes ؛ الحياة الاجتماعية فى عالم الحيوان Social Life in the Animal World وسيكولوجيا الحيوانات (فى علاقتها بسيكولوجيا الإنسان) The Psychol. of Animals وأخيراً كتاب هويلر W.M. Wheeler فى الحشرات : The Social Insects

وفى علم النفس العام أصدر كيجان بول الكتب الآتية :

ترجمة أوجدن C.K. Ogden لكتابى العلامة بييرون H. Piéron المذكورين من قبل : مبادىء علم النفس التجريبى Principles of Experim. Psychol. والفكر والمخ Thought and the Brain ؛ وكتاب تشارلز فكس Ch. Fox : العقل وجسمه The Mind and its Body ؛ وكتاب كمپيون G.G. Campion وإليوت اسميث Sir G. Elliot Smith : الأساس العصبى للتفكير Neural Basis of Thought ؛ وكتاب برونو پترمان B. Petermann : نظرية الجشطلت ومشكلة الصيغة The Gestalt Theory and the Problem of Configuration ؛ ثم كتاب أوجدن C.K. Ogden ورتشردز I.A. Richards : معنى المعنى The Meaning of Meaning (الطبعة السادسة) الذى يبحث فى أثر اللغة فى الفكر وفى العلم الرمزى عموماً .

ومن الكتب الأخرى فى هذا الباب من علم النفس : الديالكتيك Dialectic لمورتيمر أدلر M.J. Adler واضطرابات الكلام Speach Disorders لاستنشفيلد

S.M. Stinchfield ؛ وروح اللغة فى الحضارة The Spirit of Language in Civilisation لفوسلر K. Vossler ؛ وعملية الرمز وتكاملها فى الأطفال The Symbolic Process and its Integration in Children لماركى J.F. Markey ؛ وأخيراً : الاتصال Communication لكارل بريتون K. Britton ويبحث فى اللغة من حيث قدرتها على الأداء بحثاً فلسفياً .

هذا عدا كتب أخرى كثيرة ذات جانب سيكولوجى نشرتها هذه الدار فى الاجتماع والأديان والانتولوجيا والفلسفة والسياسة والاقتصاد ... ضمن المكتبة الدولية لعلم النفس والفلسفة والمنهج العلمى Intern. Libr. of Psychol. Philos. and Sc. Meth. وخصوصاً فى فيزيولوجيا الحواس البصر (العمى اللونى) والسمع (الموسيقى) .. الخ .

أما ألن وأنوين فقد نشر فى علم النفس الكتب الآتية :

كتابان للأستاذ تشارلز برج Ch. Berg فى التحليل والعلاج النفسيين أحدهما : علم النفس الإكلينيكى Clinical Psychology ويبحث خصوصاً فى الأمراض العصبية وعلاجها ، والآخر : تحليل عميق Deep Analysis وهو دراسة إكلينيكية أيضاً لحالة فردية على طريقة تحليل فرويد . وفى هذا الموضوع أيضاً نشر ساندور لوراند S. Lorand كتاباً كبيراً اشترك فى تأليفه ارنست چونز E. Jones وبريل A.A. Brill وجلوفر E. Glover وفتلز F. Wittels وكلاين M. Klein باسم : التحليل النفسى اليوم Psychoanalysis Today وهو دراسة لمشاكل الإنسان الحديثة تعرض عمل تسعة وعشرين من المحللين النفسيين والأطباء العقليين المحدثين (فى ٤٠٠ صفحة كبيرة)

كذلك نشرت هذه الدار فى علم النفس هذه الكتب التى تعرضها مكتبتها بشارع ميوزيم Museum St. بلندن : الطبعة الرابعة من كتاب طومسون G.H. Thomson . الغريزة والذكاء والطبع Instint, Intelligence and Character ؛ وكتاب صغير لماكنزى J.G. Mckenzi باسم : الاختلال العصبى والطبع Nervous Disorders and Character ؛ وكتاب لجون مارتن J. Martin : من الإخفاق إلى التوفيق From Failiure to Fulfilment والطبعة الثانية من كتاب للدكتور هارولد فنك Dr. H. Fink التخلص من التوتر العصبى Release from Nervous Tension ، ومن كتاب بيلز F.W. Bailes : يستطيع عقلك أن يشفيك Your Mind can Heal you ومن كتاب هارى بروكس Harry C. Brooks : شخصيتك من كتابتك Your

والطبعة السادسة من كتاب ألفرد أدلر ؛ Character from your Handwriting A.Adler المشهور : فهم الطبيعةالإنسانية Understanding Human Nature ؛ ثم الطبعة الثانية المنقحة لكتاب إدوارد جلوفر E. Glover : الحرب والسادية والسلام Wra, Sadism and Pacifism ؛ والطبعةالثالثة للكتاب الذى نشرهسيريل بيرت C. Burt كيف يعمل العقل How the Mind Works بالاشتراك مع : إرنست جونز E. Jones وعمانويل ميلر E. Miller ووليم مودى W. Moodie ؛ والطبعة السابعة لكتاب فرويد S. Freud : محاضرات مقدمة للتحليل النفسى Introductory Lectures on Psycho-Analysis ؛ والطبعة الثانية لكتاب آنا فرويد A. Freud : مقدمة التحليل النفسى للمدرسين Introd. to Psycho-anal. for Teachers. ؛ والطبعة الثالثة لكتاب بيكورث فارو E. Pickworth Farrow : طريقة عملية لتحليل النفس A Practical Method of Self-Analysis (مع مقدمة لفرويد) ؛ ثم كتاب إميل كوى E. Coué : ضبط النفس عن طريق الإيحاء الذاتى الواعى Self Mastery through Conscious Auto-suggestion ؛ وكتاب جان إيرنوالد J. Ehrenwald : التخاطر وعلم النفس الطبى Telepathy and Medical Psychol. ؛ وكتاب بازيل كنج B. King : هزيمة الخوف The Conquest of Fear ؛ وكتاب پيرلز F. S. Perls : الأنا والجوع والعدوان Ego, Hunger and Agression الذى يقول عنه صاحبه إنه مراجعة لنظرية فرويد ومنهجه ، وكذلك كتاب فنسنت J. Vincent فى داخل مستشفى الأمراض العقلية Inside the Asylum وأخيراً قاموس وارن C. H. Warren المعروف Dictionary of Psychology . . . عدا كتب كثيرة فى التربية والاجتماع والمشاكل الشخصية ، وكتب أخرى كثيرة فى علم النفس الخالص تحت الطبع تعلن عنها دار ألن وأنوين

وأما لونجمانز وجرين وشركاهما بلندن فقد اطلعت لديهم على الكتب الآتية : كتاب وليم جيمس W. James المشهور (الذى أشرنا إليه فى التعليق على جيمس : ص ٦٩) أحاديث إلى المعلمين فى علم النفس Talks to Teachers on Psychology طبعة حديثة (١٩٣٩) مع مقدمة لجون ديوى ووليم كلپاتريك W. Kilpatrick إلى جانب طبعات حديثة أخرى لسائر كتبه المشار إليها فى التعليق (ص٦٩) وكتاب كبير فى العقيدة والأخلاق باسم Essays on Faith and Morals ؛ والطبعة الثانية من كتاب اسپروت W.J.H. Sprott : علم النفس العام General

Psychology (١٩٤٨) ومن كتاب ودرف A.D. Woodruff فى سيكولوجيا التعلم The Psychol. of Learning (١٩٤٨) ؛ وثلاثة كتب جديدة لشيرمن M. Sherman : الصحة العقلية والتربية Mental Hygiene and Education ضمن مجموعة لونجمانز السيكولوجية Logm. Psychol. Series (١٩٣٤) وللمشكلات الأساسية فى السلوك Basic Problem of Behaviour (الطبعة الأولى ١٩٤١) ثم كتاب علم النفس للممرضات (والمربيات) Psychology for Nurses (الطبعة الأولى ١٩٤٧) مع رسوم توضيحية كثيرة ؛ ثم كتاب كاترين هيوود K. Heywood عن الطفل : تعلمه وحياته The Child: Learning and Living وهو دراسة عملية للمدرسين والآباء ظهر سنة ١٩٣٧ ؛ وكتاب صغير لهمنج J. Hemming وبولز J. Balls باسم : الطفل على حق The Child is Right موجه إلى الآباء والشبان ، ظهر سنة ١٩٤٧ ؛ ثم كتاب هاردنج M.E. Harding : طريق النساء جميعاً The Way of All Women الذى ظهر سنة ١٩٣٣ مع مقدمة ليونج ؛ والطبعة الثالثة من كتاب جاريت H.E. Garrett : إحصاءات فى علم النفس والتربية Statistics in Psychology and Education (١٩٤٧) مع مقدمة لمؤلفنا روبرت ودورث (ضمن مجموعة لونجمانز المذكورة) ؛ وكتاب ليليان دى ليسا L. De Lissa الحياة فى مدارس الحضانة Life n the Nursery School ؛ والترجمة الإنجليزية لكتاب رولاند دالبييز R. Dalbiez منهج التحليل النفسى ونظرية فرويد؛ باسم : Psycho-analytical Method and the Doctrine of Freud ترجمة لنــدسى T.F. Lindsay وتقديم اشتراوس E.B. Strauss الطبعة الأولى (١٩٤١) فى مجلدين كبيرين أولهما عرض للمذهب وثانيهما مناقشة له ، وثمنهما فى لندن أربعون شلناً ؛ وكتاب كورتى M.W. Curti : علم نفس الطفل Child Psychology الطبعة الأولى (١٩٣٠) ضمن مجموعة لونجمانز السيكولوجية ؛ عدا كتب أخرى فى التربية وتلاميذ المدارس لهوجز A.G. & E.H. Hughes وهيوم E.G. Hume وغيرهما .

أما أهم ما نشره مثيون Methuen بلندن فى علم النفس فهو :

جميع كتب وليم مكدوجل فى أحدث طبعاتها وأهمها : تخطيط علم النفس An Outline of Psychology (الطبعة الثانية عشرة) وتخطيط علم النفس المرضى An Outline of Abnormal Psychology (الطبعة الخامسة) ؛ وطاقات الإنسان The Energies of Man (الطبعة السابعة) ؛ والجسم والعقل Body and Mind

(الطبعة الثامنة) ؛ والمادية الحديثة والتطور الظاهر Modern Materialism and Emergent Evolution ؛ والطبع وتدبير الحياة Character and the Conduct of Life (الطبعة السابعة) ؛ ومقدمة إلى علم النفس الاجتماعى An Introduction to Social Psychology (الطبعة الثامنة والعشرون) ؛ وأخيراً كتابه : معضلة الحياة The Riddle of Life ، وكذلك كتب مؤلفنا ودورث الثلاثة المشهورة : علم النفس التجــريبى Experimental Psychology ؛ ومدارس علم النفس المعاصرة Contemporary Schools of Psychol. (الطبعة الرابعة) ؛ ثم علم النفس : دراسة الحياة العقلية Psychology: A Study of Mental Life (الطبعة السادسة عشرة) ؛ وكتابا مارى كولنس M. Collins وجيمس دريفر J. Drever : علم النفس التجريبى Experimental Psychology (الطبعة السابعة) ومرشد أول لمعمل علم النفس A first Laboratory Guide in Psychol. (الطبعة الثالثة) ؛ وكتاب هولنجورث H.L. Hollingworth علم النفس المرضى : أفكاره ونظرياته Abnormal Psychology: Its Concepts and Theories وكتاب صغير للأستاذ ويلد H.P. Weld الأستاذ بجامعة كورنل : علم النفس كعلم Psychology as Science ويبحث فى مشكلات هذا العلم ووجهات نظره ؛ وكتابا كارنجتون W. Carington عن التخاطر Telepathy وعن المادة والعقل والمعنى Matter, Mind and Meaning ؛ وكتاب ڤالنتين C W. Valentine الصغير : علم النفس والصحة العقلية Psychology and Mental Health ؛ وكذلك الطبعة الثالثة لكتابه الكبير فى التربية : سيكولوجية الطفولة المبكرة The Psychology of Early Childhood ؛ وكتابه الصغير فى : الطفل المشكل ومشكلة النظام The Difficult Child and the Problem of Discipline (الطبعة الثالثة أيضاً) ؛ ثم كتابه فى : اختبارات ذكاء الأطفال Intelligence Tests for Children.

وفى علم النفس التربوى تجد من بين منشورات دار مثيون كذلك : سيكولوجية التربية The Psychol. of Education لداڤيد كنيدى فريزر D.K. Frazer (الطبعة الخامسة) وكتاب : السنوات الخمس الأولى فى الحياة The first Five Years of Life الذى يعرض لدراسة الطفل قبل المدرسة للدكتور أرنولد چيسل A. Gesell بعيادة رعاية الطفل بييل Yale فى أمريكا ؛ وعلم نفس الطفل Child Psychology للأستاذ بروكس فاولر D. Brooks Fowler ؛ والطفل المراهق The Adolescent Child لوول

W.D. Wall ؛ والطبعة الثالثة لكتاب نانسى كاتى N. Catty : نظرية التربية وتطبيقها The Theory and Practice of Education والرابعة لورقة اختبار ذكاء تلاميذ المدارس المعروفة باسم A Measure of Intelligence for Use in Schools للعلامة اسپيرمن C.E. Spearman عدا كتب أخرى كثيرة فى التربية ، وخصوصاً مجموعة سوزان إيزاكس S. Isaacs المعروفة باسم Contributions to Modern Education التى تعرض فى كل ما ظهر منها من الكتب لدراسة مختلف نواحى الطفل فى المدرسة واللعب والفن . . . . الخ

٢ — فقرات مختارة وسؤال عن كل

— تتشنر E. B. Titchener : علم نفس للمبتدئين A Beginner's Psychology شركة مكملان (١٩١٨) ص ص ١ — ٣٦

بأى الوسائل يجب على علم النفس — لكى يكون علمياً — أن يختلف عن المعرفة العادية ؟

— پاڤلوف I. P. Pavlov : الأفعال المنعكسة الشرطية Conditioned Reflexes مطبعة جامعة أكسفورد (١٩٢٧) ص ص ١ — ٣٢ .

ما هى فكرة پاڤلوف عن المنعكس الشرطى وعن الطريقة التى يتكون بها ؟

— وطسون J. B. Watson : السلوكية Behaviorism نورتن وشركاه (١٩٣٠) ص ص ١ — ٤٧ .

هل برر وطسون موقفه فى استبعاد الأفكار القديمة فى علم النفس : الشعور ، الإحساس ، الإدراك ، الإرادة ... إلخ ؟

— ڤايس A. P. Weiss : أساس نظرى للسلوك الإنسانى A Theoritical Basis of Human Behavior آدمز وشركاه (١٩٢٥) ص ص ٣ — ٢٦ .

ما هى العلاقة التى يؤكدها ڤايس بين استجابة المنبه وما يسميه استمرار الحركة الكونية ؟ .

— لاشلى K. S. Lashley : آليات المخ والذكاء Brain Mechanisms and Intelligence مطبعة جامعة شيكاغو (١٩٢٩) ص ص ١٥٧ — ١٧٤ .

فى أى الاعتبارات تأخذ نظرية لاشلى اتجاهاً مضاداً لنظرية المنعكس ؟

— برتراند رسل B. Russel : الفلسفة Philosophy نورتن وشركاه (١٩٢٧)

ص ص ١٢٣ — ١٣٦ ، ١٦١ — ١٧٥ .

ما هى الصعوبة التى تكمن فى وجهة النظر السلوكية أن « الملاحظة الموضوعية » أو الخارجية هى قراءة أو وصف مستقيم تماماً للحقائق ؟

— أوجدن C.K.. Ogden : معنى علم النفس The Meaning of Psychology هارپر وبروس Harper & Bros (١٩٢٦) ص ص ٩٣ — ١٣١ .

كيف تختلف نظرية الاستبصار فى تعلم الحيوان عن نظرية المحاولة والخطأ ؟

— أوجدن C. K. Ogden : نفس المرجع ص ص ١٦١ — ٢٠٢ .

ما ينتهى إليه أوجدن فى الخصومة بين الاستبطان والسلوكية .

— كيلر W. Köhler : عقلية القردة العليا The Mentality of Apes هاركورت وبريس وشركاهما (١٩٢٥) ص ص ١ — ٢٥ ، ٢٣٥ — ٢٤٥ ، ٢٧٥ — ٢٧٧ .

ما هو « الاستبصار Insight » من وجهة النظر الجشطلتية ؟

— كفكه K. Koffka : نشأة العقل The Growth of the Mind هاركورت وبريس وشركاهما (١٩٢٥) ص ص ١٢٥ — ١٥٠ .

كيف يبدأ النشاط العقلى للطفل وكيف ينمو ؟ وكيف أنه مرتبط بنشاطه الحركى ؟

— ألبرت A. Alpert : حل المواقف المشكلة عند الأطفال قبل المدارس The Solving of Problem-Situations by Preschool Children نشرة كلية المعلمين بجامعة كولومبيا (١٩٢٨) ص ص ١ — ٢٧ ، ٣٦ — ٤٥ .

ما هى نماذج السلوك التى تؤخذ للدلالة على « الاستبصار » فى صغار الأطفال؟

— هويلر R. H. Wheeler : علم السيكولوچيا The Science of Psychol. كراول وشركاه T. Y. Crowell & Co. (١٩٢٩) ص ص ١٦ — ٢٥ ، ٧٥ — ٨٥ ، ٥٠٢ — ٥٠٣ .

كيف يدعى عالم النفس الجشطلتى أنه يتقدم بعلم النفس إلى مصاف العلم عموماً ، وأنه يفعل ذلك خيراً من أية مدرسة أخرى ؟

— هويلر R. H. Wheeler : نفس المرجع ص ص ١١ — ١٦ ، ١٣٧ — ١٥٥ ، ١٩٧ — ٢٠٠

أى نوع من الاستبطان يحدث ، وكيف تتصل نتائجه بعلم النفس الجشطلتى ؟

— هويلر R. H. Wheeler : نفس المرجع ص ص ٤٧٠ — ٥٠٠ .

نقد الجشطلت لفكرة أن السلوك يتركب من مجموع أفعال منعكسة .

— فرويد S. Freud : مقدمة عامة للتحليل النفسى General Introduction to Psychoanalysis بونى وليفريت (١٩٢٠) قسم ٣ .

كيف تصوغ الفرق بين فرويد وپاڤلوف من حيث تقاربهما المنهجى ؟ وما دور الخوف فى الحياة العقلية عند فرويد ؟

— أدلر A. Adler : التركيب العصابى The Neurotic Constitution موفات ويارد وشركاهما (١٩١٧) المقدمة وص‌ص ١ — ١٢٣ .

كيف تجد الاصطلاحات « إرادة القوة » و « إرادة الظهور » تطبيقاً لها فى مذهب أدلر ؟

— أدلر A. Adler : نفس المرجع ، المقدمة وص‌ص ١ — ١٢٣ ، علم النفس الفردى Individual Psychology هاركورت وبريس وشركاهما (١٩٢٤) ص ص ٢٣ — ٣١ ، ٣١٧ — ٣٢٦ .

ما الفرق بين فرويد وأدلر فى الدور الذى يعينه كلاهما للجنس ؟

— يونج C. G. Jung : سيكولوجيا اللاشعور The Psychology of the Unconscious موفات ويارد وشركاهما (١٩١٦) ص‌ص ٨ — ٤١ ، ١٣٩ — ١٥٦ .

ما وظيفة الفكر التلقائى (غير الموجه) عند يونج ؟

— مكدوجل W. McDougall : تخطيط علم النفس Outline of Psychology اسكربنر وأولاده (١٩٢٣) ص‌ص ١ — ٧٣ .

ما هى معايير مكدوجل للسلوك القصدى « الغرضى » ؟ ولماذا يريد مكدوجل أن يستبدل بالنظرية القائمة النظرية الهورمية ؟

— مكدوجل W. McDougall : تخطيط علم النفس المرضى Outline of Abnormal Psychol. اسكربنر وأولاده (١٩٢٦) ص‌ص ١ — ٢٩ .

كيف تؤدى أفكار التحليل النفسى إلى آراء مكدوجل ؟

— مكدوجل W. McDougall : نفس المرجع ؛ ص‌ص ٥١٨ — ٥٤٠

كيف يصف مكدوجل تكون الشخصية ؟

— ثيرستون L. L. Thurstone : طبيعة الذكاء The Nature of Intelligence هاركورت وبريس وشركاهما (١٩٢٤) ص‌ص ١ — ٥٦ .

ما اعتراض ثيرستون الرئيسى على صيغة استجابة المنبه ؟

— ريفرز W. H. R. Rivers : الغريزة واللاشعور Instinct and the Unconscious مطبعة جامعة كمبردج (١٩٢٢) الطبعة الثانية ص‌ص ٣٤ — ٧٠ .

بين كيف أن فكرة ريفرز فى الغريزة تجعله فى صفٍّ واحدة أو أخرى من المدارس .

— براون W. Brown : العقل والشخصية Mind and Personality مطبعة جامعة لندن (١٩٢٦) ص‌ص ١٧ — ٤٧ .

بين كيف أن اتجاه براون إلى المذهب الحيوى Vitalism يربطه بالمدارس .

دليل الأعلام

(ا)

ت = تعليقات ، و هـ = هامش

(ت)

(ث)

(ج)

(ل)

(و)

دليل الموضوعات

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل السادس

عنوان الكتاب فى الأصل
Contemporary Schools of Psychology
نشرة لأول مرة فى نيويورك ١٩٣١
The Ronald Press Company
وظهرت طبعته السابعة الأمريكية عند
نفس الناشر الأمريكى بنيويورك ١٩٤٤ والثامنة
الإنجليزية عند شركة مثيون Methuen & Co. بلندن ١٩٤٦

الأعمال العلمية في العلوم السلوكية
للدكتور كمال دسوقي

مؤلفات :

١ - علم النفس العقابي - أصوله وتطبيقاته - دار المعارف بمصر ، ١٩٦١ .
٢ - سيكولوجية إدارة الأعمال - مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٠ .
٣ - سيكولوجية الإدارة العامة - الأنجلو ، القاهرة ، ١٩٦١ .
٤ - اختيار الأفراد - الأنجلو المصرية ، ١٩٦٢ .
٥ - دينامية الجماعة في الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي ، الجزء الأول ، الأنجلو ، ١٩٦٩ .
٦ - الاجتماع ودراسة المجتمع ، الأنجلو ، ١٩٧١ .
٧ - علم النفس ودراسة التوافق، النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٣ .
٨ - الطب العقلي والنفسي : الكتاب الأول - علم الأمراض والأعراض ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٤ .
٩ - دراسات في المجتمع السوداني - بحوث انثروبولوجية واجتماعية وإدارية - دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٧٣ .
١٠- التعليم والتعلُّم - الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٦ .
١١- النمو التربوي للطفل والمراهق - النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٩ .

ترجمات :

١ - مدارس علم النفس المعاصرة (ودورث) - المعارف بمصر ، ١٩٤٨ .
٢ - علم النفس الاداري (ليفيت) ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
٣ - وظائف الرؤساء (بارنارد) ، الفكر العربي ، ١٩٦٥ .

إشراف :

مكتبة الثورة الادارية التي تصدرها دار الفكر العربي بالقاهرة ، ظهر منها :

١ ـ دراسة الادارة العامة ـ تأليف والدو ، وترجمة الشريف عبود ، ١٩٦٣ .

٢ ـ عملية تدريب الرؤساء ، كنتور ، علي حامد بكر ، ١٩٦٤ .

٣ ـ علم النفس الاداري ، ليفيت ، كمال دسوقي ، ١٩٦٤ .

٤ ـ عناصر الادارة ، أورفيك ، علي حامد بكر ، ١٩٦٥ .

٥ ـ المشاكل الانسانية للمدنية الصناعية ، التون مايو ، مبارك إدريس ، ١٩٦٥ .

٦ ـ وظائف الرؤساء ، تشستر بارنارد ، كمال دسوقي ، ١٩٦٥ .

٧ ـ إدارة المشاريع التجارية ، برانستون ، فاروق غرايه ، ١٩٦٦ .

٨ ـ أعمال السكرتارية ، هاريسون ، نبيه حمودة ، ١٩٦٦ .

٩ ـ اقتصاديات التنظيم الصناعي ، بيتشام ووليامز ، نازي سليم ، ١٩٦٩ .

١٠ـ إدارة الفنادق ، ويلر ، علي حامد بكر ، ١٩٧١ .

١١ـ تمويل المشروعات ، بيش ، محمد توفيق ماضي ١٩٧٢ .

سلسلة التنمية والافراد التي تصدرها مكتبة الانجلو المصرية :

مكتبة التنمية والأفراد ـ الانجلو المصرية ـ القاهرة .

١ ـ التدريب المهني العاجل للكبار ، مارتن ، شوقي جلال ١٩٦٩ .

00630